بلوتارك (فلوطرخوس)

تاريخ
أباطرة و فلاسفة الإغريق



المجلد الثاني

ترجمة : جرجيس فتح الله

تاريخ
أباطرة وفلاسفة الإغريق

تاريخ
أباطرة وفلاسفة الإغريق

پلوتارك «فلوطرخوس»

ترجمة

جرجيس فتح الله

المجلد الثاني

الدار العربية للموسوعات

الطبعة الأولى

٢٠١٠م - ١٤٣٠هـ

الدار العربية للموسوعات

الحازمية - مفرق جسر الباشا - سنتر عكاوي - ط1 - بيروت - لبنان
ص.ب: 511 الحازمية - هاتف: 00961 5 952594 - فاكس: 00961 5 459982
هاتف نقال: 00961 3 388363 - 00961 3 525066 - بيروت - لبنان
الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

مؤسسها ومديرها العام: خالد العاني



468 ـ 540 ق.م



كان [اريستيدس] ابن [ليسيماخوس]، من قبيلة [أنطيوخيس Antiochis] ومدينة [آلوبيكي Alopece]. وقد أختلفت الأخبار في موضوع ثرائه فقال بعضهم أنه قضى حياته في فقرٍ مرقع، وترك ابنتين ابقاهما فقرهما عازبتين مدةً طويلة[1]. ولكن [ديمتريوس] الفاليري، يخالف غالبية المؤرخين فيقول في كتابه [سقراط Socrates] انه يعرف حقلاً في [فاليروم] مُسجّلاً باسم [اريستيدس]. وهو مدفون فيه. وكدليلٍ على ثرائه يقدّم أولاً: توليه منصب «أرخون ايبونيموس Archon Eponymus»[2] الذي ناله باقتراع «حَبات الفاصولياء»، وهو وقف على أعلى الأُسر الغنيّة التي تُسمى [پنتاكوزيوميديمني Pentaco-siomedimni]، ويعرض ثانياً نفيه دون محاكمة الذي لم تجر العادة بفرضه على المواطنين الفقراء بل على أولئك الذين ينحدرون من كبريات البيوت، فتعرضهم مقاماتهم العالية الى الحسد والكره، ويقدّم ثالثاً وأخيراً، ما تركه في معبد [باخوس] من محامل أواني مثلثة الأرجل تقدمةً لفوزه في اخراج تمثيلية درامية. ما زالت موجودة الى يومنا هذا، وقد نقش عليها العبارة التالية «قبيلة أنطيوخيس هي الفائزة. اريستيدس تكفلَ بالنفقات. التمثيلية التي مثلت هي [لأرخيستراتوس Archestratus]». ومع ما يبدو في منطق هذه الدلائل من قوةٍ فانها أقلها أهميّة.

فالدنيا كلها كانت تدري مثلاً أن [اپامنداس] درّس وعاش حياته وهو معدم لايملك شروى

---

(١) ومع هذا فبالنظر الى قانون صولون لم يكن يترتب على العروس ان تأخذ الى بيت الزوجية من جهاز غير ثلاثة اثواب. مع أثاث منزلية قليلة جداً ذات قيمة زهيدة [انظر سيرة صولون]. يذكر پاوتارخ هذا لا احتراماً منه للثروة وانما لأنّ الطبقة التي ينتسب اليها المواطن تحدد بحسب ثرائه وما يملكه من مال حسب ما تمليه قوانين صولون.

(٢) يقوم حساب تقويم الاثينيين بحكم الأرضنة جـ. ارخون) كما يحسبه الرومان بحكم قناصلهم. ولهذا الغرض يختار واحد من الأرضنة التسعة بالقرعة وهو من أغناهم ويطلق عليه اسم (ايپونيمُن) فيدون اسمه في السجلات العامة. فمثلاً قام ديمتريوس الفاليري بتعيين (كساندر) ارخونا على أثينا بعد سنوات قليلة من وفاة الاسكندر الكبير. وقد شرف لحكمه العادل خلال عشر سنوات باقامة ثلاثمائة تمثال له [پليني التاريخ الطبيعي ٦:٣٤]. و[فارو باقتباس نونيوس ١٢] إلاّ أن الاثينيين حكموا عليه بالموت بالأخير. وكان قد هرب الى مصر. ثم انهم حطموا جميع تماثيله.

نقير. وأن أفلاطون الفيلسوف الذي أحيا الحفلات الفخمة، كحفلة الموسيقين النافخين بالناي، وحفلة غناء الديثيرامب Dithyramb[*] وهو فقير. وأن [ديون] السيراقوزي هو الذي تكفل بدفع نفقات حفلات الأخير منهما. و[بيلوبيداس] هو الذي أهتم بمعيشة أبامنداس. فأخيار الناس لا يسمحون لأنفسهم بأخذ هدايا من أصدقائهم في أية عداوة متأصلة لا يمكن رأبها. في حين يرون في من يقبلها ليكتنزها بدوافع بخلٍ وحرص، وضيعاً مسخطاً هؤلاء الأخيار لا يترددون قطّ في مكافأة حب الرفعة والتسامي الخالصين.

ويوضح [پانيتيوس Panætius][٣] بأن [ديمتريوس] كان مخدوعاً في هوية صاحب الاسم المحفور على مَحْمَل الآنية. فمن الفترة التي ابتدأت بحروب الفرس وختمت بنهاية حرب البيلوبونيسوس، وردنا شخصان باسم (اريستيدس) كانا قد انفقا على اخراج تمثيليات وفازا بالجائزة، ليس بينهما ابن لليسيماخوس، بل كان والد احدهما يدعى [كزينوفيلوس Xeno-philus]، أما الثاني فقد عاش في وقت متأخر جداً عن عصر اريستيدس صاحب السيرج، كما يدل عليه شكل الكتابة التي لم يبدأ استعمالها الا منذ عصر [اقليدس Euclides][٤]، ووجود اسم المؤلف [ارخيستراتوس] هو بحدّ ذاته برهان آخر، اذ لم يذكره كاتب قط في اثناء حروب الفرس. بينما أورد ذكره عدة كتاب في زمن حرب البيلوبونيوس، قائلين انه شاعر درامي. ان حجج [انيتيوس] تستدعي تاملاً فيه كثير من التدقيق.

أمّا موضوع النفي بدون محاكمة، فكلّ انسان كان معرضاً له اذا ارتفع به صيته أو نسبه أو بلاغته الى ما فوق المستوى الاعتياديّ. حتى انه تناول [دامون] معلّم [پيركلس] لأن مداركه العقلية بدت تفوق المدارك العاديّة. وأكثر من هذا ما يذكره [ايدومينيوس Idomenus] من أن [اريستيدس] لم يُنصب [ارخوناً] على طريقة الاقتراع بحبّة الفاصولياء، بل بالانتخاب الحرّ الشعبي. واذا كان قد أرتقى المنصب بعد معركة [پلاطيا Plataea] كما ذكر [ديمتريوس] نفسه[٥]، فإن شهرته العظيمة وانتصاره في الحرب، هما اللذان زكّياه لتسنّم

(*) Dithyramb: نوع من الغناء الاغريقي يؤديه جوق ويمتاز بالحانه الصاخبة [م. ت].

(٣) من رودس. معلم رواقي المذهب شهير جداً. ومن تلاميذه [سكيپيو] و[ليليوس]. وقد صحب الأول الى مصر. على أنه لم يكن من أولئك الرواقيين الذين أخذوا بالمنطق الشائك والمتعصب الذي يميز تلك المدرسة. وكثيراً ما كان يستشهد بافلاطون وارسطو وكزينوقراطس وثيوفراستوس وبيكيارخوس وغيرهم من أساطين الرواقيين.

(٤) اقليدس المقصود هنا، هو حواري من ميغارا كان واحداً من تلامذة سقراط وقد نزل افلاطون ضيفاً في داره عند وفاة الفيلسوف بالسّم وكان له من العمر ثلاثون عاماً. سبق سميّه المهندس الاسكندري المشهور بتسعين عاماً.

(٥) يخطيء ديمتريوس في هذا، لأن اريستيدس لم ينصب أرخوناً بعد معركة (پلاتيا) التي وقعت في السنة =

منصب اشغله آخرون لثرائهم العريض. على أن [ديمتريوس] كان متلهفاً بلا جدال، الى جبّ صفة الفقر لا عن [اريستيدس] وحده، بل عن [سقراط] أيضاً، كما كان حريصاً على نفي صفة الشرّ عنهما، ويخبرنا عن ثانيهما، أنه كان يملك داراً خاصةً، فضلاً عن سبعين [مينا][٦] وضعها بالربا شركةً مع [كريتو Crito].

كان [اريستيدس] صديقاً ونصيراً [لكلستينس Clisthenes] وهو ذاك الذي تولّى شؤون الحكم بعد طرد الطغاة[٧]، وباحتذائه وأعجابه بليكورغوس اللقيديموني أكثر من اي سياسيّ آخر، انحاز الى المبادئ الارستوقراطية في الحكم. وكان [تيمستوكلس] ابن [نيوكلس] خصمه منحازاً الى عامة الشعب. ويقول بعضهم، إنهما نشأ وربيا معاً منذ نعومة أظفارهما، وكانا على طرفي نقيض دوماً في كل عملٍ لهما أو قول. سواء في مواطن الهزل أو في مواطن الجدّ. وفي أوّل منافسةٌ لهما سرعان ما برهن كل واحد منهما على اتجاهات طباعه الخاصة نواجدهما كان متخفراً مغامراً ماكراً متحمساً لكل شيء سريع الاقتبال له، أما الآخر فكان رزيناً، وقور الطبع، موطن النفس على السيّر بعدلٍ، غير متسامح في سوء أدب وخداع أو تدليس حتى في لهوه ولعبه. ويقول [أرسطون الخيُوسي] ان أوّل منشأ للعداوة التي بلغت الغاية، هي قضية حُبّ. اذ تنافسا على محبّة [ستسيلاووس] السيوسيّ الجميل، فخرق جموح عواطفهما كلّ الحدود ولم يلقيا بالعداوة جانباً عندما آفلت شمس ذلك الجمال الذي سببها بل انتقلت بها الى ميدان السياسة والشؤون العامة، حتى لكأن عاطفة الحب تلك، لم تكن إلاّ حافزاً وتمريناً. وعلى هذا انضّم [ثيميستوكلس] الى أحدى الجمعيات الشعبية، فزودته بقوة لا يستهان بها. ولما عتب عليه أحدهم بقوله انه لو ظلّ على الحياد، لرقي الى منصب الحاكم. ردّ عليه قائلاً:

- بودّي أن لا أجلس على منصّة تلك المحكمة التي تأبى على أصدقائي من الشعب حقاً يزيد على ما تمنحه غريب عن الوطن.

إلا أن [اريستيدس] سار وحيداً على الدرب الذي اختطه لنفسه -إن جاز لنا القول- فقد

= الثانية من الالمبياد الخامس والسبعين وقد وجد اسم اريستيدس في قائمة اراخنة السنة الرابعة من الالمبياد الرابع والسبعين اي معركة ماراثون بعامٍ واحدٍ. كما وجد في قائمة السنة الثانية من عين الالمبياد اي قبل معركة بلاتيا باربع سنوات.

(٦) خلا ان سقراط في دفاعه عن نفسه امام قضاته صرح بانه نظراً لفقرة لا يمكنهم تغريمه أكثر من (مينا) واحدة.

(٧) هؤلاء هم آل [بسستراتيندي] الذين طردوا في السنة الثالثة من الالمبياد الثاني والسبعين. وقد حمل (كلستينس) حفيد الطاغية (سيكيون) الاسم نفسه.

كان يكره في المقام الأول مسايرة شركاءه في أعمال السوء، أو أن يسبب لهم إحراجاً بامتناعه عن تحقيق رغباتهم وتلبية مطالبهم. وأراد في المقام الثاني - ان يلتزم جانب الحذر بعد ملاحظته أن كثيراً من الناس جرّأتهم مناصرة اصدقائهم لهم، على الاعتداء والشرّ. ووجد الاستقامة في العمل والأمانة في القول هما الضمان الأمثل الاوحد للمواطن الصالح.

وعلى ايّة حال اتخذ تيمستوكلس عدة خطوات خطرة ضدّ [اريستيدس] وعارضة ووقف عقبةً في سبيل كل نشاط يبديه، فأضطر هذا الى مقابلته بالمثل دفاعاً عن نفسه من جهة، وحَداً من نفوذ خصمه المطردّ الزيادة بمساندة الشعب له من جهة أخرى. ورأى الأفضل له أن يتغاضى عن بعض الفوائد المادية العامة للخصم، لكيلا يكون بنزوله عنها بالقوة سبباً في تغلبه ووصوله الى السلطة العليا في كل الشؤون. وبكلمة أدق قام يوماً يعارض ثميستوكليس في اجراءات مفيدة اقترحها هذا، ففاز عليه. ولم يتمالك نفسه من القول معقباً على ذلك وهو يغادر الجمعية:

- لن تعرف آثينا سلاماً الاّ اذا ارسلتنا أنا وتيمستوكلس الى البارائوم Barathum(*).

وفي مناسبة أخرى كان يدافع عن وجهة نظره في اقتراح قُدم للجمعية العامة، وكانت اراؤه تنال مساندة تدريجية رغم المعارضة الشديدة وثورة النفوس عليها، ولم يدرك فساد رأيه وخطله الاّ في اللحظة التي هَمّ رئيس الجمعية بوضع الاقتراح في التصويت فبادر الى اسقاط رأيه وسحب معارضته. وكثيراً ما كان يدفع أشخاصاً آخرين لعرض لوائحه القانونية، حتى لا ينبرى [ثميستوكلس] الى معارضتها مدفوعاً بروح التحزب والتحامل ضده، كُلّ ذلك في سبيل المصلحة العامة.

وكان جَلَده في تحمّل كل التقلبّات السياسية، يثير أعمق الاعجاب. فلا التكريم يصيبه بالزهو، ولا سوء الحظّ يفقده هدوءه واتزانه. وكان يرى ان الواجب يقضي عليه بوقف نفسه على خدمة بلاده مترفعاً عن الغنم الماديّ، مستنكفاً عن الشهرة والمجد نفسه. وأتفق يوماً أن القيت ابياتٌ لاسخيلوس في المرسح تتعلق [بأمفياروس Amphiaraus]:

«اذ ليس لأنه يبدو عادلاً، بل لأنه يهدف الى العدل فعلاً، ومن اعماق تربته الدفينة ينمو حصاد الحكمة، والرأي الحصيف.

فشخصت انظار كل المتفرجين الى [اريستيدس] كأن هذه الفضيلة قد أختصّ بها هو وحده.

وكان بطلاً من أبطال العدالة لا يلين عزمه، وكانت وقفته ضدّ مشاعر الصداقة والمحاباة

(*) حفرة عميقة يقذف اليها المحكوم عليهم بالموت. أنظر (سبوبداس وهاربوقراص).

بمستوى وقفته ضدّ الغدر، والضغينة فقد روي عنه أنه كان يترافع قضائياً في تهمةٍ ألصقت بشخصٍ كان من اعدائه. ورفض الحكام بعد سماع أقوال الادعاء، أن يستمعوا الى دفع المهّم، وباشر فوراً في اصدار القرار بحقّه. فهبّ [اريستيدس] من مجلسه مسرعاً وشاركه في الالتماس بافساح مجال الدفاع عن نفسه، مستفيداً من القانون. وفي مناسبة أخرى كان يحكم بين المواطنين متخاصمين، فقال احدهما لاريستيدس: إن خصمه عدوّه وقد سبب له أذى كثيراً، فردّ عليه اريستيدس:

- الأحرى بك يا صاح أن تحدثني عما سبب لك من أذى، فالقضية التي أحكم بها هي قضيتك، وليست قضيتي.

وأنتخب امين عائدات الخزانة العامة. فأمكنه أن يثبت أن المديرين السابقين والمديرين المعاصرين قد أمتدت ايديهم الى اموالها، ولاسيما [ثيمستوكلس] -

«المعروف جيداً بأنه رجلٌ كُفء. إلاّ أن أنامله كانت حُرّة جداً!»

ولذلك حرض [تيمستوكلس] بعض الناس على [اريستيدس] واتهموه عندما سَلّم حساباته، وتسببوا في ادانته بجريمة سرقة أموال الشعب كما ذكر ايدومينيوس لكن كبار القوم وافاضلهم[٨] أستنكروا الأمر جداً فلم يُكتف بالغاء الغرامة التي فرضت عليه، بل عادوا الى اسناد الوظيفة عينها اليه. فتظاهر بندمه على تصرفاته السابقة، وزاول عمله بكثير من الإهمال والتراخي، فآض مقبولاً من أولئك الذين دأبوا على نهب الخزانة، لاغضائه عنهم، وأعفائهم عن تقديم حساب دقيق. فبدأ أولئك الذين اتخمنهم السرقة من الاموال العامة بمدح اريستيدس وحمده. وتوجهوا الى الشعب يحرضونه على انتخابه أمين الخزانة العامة ثانيةً، وعندما بلغ الأمر حَدّ الاقتراع. قام اريستيدس يؤنب الاثنين قائلاً:

- عندما انجزت اعمال وظيفتي باستقامة واخلاصٍ، كوفئت بالإهانة والتجريح، أما الآن فلأني تركت للصوص الشعب الحبل على الغارب، وسمحت لهم بمزاولة عملهم الدنيء، أعتبر وطنياً مثالياً وموضع مدحٍ وأجلال. اني الآن أشدّ شعوراً بالخزي والعار مني عندما أدِنتُ في الماضي. وأنا أرثي لحالكم الذي ترون فيه الإمتنان من رجال السوء أجدر بالمدح من المحافظة على الأموال العامة.

قال هذا وبدأ يفضح السرقات المرتكبة فكم افواه أولئك الذين أشادوا به وناصروه، إلاّ انه كسب ثناء صادقاً حقيقياً من أفاضل الناس.

---

(٨) تدخل مجلس الاريوباغوس من أجله.

أرسل [داريوس] القائد الفارسي [داتس Datis] بحجّة معاقبة الآثينيين لاضرامهم النار في [ساردیس][٩]، في حين كانت نيته الحقيقية إخضاع كلّ بلاد الاغريق لسلطانه، فنزل في [ماراثون] وتوغل في البلاد وعاث ما طاب له، وكان [مليتاديس] ابرز اسم بين القادة العشرة الذين عينهم الآثينيون لادارة الحرب، إلاّ أن المكانة الثانية كان يحتلّها [اريستيدس] سمعةً ونفوذاً. وعندما ثنّى على اقتراح [مليتاديس] بدخول المعركة رجحت الكفة[١٠]. وكان كل قائد يتولى القيادة العامة يوماً واحداً يليه الأخرفي اليوم التالي وهكذا. ولما جاء دور اريستيدس سلّم القيادة لمليتاديس، مثبتاً لزملائه القادة أنه ليس مما يخلّ بشرف المرء أن يطيع ويتبع خطى عقلاء الرجال وأكفائهم، بل هو النُبل وحسن الادراك نفسه، وبهذا فلّ من غراب المنافسة، ووصل بهم الى قبول الرأي الواحد الذي هو خير الآراء، ومثبتاً [مليتاديس] في مركز القيادة غير المجزّأة، أو المعرضة للانتقاص، فقد أخذ كل منهم ينزل عن يومه في القيادة [لمليتاديس]، ويتلقى الأوامر منه فحسب[١١].

وفي أثناء الحرب كان الضغط على أشدّه في الجبهة التي يحتلها القسم الرئيس من قوات الآثينيين، وظلّ البرابرة زمناً يضيقون الخناق على قبيلتي [ليونتيس وانطيوخيس] منها بصورة خاصة. وقاتل [تيمستوكلس واريستيدس] هناك جنباً لجنب ببسالة، اذ كان أولهما ليونتياً، وثانيهما انطيوخياً. وبعد أن الحقا الهزيمة بالبرابرة ودفعا بهم الى سفنهم. أدركوا العدوّ لن يتجه الى الجزر، وأن قوة الريح وموج البحر يدفعانه نحو [آتيكا] فلخوفهم من استيلائهم عليها وهي مجردة من اسباب الدفاع، بادرا اليها مسرعين بقوات تسع من القبائل وبلغوها في اليوم نفسه[١٢]. وترك [اريستيدس] مع قبيلته في [ماراثون] لحراسة الاسلاب والأسرى ولم يخيبّ رأيهم فيه. فقد ابى على نفسه أية رغبة في امتلاك شيء من أكداس الذهب والفضة وكل انواع الحلل والأواني النفيسة التي غنمت، وغير ذلك مما لا يمكن عدّه في داخل الخيام، ولم يدع أحداً يقربها. اللّهم ما خرج دون علم منه كما فعل [كاللّيّاس Callias]

(٩) قبل تسعة اعوام أو عشرة. وقد كان وصوله في العام ٤٩١ ق.م.

(١٠) هيرودوتس [١٠٩:٦] كان القادة على خلاف شديد في الرّأي. بعضهم يحبذ القتال، وبعضهم لا يرى ذلك. ولما وضح هذا المشكل لـ(ملتيادس) توجه الى كاليماخوس الافيدين وهو بمنصب پوليمارخ وسلطة مساوية لسلطة القادة الآخرين وأظهر تحبيذه للدخول في المعركة فوراً. لعل [اريستيدس] ساعد أيضاً كاليماخوس المتردد لاتخاذ قراره هذا.

(١١) ومع هذا لم يدخل المعركة الى ان حان يومه الرسمي لتولي القيادة العامة. فعل ذلك كي لا تقدح شراره حسدٍ خفية في نفس اي جنرال ويتعمدون الكسل والتراخي في تاديه واجباتهم.

(١٢) بين ماراثون واثينا حوالي اربعين ميلاً وتلك مسافة تسير تكاد لاتصدق لجنود خاضوا قبل قليل معركة طاحنة كهذه المعركة.

حامل المشعل[١٣]، إذ يبدو أن أحد البرابرة القى بنفسه على قدميّ هذا الرجل متوهماً انه ملك، من شعره الطويل وعصابة رأسه[١٤]، فأقامه فأخذه هذا بيده وأراه مقداراً كبيراً من الذهب ملقى في بئر. إلاّ ان كاللياس وهو من أشدّ الرجال غلظة وقسوة أخذ الكنز وقتل الرجل لئلا يبلغ عنه. ولهذا منح الشعراء الهزليون أسرته لقب [لاكّوبلوتي Laccopluti] أو المُغتنين من البئر مشيرين الى الموضع الذي وجد [كاللياس] الذهب فيه.

بعد هذا مباشرةً، عُيِّنَ [اريستيدس] أرخوناً وإن قال ديمتريوس الفاليري أنه تولاها قبيل وفاته، على اثر معركة [بلاطيا]. على أننا لانجد ولا اسماً واحداً لشخص يدعى [اريستيدس] من بين اسماء عديدة جداً وردت في سجلّ خلفاء [كزانثيپيدس Xanthip-pides]وهو الأرخون الذي حدثت في غضون سنة توليه هزيمةُ [ماردونيوس Mardonius] في معركة [بلاطيا]. في حين نجد اسم [اريستيدس] مدوّنا مباشرة بعد اسم [فينيپوس Phænippus]وهو الأرخون الذي حقق الآثينيون في غضون فترة حكمه - انتصارهم في ماراثون.

وكان عدله أكثر ما يحبّ عامة الشعب من سجاياه؛ لطبيعة العموميّة والاستمرار فيه، لذلك فاز - رغم فقرة المدقع وخصاصة منبته، بلقب «العادل» وهو أعظم ما يلقب به الملوك والآلهة إن الملوك والطغاة على كل حال، لا يستهويهم نشدان هذه الصفة قط. وانما يسرّهم أن يلقبوا بمحاصري المدن Poliorceti والفاتحين Nicanor وذوي الصواعق Cerouni بل احب أحدهم ان يشار اليهم بالنسور والصقور، ملتمسين لأنفسهم كما يبدو الشهرة المتأتية من السلطة وأعمال العنف لا النابعة من الفضائل والخصال الحميدة[١٥]. مع أن الروح الآلهية التي يريدون أن يقارنوا بها أنفسهم ويتشبهوا بها، تمتاز كما هو مفروض باشياء ثلاثة هي: الخلود، والسلطان، والفضيلة وأشرف الميّزات الثلاث وأقدسها هي الأخيرة. لأن العناصر والفضاء تتميّز بالوجود الأبدي، والزلازل، والصواعق، والعواصف، والطوفانات فيها سلطان عظيم وقوة، أمّا في العدالة والمساواة فلا شيء يُسهم إلاّ بوساطة العقل والمعرفة التي تنبعث من كلّ ما هو قُدسيّ. وعلى هذا الأساس فهنالك أنواع ثلاثة من المشاعر يشعر بها الناس عادة تجاه

(١٣) حاملوا المشاعل، أشخاص خُصّوا بخدمة الالهة وحفظوا أقدس الأسرار، ويسهب [پاوسنياس ١:٣٧] في وصف الفرح العظيم والسعادة الكبرى التي تغمر المرأة الأثينية حين تجد اخاها أو زوجها أو ابنها يتقلد هذا المنصب على التوالي. والظاهر ان (كالياس) هو ابن عم لاريستيدس.

(١٤) الكهنة والملوك يحيطون جباههم بعصابة أو يطوقونها بتاج ومما هو جدير بالذكر هنا ان السلطتين الزمنية والروحية كانتا تجمعان في واحدٍ - في العصور الغابرة.

(١٥) بالاسم الأول تسمى ديمتريوس المقدوني. وبالأسم الثاني والثالث تسمى (سلوقيّو) سورية وبالاسم الرابع والخامس ملكان متأخران في انطاكية.

الآله: سعد حظّه، الخوف منه، التكريم له. فهم يعتبرونه محظوظاً منعماً عليه لأن الموت والفساد لا يتطرق اليه، وخوفهم وارتعابهم منه، متأتٍ من حَوله وقوته، إلاّ انهم يحبونه ويكرمونه ويعبدونه لعدالته. ومع استقرارهم على هذا الاتجاه فإنهم يشتهون ويطمحون الى الخلود الذي لاتستطيعه طبيعتنا الأنسيّة، ويرغبون في ذلك السلطان الذي كان القسم الأعظم منه تحت تصرف «الحظّ» ورهن اشارته ولكنهم يضعون الفضيلة في آخر قائمة ما يطمحون اليه غباءً منهم وحمقاً، وهي الصفة الالهية الطيّبة الوحيدة التي كانت في متناول يدنا حقّاً، مادامت العدالة تجعل حياة ذلك الذي يعيش في بحبوحةٍ وسلطان ونفوذ أشبه بحياة الآلهة، في حين يمسخه الظلم وحشاً.

ولذلك سعد اريستيدس بالحب المتأتي من لقبه في مبدأ الأمر، ولكنه غدا محسوداً به على تمادي الزمن. ولاسيّما عندما بث [تيمستوكلس] أشاعة بين الشعب خلاصتها أن [اريستيدس] باقراره وتصريفه شؤون الحكم كلها سراً، أهدر حرمة المحاكم القضائية كلها وعطلها، وهو يريد التمهيد سراً لإقامة حكم فردي يكون فيه ملكاً دون مساعدة قوى الحرس الوطني. زد على هذا أن زهو الشعب بنفسه الذي ارتفع كثيراً، وأشتداد ثقته بها للنصر الأخير، لابدّ رافقه شعور بالكره تجاه كلّ من تمتع بشهرةٍ وسمعة تفوق العادة. فتقاطر المواطنون من كلّ المدينة وحكموا بنفي [اريستيدس] من غير ادانةٍ قضائية. ساترين نقمتهم على سمعته بغطاء الخوف من طغيانه.

فقد كان النفي دون ادانة، لايعتبر عقوبة عن عمل جُرميّ، وانما يقال عنه ظاهرياً انه كسرٌ لشوكة العظمة المفرطة وقمع للسلطان المتجبّر، لكنه في الباطن تلطيفٌ وتنفيس رقيق لمشاعر الحقد والحسد فلا يحال بينها وبين شفاء غليلها بايقاع اذى ممكن احتماله وهو الابعاد عن الوطن عشر سنين، إلاّ أن الشعب تخلّى عنها بعد أن صارت تفرض على الوضعاء والسفلة الأوغاد. وكان [هيپربولس] آخر من نفي بلا محاكمة.

قيل أن السببَ في نفي [هيپربولس] هو هذا: كان [نيقياس] و[الكيبيادیس] صاحبا أكبر نفوذ في المدينة وهما من حزبين مختلفين. وفيما كان الشعب يهمّ بالاقتراع على النفي، يصيب واحداً منهما بلا ريب. تقارباً فيما بينهما ووحّدا حزبيهما واحتالا على نفي [هيپربولس]. وكان من نتيجة ذلك أن الشعب شعر بالاهانة كأنما لحق بهذه العادة تحقيرٌ وازدراء لانزالها الى مستوى نفي [هيپربولس] فتخلوا عنها وابطلوها. وكانوا يقومون بها على النحو الآتي (موجزاً): يأخذ كل مواطن «اوستراكون Ostracon» أي فخارة، أعني كسرة من اناءٍ فخاريّ ويكتب عليها أسم المواطن الذي يريد نفيه ويحملها الى موضع ما في

الساحة العامة محاطٌ بقضبان خشبية. ويقوم الحكام في أول الأمر باحصاء كل القطع فاذا كانت تقل عن ستة آلاف لا يتمّ النفي. ثم تفرز الكُسر بحسب الأسماء، ومن وجد اسمه في أكبر عددٍ منها، نفي لمدة عشر سنين، مع السماح له بالتمتع بامواله. قيل بينما هم يكتبون الأسماء على قطع الفخار. أن مواطنًا أميًا ريفياً، زريّ الهيئة كان يقف الى جانب [اريستيدس] دون أن يعلم من يكون، وظنه مواطناً عادياً اذ طلب منه أن يكتب على قطعة الفخار الخاصة به اسم «اريستيدس». فعجب وسأله هل نالته أذية من اريستيدس هذا؟

فأجابه المواطن: كلاً أبداً، حتى أني لا أعرفه، إلاّ اني أنزعجت من سماع لقب «العادل» يطلق عليه، اينما حللت.

قيل أن [اريستيدس] لم يردّ عليه بشيء ولكنه أعاد القطعة اليه بعد أن كتب اسمه عليها كما طلب منه. وعند تركه المدينة رفع يديه نحو السماء ودعا أن لا تدفع الآثينيين الحاجة يوماً ما وتضطرهم الى تذكّر [اريستيدس]، وهو عكس الدعاء الذي نُسب الى [آخيل][١٦].

وعلى أية حال فلم تمرّ ثلاث سنين حتى أقدم الآثينيون على الغاء القانون الخاص بالنفي، واصدروا مرسوماً بعودة جميع المنفيين والمبعدين على أثر توغلّ جيوش [ارتحششتا] في [ثسالي] و[بويوتيا] ووصوله [آتيكا]، يحدوهم بالدرجة الأولى خوفهم من انحياز [اريستيدس] الى العدوّ، وافساده كثيراً من مواطنيه، وضمهّم الى معسكر الفرس البرابرة. ولقد اخطأوا كثيراً في الحكم على الرجل وظلموه، فقد كان قبل صدور مرسوم العفو يعمل بحماسةٍ على تشجيع الأغريق واثارة عاطفة الدفاع عن حرية الوطن في أنفسهم. وبعدها عندما عُين [تيمستوكلس] قائداً عاماً مطلق الصلاحيات لم يتردد في اسداء العون له بكلّ الطرائق في ميادين القتال، وفي معرض النصيحة. فجعل من ألدّ عدوّ له في الدنيا، أشهر الرجال وأعلاهم مجداً بوضعه الاستقلال الوطنيّ فوق كل أعتبار. فقد كان [اڤريبيادس] يداعب فكرة التخلي عن [سلاميس][١٧] عندما خرجت سفن العدوّ ليلاً الى البحر وطوقت

---

(١٦) (الالياذة ١: ٤٠٨ - ٤١٠) اذ توسل بوالدته كي تؤثر على چوپتر لترجيح كفة الطراوديين كي يلحقوا الدمار بمواطنيه. اذ كان يجد انها الطريقة الوحيدة التي ستنبههم الى ضعف قيادتهم. فيبادروا الى ازالة آثار الظلم الذي لحق به، بل تمادى واشتط فدعا الى أن يتمّ القضاء على الأغريق واعدائهم الى آخر رجل بيد بعضهم بعضاً وان لا يبقى في قيد الحياة غيره وغير (پاتروكليس) ليقوما بدكّ اسوار طروادة [الالياذة ١٦: ٧٩ - ١٠٠].

(١٧) لم يشأ [اڤريبيادس] ان يترك برزخ كورنث ليكون قريباً من الجيش في البرّ. إلاّ ان [تموستوكليس] وجد بوضوح من الرؤية انه في امكانهم الوقوف بمواجهة الاسطول الفارسي في مضايق سلاميس وهو بهذا يكون قد أنقذ نفسه من خطر التفوق العظيم الذي يحققه الاسطول الفارسي عليه. ذلك لأن خليج كورنث كان مفتوحاً للبحر (هيرودوتس ٨: ٥٧ و ٥٨).

الجزر وأقفلت البرزخ الضيق، ولم يعلم أحدٌ كيف تمَّ هذا.

وما ان شعر [اريستيدس] حتى بادر فوراً الى الإقلاع من [ايجينا]، وأفلت مخترقاً أسطول العدو دون أن ينتبه اليه. وبلغ خيمة [تيمستوكلس] فناداه فخرج اليه فبادأة اريستيدس بالكلام:

- لو تمتعنا يا تيمستوكلس بأي ادراك، لوجب علينا في هذه اللحظة بالذات أن نتناسى خصومتنا الصبيانية التافهة؛ إلاّ دعنا ندخل في منافسةٍ شريفة سليمة القصد، فلنبتار في مجال محافظتنا على وطن اليونان. لك الحكم والقيادة ولي الرأي والدعم حتى وانا أعلم يقيناً بأنك الوحيد الذي توصّل الى خير الأراء، وهو ضرورة الاشتباك مع العدوّ في المضايق. ولقد رأيت العدوّ يعينك على هذا، وان كان اصحابنا يعارضونك - وها أن البحر يكاد يغطيه أسطوله من خلفنا ومن حولنا ولا سبيل لنا إلاّ أن نثبت باننا رجال بأسٍ وقتال شئنا أم أبينا، بعد أن اقفلت في وجهنا طرق الفرار.

فأجابه [تيمستوكلس]: ما كنت لأدعك تستظهر عليّ يا [اريستيدس] وانا مختارٌ، في مثل هذه المناسبة العصيبة، وسأعمل جهدي للتفوق عليها بأعمالي، متأثراً خطى هذه البداية الطيبة.

ثم انه كشف له عن خطته التي دبّرها للايقاع بالبرابرة[18]، وطلب منه أن يعمل لإقناع [يوريبادس] بجدوى رأيه، ويبرهن له بانّ الخلاص بلا معركة هو من المستحيلات. لأنه أكثر ايماناً به من الآخرين. وفي مجلس الحرب الذي عقده قادة الأغريق نوّه [كليوقريطوس Cleoc-ritus] الكورنثي بأن اريستيدس لا يوافق على خطة تيمستوكلس، بدليل صمته المطبق. فقال [اريستيدس] انه ما كان ليصبر على الصمت الاّ لأن رأي تيمستوكلس هو الأفضل، وأن سكوته الآن ليس مبعثه عدم الرضا أو المعارضة، بله الموافقة والرضا عينه.

وفي اثناء انشغال القادة بهذا، وجد [اريستيدس] ان [پستّاليا Psyttalia][19] الجزيرة الصغيرة الواقعة داخل المضايق مقابل [سلاميس] ممتلئة بقوات عدوّة، فركب سفنه الصغيرة مع نخبة من أشجع قومه وأشدّهم اقداماً، ونزل ساحلها وأشتبك في معركة ضارية مع البرابرة وفتك بهم عن آخرهم إلاّ قبضة من أبرز رجالهم أخذهم أسرى. وكان بينهم ثلاثة أولاد

---

(١٨) كانت الخطّة تقضي بدس شخص يضلل العدو بالزعم بان الاغريق يتأهبون لترك سلاميس. فاذا رغب الفرس في القضاء عليهم بأسرع ما يمكن فعليهم ان يهاجموهم قبل اقلاعهم. [أنظر سيرة تمستوكليس. وأيضاً هيرودوتس ٥٧:٨].

(١٩) معركة سلاميس: ٤٨٠ ق.م.

[ساندواس Sandauce] أخت الملك، فبعث بهم الى تيمستوكلس في الحال. وقيل أنهم ضُحّوا قرباناً [لباخوس] الملقب «اومستوس» اي «الناهش»، تحقيقاً لنبوءة، وبإشارة من [يوفرانتيدس] الكاهن المتنبئ. وأبقى اريستيدس رجاله شاكي السلاح حول الجزيرة لانقاذ من يدفعه الموج اليها من أصحابه، ولكي لايفلت من يده رجل واحدٌ من العدوّ. فان القتال يتوقع أن يكون على أشدّه بالقرب من ساحلها، وقد صح ما توقع ولهذا اقيم النصب التذكاري للمعركة في تلك الجزيرة.

بعد المعركة اراد [تيمستوكلس] استطلاع رأي [اريستيدس] فقال له: انهما انجزا عملاً طيباً لكن هناك عملاً أعظم واضخم منه ينتظرهما. وهو ابقاء «آسيا» أسيرة «أوروبا»، وذلك بالابحار فوراً الى الهللسپونت (البحر الاسود) وقطع الجسر الذي يربط ما بين القارتين. وما كاد [اريستيدس] يعي قوله حتى صاح به: أن لا يفكر في مثل هذا العمل مطلقاً، بل ان يلتمس وسيلةً لإخراج [الميديين] من اليونان بأسرع ما يمكن لئلا يضطروهم اليأس الى شق طريقهم عنوة بجيشهم اللجب الجبار عندما يُقطع عليهم خطّ الرجعة، وتقفل امامهم ابواب الانسحاب. فأخذ برأيه وأرسل الى ملك الفرس أسيره [أرناكيس] الخصيّ، ليبلغه عن لسانه بأنه نجح في تحويل الاغريق عن نيتهم في الابحار الى الجسور، تحدوه في ذلك الرغبة الخالصة لسلامته.

فخاف [ارتحششتا] العاقبة وابحر فوراً الى الهللسپونت، الاّ أنه أبقى مع [ماردونيوس] أصلح قطعات جيشه وكانت تبلغ نحواً من ثلاثمائة ألف. وأثبت هذا القائد أنه خصم عنيدٌ يخشى جانبه فقد وضع ثقته في مشاته وأخذ يكتب للأغريق ما جرى في هذا السبيل:

– لقد قهرتم في البحر رجالاً تعودوا الحرب براً، ولم يحذقوا مسك المجاذيف. والآن ها هي ثسالي أمامنا، وكلها سهول منبسطة، وتلك بطاح [بويوتيا]، لتكونن ميداناً لذوي البأس الصناديد من المشاة والخيالة لا أصلح منه ولا أرحب.

على أنه أقدم على ارسال خطابات ووفود في السرّ الى الآثينيين بأمر الملك يعدهم فيها باعادة بناء مدينتهم. ودفع مبالغ طائلة من المال لهم، وبجعلهم سادة الأغريق، اذا خرجوا من هذه الحرب[٢٠]. وعلم اللقيديمونيون بالمفاوضة. فدفعهم خوفهم من قبول الآثينيين بها الى ارسال وفد يعرض على حلفائهم نقل زوجاتهم وأولادهم الى سپارطا مع تعهدهم بالنفقة لهم وضمان معيشتهم. وكان الآثينيون يمرون بمحنة شديدة بعد خراب مدينتهم وبلادهم – فلما

(٢٠) عرضت هذه المقترحات عن طريق الاسكندر المقدوني التي ضمنها خطبةً له، أجاب عليها الوفد السپارطي [هيرودوتس المرجع السالف ١٤٠، ١٤١].

سمعوا أقوال السفراء علناً أجابوا برد مستوحى من اقتراح [اريستيدس] يستأهل أعظم التقدير والاعجاب. قالوا: إنهم لايعتبون على أعدائهم اذا ظنّ هؤلاء ان كل شيء يمكن شراؤه بالمال، لأنهم لايعرفون شيئاً ترتفع قيمته عن المال، أما اللقيديمونيون فهم متألمون منهم، لحصر اهتمامهم بفقرهم ومهنتهم التي يرزخون تحتها الآن فيعرضوا عليهم ارزاقاً ومؤناً، دون أن يذكروا بسألتهم وعزيمتهم الراسخة في القتال لأجل قضيّة عامة. نطق اريستيدس بهذا ثم أمر بادخال السفراء الى مَحلّ الاجتماع، وأوصى مواطنيه أن يقولوا للوفد اللقيديموني بأن كل ما هو فوق الأرض وتحتها من كنوز، لا يعدل حرية اليونان عند الأثينيين. ثم اشار لسفراء [ماردونيوس] الى الشمس وقال:

- سيبقى مواطنو آثينا ما بقيت هذه الشمس ثابتةً في مسارّها - يواصلون حربهم مع الفرس في سبيل البلاد التي اضحت خراباً والمعابد التي ونّسوها وأحرقوها.

وزاد مقترحاً أصدار مرسوم يوجب على الكهنة فرض عقوبة الحَرَم الدينيّ على كلّ من يخرج عن الحلف اليوناني، أو يبعث بمناديه الى الميديين.

ولما قام [ماردونيوس] بغزوٍ آخر لآتيكا، نزح الأهالي مرة أخرى الى جزيرة [سلاميس]. فأرسل اريستيدس موفداً الى اللقيديمونيين، وراح يؤنبهم لتأخرهم عن نجدة آثينا وتخليهم مرة أخرى عنها لتقع في أيدي البرابرة. وطلب مساعدتهم للابقاء على الجزء الذي لم يقع بعد في يد الاعداء من بلاد اليونان. وعلى أثر سماع [الايفوري][٢١] ذلك عمدوا الى اقامة مهرجان رياضي طوال ذلك اليوم احتفاء به وعطلّوا فيه بوصفه يوماً مقدّساً (كانوا وقتئذ يحيون عيد الخزامى Hyacinth)[٢٢] متظاهرين بعدم الاكتراث وبالانشغال باللهو والمرح ولما جن الليل جردوا خمسة آلاف سپارطي منتقىً، يقوم على خدمة كل واحدٍ منهم سبعة من [الهيلوت] وأمروهم بالسير في غفلةٍ عن الوفد الآثيني. ثم عاودوا [اريستيدس] اللوم والعتاب، فقالوا له هازئين: إما انه معتوهٌ أو حالمٌ، لأن جيشهم وهو الآن في [اوريستيوم Oresteum]، يتقدم لملاقاة «الغرباء» كما يسمون الفرس. فأجابهم [اريستيدس] ان مزاحهم هذا في غير محله، وعليهم ان يخدعوا أعداءهم بذلك لا اصدقاءهم وهذا ما يذكره [ايدومينيوس] أما اقوال [اريستيدس]، فلا تعزى اليه بل الى [سيمون وكزانثيپتوس]. وهم الذين ارسلوا وفداً.

---

(٢١) أرجئوا اجابتهم من يوم الى يوم حتى افادوا من عشرة ايام اكملوا خلالها بناء الجدار عبر المضايق ليؤمن حمايتهم من البرابرة.

(٢٢) هي ثلاثة ايام عند السپارطيين أولها وآخرها يقضونهما في حداد على موت [هياسنت] ويقضى الاوسط كعيد حافل بالبهجة والافراح ويمارس فيه كل افانين الطرب واللهو. [انظر سيرة نوما].

ثم انتخب [اريستيدس] جنرالاً عسكريا، فعاد الى [پلاطيا] يقود ثمانية آلاف مقاتل آثيني، وهناك أنضمّ اليه [پاوسانياس Pausanias] القائد الأعلى لجميع قوات اليونان، بكلّ القوات السپارطية التي يقودها ثم تقاطرت عليهما كل القوات اليونانية الأخرى. وكانت مضارب جيش الفرس ممتدة على طول ضفاف نهر [آسپوس Aspus] وعددهم هائل، حتى أن المعسكر لم يكن يتسع له. فلجأوا الى تكديس اثقالهم ومعظم حاجاتهم الثمينة في ساحة مربعة مسيجّة يبلغ طول ضلعها عشرة فُرلنغات (حوالي ٢٠٠٠ يارد).

وتنبأ [تيسامينوس Tisamenus][٢٣] من الاليسي [لپاوسانياس] ولكلّ الأغريق بأن النصر سيكون من نصيبهم ان لم يبادروا العدو بالهجوم وأتخذوا موقف الدفاع. إلاّ أن اريستيدس لم يقتنع بهذا وبعث يطلب الوحي من دلفي، فكان جواب الاله: أن الآثينيين سيقهرون اعداءهم ان هم توجهوا بالدعاء والضراعة [لجوپتر] و[لجونو] الكيثيروني Cithæron، و[لپان]، ولحوريات [سفراجيتيدس Sphragitides][٢٤]، وتقديم القرابين للأبطال [اندروقراطس Andeocrates] و[هيپسيون Hypsion] و[اكتيون Actaeon] و[پوليدوس Polyidus]، شريطة أن يخوضوا غمرات الحرب ضمن تخومهم في سهل [سيريس اليوسينيا Ceres Eleusinia، وپروسپرين] فزادت حيرة [اريستيدس] بهذه النبوءة، لأن الابطال الذين اشير عليه بالتقريب لهم كانوا من زعماء الپلاطيين، ولأن كهف حوريات (سفراغبيتدس) كان يقع في قمة جبل (كسيثرون) من الجهة المواجهة للشمس الغاربة في وقت الصيف. وفي هذا الموضوع على ما يذكره الرواة، كان يوجد معبدٌ لاستنزال الوحي، وقع كثير ممن يسكن المنطقة تحت تأثيره، واطلق عليهم اسم (نيمفولپتي Naympho-lepti). أي الذين حلّت فيهم ارواح الحوريّات. امّا بخصوص سهل (سيريس اليوسينيا) ومسألة ضمان النصر للآثينيين اذا جرى القتال في بلادهم فكان يقتضي عودتهم من حيث أتوا ونقل الحرب الى اراضي آتيكا بالذات.

وفي تلك الاثناء رأى (اريْمنيستوس Arimnestus) قائد الپلاطيين في الحلم أن (جوپتر

---

(٢٣) تنبأ العراف [تيامينوس] بانتصارات خمسة. وكان اللقيديميون يريدون ان يجعلوه عرافة خاصاً بهم فطلب منحه المواطنة السپارطية فأبوا عليه ذلك أول الأمر. وباقتراب الفرس منهم عدلوا عن رأيهم ومنحوه هذا الامتياز هو واخوه [ايفياس].
وهو حدث بسيط قد لايستدعي ذكره. إلاّ أن هذين الشخصين كان أوّل من فاز بهذا الامتياز في تاريخ سپارطا.

(٢٤) سميت حوريات الجبل [كيثيرون] بهذا، نسبة الى كهف في الجبل يعرف بهذا الاسم (سفراكيديون) وربما أطلق على أولئك الذين أعتادوا الذهاب اليه للتأمل واستنزال الوحي [انظر باوسنياس ٩ وهيرودتس ٦٩:٩].

المخلّص) سأله عما اعتزمه الاغريق فأجابه:

- غداً يا مولاي سنزحف بجيشنا على اليوسيس، وهناك نقاتل البرابرة طبقاً لما أوحى به ابوللو.

فرد عليه ابو الآلهة قائلاً: انهم يخطأون خطأً مبيناً، لأن المواضع التي ورد ذكرها في النبوءة تدخل كلها ضمن حدود پلاطيا.

ولو بحثوا لوجدوها هناك.

هذه الرؤيا الواضحة بمعانيها تبدت (لاريْمنيستوس) فما ان استيقظ حتى ارسل بطلب المعمرين من قومه واكثرهم معرفة وتجربة. وقصّ عليهم الأمر وناقشهم فيه. فظهر بالنتيجة أنه يوجد معبد قديم جداً يدعى «معبد كيريس اليوسينيا، وپروسپرين» بالقرب من (هيساي Hy-siae) عند قدمة جبل (كيثيرون). فأخذ اريستيدس اليه، وتبين انه افضل موضع لتعبئة جيش المشاة لان المنحدرات التي هي في لحف جبل (كيثيرون) تجعل السهل الذي ينتهي بصعودٍ حتى المعبد، غير صالح لحركات الخيالة مطلقاً. كما كان يوجد في الموضع نفسه معبد (اندروقريطس) يحيط به الأيك الظليل ولأجل تحقيق شروط النبوءة كلها توصّلاً للنصر، اقترح (اريمنيوستوس) ان تزال حدود بلادهم المتصلة باتيكا ويُمنح هذا الجزء من الأرض للآثينين حتى يكون قتالهم عن الآغريق في داخلية بلادهم فعلاً، فلم يبد الپلاطيون اية ممانعة.

ذاع امر هذا الجرد والشهامة واشتهر، حتى ان الاسكندر بعد استيلائه على كلّ ممالك اسيا، راح يعيد بناء اسوار (پلاطيا) وأمر أن ينادي منادي الالعاب الاولمپية بأن الملك خصّ المدينة بهذا الإنعام تقديراً لنبل أهلها وسمو روحهم في تنازلهم عن جزء من بلادهم بكلّ رحابة صدر في اثناء الحرب مع الميديين. وقاتلوا بكلّ تفانٍ في صفوف الاغريق.

ونازع التيجياتيون الآثينيين على مركز الشرف وطلبوا ان يكون موضعهم في المعركة - الميسرة، بعد أن وُضع السپارطيون، في الميرنة كما جرت به العادة. وراحوا يتشبثون بمزاعم عديدة حول مآثر اجدادهم واسلافهم. واستنكر الاثينيون هذا الإدعاء وثار سخطهم فانبرى (اريستيدس) قائلاً:

- الموقف الحاضر لايسمح بالتفاخر مع التيفياپتين بالشجاعة وشرف المحتد لكن اسمعوا قولنا انتم ايها السپارطيون، وانتم ايها الأغريق جميعاً، انه موضع المعركة لايجرّد المرء من الشجاعة، ولايكسبه اياها. ونحن سنجاهد بصمودنا وبلائنا الحسن في الموضع الذي يصيبنا، بالاّ نلحق عاراً بماضينا ومآثرنا السالفة. لم نأت هنا بالالعاب مع اصدقائنا، بل

لنحارب اعداءنا. جئنا لانشيد بامجاد اسلافنا، بل لنسلك سلوك ذوي البأس. وستثبت هذه المعركة قيمة كل مدنية وكل قائد وكل جندي بسيط الاغريق.

وبناء على هذا الكلام قرّر مجلس الحرب الأعلى اعطاء الحكم لصالح الآثينيين، ووضعوا في الجناح الأيسر.

كان القلق يسود كل بلاد الاغريق. ولاسيما وضع الآثينيين غير المستقرّ، فقد افقرت الحرب بعض ذوي الأسر الراقية الغنية. وزالت مظاهر نفوذهم ومنازلهم الرفيعة مع ثرواتهم. فاتفقوا مع آخرين مازالوا محتفظين بنفوذهم وغناهم، واجتمعوا سراً في منزل (بيلاطيا) ليأتمرّوا على نظام الحكم الديمقراطي ويزيلوه وبعد نجاح مؤامرتهم هذه، يسلمون بلاد الاغريق للبرابرة. ويجهضون القضية الكبرى. وسادا اللغط والاضطراب المعسكر، وامكن استمالة عدد كبير من الرجال. ووقف اريستيدس على المؤآمرة، وكانت الظروف التي تمر بالبلاد عصيبة دقيقة فقررَ أن يضع حداً لهذا، وان لايكشفها كشفاً تاماً ولانه كان يجهل كم سيبلغ عدد المتهمين الذين سيطالهم الاتهام، ولرغبته في وضع حدٍ للعدالة يتفق والمصلحة العامة لم يقبض على اكثر من ثمانيةٍ بين مساهمين كثيرين، وكان ثم اثنان من الرؤوس الاكثر اجراماً: (ايسخينيس Æschines) اللامپري Lampria و اجيسياس Agesios الأخارني اطلقا ساقيهما للريح وهربا من المعسكر. ثم عفا عن المقبوض عليهم، وبذلك اتاح فرصة ندمٍ مشجعة للذين لم ليفتضح أمرهم، معتبراً الحرب التي سيخوضونها اعلى محكمة يتطهرون بها من رجس جريمتهم باظهار نواياهم المخلصة الطيبة ازاء الوطن.

بعد هذا[٢٥]، رغب (ماردونيوس) في امتحان شجاعة الاغريق بارسال خيالته باجمعها للهجوم وكان يعتقد انه متفوق بهذا السلاح تفوقاً ساحقاً. وكان الاغريق قد اتخذوا مواقعهم في قدمات جبل (مسيپرون)، ومتحصنين في مواضع صخرية منيعة ماعدا (الميغاريين)، وهؤلاء، ويبلغ عددهم ثلاثة الآف، قد ضربوا خيامهم في السهل المنبسط فالحقت بهم الخيالة اضراراً بليغة بهجومها عليهم من جميع الجهات واختراق صفوفهم. فعجلوا بطلب النجدة من (پاوسانياس) لأنهم عجزوا وحدهم عن صدّ العدد الكبير من البرابرة. وابلغ (پاوسانياس) بذلك، وشاهد خيام (الميغاريين) تكاد تحجبها موجات من الرماح والسهام المقذوفة، وهم

---

(٢٥) جرت موقعه پلاتيا في ٤٧٩ ق.م اي بعد موقعة سلاميس بسنةٍ واحدة. وكان هيرودوتس في ذلك الزمن صبياً في العاشرة أو التاسعة استقى تفاصيله عنها – وهي تختلف عن رواية پلوتارخ – من أشخاص كانوا فيها وخاضوا غمارها. ويقول ما يستفاد منه ان ما ذكر پلوتارخ انما وقع قبل ان يترك الاغريق المعسكر في [ايريثري] الى معسكرٍ آخر حول پالاتيا وقبل أن يتنازع الآثينيون والتيگياني.

يتقهقرون كتلةً واحدةً الى فسحة ضيقة. فحار في امره ولم يدر كيف ينجدهم بلوائه المؤلف من اللقيديمونين ذوي الاسلحة الثقيلة. فاقترح على القادة والضباط المحيطين به أن يعملوا من نجدة الميغاريين، مباراة في البسالة واطلاب المعالي، وأودع المسألة الى اختيارهم. فأحجم الجميع إلاّ (اريستيدس) الذي اضطلع بالمهّمة للآثينيين وأرسل (اولمپيودوروس Olympiudor-us) اشجع ضباطه الصغار بثلاثمائة من الصفوة المنتقاة وبعض رماة السهّام. فتهيّأ فوراً وصال على العدوّ. وما أن لحق (ماسيستيوس Masistuis) قائد الخيالة الفارسية علمٌ بذلك حتّى ألوى عنان جواده واتجه اليهم، و(ماميستيوس) هذا رجل ذو بأس نادر المثال، وهيكل جبّار، وصورة حسنة جذابة. وتمكن الآثينيون من صدّ الهجمة والاشتباك معه. وحمي وطيس القتال الى آخر حدٍ حتى لكان مصير الحرب كلّها متوقف عليه، وان الطرفين يحاولان كسبها هنا. واصيب جواد (ماسيستيوس) بطعنةٍ فرمح راكبه فسقط على الأرض وتعذر عليه القيام لثقل دروعه، وادركه الآثينيون وصاروا يهوون عليه بضرباتهم دون جدوى لأن سائر بدنه مصفح بالدروع، حديداً ونحاساً وذهباً ولاسيما صدره ورأسه واطرافه الاّ ان واحداً منهم قضى عليه في النهاية بطعنة مرت من فتحة خوذته. فترك بقية الفرس جثته وهربوا. ولم يعلم مقدار نجاح الآثينين من كثرة عدد القتلى لأنهم لم يفتكوا بعددٍ كبيرٍ، بل بالحزن الذي ابداه البرابرة. فقد حلقوا شعورهم وجزواً نواصلي خيّلهم وبغالهم لموت قائدهم وملأوا السهل نواحاً وعويلاً. فقد خسروا قائداً يفوق اعظم ماردوينوس قادتهم بمراحل - سواء في الشجاعة او في السلطة.

وبعد معركة الفرسان هذه، احجموا عن القتال فترة طويلة لأن العرافين تنبأوا من القرابين بالنصر للأغريق وللفرس إن اتخذوا موقف الدفاع وتنبأوا بالعكس ان لجأ اي فريق الى الهجوم واخيراً عيل صبر ماردونيوس. فقد نفدت ارزاقه ولم يبق له الاّ مايكفي لايام معدودات. بينما كانت قوات اليونانيين تزداد باطراد بما ينضم اليها باستمرار، فقرر ان يخرج من سباته فيعبر نهر (آسپوس) عند الفجر ويفاجيء الاغريق من حيث لايتوقعون. وانهى بخطته هذه الى رؤوساء عسكره ليلاً. وفي حوالي نصف الليل تسلل فارسٌ الى معسكر الأغريق وطلب من الخفراء أن يستدعوا (أريستيدس) الآثينين اليه. فجاءه حالاً فابتدره قائلاً:

- أنا الاسكندر ملك المقدونيين! جئت راكبا الأهوال والمخاطر العظام مدفوعا بالنوايا الطيبة التي اكنها لك لئلاتحلّ بكم نكبة من هجوم مباغت بتصرفكم في القتال تصرفاً سيئاً. غدا سيدخل ماردونيوس معكم في معركةٍ مضطراً بسبب قلة ارزاقه، لا آملاً بالنصر او اعتماداً على الشجاعة؛ فقد منعه العرافون من القتال لان القرابين والوحي لم تكن تبشر بخير. والجيش قد تردت معنوياته وعمّه السخط؛ فالضرورة ترغمه على تجربة خطّه في

القتال. او البقاء ساكناً واحتمال اقسى حالات الجوع والحرمان.

وبعد أن انهى الاسكندر اقواله، اوصاه أن يتذكره ولاينساه وان لايذكر شيئاً لأحدٍ. الاّ ان (اريستيدس) قال انه ليس من المناسب اخفاء الأمر عن پاوسانياس لأنه القائد العام، وسيحتفظ بالسّرِ ولا يعلم به احداً غيره، حتى ختام المعركة. ولكن إذا عُقد لواء النصر للاغريق فلا شكٌ في أن من حق الاغريق كافةً أن يعلموا بحسن نية الاسكندر تجاههم وعطفه عليهم. وبعد هذا امتطى ملك المقدونيين جواده وانصرف وعاد اريستيدس الى خيمة پاوسانياس وابلغه بما جرى، ثم بعثا بطلب امراء القطعات الآخرين وابلغوهم بوجوب تنظيم الجيش على خط القتال.

وهنا، يقول (هيرودوتس) المؤرخ، ان (پاوسانياس) تكلّم مع (اريستيدس) طالباً منه الانتقال بالآثينيين الى الجناح الايمن من الجيش، بمواجهة الفرس، (إذ ان فائدتهم ستكون اكثر لأنهم كانوا اعرف من غيرهم بأساليب حرب الفرس واكثر خبرة بها. وكذلك للمعنويات التي بثتها انتصاراتهم الماضية في نفوسهم) وان يأخذ هو الجناح الأيسر حيث سيقوم الاغريق (الميديزنگ Medizing) بهجومهم. وعَدّ كل قادة الآثينيين هذا، اهانة وتدخلاً من (پاوسانياس) لانه نقلهم وحدهم من محلّ الى محلّ كالهيلوت الكثيرين، ليواجهوا قوة العدوّ الكبرى في حين ترك بقية قطعات الجيش ثابتةً في اماكنها. إلاّ ان اريستيدس، قال انهم على خطأ مبين. فان كانوا قبل فترة حدّ قصيرة قد نازعوا (التيجيانيين) على الميسرة، واغتبطوا كثيراً عندما فضلّوا على عليهم واختصوا بها، فكيف يمتعضون عندما ترك لهم اللقيديمونيون الميمنة وهو ما يقرب التنازل لهم عن قيادة الجيش، وبأي وجه يتظلمون من كسبهم شرفٍ كهذا ولايعدون قتالهم لا لبني قومهم وذويهم بل للبرابرة وغيرهم ممن هم اعداؤهم الطبيعيون. غُنماً لهم وتكريماً؟ وعلى اثر ذلك تبادل الآثينيون المواضع مع اللقيديمونيين بكل سرور واخذوا يتبادلون احاديث التشجيع والحماسة كقولهم أن العدوّ لايهاجم الآن باسلحة افضل، وقلوبٍ اقوى مما حارب به معركة (مراثون). ونشّابه هي هي، ومعاطفهم المطرزة وذهبهم نفسه، كذلك اجسامهم الرقيقة وادمغتهم الضعيفة لم تتغير: «ونحن مازالت عندنا اسلحتنا واجسامنا نفسها، وشجاعتنا المتعاظمة بانتصاراتنا. واننا لانقاتل كالآخرين دفاعاً عن انفسنا فحسب، وانما نقاتل لاجل ذكريات (سلاميس ومراثون)، حتى لاينظر اليها كانها انتصارات للمتيادس، أو للحظ، بل انتصارات شعب آثينا».

ولهذا خفوا سراعاً ليتخذوا مواقعهم الجديدة في المعركة. ولكن (الثيبيين) الذين اطلعوا على هذا التغيير من احد الفارين، أسرعوا لإبلاغ (ماردونيوس) به. فقام هذا امّا خوفاً من

الاثينيين او رغبة منه في الاشتباك مع اللقيديمونيين - بتحويل قطعاته الفارسية مقابل الجناح الآخر وأمر بوحدات الاغريق التي تخدم في جيشه، ان توضع بمواجهة الآثينيين. ولوحظ هذا التغيير من الجانب الثاني، فاستدار (پاوسانياس) على عقبيه واحتل الميمنة ثانيةً، وقام (ماردونيوس) أيضا باحتلال الميسرة من جيشه ضد اللقيديمونيين كما كان في الاول وهكذا مَرّ اليوم بدون اشتباك.

بعد هذا اجمع رأي الأغريق على نقل معسكرهم الى مسافةٍ ابعد. ليسيطروا على موضع يؤمن لهم حاجتهم من الماء، لأن الينابيع القريبة منهم دمرتها الخيالة الفارسية وعكرتها. ولكن الليل ادركهم والضباط يتوجهون نحو الموضع المعين لعسكرتهم، إلا ان الجنود لم يكونوا مستعدين للسير وراءهم وتكتلّوا معاً، وما ان تركوا المتاريس والاستحكامات الامامية حتى اندفعوا نحو (پلاطيا). وحصلت فوضى واختلال عظيم اثناء تفرقهم لضرب خيامهم في رقاع مختلفة من الارض. وشاء القدر أن يتخلف اللقيديمونيون عن الباقين رغم ارادتهم. فقد اعلن (آمومفراريطس Amomphraretus) وهو رجل باسل مقدام كان يلتهب حماسة الى القتال منذ زمن طويل، وينقم على تأخيراتهم المتعددة وتأجيلهم، ووصف نقل المعسكر فراراً وهزيمة لاغير؛ اعلن هذا إنه لن يترك موقعه وسيبقى مع سريته لصدّ هجوم ماردونيوس؛ فاقبل عليه (پاوسانياس) وقال له أنه يفعل ذلك اطاعة للقرار الاجماعي الذي اتخذه الاغريق نتيجة الاقتراع. فرفع (امومفراريطس) صخرة كبيرة والقاها عند قدمي (پاوسانياس) وقال:

- أشهدتك بهذه؛ أما اعطيت صوتي الى جانب المعركة؟ هل شاركتُ احداً من الرجال في مقرراتهم ومقترحاتهم المتسّمة بالجبن

ولم يدر (پاوسانياس) ما يفعل في تلك الساعة الاّ ان يبعث الى الآثينيين الذين كانوا ينسحبون، فيأمرهم بالبقاء معه. ثم انطلق هو وبقية الجيش الى (پلاطيا) مؤملاً ان يحمل (امومفراريطس) على احتذائه.

وفي تلك الاثناء انبلج الصبح. وكان ماردونيوس يعلم بمغادرتهم معسكرهم. فأمر بتهيئة جيشه للمعركة ثم حمل على اللقيديمونيين بضجة وصياحٍ عظيمين كما هي عادة البرابرة كانهم يريدون سحق الاغريق سحقاً وهم في عملية الانسحاب، لا أن يشتبكوا معهم في قتال، يحاول كلا الجانبين الاّ يكون البادىء فيه. الاّ ان المعركة وقعت فعلاً اذ ان (پاوسانياس) توقف عن الانسحاب عندما رأى ما يحصل - وأمر الجميع أن يتخذوا نظام المعركة. الاّ انه نسي أن يصدر الامر الى الاغريق عموماً إمّا لان غيظه من (امومفراريطس) اطار صوابه، واما بسبب صولة العدوّ المفاجئة. ولهذا لم يعودوا حالاً جملةً واحدة الى مساعدتهم، بل بسرايا وفصائل

قليلة العدد متتابعة متباطئة بينما كان القتال قد نشب. وباشر (پاوسانياس) بتقديم القرابين إلاّ أنه لم يجد دلائل مشجعة فيها. ولهذا أمر اللقيديمونيين أن يلقوا بتروسهم عند اقدامهم وان يتبعوا وينفذوا تعليماته بهدوء، والاّ يقاوموا العدوّ ابداً. وبينما هو يُقرّب ثانية هجمت خيالة الفرس وجرح بعض اللقيديمونيين. وفي هذا الوقت أصيب (كالليكراتس) بسهم، وكان على ما قيل أجمل رجلٍ في الجيش، وفيما هو يُحتضر قال انه لا يأسف على موته لانه جاء من بلاده ليبذل حياته دفاعاً عن اليونان، بل يأسف لانه يموت بلا قتال. وكان الموقف صعباً في الواقع، واحتمال الرجال عجيباً، لانهم تركوا العدوّ يهجم عليهم دون ان يحاولوا مقابلته وصدّه وتحملوا الجراح والقتول التي كان العدوّ يوقعها في صفوفهم منتظرين فرصتهم المناسبة من آلهتهم وقائدهم. ويقول بعضهم بينما كأن پاوسانياس منهمكاً في تقريبه ودعائه على مسافة بعيدة من خط المعركة، حمل عليه بعض (الليديين) فجأة وعبثوا بقرابينه ونهبوها، ولم يكن (پاوسانياس) ورفاقه يحملون سلاحاً، فقابلوهم بالسياط ومحارك النار والعصي وطردوهم. ويقوم الناس في سپارطا الى يومنا هذا بجلد الاولاد بالسوط حول المذبح تقليداً لهذه المعركة، ومن بعدهم الاحتفال (الليدي) كذلك.

وضاقت نفس پاوسانياس بهذه الامور، فترك الكهنة مستمرين في القرابين احدها بعد الاخر، والتفت نحو المعبد والدموع في عينيه ورفع يديه الى السماء متضرعاً الى (جونو صيثيرون) وغيره من آلهة الپلاطين الكبار الشفعاء. قائلاً ان لم يكن النصر مقدراً للاغريق، فدعهم لايموتون قبل ان يحققوا مأثرة، وان يثبتوا باعمالهم لعدوهم انه يقاتل رجالاً ذوي بأس، وجنوداً رضعوا لبان الجندية. وبينما كان (پاوسانياس) يقوم بدعواته على هذه الشاكلة ظهرت بشائر طيبة في القرابين وتنبأ العرافون بالنصر. فسرى الخبر، واذا بجحفل المشاة اللقيديموني يهب فجأة كما ينهض وحش هائل ويشب على قدميه متحفزاً للمعركة. وادرك البرابرة انهم يواجهون بهم رجالاً حلفوا على القتال حتى الموت. فرفعوا تروسهم المنسوجة من الاغصان لحماية ابدانهم وراجوا يفوقون سهامهم على صفوف اللقيديمونين، لكن هؤلاء حافظوا على رصانة (فلانكسهم) وحملوا حملة صادقة على العدوّ واطاروا تروسهم من ايديهم ووجهوا اسنة رماحهم الي الصدور والوجوه. وصرعوا منهم عدداً كبيراً، ولم يسقط هؤلاء دون ان يثأروا لانفسهم، ولم يظهروا ما يدل على جبنٍ، فقد كانوا يقبضون على رؤوس الرماح بايديهم العارية ويكسرون قناها، واستخدموا سيوفهم استخداماً مؤثراً. وصالوا بسيوفهم العريضة منها والمعقوفة وانتزعوا التروس من ايدي اللقيديمونيين وتشابكوا معهم بالأيدي، وظلوا يقاومون امداً طويلاً.

بقي الآثينيون وقتاً ملياً لايأتون بحركةٍ، منتظرين مقدم اللقيديمونيين. فلما سمعوا ضجيج القتال العظيم، وعندما جاءهم - على ما قيل - رسول من (پاوسانياس) يحمل اليهم انباء ما يحدث، خفوا سراعاً الى نجدته. وبينما هم يقطعون السهل نحو مصدر الضجة، اذا بهم يلتقون بالاغريق المنحازين الى صفوف الاعداء، وعندما أثبتهم اريستيدس، ابتعد عن قطعاته مسافة كبيرة وصاح يستحلفهم بالآلهة الحارسة الاغريقية أن يتخلوا عن الحرب ولايكونون عقبة، او عثرة لاؤلئك الذين يتجهون الى معونة المدافعين عن بلادهم. ولما وجد انهم لا يلقون بالاً على ما يقول، وانهم اخذوا يستعدون للمعركة. صرف النظر عن نجدة اللقيديمونيين حالياً، والتحم بهم وكانوا يعدون خمسة الآف. ولكن مالبث معظمهم أن تخاذل وتقهقر، كما اطلق البرابرة سيقانهم للريح ايضاً. وقيل ان اشد القتال كان مع الثيبيين وفي ذلك الوقت كان رؤوساؤهم واكثر ذوي النفوذ فيهم منحازين الى جانب الميديين، متحمسين لهم، وقد جروا معهم الشعب خلافاً لرغبته، لأن الحكم الذي ساد ثيبة آنذاك كان حكماً او ليغارشياً.

كانت صفحات المعركة اذن، كما يلي. في المبدأ هزم اللقيديمونيون الفرس، وتمكن سپارطي اسمه (أريمنيستسوس)[٢٦] من قتل (ماردونيوس) بصخرة شجت رأسه تحقيقاً لنبوءة في معبد (امفياروس Amphiarsus) نقلت له. فقد بعث (ماردونيوس) للغرض المذكور، رجلاً ليدياً وبعث وبآخر كاريّ الى كهف (تروفونيوس[٢٧] Trophonius). واجاب كاهن المعبد ثانيهما بلغته الخاصة. اما الليدي فبينما كان نائماً في معبد (امفياروس)[٢٨] خيل له ان كاهناً عرافاً يقف منتصباً امامه يأمره بالرحيل وعندما رفض ذلك دفع بصخرة كبيرة فوق رأسه فظن أن الضربة قتلته تلك هي الحكاية. ولنعد الآن الى المعركة: دفع اللقيديمونيون المنهزمين الى داخل حيطان الخشب المحيطة بمعسكرهم، وبعد قليل هزم الأثينيون (الثيبين) وقتلوا ثلاثمائة من ابرز وارفع رجالهم مقاماً في ساحة القتال نفسها. وعندما بدأوا يولون الأدبار وردت الانباء بأن البرابرة محاصرون داخل معسكرهم. وبهذا اعطى الآثينيون فرصة النجاة لهؤلاء الاغريق، بسيرهم لمساعدة اللقيديمونيين في الحصار، وكان هؤلاء قليلي الخبرة،

---

(٢٦) في بعض النسخ يكتب ديامنستُس Diomnestus. ومن جاء ذكره في المتن هو قائد البلاتيين.

(٢٧) بالقرب من مدينة ليباديا في بويوتيا فوق دلفي. كان [ماردونيوس] قد أرسل لاستخارة لا هذا المعبد وحده، بل كل المعابد في البلاد. فقد كان قلقه شديداً بخصوص نتيجة الحرب [المرجع السالف ١٣٥ و ١٢٣].

(٢٨) هو [أمفايراؤوس] الذي أبتلع هو وعربته حيّاً أثناء حرب الزعماء السبعة ضدّ (ثيبه) كان لديه معبد وعرافة في (اوريوس) في آتيكا على حدود بويوتيا. كان مفسراً أحلام لايشق له غبار في اثناء حياته وبعد موته صار يرسل نبواته عبر الاحلام والرؤى. لذلك كان طالبوا الاستخارة في معبده يستلقون نائمين على جلد كبش ضحوا به له.

والمهارة في اقتحام التحصينات. فقاموا باقتحامها واستولوا على المعسكر[٢٩] واوقعوا بالمغلوبين مقتلةً عظيمة. اذ لم ينج مع (ارطباز Artobozus) الا اربعون الفاً من اصل الثلاثمائة الف على ما قيل، وكانت خسارة الجانب الاغريقي الفاً وثلاثمائة وستين فقط[٣٠]. بينهم اثنان وخمسون آثينياً، كلهم من قبيلة (إيانيتس Æantis) وقد قال عنهم (قليديموس Clidemus) انهم فاقوا الجميع شجاعة. ولهذا السبب اعتاد رجال هذه القبيلة ان يقدموا القرابين الى (حوريات سفراجتيدس) بمناسبة النصر كما نصت عليه النبوءة، وتصرف نفقاتها من الخزانة العامة. وقتل من اللقيديمونيين واحد وتسعون ومن التيجيانيين ستة عشر. والمرء يستغرب حقاً علام استند (هيرودوتس) في قوله انهم وحدهم اشتبكوا بالعدوّ ولا احد غيرهم، لان عدد القتلى، وانصابهم تشهد بأنّ النصر كان بمجهود الجميع وإسهامهم عموماً. واذا كان الباقون قد وقفوا كالمتفرجين بينما خاض رجال المدن الثلاث غمار المعركة وحدهم، لما نقشوا على المذبح هذه الكتابة:

> قُدِّم هذا المذبح العمومي من اليونان الحرة الى جوبتر حارس الاحرار. عندما دحر الاغريق الفرس في ساحة القتال بقوتهم وشجاعتهم.

خاضوا هذه المعركة في اليوم الرابع من شهر (بيودروميون) حسب التقويم الآثيني. وفي اليوم السابع والعشرين من شهر (پانيموس Panemus) حسب التقويم (البويوتي) وفي هذا اليوم من كل عام يقام اجتماع للاغريق في (پلاطيا). وما يزال الپلاطيون يقدمون قرابين النصر الى (جوبتر الحرية). اما عن اختلاف الايام فلا غرابة في الامر. فمبدأ الاشهر يتفاوت حتى في ايامنا هذه التي امتازت بزيادة معلوماتنا الفلكية ودقتها.

وبعد ان ابى الآثينيون أن ينزلوا للقيديمونيين عن شرف ذلك اليوم. وابوا عليهم اقامة نصب تذكاري. باتت الامور على شفا جرف هار من الانقسام والخلاف بين قوات اليونان المسلحة، لو لم يهدىء اريستيدس الحالة ويقنعهم بترك الامر الى قرار الاغريق كافة. وقد بذل في ذلك جهدا عظيماً لتسكين الخواطر وتبادل الرأي مع القادة ولاسيما (ليوقراطس Leocrates) و (ميرونيدس Myronides). فلما بدأوا يتداولون في الامر أعلن (ثيوجيتون Theogiton) الميغاري أن شرف النصر يجب أن يمنح لمدينة أخرى اذا ارادوا تجنب الحرب الاهلية. ونهض بعده

---

(٢٩) الغنائم أكثر من أن تعد وتحصى. فهنالك كميات كبيرة من الاقداح والاوعية والمعاضد والحلي وكلها امّا من الذهب أو من الفضة. والأرائك الثمينة وكل أنواع الأثاث. وقد أعطي پاوسنياس عُشر الغنيمة برمتها.

(٣٠) اتضح لـ(أرطباز) سوء فعلة [ماردونيوس] وشعر بما سيحل به من نكبات. فبعد أن أبلى أحسن البلاء في المعركة انسحب في الوقت المناسب بأربعين ألفاً كانوا تحت قيادته. فبلغ (بيزنطيوم) سالماً ومن ثم عبر الى آسيا. وفيما عدا هؤلاء لم ينجُ غير ثلاثة آلاف أخرين [هيرودوتس ٩: ٣١ – ٦٩].

(كليوقريطوس Cleocritus) الكورنثي فخيل للناس انه يريد ان يطلب (الغُصن) للكورنيثين (لأن كورنث جاءت في التقدير بعد سپارطا وآثينا). لكنه لدهشة الجميع أدلى برأيه في اختصاص (پلاطيا) بهذا الشرف. واقترح ازالة اسباب الخصام باعطائها الجائزة والشرف لان تقليدها هذا المجد لن يكون مكروها من اي طرفٍ. فبادر (اريستيدس) لاعلان قبوله نيابةً عن الآثينيين، وتبعه (پاوسانياس) عن اللقيديمونيين. وبهذا تمّ رأب الصدع. فأخرجوا ثمانين تالنتاً للپلاطيين، الذين انفقوها على بناء معبد لمينرڤا مع تمثال وزينوه بصور وتهاويل، مازالت الى يومنا هذا تبهر الناظر، لاحتفاظها بروعتها. على ان كلاً من اللقيديمونيين والآثينيين اقام لنفسه ايضاً نصباً تذكارياً خاصاً. وعندما استخاروا في كيفية تقديم القرابين اجاب اپوللو بأن عليهم تكريس مذبح خاصٍ (لجوپتر الحرية)، وان لايقربوا شيئاً إلاّ بعد اطفاء النيران في كلّ البلاد، لأن البرابرة قد دنسوها؛ واشعال نار طاهرةٍ في المذبح العمرمي بدلفي. فباشر حكام الاغريق فوراً بحمل كل ذي نار على اطفائها. وتعهد (يوخيداس) الپلاطي أن يأتي بالنار باسرع ما يمكنه من معبد الإله وانطلق الى دلفي وبعد أن اغتسل وتطهر وظفر رأسه بتاج الغار أخذ النار من المعبد واسرع يعدو نحو پلاطيا فوصلها قبل مغرب الشمس، منجزاً في يوم واحدٍ قطع مسافة قدرها الف فرلنغ (١٠٠٠٠٠ يارد تقريباً) وحيا اهل مدينته وقدم لهم النار، ثم سقط ولفظ روحه بعد قليل. فدفنه الپلاطيون في معبد (ديانا يوكليه) وخطوا على ضريحه العبارة التالية:

«جرى يوخيداس نحو دلفي ثم عاد منها في يوم واحد».

ويعتقد معظم الناس ان (يوكليا) هي (ديانا) ويطلقون عليها هذا الاسم. الاّ ان بعضهم يقول انها بنت هرقل من (ميرتو Myrto) بنت (مينويتوس Menoetus) واخت (پاتروكلس Patroclus). وبموتها عذراءً عبدها (البويوتيون واللوكريون). واقاموا مذبحها وصورتها في ساحتهم العمومية. ويقدم القرابين لها العرسان من كلا الجنسين قبل الزواج[٣١].

ودعي الى اجتماع لعموم الأغريق. واقترح اريستيدس، أصدار قانون يقضي ان يعقد اجتماع سنوي في (پلاطيا) يحضره نواب وممثلون من رجال الدين عن جميع الدول الاغريقية. وان يحتفل كل خمس سنواتٍ باقامة ألعاب الحرية = (إليوثيريا Eleutheria). وأن يُطوّع الاغريق كلهم جيشاً قوامه عشرة آلاف رامح وألف فارس واسطول قوامه مائه سفينة، على ان يعفى بعض الپلاطيون من المساهمة فيه، ويبقوا وقفاً على خدمة الآلهة وأن يقدموا القرابين

(٣١) مبدء قانونيٍ: تقديم اضحيته قبل الزواج الى ديانا «ذات الخير السّار» دليل على أن سعادة الزواج تتوقف الى حدٍّ بعيد على التمسك بعرى الخلق الرفيع.

لخير بلاد اليونان، فصودق على اقتراحه. وتعهد البلاطيون بتقدمة القرابين السنوية عن روح من قتل ودفن في ذلك الموضع ومازالوا يقومون بذلك بالمراسيم التالية:

في اليوم السادس عشر من شهر (ميماكتيريون Memacterion) (وهو شهر «الالكومينس Alalcomenes» عند البويوتيين). يبدأ الموكب بالمسيرة وقت انبلاج الصبح ويتقدمه بوقيّ ينفخ نفير الهجوم ثم يتبعه عدد من العجلات موقرة بالمُرّ وقلائد الزهر ويأتي بعدها ثور أسود ثم مجموعة من الشبان الايفاع، الأحرار بالولادة يحملون القرابين المائعة من خمرٍ وحليب في اوعية كبيرة ذات مقبضين، وجراراً مليئة زيتاً ودهاناً. ولا يسمح لمن كان في اية حالة من حالات الرقّ بالمساهمة في هذه المراسيم لأن الرجال ماتوا دفاعاً عن الحرية. وبعد هذا يأتي كبير حكام بلاطيا وهو بثياب الأرجوان في تلك المناسبة (في غير ذلك من المناسبات لايسمح له لا بلمس الحديد، ولا بارتداء ثوبٍ ملون خلا الأبيض) ويحمل وعاء ماء يؤخذ من دائرة سجلات المدينة ويسير مشهراً سيفاً بيده الى وسط المدينة حيث تقوم الاضرحة، ويستقي ماءً من الينبوع فيغسل الاساطين[٣٢] ويدهنها بالزيت ويضحي بالثور وهو ملقى فوق كومة من الخشب ويصليّ لجوبتر الارضي[٣٣]، ويدعو اولئك الشجعان الذين ماتوا دفاعاً عن بلاد اليونان الى المأدبة والى قربان الدم. وبعد ذلك يمزج وعاءٍ خمراً ويصب شيئاً منه لنفسه ويقول:

- إني اشرب نخب اولئك الذين فقدوا حياتهم في سبيل استقلال اليونان.

وتحرص بلاطيا على اقامة هذه المراسيم الى يومنا هذا.

ولحظ (اريستيدس) ان الآثينين يرغبون في الحكم الديمقراطي حال عودتهم من الحرب الى المدينة. وقدر أن الشعب يستحق الاعتبار والاحترام بسبب ما ابداه من بسالةٍ. كما كان من الصعوبة بمكان معارضته ومجابهته بالقوة وهو شاكي السلاح قويّ، ذو معنوياتٍ عالية لما اصابه من نصرٍ. فاصدر مرسوما يقضي بمساهمة كل مواطن في الحكم، وأن ينتخب الأراخنة من الشعب بالاقتراع. وعندما قال (تمستوكليس) للأثينيين في الاجتماع العام، أن لديه نصيحةً لهم لايستطيع إعلانها جهراً وهي ذات فائدة عظيمة جداً لأمن وسلامة المدينة[٣٤]،

---

(٣٢) يظهر من ملاحظة [كاليماخوس] ان العادة قضت باقامة أساطين صغيرة فوق الاضرحة. ليقوم اصدقاء الميت بسكب العطور عليها وتزيينها بعقود من الزهر ويبدو ان الدفن جرى بعد العمل بشهر واحد لأن شهر [ميماكتيرون] يأتي بعد [بويدوميون] في السنة الاغريقية.

(٣٣) هو [بلوتو] ولديه (مارس) أيْضاً، كجوبتر السماوي. والاّ فانه يستدين رسول الآلهة من أخيه. كذلك يوجد مارسان اثنان كما يوجد جوبتران. إلاّ أن قيادة الارواح في الظلمات السفلى هي من واجبات (مارس) في قسم منها. ومارس يخدم جوبتر في السماء.

(٣٤) كان ذلك قبل معركة بلاتيا في الزمن الذي طرد (كيخسرو) من آسيا. أنظر سيرة (تمستوكليس).

عينوا (اريستيدس) وحده ليسمعها منه، وليقوِّمها لهم. فأسرَّ اليه بنيته وهي اشعال النار في مستودعات سلاح الاغريق، وبذلك يكون الآثينيون سادة بلاد اليونان المطلقين. فعاد (اريستيدس) الى الجمعية وقال: ليس ثم اكثر فائدة من نصيحة تمستوكليس وخطته، كما ليس هناك اكثر ظلماً منها. فأقفل الآثينيون الباب في وجه نصيحة تمستوكليس وامروه بان يعدل عنها. هكذا كان حُبّ العدل مغروساً في نفوس الشعب. وتلك هي الثقة التي اودعوها في اريستيدس.

وأرسل الى الحرب بزمالة (كيمون)[٣٥] ضد البرابرة فلاحظ أن (پاوسانياس) وغيره من القادة السپارطيين مكروهون من سائر الحلفاء لغطرستهم وصرامتهم. فتمكن من استخلاص القيادة العليا من يد اللقيديمونيين لا بالسلاح ولا بالسفن او الخيالة بل بالسياسة الحكيمة واللجوء الى مبدأ المساواة والعدل. فبالرقة والرعاية التي كان يبديها لهم وبروح التجرد وعدم الانحياز التي كان يبديها (كيمون) في الحملات العسكرية متأثراً خطى زميله، عززت مكانة الآثينيين عند سائر الاغريق وزادت باستبداد (پاوسانياس) وانانيته. اذ كان هذا القائد السپارطي يعامل قواد الحلفاء وضباطهم معاملة خشنة فظّة. وكان يفرض على الجنديّ البسيط عقوبة الجلد بالسوط ذي الشُّعَب، او يوقفه تحت مرساة حديد يوماً باكمله، ولم يكن يسمح لأحد أن يأخذ قشاً لفراشه او علفاً لحصانه او التقرب من ينابيع الماء قبل ان يصيب السپارطيون مايريدون منها. اذ كان المراسلون والخدم يقفون بسياطهم لمنع كل من يدنو. وراح (اريستيدس) مرّة يشكو الأمر لپاوسانياس وينبهه بلطف فقال له متجهماً إنه مشغول ولم يكترث به. وكان من نتيجة ذلك أن امراء البحر والجنرالية الاغريق ولاسيما الخيوسيين والساموسيين واللسبيين، جاؤوا الى (اريستيدس) وطلبوا منه ان يكون جنرالهم، ويتولى منصب القيادة العليا للإتحاد الذي كان يريد التخلي عند قيادة السپارطيين منذ امد طويل وينضمّ الى الآثينيين. فأجابهم انه يرى فيما يقولون ضرورةً وعدلاً، الاّ أن اخلاصهم ووفاءهم يتطلب تمحيصاً بعملٍ ما، بحيث يكون من المحال أن يعود الجميع الى تغيير رأيهم هذا. وعلى هذا الأساس اتفق (اوليادس Ulaides) الساموسي، و(انتاغوراس Antagorass) الخيوسي على ادراك سفينه (پاوسانياس) في (بيزنطيوم) وجعلاها بينهما اثناء ما كانت تمخر عباب البحر في المقدمة. وعندما لمحهما (پاوسانياس) ثار ثائره وراح يهددّهما حانقاً بأنه لن يلبث أن يلقنهما درساً في انهما لايعرضان سفينته للخطر بل بلادهما.

فطلبا منه أن ينصرف عنهما ويشكر آلهة الحظّ التي قاتلت عنه في (پلاطيا)، وان الاغريق

(٣٥) بعدها بثماني سنوات.

احتراماً لذلك احجموا حتى اليوم عن ايقاعهم به العقاب الذي يستحقه، والخلاصة خرجوا كلهم وانضموا الى الآثينيين. وهنا ظهرت عظمة روح اللقيديمونيين وروعتها. فعندما ادركوا أن عظمة سلطانهم أفسدت نفوس جنراليتهم نزلوا بملء اختيارهم عن القيادة العليا، وامتنعوا عن إرسال امثالهم الى الحروب، واختاروا مواطنين امتازوا بالعدل والحيدة والحرص على اتباع تقاليدهم اكثر من السيطرة على كلّ الاغريق.

كان الاغريق يدفعون حتى في فترة قيادة اللقيديمونيين مبالغ معينة لادامة الحرب. وقد رغبوا في ان يتمّ تقدير الإعانة الواجبة على مدينة ومدينة، واستعاروا (اريستيدس) من الاثينيين وسلموه القيادة، ليقوم بتدقيق احوال البلاد وعوائدها وفرض الجعالات على اساس قابلية كل مدينة وامكاناتها. ومع تلك السلطة العظيمة التي مارسها على بلاد الاغريق واشرافه على كل شؤونها فانه ذهب فقيراً وعاد وهو اكثر فقراً. ففضلاً عن ان فرضه الضريبة كان عادلاً وبدون تحيزّ، فانها كانت موضع رضا الجميع وقبولهم. وكما كان الاوائل يحتفلون بعصر (زحل) احتفل حلفاء اثينا بعصر ضريبة اريستيدس، واطلقوا عليه «عهد اليونان السعيد». لاسيما بعد ان تضاعفت الجباية في غضون فترة قصيرة جداً. واصبحت بعد زمنٍ ثلاثة اضعاف. وكان المبلغ الذي فرضه (اريستيدس) قد حُددَّ باربعمائة وستين تالنتاً. إضاف اليها پيريكليس مايقارب ثلثها. ويقول (ثوكديدس) ان مادخل الآثينيين من اعانة حلفائهم في بداية حرب البيلوپونيسوس بلغ ستمائة تالنت. إلاّ أن (الديماغوغيين) بعد وفاة (پيريكليس) رفعوها شيئاً فشيئاً حتى ابلغوها ألفاً وثلاثمائة تالنت. لا لأن تكاليف الحرب زادت، ولا لما طرأ عليها من مفاجأت وتقلبات في مسيرتها الطويلة ونجاحاتها القليلة، بل بسبب اغرائهم الشعب بالانفاق على الكماليات ووسائل اللهو واماكن التسلية باسرافٍ عظيم. وباقامة التماثيل وبناء المعابد. لذلك كانت السمعة العالية المستفيضة التي نالها من جراء جباية هذه الاعانة هدفاً لسخرية (تمستوكليس) بقوله أنها ليست تقديراً لرجل بل لصندوق مفعم بالمال. قال هذا رداً (وان لم يكن مطابقاً) على عبارةٍ جارحة تفوه بها (اريستيدس). فمَرةً ذكر تمستوكليس أن أعلى مزيّة يجب ان تكون في الجنرال. هو انه يدرك ويعلم مسبقاً بكلّ ما سيتخذه العدوّ من تدابير. فعقبّ (اريستيدس) على هذا بقوله:

- هذا في الواقع ضرورة لازمة يا تمستوكليس، الاّ أن أسمى ما يجب ان يمتاز به الجنرال، هو ان ترفع يداه عن المال.

وحمل (اريستيدس) دول الاغريق على القسم بألاّ يخرجوا عن الإتحاد. وحلف هو اليمين نيابة عن الآثينيين. والقى باوتاد حديدية في البحر بعد أن حماها بالنار الى درجة الإحمرار،

واعقبها باللعنات على كل حانث بيمينه[٣٦]. لكن عندما آلت الأمور في أثينا الى حالة تستدعي مجيء يد اقوى الى الحكم، طلب من الآثينين تحويل مغبّة الحنث باليمين على عاتقة وقيامهم بما يرونه مناسباً للظروف. وعلى العموم، فإن (ثيوفراستوس) يحدثنا عن (اريستيدس) بأنه كان عادلاً بكلّ ما في الكلمة من معنى في شؤونه الخاصة وشؤون مواطنيه. إلاّ انه كان في المسائل العامة كثيراً ما يعمل وفقما تمليه مصلحة بلاده وسياستها. وهو ما يلجئه واحيانا الى انحراف عن العدالة انحرافاً ليس بالقليل. وقد ذكر عنه في اثناء مناقشةٍ على اقتراح الساموسيين برفع الخزانة العامة من (دلوس) ونقلها الى اثيناً خلافاً لرغبة الاتحاد - انه قال: إن المسألة لا تتفق ومبادىء العدالة في الواقع إلاّ أنها ذات نفعٍ من الناحية السياسية.

وقصارى القول - بعد أن وطدّ (اريستيدس) دعائم سلطان مدينته على هذا العدد العديد من الناس، بقي هو معدماً لايملك من حطام الدنيا شيئاً، وظلّ دائماً معتزاً بالمجد المتأتي من فقره اكثر من اعتزازه بانتصاراته. وهو ما تكشف عنه الحكاية التالية: كان (كالليّاس) حامل المشعل يمتّ اليه بصلة القربى وقد اتهمه خصوم له بقضية كبيرةٍ. فبعد أن تعرضوا قليلاً لموضوع التهمة. انحرفوا عنها ووجهوا الى القضاة الأقوال التالية:

- انتم تعلمون منزلة اريستيديس ابن ليسيماخوس الرفيعة عند سائر الاغريق. كيف تتصورون حالة أسرته في البيت عندما ترونه يبدو في المحلات العامة بمعطف مهلهل بالٍ؟ أليس من المحتمل أن رجلاً كهذا يخرج بحالة مزرية متعرضاً للبرد، لابدّ وان يكون في حاجةٍ الى الطعام وغيره من ضروريات المعيشة؟ وها هو ذا (كالليّاس) اغنى الآثينيين، لا يفعل شيئاً لاغاثته وزوجه واولاده في فقره، مع أنه بن عمّه، وقد استفاد منه في ظروف كثيرة، وكثيراً ما جنى الفائدة من نفوذه عندكم».

وادرك (كالليّاس) أن القضاة قد تأثروا بهذا كثيراً، واشتد تحاملهم عليه. فطلب (اريستيدس) شاهد دفاع له. ليشهد على المرآت العديدة التي قدم له فيها الهدايا المختلفة، والحاحه عليه بقبولها، فكان يرفض قائلاً إن اعتزازه بفقره أليق له وأحفى به من اعتزاز كالليّاس بغناه، مادام هناك كثير من الناس يسيئون او يحسنون التصرف باموالهم، في حين

(٣٦) وتفسير العمل هو كالآتي: مثلما تتطفيء النار في هذه القطع الحديدة بلحظة) كذلك ستنطفيء أيام كلّ من يخلّ بهذا العهد، وانك لتجد تطبيقات عديدة لهذه العادة عند الأقدمين ولاسيما عند الفينيقيين عندما ارادوا تحاشي جيوش (ارباغوس) قائد (كورش) فتركوا بلادهم وأسسوا مدينة مارسيليا في فرنسا العام ٥٣٩ ق.م.

يصعب بعض الشيء أن يصادف المرء ذلك الذي يستطيع احتمال الفقر بروحٍ نبيلة، ولا يخجل من الفقر إلاّ اولئك الذين وقعوا فيه رغم أنوفهم.

عندما وضع (اريستيدس) هذه الحقائق دفاعاً عن (كاللياس) لم يبق سامع إلاّ وفضل ان يكون فقيراً كأريستيدس، لا غنيا ككاللياس. هذا مادونه لنا (ايسخينوس) تلميذ سقراط. إلاّ ان افلاطون قال أن (اريستيدس) هو الوحيد الجدير بالتقدير من بين كل الرجال المشاهير في اثينا، لأن (تميستوكليس) و (كيمون) و (بيريكليس) ملأوا المدينة بالابهاء والأعمدة والتفائس وغير ذلك من العبث لكن (اريستيدس) قاد حياته العامة بالحكم على اسس العدل. لقد اظهر اعتدال طبعه بصورة واضحة جداً بالسلوك الذي اتخذه حيال (تمستوكليس) فمع انه كان خصماً له في كلّ اعماله ومشاريعه وسبباً في نفيه؟ رأيناه عندما سنحت له فرصة الثار منه عندما اتهمته المدينة، لم يحمل له موجدة. وظلّ وحده ساكتاً لايفعل شيئاً بينما كان (الكميون) و (كيمون) وكثيرون غيرهما يستابقون في اتهامه والانتقاص منه. ولم يكن احساسه بالانتصار على عدوّه في ميدان الخصومة اكثر من حسده له في حالة مجده وسؤدده.

قال بعضهم ان اريستيدس توفي في (پونطس Pontus) في اثناء رحلة تتعلق بالمسائل العامة. وقال آخرون انه توفي في اثينا بعد عمر مديد كان فيه موضع تجلة واحترام مواطنيه. الأ ان (قراطيروس Craterus)(٣٧) المقدوني يروي عن موته الحادثة التالية: بعد نفي (تمستوكليس) زادت جرأة الاوشاب ووقاحتهم وبرز منهم عدد من المفترين واتهموا خيرة المواطنين واوسعهم نفوذا وعرضوهم لنقمة الجماهير، التي ملأتها قوتّها، وسعود حظهّا فخراً وفيها. وكان بين هؤلاء المتهمين (اريستيدس) الذي ادين بالرشوة بناء على اتهام (ديوفانطس Diophantus) الامفيطروپي Amphitrope له، بأنه اخذ مبلغاً من الآيونيين عندما كان محصلاً للغرامة. ولما كان عاجزا عن دفع الغرامة وقدرها خمسون (مينا) فقد ابحر الى ايونيا وتوفي فيها. الأ أن (قراطيروس) لا يقدم دليلاً خطياً على مايزعمه. لامن قرار ادانته، ولامن مرسوم الشعب. وإنْ كانت العادة المتسامح بها عموماً قد جرت بتدوين هذه الروايات فقط على اساس الاقتباس دون ذكر المرجع. والكتاب كلهم تقريباً، حين يتكلمون عن سوء افعال الشعوب حيال قادتها وزعمائها، يجمعون الوقائع معاً فيتحدثون عن نفي تمستوكليس وغرامة (پريكليس) وحبس (ملتيادیس) وموت (پاخیس Paches) في قاعة المحكمة. اذ نحر نفسه فوق المنصة على اثر ادانته. هذا الى جانب امور عديدة مشابهة لها وانهم يضيفون الى ما

(٣٧) عاش فترة قصيرة بعد اريستيدس ويظنه [موشيوس: تاريخ الاغريق ٢] الرجل الذي رافق الاسكندر الكبير الى الشرق. توفي اريستيدس في ٤٦٧ ق.م.

سبق نفي اريستيدس، لكنهم لايذكرون شيئاً عن ادانته قضاءً.

فضلاً عن هذا مازال ضريحه قائماً في (فاليرُم) بني كما يقال على نفقة المدينة، لأنه لم يترك ما يكفي لسدّ نفقات جنازته. وذكر ايضاً أن بنتيه زوجتا على نفقة الدولة وبمسعى من (البريتانيوم) اي مجلس الدولة. وان المدينة مهرت كلاً منهما ببائنة زواج قدرها ثلاثة آلاف دراخما. ومنح الشعب ابنه (ليسيماخوس) هبة من المال وقدرها مائة مينا ومائة ايكر من الارض الصالحة للزراعة. كما أمروا له بناءً على اقتراح (الكيبيادیس) باربعة دراخمات يومياً[٣٨] اضافة الى ما سبق. ثم إن ليسيماخوس هذا ترك ابنة تدعى (پوليكريته Poly-crite)، يقول (كالليستينس Callisthenes) انّ الشعب صوت ايضاً على منحها إعانةً للطعام تساوي ما يمنح للفائزين في الالعاب الاولمپية[٣٩]. الا أنّ (ديمتريوس) الفاليري و (هيرونيموس) الروّدوسي، و(ارسطوكزينس) الموسيقيّ، وارسطو الفيلسوف (اذا كانت رسالته «في النُّبل» تعتبر من كتاباته حقاً) يذكرون ان (ميرتو) حفيدة (اريستيدس) عاشت مع (سقراط) الفيلسوف، الذي كان لديه زوج أخرى كما هو معروف، فقد ادخلها بيته زوجةً بعد ترملها[٤٠] لإملاقها ولافتقارها الى ضروريات الحياة. إلاّ ان (پانيتيوس) يفند هذا بالبراهين القاطعة في كتابه عن سقراط. ويقول (ديمتريوس) الفاليري في كتابه عن سقراط، انه عرف شخصاً إسمه (ليسيماخوس) هو ابن بنت (اريستيدس) نقير لا يملك من حطام الدنيا شيئاً اعتاد الجلوس قريبا مما يطلق عليه (إياخيّوم Iaccheum) ومعه زيجُ لتفسير الاحلام يعتاش منه. وبناء على اقتراحه وبمسعى منه صدر مرسوم شعبي يقضي بصرف مبلغ نصف دراخما[٤١] يومياً لأمّ هذا الرجل[٤٢] وخالته من الخزانة العامة. ولما بلغ (ديمتريوس) نفسه

(٣٨) ربما بدا هذا الراتب التقاعدي بسيطاً تافهاً. لكنه كان يعني مبلغاً كبيراً في ذلك الوقت ويخبرنا [اخارتينس الارسطوفاني [ج١: ٢، ٦٥] ان السفير كان يصرف له دراخمان يومياً. وهذا الشاعر في الواقع يتكلم عن سفير ارسل الى بلاد فارس. والسفير المرسل الى هذا البلاط يكون واثقاً انه سيعود غنياً.

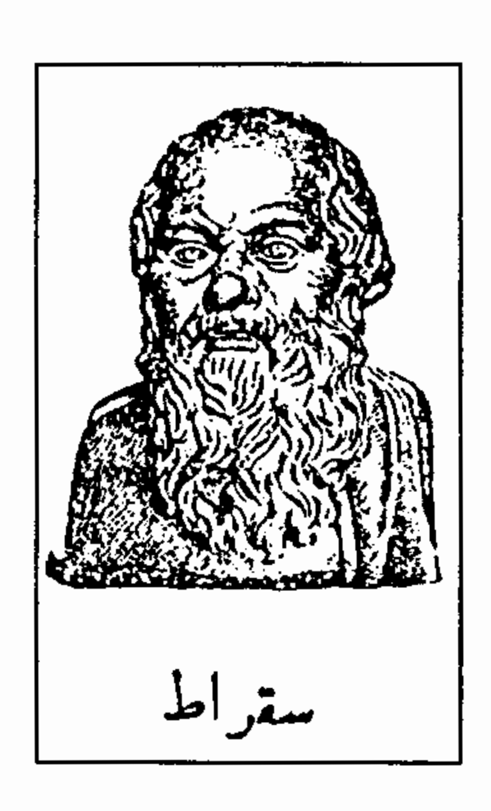
(٣٩) هؤلاء الذين يصرف عليهم في البريتانيوم من الخزانة العامة انما يتسلمون ارزاقاً محددة طوال ايام حياتهم.

(٤٠) كيركوبس: كان قد حرم تعدد الزوجات في أثينا. لكنه استن قانوناً في عهد سقراط يعطي حق المواطنة الأثينية للأولاد المولودين من المخصبات وخارج الرباط الزوجي. وكان السبب هو تناقص عدد السكان، على أن هناك عدداً من المؤرخين يستبعدون ذلك.

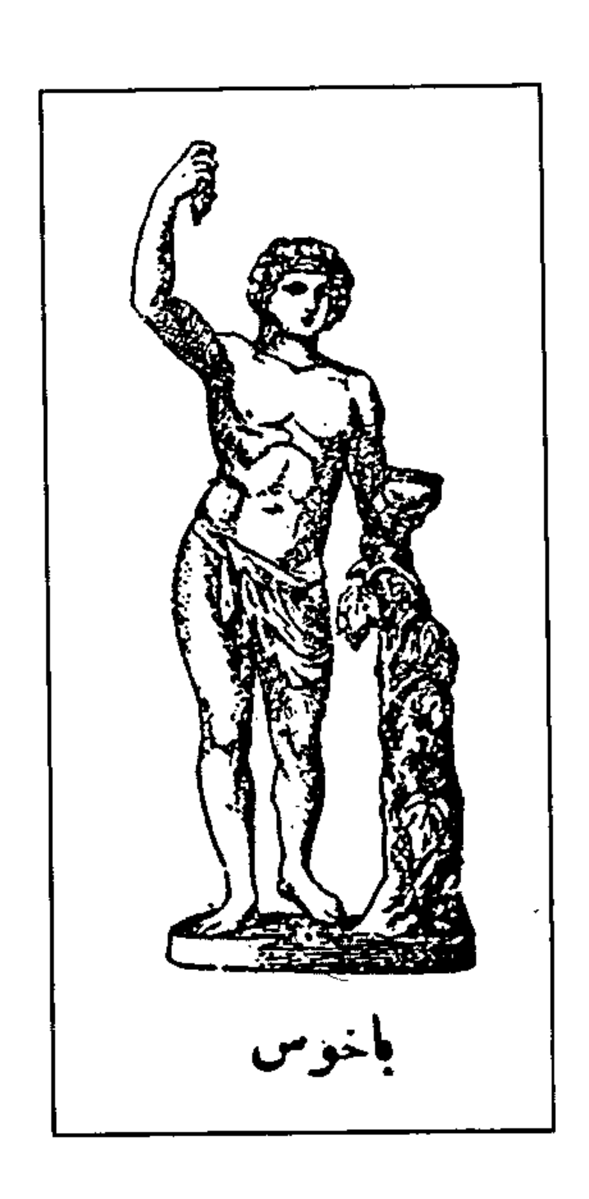
(٤١) اي ثلاثة أوبولات. (ج اوبول) كانت المعيشة رخيصة جداً في اثينا آنذاك كما أوضحنا في سيرة صولون.

(٤٢) هذا البطل قام مع [هرموديوس] بتوجيه الضربة الأولى لطغاة اسرة بسستراتيدي بقتله (هيپارخوس) أحد ابناء بسستراتوس في العام ٥١٣ ق.م فقام الابن الآخر الذي نجا وهو (هيپياس) بقتلهما في الحال. وقد بقي هذا في الحكم اربع سنين ثم طرده الأثينيون.

منصب الحاكميّة قرر تخصيص دراخما واحدٍ لكلّ من المرأتين يومياً. وليس بعجيب أن يهتم أهل آثينا بالناس الذين يعيشون في المدينة الى هذا الحد؛ فقد فعلوا اكثر من هذا، عندما سمعوا أن حفيدة (ارسطوجيتون Aristogiton) تشكو حالة عسرٍ شديدٍ في جزيرة (لمنوس) بحيث لم يخطبها أحد، فجاؤا بها الى آثينا وزوجوها برجلٍ شريف النسب ومهروها بحقلٍ في (پوتامُس Potamus). لقد قدمت اثينا ومازالت الى يومنا هذا تقدم البراهين المماثلة على انسانيتها وكرمها. ولهذا كانت جديرة بالاحترام والاجلال الذي تتمتع به الآن.



سقراط


باخوس

مارکوس کاتو

MARCUS CATO

(Porcius)

234 – 149



قـيل لنا أن (مـاركـوس كاتـو) ولد في (توسكولوم Tusculum)، وانه نشأ وعـاش في بلاد السابين حيث هناك ضيعة والده حتى انصرف الى الشؤون العسكرية والسياسيّة. وتشير الاحتمالات كلّها الى أن نسبه لم يكن عريقاً وأن اسلافه يكتنفهم الخمول التام وهو نفسه يثني على ابيه (مـاركوس) ويصفه بحميد الخصال بالجنديّ الشجاع. ويذكر عن جدّ ابيه أيضاً بأنه نال جوائز حربية كثيرة. وقد قـتل تحته خمسة خيول وصرفت له قيمتها من الخزانة العامة تقديراً لبسالتـه. وكان من عادة الرومان أن يطلقوا على الرجال الذين لايمتون بنسب عريق، لكنهم بلغوا مراقي الشهرة والنجاح بمسعاهم. الرجال الجدّد[1]، او حديثي النعمة، ولم يكن (كاتو) ينكر ذلك عندما يصفونه بهذا في ايّ تكريم رسميّ يحوزه أو منصب حكومي يتقلده، بيد أنه لايني يؤكد أن اسلافه عريقون جداً في مجال الشجاعة والاخلاق الفاضلة. ولم يكن اسـمه الثالث (كاتو) أصـلاً بل (پريسكوس Priscus) على أنه لُقّب (بكاتو) فـيما بعـد لكفاءاته. لأن الرومان يطلقون صفة (كاتوس Catus)[2] على كل شخصٍ حاذق مجرّب. وكان مورّد الوجه، أشهل العينين، والشاعر الذي نظم الابيات التالية بنية سوءٍ، جعلنا نرى:

(پورشيوس Porcius) الذي لايفتأ يصيح في كل مكان بعينيه الشهلاوين
وشعره الأحمر وبنابيه[3] الحادين المرهفين يصعب أن تسمح له (هيكاته He-cate)، حتى بعد موته بدخول مملكة جهنم!

ووهب منذ حداثته بدناً قوياً متيناً بالدوام على العمل اليدويّ، والعيش باعتدالٍ، والخدمة

---

(١) قُصر حق التصوير Jus imaginam على رجال الدولة الكبار. فلا ينصب تمثال أو تعلق صورة لغيرهم. ومن كان اسلافه من هؤلاء عدّ ضمن طبقة النبلاء. ومن كانت صورته وتماثيله وحدها معلقة أعتبر «رجلاً جديداً» ومن هو ليس من هذين عُدّ وضيع المولد Ignble. وهذا ما يقوله [اسكونيوس] لكن لا يبدو منسوباً الى النوع الثالث رجلٌ تقلد منصباً عظيماً كمنصب القنصلية، لأن تماثيله أو صوره ليست منصوبة. فمن الممكن ان يكره ذلك ككاتوا الذي كان ينفر من عرض صوره.

(٢) كلمة كاتوس Catus اللاتينية تعني «البعيد النظر» ولعله الأول الذي حمل هذا اللقب.

(٣) يقول أحد الشعراء فيه انه كان «پانده ختنس» وهي كلمة أغريقية معناها «من لا يقف في سبيله شيء» ويضمن هذا التعبير اللاتيني يستخدم اسمه الثاني Porcius توريةً باستبداله بـ Poreus اي خنزير. لاشتهار هذا الحيوان بالعناد.

في الجيش. ويظهر انه نال حظاً متساوياً من القوة والصحّة. واستغلّ ومارس قوة عارضته في الانحاء المجاورة والقرى الصغيرة. فعنده ان الفصاحة تلي في الاهمية قوة البدن لمن يتطلع إلى حياة أرفع من حياة الخمول والبساطة. ولم يكن يأبى التوكل عن كل من يقصده، وعرف منذ مطلع حياته بأنه محامٍ جيد ولم يلبث أن أشتهر خطيباً قديراً.

واخذ عمق شخصيته وقوتها يتضحان شيئاً فشيئاً واكثر باكثر لمن يهمّه أمره، وراحت مواهبه تبحث عن منطلق لها في الأمور الهامة، والاماكن القيادية في عالم السياسة. ولم يكتف بالامتناع عن تقاضي اجورٍ عن اتعاب المحاماة والرأي القانوني، والمرافعات، وانما كان لا يعلق كبير اهتمام على المكانة والشهرة التي يصيبها من تلك المعارك القضائية، وكان يريد على مايبدو أن يُبرزّ نفسه في ميدان القتال الحقيقي. وبدا صدره وهو في عنفوان شبابه مغطى بالندوب التي رسمتها عليه اسلحة العدو. وقال ان اول معركة خاضها ولم يتجاوز عمره السابعة عشرة. كان ذلك عندما بلغ (هنيبعل) أوج عظمته وقوته، يعيث في ايطاليا حرقاً مخرباً[٤]. كان في قتاله يكيل ضربات صاعقة ويقف ثابتاً في محله لاينكص خطوة الى الوراء، وينظر الى خصمه نظرة حادةً جريئة، ويفاجئه بصياحٍ راعدٍ تهديدي، ويعلل موقفه هذا للآخرين أن اسلوبه الفظ ذاك يشيع الرعب في الآخرين اكثر من رهبة السيف نفسه احياناً. وكان في المسيرات يحمل كل سلاحه ويمشي، ولا يوكل لخادمه الاّ حمل المؤونة والطعام. وقيل أنه لم يغضب منه ولم ينتهره قطّ اثناء اعداده طعام الغذاء والعشاء بل كان غالباً ما يساعده ويزامله في الطبخ عند خلوه من الواجبات العسكرية. ولم يشرب طوال خدمته في الجيش غير الماء القراح الاّ اذا كان شديد العطش فاذ ذاك يمازجه بقليل من الخل[٥] وقد يتعاطى شيئاً زهيداً عندما يبلغ به الانهاك غايته القصوى.

وصادف أن الدار الريفية الصغيرة العائدة (لمانيوس كيوريوس[٦] Manius Curius) (وهو القنصل الذي دخل دخول ظافرين ثلاث مرات) كانت قريبة من حقله، فاخذ يتردد اليها كثيراً ويتأمل في صغر مساحتها وبساطتها وخلوّها من أي زخرف وكون في رأسه فكرة عن رجل عُدّ من اعظم عظماء الرومان أخضع اشدّ الشعوب مراساً وتعلقاً بالحرب، لا بل طرد (بيروس Pyrrhus) من ايطاليا. وهو الآن بعد مواكب ظفر ثلاثة، قانعٌ بفلاحة هذه القطعة الصغيرة من

---

(٤) اذا عزونا هذا الى السنة التي نشبت فيها معركة (كاني) = ٢١٥ ق.م فسيكون ميلاد كاتو في العام ٢٣٢ ق.م.

(٥) ميزة الخلّ هو خفضه حرارة الجسم ولذلك فانّ العمّال يُسقون منه اثناء الحصاد.

(٦) مانيوس كيوريوس دنتاتيوس نال موكبي نصر في أول فترة قنصلية لتغلبه على السابين والسامنيت وأنتصر على بيروت في قنصليته الثالثة ثم نال «ترحيباً حماسياً» للنصر الذي حققه على اللوكانيين.

الأرض، والعيش في كوخ بسيط. هنا وجده سفراء الساميين Samnites يسلق اللفت في زاوية من المدخنة فقدموا له هدية من الذهب. إلاّ أنه صرفهم عنه بهذا القول: انه راضٍ بعشائه هذا وليس بحاجة الى الذهب وهو يرى قهر من يملكون النهب أشرف من مُلك الذهب نفسه. بعد أن يتأمل (كاتو) في هذه الامور يقفل راجعاً ويروح يعيد نظره في حقله وخدمه وشؤون بيته، ويزيد من عمله وينقص من مصروفاته الزائدة.

كان (كاتو) الشاب جندياً في جيش (فابيوس ماكسيموس) عندما استولى على (تارنتوم) وكان يساكن شخصاً يدعى (نيارخوس Nearchus) يعتنق الفلسفة الفيثاغوريّة، فرغب في ان يطلع على شيء من عقيدته وسمع منه المبادىء التي كان افلاطون ينادي بها ايضاً. إن اللذة هي طعم الشرّ الاساسيّ. والجسم هو بلية الروح الرئيسة... وإن تلك الافكار التي تفصل الروح عن الجسم وتأخذها وتنأى بها عن نوازعه هي التي تطهّرها وتحررها. فازداد تعلقاً وحبّاً بالزهد والتقشف، باستثناءٍ واحدٍ وهو عكوفه على دراسة اليونانية عندما تقدمت به السنّ على ما قيل. وقد استفاد من فن الخطابة من (ثوكديدس) قليلاً، وكانت فائدته من (ديموستينس) اكثر وقد عمد الى توشية كتاباته بكثير من الأقوال والحكايات اليونانية بل كان يخلط عباراته وجمله بالكثير المترجم منها حرفياً.

كان يوجد رجل من الطبقة العليا، ومن اوسع الناس نفوذاً بين الرومان يدعى (ڤاليريوس فلاكّوس Valerius Flaccus). عرف هذا بنفاذ بصيرته في استشفاف النبوغ وهو في براعمه، وباهتمامه الكبير في تغذية هذا النبوغ وتعهّده بالنموّ. وكان على ما يظهر يملك عقاراً ملاصقاً لملك (كاتو)، وكان خدمه يحدثونه عن الاسلوب الذي يتبعه في حياته، كيف انه يشتغل بيديه، ويخرج في معظم الايام صباحاً، سائراً على قدميه الى المحاكم لمساعدة من هم في حاجة الى مشورته. وكيف يعود الى البيت في ايام الشتاء فيلقي فوق كتفيه عباءة خشنة[٧]. وكيف يشتغل بين خدمه وعماله صيفاً، ولبس عليه شيء من الثياب، يجالسهم ويأكل من خبزهم ويشرب من خمرهم. ولم يكن هؤلاء الخدم في معرض حديثهم عن مزاياه الطيبة الأخرى كحسن معاملته ورقة طبعه، ينسون ترديد بعض الحكَم التي ينطق بها. فزاد اعجاب (ڤاليريوس) به ودعاه الى العشاء، وبات متأكداً من سموّ خلقه وحميد خصاله التي اشبهت نبتةً لاتحتاج الى غير التشذيب وارض افضل لنموها، فالح عليه حتى اقنعه بخوض غمار حياة السياسة في روما، فانتقل الى العاصمة، ولم يلبث أن كسب برافعاته القضائية كثيراً من الاصدقاء والمعجبين، إلاّ أن (ڤاليريوس) كان اكبر عضد له في صعوده؛ فقُلّدَ اولاً منصب

(٧) رداء (بتيّة) قصيرة مستقيمة تغطي الكتفين فقط.

التريبيون العسكري، ثم عين بمنصب (الكويستور) أي «أمين بيت المال». ولما اشتهر أمره وبرزت شخصيته راح يتقلب في ارفع المناصب القيادية بزمالة (ڤاليريوس) نفسه. فغدا (قنصلا) معه، ثم عُين «چنسوراً» على انه اختصّ (بفابيوس ماكسيموس) من دون أقدم الشيوخ ولصق به، لالغرض الافادة من سعة نفوذه، او تكرّما بشخصه، بل لأنه وجد في اسلوب حياة هذا الرجل واخلاقه المثل الأعلى الذي يحتذيه. ولهذا لم يتردد في معارضة (سكيپيو) الكبير الذي كان آنذاك شاباً - عندما طاب له أن يتحدّى سلطان (فابيوس). ومع أنه استهدف لحقد وخصومة (سكيپيو). فقد رافقه بحكم "امانته لبيت المال" الى صقلية. فوجده يسرف في النفقات ويوزع المال على الجنود بلا حساب جريا على ماطبع عليه من سخاء. فاغلظ (كاتو) له القول. ونبهه الى ان الانفاق الكثير ليس أدعى الامور الى الاهتمام بحد ذاته، وان الخطورة هي فيما ينجم عنه من إفساد الجنود واستسلامهم لحياة الترف بمنحهم اسباب تعاطي اللذائذ واللهو العابث فردّ عليه (سكيپيو) أن لاضرورة تدعوه الى أن يكون امين بيت مالٍ حريصاً الى هذه الدرجة (وهو كما يرى منطلق الى الحرب باسرع ما تدفعه اشرعة سفنه)، وانة ملزم أمام الشعب بتقديم الحساب عن اعماله الحربية لاعن الاموال التي ينفقها. فترك (كاتو) صقلية عائداً، وشنّ مع (فابيوس) حملة على (سكيپيو) في جلسة علنية لمجلس الشيوخ، متهماً اياه بتبديد الاموال الطائلة، وقضائه اوقاته بعبثٍ صبياني، في مباريات مصارعة وتمثيليات هزلية، كأنه ليس في حرب بل في عطلة. ونجح في حمل المجلس على ارسال عدد من تريبيونات الشعب للتحقيق وارسال (سكيپيو) الى روما في حالة ثبوت صحة التهم. إلاّ أن سكيپيو، باستعداداته وبالنصر الذي كان يتوقعه، وبتبيّنهم أنه يعيش عيشة طيبة لاغير مع اصدقائه عندما لايوجد ما يشغله من المهام وان ترفه وسخاءه لم يجعلاه مهملاً في الامور الهامة الدقيقة، جبّ عن نفسه التهمة وبادر الى الاقلاع عن صقلية الى ميدان الحرب فوراً.

وتعاظم نفوذ (كاتو) بفضل بلاغته حتى اشتهر بلقب «ديموستينس الرومان» إلاّ أن اسلوب حياته كان مداراً لأكثر الحديث عنه وادعى الى اشتهاره. ذلك لأن اتقان الخطابة كوجه من وجوه التربية والتثقيف كان غاية دراسية عامة لكلّ الشبّان، الا انه يندر جداً أن تجد شخصاً يطبق المبادىء الغابرة في العمل الفصلي والجهد اليدويّ، او يفضلّ تناول العشاء الخفيف، او اعداد فطوره من طعام لايرى النار، او يتعشق ارتداء ثياب الخصاصة والعيشة المنزلية البسيطة، او يوجه مطمحه الى الاستغناء عن وسائل الترف والنعيم لا الى حيازتها.

كانت الحكومة عاجزة عن الاحتفاظ بطهرها ونقائها بسبب ما بلغته من العظمة والسؤدد،

ولاتساع دائرة اعمالها ودخول كثير من شعوب العالم تحت سيطرها كانت مضطرة الى قبول كثير من العادات المزيجة، والتسامح في طرائق عيش حديثة. لذلك كان لإعجاب الجميع (بكاتو) سببه الوجيه، فهم يرون الآخرين غارقين في الشهوات وقد تخنثوا بما نهزوا من اللذاذت بينما حقق الرجل انتصاره على الإثنين معاً. فسواء في عزّ شبابه، وعنفوان رغبته في السلطان والشهرة، أو عندما تقدم به العُمر وشاب فوداه بعد توليه القنصلية ودخوله في موكب النصر، كان في الحالتين اشبه ببطلٍ فائز من ابطال الالعاب الرياضية لاينقطع عن ممارسة تمارينه. ويبقى محافظاً على طرائق عيشه الى الاخير. ويقول (كاتو) عن نفسه انه مالبس يوماً حلّة من الثياب تزيد قيمتها عن مائة دراخما، وانه لما كان جنرالاً وقنصلاً، لم يتعفف عن شرب الخمر الذي يتناوله مرؤوسه وعمّاله، وقال ان اللحم او السمك الذي يشتريه لغدائه من سوق اللحم لم يكلفه قط اكثر من ٣٠ (أسّاً asses)، وكل هذا كان في سبيل الجمهورية ليخشوشن بدنه ويقوى على الحروب.

وكان قد ورث قطعة سجّادٍ بابليّة مطرزة، فباعها لانه لايوجد كوخ ريفي واحد من اكواخه التي يسكنها وهو مجصّص الجدران، ولم يشتر عبداً زاد ثمنه عن ألفٍ وخمسمائة دراخما، لأنه لم يكن يقبل على العبيدَ المخنثين الحسني الصورة، بل كان ينشد عمالاً اشداء كفوئين، وسائسي خيل ورعاة بقر، يمكنه ان يبيعهم ثانيةً عندما يتقدم بهم العُمر، لكيلا يطعم افواهاً لا فائدة من اصحابها.

فهو بكلمة مختصرة لايعد ما يزيد عن اللزوم كسباً. ويرى انه اذا ماباع ما لاحاجة له به. بفلس واحد، فقد حصل على ثمن طيبّ. وكان يشتري حقولاً للبذار والجني، لااراضي للرعي والارواء.

قد يرى بعض الناس في هذا مايشبه البُخل إلا ان بعض الناس لايرون فيه بأساً ويستحسنونه منه كأنما اخذ على نفسه الحرمان وفرض عليها التقتير لأجل تهذيب الآخرين وحثهم على هذا النهج... انها لعمري وفي اعتقادي لنفسٌ مفرطة في الحرص والإمساك تلك التي تعتصر العمل من الخدم كأنهم حيوانات بهيمة، ثم تنبذهم نبذ النواة ليباعوا وهم في اراذل العمر، أنها لطبيعة كزّة ان تظنّ بالاً علاقة اوصلة بين انسان وانسان إلا اذا كان فيها بعض الكسب. ونحن نرى إن للعطف او للإنسانية ميدانا أرحب من ميدان العدالة المجردة، فيه تمارس عملها ونشاطها. إن القانون والعدل وفقاً لنواميس الطبيعة لايطبقان إلاّ على البشر إلاّ انه يمكن نشر احساننا وطيبتنا في دائرة تشمل المخلوقات التي لاعقل لها، واعمال كهذه إنما تصدر من طبيعة رقيقة سمحاء مثلما ينبجس الماء من ينبوع ثرّ. ومما لاجدال فيه أن واجب

ذي القلب الرقيق ان يحتفظ حتى بالخيول والكلاب الهرمة. وان لاتكون عنايته بها قاصرة على وقت نفعها له. بل تمتد منذ ان تكون امهاراً وجراءً حتى تنفق.

عندما بني الأثينيون (الهيكاتومپيدون Hecatompedon) اطلقوا البغال التي قامت بأشق الاعمال فيه ترعى وتتوائب حُرّةً. وقالوا ان واحداً منها تقدم من تلقاء نفسه يعرض خدمته فساير بل استبق ازواجاً منها كانت تجر عجلات صعداً الى (الاكروپوليس) كأنه يريد تشجيعها وتحميسها للجرّ بقوة. فصوّت الآثينيون على اقتراح يقضي أن يبقى هذا البغل متمتعاً بحريته على نفقة الدولة حتى يفطس. وان قبور خيول (كيمون) التي فازت في السباقات الاولمپية ثلاث مرات، مازالت شاخصةً الى يومنا هذا بالقرب من ضريحه. ودفن (كزانيثپوس) الشيخ، كلبه الذي سبح خلف سفينته حتى (سلاميس) عند خروج الناس من اثينا، دفنه على قمة جرف مازال يسمى "بقبر الكلب"[٨] الى يومنا هذا. وهناك كثير من الناس دفنوا كلابهم التي ربّوها.

ليس لنا أن نعامل المخلوقات الحية كما نعامل الاحذية والاواني القديمة فنلقي بها خارجاً عندما تبلى او تنكسر لفرط الإستعمال. ومن الواجب على المرء ان يعود نفسه بادىء ذي بدء على هذا الميل إن لم يكن لغرضٍ ماسوى لدراسة العمل الانساني وتطبيقه ليكتسب المرء طبعاً عطوفاً جذاباً. واما عن نفسي فلن اقدم قط على بيع الثور الذي يجرّ عربتي بسبب تقدمه في السنّ، فما قولك باستبدال انسان هرم بائس بقطعة نقد تافهة وطرده خارج موطنه وابعاده عن المحل الذي عاش فيه طويلاً وحرمانه شكل الحياة الذي تعوده ولاسيما عندما لايكون فيه نفع للبائع او للشاري. ومع هذا فإن (كاتو) كان رفيعاً عندما ترك حصانه رمز الانتصارات والمجد بعد أن ركبه في حروبه وفي فترة قنصليته، لئلا يُحمّل الخزينة العامة نفقات شحنه الى روما! ولنترك لكلٍ رأيه الخاص في هل أن مثل هذه التصرفات تعزى الى عظمة نفسه ام الى صغارها؟

امّا عن خلقه العموميّ، وضبطه لنفسه فهو وايّم الحق يستحق أعظم الإعجاب، ففي اثناء ماكان قائداً للجيش، لم يأخذ اكثر من ثلاثة بوشلات من القمح شهرياً لنفسه ولمن هم في معيته. وما لم يزد عن بوشل واحد ونصف بوشل من الشعير علفاً لدواب الحمل الخاصة به. ولما تولى حكم (سردينيا Sardinia) كان الفرق الذي حققه في اقتصاده النفقات لا يصدّق. فقد اعتاد اسلافه الحكام ان يطلبوا من الخزينة العامة خياماً وأفرشة وثياباً ويتقاضوا من الدولة مبالغ طائلة للارزاق والطعام لافواج كبيرة من الخدم والحشم والاصدقاء. ولم يكن يقدم

(٨) باللاتينية Cynos Sema.

على عمل مهما كان – اذا كلف بيت المال مبلغاً، فتراه يسير ماشياً على قدميه ولايستخدم وسيلة نقل عند زيارته المدن لايصبحه في جولاته غير ضابط شرطة بلديّ، يحمل رداءً له وكأساً لتقديم القرابين. ومع انه كان يبدو لمرؤسيه وعماله متساهلاً زاهداً، الا انه كان يظهر صرامة لاتلين وحزماً في كل ما يعود الى عدالة الدولة. وكان متشدداً دقيقاً فيما يتعلق بقوانين الجمهورية. ولذلك لم يبد الحكم الروماني اكثر مهابة ورهبة واكثر تسامحاً وليناً مما بدا وقت ادارته شؤونه.

وكان في حديثه مايحمل على الظن أنه يقصد به نوعاً من غاية، فهو انيس إلاّ انه عنيف، شيق لكنه مسيطر، هزليّ غير انه صارمٌ، قويّ الحجّة الاّ انه حاد؛ (كسقراط) حسب وصف افلاطون: يبدو لمن حوله ظاهرياً فهو لااكثر من شخص بسيط فيه ثرثرة وعناد، أمّا في باطنه فهو رجل مفعم بالجد مكتنز المادة، يمكنه ان يفجرّ الدمع من عيون مستميعه ويمسّ شغاف قلوبهم». ولذلك فانا لاادري ما الذي حمل بعضهم على القول ان اسلوب (كاتو) يشبه كثيراً اسلوب (ليسياس Lysias) وعلى اية حال فلنترك الحكم في تلك الامور للناس الاكثر وقوفاً وتمييزاً بين مختلف الاساليب الخطابية في اللغة اللاتينية. ولننتقل الى اثبات بعض اقواله المأثورة، فرأينا – وهو ليس كما يظن البعض – ان اخلاق المرء تنضح من اقواله اكثر مما تنّم عنها صورته بكثير.

أراد مرة أن يحمل عامّة الرومان على العدول عن مطالبتهم العاجلة اللجوجة بالمال، والحاحهم بتوزيع القمح فاستهلّ خطابه فيهم بقوله: "انها لمهمّة شاقة ايها المواطنون، أن يتوجه المرء بخطابه الى البطون التي لاأذان لها!". وفي معرض تأنيبهم على إيغالهم في الاخذ بأسباب البذخ والترف قال لهم:

«من الصعب جداً المحافظة على كيان مدينة تباع سمكتها بثمن اعلى من ثمن ثورها». ومن اقواله المأثورة: أن الشعب الروماني يشبه الاغنام الواحدة منها لايسلس لها قياد، فإذا اجتمعت في قطيع لم تتردد في اتباع قائديها،...» كذلك انتم، تسلسون قيادكم عندما تكونون كتلةً واحدة – لاولئك الذين لاتفكرون في اتباع نصحهم وانتم افراداً». وقال في حديث له عن سلطان النساء: «الرجال عادةً يقودون النساء، ونحن نقود كلّ الرجال، والنساء تقودنا» وهذا القول في الواقع مقتبس من تمستوكليس. حين كان ابنه يشتط في طلباته العديدة عن طريق امّه قال تمستوكليس:

– إن الآثنيين ايتها الزوج يحكمون اليونان، وانا احكم الآثنيين وانت تحكمين، وابنك يحكمك. فدعيه إذن يقصد في استخدام سلطانه هذا، مادام قادراً – وهو في حالته هذه

من السذاجة – على أن يفعل اكثر مما يستطيعه الاغريق مجتمعاً.

وله قول آخر وهو: ان الرومان لم يقفوا عند حدّ تسعير كذا وكذا من الاصباغ الحمراء، بل سعروا قيمة كذا وكذا من العادات والتقاليد... "فكما ان الصباغين يصبغون غالباً الألوان الالطف والأقرب الى الذوق، كذلك الشبان فهم يثابرون على تعلّم ماهو احبّ الى نفوسكم، والتخلّق بما هو اقرب الى ذوقها» وقال لهم مرة على سبيل التأنيب: «عندما تجلّون وتعظمون لفضائلكم وادبكم، فاحذروا أن تتغير حالكم الى الأسوأ. أما اذا كانت تلك العظمة متأتيةً من الرذيلة وسوء الخلق فعليكم أن تتغيروا الى الأحسن. فبهذه فقط تكونون عظماء حقاً بقدر ما تريدون».

ويقول ايضاً عن اولئك المتشبثين بمناصبهم الكارهين تركها: هؤلاء كما يبدو لايعرفون الطريق ماداموا عاجزين عن السير بدون ادلائهم الذين يقودونهم فيها».

وعتب على المواطنين لأنهم يعيدون انتخاب عين الرجال حكاماً فقال: «من هذا يبدو لي إما انكم لاتضعون في الحكم قيمة كبيرة، وأمّا ترون ان اللائقين بالحكم قلة ضئيلة».

وقال عن عدوّ له يحيا حياة العار والرذيلة: «إن دعاء أمّ هذا الرجل بأن تتركه وراءها في الحياة انما هو لعنة له لابركة» وقال مشيراً الى رجل باع ارضاً تقع على ساحل البحر كان قد ورثها عن ابيه: «لقد كان عمله هذا مظهراً معبراً عن دهشته من كونه اقوى من البحر نفسه. فما جرف البحر بكثير من الجهد والمشقة، استنفذه هو شرباً بكثير من اليُسر. واستقبل مجلس الشيوخ الملك (يومينيس Eumenes) بكثير من الحفاوة والفخفخة عند زيارته روما وتنافس وجهاء المدينة ومبرزوها على التقرب منه. وبدا (كاتو) ينظر اليه بريبة وحذر. وسمع أحد القريبين من الضيف يقول له متزلفاً ان الملك طيب جداً كثير الحبّ للرومان. فعلّق (كاتو) على العبارة قائلاً «قد يكون الامر كذلك لكن هذا الملك الحيوان هو نوعٌ من اكلة لحوم البشر بطبعه»[٩].

وتلك حقيقة لامراء فيها، فليس بين الملوك من يمكن مقارنته بـ(إپامينداس، او پريكليس) أو ثمستوكليس او مانيوس كيوريوس، او هميلقار) الملقّب (باركاس Barcas).

وكان يردد القول أن اعداءه يحقدون عليه لأنه يرى من واجبه أن ينهض مبكراً يومياً قبل بزوغ الشمس لينكب على تصريف شؤون البلاد مهملاً شؤونه الخاصّة. ويخبرك أيضاً أنه يفضل أن يحرم المكافأة عن عملٍ حسن يؤديه، على أن يعاني عقوبة عن عمل سيء أتاه. وأنه

(٩) هذه المزحة مأخوذة من عبارة وردت في الالياذة (١:٢٣١) «الملك الذي ينهش في الناس».

لقادر على ان يصفح عن كل مذنب، إلاّ نفسه.

كان الرومان قد بعثوا بوفد الى (بيثينيا) مؤلف من ثلاثةٍ، اولهما مصاب بداء النقرس، وثانيهما قد اجريت في رأسه عملية قصّ عظام الجمجمة trepamed. والثالث لايفضل المعتوه بكثير. فعقبّ (كاتو) على ذلك ضاحكاً: «ان الرومان أرسلوا وفدا بلا اقدام ولا رأس ولا قلب. وقوبل اقتراحه بخصوص المنفيين الأخائيين[١٠] بمعارضة (سكيبيو) بسبب (پوليبيوس) ونجم عن ذلك مناقشة طويلة حامية في مجلس الشيوخ بعضهم يحبذ عودتهم، وبعضهم يحبذ ابقاءهم فنهض (كاتو) واقفاً وادلى ببيانه هذا:

- أسنبقى هنا جالسين طوال اليوم، وكأن لا عمل لنا إلاّ شحذ قرائحنا وكدُّ ادمغتنا لنقرر هل يجب أن يقوم الناس هنا بحمل هؤلاء اليونانيين الهرمين الى قبورهم، أم النّاس في (آخائيا)؟

وبعد أن فاز اقتراح عودتهم بالتصويت بدا بعد أيام قلائل وكأن أصدقاء (پوليبيوس) كانوا يريدون أن يتقدموا الى المجلس باقتراح آخر لاعادة حقوق وامتيازات هؤلاء المنفيين التي كانت لهم في (آخائيا)، واقبلوا على (كاتو) تحددهم هذه الغاية لاستطلاع رأيه في الموضوع فأجاب باسماً:

- ما اشبه (پوليبوس) بيوليسيوس. بعد أن نجا من عرين (سيكلوپه Cyclope)، كأنه يريد أن يعود اليه ثانيةً لإنه نسيَ قبعته وحزامه هناك.

وتعوّد ان يردد ايضاً ان حكماء الناس يستفيدون من اغبيائهم اكثر مما يستفيد الاغبياء من الحكماء. لأن الحكماء يجتنبون اخطاء الاغبياء في حين يستنكف هؤلاء عن تقليد اعمال الحكماء الجيدة. وهو يقر ايضاً أنه اكثر ميلاً وانجذاباً الى الشبان الذين يحمرون خجلاً مما يصفرونّ. وانه لم يرغب قطّ في جنديّ يحرك يديه كثيراً في اثناء السير ويحرك قدميه كثيراً في اثناء القتال او ان شخيره اعلى من صياحه. وسخر من رجل بدين بطين قائلاً: «ما الفائدة التي تجنيها الدولة من جسم رجلٍ، استحوذ كرشه على كل مابين لُهاته وحقويه؟ ورغب شخص غارق في ملذاته وشهواته أن يتعرّف به فاعتذر منه بقوله أنه لايعاشر رجلاً سقف حلقه اكثر احساسا من قلبه. ويقول ايضاً أن روح العاشق تحيا في جسم آخر. وانه لم يأسف في حياته

---

(١٠) كانت الاخائيون قد دخلوا في مفاوضات مع ملك الفرس لتسليم بلادهم اليهم. إلاّ ان تدبيرهم انكشف فقبض على ألفٍ منهم وأرغموا على العيش مبعدين في ايطاليا حيث مكثوا سبع عشرة سنة ولما صدر مرسوم باعادتهم (من مجلس الشيوخ بناء على اقتراح وليبيوس أحدهم وتكريماً له) لم يكن قد تبقى منهم غير ثلاثمائة. [ليڤي ٣:٢٩].

كلها إلاّ على ثلاث: الأولى أئتمانه امرأة على سرٍ، والثانية سفره بحراً في حين كان يستطيع السفر برّاً. والثالثة قضاؤه يوماً كاملاً دون ان يكون لديه ارادة على القيام بعمل هامٍ. وتوجه بالقول الى رجل شيخ اقدم على عملٍ دني،:

– ايها الصديق، ان الشيخوخة نفسها فيها من العيوب ما يكفي، فلا تضف اليها عيب الرذيلة.

وخاطب تريبيوناً عرف بأنه يدسّ السُّم للآخرين، حين زادت لحاجته واحتدم في اثناء تقديمه لائحةً يريد أن تسنّ قانوناً، صاح به قائلاً:

– رويدكَ أيها الشاب، فلست ادري ايهما افضل. أشربي ما تخرجه يداك. أم تصدبقي على لائحة تقدمها ؟

وقدح فيه شخص يحيا حياة بذخٍ ودعارة فقال له:

– ليس ثم تكافؤ بينك و بيني. فانت تطيق سماع الكلام البذيء بسهولة، مثلما تلفظه. أما أنا ، فكرهي في لفظ مثله يعادل عدم اعتيادي سماعه.

ذلكم هو اسلوبه في التعبير عن افكاره، تجده واضحاً في مأثور اقواله.

انتخب قنصلاً مع صديقه وصفيهّ (فاليريوس فلاكّوس)، ووقع من نصيبه حكم ذلك الجزء من اسپانيا الذي يطلق عليه الرومان صفة "الأدنى". وهنا بينما كان منشغلاً في اخضاع بعض القبائل بالقوة، وضمان ولاء الاخرى باللين والحسنى، بوغت بجيش جرارٍ من البرابرة يهجم عليه، وبان ماثلا خطر طرده من البلاد طردة غير مشرّفة. فطلب من جيرانه (الكلتيبيريين Caltiberians) المعونة عليهم. فاشترطوا عليه أن يدفع لهم مائتي تالنت اجراً على المساعدة. فضجّ الكلّ واستنكروا نزول الرومان الى مستوى وعد البرابرة بمكافأة على معونتهم. فردّ (كاتو) قائلاً: "ليس في هذا ضرر أوعار فان نحن انتصرنا دفعنا لهم من جيب العدوّ، وإن حلّت بنا الهزيمة لايبقى من يطالب بالمكافأة ولا من يدفعها». على انه انتصر انتصاراً ساحقاً وربح المعركة، وبعدها حالفه الحظ وراح ينتقل من نصرٍ الى نصرٍ. حتى قال (پوليبيوس) في غضون قيادته هناك، هدمت بيومٍ واحد اسوار كل المدن التي تقع على هذا الجانب من نهر (بيتيس Baetis)[١١]. وكان اغلبها آهلاً باقوام محاربة. ويذكر (كاتو) بالذات. ان عدد

(١١) كانت الرهبة من مجرد ذكر اسمه قد ضمنت له مهابة وإحتراماً عظيماً في كل اقاليم ما وراء نهر ابرو (ايبروس). وكان قد كتب رسائل خاصة الى عدد من قواد مدن محصنة يأمرهم فيها بهدم حصونهم دون تأخير موكداً لهم انه لن يعفو عن أي أحدٍ يتلكأ في تنفيذ أمره. فقام كل قائد بهدم أسوار مدينته وابراجها معتقداً ان الامر قد صدر له وحده [ليفي ٣٤:١٥].

المدن الاسبانية التي استولى عليها، يزيد على عدد الايام التي قضاها هناك. وليس هذا القول مجرد مبالغة وتباهٍ اذا كانت الفترة التي قضاها تبلغ اربعمائة يوم[١٢]. ومع ان الجنود غنموا اسلاباً كثيرة جداً، الاّ انه وزع على كل واحدٍ منهم باونداً واحداً من الفضة قائلاً: ان عودة الكثرة من الرومان الى بلادهم ومعهم فضة، لهو خير من عودة قلةٍ ومعهم ذهب. ويؤكد هو بالذات، انه لم يضع يده على شيء، مما اغتنم غير ما أكله وشربه ويستطرد قائلاً: "ليس لأني أعيب على اولئك الذين يريدون الإفادة من هذه الأسلاب. لكنيّ افضل منافسة اشجع الناس في شجاعتهم، على منافسة اغنى الناس في ثرواتهم، او أطمعهم في اموالهم". ولم تكن أنفته هذه قاصرة على نفسه، بل تعدتها الى خاصته واقرب من في معيته. وكان لديه خمسة من الخدم في الجيش، احدهم (پاكوس Paccus) الذي ابتاع ثلاثة صبيان من الاسرى لنفسه وما أدرك ان سيده علم بالأمر حتى شنق نفسه خوفاً من مثوله امامه. فباع (كاتو) الصبية وقيد بدل بيعهم ايراداً للخزينة العامة.

كان (سكيپيو) الكبير عدواً له وكان يرغب في ان يضع امامه العقبات وهو يصرف كل الامور بنجاحٍ ودراية، فعمل على أن يتسلّم مقاليد الحكم في اسپانيا وافلح في ان يكون خليفة له هناك: فأسرع الى البلاد لينهي فترة حكم (كاتو). فعاد هذا الى الوطن بعسكر قافلةٍ يتألف من خمسة ألوية Cohort وخمسمائة خيّال. وهزم وهو في طريق العودة اللاچيتان Lacetanious[١٣]، واخذ منهم ستمائة من الجنود الهاربين وأمر بقطع رؤوسهم جميعاً. ويظهر أن عمله هذا اسخط (سكيپيو) وكان موضع استنكاره. فعلق (كاتو) (متظاهراً بالحط من نفسه على اسلوب السخر) بقوله:

- ان روما لتزداد عظمة عندما يأبى أرفع الرجال صيتاً واعلاهم شرفاً - النزول من مقام البطولة الأول للخاملين المغمورين، وعندما يقوم عامة الناس (وهو منهم) بمنافسة أشرف الناس واعرقهم محتداً ومولداً، في ميادين البطولة.

وعندما صوّت مجلس الشيوخ على إقرار اعمال واجراءات (كاتو) في اسپانيا وعدم احداث أي تغيير فيها. آخر حكم (سكيپيو) هناك؛ فلا هدف له ولا غاية، وانما بطالة وكسلٌ، فانخفض رصيده اكثر من (كاتو) بكثير. وظل (كاتو) مع هذا متمسكا باعنة الفضيلة لايرخي قبضته عنها كما قد يفعل كثيرون ممن لايناضلون لأجل الفضائل بحد ذاتها، قدر ما

(١٢) هذا العدد هو أكثر اتساقاً وموافقة لقائمة (بطليموس) الذي حسب المدن وغيرها في اسپانيا القديمة بثلاثمائة وثمانين. في حين كانت مائة واربعاً وثمانين بحساب (پليني).

(١٣) قبيلة قطالونية صغيرة تعيش بالقرب من سفوح جبال البرينيه.

المدن الاسبانية التي استولى عليها، يزيد على عدد الايام التي قضاها هناك. وليس هذا القول مجرد مبالغةٍ وتباهٍ اذا كانت الفترة التي قضاها تبلغ اربعمائة يوم[١٢]. ومع ان الجنود غنموا اسلاباً كثيرة جداً، الاّ انه وزع على كل واحدٍ منهم پاونداً واحداً من الفضة قائلاً: ان عودة الكثرة من الرومان الى بلادهم ومعهم فضة، لهو خير من عودة قلةٍ ومعهم ذهب. ويؤكد هو بالذات، انه لم يضع يده على شيء مما اغتنم غير ما أكله وشربه ويستطرد قائلاً: "ليس لأني أعيب على اولئك الذين يريدون الإفادة من هذه الأسلاب. لكنيّ افضل منافسة اشجع الناس في شجاعتهم، على منافسة اغنى الناس في ثرواتهم، او أطمعهم في اموالهم". ولم تكن أنفته هذه قاصرة على نفسه، بل تعدتها الى خاصته واقرب من في معيته. وكان لديه خمسة من الخدم في الجيش، احدهم (پاكوس Paccus) الذي ابتاع ثلاثة صبيان من الاسرى لنفسه وما أدرك ان سيده علم بالأمر حتى شنق نفسه خوفاً من مثوله امامه. فباع (كاتو) الصبية وقيد بدل بيعهم ايراداً للخزينة العامة.

كان (سكيپيو) الكبير عدواً له وكان يرغب في ان يضع امامه العقبات وهو يصرف كل الامور بنجاحٍ ودراية، فعمل على أن يتسلّم مقاليد الحكم في اسپانيا وافلح في ان يكون خليفة له هناك: فأسرع الى البلاد لينهي فترة حكم (كاتو). فعاد هذا الى الوطن بعسكر قافلةٍ يتألف من خمسة ألوية Cohort وخمسمائة خيّال. وهزم وهو في طريق العودة اللاچيتان Lacetanious[١٣]، واخذ منهم ستمائة من الجنود الهاربين وأمر بقطع رؤوسهم جميعاً. ويظهر أن عمله هذا اسخط (سكيپيو) وكان موضع استنكاره. فعلق (كاتو) (متظاهراً بالحط من نفسه على اسلوب السخر) بقوله:

- ان روما لتزداد عظمة عندما يأبى أرفع الرجال صيتاً واعلاهم شرفاً - النزول من مقام البطولة الأول للخاملين المغمورين، وعندما يقوم عامة الناس (وهو منهم) بمنافسة أشرف الناس واعرقهم محتداً ومولداً، في ميادين البطولة.

وعندما صوّت مجلس الشيوخ على إقرار اعمال واجراءات (كاتو) في اسپانيا وعدم احداث أي تغيير فيها. آخر حكم (سكيپيو) هناك؛ فلا هدف له ولا غاية، وانما بطالة وكسلٌ، فانخفض رصيده اكثر من (كاتو) بكثير. وظل (كاتو) مع هذا متمسكا باعنة الفضيلة لايرخي قبضته عنها كما قد يفعل كثيرون ممن لايناضلون لأجل الفضائل بحد ذاتها، قدر ما

---

(١٢) هذا العدد هو أكثر اتساقاً وموافقة لقائمة (بطليموس) الذي حسب المدن وغيرها في اسپانيا القديمة بثلاثمائة وثمانين. في حين كانت مائة واربعاً وثمانين بحساب (پليني).

(١٣) قبيلة قطالونية صغيرة تعيش بالقرب من سفوح جبال البرينيه.

يناضلون في سبيل المجد الزائل، اولئك الذين بلغوا أرفع المناصب كمنصب القنصلية، ومنحوا شرف موكب النصر، تراهم يقضون بقية حياتهم في كسل وتعاطي مسرات الحياة، ويبتعدون عن الحياة العامة وينفضون ايديهم من السياسة. لكنه وهو الذي منح شرف موكب النصر، كان كمن دخل معترك الحياة السياسية لأول مرة، متعطشا للمجد والشهرة من معين منصب آخر فيبذل فيه أقصى مجهوداته كأنه في اول انطلاق له. والى جانب هذا فانه ما انفكّ يبذل خدماته لمواطنيه واصدقائه على الصعيد العام ولم يتخلّ لا عن مهنة المحاماة ولا عن الجندية.

رافق (طيباريوس سميرونيوس) معاوناً ورئيس اركان له عندما سار إلى (ثساليا) والدانوب[١٤]. وزامل (مانيوس أچيليوس Manius Acilius) بمنصب (تريبيون) في حربه (انطيوخوس) الأكبر في بلاد اليونان. وكان (انطيوخوس) قد اوقع رعباً في قلوب الرومان لم يوقعه بهم أحد غيره باستثناء (هنيبعل) فقد اعاد السيطرة الأولى على آسيا كلها تقريباً واخضعها لحكمه، اي كل ما كان تحت سيطرة (سلوقوس نيقاطور Seleucus Nicator) واخضع اقواماً محاربة عديدة من البرابرة. حتى استبدت به الرغبة في مقارعة الرومان كأنهم آخر من بقي جديراً بقتاله. ولهذا عبر من آسيا متذرعاً بحجة ظاهرها مقبول. هي تحرير اليونانيين. ولم يكن اليونانيون في الواقع بحاجة الى تحرير، اذ لم يمرّ زمن طويل على تحررهم من ربقة الملك فيليب والمقدونيين، ونيلهم استقلالهم وممارستهم حقوقهم وتطبيق شرائعهم وفقاً لهواهم بفضل الرومان وسماحتهم[١٥]. فغلت مراجل الثورة في اليونان كلها وعمت الفتنة وأفسدتهم الآمال التي بثها في نفوسهم رؤوساء المدن وزعماؤها بمساعدة الملك لهم. وتمكن (تيطس فْلامنينوس Titus Flamninus) (كما دوّنا في سيرته) من قمع كل محاولات المحرضين على العصيان دون صعوبة تذكر، واخضع (كاتو) الكورنثيين من سكان (پاترويي Pa-troe) و(ايجيوم Ægium) وقضى ردحاً من الزمن في آثينا. وثم خطبة له قيل ان نصّها مازال موجوداً كان قد ألقاها على الآثينين باللغة الاغريقية. عبرّ فيها عن اعجابه بفضائل الأغريقيين القدماء، واحترامه لها، وبينّ أنه جاء وهو يطفح سروراً لمشاهدة جمال مدينتهم وعظمتها...

إلاّ أن هذا الخبر مختلق من أساسه. لأنه تكلم مع الآثنيين عن طريق مترجم لا لجهله اللغة اليونانية، بل أنه كان يقصد اظهار اعتزازه بلغة بلاده. والاستخفاف باولئك الذين لايعجبهم شيء الاّ اذا كان مكتوباً باليونانية. ومازح (پرستيميوس ألبيتوس) الذي كتب تأريخاً باللغة

(١٤) في السنة التي عقبت قنصليته. ان الامثلة على التواضع والتنازل عند القادة والقناصل لا تحصى في تاريخ الرومان. وفي اليونان نزل (أپامنداس) بعد أن أشغل عدة مرات منصب (بيوتارخ) الى قبول وظيفة شرطي صغيرة جداً، ونهض باعباء وظيفته هذه بغيرة وجديّة تجلان عن الوصف.

(١٥) أعلن تيطس كوينتكيتوس فلامينيوس استقلال اليونان في اثناء الالعاب الاستمية العام ١٩٦ ق.م.

اليونانية وطلب لنفسه إعانةً على مجهوده هذا، قائلاً: لاشكَّ انه يتأهل الإعانة لو ان تأليفه قد فُرض عليه فرضاً صريحا بموجب مرسوم (امفكيتوني)!.

ويقول (كاتو) أن الآثنيين أُعجبوا بسرعة كلامه وحماسته، لأن المترجم كان يتأخر كثيراً في ترجمة ما يقوله، مع اختصار شديد ويزعم أن كلمات الأغريق تخرج من شفاههم عموماً، بينما نبنع كلمات الرومان من قلوبهم.

كان (انطيوخوس) قد احتل بجيشه سائر الممرات الضيقة حول (ثرموپيلي)، ثم انه اضاف متاريس وموانع جدارية اليه فزاد من مناعة الموقع الطبيعية وعسكر فيه متوهما أنه فعل كل مايجب فعله لتحويل اتجاه الحرب عنه إذ كان الرومان والحق يقال قد بلغوا حَدَّ اليأس في امكانهم اقتحام الممّر. إلاّ ان (كاتو) راح يقلّب في ذهنه موضوع المسافة التي قطعها الفرس في الماضي والدورة التي قاموا بها للوصول الى هذا الموقع بالذات. ثم تقدّم ليلاً بقسم من الجيش، وفيما هو يُصعّد المرتفع، ضلَّ الدليل (وهو من الاسرى) سبيله وطفق يروح ويغدو على غير هدىً في ممرات وشعاب غير مطروقة شديدة الانحدار، فشاع الخوف في نفوس الجنود وخارت عزائمهم وأحس (كاتو) بالخطر، فأصدر أمراً بالوقوف حيث هم واخذ معه شخصاً يدعى (لوچيوس مانليوس Lucius Manluis) وهو خبيرٌ لايشق له غبار في تسلق الجبال، فتقدما سويّةً بغاية الصعوبة، مستهدفين لأعظم الخطر في ذلك الليل الحالك الذي خلا من ضوء القمر، يجوسان خلال شجر الزيتون الجبليّ والصخور الوعرة المتحدرة الزلقة، لاتلتقي ابصارهما الاّ بالظلام والمهاوي، حتى عثرا على شعب صغير ظنّاه يؤدي بهما الى الاسفل حيث يقوم معكسر الأعداء. وهنا وضعا بعض العلامات على عددٍ من[١٦] القمم البارزة التي تتوّج جُبيل (كاالليدرومون Calledromon) ثم كرّ كاتو راجعاً ليقود الجيش نحو الشعْب الذي اكتشفاه مهتديا بالعلامات حتى بلغوه فتوقفوا قليلاً وما أن بداؤا السير حتى غابت آثار الشعب واختفت في منحدرٍ فضاقت بهم النفوس وركبهم خوف جديد، ولم يدركوا انهم كانوا على مقربة من العدو، ثم اخذ الصبح ينشر قليلاً من الضياء، وترامت الى اسماعهم اصواتٌ، ثم تبدت لهم خنادق الاغريق وحرس المقدمة يحتلون أسفل الصخرة. هنا اوقف (كاتو) قواته، وأخبر جنود (فيرموم[١٧] Firmum) دون البقية بأنه يريد أن يكلمهم كلاماً خاصاً فقد عهدهم في الماضي مخلصين تواقين الى القتال في كل حين. فجاؤا واتخذوا مواقعهم حوله في صفوفٍ

(١٦) الجبال الواقعة الى شرق مضايق ثرموپيلي تسمى (أوتا Œta)وأعاليها يطلق عليها [كاليدروموس] وفي قدمة الجبال طريق عرضه ستون قدماً [ليڤي ١٥:٣٦ وسترابو ٩].

(١٧) مستعمرة رومانية في پيكينه.

متدانية، فوجه اليهم الأمر التالي:

- اني لأرغب في اقتناص اسير واحدٍ من العدوّ. لاستخلص منه بعض المعلومات عمن يقوم على حراسة الممّر؛ كم هو عددهم وما هي خطتهم وبايّ نظام واستعداد سيقابلوننا ؟

ثم استطرد يقول:

- على ان عمليتنا الوشيكة، يجب ان تمتاز بكثير من الخفّة والجرأة، علينا ان نهجم مثل هجمة الاسد وهو يثب على حيوان شديد الحذر والنفار.

وما ان أنهى قوله حتى انحدر (الفيرميّون) من اعالي الجبل وفاجاؤا الحرس بغتةً وعلى غفلةٍ منهم فأوقعوا الهلع في نفوسهم وفرّقوهم ايادي سبأ، وأسروا واحداً منهم وجاؤوا به الى (كاتو) فعلم منه أن بقية القوات معسكرة في مضيق، وهي ملتفة حول الملك، وأن الربايا في أعلى القمم هي نخبة من جنود (الإيتوليين) يبلغ عددهم ستمائة. فاستهان (كاتو) بعددهم الضئيل، واعتمد على عامل المفاجأة، فانتضى سيفه وحذا جنوده حذوه وحملوا عليهم بين الصراخ ودويّ الأبواق. فما شاهدهم العدوّ ينحدرون عليه من القمم حتى وليّ الأدبار والتحق بالقسم الاكبر فاوقع الفوضى في صفوفهم واخلّ بنظامهم. وعندما كان (مانيوس) زميله يقتحم الاستحكامات في الاسفل، ويدفع بزخم قواته خلال الممرات الضيقة اصيب (انطيوخوس) بحجرٍ حطمّ اسنانه، ولم يتحمل آلامه الشديدة، بل ألوى عنانه وهرب، ولم تصمد اي وحدة من جيشه امام صولة الرومان بسبب وعورة المسالك وكثرة المستنقعات ذات الاغوار العميقة والمنحدرات الصخرية الحادة التي كانت تتلقف في احشائها كل من تزل به القدم. كما ان الفارين اخذوا يتدافعون بالمناكب ويتزاحمون على تلك الممرات الضيقة فيُهلِك بعضهم بعضاً ناهيك بخوفهم من سيوف الرومان وضرباتهم القاصمة.

لم يكن (كاتو) كما هو معروف عنه يزهد في اي مديح يوجّه اليه، وندر انه اقتصد أو أمسك عن التفاخر بعمل بطولي او مأثرة حققها. اذ كان مؤمنا بأن حب المديح طبيعة ملازمة لجلائل الأعمال. لذلك كنت تراه بعد هذا النصر وقد تاه عجباً وانتفخ زهوا وذكر عن نفسه قائلاً ان من رآه في ذلك اليوم يطارد الاعداء، ويصرعهم، مستعدٌ للتأكيد بأن (كاتو) لم يكن مديناً لوطنه، قدر ماكان وطنه مديناً له، ويضيف الى قوله هذا، أن (مانيوس) القنصل أقبل عليه رأساً وهو ثمل بخمرة القتال، واحتضنه مدة طويلة حتى امتزج عرق جسميهما، ثم صاح قائلاً: انه والشعب الروماني كافة، لعاجزان عن مكافأته بما يعدل بطولاته!

وأرسل الى روما عقب المعركة ليكون الرسول الذي يحمل لها انباء النصر، فواتته الريح

وبلغت بـه (برنديزيوم)، ومنهـا وصـل (تارنتـوم) في يوم واحدٍ. وانجـز رحلة امـدها اربعـة ايام اخرى ليـصل روما ويتحفها بأولى انباء النصـر، فأفـعم المدينة غبطة وملأها بقرابين الشكر وغرس في قلوب الشعب الايمان بامكانهم السيطرة على كل برّ أو بحر يريدون.

هذا على وجـه التـقريب كل أعـمـال (كـاتو) العـسكرية العظيـمـة. وبانتـقـالنا الى مـيـدان السياسة والأعمال المدنيّة، يطالعنا اولاً برأيه في واجب الدولة، فيقول أن من أهم واجباتها هو تعقيب المجرمين ومحاكمتهم وادانتهم، وقد ترافع بالذات ضدّ الكثيرين واتهّم كثيرين وساعد الآخرين على تهيئة اسباب اتهامهم، بل وتمادى الى حد دفع وتحريض بعضهم على الشكوى كما دفع آل (پتيلي Petilii) الى اتهام (سكيپيو)، غير أنه عجز عن تحطيمه، اذ وقف نبل أسرته، وجبروت عقله الحقيقي حائلاً دون ذلك، وامكنه أن يطأ التهم التي وجهت اليه بقدميه.

واخيراً كَفّ (كاتو) عن التعرض له. بيدأنه انحاز الى صف متهمي اخيه (لوشيوس) ونجح في استصدار حكم بادانته وفرض غرامة باهظة جداً يدفعها الى الدولة. معجز عن دفعها وكاد يزجّ في السجن لو لم يتخلص من الغرامة بالغاء الحكم عندما تدخل تريبيونات (مفوضو) الشعب لصالحه، وبعد كثير من الضجة واللغط.

وقيل ايضاً أن (كاتو) لقي مرةً في الساحة العامة، شاباً تمكن من فضح وهتك سمعة عدوٍ لأبيه المتوفي، فاقبل عليه مصافحاً وقال له: «هذا ما يجب ان نقدمه قرباناً لموتانا، لا أن نقدم حُملانا ومعزاً بل دموع خصومهم، واحكاماً بادانتهم». بيد أنه لم يسلم هو من الاتهام اثناء ممارسته الشؤون العامة. ولو أن قدمه زلت به أقل زلة واعطى خصومه اصغر حجةٍ لاستهدف لخطر تقديمه الى القضاء. ويروى أنه سلّم من خمسين تهمة على أقل تقدير. وفي مقدمتها وهو آخرها تهمة الصقت به وهو في السادسة والثمانين من العمر، قال عنها قولته الشهيرة جداً: «انه لمن الصعب عليه وهو الذي عايش جيلاً من الناس ان يدافع عن نفسه الآن امام جيلٍ اخر». ولم تكن هذه آخر وقفةٍ له امام القضاء اذ تقدم بعدها بأربع سنين وله من العمر تسعون عاماً[١٨]- باتهام لـ(سرڤيليوس غالبا Serviluis Galba)، وعلى هذا نرى ان حياته العملية امتدت لتستغرق ثلاثة اجيال بشرية كاملة، مثل (نسطور) ان جاز لنا القول. فقد رأيناه يخوض في خصومات عديدة حول شؤون الدولة مع (سكيپيو) الاكبر، ووجدناه

(١٨) بلوتارخ لم يكن هنا دقيقاً ففي مبدء السيرة يقول ان كاتولم يكن يبلغ من العمر ١٧ عاماً عندما بدأت انتصارات هنيبعل تتوالى في ايطاليا ثم يعلمنا بالأخير انه توفي في بداية الحرب الفيونية الثالثة. على ان معركة [كانيّ] حصلت في ٢١٥ ق.م. والحرب الفيونية الثالثة بدأت في ١٤٨ ق.م وعلى هذا الأساس لا يكون (كاتو) قد تجاوز الخامسة والثمانين عندما وافاه الأجل في العام ١٤٧ ق.م وهذا ما يؤيده شيشرون (الخطب ٢) أنظر أيضاً پليني في تاريخه ١:٢٩.

يواصلها مع (سكيپيو) الاصغر، الحفيد المتبنى لأولهما، والابن الحقيقي (لپاولوس) الذي قهر (پرسيوس) والمقدونيين.

بعد مرور عشر سنين على تسنّم (كاتو) منصب القنصل، عاد يرشح نفسه لوظيفة (الچنصور) وهو بمثابة نهاية التكريم وشرف الخدمة. وارفع منصب مدنيّ في الدولة إن صح القول، فمن بين السلطات الكثيرة التي انيطت بصاحبه، سلطة التحقيق في حياة كل انسانٍ وسلوكه الشخصي. فقد كان الرومان يرون أنه لايجمل بأن يترك الحبل على الغارب للمواطن، يتزوج من يشاء ويربي أطفاله وفق هواه، ويقيم المآدب ومجالس الراح كما يشتهي، الاّ ويكون للدولة كلمة فيه. لأن مصلحتها تقضي بالتحقيق والتدقيق منه عن سلوكه واخلاقه التي هي أسرع بالظهور في مثل هذه الامور علنا وفي وضح النهار. ولهذا اختاروا اثنين من الپاتريشيين، وواحداً من العامة، لوظيفة الرقابة والتقويم والعقاب، ان اشتط احدٌ في حياة اللذة والتهتّك، أو حاد عن السلوك العام المعتاد في البلاد، ويطلق على القائم باعباء الوظيفة اسم (چنصور). ولهم صلاحية مصادرة حصان من راكبه. وطرد اي عضو من اعضاء مجلس الشيوخ لايعيش عيشة لائقة، أو يخرق حدود النظام العام. ومن واجباتهم ايضاً أن يحددوا ثروة المواطن. وان يدونوا في سجل خاص صفة اخلاق المرء وزمن مولده، هذا الى جانب صلاحيات أخرى كثيرة.

لذلك عارض نقباء الأشراف وزعماؤهم في ترشيح (كاتو) واثاروا بدافع سخطهم، طبقة الپاتريشيين الذين عدّوا رفع اشخاصٍ لاأصل نبيل بدعمهم الى اعلى درجة من السلطة والتكريم، بمثابة سبةٍ وعارٍ لشرف الكل.

أماّ من كان يدرك شرّ أعماله، ومدى خرقه قوانين البلاد، وامتهانه مقدساتها، فقد سرى الخوف في نفسه من صرامة الرجل الذي لاشكّ في انه سيكون قاسياً غير مساوم. فقلبوا الأمر من شتىّ وجوه واجتمعت كلمتهم على تقديم سبعة مرشحين ضدّه. فراحوا يغرون الشعب ويمنونه بشتى الوعود ويعللونه بأطيب الآمال حتى لكان الشعب يريد حكماً متهاوناً سائباً يسرح فيه الاشرار ويمرحون. أما (كاتو) فناقضهم في الدعوة لنفسه، ولم يعد الشعب بتسامح أو ليونة، بل هددّ فاعلي الشر بسوء المصير علنا واوضح نيته بصراحة من منبر الخطابة، قائلاً ان المدينة بحاجةٍ إلى تطهير شاملٍ عامٍ وناشد حكمة الشعب وادراكه، بالاّ يختار الارحم والأرقّ من الأطباء، بل أشدهم صرامة وغلاظة. وانه هو الطبيب المنشود من طبقة العامة، و(ڤاليريوس فلاكوس) من طبقة الپاتريشيين. وانه لمتأكد بأنهما سيقومان بعمل طيب معاً. وسيقطعان أوصال التهتك والترف وحرقها كما كانت نهاية افعى (الهيدرا hydra). وزاد

قائلاً أن بقية المرشحين لاينشدون الفوز بالوظيفة بدافع حسن القصد، فهم يخشون من سيمارس واجباتها وفقاً لقواعد الحق والعدل، كما هو واجب.

وكان الشعب الروماني شعباً عظيماً حقاً، جديراً بعظماء الرجال زعماءً له وقادة، اذ لم يخشَ صرامة (كاتو) ولا قطوب وجهه وجهامته، وأبى انتخاب ذوي الوعود الخلابة والوجوه الصبوحة الباشة المستعدين للقيام بكلّ شيء في سبيل فوزهم. وانتخبوه مع (ڤاليريوس فلاكوس) اي انهم عملوا بنصيحته التي قدمها لهم وهو مرشح، كأنما كان حائزاً سلطةً فعلية للأمر والنهي قبل انتخابه!

وكان من اولى اعماله تعيين صديقه وزميله (لوشيوس ڤاليريوس فلاكوس) رئيساً لمجلس الشيوخ، وطرد عددٍ من الاعضاء بينهم (لوشيوس كوينتوس) الذي تولى منصب القنصل قبل سبع سنين. وهو أخُ (ليتطس فلامنينيوس) قاهر الملك فيليب وهذا بحد ذاته شرف يعلو شرف القنصليةً. وكان سبب طرده من المجلس كما يلي: كان يرافق (لوشيوس) في سائر قياداته التي أوكلت له، شابٌ غرانق في ميعة الصبا، وقد تعلق به ومنحه سلطات هامة وجعل له مكانة عنده تزري بمكانة اعزّ اصدقائه وأدنى اقربائه. واتفق أن عُين (لوشيوس) حاكماً بصلاحية قنصل، في احد الأقاليم الرومانية فلم يفارقه الشاب، ومرة كانا في مجلس شراب فراح هذا يغرق لوشيوس كعادته بفيض من الملق والمداهنة بين الكأس والطاس. ومما قاله انه شديد الحبّ له الى حدٍ انه كان في روما عرضٌ للمصارعين «وأنا لم اشاهد عرضاً كهذا في حياتي وكنت عظيم الشوق لحضوره ورؤية رجلٍ يقتل فيه، الاّ إني تركت ذلك وخففت اليك بأسرع ما امكنني». فاراد (لوشيوس) ان يعوض له ايثاره وصدق عواطفه وقال مطيّباً خاطره: «لاعليك بهذا ولا تكتئبنّ فبإمكاني تدبير الأمر لك» وأمر أن يؤتى الى المأدبة حالاً بأحد المحكومين بالموت. مع جلادٍ وفأس. وسأل الشاب أبريد مشاهدة تنفيذ حكم الموت فأجاب الشاب "بلى". فأمر (لوشيوس) الجلاد بقطع رقبة المحكوم. ذكر هذه الحادثة عدة مؤرخين. وجعل (شيشرون) (كاتو) يرويها بلسانه، في كتابه الموسوم de Senectute. إلاّ ان (ليڤي) يزعم ان المحكوم كان جندياً غالياً هارباً من الخدمة. وان (لوشيوس) هو الذي قتله بيده، ولم يمت بفأس الجلاد. وهذا ايضاً ماورد في خطبة (كاتو).

خلّف طرد (لوشيوس) من المجلس أثراً عميقاً في نفس أخيه فاستانف القرار للجمعية العمومية. وطلب ان يتقدم (كاتو) من جمهور الشعب ليدلي بالاسباب التي حملته على اصدار قراره. ولما بدأ يروي حادث المأدبة عجلّ (لوشيوس)[19] بإنكارها أصلاً، الاّ ان

(١٩) نرجح وضع [تيطس] هنا: بدلاً من [لوشيوس] ذلك لما سبق ان ورد عن هذا الطّرد من رواية تكاد =

(كاتو) تحداه باجراء تحقيق رسميّ، فرفض وتراجع وبهذا عُدّ مستحقاً للطرد. ومَرّ زمنٌ على ذلك وفي ذات يوم كان ثم عرضٌ في الملعب وشوهد (لوشيوس) يمرّ بالمقاعد التي اعتاد ان يحتلّها القناصل السابقون، ويعبرها ليجلس في معقد بعيد فأثار بعمله هذا عاطفة الجماهير فراحت بكثير من الهتاف والضجة تطلب منه الدنو والجلوس في الصف الأمامي محاولةً جهد امكانها تصحيح واحصل، وازالة أثرة في نفسه.

وعمد (كاتو) ايضاً الى طرد (مانيليوس) الذي كان الشائع انه سيحتل منصب القنصلية في الدورة التالية، لأنه قبل امرأته علنا وعلى مشهدٍ من ابنته. وقال (كاتو) معقباً على العمل:

- وأما عن نفسي فان زوجي لاتأتي الى ذراعي [٩٧] عندما ينطلق رعدٌ شديد، فيكون مِزاح (جوبتر) معي باطلاقه رعوده، مدعاة سرورٍ ليَ!

على أن معاملته (للوشيوس) الآخر الذي هو أخو (سكيبيو) وأحدُ من مُنح موكب نصرٍ، اثارت السخط العام على (كاتو)، إذ صادر منه حصانه، وشاع انه مافعل ذلك إلاّ بقصد إهانة (سكيبيو افريقانوس) المتوفى. على ان اشدّ الكره الذي ناله، نجم عن حَدّه كثيراً من مظاهر البذخ والترف العام. فبعد أن فسد عامة الشباب بهذا الداء، بدا من المستحيل أن يعالج الأمر معالجة مباشرة، ولذلك لجأ الى حركة التفافٍ حوله، فأمر ان يجرى تقدير ثياب الخروج، والحلي النسّائية والاثاث البيتية التي تتجاوز قيمتها الفاً وخمسمائة دراخما بعشرة اضعاف قيمتها الحقيقية، قاصداً رفع نسبة التخمين على هذا الملك لزيادة الضريبة عليه. كما اصدر مرسوماً يقضي بدفع ثلاثة (اسات) بالألف ضريبةً عن كل صنف من اصناف هذه الملكية، ليستثقل الناس هذا العبء الزائد من الضرائب، حين يجدون غيرهم ممن يملكون ثروات مساوية لهم معفويّن منها، وان بدا مظهرهم اكثر فقراً واقلّ غنى منهم، بينما هم يدفعون ثمن اسرافهم وبذخهم. ولهذا نجد ان الحنق على (كاتو) لم يكن قاصراً على دافعي ضريبة الترف، بل تعداهم الى اولئك الذين اخفوا مظاهر ثروتهم وغناهم واخفوا مظاهرها عن الانظار تخلصاً من الضريبة. فالناس بصورة عامة يعتبرون الأمر الذي يؤدي بالنتيجة الى منعهم من عرض ثرواتهم ومظاهر غناهم، مساوياً لمصادرتها وانتزاعها منهم. لأن دلائل الغنى وكثرة المال تُرى في الكماليات اكثر مما ترى في ضروريات الحياة. وهذا في الواقع هو الذي أثار دهشة (أرسطون Ariston) الفيلسوف أعني اعتبارنا اولئك الذين تكثر عندهم الكماليات اكثر رضىً وسعادة ممن حازوا الكثير من الضروري والمفيد. فقد طلب احد اصدقائه. من الثريّ

= تكون مطابقة (سيرة فلامينينوس). أنظر إيضاً ليڤي ٣٤:٤١.

التسّالي (سكوپاس Scopas) أن يهديه شيئاً لايحتاجه كثيراً. فأجابه الغنّي:

- الحقيقة هي ان هذه الأشياء التي لا احتاجها ولا انتفع بها، هي التي كونّت ثروتي وزادت في غناي.

وهكذا نجد ان الرغبة في الغنى لاتدفعها حاجة طبيعية فينا، وانما تنشأ بالأحرى من حكم مبتذل شائع يكوّنه اناس آخرون.

ورغم هذا كلّه راح (كاتو) القليل الاكتراث بمنتقديه يزداد صرامة. فأمر بقطع أنابيب اسالة الماء عن اولئك الذين كانوا يستحوذون بوساطتها على المياه العموميّة لارواء حدائقهم ومنازلهم. وحكم بهدم كل البيوت التي برزت منها الى الشوارع العامة شرفات ونتوءات واجرى تخفيضاً في أسعار التعهدات المتعلقة بالاشغال العمومية الى أدنى حَدٍّ ممكن، بينما رفع تخميناتها لأجل جباية الضريبة الى اعلى حَدٍّ. فنال كرهاً على كرهٍ وعمد اشياع حزب (تيطس فلامينيوس) في مجلس الشيوخ الى الغاء كل التعهدات والاتفاقات التي عقدها (كاتو) في ترميم وصيانة المباني العامة وبيوت الدين بدعوى عدم فائدتها للجمهورية، ورفعوا ايضاً اشدّ تريبيونات الشعب جرأة الى إتهامه، وغرم تالنتين اثنين. كذلك عارضوه معارضةً عنيفةً في قضية تشييده داراً للقضاء او ما يدعى (باسيليكا Basilica)، أمر ببنائها على حساب بيت المال في الساحة العمومية بالقرب من قاعة المجلس، وسُميت «بورچيون Porcion» على اسمه. ومع هذا كلّه، فإن الدلائل كلها تشير الى أن الشعب كان راضياً بطريقة تصريفه شؤون وظيفته، وانها وهنا وجه الغرابة - وقعت موقعاً طيباً منه، اذ عملوا له تمثالاً نصبوه في معبد ربّة الصحّة. ونقشوا على قاعدته عبارة لم يأتوا فيها الى ذكر قياداته العسكرية التي تولاها اثناء الحرب، ولا موكب نصره، وانما قصروها على مايلي:

«كان هذا، (كاتو) الچنصور، الذي انتشل بإجراءاته الصالحة العادلة، كيان الجمهوريّة الرومانية عندما كان يشير الى الانحلال، ويغرق في حمأة الرذيلة»

قبل أن يُعطى هذا التكريم، كان يضحك من اولئك الذين يحبونّ هذه الاشياء، قائلاً: «لايدري هؤلاء أن زهوهم واعتزازهم مُنَصبٌّ على فنِّ المثالين والرسامين. في حين أن خير صورة هي تلك التي يرسمها المواطنون لهم في صدورهم» ولما كان يدهشهم رفضه القاطع في ان يُنصب له تمثال، في حين كانت التماثيل تنصب لعامة الناس، فانه يقول لهم: ان سؤالي لماذا لايقام لكَ تمثال؟ هو خير واجدى من سؤالي لماذا يُقام لك تمثال؟» وبعبارة أخرى كان يكره أن يقبل المواطن النزيه بمدح او ثناء يوجه له إلا اذا قدّم الدليل الواقعي على نفعه للجمهورية.

وهو يقول لنا: «ترى الواحد من اولئك الذين يرتكبون خطأ ما، او يعابون على عمل أتوه، يقول على سبيل الاعتذار: ما أنا بكاتو» ويقول أيضاً: «ما أصح ما يُطلق على الذين يقلدون اعمالي تقليداً سيئاً - بكاتو الأعسر!» وكان مجلس الشيوخ عندما تحزب الأمور وتتأزم يشخص اليه ببصره كما يشخص البحارة الى ربان السفينة، وكثيراً ماكانوا يؤجلون البتّ في الامور الخطيرة جداً عندما يكون غائبا عن المجلس. وهذا ماشهد له الناس به، وكان نفوذه عظيماً في المدينة وسمعته عالية لسنه وألمعيتّه في الخطابة والأسلوب الذي اتخذه في العيش.

كذلك كان أباً صالحاً وزوجاً ممتازاً، بلغ الغاية في التدبير والاقتصاد وسوف يكون حديثي في هذه الأمور مستفيضاً بعض الشيء بما هو أهل للثناء عليه منها بسبب اهتمامه الخاص بها وان لم تكن من الاحداث الهامّة في حياته العامة: تزوج أمرأة كان شرف أصلها يفوق غناها، فمن رأيه أن الثريّ والكريم النسب يكونان على درجة واحدةٍ من الأنفة والعجرفة إلاّ أن الثاني منها يميل إلى الحياء، والخجل من الأمور الوضيعة، والزوج الأصيلة أكثر طاعة لزوجها في ما هو لائق حسن من الزوج الغنيةً. وقال ايضاً أن البعل الذي يضرب زوجه او وُلده إنما يعتدي على أقدس حرمةٍ، وهو يعتبر الزوج الصالح أجدر بالثناء والتجلة من عضو مجلس الشيوخ البارز. واكثر ما يعجبه في (سقراط) حياته القانعة الوادعة التي عاشها مع زوج سليطة واولاد معتوهين.

وما ان ولد ابنه حتى اتخذ له عادة التقرب من زوجه اثناء قيامها بغسله والباسه ثياب القماط، عندما لايشغله عمل هام إلاّ ما يتعلق منها لشؤون الدولة. ولم تكتف بارضاعه هي نفسها، وانما كانت تلقم ثديها لأطفال خدمها حتى تنشأ علاقة حبّ طبيعية فيهم لإبنها برضعهم الحليب نفسه. ولماً بلغ الصبيّ سنُ التمييز، اضطلع (كاتو) شخصياً بتعليمه القراءة مع وجود خادم يدعى (خيلو Chilo) عرف بتضلعه في النحو وكان يعلم كثيراً من الصبية. بيدانه لم ير من المناسب - على حدّ قوله - أن يؤنب ابه عبدٌ او يجرّ أذنه عند اهماله دروسه، كما انه لم يكن يرضى لأبنه أن يظلّ مديناً لخادمٍ بهذه المِنّة الكبرى، منةً التعليم. فقام هو بتدريسه - كما قلنا - علوم النحو والقانون، وبتدريبه في العاب الرياضة (الجمناستيك). ولقنّه حذف الرمح واصول القتال وهو مدرّع، وركوب الخيل، وأعطاه ايضاً دروساً في الملاكمة. ودربّه على تحملّ الحرّ والبرد، والسّباحة في اقوى تيارٍ واخطر الأنهار. كما ذكر ايضاً أنه كتب دروساً في التاريخ بأحرف كبيرة بخطّ يده ليعلّمه بها شيئاً عن اسلافه وشعبه، حتى لايضطر الى الخروج من البيت، وكان تحرزّه وحذره من لفظ اي شيء قبيح امامه، لايقل عن تحرزه من لفظه امام عذارى الفستال المقدّسات. ولم يصحبه الى الحمام قطّ، وكان هذا ما جرى عليه

العرف عند الرومان. فترى الأختان يجتنبون الاستحمام مع حَمَيهم لئلا يرى أحدهم الآخر وهو عارٍ. لكن سرعان ما اخذوا عن الأغريق عادة خلع الثياب رجالاً امام رجالٍ، ثم عادوا ليعلموا الأغريق ذلك مع اضافة جنس النساء.

وهكذا صوّر (كاتو) ابنه وثقفه بالفضائل، كأنه أحد الأعمال التي تفرغ اليها فأنجزها على أحسن مايرام. ولم يجد عيباً في استيعابه وطاعته، على أنه تبين في جسمه رقةً وفي تكوينه ضعفاً يعجزه عن تحملَ المشاقّ، فلم يصرّ على نمط صارمٍ له في الحياة، ومع هذا فقد ظهر أن رقة جسمه تخفي شجاعةً نادرة في ميدان القتال. فقد أبدى في حرب (پاولوس اميليوس) و (پرسيوس) بطولة فذّة، لما طار السيف من يده بضربةٍ، أو بالاخرى عندما افلت من يده لعرقها. فقد طار صوابه وركبه العناد فانثنى يستعين باصدقائه ومن حوله لاسترداده وعاد الى ميدان القتال وهو في طليعتهم وهجموا على العدوّ وقاتلوه قتالاً طويلاً حتى أجلوه عن الموقع، ووجدوا السيف بين كدس عظيم من السلاح وكوم من أجسام القتلى اصدقاء واعداء؛ فنال بذلك ثناءً عاطراً من جنراله (پاولوس). ولدينا رسالة بعث بها (كاتو) الى ابنه يمدح فيها مسعاه الشريف لاستعادة سيفه.

بعد ذلك، تزوج الأبن (تيرتيا Tertia) بنت (پاولوس) واخت (سكيپيو)، وكان قبوله ضمن أسرة پاولوس يعود الى سجاياه وحميد خصاله، قدر ما يعود الى مكانة والده وفضائله لذا فإن جهود (كاتو) في تهذيب ابنه لم تذهب جفاءً، بل اثمرت ما هو جدير بها من النتائج.

أبتاع (كاتو) عدداً ضخماً من العبيد أسرى الحرب، ولاسيما الشباب منهم، لأنه يسهل تقويمهم وتعليمهم كما تدرب الأمهار والجراء. ولم يدخل أحد من عبيده بيتاً آخر الاّ اذا ارسله هو او زوجه فإذا سئل احدهم ماذا فعل (كاتو) اجاب انه لايدري، ولايزيد على ذلك. ولم تكن ترى في بيته خادماً إلا وهو إما نائم أو منكبّ على عملٍ ما. ذلك لأن (كاتو) كان اكثر رضاء على المكثرين من النوم، فهم في عرفه ألين عريكةً وأطوع له من اليقظين، واصلح لما يكلفون به من أعمال بعد انتعاشهم بغفوة قصيرة. كذلك يرى أن السبب الأساس في الكسل وسوء السلوك هو انصرافهم الى ملاهيهم وشهواتهم فوضع جعلاً محدداً يدفعونه للجماع وللوصال فيما بينهم، ولم يسمح بعلاقة جنسية لهم خارج البيت. ولم يكن كثير التدقيق والتشديد فيما يتعلق بمأكله أيام كان جندياً فقيراً، وظلّ يعتبر انتهار الخادم في اي شأن من شؤون البطون من السخافة والتفاهة بمكان، حتى أثرى، وراح يقيم الولائم لاصدقائه وزملائه في الحكم، وبلغ من تشدده فيها أنه كان بعد انتهاء العشاء يدخل على خدمه وبيده سوط جلدي يقنّع به المقصر من خدم المائدة والمهمل في تقطيع اللحم. وكان يحرص أن يوجد خصام

بين خدمه، فهو دائم الخوف والريبة من تفاهم يوحّدهم. فكان يجعل من خدامه وعبيده قضاةً على اي زميل لهم ارتكب جرماً يستحق عليه الموت. وينفذ فيه حكمهم مهما كان. ودفعه ميله الشديد للربح الى اعتبار الزراعة مدعاة للهو وهواية اكثر من كونها وسيلة للربح، وعمد الى استغلال امواله في مجالات مضمونة الربح خالية من المخاطرة فابتاع بحيرات، وحمامات حارة، واراضي ملأى بالصلصال وقطع اراضٍ تدر ارباحاً بالمضاربة، ومراعي، وغابات، وكان يجنى منها كسباً طائلاً، لايستطيع (جوبتر) نفسه أن يصيبه منه بضرر كبير - على حَدّ قوله[20]- وتعاطى الربا أيضاً في عمليات البحر التي كانت تعتبر من الاعمال الشائنة للغاية. وفرض على اولئك الذين اوكل اليهم استثمار امواله في هذا المجال ان يتخذوا لأنفسهم شركاء، حتى اصبحوا خمسين، يملكون خمسين سفينة، وساهم هو بحصة عن طريق معتوقه (كوينتو Quinto) الذي ترتب عليه في هذه الحالة ان يبحر مع هؤلاء القراصنة ويشرف على مصالحه عندهم، حتى لايعود ثم خطر في خسارته كل ماله المستثمر، بل جزء صغير منها، يقابل ذلك توقع الربح الفاحش. وكان يقرض المال لمن يريد من عبيده ليبتاعوا به عبيداً صغار السّن، فيهذبونهم ويعلمونهم على نفقة سيدهم ثم يبيعونهم بربح في ختام السنة. وكان (كاتو) يتخير بعضهم لنفسه ويدفع بهم ثمناً يوازي الثمن الذي الذي يدفعه الشارون الآخرون بدون نقصان. واهتم في ان يطبع ابنه على اخلاقه فكان يردد امامه: بأن انقاص المرء ثروته ليس من شيم الرجال بل من شيم الأرامل. وخير دليل على حرص (كاتو) ونجله هو تصريحه الجريء، عن نفسه حيث يقول: «انه ادعى الناس الى الإعجاب والاحترام، بل هو أقرب شبها للآلهة مادام سيخلف اكثر مما تلقّى».

وكان شيخاً همّاً عندما قدم الى روما كل من (قارنياديس Carneades) الأكاديمي و(ديوجينس) الرّواقي مندوبين عن آثينا[21]، لمهمة طلب اعفاء الآثينيين من عقوبة الغرامة المفروضة عليهم بمبلغ خمسمائة تالنت، في قضية مدنية رفعها ضدّهم (الاوروبيون Oropi-ans)[22]، وكان (السيكيونيون Sicyonions) فيها قضاةً. ولم يحضر الآثينيون فحوكموا غيابياً. وما أن انتشر خبر قدومهما حتى تقاطر الشباب المثقف عليهما وقاموا بخدمتها

(٢٠) أعني باصابته بالآفات الطبيعية كالامطار الغزيرة الزائدة عن الحدّ أو الزلازل أو الجفاف الخ..

(٢١) اوليوس (١٤:٧) يذكر سفيراً ثالثاً معهم هو كريتولاؤس المشاء [جماعة ارسطو الذين كانوا يلقبون بالمشائين].

(٢٢) كان الآثينيون قد نهبوا مدينة [اوروبوس] فشكا أهلها الأمر الى المراجع فعهدت الى السيكونيين امر البت في النزاع. ولم يحضر الآثينيون للدفاع عن أنفسهم ففرضت عليهم غرامة قدرها خمسمائة تالنت [انظر ملحق ليفي ٢٤:٢٧ پاوسنياس ٢:٧].

واستمعوا الى اقوالهما باعجاب وجمعت مقدرة (قارنياديس) الفذة وسحر خطابه وشهرته المساوية لكفاءته، عدداً هائلاً من النُظّار المعجبين المشايعين ولم تلبث كالريح أنه ملأت المدينة كلها بصداه، وتنوقل الحديث عن ذلك اليوناني الذي يفتن القلوب ويسلب العقول، ويبذ الجميع في اجتذاب الناس وأنّ افتتان الشباب به كان من اعجب الأمور فقد انصرفوا عن ملاهيهم وغواياتهم، واخذوا يجرون وراء الفلاسفة كالمجانين فاشاع غبطة عظيمة عند الرومان ولم يسعهم إلاّ أن يتطلعوا بكثير من الفرح الى شبانهم وهم يقبلون باذهان متفتحة مستوفزة على الآداب اليونانية ويختلفون الى مجالس الحكماء.

وجد (كاتو) إن عاطفة جانحة تدفع المدينة الى سحر اللفظ والكلم وكان منذ البداية متطيّراً من هذا الميل العام الفجائي، يخشى ان ينحرف الشبان عن سبيل اطلاب المجد بالحرب والأعمال الصالحة وينجرف بنيار فصيح القول وبليغ الكلمات. وبلغ السيل الزبى عندما تقدم (كايَوس أسيليوس Caius Acilius) الشخصية البارزة، متطوّعاً للترجمة لهما في مجلس الشيوخ عند أولّ مثول رسمي لهما امامه. فتحرك (كاتو) للعمل على التخلص من هذين، متخذاً حجّةً عامةً بوجوب طرد كل الفلاسفة من المدينة. ونهض في مجلس الشيوخ يلوم الحكام على سماحهم ببقائهما في روما هذه المدة الطويلة، دون أن ينتبهوا الى تأثيرهما على العامّة، ومقدرتهما على اقناع الشعب كلّه بما يريدانه. وطالب باتخاذ قرارٍ فوريٍّ حول طلبهما واعادتهما الى ديارهما ومدرستيهما ليخطبا في ابناء اليونان ويتركا شباب الرومان على طاعتهم لقوانينهم وحكامهم تلك الطاعة التي لم يفكروا حتى الآن في التمرد عليها. ولم يكن (كاتو) بعمله هذا مدفوعاً بايّ حقدٍ او ببغضاء (لقارنياديس) كما خيل لبعض الناس. وانما لأنه كان ينفر ويحتقر كل انواع الفلسفة. وهو لم يعكف على دراسة العلوم اليونانية لأجل المعرفة، وانما لإظهار مقدرته على تناول كل شيء والفخر بتلك المقدرة ليس الاّ. فكان يرى (سقراط) مثلاً: ثرثاراً كبيراً ومحرضاً على الفتنة، عمل جاهداً ليكون طاغيةً لبلاده، وليقضي على العُرف والتقاليد الضيقة، فأغوى المواطنين، وحرفهم الى افكار مخالفة للنظام العام والقانون. كذلك سخر بمدرسة (إيسوقراطس Isocrates) قائلاً ان تلاميذ هذا الفيلسوف يشيخون قبل اكمال دراستهم عنده، حتى لكأنهم يريدون ان يستخدموا منهم في العالم الآخر، بالترافع بالقضايا في محكمة (مينوس Minos) هناك. واراد أن يبعد أبنه عن كل شيء يوناني ويخيفه منها نطق جازماً كما ينطق العرّاف الكاهن بنبوءة، وبلهجة لاتليق بمن هم في سنة:

– سيقضى على الرومان قضاءً تاماً وتذهب ريحهم، ما ان تبدأ عدوى العلوم اليونانية تنتشر فيهم.

واظهر الزمن عُقم هذه النبوءة وفسادها. ففي الواقع لم تبلغ روما اوج عظمتها إلاّ عندما نهلت من علوم اليونان. هذا ولم يكن كرهه قاصراً على فلاسفة اليونان بل تعدّاه الى اطبائهم. ولعله كان قد سمع بما روي عن (ابقراط Hippocrates) عندما ارسل ملك الفرس بطلبه ووعده بأجر يبلغ بضع تالنتات فرفض هذا قائلاً انه لن يعالج البرابرة لأنهم اعداء بني قومه.

ولعله كان يعرف ان رفض (ابقراط) هذا، صار بمثابة قسم عام يلتزم به كلّ اطبائهم إزاء الأعداء. ولذلك حَثَّ ابنه على الحذر منهم واجتنابهم. وكان هو قد ألف كتيباً في الوصفات الطبية، وعلاج المرض من اهل بيته. ولم يصف فيه الصوم قط، وانما كان يشير باقتصار مريضه إما على الخضار، واماً على تناول لحوم البط او الحمام او صغار الأرانب. قائلاً ان طعاماً كهذا مناسب للمرض لأنه سهل الهضم، الاّ انه يصيب متعاطيه بأحلام كثيرة! وادعّى ان تطبيقه هذه الحميةَ على اهل بيته، تعدّى شفاءهم من امراضهم الى ابقائهم في حالة دائمة من الصحة والعافية[٢٣]. على انه لم ينج من القصاص لادعائه هذا، فقد ماتت زوجه ولحق بها ابنه. وإن امتد عمره بعدهما قليلاً فلم يكن سببه نطس طبه بل متانة تركيبه وقوة جسمه الطبيعية. التي كفلت له الوصال الجنسيّ حتى آخر ايامه. فقد تزوج بفتاة في مقتبل العمر بعد اجتيازه مرحلة الحب بمدى بعيد، متعللاً بالحجّة الآتية:

بعد ان ماتت زوجه، خطب لابنه بنت (پاولوس اميليوس) واخت (سكيپيو)، ثم واصل فتاةً صغيرة السنّ كانت تراجعه في بيته سراً، وكان المنزل صغيراً تعيش فيه كنّتُه. ولم يبق سرَه مكتوماً زمنا طويلاً، فبينما كانت هذه الفتاة تخرج يوماً، دون أن تلتزم سبيل التخفيّ كما يجب، رآها ابنه فلم يقل شيئاً الاّ انه اظهر مايدلّ على النفور، فأحسّ الأب الشيخ بذلك وأدرك أن مايأتيه ليس بالأمر المستحب. وخرج دون أن ينطق بكلمة أو يظهر غضباً - الى السوق كعادته للإجتماع بأصحابه وعشرائه. وتوجه بالحديث الى (سالوينوس Salonius) احد موظفيه وسأله بصوت مرتفع: «ألم يزوج ابنته بعد؟» فأجابه: لا، واضاف انه لن يزوجها قبل استشارته. فقال (كاتو):

- لقد وقعت على ختن مناسب لك. إلا اذا رفضته لكبر سنه. لا عيب فيه إلاّ انه هرم جداً كما قلتُ.

---

(٢٣) لاشك انه كان فاشلاً تماماً كطبيب فوصفاته الطبية التي يمكن أن يجبرها الباحث في تضاعيف رسالته حول« في ريف» أمّا سانجة للغاية. أو خطرة جداً. والصيام هو خير وصفاته جميعاً اما أكل البط والحمام والأرنب فهو لا يندرج في قائمة الحمية الخفيفة بل هي من الاكلات الثقيلة العسرة الهضم ولذا تصيب آكليها بالكوابيس!

وافق (سالونيوس) على كلٍ، وطلب من (كاتو) أن يتابع مساعيه ويعطي البنت لمن يريد فهي خادمته المطيعة، وهي في حاجة الى حمايته ورعايته. فانتقل (كاتو) بلالفً ودوران من التلميح الى التصريح وقال انه يريد بنته زوجاً له. ولاشكّ ان الدهشة عرت الرجل كما ينتظر منه فقد توهم ان (كاتو) ابعد الناس عن الزواج، قدر ما هو ابعدهم عن مصاهرته، وتوحيد اسرتيهما، وهو القنصل السابق الذي منح شرف موكب النصر. ولكنه تبيّن الجدّ فيه فبادر الى القبول مسروراً وقصدا الفورم حالاً لاجراء مراسيم العقد. وفيما هما في ذلك، جمع ابن (كاتو) بعض اصحابه وقصد معهم أباه وسأله: هل أن جلب زوج ابٍ الى البيت، كان بسبب خطأ ارتكبه بحقّه؟ فهتف (كاتو) قائلاً:

- لا لعمري يا بنيّ. فأنا راض عنك غاية الرضا، ولست أجد اية مذمّة لا فيك ولا فيمن يلوذ بك. وكل ما أرمي اليه من زواجي، هو ان يكون لي اولاد كثيرون مثلك اتركهم لخدمة الجمهورية.

ويقولون إن (بسستراتوس) طاغية آثينا أجاب بالجواب عينه على سؤال مماثل من ابنائه الذين كانوا في عنفوان رجولتهم عندما بنى ابوهم بزوجه الثانية (تيموناسّا Timonassa) الارغوسية التي ولدت له على مايذكرون - (ايوفون Iophon) و(تسّالوس Thessalus).

وانجبت له زوجه الجديدة ابنا لقّبه (سالونيوس) وهو لقبها. ثم توفي ابنه البكر. وهو في منصب (بريتور)، وقد جاء ذكره مراراً فيما كتبه ابوه واصفاً اياه بالرجل الصالح. وقيل أنه احتمل مصابه فيه بصبر وضبط نفس مثل فيلسوف، ولم يؤثر في نشاطه ولم يعتر اهتمامه بشؤون الدولة اهمالٌ. ولم ينقلب شخصاً لا اباليا في آخر عمره كما حصل (للوشيوس لوكوللوس Lucius Lucullus) و(ميتللوس پيوس Metellus Pius) اللذين اعتبرا الشؤون العامة من قبيل الواجب المفروض، ما أن يعفى منها المرء حتى يتركها الى غير رجعة. كذلك لم يكن مثل (سكيپيو افريقانوس) الذي نال الحقد من مجده، فدفعه الى تطليق الحياة العامة، وتغيّر حاله وقضى بقية حياته عاطلاً لايعمل شيئاً. لكنه كان كما قال أحدهم في وعظ (ايونيسيوس): إن أفخم واكرم نصب تذكاري يحصل عليه، هو ان يموت وهو يعمل لمملكته. ولهذا وجد (كاتو) أن اكرم الشيخوخة واجلها هي أن ينفقها صاحبها في الشؤون العامة. على انه كان يستجم وقت فراغه بمزاولة الفلاحة والكتابة. ولقد ألف في الواقع كتباً وتواريخ متنوعة[٢٤]. وكان في شبابه منصرفاً الى الزراعة بقصد الربح، واعتاد القول ان

(٢٤) الى جانب ما يناهز مائة وخمسين خطبه تركها. ألف رسالة في الانضباط العسكري. وكتباً في الآثار. منها اثنان في نشوء وبناء المدن الايطالية. وثم كتب خمسة أخرى منها عن تاريخ الرومان. وبالاخص وقائع الحربين الفيونية الأولى والثانية.

طريقيه في الحياة هما الزراعة، واستثمار المال، أما الآن، بعد ان شاخ، فنجده يتخذ الأولى منهما منصرفاً لوقته وموضوعاً للدراسة، فتراه يؤلف كتاباً في شؤون الريف يعالج فيه مما يعالج كيفية صنع الكعك وطرائق حفظ الفاكهة. وهكذا كان (كاتو) يريد أن يبرز في شذوذه وتفرده بتصرفاتٍ واعمال لايشارك فيها غيره من البشر.

واكثر من دعوات العشاء في بيته الريفيّ، فكان يستقبل يومياً اصدقائه وجيرانه الأقربين ويقض وقتاً مرحاً طيباً معهم، ولذلك كان مجلسه مثابةً لالكبار السنّ بل للشباب ايضاً. فهو رجل جمع خبرات شتىً في امور كثيرة، طويل الباع في كل حديث يستأهل السماع سواء في مجالات القول، أو ميادين العمل. واعتبر المائدة الحافلة باطايب الطعام خير مناسبة لتوثيق عرى الصداقة، وبسط الحديث في تقريظ اعمال المواطنين الصلحاء والشجعان، والاقتضاب الشديد في الكلام عن التافهين والحقراء، لأنه لايسمح أن يقال في مجلسه شيء في قدحهم او مدحهم[٢٥].

وينسب اليه بعض المؤرخين القضاء على قرطاجنّة، ويعدّه عملا آخر من اعماله العامة في الدولة. الحق يقال ان (سكيپيو) وجه اليها الضربة القاصمة باقدامه المعهود. لكن اضرام نار الحرب مجدداً كان قد اتخذ بمشورة وتحريض (كاتو) أساساً. وبالشكل التالي:

أرسل (كاتو) وسيط صلح بين القرطاجنين وملك النوميديين (ماسينيسّا Masinissa) ليتعرف على أسباب نزاعهما واحترابهما. وكان ملك النوميديين على ما يبدو صديقاً للرومان منذ البداية. وان الخصمين كانا قد دخلا الاتحاد الروماني بعد أن تغلب عليهما (سكيپيو) وجردهما من قواهما بانتزاعه اراضيهما وفرض غرامة باهظة جداً عليهما[٢٦]. إلاّ أن (كاتو) وجد قرطاجنة بحال تختلف تماماً عما يظنّه الرومان. لم يجدها مهيضة الجناح سيئة الحال، بل زاهرة عامرة متخمة بالمال والغنى مكتنزة لكلّ انواع السلاح والذخيرة. كما وجد القرطاجنيين ابعد الناس عن المسكنة او الذلّة، وانما يبدون العجرفة والغطرسة التي تليق بالمنتصر لا بالمغلوب. فادرك حالاً أن الظرف ليس ظرف اصلاح الرومان خلافاً بين فريقين مختصمين، وان الموضوع هو الخطر الذي يحيق بالرومان من تزايد قوة القرطاجنينّ، والبحث عن الوسائل الكفيلة بوضع حَدّ لنموّ وتعاظم شوكة عدوة روما اللدودة التقليدية. فعاد مسرعاً الى بلده وابلغ مجلس الشيوخ بصراحةٍ أن الهزائم والضربات السابقة التي انزلت بالقرطاجنيين لم

---

(٢٥) De Re Rustica وهو الكتاب الوحيد الذي وصلنا كاملاً دون ان يفقد منه شيء. ومن بين المواضيع «الغريبة الخاصة» التي عالجها موضوع «كيفية تسمين الاوزّ والدجاج والحمام الخ...».

(٢٦) في العام ٢٠١ ق.م ارغم سكيپيو افريقانوس القرطاجنيين عند نهاية الحرب الفيونية الثانية على تسليم اسطولهم للرومان واقتطاع الجزء الماسنيي من اقاليم سيفاكس وضمه الى الامبراطورية الرومانية وبدفع عشرة آلاف تالنت للخزانة العامة.

تضعف قواهم كثيراً كما لم تقلل من عنجهيتهم ونزقهم. وانهم لم يزدادوا ضعفاً كما توهموا بل ازدادوا خبرة في الحرب. وما قتالهم مع النوميديين الأ مناوشة يقصدون منها التمرن والتدرب لقتال الرومان وان الصلح والإتحاد الذي عقدوه مع الرومان هو في الحقيقة اشبه بهدنة حربية مؤقتة تنتظر الفرصة المؤآتية للنقض وبدء الحرب.

ويذكر هو بالذات أنه عمد بعد ختام اقواله الى نفض عباءته ليسّاقط منها امام المجلس بعض التين الافريقي. فأخذ الاعضاء يبدون دهشتهم من جمالها وحجمها، فاستطرد يقول: ان البلاد التي تنمو فيها هذه التينات، لاتبعد عن روما اكثر من ثلاثة أيام بطريق البحر». ولم يدل برأيه بعد ختام بيانه، ولكنه نطق عند اخذ الآراء بالعبارة التالية:

- «وأنا ايضاً أرى ان قرطاجنة يجب أن يقضى عليها قضاءً تاماً»[٢٧].

إلاّ ان (پوبليوس سكيپيو ناسيكا) ظلّ يتمسك بخلاف هذا الرأي وادلى برايه في الصيغة الآتية:

- «يبدو لي ان بقاء قرطاجنة ضرورة لابدّ منها».

وكان يدفعه الى هذا الرأي تفشي اللامبالاة في نفوس بني قومه وازدياد صفاقتهم واستهتارهم بالحكومة. واستهانتهم بمجلس الشيوخ وعصيانهم أوامر الزعماء، وجعلهم الاستقرار والرخاء لايسلس لهم قياد، يجرّون المدينة كلها خلفهم متى شاؤا. فكان يرمي باقتراحه ان يظلّ الخوف من قرطاجنة في قلوبهم. لتكون الجماهير اسلس قياداً. واسرع الى الطاعة. كما كان يرى القرطاجنيين اضعف من مقارعة الرومان واكبر من أن يستهين الرومان بهم. أماّ (كاتو) فيعلل رأيه أن الخطر كل الخطر هو بقاء قرطاجنة ساكنة مترّقبةً هفوة يأتيها الشعب الروماني لتنال منه مأربها. وانه لايجمل بروما التي كانت عظيمة دائماً، وآضت الآن تحفل بالحكمة والتجارب مما اصابها من النكبات، أن ينسيها انغماسها في الملذات الخطر الذي تتعرض له. وان افضل السبل هو ازالة هذا الخطر الآن قبل ان يستفحل ويُخرج شطْء اخطار أخرى كثيرة.

بهذا أثار (كاتو) على مايقال الحرب الثالثة والاخيرة على قرطاجنة، والمعروف انه توفي حال نشوبها متنبأ باسم الشخص الذي قدر له أن يختتمها وكان في ذلك الحين شاباً غرانقاً بوظيفة (تريبيون) عسكريّ، يبدي ضروباً فذة من البسالة والحنكة، وقد ذكر نبأ... (لكاتو) في روما قبيل موته فنطق بهذا:

---

(٢٧) ومن هنا جاء المثل اللاتيني Delenda est Curthage.

«هو الرجل الحكيم الأوحد بين الجميع.

اماً الآخرون فقد فروا وانهزموا كما تنهزم الظِلال!»[٢٨].

نبوءة حققهًا (سكيپيو) باعماله البطولية بعد قليل.

لم يترك (كاتو) ذرية غير ابنه من زوجه الثانية. وقد اطلق عليه كما اسفلنا (كاتو سالونيوس)، كذلك ترك حفيداً لابنه البكر، ومات (كاتو سالونيوس) وهو في منصب (بريتور)، الاّ ان ابنه (ماركوس) صار قنصلا فيما بعد، وهو ابن جد (كاتو)[٢٩] الفيلسوف الذي كان من ابرز شخصيات عصره في مجال الفضيلة والشهرة.

(٢٨) هذان البيتان اوميروس [الاوديس ١٠:٤٩٥] عزاه الى تيريسيوس كميركي أو ليسيوس بزيارة الأشباح.

(٢٩) الشجرة هي كالآتي:

١- كاتو الجنسور. ٢- كاتوسولانيوس [من زواجه الثاني]. ٣- ماركوس كاتو (القنصل). ٤- كاتو الاوتيكي الفيلسوف.

أوجه المقارنة بين اريستيدس وماركوس كاتو

بعد أن نوهّنا بأهم ماقام به هذان الرجلان العظيمان من أعمال وجئنا الآن لمقارنة مجموع حياة اولهما بمجموع حياة الثاني. لما سهل علينا التوصل الى اوجه الخلاف بينهما، لأنها تضيع في عدد كبير من الوقائع التي يتشابهان فيها. وإن نحن انعمنا النظر في التفاصيل واكثرنا التدقيق مثلما نفعل بمقطوعة شعرية أو صورة لوجدنا، انهما يتحدان في وصولهما الى ذروة المجد والرفعة في الجمهورية بفضل اخلاقهما ومجهوداتهما ليس غير. ويبدو أن نبوغ اريستيدس حصل في وقت لم تكن آثينا قد بلغت بعد أوج عظمتها وغناها. وكان كبار الحكام وقادة الجيش في عصره ذوي يسارٍ معتدل وثروات متقاربة، وكانت قيمة أعظم عقارٍ لفرد من هذه الطبقة تقدّر بخمسمائة (ميديمْن Medimn) كما قدرت ثروة فرد الطبقة الثانية اي الفرسان بثلاثمائة وقدر لفرد الطبقة الثالثة أو (زيوغيتوي Zeugitoe) مائتان. ولكن (كاتو) قفز من قرية صغيرة في أعماق الريف إلى حاضرة الجمهورية، أو بالأحرى الى البحر الاوقيانوس، في ذلك الزمن لم يكن يوجد حكام من آمثال آل (كوريي Curii) و (فابريجي Fabricii) و(هوستيلي Hostilii)، ولم يكن الكاردحون الفقراء قد نبذوا المحراث والفأس إلى مناصب الحكم والقضاء، وكانت الثروة وشرف النسب، وكثرة الهدايا، وتفريق المال والتشبثات الشخصية هي عماد النجاح في المدينة، أماّ اولئك الطامحون الى الرقيّ والشهرة. فكانت محاولاتهم تقمع بيد باطشة، ويهانون ويحقّرون. ولم يكن حدثاً خطيراً أن ينافس ثمستوكليس شخصٌ وضيع النسب قليل اليسار (وثمستوكليس نفسه لم يملك اكثر من اربعة او خمسة تالنتات عند دخوله معترك السياسة كما يقال)، مثلما كانت منافستك لشخصٍ مثل (سكيپيو افريقانوس) و(سرفيليوس غالبا) و(كوينتيوس فلامينينوس) ولا سلاح لديك غير لسانك الذرب في قول الحق.

الى جانب هذا، كان (اريستيدس) في ماراثون ثم پلاطيا. قائداً من مجموع عشرةٍ من القادة، اما (كاتو) فقد انتخب قنصلاً مع زميل واحدٍ، من دون منافسين كثيرين له. كما

فُضل على سبعة مرشحين لوظيفة (الچنصور)، وهم من ابرز القوم وسراتهم، مع زميل واحدٍ ايضاً. على ان (أريستيدس) لم يكن الرجل المتفردَ باية مأثرة سعى فيها. فمجد يوم (ماراثون) عُزي الى (ملتيادس) ومأثرة (سلاميس) تقلّدها (تمستوكليس) وخُصَّ (پاوسانياس) بشرف ذلك النصر المؤزر على الفرس كما يحدثنا به (هيرودوتس).

ان رجالاً من امثال (سوفانيس Sophanes) و(أمينياس Aminias) و(كالليماخوس Cal-limachus) و(سينيگيروس Cynaegyrus) أظهروا من حسن البلاء في كل المعارك مارفعهم الى مرتبة (اريستيدس) في منافسته حتى على المحلّ الثاني. أماّ (كاتو) فقد سلم له مقام الشجاعة والحنكة الأول في حرب اسپانيا وهو قنصل. كما استأثر بشرف النصر في (ثرومپيلي) وهو (تريبيون) تحت أمرة قائد، لأنه فتح ثغرة واسعة للجيش الروماني في استحكامات العدوّ وأتاح له الإيقاع بانطيوخوس. ولأنه حمل الحرب كلها على ظهره، في حين وجه اهتمامه بما هو قدامه. وهذا النصر الذي كان من عمل (كاتو) بلا مماراة، أجلى الأغريق عن آسيا، ووطأ السبيل فيما بعد للتوغّل الروماني فيها. وكلاهما لم يخطئه النصر من اية حرب خاضها. إلا ان اريستيدس كبابه حظه في بلاده فنفي وأضطهد بمساعي حزب (تمستوكليس). أما (كاتو) فقد بقي ثابتاً راسخ القدم، رغم تألب كل اشراف روما والمتنفذين تقريباً عليه حتى شيخوخته، وكذلك كان طرفاً في عدة دعاوى قضائية مدعياً او مدعى عليه، وفاز بأغلب الاولى، وخرج من سائر الثانية بريئاً. والفضل لبقائه سليماً لاينوشه أذى طوال حياته يعود بلاشك الى تلك الاداة الباشطة المحكّمة وهي البلاغة، وحسن البيان. ولقد كان (انتيباطر) مصيباً حين خصّ ارسطو الفيلسوف بأرفع الثناء اذ كتب عنه بعد وفاته: في مقدمة مواهبه العظيمة، تلك المقدرة على إقناع الناس باي طريق شاء.

ولا جدال في أن السياسة (پوليطيقا) هي أوفى واكمل نعمةٍ يُحبى بها الإنسان، وناحية "الاقتصاد" والتدبير منها قد تكون أجلّ النواحي الاخرى. واي مدينةٍ من المدن تتألف بطبيعة الحال من بيوتٍ ومجموعة أسر خاصة، فهي لاتنمو ولا تغدو جمهوريةً مستقلّة بشؤونها إلاّ بمجهودات المواطنين فيها، وبازدهار احوالهم ورخاء عيشهم. و(ليكورغوس) نفسه الذي منع التعامل بالذهب والفضة في سپارطه وجعل خُبث الحديد العملة النقدية الوحيدة المشروعة. لم يمنع بهذا الاجراء او غيره اهتمام المواطنين بتدبير امورهم المنزلية الخاصّة، بل كان هدفه لقضاء على الترف والإسراف وهما من آفات الغنى ومظاهر فساده – ليس الاّ. لأنه من الجهة الاخرى اهتم بحشد الكثير من الحاجات الضرورية والمفيدة للناس في المدينة وبزّ غيره من المشترعين في ذلك. ولم تكن رعايته للغنيّ الرفيع القدر، مثل رعايته واهتمامه بالفقير والمحتاج

والمعدم. وكان (كاتو) في هذا الباب مُجلياً كما كان في الشؤون العامة. فقد زاد في امواله وأتربَ. وصار استاذا ومعلما للآخرين في الزراعة والاقتصاد. وجمع في كتاباته عدة مواضيع وملاحظات مفيدة من هذه الجهة. أما (اريستيدس) فكان بعكس ذلك. لقد جعل عدالته كريهةً وبدت كأنها عامل تدمير وافقار لإسرته. كانت عدالته نعمةً للجميع باستثنائه هو، مصدرها وواليها. على ان (هيسيود) يحثنا من جهة أخرى على الالتزام بالحق في معاملاتنا والإهتمام بشؤون بيوتنا، ويهاجم الكسل والتواكل هجوماً عنيفاً ويقول انه أصل المظالم[٣٠]. ولله درّ (هوميروس) القائل:

«لم يكن العمل عزيزاً عليّ، ولا تدبير المنزل بالذي يهمني وان كانت المجهودات فيه تزيد من غنى أسرتي - إن لذّتي وسعادتي في سفينةٍ كاملة العُدّة، وفي الحروب، ورماح الطِعان وسهام القتال -».

يريد أن يبين أن الاشخاص المقصودين في ابياته، يهملون واجبات بيوتهم ولا يعباؤن بعقاراتهم ويعيشون على سلب الآخرين وظلمهم. يقول الأطباء عن الزيت إن وضعه على الجلد مفيد للغاية، وشربه مضرّ، وهكذا يكون اثر عمل الرجل العادل اذ يهمل شأنه ويهتم بشأن الآخرين. ونرى ان خلق (اريستيدس) السياسي يشوبه نقص من هذه الجهة، فقد اجمع معظم المؤرخين على أنه لم يهتم بأن يخلّف لابنتيه مهراً أو يدخر مايكفي لسدّ مصاريف دفنه. في حين نبغ من اسرة (كاتو) شيوخ وقادة عديدون حتى الجيل الرابع منها. وكان احفاده واولاد احفاده من فرسان السياسة المجلّين أما (اريستيدس) رجل اليونان الأول، فقد ألجأ فقره اعضاء اسرته الى كسب قوتهم بالشعبذة والتدجيل، وبعضهم اضطرتهم الحاجة الى التسول ومدّ الكف في المحلات العامّة. اذ لم يترك ربّهم لهم تلك الوسيلة التي توطيء لهم مزاولة العمل الشريف الجدير بذكراه.

مع هذا كله، فلماذا تؤول نتيجة الفقر الى هذا؟ مادام لايعتبر عيباً او منقصةً بحد ذاته، إلاّ اذا كان نتيجة الكسل وعقبى السفاهة واللامبالاة والتمادي في الشهوات؟ إنك لتجده في الضعيف المثابر والعادل الشجاع الذي يوقف سجاياه الفاضلة على المصلحة العامة، أشبه بالتاج الذي يزين مفرق ذي العقلية السامية. لأن الذي يهتم بصغائر الأمور، لايجد له متسعاً من الوقت للاهتمام بعظائم الامور. ومن لم يكن ذا حاجات كثيرة لاقبل له بالنظر في حاجات الآخرين. وما يعين المرء على خدمة شعبه وبني قومه ليس الغنى، بل القناعة والاستقلال في الأمور، ولأن هاتين الخصلتين لاتتطلبان مظاهر ترف وكماليات في المنزل أصغر وهو نواة

(٣٠) يشير بلوتارخ هنا الى بيت لهذا الشاعر كان قد تمثل به قبلاً في مفتتح روايته لسيرة صولون.

مجتمع المدينة - فإنهما لا تصرفان الذهن عن العمل في حقل المصلحة العامة. إن الله وحده هو المعصوم عن الحاجة وهو المكتفي لاغيره، وان ذا الحول المطلق والقداسة ليس له حاجة بالفضائل البشرية كالجسم المتين النامي فإنه لا يتطلب صنفاً فاخراً من الطعام او الثياب. وكذلك الرجل الصحيح بدنا، والبيت القويم الصالح منهما لايحتاجان الى الكثير. ومن يجمع المال الكثير ولا يفيد الاّ من قليله لايُعدّ انساناً مستقلاً بأمره. فإن لم يكن المرء بحاجة الى اشياء معينة فمن الحمق أن يسعى جاهداً في سبيلها لأنه لايريدها. واذا كان يريدها وقمع في نفسه متعته فيها لوضاعته ودناءته وجشعه، فإنه شقي بائس. واذا كنا ننشد الغنى لأجل الاستمتاع به. فإني لأودّ معرفة ما دفع (كاتو) الى الفخر بربح المال الكثير وقناعته منه بالقليل؟ وان كان من دواعي النبل والشرف أن يعتاش على خبز النخالة وشرب الخمر الرخيصة التي يشربها اقنان الأرض ويزهد في لبس الأرجوان، والمنازل المسيّعة بالجصّ، فلا (اريستيدس) ولا (ايامنداس) ولا (مانيوس كيوريوس) ولا (كايوس فابريشيوس) كانوا بحاجةٍ الى ضروريات الحياة، كذلك لم يعمدوا الى السعي وراء الكماليات التي كانوا يترفعون عنها. ولبس مايزين الإنسان ويُجديه أن يباهي بالدرهمين والثلاثة في كل مناسبة عندما يعتبر اللّفت الذي يسلقه بيده، ألذّ طعام، وعندما تقوم زوجه بخبز الخبز، ولا يرتفع قدره بتأليف كتابٍ في اسرع السبل المؤدية للغنى.

إن وجه الصلاح، هو في القناعة بالقليل. فهذا الكفاف من شأنه ان يقضي في الحال على رغبة المرء في الكماليات، وحنانه اليها. ولذلك قال (اريستيدس) في محاكمة (كاللياس) على ما وردنا: إنه الخجل من الفقر وقفٌ على من كان فقيراً خلافاً لرغبته أما الذين أحبوا الفقر فقد جعلوه مدعاة فخرٍ لهم.

ومن السخف حقاً أن نظنّ أن فقر اريستيدس كان متأتياً من كسله، فما كان أهون عليه واسهل أن يثري ويوسر باسلاب بربريّ واحد، أو الاستيلاء على خيمةٍ من خيم العدوّ. ولكن فلنكتف بهذا ولنقفل الموضوع.

لم تضف حملات (كاتو) العسكرية الى رقعة الامبراطورية الرومانية شيئاً كثيراً. لأنها كانت قد بلغت أوج اتساعها قبله ولم يبق لمستزيد زيادة. إلاّ ان حملات (اريستيدس) كانت اشرف قصداً وابعد منها اثراً بكثير، مثلما كانت اعماله المدنية أسمى وأروع ماسطّره شعب اليونان في تاريخه. فهذه معارك (ماراثون وسلاميس وپلاطيا) شاهد. كذلك نحن لانستطيع مضاهاة حروب (انطيوخوس) او هدم اسوار المدن الاسپانية بحروب (احشويرش: أخشيرش) الطاحنة وابادة عشرات الألوف من جنوده في البّر والبحر. لم يتفوق على (اريستيدس) أحد

من الكُماة في كل هذه المواقع، وإن زهَدَ في المجد واكاليل الغار كما زهد في المال والغنى وتركها الى من هم في لهفة اليها، فقد كان ارفع واسمى من كل هذه الأمور. واني لاالوم (كاتو) لتمجيد نفسه بلا حساب أو انقطاع ولا لرفع نفسه فوق الجميع، وهو القائل في احدى خطبه: من السخافة أن يمدح المرء نفسه او يقدح فيها، بيد أن ذاك الذي كان يكره أن يمدحه الآخرون يبدو لي اعلى خلقاً وارفع منزلة ممن لاينفك يعظم نفسه. إن الفكر الذي حقق التحرر من قيْد الطموح، هو العون الرئيس للمرونة السياسية والدهاء السياسيّ، واذا استولى الطموح على الفكر، غلّظ القلوب وسعّر اعظم نيران الحقد والاضطغان على الطمّاح. وقد خلص (اريستيدس) من هذا خلاصاً تاماً، بينما كان عند (كاتو) اكبر هدفٍ له. مد (اريستيدس) يد العون لتسمتوكليس في احرج الأعمال واخطرها؛ ورفع من شأن اثينا بصورة ما - وهو ضابط تحت امرته. وكاد (كاتو) بخصومته ومعارضته لسكيپيو يقضي على حملة الرومان بالفشل وهي التي ادت الى دحر هنيبعل الذي لايقهر. وظلّ يلاحق هذا البطل باتهاماته وشكوكه حتى طرده من المدينة، كما اثقل اخاه بحكم مشين يتضمن ادانته بسرقة اموال الدولة. واخيرا نجد ان ما لهج به (كاتو) حول ضبط النفس قد تحلى به اريستيدس ولم يشن نقاوته او يلحق به وصمة. الاّ ان زيجة كاتو غير اللائقة بوقاره وسنه، انما هي مثلبة من هذه الجهة. فليس من الحشمة والحياء في شيء ان يدخل بيته الذي يسكن فيه ابنه وكنته، ابنة موظف بسيط في الدولة يتلقى اجراً على خدمته وسواء في ذلك أكان الدافع الى الزواج شهوة الجنس، او الغضب من الإبن، فالابتذال والمعرة لاينتفيان من العمل والسبب معاً. والحجّة التي ادلى بها لابنه كانت كذباً في كذبٍ. اذ لو شاء ان تكون له ذرية كبيرة من الابناء الصلحاء انما كان قمينا به أن يتزوج عقيلة، نسيبة حسيبة لا ان يشبع شهوته سراً ولأمد طويلٍ من امرأة لاتربطه بها رابطة الزوجية. حتى اذا افتضح امره؛ اختار لنفسه حمواً مغموراً مثل هذا بينما كان بسهل عليه مصاهرة آخر يتشرف بمصاهرته.

١٩٦٨/٤/٧





PHILOPŒMEN

253 _184

فيلوپومين[1]

كان (كليـاندر) رجلاً رفيع العماد كريم المحتد واسع النفوذ في مدينة (مانتينيا)[2] ولكن مشيئة الاقدار حكمت باخراجه منها. وكان بينه وبين (كروغيس Crougis) والد فيلوپومين وهو شخص من السُّراة، صداقة وطيدة، فاستقرّ في (ميغالوپوليس) حيث يسكن صديقه هذا وتمتع بكلّ مايرغب فيه تحت كنفه طوال حياته، فلما مات هذا الصديق عني بابنه اليتيم وفاءً لجميل ابيه وعطفه الكريم. فكان (فيلوپومين) مدينا له بالتهذيب والتثقيف مثلما كان (فونيكس Phoenix) قد تعهّد بتربية (أخيل) حسب ما روى هوميروس. وشبّ فيلوپومين منذ نعومة اظفاره على الخلق النبيل العالي. على أن تعليمه الأساسّي تمّ على يد (إقديموس Ecdemus) و(ديموفانص Demophanes) بعد اجتيازه عهد الصبا. وكلاهما كان من أهل (ميغاپوليس) ومن المتشبعين بالفلسفة الاكاديمية وصديقين (لأركيسيلاوس Arcesilous)، وقد فاقا أباً من معاصريهما في جعل الفلسفة عاملاً فاعلاً ناشطاً في شؤون الحرب وسياسة الدولة. وحررا وطنهما من الطغيان بهلاك (ارسطوديموس) الذي قتل بسعي منهما. وعاونا (اراطوس Aratus) في طرد الطاغية (نيكوكليس Nicocles) من (سيكيون Sicyon). وابحرا الى مدينة (القيرينيين Cyreneans) بطلب من اهلها عندما كانت الفوضى والاضطراب قد ضربا اطنابهما فيها وافلحا في اقامة حكومة صالحة واحكما تثبيت النظام الجمهوري فيها. وباقرارهما شخصيّاً كان تثقيف (فيلوپومين) من أجلّ الاعمال التي قاما بها، لاعتقادهما بأنهما افادا بلاد اليونان عموماً بغرس بذور الفلسفة في نفس تلميذهما. والواقع أن كل بلاد اليونان جُنت به حُباً (فقد وجدت فيه نوعاً من ولد متأخر جاءت به الى الحياة في عصر انحلالها وضعفها بعد عدد كبير من أنبل الزعماء) وكانت تزيد من سلطانه كلما زاد مجداً. ولقبه أحد الرومان على سبيل المدح باخر الاغريق، كأن بلاد الاغريق لم تنجب عظيماً بعده، ولا من يستحقّ اسم الاغريقي.

---

(١) ولد في ميغالوپولس ونشأ فيها وتلقى تدريبه العسكري وتعليمه هناك.

(٢) مانتيا، مدينة في أركاديا. لم نعثر على ما حدا بكلياندر ليخرج من مدينته هذه.

ولم تكن خلقته مشوهةً كما يتصور بعضهم، فصورته مازالت موجودة في (دلفي) وإنَّ خطأ مستضيفتُه في (ميغارا) حصل على مايبدو، بسبب لين عريكتـه، وبساطته. فقد أبلغت هذه المضيفة أن جنرال (الاخائيين) سيأتي بيتها في غياب زوجها، وراحت تهيء عشاءً له بعجلةٍ شديدة. وفي تلك الاثناء دخل عليه (فيلوبومين) في دثارٍ وعباءة عاديةٍ فظنته من حاشية القائد أرسل قبله فطلبت منه أن يساعدها في شغلها، فبادر بالقاء عباءته عنه وراح بقطع خشباً للوقود. وعاد الزوج وشاهده منصرفاً الى عمله فقال مشدوها: «ماذا نقصد بهذا يا (فيلوبومين)؟ فردّ عليه بلهجته الدوريّة Doric:

- إني أستوفي عقوبة منظري القبيح.

ومرةً كان (تيطس فلامينينوس) يمازحه في شكل جسمه فقال له: أن لديه يدين وقدمين بديعة التكوين. ولكن ليس لديه بطن. لأنه كان في الحقيقة ضامر البطن. على أن هذه المزحة كانت موجهةً الى حالة العسرَ المالي التي تلازمه فقد كان لديه افضل الرجّالة وأحسن الخيّالة، وكثيراً ما كان يخلو وفاضه ولا يجد ما ينفق منه عليهم او يدفع به اجرهم.

ولم يكن حبه الشهرة والشرف بمنفصل عن شعور الغيرة والمنافسة، هما في طبعه ممتزجان، حتى جعل من (أپامنداس)[٣] مثله الاعلى ولم يبتعد عنه كثيراً في بطرلاته وحكمته واستقامته التي لم يعتورها فساد. إلاّ ان مزاجه العنيف الحارّ كان يخرجه دائماً عن حدود الاعتدال والكياسة واللوذعية والانسانية التي امتاز بها (اپامنداس)، وهذا ما جعله نسخة عسكرية له، اكثر مما جعله نسخةً سياسية. والعجيب في الامر أنه مال منذ صباه الى حياة الجندية فدرس ومارس كل ما يتعلق بها وكان يجد لذته في الخيل والسلاح. ولأن طبيعة تكوين جسمه كانت تؤهله لممارسة المصارعة والامتياز فيها فقط نصحه اصدقاؤه ومدربوه بأن يتعاطى التمارين الرياضية ووجهوا اهتمامه اليها. ولكن اراد اولاً ان يتأكد بأن ذلك لا يعوقه عن التمرّس في الجندية فقالوا وكانوا مصيبين أن حياة المصارع هي على طرفي نقيض من حياة العسكري. فحالة البدن الضرورية وطريقة العيش وشكل التمارين كلها تختلف. فالرياضي المحترف ينام كثيراً ويأكل كثيراً. وله اوقات مخصوصة لاجراء تمارينه ونيل راحته لا يحيد عنها وهو عرضة لخسارة الكلّ إن افرط قليلاً أو حاد قيد شعرة عن طريقته التي اعتادها. في حين يتحتمّ على الجندي أن يعود نفسه على مختلف التقلبات، والتغييرات،

(٣) الجنرال والسياسي الاغريقي ولد في ثيبه من مدن بويوتيا (٣٦٢ - ٤١٨ ق.م) وكان من المدافعين عن استقلال بلده. وقد قاد حروباً كثيرة ضد اللقيديمين وضمن استقلال ثيبة عندما حقق نصره الحاسم في موقعه لوكترا الشهيرة على اللقيديمين، ٣٧١ ق.م وقد جرح في معركته الناجحة مع المانتيين وتوفي من أثر الجراح.

ولاسيمّا تعويد نفسه على الجوع والحرمان من النوم دون ان يشق ذلك عليه. ولما سمع (فيلوبومين) هذا القول نبذ كل فكرة في احتراف المصارعة وازدراها، حتى انه زهّد الآخرين فيها عندما تسلم القيادة بانتقادها والانتقاص منها بكل وجهٍ متصوّر، وقال عنها انها رياضة تجعل الرجال الصالحين للقتال والحرب، لافائدة فيهم قطّ عندما يدعو الداعي الى القتال.

وترك مدربيه ومعلميه وبدأ يحمل السلاح مع بني قومه في الغارات التي كانوا يفاجئون بها اللقيديمونيين للنهب والغصب، فكان بها اوّل المتقدمين، وآخر العائدين. وكان يأخذ جسمه بأسباب الخشونة ويدربه على تحمل المشاق في وقت الفراغ، فيتعاطى الصيد والقنص ويعمل في ارضه ليبقى جسمه قوياً ناشطاً. وكان يملك مزرعة جيدة تبعد حوالي عشرين (فرلنغاً) عن المدينة وكان يقصدها يومياً بعد الظهر والعشاء. ويلقي بنفسه على اول فراش يجده وينام مثل واحد من عماله. وفي تباشير الصبح ينهض مع الباقين ويعمل امّا في الكرم او في المحراث، وبعدها يؤوب الى المدينة ويصرف وقته في مجلسه مع اصدقائه أو مع الحكام في الشؤون العامة. وما كان يكسبه في الحرب ينفقه على الخيل او السلاح او يدفعه فدية للاسرى. وكان يسعى الى تحسين ملكه بالوسائل العادلة النزيهة، وهي الزراعة والفلاحة، ولم يكن يقصد بهذا، التلّهي، أو قضاء الوقت وانما كان يرى من واجبه ان يحرص حرصاً شديداً على تدبير شؤون عقاره ليبقى في منجى عن الاغراء بالحاق الاذى بالأخرين.

وانفق كثيراً من الوقت في مدارسة الفلسفة والفصاحة، بيد انه كان يتخيرّ مؤلفيه ولا يهتمّ إلاّ بمن قد ينتفع من سجاياهم وفضائلهم. وكان اهتمامه بملاحم (هوميروس) مقصوراً على كل ما يرى فيه محفزاً للشجاعة والاقدام. وعلق قلبه بتعليقات (ايفانجيلوس Evangelus) حول التاكتيك العسكري واستمتع ايضاً في ساعات فراغه بقراءة وقائع الاسكندر، ورأى في مثل هذه القراءات ما يفيد في التطبيق العملي، إلاّ اذا قصد منها المتعة البحتة، او النقاش العابث. وكان في تناوله الموضوعات العسكرية قد اعتاد أن يهمل الخرائط والمخططات. ويعمد الى وضع النظريات موضع التطبيق والتجربة في ميدان التدريب نفسه. وكنت تراه يُعمل افكاره ويجربّها وهو يسير، فيجادل منهم حوله في غلاظة الأرض الوعثاء او المتحدرة. وما قد يطرأ في الانهار والاودية والشعاب الجبليّة اثناء مسيرة العسكر بنظام الضمّ او الانفتاح، وبهذا الشكل او ذاك من نسق المعركة، ولامراء في أن لذته في العمليات العسكرية وشنّ الحروب لم تكن تعرف اعتدالاً، وليس ذلك بالمستغرب من رجل جعل كيانه وقفاً على هذه الصناعة واعتبرها وسائله الخاصّة لإظهار مختلف المواهب، واحتقرّ كل من هو ليس جندياً ووجدهم أناساً كسالى لانفع فيهم للجهورية.

وكان يبلغ الثلاثين من عمره عندما فاجأ (كليومينيس)[٤] ملك اللقيديمونيين مدينة (ميغالوبوليس) في موهن من الليل وازاح الحرس ودخل واحتل الساحة العامة من المدينة. فخرج (فيلوبومين) على صوت التذير وقاتل ببسالة منقطعة النظير الاّ انه لم يتمكن من ازاحة العدو وطرده. على انه نجح في اخلاء المدنيين ونجاتهم بالخروج منها بوقوفه صامداً في وجه مطارديهم وظلّ يشاغل (كليومينيس) وفقد حصانه واثخن جراحاً وهو صامدٌ يقاتل قتالاً شديداً حتى خلص منها المنسحبين. ولجأ (الميغاليون) الى (مسّينا Messene) فأرسل (كليومينيس) من يعرض عليهم اعادة مدينتهم واموالهم اليهم. ووجد فيهم (فيلوبومين) رغبة دلهفة عظيمة للعودة. فاوقفهم عند حدهم واقتلع الرغبة من نفوسهم بخطبةٍ، ادركوا منها أن الهدف الذي يرمي اليه (كليومينيس) من إعمار المدينة هو في الحقيقة سيطرته على اهلها. وضمانه بقائها تحت سلطانه في المستقبل بوجودهم فيها فإن بقاء المدينة مهجورة سيضطره حتى الى الخروج منها بعد زمن قليلٍ اذ لا معنى للبقاء في حراسة بيوت خالية وجدران عارية. هذه الأسباب جعلت (الميغالوبوليتان) يحجمون عن العودة، لكنها زوّدت (كليومينيس) بحجة لنهب المدينة وتدمير جزءٍ كبير منها وحمل غنائم كبيرة عنها.

وبعد ردح من الزمن زحف (انتيغونس)[٥] الملك لنجدة الأخائيين، وتقدموا بقواتهم الموحّدة نحو (كليومينيس) الذي كان قد عسكر في هضاب (سللآسيا Sellasia) آمناً عزيزاً بعد أن أمسك بكلّ الطرق. فاقترب منه (انتيغونس) عازماً على ارغامه وفرض القتال عليه. وكان (فيلوبومين) وبنو قومه قد اتخذوا مواقعهم مع الخيالة يومئذ، تليهم الرِّجالة الإليرية، وهم وحدة كثيرة العدد عرف افرادها بالبأس في القتال كانوا يكملون خطّ المعركة بتأليفهم القسم الإحتياطي مع الأخائيين. وكانت الاوامر تقضي ببقائهم حيث هم دون أن يشاركوا في القتال حتى تلوح لهم من الجناح الآخر حيث الملك يقاتل - عباءة حمراء مرفرعة فوق سنان رمح. فاطاع الاخائيون الامر ولم يحيدوا عنه الاّ ان ضباط الالليريين ساقوا جنودهم الى الهجوم. ولما

(٤) باوسنياس ٧ في زمن فيلوبيمين لم تكن بلاد الاغريق موحدة في جبهة وانما كان لكل بلاد نظامها الخاص. وكان الاخائيون أقوى الجميع ولم تعرف اية مدينة من مدنهم دكتاتورية ما عدا «پلليني» كما لم يُطال اخائياً الطاعون ولا الحروب. إلا ان اسپارطه بقيت عدوة تتحين الفرص للهجوم عليهم واستعبادهم. أستولى (اغيس) ملك سپارطة على (پلليني) لكن اراتومى السيكيولي أجلاه عنها. وبعد برهة قام الملك المزامل [كليوفيس] بمهاجمة (اراتوس) والتغلب عليه في معركة طاحنة التحمت فيه الأيدي والاجسام. عرفت بـ(دايمه Dyme) وعلى أثر ذلك عقد صلح بين سپارطه واخائيا.

(٥) حاكم مقدونيا، كان وصياً على فيليب ابن ديمتريوس ملك مقدونيا وهو كذلك ابن عم له. يقول باوسنياس انه كان يفترش أم فيليب قام كليومينس بعقد هدنة مع انتيغونس والآخائيين. لكنه ما لبث ان نقض الهدنة وأستولى على ميغالوبولس. لمّا بلغ فيليب أشدّه سلّم انتيغونس ادارة المملكة اليه بكلّ رضا. إلا ان فيليب جرى على أسلوب فيليب ابن اميئتاس بنشره ارهاباً في كل بلاد الاغريق.

رأى (اقليدس) أخو (كليومينيس) مشاة العدو ينفصلون عن الخيالة انتخب أحسن جماعة من وحداته الخفيفة وأمرهم ان يعملوا حركة التفاف ويهاجموا الالليريين المكشوفين من المؤخرة. واوقع هذا الهجوم الفوض في هؤلاء. ووجد (فيلوبومين) أن من السهولة بمكانٍ صدّ هذه الوحدات، فقصد اولاً ضباط الملك ليطلعهم على ما يتطلبه الموقف فلم يكترثوا بما قال، واستسخفوه ولقبوه بدماغ الأرنب (وكان في ذلك الزمن مغمور الصيت لايتمتع بالشهرة التي تدعم مثل هذا الاقتراح الخطير)، فما كان منه الاّ ان ارتدّ الى بني قومه وحمل بهم على العدوّ، وفاجأوا بنظام صفوفه اولاً ثم سرعان ما اجبروه على الفرار بعد ان اوقعوا به مقتلة عظيمة. ثم عمد الى حيلة لتشجيع عسكر الملك واغرائه بالعدوِ وهو مختلّ الصفوف، فترجل عن جواده وراح يقاتل راجلاً بصعوبة متناهية رازحاً تحت ثقل شكة سلاح الخيال، وفي ارض غليظة متعادية ملأى بالجداول والحفر واصيب فخذاه بطحنة نافذة من رمح مربوط بسير جلديً بلغ من قوة قذفه انه خرج من الجهة الثانية واحدث جرحاً بالغاً لكنه ليس بقاتل. فوقف برهة كأنه مكبلٌ بقيدٍ لايستطيع حركة. فقد صعب عليه أن يسحب الرمح من الجرح ولم يجرأ احد ان يفعل ذلك، لوجود العُقلة التي تشد الرمح بالسير الجلدي. وبلغ القتال اشده وحمي وطيسه ولم يبق الاّ القليل لتقرير نتيجة المعركة فتملكته رغبة جنونية في المشاركة بها واخذ يكافح ويناضل نضالاً عنيفاً مع نفسه فقدم ساقاً واخراً لأخرى الى ان كسر قناة الرمح الى نصفين ثم سحبهما من الجرح وما أن وجد نفسه حراً حتى التقط سيفه واسرع مهرولاً وزجَّ نفسه في مثار النقع حتى بلغ الصفوف الامامية وراح يشجع رجاله ويذكي في نفوسهم نار الحماسة. وبعد ان عقد لواء النصر (لانتغونس) سأل المقدونيين على سبيل الإختيار، كيف قامت الخيالة بالهجوم قبل صدور الاشارة بذلك ومن دون أن تتلقى أمراً؟ فأجابوا ان ذلك تمّ خلافاً لرغبتهم فقد ارغمهم عليه شابٌ من (ميغالوبوليس) تعجلّ الهجوم. فقال (انتيغونس) باسماً: «هذا الشاب فعلَ فِعلَ القادة المجربين».

وكان من الطبيعي أن ينال (فيلوبومين) شهرة مستفيضة من جراّء ذلك. والحَّ (انتيغونس) على ضمّه اليه عارضاً عليه شروطاً طيبةً جداً: أجراً ومنصباً. لكن (فيلوبومين) لم يقبل لإنه يعرف قلّة صبره على العمل تحت أمرة الأخرين. كما انه لم يكن يحتمل البقاء عاطلاً، فرحل الى كريت عند سماعه بوجود حرب هناك، لكي لاينقطع عن تمرينه العسكري. وقضى ردحاً من الزمن مع اولئك الكماة المحاربين الذين جمعوا الى بأسهم ظرف الطبع والرزانة فأصاب تقدماً كبيراً في خبراته العسكرية، وعاد تحفّ به الشهرة الذائعة والصيت الداوي الذي أهاب بالآخائيين ان يختاروه قائداً لصنف الخيالة في عسكرهم. كان فرسان ذلك العهد أبعد

المحاربين عن الشجاعة والتجربة. فقد جرت العادة أن يؤخذ عند الخروج الى الحرب أول ما يعنّ لهم من الخيالة الاعتياديين. وأقلهم أجراً، وكانوا في كل الأحوال تقريباً لايذهبون هم بانفسهم وانما يستأجرون آخرين في محلهم ويبقون هم في ديرتهم. ويغضى قوادهم السابقون الطرف عن هذا إذ كانت الفروسية في الجيش الأخائي تعدّ شرفاً. ولهؤلاء نفود كبير في الجمهورية، إن شاؤا أضروا وإن شاءوا نفعوا. وقد وجد (فيلوپوعِين) أمورهم هكذا عندما تولى القيادة فأبى السكوت عنهم ومسايرة الوضع واخذ يتنقل بنفسه من مدينة الى مدينة وينفرد بشبانها ويكلمهم واحداً واحداً يريد بث الطموح وحب المعالي في نفوسهم مستخدما العقاب حيثما وجد ضرورة. ثم تمكن بالتدريب العمومي والاستعراضات والمباريات على مرأى من جماهير النُظّار - أن يجعل منهم رجالاً شداداً كُماةً ابرز ما فيهم الخفة والرشاقة وهما أهم والزم صفتين للجنديّ في الخدمة الفعلية. وبكثرة المران والجهود المبذولة بلغ القوم حَداً عظيماً من الكمال وسيطروا سيطرة تامة على الخيالة فباتت وسريعة الاستجابة في الحركات التعبوية وانتقالها الفوري حتى تبدو القطعات كلها وكأنها جسم واحدٌ يتحرك بمرونة وفورية وارادة رجل واحد عند أيّ تبديل آني يطرأ على نظام القطعات في حومة القتال. وضرب لهم مثلاً من عمله في الوقعة الكبرى التي حصلت بينهم من جهة وبين الايتوليين والاليائيين من جهة أخرى عند نهر (لارسّوس Larissus). أثبتَ (داموفانطس Damophantus) آمر خيالة الإلياتيين، (فيلوپومين) من العدوّ فحمل عليه واحتث جواده اليه باقص سرعة. فانتظره (فيلوپومِين) ساكنا، وقبل أن تهوى الضربة عليه، جندل عدوّه بطعنة رمحٍ جبارة. وبمصرعه ولىّ جنوده الادبار. وبات اسم (فيلوپومين) على كل شفةٍ ولسان ووصف بالرجل الذي لايقوى الصغار على نزاله، ولا يطاله الكبار في الحنكة والدهاء. وان ليس في ميدان القتال افضل منه محارباً وقائداً.

وكان (اراتوس Aratus) اوّل من رفع من ذكر الأخائيين وانتشلهم من وحدة الخمول والإسفاف التي كانوا فيها، فأنبه أمرهم ووسع من سلطانهم بتوحيد مدنهم المنقسمة على نفسها في جمهورية واحدة، تقوم عليها حكومة ذات طابع أنساني، وتسير وفق أصوب النظم الأغريقية في الحكم. ووقع كما يقع في مجاري المياه: يحمل التيار بعض الاشياء الصغيرة ثم تأتي أخرى وتلتصق بها فيشدّ بعضها بعضاً واذا بالكلّ يغدو مادة مستقرة صلدة. وهكذا يكون الامر في الضعف والانحلال العام القومي فقد استسلمت بلاد اليونان الى عامل التفكك والانقسام عندما اخذت كل مدينة تعتمد على نفسها. وهنا بدأ (الاخائيون) يتكتلون ويعملون على توحيد أنفسهم ولما تمّ لهم ذلك راحوا يجتذبون جيرانهم الى وحدتهم هذه،

فضموا بعضهم بتحريرهم من الطغاة الذين حكموهم وقيامهم على حمايتهم، واغروا بعضهم بطرائق سلميّة في الاتحاد. وحاولوا أخيراً ان يجعلوا الپيلوپونيسوس بلاداً واحدة بمنح صفة المواطنة لجميع القاطنين فيها على انهم كانوا في حياة (اراتوس) - يعتمدون كثيراً على المقدونيين، فتقربوا اولاً من (بطليموس) ثم من (انتيغونس) و(فيلپس) الذين ظلوا يتدخلون جميعاً في كل ما يهمّ الاغريق. ولكن الأخائيين بعد تسلم (فيلوپومين) القيادة - شعروا انهم أكفاء لاقوى اعدائهم فنبذوا المعونة الاجنبية. وحقيقة ما في الامر هو أن (اراتوس) كان حاكما مسالماً يكره الحرب، حقق اغلب اصلاحاته ومآثره بالسياسة والصداقة والتعامل بالرقة واللطف مع الحكام الاجانب، في حين كان (فيلوپومين) رجل عملٍ وقيادة، وجندياً عظيماً، حالفه الحظّ في باكورة اعماله. إنه رفع من شجاعة الأخائيين وعززّ مكانهم وقوتهم بصورة مدهشة، بحيث عودّ القوم على النصر تحت قيادته.

على أنه غيرّ من سلاحهم وطرقهم التعبوية ما وجده عتيقاً غثاً وكانوا الى ذلك الزمن يستخدمون في حروبهم دلاصاً رقيقة خفيفة لا تغطي البدن كله، ورماحاً اقصير فناً من الحراب بكثير. ولهذا كانوا متفوقين في القتال اذا ابتعد عنهم عدوهم مسافةً. إلاّ أن الدائرة تدور عليهم في القتال القريب والالتحام أماً في خطط المعركة. فقد كانوا يجهلون التشكيلات المنتظمة بشكل وحداتٍ وكتل منسجمة. وكان خط هجومهم مكشوفاً لا تحميه صفوف كثيفة من الرماح المشرعة، ولا سدّ ملتحم من التروس كما هو الشأن في الفلانكس المقدوني، حيث يتكاتف الجندي بالجندي حتى تتلامس حافات تروسهم، ولهذا كان خطهم ضعيفاً يسهل اختراقه وفتح ثغرات فيه. فغيرّ (فيلوپومين) هذا كله واصلح منه. واستبدل درقاتهم الصغيرة بتروس واسعة، وحرابهم القصيرة برماحٍ طويلة القنا والبسهم الخوذة، وحملهم على تدريع اجسامهم وافخاذهم وسيقانهم بالصفائح. ونبذ شكل القتال القديم، وهو المنادشة التي تمتاز بالكرّ والفرّ، وعلمهم أساليب القتال الثابت المنضّم. واعزى الجنود بلبس شكة سلاحٍ كاملةٍ وبهذا صاروا واثقين من منعتهم. وان عدوهم لاينال منهم فتيلاً. ثم أنه حَوّل ما اعتبر إسرافاً وبذخاً في قومه إلى أشرف وجه من وجوه الانفاق، فقد تعودوا منذ عهد بعيد على التفاضل في فاخر الثياب وغالي الرياش، ونفيس الطعام، وان يتباهوا في منافسة بعضهم بعضاً على ذلك. وتفاقم الخطب وانقلبت العادة فيهم مرضاً عضالاً يتعذر استئصاله برمته. ولذلك لجأ الى تحويل هذا الميل الى سبيل آخر، وجعلهم يتعوضون حبّ الظهور هذا، بحبّ أجدى وانفع وادنى الى صفة الرجّال: انمى في نفوسهم حُبّ بشكاّت سلاح فاخرة، واختيالهم باسلحة ممتازة فراحوا ينفقون على اقتنائها مثلما كانوا ينفقون على كمالياتهم. ولم يعد في الحوانيت والاّ الصفائح

تطرق وتُصهر والدروع تُصقل، وتروس ولجُم تكفَّتُ بالفضة. ونزل ساحات الرياضة مدربو الخيول يدربون على الفروسية، والشباب يتمرنون على استعمال اسلحتهم، ولم يكن يُرى في ايدي النسوة الأخوذات ولم ريش تُصبغ ومعاطف عسكرية وطيالس ركوب تطرز. كان المجهود العام يشحذ نشاطهم ويرفع من معنوياتهم الى حَدّ الاستهانة بالخطر، ويستفزهم الى تقحم ميادين القتال الشريفة وهم مطمئنون الى حسن استعدادهم. إن الاشكال الاخرى من وجوه الترف والاسراف في الانفاق قد تشيع في انفسنا السرور إلا أنها تسلمنا إلى التخنث. وبنضات الحس تضعف من قوى الفكر، إلاّ أن البذل والترف في السلاح تيشدان العزمات وتضاعفا الشجاعة مثلما جعل (هوميروس)، بطله (آخيل) يرقص طرباً عند وقوع نظره على شكة سلاحه الجديدة فاشغلت فيه نار الرغبة في استخدامها. وبعد أن نجح (فيلوبومين) في توجيه جهودهم نحو التسلح فانصرفوا اليه بهمّةٍ فعساء، باشر في تدريبهم عسكرياً بصورة مستمرة فلقي منهم طاعة تامة واستجابة سريعة حماسية. واعجبوا كثيراً بالطرق التعبوية الجديدة وبنظام قتال المعركة. فهو اسلوب من شأنه ان يشدّهم الى بعضهم شداً محاكماً ويثبت اقدامهم ويحبك صفوفهم حبكاً شديداً يصعب كسره. وباتت دروعهم وبزاتهم الحربية خفيفة عليهم سهلة الحمل علاوة على اختيالهم بها لجمالها ونفاستها، وكانوا مشوقين جداً لاختبارها في ميدان القتال الحقيقي.

كان (الاخائيون) وقتذاك في حربٍ مع (ماخانيداس Machanidas) طاغية (لقيديمون) وكان بجيشه القويّ ينتظر الفرصُ المواتية ليجعل من نفسه السيّد المطلق على (البلوبونيسوس). وعندما وردت (فيلوبومين) الانباء بحملته على المانتينيين، نزل فوراً لقتاله وزحف اليه. وتقابلا بالقرب من (مانتينيا). واعد جيشه للمعركة أمام المدينة. وكان كلاهما يستخدمان عدداً لابستهان به من الجنود المرتزقة زيادةً على قواتهما المجتمعة من عدة مدن. وفي بدء الهجوم دحر (ماخانيداس) بمرتزقته الرمّاحة والتارينتيين Tarentines الذين وضعهم (فيلوبومين) في الخطّ الاول، وبدلاً من ان ينثني الى قلب المعركة الرئيسة مهاجماً، حيث كانت جبهتها صامدة متلاحمة - راح يطارد المنهزمين مطاردة حامية. وبدلاً من مهاجمة الأخائيين ايضاً اجتازهم وخلّفهم وراءه، بينما ظلوا في مواقعهم على أهبة واستعداد. من هذه البداية الخالية، خيل لحلفاء الأخائيين انهم خسروا المعركة. إلاّ أن فيلوبومين لم ير فيها اي تأثير على المعركة ولم تنل من عزيمته فقد تبين غفلة العدوّ الذي فتح بعمله هذا، ثغرة في الجزء الرئيس من قواته، وكشف فلانكسه. فلم يأت باية حركة تعرض لهم، وتركهم ماضين في مطاردتهم على هواهم، حتى ابتعدوا عنه مسافةً كبيرة. ووجد مشاة اللقيديمونين أمامه

مكشوفي الاجنحة لانفصال خيالتهم عنهم فحمل عليهم وفاجأهم وهم لايتوقعون هجوماً، هم من دون قائدٍ يوجههم. فقد حسبوا النصر مستتباً لهم بعد رؤيتهم (ماخانيداس) يجري في اعقاب العدو المنهزم. وهكذا اخذهم على حين غرّة واوقع بهم مقتلة عظيمة وهزيمة مُنكرة (قيل أنه فتك باربعة الآف منهم في ساحة المعركة نفسها). وبعد ذلك استدار لمواجهة (ماخانيداس) الذي عاد بمرتزقته من المطاردة. واذا بخندقٍ عريضٍ يفصلهما. ووقف خيالة الطرفين كل فريق الى جانب منه، أحدهما يريد عبوره للفرار والآخر يريد منعه ولم تكن المسألة مسألة مباراة بين جنرالين بل هي اشبه بالدفاع الاخير الذي يبذله وحشٌ ضارٍ حاصره الصيادّ الماكر (فيلوبومين) واضطره الى القتال قتال حياة او موت. كان حصان الطاغية قوياً مقداماً مستوفزاً واذ شعر بالمهماز يدمي خاصرتيه وثب نحو الخندق. وما كاد يبلغ الحافة الثانية حتى زرع قائمتيه زرعاً فيها وحاول جاهداً أن ينهض نفسه الى فوق فهرع (سمياس Simmias) و(پوليينوس Polyœnus) وهما راكبان - الى معونته وكانا يقاتلان الى جانب (فيلوبومين) إلاّ انه سبقهما اليه وواجه (ماخانيداس) ليجد أن هامة الحصان المشمخرة الى اعلى تحجب جسم راكبه عنه، فحاد قليلاً بجواده ورفع حربته وهو قابض عليها من وسطها ودفعها بكلّ قوته في جسم الطاغية فسقط ميتاً في الخندق. واليومَ تشاهد تمثال فيلوبومين البرونزي وهو بهذه الهيئة تماماً قائماً، في (دلفي) صنعه له الأخائيون تكريماً لشجاعته في هذه المعركة الفردية، ولحسن تصرفه وقيادته للمعركة كلها.

وذكروا أن (فيلوبومين) في فترة قيادته الثانية وبعد هذه المعركة بزمن وجيز، انتهز فرصة الالعاب النيميّة Nemea ومناسبة الاحتفال بها، فأخرج لجماهير الاغريق القادمين اليها عسكره اولا، وصفه بتشكيلات المعركة الكاملة كما لو كان ثم معركة. وبعدها قام بتمرينٍ حربيّ كامل طبق فيه فصول المعركة وصفحاتها بنظام عجيب وقوةٍ وخفةٍ مدهشة، ثم دخل الملعب بينما كان الموسيقيون يغنون للفوز بالجائزة الموسيقية. وكان يحفّ به رهط من الجنود الشباب، بمعاطفهم العسكرية ولبودهم الحمراء، تبدو من خلال دروعهم وكلهم في أفضل حال من النشاط والصحة، وفي عمر واحدٍ تقريباً. تفصح سيماؤهم عن الاحترام الذي يكنّونه لجنرالهم، في الوقت الذي تظهر ثقتهم التامة بانفسهم التي ارتفعت بعدد من الانتصارات المجيدة. واتفق لما دخلوا - أن الموسيقي (پيلاديس Pylades) بدأ ينشد بأسلوب الشاعر الاخاذ، ملحمة «الفُرس» لمؤلفها «طيموثيوس Timotheas»...

«تحرر اليونان، وعلا مجدهم تحت قيادته...»

فشخصت ابصار النظار كلها الى القادمين، واستقرت حالاً على (فيلوبومين). وراحوا

يصفقون جذلاً وحبوراً وراحت أمانيهم تداعب فكرة استعادة بلادهم مجدها الذاهب ومكانتها التليدة، وارتفعت معنوياتهم حتى خيل اليهم أنهم يعيشون في روح الماضي المشمخرة.

وكأني بالاخائيين أمهار لايسلس قيادها لغير صاحبها ولا تسلم صهوتها إلا لمن تعودت ركبْته. ويتعذّر قيادها وتصير جموحاً شموساً إذ اركبها شخص آخر غير صاحبها. فاذا هم خرجوا الى حربٍ دون أن يكون (فيلوبومين) على رأس الجنود رأيتهم واجمين كسيري الفؤاد كثيري الافتقاد له. فاذا لاح لهم هدأ روعهم وارتدت اليهم روحهم وثقتهم وشجاعتهم. كانوا قد ادركوا أنه الوحيد بين قادتهم الذي يخشى العدوّ صولته واسمه وحده كفيل بايقاع الرعب في نفوسهم. وهذا (فيلبس) ملك المقدونين يرى نفسه عاجزاً عن اعادة سلطانه على الاخائيين إلا اذا تخلصّ من (فيلوبومين)، فيدفع سراً بمن يغتاله، فينكشف أمره وتنتشر حكاية هذا الغدر في ارجاء اليونان فيفقد سمعته فيها ويجلله العار. وكان (البويوتيون) الذين يحاصرون (ميغارا) على وشك اقتحامها عندما بلغتهم اشاعة عن سعي (فيلوبومين) الى نجدتها بقواته، فأسرعوا برفع الحصار عنها وولوا هاربين وتركوا وراءهم سلالم الحصار متكئة على الأسوار. و(نابيس Nabis) الطاغية اللقيديموني الذي خلف (ماخانيداس) باغت اهل مدينة (ميسّين) عندما كانت القيادة بيد شخص آخر غير (فيلوبومين) وهو (لِسيوّس Lysiphus) الأخائي. فحاول (فيلوبومين) حثه على نجدة المسينيين نأبى معتذرا بأن العدوّ قد دخلها وهي تعدّ في حكم الضائعة. فقرر أن يذهب اليها بنفسه دون أمرٍ او صفة رسمية وخرج ومعه قلة من المواطنين المتحمسين الذين رأوا فيه جنرالاً طبيعياً ارسله القدر المحتوم وجعله أصلح القادة. وسمع (نابيس) بمقدمه ووجد السلامة في الانسحاب مع ان جيشه كان معسكراً داخل المدينة. واسرع بجيشه متسللاً من الرّتاج الأبعد، حامداً حسن حظه في النجاة سالماً. لقد نجح في هروبه إلاّ أن (ميسين) ردّت الى اهلها.

كل ما ذكرناه عن (فيلوبومين) حتى الآن جديرٌ بالمدح والتكريم إلاّ انه عرّض سمعته للطعن والإتهام بالجبن والطموح الى الشهرة غير المشرفة عند الاجانب، لما قصد (كريت) لتسلم منصب القيادة بطلب من (الغورتينين Gortyniano)، في الوقت الذي كانت بلاده تعاني ضيقاً شديداً ووضعاً حرجاً. فالعدو كان سيدّ الموقف، يعسكر أمام أبواب مدينته، ويرى من معسكره شوارعها وبينها وبين فيلوبومين البحر وهو يتولى القيادة العامة في بلاد غير بلاده ويخوض عمار الحروب لادفاعاً عنها. مزوّداً حسّاده ومبغضي بمادة اتهام وقدح كافية للنيل من سمعته. ولقد اعتذر له بعض الكتاب بقولهم أنه ما قبل عرض (الغورتينيين) إلاّ لأن (الاخائيين) اهملوا شأنه واختاروا غيره جنرالاً. فقد كان يضيق ذرعاً بالبطالة والجمود، بل

كان يرى الحرب وقيادة الجنود منصرف نشاطه الوحيد وصناعته المفضلة وهذا يتفق تماماً وما قاله يوماً عن (بطليموس) الملك؛ فقد مدحه احدهم امامه قائلاً أنه أبقى نفسه وجيشه في أفضل حالة واستعداد للطواريء من ضبط وتدريب. فأجاب (فيلوپومين):

- أي مدح هذا الذي نخصُّ به ملكاً ظلّ في الحكم هذه السنوات الطوال يستعد ويتأهب دون أن يحقق أمراً؟

مهما يكن اعتبر (الميغالوپوليسيون) أن (فيلوپومين) خانهم وغدر بهم، واشتد سخطهم عليه حتى كادوا يحكمون بنفيه. إلاّ أن الأخائيين أحبطوا الفكرة بارسال جنرالهم (اريسطيوس Aristœus) الى (ميغالوپوليس) لاقناعهم بالتخلي عنها مع أنه كان يناصب (فيلوپومين) العداء. وهكذا وجد نفسه شريراً مغضوباً عليه من بني قومه فأخذ يغري بهم مختلف الأقوام الصغيرة المجاورة، ويحرضها على الفتنة واقترح عليها مبدئياً ان ترفض دفع الضرائب، وتبطل العمل بقوانينهم ولا مقبل بقيادتهم، ودعم هو بالذات مطالبهم ودافع عن وجهات نظرهم واثار جميع الأخائيين على (ميغالوپوليس). على ان هذه الاحداث وقعت بعد فترة من الزمن.

في اثناء قيامه بخدمة (الغورتينيين) في كريت. لم يلجأ الى القتال على الاسلوب البلوپونيسيّ او (الأركاني Arcanian)، في السهل المنبسط دائماً، وانما كان يقاتلهم بسلاحهم ويقلب خططهم التعبويّة وحيلهم على رؤوسهم، ويبرهن لهم أنهم انما يستخدمون صنعةً ضدّ براعة، وانهم اطفال ليس الاّ أمام جنديّ مجرّب. ثم أنه عاد الى الپيلوپونيسوس بعد بطولات رائعة تحفّ به شهرة داوية. فوجد (تيطس كوينتيوس) قد هزم (فيلپس)، ووجد (نابيس) يخوض حربين. حرب مع الرومان وحربٌ مع الأخائيين. واختير جنرالاً ضدّ (نابيس) فور وصوله.

إلاّ انه آثر القتال البحري معه فكان ما لقيه فيه أشبه بمالقيه (اپامنينداس): الفشل الذي لايتوقع من شهرته. بيد أن بعض المؤرخين يعللون هزيمة (اپامنينداس) بأنها من عمله، وقد تعمّدها لأنه لم يكن يريد أن ينصرف ميل بني قومه الى البحر ومنافعه، لئلا ينقلب افضل الجنود الى أسوء بحارة بالتدريج - على حد قول افلاطون. ولذلك قفل اپامنينداس راجعاً عن آسيا والجزر دون ان يحقق شيئاً ما، لغرضٍ في نفسه. في حين توهم (فيلوپومين) أن حنكته القيادية، وبراعته في القتال البريّ ستظهر النتائج الطيبة نفسها في القتال البحريّ، فخاب أمله وادرك أن التجربة والخبرة هي جزء هامٌ من البسالة. وان الممارسة دعامة رئيسة في تدبير كل امرٍ من الامور. وليت الأمر ظلّ قاصراً على هزيمته في المعركة. فقد كاد غشمه يؤدي به الى نكبة اذ كان قد أعد سفينة قديمةً ذاعت شهرتها منذ اربعين عاماً واركب فيها بعض

مواطنيه، فتقوض بناؤها واحدق الخطر براكبيها وكادوا يغرقون جميعاً.

وتظاهر العدوّ بترك مواقعه في البحر وتحاشي عملياته الحربية في حين كان قد الغى الحصار على (غيثيوم Gythium) تحدياً واستهانة (بفيلوبومين)، فاقلع اليها حالاً وباغتهم من حيث لايتوقعون، وكانوا قد تفرقوا جماعات بعد انتصارهم. فزل البر ليلاً واحزم النار في معسكرهم وقتل عدداً كبيراً منهم.

وبعد ايام قلائل من هذا كان يقود جيشة بمسيرةٍ في ارض غليظة وعشاء، فالتقى بقوات (تابيس) على غير موعدٍ او انتظار. فوجفت قلوب الآخائيين. وخيل لهم ان لا أمل لهم في النجاة لأن العدوّ كان يحتل مواقع جيدة في هذه الأرض المتضرسّة. إلاّ ان (فيلوبومين) اصدر امر الوقوف لفترة قصيرة قام خلالها بعملية استطلاع ارضية. ليثبت فيما بعد أن اهم ما يقرر نتيجة الحرب هو البراعة في التعبئة للمعركة وتنظيم الجيش لها. فقد تقدم بجيشه خطوات قليلة مغيراً نظام سيره بحسب طبيعة الأرض فلم يعد الجنود يشعرون بمشقةٍ ولم يضطروا الى الإخلال بصفوفهم وهكذا تخلص من كل عقبة وهجم على العدوّ والجأه الى الفرار. ثم وجدهم لا يفرون باتجاه المدينة وانما إلى كل اتجاه فرادى مبعثرين في ارجاء الميدان الذي كان يصعب على الخيل، لغاباته وكثبانه وبركه وحفره. فأطلق نفير الانسحاب والكف عن المطاردة وعسكر في ارضٍ منبسطة غير خائف، مقدّراً أن فلول العدو ستحاول التسلل خلسة الى المدينة آحاداً وثُنى في موهنٍ من الليل فوضع كمائن وارصاداً قوية على طول الجداول والسفوح القريبة من اسوار المدينة. وهكذا وقع بايديهم عدد كبير من رجال (تابيس) وصح ما توقعه اذ لم يعودوا كتلة واحدة بل افراداً كما غَشّهم فرحهم بالفرار فقنصهم كما تقنص الطيور قبل أن يدخلوا المدينة.

وواتت الشهرة (فيلوبومين) ودان كل الاغريق له بالحب والإجلال الاّ ان الدنيا لاتخلو من الحاسدين المبغضين. وكان (تيطس فلامنينوس) أحد من وجَدَ عليه. فقد رأى أنه أجدر بالشهرة والإكرام من (فيلوبومين) عند الأخائيين فهو قنصل روماني وذاك (اركاديّ) عاديّ. ثم انه لاسبيل للمقارنة بين ما فعله هو لأجلهم وبين ما فعله ذاك. فقد اعاد لبلاد اليونان حريتها بمرسومٍ واحدٍ وازاح عنها كابوس (فيليپس) والمقدونيين.

عقد (تيطس فلامنينوس) صلحاً مع (نابيس)، ثم نصب (الايتوليون) كمينا (للفابيس) وفتكوا به فاضطربت الأمور في سپارطا، وعمتها الفوض. فاهتبل (فيلوبومين) فرصته فيها، وتوجه نحوها بجيشه. وهناك تمكن من اقناع بعض أهلها بالمنطق. واسكت الخوف بعضهم فوافقوا على دخول بلادهم في الحلف الأخائي. ولم يكن بالأمر الهين أن تصبح سپارطا عضواً في هذا الحلف ولذلك استطارت شهرة (فيلوبومين) عند الأخائين واغرقوه بالثناء لتقوية

اتحادهم بهذه المدينة العظيمة القوية. ولم يكن امتنان أفاضل السپارطين وكبارهم باقلّ من اولئك منهم أيضاً وكانوا يريدون حليفاً قوياً يصون حريتهم واستقلالهم. فاعترافاً منهم بالجميل باعوا قصر (نابيس) وممتلكاته بمبلغ مائة وعشرين تالنتاً من الفضة وقرروا أن يقدموه هديةً لفيلوپومين وارسلوا وفداً عن المدينة لتقديمه باسمها. وهنا ظهرت عفة المهديّ ونزاهته، عفّةً حقةً لاشائبة فيها فقد استنكف اعضاء الوفد واحداً واحداً عن مفاتحته. وراح كل منهم يعتذر ويلقي التبعة على من يليه الى أن رست على (طيمولاوس Timolaus) وهو سپارطي كان فيلوپومين قد حَلّ عليه ضيفاً. فسافر طيمولاوس الى (ميغالوپوليس) واحتفى به فيلوپومين واستضافه، ولم يسع هذا الاّ أن يبهت ببساطة حياته ووقار عيشته ورزانتها. وصعب عليه مفاتحته بامر الهدية فلم يذكر له شيئاً عنها وتعلل بأسباب أخرى لمجيئه وقفل راجعاً دون أن يفصح بكلمة عن مهمته. فأعيد ثانية الى ميغالوپوليس، فلم يجرأ وعاد، وفي عودته الثالثة انهى اليه بالغرض من قدومه بعد كثير من التردد، وبكلمات متعثرة متلجلجة.

فأصغى اليه (فيلوپومين) شاكراً مسروراً، وشدّ الرحال الى سپرطا لينصحهم بالاّ يحاولوا رشوة رجل نزيه، وصديق مخلص لهم، لاشك لديهم في حسن نيته وسجاياه. يخدمهم دون جزاءٍ او ثمن. والحريّ بهم أن يشتروا بهذه الهدية سكوت المغرضين الدساسين من مواطنيهم الذين دأبوا على اثارة الفتن والقلاقل في المدينة بخطبهم المهيجة في الاجتماعات العامة. او خير لهم أن يحبسوا حرية الكلام عن اعدائهم، من أن يحرموها على اصدقائهم. ان هذا لأقوى برهانٍ على احتقار (فيلوپومين) الرشوة.

انتخب (ديوفانص) جنرالاً للآخائيين فوردته أنباء تشير الى ان اللقيديمونيين يضمرون حرباً جديدةً فاعتزم ان ينزل بهم عقاباً. إلاّ ان (فيلوپومين) بذل جهوداً مضنية لحمل (ديوفانص) على السكوت والتريث. قائلاً ان الزمن قد يتمخض بأحداث غير منتظرة فالآن يصطرع انطيوخوس والرومان في قلب بلاد اليونان بجيوش جرارة على مطامعهما الخاصة، وعلى رجل في مثل مركزه أن يبقى ساكنا ويترقب نتيجة الصراع بعين يقظة. وان يعمل جهده للتواري عن انظار المتصارعين، ويتسامح في المشاكل الداخلية التي تقل عن هذه النتيجة اهميةً، ويسهر على اشاعة الهدؤ والاستقرار في الوطن. ولكن ديوفانص لم يدرك الحكمة في قوله وانضمّ الى (تيطس فلامنينوس) وحملا معاً على (داقونيا)، وزحفا بريدان سپارطا. وهنا دفع الحنق (فيلوپومين) الى الاقدام على خطوة لا مبرر لها قطّ ولا وجه عدل فيها من اية ناحية نظرت اليها. إلاّ انه اقدم عليها بجسارة غريبة وجرأة خارقة: دخل سپارطا شخصاً عادياً لايتمتع باية سلطةٍ وابى على قنصل روما وجنرال الآخائيين دخولها. وقام بقمع الاضطراب فيها

واعادها الى خطيرة الاتحاد الآخائي بالشروط الاولى نفسها.

على انه أخذ اللقيديمونيين بصرامة لاحَدّ لها عندما أصبح جنرالاً. فعلى أثر مخالفات جديدة ارتكبوها، اعاد اولئك الذين سبق ابعادهم ونفيهم، وقتل بحد السيف ثمانين سپارطياً (على حد قول پوليبيوس، وثلاثمائة وخمسين على حَدّ قول (اريسطوقراطس) وهدم اسوار المدينة، واقتطع جزءً كبيراً من اراضيها وضمها الى ملك الميغالوپوليسيين. وأخرج منها كل من منحه الطغاة حقوق المواطنة السپارطية واستاقهم الى آخائيا ماعدا ثلاثة آلاف لم يقبلوا بهذا التهجير فما كان منه إلاّ أن باعهم عبيداً، وعلى سبيل التشفي منهم، بني باثمانهم بهو اعمدة (ميغالوپوليس). وزاد في الطين بلة وتمادى في اضطهادهم ووطئهم بالنعال وهم يرزحون تحت المصائب وشفى منهم غله بعمل فيه غلظة وفظاظة لا مزيد عليهما: ألغى وابطل العمل بشرائع (ليكورغوس) وارغم السپارطيين على تربية اولادهم وفق الاصول الاخائي وعلى العيش باسلوب عيشهم، كأنما لايمكن سحق روحهم العالية وارغام انوفهم في التراب إن استمروا في تطبيق شرائع (ليكورغوس). ولم يرفعوا يداً لمقاومة فيلوپومين وهو يمضي قدماً في تقطيع اوصال جمهوريتهم. وذلّ بهم الدهر ولم تبق لهم كرامة. كأن نكبتهم وقارعتهم قد جردتهم عن الحسّ. الاّ ان الزمن لم يطل بهم كثيراً وتحاملوا على أنفسهم لينفصلوا عن الحلف الأخائي بمساعدة الرومان. ولينبذوا جنسيتهم الآخائية الجديدة التي فرضت عليهم، وراحوا جهد امكانهم يعملون على اعادة نظم ليكورغوس وتطبيق شرائعه الغابرة والخراب والبؤس مازالا يعشعشان فيهم.

لما نشبت الحرب في بلاد اليونان بين (أنطيوخوس)[٦] والرومان، كان (فيلوپويمين) مواطناً عاديا لا منصب مسنداً له. وكان شديد الحنق والتنديد بانطيوخوس اذ وجده ساهياً لاهياً في (خلقيس)[٧] لا همٌ له الاّ مطارحه الهوى المحرمّ، والزيجات المتوالية بينما كانت وحداته مشتتةً في مختلف المدن لانظام يجمعها ولا قائد عليها. انشغل افرادها في المحرمات وعكفوا على الملذات. وادركته الحسرة لانه لم يكن في قيادة الجيش الآخائي. وصرح قائلاً انه ليحسد الرومان على نصرهم، ولو انه كان سعيد الحظّ بالقيادة في تلك الفترة لباغت جيش انطيوخوس كله وذبحه عن آخر رجل في الخمارات والحانات!

وبعد هزيمة (انطيوخوس) واشتداد قبضة الرومان على اليونانيين وتضييقهم الخناق على الآخائيين بسلطتهم المتعاظمة لم ير زعماء المدن الاغريقية الشعبيون بداً من خضوعهم... وامتد

---

(٦) انطيوخوس الثالث السلوقي ١٨٧ - ٢٢٣ ويلقب بـ[ميگاس Mégas].

(٧) Chalies: المدينة الرئيسة في ايڤيا على مضيق إڤريپوس.

سلطانهم بسرعة وارتفع - بعناية الالهة وهَدْيها - إلى قدرة دورات الحظّ لهم من سموّ. وكان (فيلوپومين) في ذلك الحين أشبه بالملاّح الخبير في عرض البحر يغيرّ خطّ سيره آنا، ويساير الريح آناً، إلاّ انه لايفلت الدفة، ويمسك بها بقوة لا يخطيء اية فرصة تعنّ له، ولايدخّر اي جهد في رعاية كل من يبرز من مواطنيه في ميدان الفصاحة او الثروة ويشدهم الى عجلة الدفاع عن حريات بلادهم شداً محكماً.

كان (ارسطينوس Aristœnus) الميغالوپوليسي وهو رجل يتمتع بثقة عظيمة عند الأخائيين، من اشدّ انصار الرومان المتحمسين لهم على الدوام، قال هذا يوماً في مجلس الشيوخ: ينبغي الأيثار غضب الرومان أو أن يقاوموا بأي شكل كان. واصغى فيلوپومين الى قوله هذا بصمت كظيم. ثم لم يستطع ضبط نفسه فأجابه غاضباً «ما الذي يجعلك مستعجلاً لرؤية نهاية الوطن اليوناني ايها الرجل التاعس؟». وطلب (مانيوس) القنصل الروماني من الأخائيين بعد هزيمة (انطيوخوس) إعادة اللقيديمونيين المنفيين الى بلادهم ودعم (تيطس) طلبه هذا بحرارة. إلاّ ان (فيلوپومين) رفض الطلب لا لضغينة يحفظها على المنفيين، بل لكيلا يكونوا مدينين لغيره ولغير الآخائيين بهذه المنة، إذ سرعان ما اعادهم فور انتخابه جنرالاً. هكذا كانت روحه طليقة تضيق بايّ ضغط، وتكره الخنوع مثلما كانت طبيعته تهفو الى مصاولة ذوي السلطان في اي ميدان من الميادين.

عندما بلغ فيلوپومين السبعين من عمره، كان قد تولى قيادة الآخائيين العامة ثماني عشرة مرة. وأمل وهو في سنه هذه أن يقضي عام حكمه وبقية عمره في هدؤ وراحة. فلقد كانت روح النضال عند اليونانيين (مثل الداء المستفحل يدركه الضعف والانحلال، بانحلال قوى الجسم) تضعف باطراد عندما يخطئون الوصول الى المجد السياسيّ. إلاّ ان نكد الحظّ او قوة آلهية ناقمة جندلت (فيلوپومين) وسحقته في ختام حياته فكان كالعداءً السابق الذي يعثر ويسقط أمام نهاية الشوط. وذكر انه كان حاضراً في مجلس ورد خلاله مديح قائد فقيل عنه انه عظيمٌ فقال (فيلوپومين): «ليس ثم الكثير مما يقال في مدح رجل ترك عدوّه يأخذه أسيراً وهو حيٌ». وبعد ايام قليلة من قوله هذا وردت ابناءً تشير الى ان (دينوقراطس Dinocrates) الماسيني وهو من الدّ اعداء فيلوپومين، مكروه مبغض عموماً لنذالةٍ فيه وخبث طوية: تمكن هذا من اشاعة روح الثورة ضدّ الآخائيين في نفوس الماسينيين فرفعوا لواء العصيان، وكان (دينوقراطس) على وشك إحتلال موضع يدعى (قولونس Colonis) وفيلوپومين في (ارغوس) طريح الفراش بعاني الحمّى. فلما سمع غادر فراشه واسرع الى (ميغالوپوليس) وقطع مسافة تزيد عن اربعمائة فُرلنغ ليصلها في يومٍ واحدٍ، ثم ساق خيّالته وهم نخبة من

اشرف مواطني المدينة، شباب في ميعة الصبا وعنفوانه تواقون إلى اظهار بطولاتهم بجمعهم حُب (فيلوپومين) وأخلاصهم لبلادهم. وفيما هم يتقدمون نحو (ميسينا) التقوا بقوات (دينوقراطس) قرب جُبيل (ايڤاندر Evander) فحملوا عليها ودحروها. إلاّ أن خمسمائةٌ من مقاتليه التحقوا به متأخرين وكانوا يقومون بحراسة خارجية، فأحيوا الامل فيه فعاد ينظم صفوفه ويلمّ شعثه عند التلال، وخاف (فيلوپومين) من حركة تطويقٍ وكان حريصاً على سلامة رجاله فتراجع في ارض غليظة وأشرف على قتال المؤخرة بنفسه وراح يواجه العدوّ ويتعرض له بالهجمات الموضعية ويجتذبهم اليه يغريهم بقتاله إلاّ انهم ظلوا يتحاشونه ولا يجرأون على تقصير المسافة بينهم وبينه؛ وباتوا يتنادون ويتصايحون من حوله ليس الاّ. ودفعه اهتمامه بانقاذ كل رجل من جيشه، الى ترك القسم الأكبر، والابتعاد عنه ليجد نفسه أخيراً وهو وحيدٌ وسط حشود من العدوّ ومع هذا أحجموا عنه ولم يحملوا عليه خوفاً منه وواصلوا رشقه بالنبال والحراب ودفعوا به الى جُرُفٍ صخرية ولاقى عناءً كبيراً في قيادة جواده خلال عقبات الارض رغم احتثاثه. ولم يكن كبر سنه حائلاً فقد جعل التدريب الدائم جسمه مرناً متيناً. إلاّ أن المرض وطول الرحلة هدّاً من قواه وأنهكاه فلم يستطع الثبات على صهوة حصانه عندما عثر وسقط بدروعه سقطة عنيفة على ارضٍ صخرية فغاب عن وعيه حينا. وظلّ من شدة الصدمة لايقوى على الحركة والكلام. حتى ظنه الاعداء ميتاً فتقدموا منه واخذوه ينزعون عنه دروعه؛ وهنا رفع رأسه وفتح عينيه، فتراموا عليه جميعاً وربطوا يديه خلف ظهره وحملوه الى مدينتهم وكانوا يصبوّن عليه كل انواع الإهانات والشتائم. ذلك الذي ما كان يحلم يوماً أن يقاد اسيراً في موكب نصرٍ (الدينوقراطس).

وجُنّ الميسينيون فرحاً بالنبأ وخرجوا زرافاتٍ الى ظاهر المدينة لمشاهدة الاسير. ولما اقبل بهيئة زرية لاتليق بسمعته واعماله الباهرة وانتصاراته اللامعة، تملكهم الأسى. وراحوا يلعنون حظوظ البشر الخداعة النصّابة وجبروتها الطاغي، بل ذرفوا دموعاً تحولّت شيئاً فشيئاً الى كلمات عطفٍ. واخذت الافواه كُلّها تذكر بما فعله لأجلهم. وكيف حفظ لهم استقلالهم وصان حرياتهم بطرده (نابيس) اللقيديموني. وأراد بعضهم ان يتقرب من (دينوقراطس) ويتملقه فاقترح تعذيب (فيلوپومين) ثم قتله، بوصفه عدواً خطراً لايؤمن جانبه ابداً. وكان اخشى ما يخشاه (دينوقراطس) الذي أسره، ان يظفر بحريته بعد أن أصابته هذه البلية. واخيراً زجّوه في مطبقٍ تحت الارض كانوا يسمونه «الخزانة» وهو موضع لا ينفذ اليه نور او هواء من الخارج وليس له باب وانما تسدّ فوهته بصخرة كبيرة. فدحرجوها وثبتوها في موضعها واقاموا حرساً عليها، ثم تركوه.

وفي تلك الاثناء لم جنود فيلوپومين شعثهم وافتقدوه فلم يجدوه فادركهم خوف من موته وتفرقوا جماعات ينادونه باسمه ويصيحون باصوات جهيرة وانثنوا يلوم بعضهم بعضاً لفرارهم المخزي الشائن وتخليهم عن جنرالهم الذي فقد حياته صوناً لحياتهم. وعادوا ساهمين بعد كثير من البحث والتحري. ثم سمعوا بأسره فاطلقوا رُسُلاً لتبليغ البلاد بالحادث. وكان وقعه على الأخائيين شديداً وادركهم ألم عميق وتقرر أن يطلب اطلاق سراحه وفي الوقت نفسه اعدوا الجيش لانقاذه.

استولى على (دينوقراطس) خوفٌ من أن يؤدي أيّ تأخير الى انقاذ (فيلوپومين) فقرر أن يسبق الأخائيين الى حياته. وانتظر حتى فرّق الليل الجماهير المحتشدة فبعث اليه بجلادٍ يحمل كأساً من السمّ وامره ان لايغادر المطبق حتى يتجرعه. وكان (فيلوپومين) قد استلقى ملتفاً بمعطفه غير نائم، والالم والقلق قد نالا منه كثيراً، فجاهد في النهوض عندما لمح نوراً وشخصاً قريباً منه يمد اليه كأس السمّ. وتناوله منه وسأله هل سمع شيئاً عن فرسانه ولاسيمّا (ليقورتاس Lycortas)[8]؟ فأجابه ان معظمهم قد نجوا. فاحنى رأسه ونظر اليه مسروراً وقال:

– هذا حسن! اذن لم تكن سيئي الحظّ من كل ناحية!

ولم يزد على ذلك. وتجرع السمّ واستلقى مرةً اخرى، وعجّل ضعفه بتأثير السم فقضى عليه فوراً.

وملأ نبأ موته كلّ آخائيا حزناً وبكاء، واجتمع شبابها وزعماء عدد من المدن، في (ميغالوپوليس) وكلهم تصميم وعزم على الانتقام له حالاً، وأمرّوا عليهم (ليقورتاس) جنرالاً وزحفوا على الميسينيين واعملوا فيهم النار والسيف، حتى اخضعوهم[9]. وادرك (دينوقراطس) ومن افتى بقتل (فيلوپومين) ماينتظرهم فبخعوا انفسهم وماتوا غير مأسوفٍ عليهم. اماّ الذين ارتأوا تعذيبه قبل موته فقد كبلهم (ليقورتاس) بالسلاسل، واحتفظ بهم لعقوبة صارمة. وقاموا باحراق جثته ووضعوا رمادها في إناء ثم قفلوا عائدين الى بلدهم لابمسيرة عسكرية اعتيادية. بل بموكب مهيبٍ اختلف، بين موكب نصرٍ، وموكب تشييع. واكاليل الظفر تعلو رؤوسهم والدموع تجول في محاجر أعينهم واسراهم معهم يساقون

(٨) «Lycortas» ارتفع قدر هذا القائد كما يقول پاوسنياس بسبب صداقته لفيلپويمين وتعلقه به وهو من ميكالوپولس كذلك: وقد دسّ له السمّ أيضاً في ١٨٢ أي بعد وفاة فيلپويمين بسنتين.

(٩) باوسنياس: قام الميغالوسيون بطردهم على أساس أنهم من المشاركين في تسليم فيلپويمين الاّ ان السپارطيين حرضوهم على رفع قضيتهم الى روما.

بالسلاسل. وحمل ابناء الرفاة (پوليبيوس) ابن الجنرال وقد دُفن في القلائد والشرائط فلايبين منه شيء، وحف به نخبة من نبلاء الآخائيين، وتبعتهم القطعات العسكرية راكبةً شاكية السلاح، لاتفصح نظرات افرادها لا عن كآبة الحداد، ولا عن كبرياء النصر. وكان الناس يخرجون من المدن والقرى لاستقباله كتلاً وحشوداً كأنما هو قادم من فتوح. وبعد أن يحيوه ينتظمون في آخر الموكب المتجه الى (ميغالوپوليس). وفي المدينة اختلط الشيوخ بالنساء والأطفال والقادمين وصعدَ الجميع زفراتهم وضجّت المدينة كلها بالندب والعويل فقد كانت خسارة (فيلوپومين) خسارة مكانتهم وعزتهم بين الأخائيين. بهذا التكريم والحفادة اللائقين بمكانته تمّ دفن رفاته، ورُجم الاسرى حول ضريحه.

نصب (لفيلوپومين) عدد كبير من التماثيل في كثير من المدن، وخلع عليه ما لايحصى من ضروب التكريم. وفي عهد الإنحلال اليوناني بعد تدمير (كورنث) قام احد الرومان يتهمّ فيلوپومين علناً كما لو كان حياً - واقترح بوصفه عدواً للرومان ازالة كل ما يذكر به، فتلا هذا، مناقشة حامية والقيت خطب، وقام (پوليبيوس) بالردّ على بطانة المتملقين بالمرائين فأفاض واسهب. وأبى (مومميوس Mummius)[١٠] وضباطه تشويه انصاب الرجل العظيم، وان كان قد وقف كثيراً في وجه (تيطس) و (مانيوس) واحبط اعمالهما. لقد كان هؤلاء والحق يقال يدركون الفرق بين المنفعة وبين الفضيلة، بين ما هو صالح لنفسه، وبين ما هو مفيد لطرف من الأطراف، ولأنهم اناس طيبون شرفاء، فقد حكموا بأن الشكر والجزاء الطيب هو حق واجبٌ لفاعل الخير من نائله. وان تكريم الطيبِّ للطيب أمر لايمكن نكرانه.

وبهذا القدر نختتم الكلام عن فيلوپومين.

---

(١٠) لوشيوس لومبوس تولى القنصلية في العام ١٤٦ ق.م. وقاد الحملة الرومانية على بلاد الاغريق واتمّ تصفية العصبة الآخائية ونهب مدينة كورنث ثم الحق اليونان بالامبراطورية الرومانية فأصبحت اقليماً تابعاً وقد أستدعي موميوس فيما بعد ليحل محله تيطس فلامينيوس كما سيجي شرحه في سيرته.

فلامينوس

FLAMININUS

(Titus Quinctus)

229 _ 174

فلامنينوس[1]

(تيطس كوينكتوس فلامنينوس)[2]

الذي اخترناه قريناً (لفيلوبومين) فإنه واجدٌ ضالته في تمثاله البرونزي القائم اليومَ مقابل الملعب الاكبر Circus Maximus[3]، بالقرب من تمثال ابوللو الكبير الذي جيء به من قرطاجة. والناظر يرى عليه كتابة باللغة اليونانية. هذا عن شكله، أما عن طبعه فقيل أنه كان حار العواطف في حالتي الغضب والرضى، إلا أنهما ليستا متساويتين في آثارهما. فقد كان دوماً معتدلاً في العقاب لا يتوخى فيه الاصرار ولا الصرامة، في حين لايقف في جميله وعمل خيره وانما يمضي فيهما قدماً الى النهاية وقد يبلغ جوده وسماحته لمن يخصّهم بنعمائه مايبدو به وكأنهم هم المحسنون اليه، وليس هو المحسن اليهم. ان اولئك الذين يحبوهم بفضله وفضله يعتبرهم اثمن مالديه ولذلك يغار عليهم ويحرصُ حرصاً شديداً على سلامتهم! على أنه كان دائم التعطش الى المجد والرفعة. كثير البحث عن عظائم الامور وخوارقها لينفرد بفصلها ويبز فيها الآخرين. وكان اكثر سعادة بالمحتاجين من القادرين على سَدّ الحاجة. لأن الأولين هم ميدان لممارسة حميد سجاياه، ولأن الآخرين منافسون له في المجد.

كانت روما في ذلك العهد ميداناً لصراع حادٍ، وقد انشغل شبانها بالحروب، وخاضوا

---

(١) المخطوطات تثبت الاسم عموماً بصورة غير صحيحة هي او تكتبه (فلامينوس) - وتيطس» هو الاسم الذي يعرف به عادة عند الاغريق.

(٢) كان فلامينينوس قد أرسل بهدف تحرير كل بلاد الاغريق من حكم فيليب (فيلبس) المقدوني. وأعلن انه يعتزم اعطاء ايلاتينا Elateia استقلالها وقانونها الأساسي السليب، واذاع عن طريق سعاة ينادون في المدن بوجوب انتقاض ايلاتينيا على المقدونيين بثورة ولكن غباءهم ابقاهم مخلصين لفيليب لاصقين به الا ان حصار ايلايتيا وسقوطها بيده كان أول عمل عسكري أتاه [باوسنياس ١٠ - ٣٤].

(٣) تقع آثار هذا الملعب الأكبر على قدمة تلّ البالاتيني وهو على شكل اهليليجي. وفيه كانت تجرى سباقات الخيل. بني في عهد ملوك الرومان وجرى توسيعه تدريجياً في عهدي الجمهورية والامبراطورية لاسيما في حكم قسطنطين (القرن الرابع بعد الميلاد) وهو يتسع لمائة الف متفرج.

غمارهما وحلبوا اشطرها وهم في مقتبل العمر، وتمرسوا في فن القيادة العسكرية وهم صغار السن. وكذلك كان فلامنينوس فقد تلقى أول مبادىء القتال ونال اول منصب قياديّ وهو منصب التريبيون في الحرب ضدها ينبغل تحت أمرة (مارچلووس) عندما كان قنصلاً. ثم سقط (مارچلووس) في كمين وقتل، وعُين (تيطس) بوظيفة حاكم عامٍ (لتارنتوم) والانحاء المجاورة لها بعد استرجاعها فنال شهرة في نشره العدل تساوي شهرته في الحرب. وهذا ما هيأ له أن يكون مؤسساً وزعيماً لمستعمرتين رومانيتين ارسلتا الى مدينتي (نارينا Narina) و (كوسّا Cossa)، فملأه هذا بأعرض الآمال واوسعها وجعله يطمح الى تخطي المناصب العامة المتدرجة التي كان عليه مزاولتها تباعاً كما جرى عليه العرف وهي (تريبيون الشعب)، ثم (بريتور) ثم (أيديل)، للوصول الى المنصب القنصلي المنشود وهو أعلى منصب في الدولة. فباسناد هاتين المستعمرتين وتشجيعهما له ووضعهما مواردهما رهن اشارته تقدم لترشيح نفسه في المنصب القنصلي مباشرةً، إلاّ ان تريبيونات (مفوضي) الشعب بالاتفاق مع (فولڤيوس Fulvius) و(مانيوس)[٤] وحزبهما عارضوا في انتخابه معارضة شديدة قائلين انه لايجوز قطّ ان يتقحّم شابٌ غض الإهاب مركز رئاسة الدولة، وهو غير حائز مراناً او خبرةً في اوليّات الطقوس المقدسّة واسرار الحكم، ليفرض نفسه هكذا مستهيناً بالشرع وبكلّ القوانين.

ومهما يكن، فإن مجلس الشيوخ راغ من المشكلة بايداع أمر الانتخاب الى الشعب، واخضع المرشحون الى الاقتراع العام، فنجح (تيطس) وهو شاب لم يبلغ الثلاثين، مع زميله الآخر (سكستس ايليوس Sextus Aelius). ووقعت حرب (فيلپس) والمقدونيين، عليه بالقرعة. ويبدو وكأن حسن الحظّ قد واتى الرومان في تلك اللحظة فقرر ذلك. فإن مصلحة الشعب وطبيعة الاحوال الراهنة ماكانت تتطلب جنرالاً عسكرياً بحتاً ديدنه القوة المجردة وانزال الضربات، بل رجلاً أهلاً لحسن التفاهم بلغة المنطق، وطيب المعاملة ورقتها. والواقع انه مملكة مقدونيا كانت تزود (فيلپس) بكلّ ما يحتاجه جيشه من تجهيزات لمعركته مع الرومان، ولكن مواردها المحدودة لاتكفي لحرب طويلة مضنية وكان عليه والحالة هذه ان يعتمد على بلاد اليونان بالمؤن والارزاق والملجأ، أو بمختصر القول القاعدة ومركز التموين الوحيد لعسكره. فإن لم يتحقق إبعاد بلاد اليونان عن ممالأة (فيلپس) فلا يتوقع انهاء الحرب بمعركة واحدة. وهذه بلاد اليونان (لم تكن علاقاتها في ذلك الزمن قد توثقت بعد مع الرومان، وانما بدأت تباشير الصلات في هذه المناسبة) لم تتعود المبادرة بسرعة إلى قبول سلطان اجنبيّ عليها، بدلاً من قادتها وزعمائها الذين تخيرتهم واطمأنت اليهم، لو لم يكن جنرال هؤلاء

(٤) المقصود به (مانيوس كيوريوس Manius Curius).

الاجانب سمحاً رقيقاً بفضل الوسائل السلمية العادلة على استخدام القوة الغاشمة. وكان حسن الكلام والخطاب فيما يوجهه الى الآخرين مع تمسكٍ بقواعد العدل والإنصاف الى آخر حَدٍ لا يحيد عنها قطّ. ولم يكن بأقل من هذا استعداداً وسماحه لتلقي خطاب الآخرين وكلامهم. على أنَّ قصة اعماله العسكرية هي خير ما يوضح ذلك.

وجد (تيطس) أن سلفيه القائدين (سولپشيوس) و(پوبليوس) لم يحققا اي عملٍ عسكري ضدّ المقدونيين ولم يتعرضا لهم إلا بعد أن تصرم من العام معظمه على انهما لم يديرا الحرب كما يجب واقتصرا على مناوشات موضعية وحركات استكشاف هنا وهناك لتأمين المسالك والممرات والتجهيزات. ولم يلتحما قطّ مع (فيلپس) بمعركة كبيرة. فقررّ أن لايضيع سنةً أخرى كما فعلا - ببقائه في ارض الوطن يستمتع بمظاهر التجلّة والفخفخة، ويصرف الشؤون الادارية الداخلّية، وبعد ختامها يلتحق بالجيش يحدده أملٌ خالب، في تمديد فترته سنةً أخرى، فيكون قد قض الاولى بوظيفة القنصل والثانية بمنصب الجنرال. ترفع (تيطس) عن هذا، وكان يحسّ برغبةٍ عارمة في استخدام سلطاته في الحرب ومصائرها، وهو ما كان يستخف بالعظمة التي تحفّ بمنصبه في داخل الوطن. فطلب من مجلس الشيوخ أن يخوله حق يقين اخيه (لوشيوس) أميرالاً للاسطول، فتمّ له ذلك. واخذ معه ثلاثة آلاف جنديّ من اولئك الجنود الكُماة الذين دحروا (اسدروبال) في اسبانيا، و(هانيبال) في افريقيا بقيادة (سكيپيو)، ومازالوا يتقدون شباباً وقوةً، أخذهم ليكونوا شفرة الحملة القاطعة. ووصل (ايپروس) سالماً ليجد (پوبليوس) معسكراً بجيشه في مواجهة (فيلپس) الذي كان قد نجح في عبور نهر (ايسوس) والمضايق هناك منذ زمن طويل. ولم يتمكن (پوبليوس) أن يحقق شيئاً ضد فيلپس لمناعة الموقع الطبيعية. فقرر (تيطس) ان يقود الجيش بنفسه، فأقال (پوبليوس) وقام باستطلاع أرضيٍ. فلم يجده أقل مناعةً من (تمپه Tempe)[٥] وإن كان براحاً ليس فيه الشجر والغاب والمروج الاريضة اللطيفة والمسالك التي تزدان بها (تمپه). ويجد نهر (ايسوس) مجراه بين جبالٍ مشمخرة باذخة تلتقي جميعها في هضبة فوق مفصلٍ عميق الغور في الوسط. وهو كثير الشبه بنهر (پنيوس Peneus)[٦] في سرعة تياره ومظهره العام، ويغطي مجراه سفوح [illegible] أشق محاذاة النهر، لاسبيل امير الجيش فيه دائماً،

ويسلك طريقاً لاحباً أميناً عند منطقة (لينكوس Lyncus). الاّ انه استقرّ على اقتحام الجبال ولا يسلك السبيل المأمونة لئلا يبتعد كثيراً عن البحر في بقاع جرداء موات. وسيفطر عندما يأبى (فيلپس) القتال الى أن يعود من حيث أتى ليكون قريباً الى البحر بسبب تموينه. إلاّ أن (فيلپس) الذي كان قد سيطر بجيشه على الشعب برمته راح يمطر رتل (تيطس) بالرماح والنبال من حالق فتسقط على الرومان من كل جهة. وحصلت اشتباكات عنيفة وسقط كثير من القتلى والجرحى بين الطرفين. وبدا الاحتمال بعيداً بانتهاء الحرب على هذه الشاكلة. وفي هذه المرحلة اقبل بعض الرجال الذين كانوا يرعون قطعان ماشيتهم في الجوار، على (تيطس) بكشفٍ هامٍ قالوا انه يوجد طريق دائري اهمل العدوّ حراسته وعرضوا أن يقودوا مسيرة الجيش خلاله حتى يبلغوا به شعفة الجبال في غضون ثلاثة أيام على اكثر تقدير، واخبروه زيادة في اطمئنانه أن (خاروپس Charops) ابن (ماخاتاس Machatas) وهو من سراة (اپيروس) وصديق للرومان. طالما ساعدهم سراً (لخوفه من فيلپس)، واقفٌ على الخطّة وعالم بمجيئهم اليه. فلم يداخله الشكّ في معلوماتهم وجرّد اربعة آلاف راجلٍ وثلاثمائة فارس بقيادة ضابطٍ، ودلالة هؤلاء الرعاة الذين اوثق كتافهم زيادة في التحوّط وكانوا يتخفون نهاراً في فجوات الجبل وغابات الكثيفة، ويغذوّن السرُى ليلاً على ضوء القمر، وكان بدراً. وبقي (تيطس) بعد فصله هذه القوة، هادئاً ساكناً ببقية الجيش. ماخلا بعض مناوشات مع العدّو للمشاغلة وصرف نظره عن التجريدة. ولما حلّ اليوم المرسوم لوصولها الى القمة من المؤخرة، أخرج جيشه بنظام المعركة في الصباح الباكر بكل وحداته الثقيلة والخفيفة ثم قسمها الى ثلاثة اقسام وقاد هو العشم المتقدم في الشعب الضيق الممتدّ بمحاذاة المجرى. فقابله المقدونيون بمقذونهم ومحذوفهم فالتحم معهم في مداعسةٍ ومماسكة فوق الارض الغليظة في حين برز القسمان الآخران للقتال وانتشرا بين الصخور بخفة وبمعنويات عالية، وراحوا يشقون طريقهم الى الامام، وما ان بزغت الشمس حتى رأووا دخانا ضعيفاً يشبه الضباب يمور فوق الجبال على مبعدة منهم. ولم يكن باستطاعة العدوّ مشاهدته لأن مواقع الرومان كانت خلفهم في الذّري العليا. والرومان ايضاً كانوا يعانون توتراً وارهاقاً ومشاقّ شديدة لذلك لم يسعهم إلاّ ان يفسروا مع الشكّ الكثير تلك الإشارة بما يتفق ورغباتهم. ولكن شكهم تبددّ عندما أخذ يتكاثف ويسودّ ويتعالى. وايقنوا أنه اشارة الانار التي يطلقها زملاؤهم، فصاحوا صيحة الانتصار واندفعوا يشقون طريقهم الى الامام وانكفأ العدوّ على اعقابه يلوز بأصعب الارض واوعرها. ورددّت جماعة القمة صيحة زملائهم من الاعلى.

وولى المقدونيون الادبار فراراً بأسرع ما امكنهم ولم يسقط منهم في الواقع غير ألفين،

والفضل بنجاتهم يعود الى صعوبة الارض التي منعت الرومان من ملاحقتهم، على انه المنتصرين نهبوا معسكرهم واستولوا على اموالهم وعبيدهم واصبحوا سادة المضيق واحتلوا كل (ابيروس)، وقاموا بكل هذه الأعمال وهم حريصون على الضبط او النظام والاعتدال والسماحة. في حين كانوا بعيدين عن البحر تفصل بينهم وبين سفنهم مسافة شاسعة، وهم يعانون شحاً كبيراً في جراياتهم الشهرية من القمح، ومصاعب عظيمة في شراء ما يحتاجون منه. مع هذا كله لم تمتد ايديهم الى نهب البلاد مطلقاً وفيها من الغلات والارزاق ما يزيد عن حاجة اهلها ومن كل نوع. ثم وردت الانباء بتراجع (فيلپس) تراجعاً أقرب الى الفرار منه الى المسيرة في بلاد (ثسالي)، وأنه يرغم سكان المدن على الخروج من ديارهم واللجؤ الى الجبال، فيقوم بحرق مدنهم ويبيح لجنوده مقتناهم الذي تركوه بمثابة غنائمَ حربٍ، فبدأ وكأنه يسلمّ البلاد كلها للرومان. ولذلك كان (تيطس) حريصاً على ان يمرّ بها جنوده كأنما هي بلدهم أو امانة اودعت بايديهم، وقد شددّ عليهم بذلك. فما لبثوا أن حصدوا جزاء مسلكهم السويّ الطيب. فقد فتحت المدن ابوابها لهم تباعاً ما أن وضعوا قدماً على الارض الثسالية. وهبّ يونانيو (ثرموپيلي) بلهفة وشوقٍ لمصافحتهم وربط مصيرهم بهم. ونقض الأخائيون حلفهم مع (فيلپس) وصوتوا بالإجماع على محالفة الرومان عسكرياً، ورفعوا السلاح ضدّ حليفهم السابق. وكان الاتيوليون الذين هم اخلص حلفاء الرومان يرغبون كثيراً في أن يأخذوا على عاتقهم حماية مدينة آلاوپونتيين Opuntians إلاّ أن هؤلاء لم يرضوا بغير الرومان حامياً وارسلوا بطلب (تيطس) ووضعوا أنفسهم ومصائرهم بين يديه. وقيل عن (پيروّس Pyrrhus) أنه كان ينظر الى الجيش الروماني من جبل قريبٍ أو من برج مراقبة. لأول مرةٍ في حياته، فتابعه وهو ينتظم في خطّ المعركة وقال معقباً. «انه لم ير خطّ معركة أقرب شبها للبرابرة من هذا». ولم يكن يسع من وجد انذاك قريباً من (تيطس) أن يحكم عليهم بخلاف ذلك لأولِ وهلة. على أن من أدخل المقدونيون في روعهم اموراً تخالف الواقع مخدتوهم عن غازٍ يقود جيشاً بربرياً وعلى ذبابة سيفه يحمل الخراب والعبودية اينما حَلّ، كانت دهشتهم عظيمة وفرحهم لا يوصف عندما راؤوا فيه رجلاً مهيباً في زهرة العمر رقيق الطبع مهذب الحاشية انساني النزعة، اغريقياً بحديثه وصوته. فتمسكا باهداب الفضيلة والخلال السامية فعلقوا به واحبوهُ وتركوه وهم ألسنة حمد به وانتشروا في المدن يعددون سجاياه ويرددن أفضل الاخبار عنه واعلنوا بما يقرب الإيمان انهم يجدون فيه نصيراً وصائناً لاستقلالهم وحرياتهم. وتاكد ذلك عند اليونانيين عندما طلب (فيلپس) عقد الصلح بعد فترة، فقدم (تيطس) عرضاً بالصداقة والسلام يتضمن شرطاً يحتم عليه ترك اليونانيين يصرفون لمورهم وفق شرائعهم، وسحب كلّ

حامياته من المدن اليونانية. فرفض (فيلپس) ذلك؛ ومن هذا ساد يقين عام حتى عند انصار (فيلپس) بان الرومان لم يأتوا القتال الاغريق بل المقدونيين في سبيل الاغريق.

ولهذا سارعت بقية الدول اليونانية الى مسالمته ومحالفته. وفيما كان يجتاز (بويوتيا) دون أن يقدر منه بادرة عداء، خرج اشراف (ثيبة) وسراتها الى ظاهر المدينة لاستقباله، وكانوا بسعي من (براخيللتس Brachylles) متمسكين بحلفهم مع المقدونيين إلا انهم رغبوا في اظهار حسن نواياهم وتكريمهم (لتيطس) اثباتاً لحيادهم وصداقتهم للفريقين. فتلقاهم (تيطس) بحفاوة وترحاب وجلس اليهم يشاغلهم بمسامرته الرقيقة ويلقي عليهم مختلف الاسئلة والاستفسارات تتخللها حكايات. كسباً للوقت واتاحة فترة راجه لجنوده بعد مسيرتهم الشاقة، وهكذا دخل المدينة ساعة رجوع اعضاء الوفد اليها وأسقط في يدهم لأن الجنود الذين دخلوا معه كانوا كثيرين فسلّموا بالأمر الواقع كارهين. ولم يتصرف (تيطس) في المدينة تصرف الفاتح فقد قام فيهم خطيبا واخذ يحثهم على ربط مصيرهم بمصير الرومان، وعقبه (اطالوس Attalus) ملكهم وحاول ان يقوم بدور المحامي والراعي وبذل جهدا فاق ما يتحمله كبر سنه على ما يبدو. فأصيب بدوار في وسط خطبته وترنح وسقط فاقد الوعي. وبعد ذلك بقليل نقل إلى آسيا بسفينة، وهناك توفي ودخل البويوتيون في حلفٍ مع الرومان.

لما بعث (فيلپس) بسفارةٍ الى روما، بادر (تيطس) ايضاً الى ارسال مندوبين يمثلونه لاقناع مجلس الشيوخ بابقائه قائداً للجيش اذا ما قررّ مواصلة الحرب، أو ان يمنحه شرف عقد الصلح اذا قرر انهاءها. ولشوقه العارم الى الجاه والرفعة تجاذبه الخوف من خسران ماكسبه من صيت في حالة تعيين جنرال آخر لمواصلة الحرب وافلح مندوبوه في تسوية الأمور وتدبيرها بما فيه مصلحته. وفشل (فيلپس) في كل مساعيه ومقترحاته، كما عهد الى (تيطس) بادارة دفة الحرب كالسابق. وما بلغه قرار مجلس الشيوخ حتى زحف على ثسالي لمناجزة (فيلپس) تحدوه الآمال الجسام. وكان جيشه يعدّ ستة وعشرين الفاً (منهم ستة آلاف راجل واربعمائة فارس امدّه بهم الايتوليون) وهو مقارب لعدد قوات (فيلپس). وكان كلاهما يتحرقان شوقاً الى المعركة، فتقدم احدهما من الآخر حتى بلغا موضعا قريباً من (سكوتوسّا Scotussa) وقد استقر عزمهما على الاشتباك. إن كرة هذين الجيشين الجرارين احدهما على الآخر لم تخلف في قائديهما القلق والخوف المعهود في مثل هذا الموقف بل كان الامر على خلاف ذلك اذ كان طموح القائدين وحماستهما للقتال متوقدة». فالرومان كانوا يطمحون الى فتح مقدونيا، تلك البلاد التي رفع الاسكندر اسمها عالياً وجعلها مثلاً مضروباً في المنعة والقوة. اما المقدونيون الذين وجدوا في الرومان عدداً يختلف عن الفرس فقد كانوا يأملون من انتصارهم ان يجعلوا

اسم (فيليپس) أشهر من اسم الاسكندر. ولذلك راح (تيطس) يحمس جنوده، ويطلب منهم ان يضربوا مثلاً فريداً في الإقدام لأنهم سيلعبون على اعظم مرسح في الدنيا وهو بلاد اليونان، وسيقاتلون اشجع الخصوم. والقى (فيليپس) خطبة على جنوده قبيل المعركة كما جرت به العادة عندهم، وارتقى ربوة عالية تقع خارج المعسكر ليصل صوته الى أبعد مسافة ساهيا عن خطورة ما فعل إمّا نتيجة الاستعجال المبتسر أو بمحض سوء الصدف، إذ تبين فيما بعد أن هذه الربوة هي مقبرة. وأستبد به قلق عظيم لما رأى من خور عزائم جنوده لهذا الفأل السيء فلازم معسكره طول اليوم وابى القتال.

واسفر الصباح الذي تلا ليلاً ماطراً طليلاً، عن يوم انقلبت فيه الغيوم الى ضباب نشر على السهل ظلاماً داجناً. وزحف من الجبال المجاورة الى الارض التي تفصل بين المعسكرين هواء ثقيل هيدبٌ ضبابيّ في رأب الضحى فاخفى الجيش عن الجيش فأخرجا فصائل منهما بعضها للاستطلاع وبعضها للكمائن. فوقعت احداها على الاخرى حال انفصالها عن القسم الأكبر واشتبكت في قتال فوق ما يُدعى (كينوس كيفالي Cynos Cephalae) وهو عدد من رؤوس تلال حادة المرتقى متقارب بعضها من بعضٍ واسمها مشتق من شبه شكلها. ثم بدأ يطرأ على الموقف مفاجآت وتغييرات أسرع، مما كان متوقعاً من ميدان قتال ارضه متعادية غير مطمئنة، فآنا تجد مطاردة عنيفة، وآناً تجد فراراً سريعاً. وظلّ قائدا الجيشين يرسلان النجدات تباعاً الى موضع المناوشات كلما شاهدا رجالهما يشدون على العدوّ أو ينسحبون، الى ان تبددت الغيوم وصفت السماء واصبح الطرفان على بينه مما يجري فزحف الجيش على الجيش وبدأت المعركة. وكان (فيليپس) يلازم الميمنة وهناك ضغط ضغطاً شديداً على الرومان بفلانكسه، مستفيداً من الموضع المرتفع الذي تمركز فيه فلم يصمدوا له، وعجزوا تماماً امام الصف الكثيف من الأسنّة المشرعة، والثقل المركز للكتلة المتلاحمة على أن مسيرته كانت قد تكسّرت بسبب تموج الأرض وقد لاحظ (تيطس) ذلك. فانصرف ذهنه عن الجناح الذي تراجعت فيه قواته غير معلق عليه أملاً كبيراً أو لا أمل مطلقاً. وخفّ مسرعاً الى الجناح الآخر وشنّ هجوماً على المقدونيين، فلم يستطع هؤلاء المحافظة على سلامة فلانكسهم بسبب تعادي الأرض ووعوثتها. كما عجزوا عن تنظيم صفوفهم بالعمق. وهو أهم النقاط في قوتهم التعبوية. وارغمهم العدو على القتال الآحادي، فالتحم الرجل بالرجل وهو ينوء تحت دروع ثقيلة لاقبل له بها. إن الفلانكس المقدوني اشبه بوحش واحدٍ هائل القوة، يتعذر الوقوف بوجهه مادام كتلة واحدة متلاحمة، محافظاً على نظامه: ترسٌ يلامس ترساً كالجدار المرصوص. ولكن ما ان ينفصم او يتفكك حتى تقع الواقعة ولاتكون الخسارة قاصرة على القوة المتحدة وانما تتعداها الى افرادها، اذ

يخسر كلّ منهم قدرته القتالية بسبب طريقة تدريعهم، كذلك لأن كل جنديّ يكون أقوى وهو جزءٌ من كلٍ، مما لو كان فرداً بنفسه. فعندما لحقت الهزيمة بهذا الجناح اخذت وحدات من الرومان تطارد المنهزمين، بينما انثنى القسم الآخر الى الهجوم على اجنحة المقدونيين التي مازالت تقاتل، وهذا ما أخلّ بصفوف الجناح المستظهر فما لبث ان ولىّ الادبار والقى بسلاحه. ووقع من المقدونيين ثمانية الآف قتيل. واخذ منهم خمسة آلاف أسير. وأنّب (الايتوليين) لأنهم كانوا السبب في نجاة (فيلپس)، اذا انشغلوا في سلب المعسكر ونهبة تماماً لما كان الرومان يطاردون العدو المغلوب. فلم يبق شيء من الغنائم للذين عادوا من المطاردة.

وتبودلت كلمات جارحة، انقلبت الى شحناء وخلافٍ كبير. ثم تمادوا في نزقهم واغاظوا (تيطس) بنسبة الانتصار الى انفسهم، والايحاء الى اليونانييّن بهذا، لما نشروه وبثوه بينهم. حتى ساد الاعتقاد بين الشعراء وعموم الناس حتى اليوم بأنهم اصحاب الفضل الأول فيه. وبدا ذلك مما ألفَ من أغانٍ وكتب من تقاريظ تخليداً للنصر والمقطوعة التالية، هي من أكثر المقطوعات شيوعاً:

انظر ايها المستطرق! انظر الألوف الثلاثين من ابناء (ثسالي) عراة، بلا قبور!
جندلهم الايتوليون قطعات اللاّتين التي جاء بها (تيطس) من أرض ايطاليا فهرب
فيلپس الملك لايلوي مثلما يعدو الظلّيم!

ألف هذا الشعّر (الكيوس Alcaeus)[٧] في هجاء (فيلپس) او السخر به، مبالغاً في عدد القتلى. وقد شاع وتغنت به الركبان، وكان حنق (تيطس) منها اكثر من حنق (فيلپس) الذي عارض الشاعر بقصيدة فحسب من نظمه جاء فيها:

انظر ايها المستطرق، أنظر الى الصليب الذي سيصلب عليه (ألكيوس) عارياً
لايستر عورته شيء.

على ان حوادث صغيرة كهذه، كانت تمضّ (تيطس) الى أبعد حدّ، لحرصه الشديد على سمعته عند اليونانيين. ولذلك انفرد بالعمل وحده بعد الحادثة، ولم يعر الايتوليين اهتماماً قلّ أم كثر. فجرحهم في عزة نفسهم.

وعندما مال (تيطس) الى سماع حديث الصلح، وقبل سفارة تحمل عروضاً من الملك

---

(٧) شاعر من ليسبوس. من شعراء القرن السادس ق.م. وهو من أقرباء الشاعرة المعروفة (سافو). ارستقراطي المنشأ. وصلنا من شعره قصيدتان في الربّة (أثينا) الايتونية. وقد اثبتهما (سترابو). كما عثر له على مقطع واحد من قصيدة في (ابولو). وهنالك عدا ما ورد في پلوتارخ بيتان من الشعر يعرّض بوحشية فيليب واعتياده التخلص من اصدقائه باسقائهم السمّ بدل الخمر.

المقدوني. راح الايتوليون ينشرون في طول بلاد اليونان وعرضها قولهم. إن الصلح هو من شأن الجميع وليس لأحد ان يستقلّ به، وان (تيطس) يبيع سلماً لفيليبس في الوقت الذي يسهل عليه استئصال جذور الحرب. وسحق القوة التي استعبدت بلاد اليونان اولاً.

وفي الوقت الذي دأب الايتوليون على نشر هذه الاشاعات المغرضة لتحطيم التحالف الروماني، بادر فيلپس الى اعلان استسلامه واستسلام مملكته المطلق لتيطس والرومان، وبذلك وضع حَداً لدسائس هؤلاء، كما وضع (تيطس) نفسه حداً للحرب بقبوله خضوع (فيلپس)، وابقائه في حكم مملكته مقدونيا مشترطا عليه سحب قواته من اليونان ودفع غرامة قدرها ألف تالنت، وتسليم كُلّ سُفنه إلاّ عشراً. وأرسل (ديمتريوس) أحد ابنائه رهينة الى روما، وبهذا عززَ موقفه بخير ما يمكن، واتخذ الاحتياطات الحكيمة للمستقبل ففي ذلك الزمن كان (هنيبعل) الأفريقي ألدّ اعداء الرومان قاطبة قد وصل منفياً من بلاده الى بلاط الملك (انطيوخوس)، واخذ يغريه وينصحه باستغلال محالفة الحظّ له ولا يتقاعس عن استثمار توفيقه في كل الشؤون التي اضطلع بها، وها أن عظمة نجاحاته أنالته لقب انطيوخوس الأكبر. وبهذا بدأ العاهل يستطيب فكرة السيطرة على الدنيا. وحتى بات وهو يتحرق شوقاً إلى مقارعة الرومان ولو لم يعمد (تيطس) الى عقد الصلح حكمةً منه وبُعدَ نظر، ولو وقع (انطيوخوس) على الرومان وهم منشغلون بحروب (فيلپس) في اليونان. ولو اتحدت مصالح هذين الملكين العظيمين المحاربين ضدّ الدولة الرومانية، لوجد الرومان أنفسهم في ورطة أخرى لاتقلّ حراجةً وخطورة عن محنتهم في حروب (هنيبعل). ولكن تيطس عجل ببناء اركان السلم بين الحربين فتخلص من الخطر الحاضر قبل أن يداهمه الخطر المقبل. وبهذا تم له في آن واحد: تخييب (أنطيوخوس) في أولّ آماله، وتخييب (فيلپس) في آخرها.

ولما أرسل مجلس الشيوخ عشرة مندوبين الى (تيطس) لتبليغه بقرار تحرير كلّ بلاد الاغريق ومنحها استقلالها ماعدا (كورنث) و(خلقيس) و(دمترياس Demetrias) حيث تقرر ابقاء الحاميات الرومانية فيها احتياطاً وحذراً من (انطيوخوس) ملأ (الايتوليون) الدنيا اتهامات وافتراءات وأثاروا المدن عليه صاخبين مطالبين (تيطس) بكسر قيود «بلاد اليونان (كان فيلپس يدعو هذه المدن الثلاث ببلاد اليونان) وتوجهوا الى الاغريق متسائلين بصورة استفزازية: أليس هو مصدر سلوى وعزاء لهم كبيرين أن تغدو قيودهم اكثر نعومةً وصقلاً مما كانت قبلاً، وإن ازدادت ثقلا؟ ألا يستأهل (تيطس) لقب المخلّص والمحسن وهو الذي كسر قيد أرجل اليونان وطوّق عنقها بالحديد؟ كل هذا أثار غيظ (تيطس) واسخطه فراح يطلب من مجلس الشيوخ الأذن بسحب الحاميات الرومانية من هذه المدن، فأجيب الى طلبه فسحبها فوراً

حتى يكون اليونانيون مدينين له بكامل الفضل لا بجزءٍ منه.

وازف موعد الاحتفال بدورة الألعاب (الاستّمية) فتقاطر النُظّار وملاؤا المقاعد التي تحيط بميدان السباق. ولم يسبق ان حضر مثل هذا العدد الكبير قبلاً. لقد أنعشت آمال اليونانيين بُعيد الحروب الطاحنة الطويلة لا بفضل السلم والطمأنينة، بل لنيلهم حريتهم فأقبلوا يستمتعون بعيدهم هذا، وهم آمنون، خالي البال. وجلجل نفير البوق يعلن الصمت. ثم خرج المنادى ووقف في وسط النُظار واعلن قائلاً: إن مجلس الشيوخ الروماني و(تيطس كونتيوس) البروقنصل والجنرال، بعد أن اتمّا دحر فيلبس الملك، والمقدونيين، اعادا إلى الكورنثيين، واللوكريين، والفوكيين، واليوبويين، والأخائيين والفْثيوتيين Phthiotis والمغنيزيين Magne-tians والثساليين والپيروبيين Perrhoebians[8] اراضيهم، وحرياتهم، وحق مزاولة شرائعهم وألغيا كل الإتاوات والضرائب عنهم، وسحبا جميع الحاميات من مدنهم...

في مبدأ الأمر لم يسمع البيان كثير منهم، وحصل لغط، وضجة حائرة بين الجموع الحاشدة، فريق منهم يتساءل عن الخبر، وفريق مرتبك، وفريق يصيح مطالبا باعادة إلقاء البيان. ثم ساد السكون مرة أخرى، ورفع المنادي صوته جهيراً بالبيان وافلح في إسماع الجميع، فندت في اعقابه صرخة من الجمهور كانت من الارتفاع بحيث سمعت في ساحل البحر. وهبّ الجميع وقوفاً ناسين ماهم فيه من احتفال وسيطرت عليهم رغبة في الوثوب اليه وتحية بطل الأغريق المنقذ.

هذه الحادثة ايدت بالبرهان العملي ما سمعته كثيراً عن تأثير قوة الصوت البشري، فقد صادف أن كانت جماعة من الغربان تحوم فوق ميدان السباق فسقطت ميتةً على أثر الصرخة. ولابدّ أن يُردّ هذا إلى انفصام آني في الهواء، لأن الصوت كان هائلاً والهتاف له دوي. فتمزق الهواء، وترك الطير بلا سندٍ فهوت، مثل من يحاول السير فوق فراغٍ، إلاّ اذا تصورنا أن سقوطها وموتها كان نتيجة ضربة ذات دوّي مثل حذف الرمح، ومن المحتمل ايضاً انه إعصارٌ دوار، كالدوامة البحرية بلغ من عنفه أنه احدث تفككاً شديداً في الهواء كما اسلفنا.

ولنعد الى (تيطس)؛ انتهت الألعاب فاندفعت الجماهير تحاصره من كل جهة، ولو لم يكن يتوقع أن تنسحب هذه الحشود الهائلة في الوقت المناسب لما عرف كيف يتخلص منها، فقد اعياهم الهتاف والصيّاح وهم امام مقصورته وداهمهم الليل فأخذوا يتفرقون تباعاً، ليلتقي

---

(8) حول ما ذكر عن الفثيوتس [باوسنياس ٧:١٠]. يظهر أن امفكتيون ابن ديوكاليون كان قد أنشأ مجلس العصبة الاغريقية في دلفي من القبائل التي ذكر بلوتارخ معظمها في المتن. إلاّ ان [اندروسيون: حوالي ٣٥٠ ق.م] وأحد خصوم ديموستينس يقول ان هؤلاء الناس لم يكونوا أكثر من جيران، أجتمعوا في دلفي وسموا «بالجيران امفكتيونيز» وقد بقي هذا المجلس حتى عهد فلامينينوس.

الصديق بالصديق والمواطن بالمواطن فيتعانقان ويتبادلان التهاني، والتحايا ويدعو احدهما الآخر الى داره للاحتفال بالمناسبة في مجلس طعام وشراب، وهناك يتضاعف السرور حين يبدأون بالحديث عن الماضي ويستذكرون احوال بلادهم، والحروب التي خاضت غمارها دفاعاً عن حريتها، ولم تكن سيدة حرية اكثر استقراراً وابعث على الشكر والإمتنان من حرية كسبها لهم رجال آخرون غير رجالها، فجاءتهم خالصةً دون ان يسفكوا في سبيلها قطرة دم واحدة، او يلبس فردٌ منها ثياب الحداد. في هذا اليوم احتوت يدها على جائزة هي اثمن الجوائز وارفعها قدرا واجدرها بالصيانة والذود.

لاشكَ في أن الحكمة والشجاعة هما من أندر الخصال الحميدة في البشر، ولكن الأندر بين الأفاضل والكرام هو الرجل العادل المنصف. وان رجالاً من امثال (أغيسلاوس) و(ليساندر) و(نيقياس) و(الكيبيادس) عرفوا كيف يمثلون دور القائد، وكيف يديرون دفة الحرب، ويقودون رجالهم الى النصر براً وبحراً. إلاّ انهم لم يعرفوا كيف يستخدمون هذا النجاح في غايات كريمة نزيهة. واذا استثنى المرء مجد (ماراثون)، وقتال (سلاميس) البحري، ووقعتي (پلاطيا) و(ثرموپيلي)، ومآثر (كيمون) في (يورميدون Eurymedon) وسواحل قبرص، فإن اليونان خاضت كل حروبها ضدّ نفسها. ليستعبد بعضها بعضاً. واقامت كل انصاب انتصاراتها على اشلاء بؤسها وعارها. ووصلت حافة الخراب والدمار بجرائم عظماء رجالها ومطامعهم ثم يأتي شعبٌ غريب عنها. بقي محافظاً على بضع جذوات، أو بقايا تافهة من المزايا العامة التي اخذوها من سادتهم الغابرين، شعب كان من أعجب العجب ان تجنى اليونان منه أية فائدة فكرية او لسانيّة، يأتي لينقذها من الطامّة الكبرى والنازلة العظمى ويخلصها من قبضة الاسياد الجائرين، والطغاة المستبدين ويعيد اليها حريتها السليبة.

وظلوا يمتعون السنتهم وافكارهم على هذا المنوال. بينما باشر (تيطس) في وضع بيانه موضع التطبيق، فبادر في الحال بارسال (لنتولوس Lentulus) إلى آسيا لتحرير البارغيلين Bargylians، وبعث بـ(تيتيلّيوس Titillius) الى ثراقيه، ليشرف على سحب حاميات (فيلپس) من المدن والجزر هناك، بينما أبحر (پوبليوس ڤيلليوس) لمفاوضة (انطيوخوس) بشأن حرية اليونانيين الخاضعين لحكمه. ورحل (تيطس) نفسه الى (خلقيس)، ومنها الى (مغنيزيا) بحراً لتسريح الحاميات هناك وتسليم مقاليد الحكم الى ايادي الشعب. وعقب ذلك بقليل أرسل الى (آرغوس) ليترأس الاحتفالات بالالعاب النيمية. وقام بواجبه في إدارة الحفل خير قيام، واعاد اذاعة البيان الخاص باستقلال اليونان، ثم بزيارة كل المدن وحضّ آهاليها على طاعة القانون واحترامه، والتمسك بالعدل والاتحاد ومحبة بعضهم بعضاً. وازال التناحر الحزبي

فيما بينهم، وأعاد المبعدين والمنفيين السياسيين. وبمختصر القول أن اكثر من سرّه من انتصاره على المقدونيين، هو صيرورته العامل الرئيس في مصالحة اليونانيين بعضهم مع بعض، وهكذا بدت حريتهم أصغر جزءٍ من الافضال التي حباهم بها.

يروى أن (ليكورغوس) الخطيب انقذ (گزينوقراطس Xenocrates) الفيلسوف من ايدي جباة الضرائب اثناء ماكانوا يسوقونه الى السجن لنكوله عن دفع الاتاوة الاجنبية. ثم تحرى انزال العقاب بهم لاعتدائهم هذا. وبعدها التقى (گزينوقراطس) بأولاد (ليكورغوس) فابتدرهم بقوله:

- اني يا ابنائي أفي والدكم الجميل الذي أسداه لي خير وفاء وانبله، فقد نال في مقابله ثناء كل الناس.»

على ان المكافأة التي كانت تنتظر (تيطس كوينتوس) والرومان على الجميل الذي صنعوه لليونان لم ينته بالثناء الفارغ، فالذي اقدموا عليه اجزاهم ما يستحقون من السمعة والثقة، ثم من السلطان والسيادة على سائر الشعوب. فمنها من رحّب بقادتهم ومنها من ارسل يطلبهم ويرجوهم بسط حمايتهم عليه، ولم تنفرد الدول ذات النظم الجمهورية، او المدن الواحدة، بهذا بل تعداها الى الملوك الذين يقاسون اضطهاد غيرهم من الملوك، لم يترددوا في القاء أنفسهم في الكنف الروماني الأمين. وما هي فترة جدّ قصيرة حتى ودان العالم كله بالولاء للرومان هم وليس ببعيد أن يكون للعناية الالهية دخل في هذا. وكان اعتزاز (تيطس) وتيهه بتحرير اليونان يفوق اعتزاز بكل مجد آخر حققه كما يظهر من الكتابة التي قدم بها التروس الفضية مع ترسه الخاص الى (اوبوللو دلفي) وهذه هي:

ايها التنداريّان Tyndarids السپارطيان يا ابني جوپتر القوامين اللذين خصصتما الفروسية بحبكما

إن (تيطس) الذي ينتمي الى قوم (اينياس) العظيم قد اوقف هذا على شرف تحررّ اليونان.

وأهدى ابوللو تاجاً ذهبياً أيضاً مع هذه الكتابة:

يا ابن (لاتونا Latona) المبارك: أن القائد العظيم المنتسب الى اسم (اينياس)

قد وضع هذا التاج الذهبي فوق قطط شعرك الإلهي، لكي يتألق ويسطع.

نطلب منك يا فيوبوس Phœbus أن تمنح (تيطس) النبيل المجد والشهرة

وقد وقع هذا الحدث التاريخي مرة أخرى في مدينة كورنث أيضاً. الحدث الاول كان بطله (تيطس)، والثاني (نيرون) في عهدنا الحاضر، وبمناسبة الألعاب الاستمية في كورنث أيضاً فقد سمح كلاهما أن يتمتع الأغريق بحرياتهم ويطبقوا شرائعهم. والأول مهما اعلن ذلك عن طريق المنادي أما (نيرون) فقد اذاعها في اثناء اجتماع عام من منصة القضاء في خطبة القاها على الجمهور. على ان ذلك حدث بعد زمن طويل مما نحن فيه.

واشتبك (تيطس) مع (نابيس)[9] في أشرف واعدل حرب خاضها. وكان خصمه هذا من أعتى طغاة (لقديمون) وأشدهم استبداداً. الاّ انه خيب آمال الاغريق في النهاية، فقد عقد صلحاً معه عندما سنحت له فرصة الظفر به فلم ينتهزها وتركها تفلت من يده عن قصد. وترك سپارطة تندب خطها وترزح تحت أحقر اشكال العبودية. ولاندري هل دفعه الى هذا خوفه من استمرار الحرب مدة طويلة، مما يستتبع حتى إرسال جنرال جديد في محلّة لمواصلتها وحرمانه مجدها، أم كان بدافع الحسد والغيظ والمباراة من فيلوپومين الذي مسّت شهرته منه وترا حساًساً (كان فيلوپومين قد اشتهر عند الأغريق آنذاك ببطولات ومعارك كثيرة، إلاّ انه حقق مايشبه المعجزات في حربه مع نابيس هذه سواء في ميادين الشجاعة أم ميادين الرأي، فراح الأخائيون يبجلونه ويرفعون من شأنه على خشبات مسارحهم، ويساوونه بتيطس) فتملك القنصل الروماني الغيظ حين وجد اركادياً عادياً قاد بضع اشتباكات محليّة ضمن تخوم بلاده - يلهج بذكره الناس ويضعونه في مصافّ القنصل الروماني الذي خاض حروباً عظيمةً غايتها تحرير الاغريق كافة وحمايتهم من الاستبداد. مع هذا فإن ما اقدم عليه (تيطس) لايخلو من وجاهة، اعني انه وضع حداً لهذه الحرب عندما ادرك بثاقب بصيرته أن القضاء على الطاغية قد يتسبب في القضاء على كثير من السپارطيين.

قام الأخائيون بالكثير لإعلاء شأن (تيطس)[10] وتكريمه عن طريق اصدار مراسيم وقوانين

---

(٩) [باوسنياس] دكتاتور سپارطي (حوالي ١٩٢ ق.م) يذكره ليڤي وپوليبيوس أيضاً ذكر بانه حصّن سپارطه وقوىّ اسوارها. ولكنها لم تصمد امام الرومان. وما زالت بقايا هذه الاسوار قائمة ومعظمها يشاهد في بساتين البرتقال والليمون بالقرب من نهر يوروتاس.

(١٠) لم يكن الاخائيون [پاوسيناس] راضين على اسلوب فلامينينوس في حربه مع المقدونيين وكان أسلوباً يقسم بالقسوة والفظاظة فقد نهب اريتريا والقى على كورنث الحصار ودعا الأخائيين الى مشاركته في قتال جيوش فيليب لقاء منحهم لقب [الحليف الروماني لكنهم ظلوا ينقمون عليه ويوجهون اليه اللوم للطريقة اللانسانية التي كان يعامل بها مدنهم القديمة الواقعة تحت الاحتلال المقدوني والتي لم يأت منها أي ضرر للرومان. وقد طال النقاش بين مندوبي الأخائيين وبين (فلامنينوس) وأخيراً تغلّب رأى أولئك الذين كانوا يميلون الى الرومان - وعقد الحلف وكان نتيجة ان ابتلعت بلاد الاغريق وأصبحت أقليماً من أقاليم الامبراطورية الرومانية بحجة تحريرها من يد المقدونيين.

بذلك ولم تصل واحدة من هذه الانعامات الى مرتبة المآثر التي حققّها إلاّ مكافأة واحدة أشاعت في نفس تيطس السعادة والغبطة التي لم يحسّها لأي مكافأة أخرى فقد شاء نكد طالع الرومان الذين اسرهم (هنيبعل) في حروبه مع روما، أن يباعوا عبيداً هناك وهناك، فيتفرقوا آحاداً في مشارق الأرض ومغاربها، ليرزحوا تحت وطأة الرق القاسية. وكان يوجد في اليونان وحدها الف ومائتان منهم تقريباً في ذلك الحين. وكانت حالهم تدعو الى الرثاء وتستدر الشفقه والعطف وخصوصاً، عندما كانوا يلتقون باخوة لهم اشقاء، وبابناء ومعارف واصدقاء؛ عبيدً من الرومان، يلتقون بأحرار من الرومان، أسرى بمنتصرين! وقد تملك (تيطس) هَمّ عظيم، لهم وأنشغلت خواطره بأمرهم، لكنه لم يقدم على نزع اي واحد من يد سيده قسراً. فما كان من الأخائيين إلاّ واكتبوا بمالٍ لافتدائهم جميعاً، ودفعوا خمسة پاوندات من الذهب فدية للعبد الواحد منهم ثم جمعوهم في موضع وقدموهم هدية لتيطس في الساعة التي كان يهمّ بركوب السفينة. فأبحر وهو في أسعد حالة، ولاغرو فإن اعماله الشريفة ضمنت له مكافأة شريفة قمينة بالبطل المجاهد المحبّ لأوطانه. وكان هؤلاء العبيد المحررون أروع منظرٍ في موكب نصره التالي. فقد ساروا في الموكب خلفه وهم في زيّ عبوديتهم (في العادة إن العبيد بسبب حالة رقهم، يحلقون رؤوسهم ويسترونها بقبعات من اللباد) وزاد من منظر الموكب روعة وفخامة الخوذ اليونانية والتروس المقدونية، والرماح الطويلة التي عرضت على الجمهور المتفرج مع بقية الغنائم، ولا نذكر المبالغ الطائلة من المال، فقد احصى (توديتانوس Tuditanus) مبلغ ٣٧١٣ پاوندا من الذهب المسبوك، و٤٣٢٧٠ پاونداً من الفضة الخالصة و١٤٥١٤ قطعة نقد مما يدعى (فيلبيّة Philipies) وهذه لايدخل فيها التالنتات الألف التي كان (فيلپس) مديناً بها للدولة الرومانية، وتنازلت عنها فيما بعد بناء على توسط تيطس ومساعيه الرئيسة فقد أبرئت ذمته منها واعيد اليه ابنه الرهينة، على اثر دخوله الاتحاد الروماني وعقد الحلف معهم.

وبعد هذا الزمن بقليل دخل (انطيوخوس) بلاد اليونان باسطول كثير السفن وجيش لجب واخذ يتقرب الى الدويلات اليونانية ويحرضها على الثورة والعصيان، يؤيده ويساعده في ذلك (الايتوليون) الذين مافتئوا طول هذه المدة يبطنون غلا وحقداً عميقاً للرومان. واقترحوا عليه أن يذيع على اليونانيين بأنه ماجاء إلاّ لتحريرهم، وهي حجّة ظاهرة السخف لاثارة الحرب فهم لم يكونوا في حاجة الى الحرية بعد أن نالوها. إلاّ أن الايتوليون اشاروا على انطيوخوس بهذه السياسة وبتقديم العروض الطنانة لافتقاره الى سبب وجيه للحرب.

خاف الرومان من ثورة تجتاح بلاد اليونان، وادركتهم رهبة من قوة (انطيوخوس)

العسكرية، فبعثوا بالقنصل (ماينوس اجيليوس Manius Acilius) لادارة دفة الحرب، على ان يكون (تيطس) معاوناً في القيادة، رعايةً لخاطر اليونانيين الذين أفلح في ضم بعضهم الى صف الرومان ساعة ان فاتحهم بهذا، كما اعاد بعضهم الى خطيرة الحلف حين بداؤا يترددون ويتأرجحون كالطبيب الذي جاء في وقت مناسب. ليستخدم العلاج الشديد، علاج حبهم الكبير له. فأوقف أول مرحلة للمرض قبل الوقوع في الخطأ الجسيم. وبقيت قلة كان الايتوليون قد استمالوهم الى صفهم فعجز عنهم طبه ولم يستطع انه يفيدهم في شيء. وعلى أيّة حالٍ فقد انقذ هؤلاء المتمردين وحماهم من كل ضَرٍ بعد ان انتهت المعركة فهما بلغت اخطاؤهم ودرجة عصيانهم. فقد حاقت الهزيمة بانطيوخوس في (ثرموبيلي) ولم يكتف بترك ميدان القتال هارباً وانما ركب البحر في الحال وابحر الى آسيا. وقام (مانيوس) القنصل شخصياً بغزو قسم من بلاد الايتوليين ومحاصرتهم بينما سُمح للملك (فيلپس) باخضاع البقية الباقية. وهكذا فبينما نجد المقدونيين ينهبون أموال اهالي (دولوپس Dolopes)، ومغنيزيا من جهة، ويسلبون مقتنى الأثامانيين Athamanes والأپرانيتين Aperantians من ناحية أخرى، وفيما كان (مانيوس) يعيث في (هراقليا) فساداً وخراباً، ويحاصر (ناوپاقتوس Nau-pactus) التي كانت في قبضة الايتوليين. نجد (تيطس) الذي مازال يكنّ لليونانيين العطف والرأفة الحادبة عليهم، يبحر من (البلوپونيسوس) لملافاة القنصل، وليأخذ في زجره وتعنيفه اولاً لأنه ترك فيلپس يستأثر بالغنائم والمنافع الحربية وهو الذي ربح الحرب سلاحه، بينما انطلق يصب جام غضبه على مدينة واحدة والمقدونيون يجتاحون الممالك والأمم العديدة. واتفق أن أهل المدينة المحاصرة لمحوه واقفاً وما ان تثبتوا من شخصه حتى راحوا ينادونه من فوق الأسوار، مادين اكفَ الضراعة اليه والتوسل به. فلم يحر بنبت شفة وأنما دار على عقبيه والدموع تجول في عينيه وانطلق لحال سبيله. وبعد فترة من الوقت قصيرة، اجتمع بمانيوس وبعد مداولة مثمرة في الموضوع تمكن من اقناعه باثارة عاطفة الشفقة فيه، أن يمنح الايتوليين هدنة ووقتاً لإرسال وفدٍ الى روما ليطلبوا من مجلس الشيوخ شروطاً معتدلة.

وكان أصعب مهمّة وضعت (تيطس) في اشدّ المواقف حراجةً، هي توسطه (للخلقيديين) عند (مانيوس). فقد أثار هؤلاء حنقه بسبب زيجة عقدها (انطيوخوس) في مدينتهم أثناء ماكانت تدور رحى الحرب. وكان زواجاً غيرُ مناسب قط من ناحية العمر فالعريس شيخٌ هرم، وقد وقع في عشق صبيّة، كذلك لم يكن الوقت صالحاً لانه الزواج تمّ اثناء دوران رمى الحرب. كانت العروس بنت من يُدعى (كليوپتوليموس Cleoptolemus) وقيل أنها كانت ذات جمال فتان. وبناء على هذه المصاهرة تبنىّ (الخلقيديون) قضية الملك بحماسة واخلاص. وتركوه يجعل

مدينتهم قاعدة لعملياته العسكرية طوال فترة الحرب، واليها لجأ بأسرع ما امكنه عندما هزم واندحر. ولم يمكث في (خلقيس) مدة اكثر مما تطلب لأخذ زوجه الصبية وامواله واصدقائه المقربين والإبحار الى آسيا. وهكذا هُرع (مانيوس) الى (خلقيس) يدفعه سخطه وغيظه فأسرع (تيطس) خلفه. باذلاً جهده لتسكين ثورته وتهدئه انفعاله حتى نال بغيته منه ومن رؤوساء القوم في روما وانقذ خلقيس.

وبهذا كان الخلقيديون[١١] مدينين بحياتهم (لتيطس)، فاوقفوا على اسمه أفضل وافخم صروحهم ومعابدهم. ولا زالت الكتابات واضحة عليها حتى يومنا بهذا المآل:

«اوقف اهل خلقيس هذا النادي الرياضي (جمنازيوم) لتيطس ولهرقل».

و: «كرّس الأهالي هذا الدلفينيوم الى تيطس والى هرقل».

بل عملوا اكثر من هذا، فقد جعلوها عادة منذ ذلك الحين الى يومنا هذا أن ينتخبوا ويعلنوا كاهناً لتيطس. وينشدوا بعد تقديم الذبائح والقرابين المائعة نشيداً خاصاً لم نورده هنا لطوله وانما سنقتصر على اثبات خاتمته:

نحن نقدم نذورنا ودعا منا الى دين الرومان الذي كان لنا عوناً من قديم الزمان
فنصلي له الآن والى أبد الآبدين.

فيا أيتها العذارى قمن للرقص، فإن الرقص واناشيد (ايو - پايان Io - pœan)
معه هما فرضان واجبان لدين الرومان، ولك أيضاً يا (تيطس) المنقذ!

وامطرته البلدان اليونانية الأخرى بصنوف التكريم والتشريف الذي يناسب جلائل اعماله. ومما جعل هذا التكريم صادقاً حقيقياً تلك الثقة العجيبة وذلك الحبّ الذي كسبته له خصاله العادلة المنصفة، وصفاء قلبه، فإن وقع بينه وبين شخص آخر اي خلاف او خصام لأي شأن من شؤون الدنيا، أو كان مبعثه حبّ المنافسة والمباراة (كخلافه مع فيلوپومين، ثم مع ديوفانص عندما تولى قيادة جيش الأخائيين) رأيت حنقه لايستمر كثيراً ولايمضي به شوطا بعيداً او يخرج الى حيزّ العمل، لكن ينتهي حالما يجد له متنفساً في اقوالٍ لا تتعدى الحدود المتعارف عليها من حرية القول العامة للمواطنين. ومختصر القول لم يتهم (تيطس) أحدٌ بالخبث والغلّ وإن عزا اليه كثير من الناس العجلة والرعونة. وعلى العموم كان من اطيب الناس معاشرةً واحلاهم مجلساً مع قابلية مدهشة في لباقة الحديث وقوة الحجّة البليغة. وتروى عنه في هذا

(١١) فيلسوف خلقيدوني [٣١٤ - ٣٩٦ ق.م] تلميذ لافلاطون حاول التوفيق بين مذهب استاذه والفلسفة الفيثاغورية.

الصدد حكايات منها: أنه توّخى من الأخائيين ان يعدلوا عن فتح جزيرة (زاكنثوس Zacyn-thus) فقال:

- لو انهم مدوا رأسهم مسافة بعيدة جداً عن البيلوبونيسوس لتعرّضوا الى خطر لايقل عما تتعرض له السلحفة التي تخرج من طبقها العظمي.

ومنها ما جرى في اول لقاء له مع (فيلپس) عند اجتماعهما لمفاوضات السلام وايقاف القتال، فعرّض به هذا قائلاً أنه جاء تَحف به بطانة ضخمة، بينما أقبل هو بمفرده ومن غير بطانة، فرد تيطس قائلاً:

- أجل فقد ابقيت نفسك وحيداً بقتلك جميع اصدقائك!

ومنها: أن (دينوقراطس) الميسّيني سكر في احد مجالس القصف واللهو بروما، فقام يرقص وهو مرتدٍ ثياب النساء. وفي اليوم التالي قصد (تيطس) للمداولة معه في خطة رسمها لانقاذ الميسينيين من أيدي آلاخائيين وطلب المساعدة فيها. فقال له (تيطس):

- هذا ما يتطلب منيّ بعض التأمل! فإني والحق يقال لأعجب كيف يستطيع رجل يتبنى مثل هذه المشاريع، أن يرقص في مجلس شراب وهو مرتد ثياب النساء!

ومنها انه بعدما فرغ سفراء (انطيوخوس) من تعداد قائمة بالجماعات التي تتألف منها قوات سيدهم الملكية - امام سفراء آخائيا واستعرضوا أسماء صعبة عقب (تيطس) بقوله:

- مرة تناولتُ العشاء مع صديقٍ، ولم اجدني الاّ وأنا اجادله بخصوص الأصناف التي هيأها وابديت عجبي كيف تمكن من اعداد مثل هذه الاصناف العديدة فاجابني «إن شئت الحقيقة يا سيدّي، فكلّ هذه الألوان قد هيئت من لحم الخنزير، الاّ انها طُهيت بطرائق مختلفة» كذلك الأمر عندما سردوا عليكم يا رجال آخائيا اسماء رمّاحة انطيوخوس وحرسه المشاة وحملة الأسنّة في عسكره، ونصيحتي لكم أن لاتداخلكم الرهبة والعجب فكلّهم سوريون ولكنهم يحملون اسلحة متنوعة».

بعد أن انجز تيطس كل هذا في بلاد اليونان، وانتهت حروبه مع (انطيوخوس)، عاد الى روما وعُين (چنصوراً) وهي من اهم وظائف الدولة، واعلى تكريم تخلعه الجمهورية. وكان بزامله فيها ابن (مارچللوس) الذي تولى القنصلية خمس مرات. وقد قاما بمقتض السلطة التي يخولها لهما المنصب بعزل اربعة من اعضاء مجلس الشيوخ غير بارزين. كما أدرجا في سجلات المواطنة الرومانية كل السكان الذين ولدوا من ابوين حُرين، ولم يقدما على ذلك تلقائيا وانما فُرض عليهما فرضاً. فقد أثار (تيرنتيوس كوليو Terentius Culeo) مفوض

(تريبيون) الشعب آنذاك، العامة ودفعها الى المطالبة بذلك رغم معارضة طبقة الأشراف:

في ذلك الزمن كان (افريقانوس سكيپيو) و(ماركوس كاتو) اعظم شخصيتين في روما وهما على خلاف كبير، فاسند (تيطس) منصب الشيخ الاول في المجلس (لسكيپيو) وبذلك ابتلي بعداوة (كاتو) كما سأبسطه في الحادثة النحسة التالية:

كان لتيطس أخ يُدعى (لوشيوس فلامنينوس) لايشبهه في أية ناحية من أخلاقه ولاسيما انغماسه الشديد في الملذات واستهتاره وتجرده عن كُلّ صفات الحشمة والإستقامة. وكان عنده نديم من الفتيان الغرانيق اعتاد أن يأخذه معه اينما رحل سواءً أعهد اليه بقيادة جيش، أم ادارة أقليم من الأقاليم. ومرة كانا في مجلس شراب والفتى يفسق مع (لوشيوس) ويقول له:

- ان حبيّ لك يا سيدّي عظيم الى درجة يجعلني أفضل سعادتك على سعادتي. لذلك جئت اليكَ دون ان امتع نفسي بعرضٍ للمصارعين في روما بينما لم اشاهد رجلاً يقتل في حياتي.

فسُرّ (لوشيوس) بقوله واجابه:

- لا عليك بهذا وقرّ عيناً فبإمكاني اشباع رغبتك.

واصدر اوامره باحضار واحد من المحكومين بالموت من السجن، وباستقدام احد الجلادين وأمره أن يقطع رأسه قبل ختام مجلس الشراب.

ويورد (ڤاليريوس أنتياس Valerius Antias) الحادثة طبق ماذكرناه إلاّ في نقطة واحدة وهي أن (لوشيوس) اقدم على هذا تحقيقاً لرغبة امرأة. إلاّ ان (ليڤي) يقول نقلاً عن خطبةٍ (لكاتو) أن غاليّاً هارباً من الخدمة العسكرية جاء هو وزوجه واولاده الى باب المجلس، فقبض عليه لوشيوس واقتاده الى الغرفة وقتله بيده ارضاءً لمعشوقه. وربما قال (كاتو) هذا، على سبيل المبالغة في شناعة الجرم. إلاّ أن (شيشرون) - ولا نذكر غيره من الثقات - يخبرنا في رسالته «عن الشيخوخة» أن القتيل لم يكن هارباً من الجنديّة، بل هو سجين محكوم بالموت، وشيشرون يذكر هذا نقلاً عن رواية (كاتو) الشخصية للقضية حسب ادعائه.

ومهما يكن من أمرٍ، فالحقيقة الثابتة هي أن (كاتو) عَمدَ في اثناء إشغاله منصب (الجنصور) إلى التحري الدقيق الصارم عن سيرة اعضاء مجلس الشيوخ وحياتهم الخصوصية، مستهدفا تطهير المجلس واصلاحه واخراج العناصر الفاسدة فيه، وبنتيجة ذلك طرد (لوشيوس) مع انه كان قنصلاً سابقاً، فضلاً عن أن العقوبة الحقت العار بأخيه ايضاً. فتقدم الأخوان بالاستئناف الى الجمعية العامة مستنجدين ووقفا والدمع يجول في اعينهما

طالبين أن يدلي (كاتو) بالدوافع والأسباب التي حملته على وسم اسرة شريفة بهذا العار. فوجد الشعب أن الطلب عادل ومتواضع. فبرز (كاتو) دون تردد أو وجل، ووقف مع زملائه وسأل (تيطس) هل له علم بقضية مجلس العشاء، فأجاب تيطس بالنفي، فرواها (كاتو). وتحدى (لوشيوس) ان كان قادراً على انكارها رسمّياً. فسكت (لوشيوس) ولم يُحر، فاستنتج الشعب أن عقوبة الطرد كانت عادلة ومناسبة. وشيعوا (كاتو) من منصة القضاء الى بيته تشييعاً جماهيرياً حافلاً. الاّ ان (تيطس) بقي طعين الكرامة يحز في نفسه العار الذي اصاب أخاه. فانضم إلى اولئك الذين حقدوا واضطغنوا (لكاتو) منذ زمن بعيد. ونجح في تأليب معظم اعضاء المجلس ضدّه، فألغى وابطل كلّ التعهدات والمناقصات، والصفقات العامة التي عقدها (كاتو) على حساب الضرائب العامّة، كذلك وجه اليه عدداً كبيراً من التهم، ملاحقاً بغضبه حاكما عادلا شرعيا، ومواطنين ممتازين بسبب شخص لايستحق ذلك وإن كان أخاً له. ونال مبتغاه وشفى غليله بطريق الهجوم العنيف القاسي الذي يصعب أن ينعت بالعمل الوطنيّ أو الصائب. ومهما يكن من أمرٍ ففي يومٍ ما كان ثم عرض في الملعب وشاهد جمهور المتفرجين (لوشيوس) يجتاز المقاعد المخصصة لجلوس الشيوخ القناصل السابقين متلصصاً ليجلس في مقعد حقيرٍ لا يليق به. فأثار عاطفة الجماهير ولم يسعهم احتمال المنظر فاخذوا يهيبون به بأن يتقدم وزاد صراخهم حتى نهض واحتل مقعداً بين القناصل السابقين الذين افسحوا له مكاناً.

ان طموح (تيطس) الى الشهرة كان له ما يبرره في نظر الدنيا كلها عندما راحت الحروب التي فصلناها آنفاً تقدم الوقود اللازم لتغذيته. كأن ظلّ مثلاً في منصب التريبيون العسكري بعد انتهاء فترة قنصليته، دون أن يلح عليه أحدٌ في قبولها. ولكن لما خرج من الوظائف العامة وتقدمت به السنّ، اخذتْ نقائصه تزداد ظهوراً. وسمح لنفسه وهو في أواخر عمره أن ينساق وراء تعطشه الى الشهرة بنزق الشباب وتهوره. وأدىّ به هذا الشوق الى ان يتورط في مؤامرة على حياة هنيبعل – على ما قيل، ففقد بذلك احترام الكثيرين.

كان (هنيبعل) قد فرّ من بلاده، ولجأ اولّ الأمر الى (انطيوخوس)، وبعد أن حلت الهزيمة بهذا الملك في (فريجيا Phrygia) وبادر مسروراً الى عقد الصلح، بات هنيبعل في وضع حرج واحتال للهروب ثانيةً، وبعد أن تجول في عدة بلاد ٍ شريداً طريداً، استقرّ أخيراً في (بيثينيا) عارضاً خدماته على ملكها (بروسياس Prusias). وكان كل الناس في روما يعرفون اين هو، ولكنهم آثروا أن يتغاضوا عنه ويتجاهلوا وجوده بعد أن بلغ من الضعف والعمر عتياً وتخلىّ عنه الحظ ولم يعد يخشى منه أذىً. لكنّ (تيطس) الذي أرسل الى تلك البلاد في سفارة معينة من مجلس الشيوخ الى الملك (بروسياس)، وجد هنيبعل هناك فثارت حفيظته واسخطه

أن يجده حياً بعد. وأبى (تيطس) أن يلين ويتسامح، رغم توسّلّ (پروسياس) وتوسطهَ له عنده بوصفه صديقا مخلصاً ومستجيراً له. هناك بنوءة قديمة يظهر أنهّا تنبيء بنهاية هنيبعل على الشكل الآتي:

«الأرض الليبيّة هي التي تضمّ رفات هنيبعل».

وقد فسرّ المقصود بليبيا الافريقية، وأنه سيدفن في قرطاجنة كانما كان يتوقع ان يعود الى مدينته ويختم حياته فيها. الاّ أنه كان يوجد موضعٌ رمليٌ في (بيثينيا) يحدّ البحر، وبالقرب منه قرية صغيرة تدعى (ليبيسّا Libyssa). كان من تصاريف القدر أن يتخذها هنيبعل سكنا إلاّ انه احتاط من اول قدومه لنفسه فأمر بحفر سبعة انفاق تحت الأرض تمتد مسافة شاسعة من بيته الى مختلف الجهات المتضادة، لايمكن معرفة فتحاتها الخارجية قط. فعل ذلك خوفاً من جبن (پروسياس) وعدم ثقة بصلابته. وحذراً من الرومان. فما أن بلغه ما أمر به (تيطس) حاول أن يفرّ من خلال هذه الانفاق. الاّ انه وجد جنود الملك يطوقونها فقررّ أن يضع حداً لحياته. ويقول آخرون أنه لفّ القسم الأعلى من ثوبه حول عنقه وأمر خادمه أن يضع ركبته خلف ظهره ويخرق طرفي الثوب ويبرمه حتى يخنقه به تماماً ويقول آخرون أنّه شرب دم الثور مثلما فعل (تمستوكليس) و(ميداس Midas). ويكتب (ليڤي) أنه كان يحتفظ بسّم جاهز خلطه لهذه الغاية وانه تناول القدح بعد أن ملأه به، واحتساه قائلاً:

- ألا فلنرح الرومان من خوفهم الدائم وقلقهم المستمر، فقد ارهقتهم وطال عليهم انتظار موت شيخ مكروه منهم. ولعمري ان (تيطس) لن يكسب حرباً مجيدة بهذا وهي ايضاً ليست جديرة باولئك الأسلاف الذين أرسلوا يحذرون عدوّهم وقاهرهم (پيروّس) من سُمّ دسّه له بعض الغادرين!

كذلك اختلف النقلة في كيفية موت (هنيبعل). ولكن عندما بلغت ابناؤه مجلس الشيوخ، ثار بعضهم استنكاراً لتيطس، ونددوا بعمل لم يأمروه به واستقبحوا قسوته. فقد ارسل هنيبعل الى حتفه عندما امسى طيراً كبير السن وفقد ريشه وعجز عن الطيران وابى أن يتركه لشأنه يعيش منسياً اليفاً دون تعرض، كل ذلك لشهوته العارمة إلى المجد، ومن دون أن يدعو اليه داعٍ.

وبدأوا الآن أيضاً ينظرون باعجاب متزايد إلى سماحة وسمو خلق (سكيپيو افريقانوس) واستذكروا كيف ترفع عن نفي هنيبعل أو ارغام بني قومه على تسليمه اليه، بعد أن الحق به هزيمة ساحقة وهو في أوج قوته واروع شهرته. وكيف أنه صافحه مرة في لقاء بينهما قبيل

الاشتباك في المعركة، وكيف فرض عليه شروطاً سهلةً بعد أن تغلب عليه وعقد الصلح ولم يُهن حظوظه عندما هوت به. وقد قيل ايضاً أنهما التقيا مرة أخرى بعد ذلك في (إفسّس) فسارا معا وكان هنيبعل يتقدمه، فلم يجد (سكيپيو) بأساً في ذلك واستمر في سيره دون ان يبدي اقل اشارة. ولما اخذا يتكلمان عن القادة قال هنيبعل مؤكداً أن (الاسكندر) اعظم قائد انجبته الدنيا ويليه (پيروّس)، واما الثالث فهو نفسه. فسأله (افريقانوس) باسماً:

- ماذا كنت ستقول اذن لو لم اغلبك؟

فأجاب هانيبال:

- كنت جعلتُ نفسي الأول لا الثالث يا (سكيپيو)!

كان سلوك (سكيپيو) في هذا محطّ إكبار واعجاب. أما سلوك (تيطس) الذي أهان «الموتى» بعد أن قضى عليهم غيره، فقد مجّه الناس وخطّأوه كثيراً، على ان بعضهم والحق يقال استحسنوا منه هذا العمل فهولاء كانوا يعتبرون (هنيبعل) كالنار لاتحتاج إلاّ الى نفخ لتتأجج ويرتفع لهيبها. لم يكن بدنه ولا ساعده وهو في عزّ رجولته وزهرة عمره - مصدر عظمته وقوته، وانما كانت خبرته وحنكته الكاملتان المتحدتان بمكره الغريزي وكرهه الشديد لاسم الرومان وهو مما لا تضعفُه الشيخوخة او تفلُّ من غُرابه. لأن ما طبعت عليه النفس وجُبلت يبقى ملازماً لها في حين تتغير الحظوظ باستمرار. وليس بأسهل من أن يؤدي أمل جديد الى محاولة جديدة، عند اولئك الذين دفع بهم حقدهم الى احضان العداوة حتى النفس الأخير. هذا وان الحوادث التي عقبت ذلك بررت عمل (تيطس) اكثر من هذا. فقد تمكن (أرسطونيقوس Aristonicus) وهو من اسرة موسيقيّ ضاربٍ عاديّ أن يملأ آسيا بالقلاقل والفتن بادعائه انه ينحدر من نسل (يومينوس). ورفع لواء العصيان والثورة (مثيرْيداتس Mithridates) بعد الهزائم والاندحارات التي القها به (سيللاّ Sylla) و(فيمبريا Fimbria) والمقتلة العظيمة التي اوقعاها بين ضباطه من ذوي الرتب العليا، فضلا عن جنوده وبرهن على خطورته امام (لوكوللوس) بحراً وبراً.

إن (هنيبعل) لم يذلّ ولم يبلغ الدرك الذي بلغه (كايوس ماريوس)، فقد كان يتمتع بصداقة الملك (پروسياس) وحرية استخدام موارده كلها وقيادة اسطوله البحري ومشاته وخيالته. في حين يضحك الآن من يسمع أن (ماريوس) هائم على وجهه في فيافي افريقيا شقياً بائساً مستجدياً، وهو الذي كان قبل فترة قصيرة جداً يفرض رحمته على روما، وعصيّه تلهب ظهور الرومان وفؤوسه تجزر في رقابهم. كان الأمر حقيقياً واقعياً بحيث لا مجال ثم لنسميّ هذا

الشيء بالصغير، وذاك بالعظيم، إذ ليس هناك ما يضع حداً باتاً لعوامل التغيّر والتبدّل في الأشياء. بل هناك ما يضع حداً نهائياً لوجودها وكينونتها فحسب. وعلى هذا يخبرنا بعض الكتاب أن (تيطس) لم يفعل ما فعل من تلقاء نفسه، وانما بعد سبق تفاهم فيه مع (الوشيوس سكيپو). وأن سفارته انما كانت لغرض القضاء على (هنيبعل) فحسب.

والآن وبعد هذا لانجد في بطون التاريخ اي تنويه آخر بعمل قام به (تيطس) حربياً كان أم سياسياً، فقد مات بهدوء وسلام وها نحن اولاء سنراه من زاوية مقارنته (بفيلوپومين).

أوجه المقارنة بين فيلوپومين وفلامنينوس

أولاً: بخصوص ما اسبغه (تيطس) على اليونان من منافع، لانجد أحداً بزّه في ذلك، لا فيلوپومين ولا غيره ممن فاقوه شجاعة واقداما. كان هؤلاء اغريقاً يقاتلون اغريقاً، في حين كان (تيطس) رجلاً اجنبيا عن البلاد، حارب لأجلها وفي سبيل تحررها، في الوقت الذي تركها (فيلوپومين) ورحل الى جزيرة (كريت) فتخلياً عن كلّ ما يكفل معاونة بني قومه المطوقين من كل جهة. وتغلب تيطس على فيلپس ودحره في قلب بلاد اليونان وبذلك انقذهم وحرر مدنهم. أما اذا استعرضنا المعارك التي خاضاها، فإن (فيلوپومين) لما كان جنرالاً للآخائيين - قتل من اليونانيين اكثر ممن قتل (تيطس) من المقدونيين، اثناء نجدته لليونانيين. واما عن نقائصهما فإن نقطة الضعف في خلق (تيطس) هي الطموح، بينما كان عيب (فيلوپومين) العناد، وبقدر ما كانت نار غضب الأول سريعة الاتقاد كانت نار غضب الثاني صعبة الإطفاء. لقد حفظ (تيطس) لفيلپس مهابة الملك وسلطانه وعفا عن الايتوليين ووقف صديقاً لهم، لكن فيلوپومين أضرّ ببلاده وخاصمها ونزع منها بعض القرى المجاورة وكان (تيطس) على عهده مع كلّ من منحهم صداقته مرةً. أما الثاني فكان قُلّباً سريع التغيّر على اصدقائه مستعداً لسحب فضله عند اول خطأ يبدر منهم. فهذا الذي كان يوما ما صديقاً حميماً للقيديمونيين، ما لبث أن هدم اسوار مدينتهم وسوّاها بالقاع وعاث فيها سلباً وتخريباً، ثم انقلب عليهم أخيراً وقوض صروح حكومتهم ودمرّ شرائعها كلها. وكان والحق يقال كالمستهين بحياته والمرتخص لها بدافع التهور والطيش، اذ حمل على الماسينيين باستهتار بعيد عن ذلك الحذر والحكمة التي اتّسمت بها اعمال (تيطس) ولم يكن في عجلته ضرورة او ايّ شيء من الادراك.

إن المواقع العديدة التي خاضها فيلوپومين والغنائم الكثيرة التي حازها، تدفعنا الى تفضيله على تيطس في الفنون الحربية. لقد قررّ (تيطس) بوقعتين فقط نتيجة الصراع بينه وبين فيلپس بينما خرج (فيلوپومين) من عشرة آلاف معركة منتصراً وليس للحظ فيها سهمٌ مهما قلّ، وانما كان لمهارته اليد الطولى فيها. ونال (تيطس) شهرته مستنداً الى سلطان روما

المزدهر، اما فيلوبومين فقد ازدهر في فترة انحلال قوة اليونان وتقلص سلطانها لذلك عُزي نجاحه الى مجهوده الشخصي بينما ساهمت روما بنصيب كبير في نجاح تيطس، فقد وضعت تحت امرته وطوع بنانه رجالاً شجعاناً. امّا الآخر فهو الذي صاغ رجاله لأنه كان فوقهم. ومع أن (فيلوبومين) اصابه الكثير من نكد الحظ لوقوفه غالباً ضدّ بني قومه، الأ ان اسوء الحظّ هذا هو دليل على كفاءته. وكلما تساوت الظروف وجدنا النجاح الاكبر من نصيب المؤهلات والكفاءات الخاصّة المتفوقة. فقد وجد فيلوبومين نفسه يقارع اشدّ الاغريق مراساً في القتال وهم الكريتيون ثم اللقيديمونيون، فتسلط على الأولين وهم اشد الاغريق مكراً بالحيلة والسياسة، واخضع الآخرين وهم اشجع الأغريق - ببسالته واقدامه. وقد يقال أن تيطس وجّه جنوده بمجهوداته ودربّهم ليطيعوا اوامره وينفذوا خططه، كما أشرف هو على تسليحهم، وبهذا حقق انتصاراته شخصيّاً الى حدٍ ما. أمّا (فيلوبومين) فقد اضطر الى ابتداع نظام جديد في التدريب والتعبئة وإلى بناء جيشه من العدم وفقما شاء، لذلك كان اهم عامل وضمان للنصر من صنع يده وابتداعه. أماّ (تيطس) فقد وجد كل شيء جاهزاً مهيئاً لفائدته. لقد حقق (فيلوبومين) اعمالاً كثيرة تقسم بطابع الجرأة والفروسية في حين لم يحقق (تيطس) شيئاً من هذا القبيل. مما دفع شخصاً يُدعى (ارخيديوس) الإيتولي أن يسخر به قائلاً: «بينما كنت اعدو والسيف مشهر في يدي حيث مواقع اللقيديمونيين وهم في أخطر ميدان من المعركة، رأيت (تيطس) واقفاً وقد رفع يديه الى السماء بصلاة للأرباب مستعينا مستغيثا».

ولامراء في أن (تيطس) أنجز واجباته انجازاً رائعاً في ميدان السفارة وفي شؤون الحكم، إلاّ ان (فيلوبومين) لم يقلّ عنه في هذا الصدد، بنفعه الآخائيين واصلاح أمورهم وهو قائد، ثم وهو مواطن عادي. كان مواطناً بسيطاً لمّا اعاد للماسينيين حريتهم ونزع مدينتهم من يد (نابيس) وكان مواطناً عادياً أيضاً عندما انقذ اللقيديمونيين واغلق ابواب سپارطا في وجه القائد (ديوفانص) و(تيطس). وهكذا تراه خُلق للقيادة وكان اهلاً للتحكم في مقدرات الناس وشرائعهم وقوانينهم لأجل الصالح العام، وما كان بحاجةٍ الى شكليات الانتخاب لمنصب القيادة والزعامة من قبل المحكومين، بل عمد الى تسخير مجهوداتهم وسوقهم سوقاً عندما الجأته الظروف حيثما أرتاى ووجده مناسباً مؤمنا بأن اليق الحكام واصدقهم هو أفهمهم بمصالح الشعب، لا من يجري انتخابه بالاقتراع العام.

ان عدل (تيطس) وكرمه وانسانيته للأغريق انما تفصح عن خلق سمح عظيم، إلاّ أن اعمال (فيلوبومين) المنعمة بالشجاعة والاقدام الهادفة الى دعم حرية بلاده بمواجهة الرومان، لتستبطن ما هو أنبل وأسمى. اذ ليس يصعب عليك ارضاء المنكوبين والمحرومين كما يصعب

الاقدام على اثارة حفيظة القوي، ومقارعة ذي السلطان العظيم.

وختاماً: مهما كانت قوة حجتنا في النقاش، فليس من السهل علينا أن نرسم اوجه خلاف متمايزة بين الشخصيتين، او ان نرجح احداهما على الأخرى. ولكننا قد نكون منصفين اذا تركنا للأغريق تاج الحنكة العسكرية والفن الحربي. وتركنا الرومان يستأثرون بتاج العدل والتسامح.


پیرّوس
PYRRHUS
318 ـ 272



پیرس ۲

كان (فيثون Phœthon) -على زعم بعض المؤرخين - أول ملك للثيسپروتيين -Thespro tians والمولوسّين Molossians، بعد الطوفان الكبير. وهو أحد الذين جاؤا الى (ابيروس) مع (پيلاسغوس Pelasgus)؛ ويحدثنا آخرون ان (ديوقاليون) و(پيرا)[1] اللذين عملا سفينة (جوپتر) الحربية واوجدا حرم دودونا[2] قد استقرا هناك بين المولوسيين، وبعد مرور حقبة من الزمن أسس (نيوپطليموس Neoptolemus) أبن (أخيل) مستعمرةً له، وبسط يده على تلك الأنحاء، وخلّف سلالة من الملوك أطلق عليهم لقب (پيرّيدوي Pyrrhidœ) مشتقاً من الاسم الذي كان يعرف به في صباه: (پيروس). وكان بين ابنائه الشرعيين ابن انجبته له (لاناسّا Lanassa) بنت (كليوديؤس Cleodaeus) ابن (هولّيس Hullys)، وقد سمّاه بهذا الأسم الأخير. ومنه نال (أخيل) التكريم الآلهي ورفع الى مصافهم تحت اسم (اسپيتوس -As petus) في ابيروس (وهو بلغة أهل البلاد المحلية) وعقب هؤلاء الملوك الأولين مجموعة وسطانيّة حكمت فترة مابين العهدين وكانوا خاملي الذكر اقرب شبها بالبرابرة، سواءً من ناحية قوتهم او حياتهم الخاصة وقيل أن (ثارّيپاس Tharrhypas) هو أول من اشتهر منهم ونبه أسره بادخاله الحضارة اليونانية وثقافتها، وقوانينها الإنسانية الى المدن التي تخضع له. وكان (ألكيتاس Alcetas) أبنه، وكان (آريباس Arybas) ابن (ألكيتاس)، وولد (لأريباس) من زوجه الملكة (ترواس Troas) ابنه (اياكيداس Æacidas)، الذي تزوج (فثيا Phthia) بنت (مينون Menon) الثسالي وهو رجل شهير في زمن حرب اللاميك -Lami ac[3]، وقد تقلد نيابة القيادة العليا لعساكر الحلف بعد (ليوسثينس Leosthenes) وولد (لأياكيداس وفثيا) بنتان هما (ديدامیا Deidamia) و (ترواس)، وابن هو (پيروس) صاحب هذه السيرة.

ودبّ الإنقسام والشنآن بين المولوسيين، فطردوا (اياكيداس) وجاؤا باولاد (نيوپطليموس)،

---

(١) الناجيان الأثنان من الطوفان العظيم بحسب الاسطورة الاغريقية.

(٢) هو المزار الشهير ومهبط وحي زفس، القريب من مدينة يانينا الحالية.

(٣) ما بين ٣٢٢ - ٣٢٣ ق.م. انظر سيرة ديموستينس.

وقضوا على كل من وقع بايديهم من اصدقاء (اياكيداس) واتباعه، وانتشروا يفتشون عن (پيروس) الذي كان بعد طفلاً فأخفي عنهم وفرّ به (اندروقليدس) و(انجيلوس). ولم يجدا مندوحة من اصطحاب قليل من الخدم والنساء للعناية بالطفل، مما اعاقهما وأخرهما كثيراً في فرارهم هذا. ولما ادركهما الأعداء، عهدا به الى اندروقليون، و(هيپياس Hippias) و(نياندر Neander) وهما من أخلص الناس واقدرهم، وأمراهم أن يذهبا به الى (ميغارا) المدينة المقدونية، بأقص ما يمكنهم من السرعة، بينما اوقفا المطاردة بالقوة آناً، وبالتفاوض آنا حتى جَنُ الليل. واخيراً تمكنا من صدّهم الى الوراء وانتهزا الفرصة ليلحقا (بپيروس) وحفظته. ولكن الشمس توارت في الوقت الذي بدا تحقيق بغيتهما وشيكاً، فصارت بعيدة المنال واسقط في يديهما، اذ لما بلغا النهر الذي تجشم المدينة المنشودة على جهته الأخرى، وجداه فائضاً مزبداً، وفشلت محاولاتهما في عبوره. كانت الامطار الاخيرة قد رفعت كثيراً من منسُوبه، وجعلت تياره عنيفاً، وزاد ظلام الليل من هول الموقف فلم يقدما على المخاطرة بنقل الطفل والنساء اللاتي يرعينه. على انهما شاهدا بعض الناس في الضفة الأخرى فاستنجدا بهم وعرضا (پيروس) لانظارهم واخذوا ينادونهم ويتوسلون بهم فحال هدير الماء وضجيجه دون وصول ندائهم واضحاً. ومرّ الوقت وهم ينادون والآخرون لايفهمون النداء. ثم اهتدى احدهم الى وسيلة. فنزع من شجرة بلوط قطعة لحاء وكتب عليها بلسان إبزيم رفيع، واقع حال الطفل، والضرورة الماسة التي تقتضي عبورهم ولفّ اللحاء حول حجرٍ ليسهل قذفه الى الضفة الأخرى. وقال بعضهم أنه شدّه بعقب رمح وحذفه الى الجانب الثاني. ولما قرأ اهل المدينة ماكتب وادركوا حراجة الأمر بادروا فوراً بقطع بعض الاشجار وشدوا بعضها ببعض حتى استقامت طوفاً عبروا به اليهم. واتفق أن اول من وطأت قدمه الضفة منهم وتناول (پيروس) بين ذراعيه، أطلق عليه اسم (آخيل). وتعاون الآخرون على نقل الباقي.

بعد أن كتبت لهم السلامة، وأمنوا المطاردة قصدوا (غلاوشياس Glaucias) ملك الالليريين. فوجدوه جالساً في بيته مع زوجه فوضعوا الطفل (پيروس) امامهما. فراح الملك يوزان الأمر ويُقلب وجوه الرأي فيه. ويقلبه خوفٌ من (كسّاندر Cassander) عدوّ (اياكيداس) اللدود. وبينا هو غارق في افكاره صامت وقتاً ملياً، أخذ (پيروس) الصغير يحبو على الأرض ويتقدم بالتدريج من الملك حتى اذا بلغه مَدّيده وامسك بردائه وتشبث به ليرفع نفسه ويستوي على قدميه مستنداً على ركبتي الملك، فانفجر هذا ضاحكاً اوّل الأمر، ثم اقبلاً اشفاقاً، وهتافاً على المستجير الصغير الباكي الذليل. وقال بعضهم انه لم يلق بنفسه أمام (غلاوشياس). بل أمسك بركن مذبح الأرباب وتشبث به متحاملاً على قدميه، وان

(غلاوشياس) اتخذ منها نذيراً ودليلاً. ومهما يكن فقد اوكل العناية به الى زوجه وأمر أن يُربى مع اولاده. وبعد فترة قصيرة طلبه الأعداء منه، وعرض (كساندر) مائتي تالنتاً ثمناً لتسليمه فأبى الملك وامتنع. وعندما بلغ الثانية عشرة جاء به الى (ابيروس) مع جيش، ونصبه ملكاً. وكان وجه (پيروس) يوحي ببطش السلطان الملكي اكثر مما يوحي بعظمته وسمّوه. وكانت اسنانه العلوية شاذة الخلقة، فهي ليست اسناناً بالضبط وانما قطعة عظيمة واحدة تدور بالفك فيها حزوز خفيفة اشبه بالفراغات التي تفصل عادة بين سنّ وآخر وعرف عنه مقدرته على شفاء امراض الطحال بتضحية ديك أبيض والضغط بصورة رفيقة بقدمه اليمنى على موضع الطحال في المرضى وهم مستلقون على ظهورهم ولم يكن يضنّ بفائدة لمسته على أي شخصٍ مهما كان وضيعاً أو فقيراً وكان يرضى بالديك المُضحّى، كمكافأة ويسّر بها سروراً عظيماً. وقيل أن ابهام قدمه تلك فيها كرامة الهية فقد بقيت بعد موته سليمةً ولم يعترها الفساد أو تمسها النار. وهذا ماسنعود اليه فيما بعد.

وبلغ (پيروس) السابعة عشرة[٤] من عمره تقريباً وكانت المظاهر تشير إلى استقرار حكمه، فرحل عن مملكته لحضور زواج أحد أبناء (غلاوشياس) وكانا قد نشأ معاً. فانتهز (المولوسيّون) الفرصة للثورة وطردوا اشياعه وانصاره جميعاً ونهبوا ممتلكاته وأمّروا عليهم (نيوبطليموس)[٥]. ولما وجد نفسه شريداً متجرداً عن الملك والمقتنى، استجار (بديمتريوس) ابن (انتيغونس) زوج اخته (ديدايبا)، التي كانت زوجة بالاسم في ايام طفولتها للاسكندر ابن (روكسانه Roxana)، إلاّ أن القدر حرمها من زوجها وعندما ادركت سن البلوغ تزوجها (ديمتريوس). وفي وقعة (ايسوس)[٦] الكبرى التي شارك فيها عدد كبير من الملوك، كان (پيروس) في صفّ (ديمتريوس) وابدى وهو مازال في ريق شبابه من ضروب البسالة ما ميّزه على كل المحاربين المتمرسين، وكفل له دحر كل من هاجمه. وظلّ (پيروس) وفياً لديمتريوس ولم يتخلّ عنه حتى عندما خانه الحظّ. وكفل له السيطرة على المدن الاغريقية التي أودعت اليه. كما انه رضي ان يرحل الى مصر ويبقى رهينة عند (بطليموس) بمقتضى المعاهدة التي عقدها هذان الملكان. وهناك اظهر (پيروس) دلائل ساطعة على قوته وشجاعته في ميادين الصيد والقنص او غيرها من ضروب الرياضة. وتبين اثناء اقامته، أن (بيرينيكه Berenice) هي صاحبة السلطان الاكبر، وانها تتمتع بارفع مكانةٍ لفضائلها، وسعة عقلها، دون سائر زوجات (بطليموس). فلازمها وخصها باهتمامه، وكان ماهراً حاذقاً في خطب ودّ الكبار

---

(٤) في العام ٣٠٢ ق.م.

(٥) هو حفيد نيو بطليموس المذكور في الفصل الثاني أعلاه.

(٦) في العام ٣٠١م.

واستخدام تلك العلاقة لمصلحته، كما كان من الجهة الأخرى سريع الاجتواء لم هم دونه مكانةً.
وبزّ كل الأمراء الشبان في البلاط بحسن سلوكه ودماثته واستقامة حياته هناك، ولذلك وجد انه خير عريس (لأنتيغون) وهي احدى بنات (بيرينيكه) من بعلها السابق (فيلپس)[٧]، قبل زواجها ببطليموس.

وتمّ القران، وخلعت عليه افانين التكريم، وكانت انتيغون من أفضل الزوجات. ووضع يده على مبلغ من المال، انفقه على تأليف جيش. ورتّب الأمور بحيث تم نقله الى مملكته (ايپروس) واشاع وصوله الارتياح في نفوس الكثيرين، لبغضهم (نيوپطليموس) الذي كان يشتط في حكمهم ويستبدّ. ولخوفه من ان يتحالف (نيوپطليموس) مع بعض الملوك المجاورين سارع الى المصالحة معه والاتفاق على مشاركته في الملك، واقتسام الحكم. وكان ثم أناس اخذت نقمتهم تتعاظم على حكمهما بمرور الزمن فراحوا يسعون سراً للوقيعة بينهما، ولبذر الحقد وتأريث نار الخصام. وكانت الحادثة التالية - على ما قيل، البداية التي حركت پيروس للعمل:

جرت عادة الملوك أن يقدموا الذبائح الى (مارس) في (پاسّارو Passaro) وهو موضع في بلاد المولوسيين. فبعد ان قام الملكان بذلك قطعا عهداً رسمياً مع الايپروسيين على أن يحكما بينهم بالعدل وفقاً للشرائع السائدة، وأن يقوم هؤلاء، من جهتهم باطاعة القانون والحرص على شكل الحكومة، فأقسم هؤلاء على ذلك بمحضر من الملكين الحاضرين واصدقائهما المقربين. وبعد ذلك قدما هدايا كثيرة، وقبلا مثلها ثم اخذ (غيلو Gelo) احد مقربي (نيوپطليموس) بيد (پيروس)، وقدّم له زوجين من ثيران الجّر، فدنا (ميرتيلوس Myrtilus) ساقي الملك (پيروس) وطلب منه الهديّة المذكورة. فأباها عليه واعطاها لغيره، فتألم (ميرتيلوس) من ردّه، وكان (غيلو) يلاحظ ذلك، وشعر بما يعتمل في جوف الساقي فتقرب منه ودعاه الى مأدبة (وكان ميرتيلوس في ريعان الصبا آنذاك على ما قيل) وانتهز (غيلو) فرصته بين اللهو والقصف والشراب وفاتحه بما في نفسه حتى خيل له أنه تمكن من اقناعه بالانحياز الى صف (نيوپطليموس)، وقتل (پيروس) سيده بالسمّ، وتظاهر (ميرتيلوس) بالموافقة والرضا إلاّ انه اسرع الى (پيروس) فأسرّ اليه بفحوى المؤامرة. فأمره هذا، أن يذهب الى (غيلو) ويزكيّ له (الكسيقراطس Alexicrates) رئيس سقاته بوصفه خير من يقوم بتنفيذ العمل. وكان (پيروس) يريد أن يظفر باكثر ما يمكن من الأدلة والشواهد على وجود المؤامرة. ولم تكن حيلة پيروس على (غيلو) بأقل انطلاء على (نيوپطليموس) نفسه، فتصور ان خطته تسير

(٧) مقدوني مغمور غير معروف وليس والد الاسنكدر الكبير.

سيراً حسنا وضاق صدره عن كتمان امرها فراح يجاهر بها لفرط سروره بين مقربيه. وحدث بها اخته (قاديميا Cademea) في مأدبة اقامتها له متوهما انهما وحيدان، والحقيقة ان مجلسهما كان خالياً إلاّ من (فيناريت Phœnarete) امرأة (سامون Samon) مدير شؤون ماشية وقطعان (نيوبطليموس) وكانت مستلقية على اريكةٍ فادارت وجهها الى الحائط متظاهرة بالنّوم العميق وسمعت كل الحديث دون أن يُشك بها. وفي اليوم التالي اقبلت على (انتيغون) امرأة (پيروس) وافضت اليها بما سمعت، فنقلية لزوجها فلم يقل (پيروس) شيئاً ولم يعلّق في وقته، وانما أولم لينوبطليموس وليمةً بمناسبة يوم تقديم القرابين، وهناك بطش به، وكان قد اطمأن قبل ذلك إلى صداقة وجهاء الايپروسيين وسراتهم والى انهم يرغبون في الخلاص من (نيوبطليموس) ويوافقونه على طموحه في الحكم وحده لا شريك له وعدم قناعته بنصيب صغير والسير على النهج العظيم الذي اختطه، وأن يسبق (نيوبطليموس) الى التآمر على حياته ويبطش به، بعد أن تضافرت الدلائل على نواياه. وقام الشّك الكبير على سعيه لقتل (پيروس).

واراد تخليد ذكرى (بيرينيك) و(بطليموس) فسمّى ابنه من زوجه (انتيغون)، بأسم ثانيهما، وبنى مدينة في شبه جزيرة (ايپروس)[٨] اطلق عليها اسم الأولى ومنذئذ راحت تداعب ذهنه المشاريع العظيمة الكبيرة، ألاّ أنه حصر اهتمامه بشؤون اليونان الداخلية في مبدأ الأمر، وتوخى الوسائل الكفيلة لإقحام نفسه في شؤون مقدونيا وتوسّل بالحجّة الآتية: قتل (انتيباطر) أكبر اولاد (كساندر)[٩] والدته (ثسالونيكا Thessalonica) وطرد اخاه (الاسكندر)، فاستجار هذا، بـ(ديمتريوس) وطلب منه العون، كما استنجد ايضاً بـ(پيروس) ولم ينجده اولهما لمشاكل اعترضته، ولبّى (پيروس) نداءه الاّ انه اشترط لمعونته ثمناً وهو ضمّ مقاطعات (تمفيا Tymphœa) و(پاراوايا Paraucea) في مقدونيا، والمستعمرات الخارجية (امبراقيا Ambracia) و(اقرْنانيا Acarnania) و(امفيلوخيا Amphilochia)[١٠]. فلم يمانع الأمير الشاب في احتلالها وتعزيزها بحامياتٍ قوية من جيش (پيروس) وبعد ذلك باشر باخضاع بقية المملكة (للاسكندر) بعد انتزاعها من (انتيباطر). وكان (ليسيماخوس) قد وعد بارسال نجدات عسكرية لانتيباطر إلاّ أن مسائل كثيرة اشغلته واقعدته. على انه كان يعلم بمنزلة (بطليموس) عند (پيروس) وانه لايردُّ له اي طلب كان. فعمد الى ارسال خطاب

(٨) بالقرب من مدينة پيريڤيزا Perveza الحالية.

(٩) في العام ٢٩٧ ق.م.

(١٠) كلّ هذه الاراضي تقع ضمن ساحل الخليج الامبراكي Ambraci في جنوب ايپروس.

مزيف له مذيل بتوقيع (بطليموس) وفيه يطلب منه وقف حملته لقاء ثلاثمائة تالنت يدفعها له انتيباطر، وما أن فضّ پيروس الخطاب حتى وقف على حيلة (ليسيماخوس) لأنه لم يكن مصّدراً بالديباجة المأثورة: «من الأب الى الإبن - صحةً وعافيةً» بل كانت فاتحته هكذا «من الملك بطليموس الى پيروس الملك - صحةً وعافيةً»، فوبخ (ليسيماخوس) على ما بَدَر منه، إلاّ انه وافق مع ذلك على احلال السلام واجتمع الملوك لعقد الصلح وتوثيقه بالقسم فوق القرابين. وجيء بمعزاة وثور وكبش لتضحيتها، وفجأة سقط الكَبش ميتاً فضحك الجميع، إلاّ أن (ثيودوتوس) العرّاف منع (پيروس) من اداء القَسَم قائلاً ان السماء عرضت بموت الذبيحة اشارةً الى موت أحد الملوك الثلاثة المجتمعين. وهكذا ابى (پيروس) أن يوثق معاهدة الصلح بقسمه.

بلغت أمور (الاسكندر) الآن الى نوع من الاستقطاب والاستقرار. ثم وصل (ديمتريوس) وتبين أن وصوله لايخدم مصلحة (الاسكندر) وانما زاد في حراجة موقفه، اذ ما مرت ايام قليلة على اجتماعهم حتى بدأت نار الحقد والضغينة تنهش قلوبهم وراح بعضهم يتآمر على بعض، واهتبل (ديمتريوس) فرصته واستبق الملك الشاب فقتله واعلن نفسه ملكا على مقدونيا[11]. ولم يكن بين (ديمتريوس) و(پيروس) تفاهم اوودّ كبير. فإلى جانب الغزوات التي كان يقوم بها على ثساليا، كان هناك الداء الدفين الذي ابتلي به الملوك، وهو طموحهم الشديد الى توسيع رقاع ملكهم. هذا الداء جعل الملكين الجارين ينظران أحدهما الى الآخر نظرة ريبةٍ ورهبةٍ، ولاسيما بعد وفاة (ديدامیا). وبوضعهما اليد على مقدونيا سرعان ما نشب الخلاف بينهما للاستئثار بها، ولدوافع أخرى اقوى منها، فقد عاجل (ديمتريوس) الايتوليين بالحرب واخضعهم وترك في البلاد المفتوحة جيشا كبيراً بقيادة (پانطاوخوس Pantauchus)، وزحف بالباقي لمواجهة پيروس كما كان (پيروس) يسعى هو الآخر اليه كما ظن، واجتاز الجيشان احدهما الآخر دون أن يفطن اليه. ووقع (ديمتريوس) على اپيروس وعاث فيها سلباً ونهباً. والتقى (پيروس) بـ(پانطاوخوس) فاستعد لقتاله، ثم اشتبك الجيشان في معركة طاحنة عنيفة، وخصوصاً حيث يقف القائدان[12].

كان (پانطاوخوس) افضل ضابط في جيش (ديمتريوس) لما يتمتع به من قوة بدنية خارقة وشجاعة وحنكة عسكرية فضلاً عن عزمات شديدة وروح عاليةٍ، فتحدى (پيروس) للبراز ولم يتردد (پيروس) في قبول تحديه. وكان (پيروس) باجماع الكلّ أبسل الملوك وابعدهم صيتاً

(١١) في ٢٩٤ ق.م.
(١٢) في ٢٩١ ق.م.

في الاقدام. ولم تكن شهرة (آخيل) التي ورثها بسبب رابطة الدم بل بسبب وراثته الشجاعة. وهكذا برز الى (پانطاوخوس) أمام الجيش. فتطاعنا برمحيهما، ثم تضاربا بحساميهما في قتال بديع وضربات ماهرة حاذقة، واصيب (پيروس) بجرح، فردّه الى خصمه مضاعفاً واصابه في فخذه وفي موضع قريب من رقبته، وصكّه صكاً عنيفاً حتى القاه أرضاً، ولكنه لم يفلح في الاجهاز عليه فوراً اذ خفّ اليه اتباعه وانقذوه. على ان الايپروسيين ارتفعت معنوياتهم كثيراً بانتصار ملكهم واضطرت حماستهم بشجاعته فانقضوا انقضاضاً عنيفاً على «فلانكس» المقدونيين ومزقوه شرق ممزق وراحوا يطاردون فلولهم فقتلوا خلقاً كثيراً وأسروا خمسة آلآف.

ولم يحنق المقدونيون او يغضبوا لخسارتهم، ولم يشتّد بغضهم (لپيروس) قدر ما اعجبوا بشجاعته ونسجت حكايات وتعليقات لا نهاية لها عليه، ولهج بالحديث عنه شهود العيان وكل من كان موجوداً في الوقعة فشبهوا حركاته وتصرفاته وخفته بتلك التي عرفت عن الاسكندر الكبير وقالوا انهم راؤوا فيه هناك صورة ونسخة مطابقة لذلك البطل بسرعته وحسن بلائه في القتال وان غيره من الملوك ليس فيهم شبه بالاسكندر إلاّ بما يحيط بهم من حراس مهيبين، وبطريقته في خفض الرأس في المناسبات الرسمية، ولهجته الرفيعة في الكلام، امّا (پيروس) فكان شبيهه في القتال وحمل السلاح، ولنا في التعليقات التي تركها خير شاهد على خبرته العميقة بالتاكتيك العسكري وفن القيادة.

ولقد قيل لنا أن (انتيغونس) سئل عن أعظم عسكريّ في رأيه فأجاب

- پيروس، لو أنه ادرك سنّ الشيخوخة.

منوّها فحسب بالذين عاصروه. إلاّ أن (هنيبعل) وضعه في المقام الأول، لمهارته وحسن قيادته، وجعل (سكيپيو) في المقام الثاني. واحتجز لنفسه المقام الثالث. وقد ورد ذلك في سيرة (سكيپيو)(١٣). ومجمل القول ان (پيروس) اوقف كل همه وحصر افكاره وفلسفته في صناعة الحرب، بوصفها أليق للملوك، واجدر بتتبعاتهم ومدارستهم اما النواحي الأخرى فلم يُقم لها وزناً. وذكر أنه سئل مرةً في مأدبة، ايهما خير الموسيقين؛ (پيثون Python) أو (كافيسياس Caphisias)؟ فأجاب قائلاً:

- ان (پوليسپيرخون Polysperchon) هو خير القادة!

كأنما لايليق بالملك أن يفهم في هذه الأمور أو يُحكّم فيها.

(١٣) هذه السيرة التي وضعها پلوتارخ مقابل سير [ايپامنداس] هي الآن في عداد المفقودات.

وهو عند مقربيه واصدقائه الأدنيين رقيق الطبع تصعب اثارته حريص أشد الحرص على ردّ الجميل دون تريث، لذلك صعب عليه احتمال موت (ايروپوس Æropus) ووقع في نفسه موقعاً أليما وقال انه يدين نفسه ويلومها ويتألم كثيراً لأنه ارجأ ردَ جميل الميت وتأخر فيه. ذلك لأن الديون قد يرضي ردُّها ورثة دائنينا ولكنه لايقوم مقام الإقرار بالجميل، ولأن اهل الجميل ما عادوا بين الاحياء ليشعروا بوفائنا، فيحدث عملنا اثره الطيب الجدير بالثناء. ووجد بعضهم انه يجدر بـ(پيروس) أن يأمر بنفي شخص من (امبراشيو Ambracio) بذيء اللسان أساء اليه بالكلام كثيراً. فرفض (پيروس) قائلاً:

- خير لنا أن يشتمنا هنا امام نفر قليل، من أن يتخرص علينا في الخارج الى العدد الكبير.

وسبّه أخرون وانتقصوا منه في مجلس شراب، فجيء بهم للتحقيق في امرهم وسألهم اصحيح انهم تفوّهوا بما نُسب اليهم من قول، فأجاب واحد من اولئك الشبان الأغرار:

- أجل ايها الملك صحيح، ولو كان لدينا المزيد من الخمر لقلنا اكثر من هذا!

فضحك وعفّا عنهم. وبعد أن قضت (انتيغون) نحبها تزوج بعدد من النساء قاصداً تثبيت مركزه وتقوية سلطانه فاقترن بـ(بيريكنّو) بنت (اوطوليون Autoleon) ملك الپاونيين Paon-ions[١٤]، وبـ(بارديلليس Bardyllis) بنت ملك الالليريين، وبـ(لاناسّا Lanassa) بنت الملك السيراقوسي (اغاثوقليس Agathocles) وقد مهرته هذه مدينة (كوركيرا) التي كان اغاثوقليس قد ضمها الى ملكه. وانجب من (انتيغون) ابنه الاكبر (پطليموس) ومن (لاناسّا Lanassa) استولد (الاسكندر)، ومن (بيريكنّو) انجب (هيلينوس Hellenus) اصغر ابنائه.

وقد شبوا كلهم مفطورين على حبّ الحرب والطعان وربأهم حتى استووا شباباً مضطرمي الروح ناشطين. واعدهم للقتال خير اعداد منذ نعومة اظفارهم كما يشحذ حَدّ السيف. وقيل أن احد ابنائه سأله وهو صبيّ «لمن سيخلّف المملكة منهم» فأجابه: «لمن كان أمضاهم سيفاً». وهذا الجواب في الواقع اشبه شيء باللعنة المأساوية التي خلّفها الملك (اوديب Oedipus) لابنائه:

«قسمة الميراث لن تتم بالقرعة وانما بالسيف لا غيره!»

الى هذا الحد من الوحشية والغلظة تبلغ بالمرء طبيعة الجشع!

بعد تلك المعركة مع المقدونيين عاد (پيروس) الى ارض الوطن متوجاً بالمجد، وانقادت اليه الشهرة، ولمع نجمه. وعندما اطلق عليه اهل (ايپروس) لقب «النّسر» عقّب بقوله:

---

(١٤) هم الجيران الشماليون لمقدونيا.

- اني نسرٌ بكم. وكيف لا اكون كذلك ولي من سواعدكم اجنحة تسندني؟

وبعدها بزمن وردته أنباء تشير الى ان (ديمتريوس) يعاني مرضاً خطيراً الزمه الفراش. وأسرع بالدخول الى مقدونيا بدون سبق انذار، وكان يقصد غزوةً يشيع بها الرعب في نفوس اهل البلاد، لكنه وجد نفسه يتوغل في البلاد ويكاد يستولى عليها دون اي قتال. زحف حتى (إديسّا Edessa) ولم يجابه مقاومة، والتحق به عدد كبير من جنود العدوّ. وهذا ما استنفر (ديمتريوس) والجأه إلى الاستعداد الكبير. وتمكن بمعونة اتباعه وقواده من اعداد جيش جرار هاجموا به (پيروس) هجوماً عنيفاً. فتحاشى الاصطدام به وانسحب لأنه لم يأت لقتال بل لغارةٍ موضعية. وفقد اثناء تقهقره قسماً من جيشه جراء مطاردة المقدونيين المتواصلة الحامية. إلاّ أن (ديمتريوس) ظلّ يشعر بخطورة (پيروس) وأن سهل عليه ارغامه على الانسحاب السريع. واخذت تدور في رأس (ديمتريوس) مشاريع ضخمة، وفي مقدمتها إستعادة مملكة ابيه. فبادر الى اعداد جيش لهذه المهمة قوامه مائة الف مقاتل وخمسمائة سفينة حربية، يرهب به (پيروس) والمقدونيين الكثيري الإزعاج بنشاطهم الحربيّ، كذلك لم يكن لديه الوقت لمواصلة الحرب ضد الأول فعمل على عقد صلح معه للتفرغ الى الملوك الآخرين، وتم الاتفاق على شروط، ولكن مشاريع (ديمتريوس) انكشفت من الاستعداد الهائل الذي يقوم به. فاشتدّ قلق الملوك الآخرين وبعثوا الى (پيروس) بوفود ورسائل، وفيها يستغربون منه تركه الفرصة تفلت من يده، ويظهرون دهشتهم من انتظاره حتى يقوى (ديمتريوس) ويغتنم فرصته، بينما هو قادر الآن على طرده من (مقدونيا) واشاعة الخلل والاضطراب في كل مشاريعه وخططه.

وها انه الآن قاعد يرقب (ديمتريوس) وهو ماض الى اكمال استعداده على مهله دون وجل؛ لينقل الحرب فيما بعد الى عُقر داره، ويرغمه على القتال دفاعاً عن معابده واضرحته في بلاد (مولوسيا)، لاسيمّا بعد أن خسر (پيروس) مدينة (كوركيرا) ومع زوجه (لاناّسا) مؤخراً. فقد جرحها في عزة نفسها بتفضيله الفائق زوجاته البربريات عليها. فانتقلت الى (كوركيرا) وراحت تبحث لها عن زوج بين الملوك، ولما كانت تعلم ان (ديمتريوس) اكثر الملوك رغبة في يدها فقد رعته وقبلت عروض زواجه، فابحر اليها واقترن بها ووضع حامية عسكرية في المدينة.

وكتب الملوك (لپيروس) ماكتبوا وهم لايدّخرون من ناحيتهم جهداً في متابعة استعداد (ديمتريوس)، في حين كان يتباطأ في القيام باستعداده. ثم أقلع (بطليموس) بأسطول كبير فأرغم عدة مدن يونانية على الاستسلام وانقضّ (ليسيماخوس) من تراقيا على مقدونيا العليا واجتاحها، وهب (پيروس) للحرب ايضاً وزحف على (پيرويا Beroea). متوقعاً أن

يترك (ديمتريوس) الجزء الجنوبي من مقدونيا بلا دفاع. لأنه كان قد حشدّ كل قواته ضدّ (ليسيماخوس)، فصحّ ما توقعه. وفي تلك الليلة بالذات رأى في الحلم الاسكندر الكبير يناديه، ولما تقدم منه وجده عليلاً طريح الفراش إلاّ انه استقبله بكلام لطيف واحتفى به كثيراً ووعده بمساعدة فعالة، فردّ عليه (پيروس) بكل جرأة:

- كيف تقوى على مساعدتي يا سيدي وانت عليل؟

فقال الاسكندر:

- اساعدك باسمي!

ثم اعتلى صهوة حصانه النّايسي Naesian، وبدأ وكأنه يسير في الطليعة. فشدد هذا الحلم من عزمات (پيروس) كثيراً، وتمكن بزحف سريع من الاستيلاء على كل الاقاليم المجاورة وبعد أن دانت له (بيرويا) جعلها مقراً عاماً وقاعدة أرسل منها قوّاده لاخضاع بقية البلاد وتم له ذلك وعلم (ديمتريوس) بكل هذا، وتحسّس أن الجنود المقدونيين يتململون داخل جيشه وهم على شفا التمرد، وخشي إن هو اقترب من ليسيماخوس وهو من الملوك المقدونيين البارزين، أن يشق هؤلاء الجنود عصا الطاعة وينظموا الى ابن جلدتهم. لذلك استدار نحو (پيروس) لأنه كان عدوا للمقدونيين وهم يكرهونه. وما أن عسكر امامه حتى انبث القادمون من (بيرويا) في معسكره يلهجون بالثناء على (پيروس) ويصفونه بالمحارب العظيم الذي لا يُغلب. والمنتصر الرفيق الذي يعامل اعداءه المقهورين بروح انسانية سمحاء، وعمد (پيروس) نفسه إلى ارسال عددٍ منهم في السر متظاهرين بأنهم مقدونيون، واخذوا يحرضُون جنود (ديمتريوس) على الانتقاض ويقولون لهم لقد حان يوم الخلاص من استبداد حكومة (ديمتريوس)، بالانضواء تحت راية (پيروس) ذلك الأمير النبيل الخلق الذي يكن للجنود اعظم الحب. فاثيرت خواطر قسم كبير من افراد الجيش بهذه الدعاية الماكرة. واخذهم الشوق الى رؤيته وراحوا ينشدونه في كل مكان. واتفق انه كان حاسر الرأس دون خوذةٍ، وادرك انهم لا يتبينونه بدونها فوضعها على رأسه فعرفوها حالاً بتاجها الريش وقرني الجدي واسرعوا اليه طالبين كلمة المرور، ووضع بعضهم اغصان البلوط على رؤوسهم لأن الجنود المحيطين به كانوا يزينون هاماتهم بها. واقدم بعضهم على نصح (ديمتريوس) بالانسحاب واعتزال الحكم، ووضح له تصاعد روح التمرد والثورة في صفوف الجيش، فأسرع يأخذ بالنصيحة وغادر المعسكر سراً وهو متنكر بقبعة واسعة الاطراف ومعطف جنديّ اعتيادي. وهكذا سيطر (پيروس) على جيشه دونه قتال واعلن نفسه ملكاً على مقدونيا.

إلاّ ان (ليسيماخوس) وصل، وراح يزعم أن هزيمة (ديمتريوس) انما كانت نتيجة مجهودهما، ولذلك ينبغي أن يتقسما الملك. ولم يكن (پيروس) اذ ذاك مطمئنا من المقدونيين، والشكّ في اخلاصهم مازال يساوره ولهذا وافق على اقتراح (ليسيماخوس) واجرى اقتسام الاقاليم والمدن فيما بينهما. وكان هذا العمل حسناً في وقته لأنه حال دون تشوب حربٍ بين الطرفين. ولكن سرعان ما وجد أن هذا التقسيم لم يكن بالتّسوية السليمة المجدية لأنها ستظلّ ابداً ينبوعاً للنزاع والشكوى فان اولئك الذين لاتحدّ من مطامعهم الجبال او البحار او البوادي والقفار ولا تستطيع الحدود التي تفصل آسيا عن اوروبا، من كبح رغباتهم الجامحة الأشعبية، يصعب عليهم احتمال أذى بعضهم بعضاً عندما تكون املاكهم ملاصقة او متقاربة. فهؤلاء لاتهدأ سورة القتال فيما بينهم ولا يخمد لحروبهم أُوار وتبقى نفوس متحاقدة متحينة الفرص للانتفاع واحدهم على حساب الثاني، وهم يستخدمون في ذلك كلمتي «الحرب» و«السلم» واسطة للاستفادة كما تستخدم قطعة النقد المتداولة فيروجون بهما مصالحهم، دون اعتبار للعدالة والضمير وانه عندما يثيرون حرباً صريحة، لأفضل مما لو يطلقون على السلم والامتناع عن اقتراف الآثام، تلك الكلمات المقدسة: كالصداقة وكالعدل، بينما هم في الحقيقة مفتقرون الى السبب والفرصة للإيغال في تلك الشرور. و(پيروس) هو من امثال هؤلاء الرجال. فقد وقف عقبة في صعود نجم (ديمتريوس) ثانية ثم عمل جهده للحيلولة دون استعادة سلطانه كمن يحول دون ابلال مريض من داء. وساعد اليونانيين وزار اثينا وصعد الى الاكرپوليس وقدم القرابين للربّة ونزل الى المدينة في اليوم عينه واظهر للأثينيين امتنانه العظيم للثقة وحسن النية التي اظهروها له، وعليهم ان كانوا عقلاء الأ يسمحوا بقدوم أي ملك الى مدينتهم ثانية ولا بفتح ابوابها له. وعقد ايضاً صلحاً مع (ديمتريوس) على انه عبر الى اسيا بعد ذلك بزمن قصير لمطاردة (ليسيماخوس) وحرض الثساليين على الثورة وحاصر مدنهم في اليونان اذ وجد أن احتفاظه بتعلق المقدونيين وحبهم اضمن ما يكون في الحرب مما هو في السلم. هذا فضلا عن ميله الكبير الى الحركة، ونفوره من الاستقرار. واخيراً هزم (ديمتريوس) في سوريا هزيمة ساحقة[١٥]، واستتب (لليسيماخوس) الامر تماماً فاستدار بكلّ قواته نحو (پيروس) الذي كان معسكراً في (إديسا) وانقض عليه مستولياً على القوافل التي تحمل له الارزاق والمؤن فأحدث مجاعة عظيمة في جيشه وتمكن بعدها من إفساد كبار قواد المقدونيين في جيشه بالرسائل والرسُل وبث الاشاعات بينهم بقوله لائماً أنهم أمرّوا عليهم سيداً غريباً لايمت اليهم بصلة، انحدر من صلب اولئك الذين كانوا دوماً عبيداً للمقدونيين وخدماً. وانهم سعوا الى

---

(١٥) في ابسوس Ipsos في العام ٣٠١ ق.م.

طرد اصدقاء الاسكندر القدماء ومقربيه من بلادهم. وبلغ نجاحه في التغرير بهم وبالجنود المقدونيين حداً ألجأ (بيروس) الى الانسحاب مع الايپروسيين وقواته الاحتياطية، من مقدونيا كما دخلها. ليس للملوك اي مبرر وجيه لادانة الحكومات الشعبية أو الجمهوريات، اذا ما بدلت مواقفها حسبما تمليه عليه مصالحها، فهي انما تحذو حذوهم في هذا، اولئك اساتذة فنّ التقلب والغدر الكبار، الذين يعتبرون اوفرهم حكمةً، من كان اقلهم اكتراثا بالاستقامة والأمانة.

وبعد أنسحاب (بيروس) الى (إيپروس) وتركه مقدونيا، واتاه الحظّ بفترة من الحكم مستقرة هادئة نعمت فيها رعيته ببحبوحة من العيش. على انه ضاق ذرعاً بهذا السبيل الغثّ المقيء من الحياة، حياة الهدؤ والاستقرار. لأنه من اولئك الذين لايطيب لهم العيش الاّ بالحاق الأذى بالأخرين او اذا اصابوا شيئاً منه على يد الأخرين ومثله في ذلك مثل (آخيل)...

... كاسفَ البال مهموماً أضرّ به الجمام راغباً في خوض غمرات القتال، مشوقاً لسماع صيحات الحرب[١٦].

واشبع ميله في اثارة المشاكل والمتاعب على الطريقة الآتية:

كان الرومان في حرب مع التارنتيين[١٧]. ولم يعد لهؤلاء الاخيرين قِبل بمواصلة الحرب، كما لم يفلحوا في عقد صلح وانهانها بسبب تهور خطبائهم الشعبيين وغلظتهم وحمقهم. فتداولوا بينهم على نصب (بيروس) قائداً لجيشهم واستخدامه من دون سائر الملوك المجاورين لأنه كان ابرعهم في القيادة واقلّهم مشاغل. وفاوض في ذلك عقلاؤهم وبعيدو النظر منهم فتغلّب على رأيهم ضجيج الجمهور وضوضاؤهم الصاخبة. في حين تغّيب الآخرون عن حضور الاجتماعات العامة لما رأوا من موقف الجمهور، الاّ رجلاً واحداً اسمه (ميتون Meton) وهو من ارجحهم عقلاً واكثرهم اتزاناً. ففي اليوم الذي عُين للمصادقة على تنصيب (بيروس)، دخل (ميتون) محل الاجتماع والناس الجلوس، دخل وهو يرقصُ ويتأود مترنحا كالشارب الثمل وقد طوق عنقه بقلادة زهر ذابلة وامسك مصباحاً، وامامه امرأة تنفخ في ناي. ولما كانت الرسميات لاتراعى عادة في امثال هذه الاجتماعات الصاخبة العامة، عمد بعضهم الى التصفيق له وضحك آخرون ولم يمنعه أحدٌ وانما راحوا يحثون المرأة على النفخ بالناي ويطلبون منه رفع عقيرته بالغناء للحاضرين. ولما خيل لهم أنه سينفذ ما طلبوه قال لهم:

– أصبتم يا رجال (تارنتوم) بفسح المجال للناس يفرحون وينشرحون عندما تميل قلوبهم الى

(١٦) انظر الالياذة ٤٩١ – ٤٩٢.

(١٧) في العام ٢٨١ ق.م.

ذلك وعندما يكون في متناول يدهم. وانتم ان كنتم عقلاء لما دخرتهم شيئاً من افراحكم ولا اطلقتم لمسراتكم العنان وانتم قادرون الآن لأنكم مزمعون عما قريب على احداث انقلاب في طريقة حياتكم وسلوك سبيل آخر بعد ان يحل (پيروس) بينكم.

أحدثت كلمات (ميتون) هذه تأثيراً عميقاً في كثير من التارنتيين وانتشرت همسات مختلطة تفيد انه اصاب كبد الحقيقة. الاّ ان بعض من كان يخشى أن تذهب حياته ضحية اذا ما تم عقد الصلح مع الرومان راحوا يؤنبون الجمهور الحاضر لإصغائهم بصبرٍ وخنوع الى توبيخ علج سكّير، ثم اجتمعوا عليه ودفعوا به الى الخارج. وهكذا تمت المصادقة الشعبية وأرسل وفد الى (ايپروس) يحمل الهدايا لـ(پيروس) ليس باسمهم وحدهم بل باسم كلّ اليونانيين القاطنين في ايطاليا. وابلغوه أنهم بحاجة الى جنرال حسن السمعة كثير الخبرة مثله، وانهم قادرون على امداده بقوات كبيرة من اللوكانيين والميسّاپيين Messapians، والسامنيين Samnites والتارنتيين مما يبلغ تعداده عشرين الف خيّال وثلاثمائة وخمسين ألف راجل، ولم تثر هذه حماسة (پيروس) وحده، وانما حركت في نفوس (الايپريين) الرغبة الجامحة للقيام بحملة عسكرية.

وجد في ذلك الزمان رجل ثساليّ يدعى (كينياس Cineas) معروف برجاحة العقل، وهو تلميذ للخطيب العظيم (ديموستينس) وكان في طليعة من اشتهر امره في ذلك العهد بحسن القول، يحي في اذهان المستمعين ذكرى قوة عارضة استاذه وفصاحة لسانه حتى لكأنه صورة منه. وكان من مقربي (پيروس) ومستودع ثقته لا يفتأ يوكل اليه المهامُ الخطيرة في مختلف المدن حتى ليصدق فيه قول الشاعر (يوريپدس):

«... قوة الكلمة تستطيع أن تفعل ما تفعله السيّوف المظفرة».

وكان (پيروس) يردد دوماً ان (كينياس) فتح من المدن بمضاء اقواله اكثر مما فتح هو بحد سيفه، وظلّ يواصل تشريفه بايداع أخطر المأموريات اليه. وقد لاحظ هذا حماسة (پيروس) ونشاطه في استعداده للحملة الايطالية. فانفرد به يوماً وليس لديه ما يشغله وجرّه الى النقاش التالي قال (كينياس):

- المعروف عن الرومان يا مولاي انهم محاربون اشداء قهروا شعوباً محاربة كثيرة. فإن شاء لنا الله أن نغلبهم فكيف سننتفع بانتصارنا؟

فقال (پيروس):

- انت تسأل سؤالاً بديهياً يجيبك هو عن نفسه. فبعد أن يكتب لنا الظفر على الرومان لا

تعود مدينة يونانية أو بربرية ممتنعة عنّا وسنكون فجأة سادة أيطاليا كلّها. وأنت آخر من يجهل سعة أرجائها وكثرة مواردها ومدى قوتها.

سأل (كينياس) بعد فترة من الصمت:

- وماذا ترانا فاعلين بعد اخضاع ايطاليا؟

وكان (پيروس) يجهل ما يرمي اليه مخاطبه فأجاب بكلّ سذاجة:

- بعدها ستمدّ صقلية ذراعيها الينا مستقبلةً، وهي جزيرة غنيّة جداً حافلة بالسكان، تسهل السيطرة عليها. فعلى اثر فرار (اغاثوقليس) منها سادها التناحر، والعنف وركبتها الفوضى والشغب وزال عنها حكم القانون

فقال (كينياس): انكَ تفصح عَمّا هو قريب الاحتمال جداً. لكن، اسيكون في الاستيلاء على صقلية خاتمة الحرب؟

أجاب (پيروس): ألا فليهبنا الله النصر والفلاح في هذا وسنستخدمه بمثابة مقدمة وتمهيد لأمور أجلّ شأناً وأعظم. إذ من يعبر بعدها على (ليبيا) و(قرطاجنة) حين يراها في متناول يده؟ دونك (اغاثوقليس) عندما أرغم على الفرار من (سيراقوسة) بحراً بسفنٍ قليلة لم يستطع مقاومة الاغراء، وفاجأهما بالغارة. فبعد أن نكمل هذه الفتوحات، لايبقى من اعدائنا الذين يستصغرون شأننا عدو واحد يجرأ على الوقوف بوجهنا. ولن يستطيع ان ينكر ذلك أحدٌ.

أجاب (كينياس): أبداً لا أحد! وواضح أننا سنستعيد مقدونيا بقوتنا الجبارة هذه وستدين لنا اليونان كلها بالطاعة. فماذا ترانا فاعلين بعد هذا؟

فقال (پيروس) باسماً: اذ ذاك سنركن الى حياة هانئة يا صديقي العزيز. سنتساقى كؤوس الراح صبوحاً وغبوقاً ونمتع انفسنا باطيب الاحاديث واجملها.

ولما بلغ (كينياس) من استدراجه (پيروس) الى هذه النقطة قال:

- وما الذي يمنعنا الآن يا مولاي من التنعم برغد العيش والاحتفال بعضنا ببعض مادام في متناول ايدينا وطوع بناننا كل ما نجاهد للوصول اليه بعد سفك الكثير من من الدماء وتكلف العناء، وركوب ما لا يحصى من المخاطر ومكابدة المصائب الشديدة على انفسنا وعلى الآخرين؟

هذا المنطق اشغل ذهن (پيروس) بفكرة السعادة التي تكاد تخرج من يده، إلاّ ان الحجّة

القوية لم تحمله على التخلّي عن هدفه فقد كان أعجز من صرف نظره عن آماله بتحقيق اعزّ أمانيه.

بعث اولاً (بكينياس) الى التارنتيين على رأس قطعة قوامها ثلاثة آلاف رجل ثم وفي الوقت اقلعت من تارنتوم عمارة بحرية كبيرة تتألف من سفن نقل خيالة وبوراج حربية، وزوارق مسطحة القاع من جميع الأنواع، قاصدة (ابيروس) لنقل الحملة فأوسقت بعشرين من الفيلة، وثلاثة آلاف خيالٌ وعشرين الف راجل والفين من حملة القسّي، وخمسمائة من الرماة بالمجانيق. وبعد أن تمّ ذلك اقلعت بهم قاصدة ايطاليا. وما أن قطعت بهم نصف المسافة حتى هبت ريح الشمال العاتية على غير موعدها من السنة، وكانت هوجاء كاسحة حرفت القافلة عن سبيلها المرسوم. الاّ انه تمكن من النزول الى البّر بعد اهوالٍ وكثير من الجهد والمشقة واستخدام ربانية سفنه وبحارتها أقصى مهارتهم وعزماتهم. على ان قسماً من السفن تاه في عرض البحر واضطربت صفوفها وتبعثر بعضها واخطأ الساحل الايطالي مندفعاً بقوة الريح الى البحر الصقلي والليبيّ. ولم يفلح عدد منها في الوصول الى رأس (ياپيغيوم)[١٨]، وادركهم الليل البهيم، وقذفهم بحر هائج صخاب الى ساحل صخري خطرٍ وأصيبت كلها السفن بعطب جيسم إلاّ «الغاليون» الملكي فقد قاومت اندفاع الامواج العاتية نحو جانبيها وصمدت بمتانتها وضخامتها حتى هبت ريح من الساحل فسفعت وجوه راكبيها وظل مقدمها يشق الريح الى الامام حتى بات يخشى أن تمزق شر تمزيق على ان ذلك كان أهون شراً من الاستدارة بها ثانية الى البحر وهو عاصفٌ هائج وبريحه النكباء تهبّ عليهم من كل جهة. فنهض (پيروس) وقذف بنفسه من السفينة سابحاً الى الساحل وحاول حرسه واصدقاؤه أن يمدوا اليه يدالعون متلهفين إلاّ أن سواد الليل وضجيج البحر وعنف امواجه حال دون ذلك. وفي صباح اليوم التالي اخذت الريح تتطامن وتهدأ فبلغ الساحل وهو مبهور الانفاس خائر القوى إلاّ انه جلد ثابت العزم امام نكد حظه. وكانت العاصفة قد قذفت به الى ساحل (الميساپيين) فخفوا الى معاونته بغاية ما امكنهم ثم وصل بعض السفن الناجية المتخلفة وفيها القليل جداً من الخيالة، وما لا يزيد عن ألفي راجل، واثنين من الفيلة فحسب.

وسار (پيروس) الى تارنتوم فوراً بهذه القوة، وكان (كينياس) قد استخبر بمقدمه، فخرج الى لقائه، ودخل المدينة. ولم يبهض كاهلهم بقيود على حرياتهم في مبدأ الامر ولم يقدم على ما يسيئ اليهم حتى اذا بلغ كل السفن الميناء، واجتمع له القسم الأعظم من جيشه راح يفرض عليهم بعض السلطان ويذيقهم شيئاً من الشدّة مدركاً ان القاء حبلهم على غاربهم سيجعلهم

(١٨) ويدعى حالياً برأس ريزوتو Cape Rizznto ويقع جنوب شرق كالابريا.

اعجز من معونة غيرهم فما بالك بأنفسهم! انه عند ذلك – سيتحمل عبء القتال برمته وينشغل في ميادين الحرب لأجلهم بينما يبقون هم في منازلهم يستمتعون عين بالولائم والحمامات وغيرها من ضروب الترف. ولذلك أمر باغلاق ابواب الملاعب والنوادي والمتنزهات العامة وهي ميادين قتالهم التي يحاربون فيها بشقشقه اللسان والثرثرة العابثة! ثم منع الاحتفالات بالأعياد، واقامة مجالس الشراب والمساخر والملاهي لأنها لاتناسب حالة الحرب. واستاقهم الى الخدمة العسكرية واظهر كل صرامة وقسوة في تجنيد المكلفين بالخدمة. مما الجأ الكثير من سكان المدينة الذين لم يعرفوا معنى للأوامر في حياتهم الى تركها قائلين: أن منعهم عما يريدون هو محض استرقاق واستعباد. ووردت الانباء بزحف (ليفينوس Lævinus) القنصل الروماني اليه بجيش جرار وهو يعيث سالباً في اراضي (لوقانيا) اثناء تقدمه. ومع أن قوات الحلف لم تلتحق بعد بقوات پيروس فانه لم يستطع البقاء ساكنا ازاء عدوّ اقترب منه الى هذا الحدّ فخرج عليه بجيشه، وارسل الى الرومان رسولاً يستفسرعما اذا كان في الامكان التوصل الى ازالة الخلاف بينهم وبين الايطاليين الاغريق قبل الإشتباك في القتال، وأن يكون هو حكماً ووسيطاً في ذلك؟ فرد (ليفينوس) أن الرومان لا يريدونه وسيطاً ولا يخافونه عدواً. فتقدم (پيروس) منهم وعسكر في السهل بين مدينتي (پاندوسيا Pando-sia) و(هراقليا Heraclea) ليجد الرومان قد عسكروا على الضفة الأخرى من نهر (سيريس Siris) القريب. فخرج للاستطلاع ولما شاهد نظامهم، وكيفية وضعهم نقاط المراقبة، وطريقة عسكرتهم، عرته الدهشة والتفت إلى احد اصدقائه القريبين منه وقال له:

– إن هذا نظام البرابرة هذا يا (ميفاكليس) ليس بربرياً بمظهره وشكله. وسترى وشيكاً مالذي سيحققونه.

ثم استغرق في تأمل للموقف عميق. وقرر الانتظار ريثما تلتحق به قوات الحلف. وفي اثناء تلك الفترة قام بنشر وتركيز وحداته على طول ضفة النهر المواجهة للرومان خوفاً من محاولتهم عبوره اليهم استباقاً للقوات التي كان ينتظرها وصح ما توقعه فقد عجل الرومان بسوق المشاة الى الضفة الأخرى من مخاضات ممكنة، وبعبور الخيالة من عدة نقاط اخرى لإرغام الاغريق على الإنسحاب خوف تطويقهم من كل الجهات. وادرك (پيروس) خطتهم فزاد عجباً، وأمر قادة وحدات المشاة أن يصفوا قواتهم بنسق المعركة وان يبقوهم تحت انذار القتال، في حين برز الى الرومان المتقدمين بثلاثة آلآف فارس يريد الاشتباك بهم اثناء العبور وهم مختلو الصفوف مبعثرون. فوجد امامه جداراً هائلاً محكماً من التروس يزحف من الماء تتبعه الخيالة في اتمّ نظام. فما كان منه إلاّ أن اصدر أمره لقوته بالتجمع والتقارب في كتلة واحدة

وسار في الطليعة مهاجماً وهو بارزٌ للعيان بدروعه الفاخرة الجميلة، ومراده أن يكون معلوماً بأن شهرته لاتفوق ما هو قادر عليه من بطولات. ولم تمنعُه مشاركته الفعلية في القتال وهو مكشوف اليدين والجسم يصدّ عنه كل من يتصّدى له ببسالة، من قيادة المعركة بذهن وقاّد ، وحنكة لا يعتريها وهن وحضور بديهة لاتبارى كأنما هو خارج الميدان يراقب المعركة عن كثب ولم يثبت في موقع وكنت تراه يتنقل من نقطة اشتباك الى اخرى ليشد ازر من يحتاج الى عون ازاء ضغط العدوّ. وفي غضون ذلك لاحظ (ليوناتوس Leonatus) المقدوني أحدَ الطليان يتعقب (پيروس) في روحاته وغدواته كأنه اتبع له من ظلّه، وعيناه لاتريمان عنه، فنبّه (پيروس) اليه قائلاً:

- اترى يا مولاي ذلك البربريَ بحصانه الأسحم ذي القوائم البيض؟ يخيل لي انه يضمر شراً خطيراً لأنه لم يحول بصره عنك ولم يدعك تغيب عن رقابته كأن ليس في الدنيا غيرك يهتم به فكن منه على حذر يا سيدّي.

فأجاب (پيروس): لعمرك يا ليوناتوس، ان حكم القدر لا مناص منه، وما كتب للمرء سيلقاه حتماً. إنما كن على ثقة بان لا يظفر مني احد بطائل في حومة الوغى، لا هذا الإيطالي ولا غيره.

وفيما هما يتحدثان، الوى الايطالي بجواده فجأة نحو (پيروس) و صوب رمحه اليه وهاجمه فغاض سنان الرمح في احشاء جواد (پيروس) في الوقت الذي اخترق رمح (ليوناتوس) جسم جواد المهاجم فسقطا ميتين، واحاط رجال (پيروس) به وفتكوا بالايطالي بعد دفاع مجيد عن نفسه. وكان من الضباط الكبار وهو من (فرنتانيا Frentania) ويدعى (أوپالشوس Opalcus).

هذا ما جعل (پيروس) يلتزم جانب الحذر. ولما وجد خيالته أعجز عن صَدّ الرومان، وقد انكفأت الى الخلف لشدة ضغط العدو قدّم مشاته الى زخم المعركة وتبادل شكة سلاحه ووشاحه مع (ميغاكليس) احد اصدقائه، متنكراً بها وهاجم الرومان فقابلوه واشتبكوا معاً. ومر وقت طويل دون ان يسفر القتال عن نتيجة وقيل أنه أحصي سبع حركات كرٌ وفر في خط القتال. كان استبداله سلاحه عاملاً هاماً في سلامته، إلاّ انه كاد يكون سبباً في الهزيمة وافلات النصر من يده. فقد حمل كثير من المقاتلين على (ميغاكليس) باعتباره (پيروس) وكان المدعوّ (دكسوس Dexous) اول من حماه بجرحه المميت، ثم عمد الى نزع خوذته ووشاحه وطار مسرعاً الى (ليڤينوس) يلوّح بهما صارخاً انه فتك (بپيروس). فطيف بالأسلاب على سائر الجنود الرومان فجنوا فرحاً وراحوا يهتفون ويزعقون غبطةً. في حين تفشى الرعب في الاغريق

وخارت عزائمهم حتى ادرك (پيروس) حقيقة الأمر فأسرع بجواده يخترق صفوف جيشه مكشوف الوجه رافع اليد معرّفاً اياهم بسلامته. أخيراً بدأت الفيلة تعمل عملها المدمّر في صفوف الرومان وتوقع بهم الخسائر اذ كانت خيلهم تجفل منها قبل الدنوّ فتنكص على اعقابها براكبيها. وهنا اصدر (پيروس) أمراً بهجوم الخيالة الثساليين على مؤخرة المتقهقرين والحق بهم هزيمة نكراء وكبدّهم خسائر فادحة. ويؤكد (ديونيسيوس) أن قتلى الرومان في تلك الوقعة بلغ خمسة عشر الفاً. اما (هيرنيموس) فلا يرفع العدد الى اكثر من سبعة الآف. هذا ويذكر اولهما أن پيروس خسر ثلاثة عشر ألف قتيل، ويقدر ثانيهما ان خسائره لم ترتفع الى اربعة آلاف، إلاّ أن خسارته كانت لاتقدّر لانه فقد زهرة رجاله واعزّ اصدقائه فضلاً عن مجموعة من الضباط المحنكين كان قد وضع فيهم كل ثقته واعتمد عليهم اعتماداً تاماً. وعلى اية حال فقد تمكن من الاستيلاء على المعسكر الروماني الذي أخلوه منسحبين. ووضع يده على عدة مدن حليفة، واوقع نهباً في كل الاقاليم المجاورة. وواصل تقدمه حتى بات وهو لا يبعد عن العاصمة روما غير ثلاثين وخمسة اميال. وعلى اثر هذه المعركة انضمت اليه قوات اللوقانيّين والسامينيين المتخلفة. ولم يخلصوا من تأنيبه لتأخرهم عن اللحاق به. على انه كان طيب النفس منشرح الخاطر مرتفع المعنويات لما اصاب من نصرٍ عظيم على الجيش الروماني اللجب، بمعونة (التارنتيين) فحسب.

لم يقدم الرومان على عزل (ليفينوس) من منصب القنصل. وقد ذُكر ان (كايّوس فابريشيوس) قال: «ان الايپروسيين لم يهزموا الرومان، وانما (پيروس) هزم (ليفينوس)» معرضاً بان خسارتهم المعركة، ليس سببها تجردهم افتقارهم الى الشجاعة والاقدام، بل لسوء القيادة. على انهم سدواً النقص في ملاك كتائبهم بطرفة عين، وجندوا عدداً كبيراً من الرجال، ولم تهن عزائمهم ولم نقل حماسة حديثهم عن الحرب. وهذا ما ملأ (پيروس) دهشةً وعجباً. وجعله يعاود جسّ بنض الرومان لعلهم يميلون الى المهادنة والصلح. فقد رأى أن لا قبل له قطّ بالاستيلاء على المدينة ونيل ظفر حاسم بجيش صغير كالجيش الذي يقوده. كذلك قدّر أن طلبه الصلح والصداقة بعد النصر الذي جازه هو أمر مشرف ينطوي على كرم نفسٍ. فبعث برسوله (كينياس) وحمّله عدة هدايا لزعماء الرومان وزوجاتهم، فأبوا جميعاً قبولها واجابوا رجالاً ونساءً إنهم مستعدون لارضاء الملك اذا ما تمّ عقد الصلح بصورة رسميّة. وراح (كينياس) يناقش مجلس الشيوخ متوسلاً بكل ما يملك من بلاغة وقوة عارضة، فلم يفلح معهم ولم يظفر بطائل منهم رغم ان (پيروس) عرض عليهم مما عرض اعادة جميع اسرى المعركة من دون فدية. ووعد ان يساعدهم في فتح سائر ابطاليا، ولم يطلب لنفسه لقاء ذلك غير صداقتهم، والأمن

والسلامة للتارنتيين. وعلى اية حال ظهر في البدء ميل من الاغلبية الى قبول الشروط وعقد الصلح بعد الهزيمة النكراء، ولخوفهم من هزيمة تالية على يد الطليان الذين انضموا الى (پيروس) الآن. وكان يوجد في روما رجل رفيع المقام يدعى (اپيوس كلوديوس)، اعتزل متاعب الحياة السياسية لتقدمه في السن وفقدان بصره. فلما تناهى اليه خبر مقترحات الملك وعلم باستعداد مجلس الشيوخ للتصويت على قبول الصلح المعروضة ثارت نفسه ولم يسعه الصمت والبقاء، فأمر خدمه بحمله على كرسي الى قاعة مجلس الشيوخ فساروا به مخترقين الفورم وعندما انزلوه عند باب المجلس هرع اليه ابناؤه واختانه واسندوه بأذرعتهم وحفّوا به وعاونوه الى الوصول الى الاجتماع. فسادسكون عام حال دخوله احتراماً لمقامه ومنزلته، ثم تحامل على نفسه ونهض والقى الكلمة الآتية:

«كنت حتى هذه الساعة دائم الشكوى والبثّ لحرماني بصري، وانه ليحزنني الآن ان لاّ اكون أصمّ فوق عماي هذا بعد سماعي القرارات غير المشرفة التي اتخذتموها بخصوص عقد الصلح. تلك القرارات التي سيكون من شأنها هدم مجدروما. اتراكم نسيتم قولكم الذي طبق آفاق الدنيا وسار مثلاً تتحدث به الركبان: «لو أن الاسكندر الكبير نزل برّ ايطاليا، واقدم على حربنا ونحن في عنفوان شبابنا واباؤنا في عز رجولتهم، لما كانت له تلك الشهرة التي يتمتع بها اليوم، ولا لقب القائد الذي لايغلب، بل كان سيواجه هنا أحد الأمرين: الهزيمة، أو لفظ أنفاسه هنا، وكلاهما مجدٌ زائد لروما»؟ انتم الآن تكشفون عن سخفٍ وحمق ليس إلاّ، بادعائكم الخوف من (المولوسيين) و(الخاونيين Chaonians) الذين كانوا دوماً فريسة سهلة للمقدونيين، وبرهبتكم من (پيروس) الذي لم يكن إلاّ خادماً وضيعاً لأحد حراس (الاسكندر) الخاصّين، قدم هذه البلاد متظاهراً بمساعدة الاغريق الذين يسكنون بيننا، في حين كان بريد الفرار من اعدائه في وطنه. شريد طريدٌ يجول في ايطاليا ومع هذا يتجرأ فيعدكم بفتحها بذلك الجيش الصغير الذي عجز عن الاحتفاظ لقائده بذلك الجزء الصغير من (مقدونيا) فاياكم وأقناع انفسكم بأن صداقته ومصالحته هما السبيل الوحيدة لاعادته من حيث أتى. ان هذه الوسيلة هي بالأحرى تمهيد وتشجيع لقدوم غزاة آخرين من هناك، يدفعهم اليكم استصغارهم لشانكم، واستسهال أمر اخضاعكم. هذا ما سيؤول اليه أمركم إن سَلِمُ (پيروس) من العقاب على عدوانه، وخرج بغنيمةٍ لمساعدته (التارنتيين والسامنيين) في الضحك على ذقون الرومان!».

بعد أن فرغ (ابيرس) من كلامه. سرت الحماسة للحرب في كل النفوس، وصُرف (كينيلس) بالردّ التالي: «سيتفاوض الرومان مع (پيروس) في عقد ميثاق صداقة وتحالف إن شاء، عندما يسحب قواته من ايطاليا. اما اذا اختار البقاء بسلاحه وجيشه، فهم عازمون على مواصلة الحرب ضده بكلّ مالديهم من قوة، وإن حالفه الحظّ بالتغلب على ألف (ليڤينوس)». ولقد قيل أن (كينياس) ابدى اهتماماً كبيراً بدراسة اخلاق الرومان وعاداتهم درساً دقيقاً، وبتفهم اساليب ادارتهم شؤون الدولة والحكم اثناء قيامه بسفارته. كما انه أجرى احاديث عديدة مع ارقى طبقات مواطنيهم. وذكر (لپيروس) مما ذكر أن مجلس الشيوخ بدا في نظره اشبه بمجلس ملوك. واما عن عامة الشعب فقال أنهم سيقاتلون قتالاً شبيهاً بقتال الهيدرا (اليرنْويا Lernœa). فقد اكمل القنصل تعبئة جيش يبلغ عدده ضعف الجيش الأول. وهنالك اضعاف اضعاف هذا العدد من الرومان القادرين على حمل السلاح.

ثم اقبل اليه (كايوس فابريشيوس) سفيراً موفداً من الرومان للمفاوضة حول استعادة اسرى المعركة. ووصفه (كينياس) بالرجل العالي المقام الحسن السمعة المستقيم الخلق والجنديّ الفاضل الذي لايملك من حطام الدنيا شيئاً. فاستقبله (پيروس) بلطف جمّ وحاول بصورة خصوصية اقناعه بقبول مقدار من الذهب لا لحمله على عملٍ سيء وانما كما دعاها (پيروس) على سبيل الإكرام وحسن الضيافة. ولما رفض (فابريشيوس) الهدية لم يلّح عليه. ولكنه قرر أن يصيبه بالدهشة ويفلّ من غراب عزيمته في اليوم التالي. فلعلمه بأنه لم يرَ فيلاً في حياته أمر بواحدٍ من اضخمها فجيء به وهو كامل الدروع والتسليح ووُضع خلف السجف بينما هما يتبادلان الحديث. وباشارة منه نحي السجف جانباً وظهر رافعاً خرطومه فوق رأس (فابريشيوس) واطلق صيحة قبيحة منفرة، فأدار هذا رأسه بكلّ هدوء ووقار وقال لپيروس باسماً: لن يكون لأموال الامس، ولا لمفاخرة اليوم اي تأثير عليّ!

وكان ابرز مادار الحديث حوله عند العشاء، بلاد اليونان وفلاسفتها. وصادف أن انفسح المجال لكينياس للكلام عن (ابيقور Epicurus) ولشرح اراء تباعه حول الآلهة، والجمهورية، وغاية الحياة، وكيف أنه يجعل سعادة البشر الرئيسة في اللذة، ويصرف النظر عن الاهتمام بالشؤون العامة لكونها تحقيراً واهانةً للحياة الرغدة، وينزّه الآلهة عن اي احساس بالعطف أو الغضب او الاهتمام بنا بأيّ شكل كان، ويرفعها الى حياة عاطلة حافلة بالملاذ والشهوات. وقبل ان ينتهي (كينياس) من حديثه هذا قاطعه (فابريشيوس) قائلاً بلهجة دعاء:

- اذن اضرع اليك يا هرقل؟ ان تدع (پيروس) والسامنيين يتمسكون بهذه الفكرة طوال ما هم في حرب معنا.

وادهشت (بيروس) حكمة الرجل ورزانته، وازداد رغبة في عقد صلح مع الرومان ونبذ الحرب ورجامنه شخصياً أن يقبل العيش معه في بلاده بمنصب رئيس وزرائه وكبير قواده، بعد احلال السلم، فأجاب (فابريشيوس) بكلّ وقار:

- لن يعود ذلك عليك بفائدة يا سيدّي، فإن اولئك الذين يجلونّك ويعجبون بك سيفضلون حكمي لهم على حكمك عندما يجربونني.

هكذا كان (فابريشيوس)! واصغى (بيروس) الى جوابه هذا دون ان يعتريه غضبٌ او تنتابه سورة من سورات الحدة التي تنتاب الطغاة عادة. وظلّ يمتدح (فابريشيوس) ويثني عليه بين اصدقائه ومقربيه ويكبر فيه العقل والذكاء. وعهد اليه وحده بالأسرى على ان يعودوا الى آسريهم بعد زيارة اقربائهم واصدقائهم والاحتفال بعيد زحل - في حالة رفض مجلس الشيوخ الموافقة على الصلح، فتمّت اعادتهم بعد انقضاء العيد اذ فرض على كل متخلف عقوبة الموت.

بعد أن نصب (فابريشيوس) قنصلاً جاءه الى المعسكر رجل بخطاب من كبير اطباء الملك (بيروس) يعرض فيه أن يتولى القضاء على حياة سيده بالسمّ لقاء مكافأة مناسبة للعمل، فتنتهي الحرب ويزول الخطر عن الرومان. وكان (فابريشيوس) يكره النذالة فحمل القنصل الثاني زميله على أن يرسلا خطاباً الى (بيروس) على الفور لتحذيره من الغدر والخيانة وهذا هو فحواه:

«من (كايوس فابريشيوس)، و(كوينتوس إميليوس) القنصلين «الرومانيين الى (بيروس) الملك تحيةً وصحةً:

- يبدو انك اسأت الحكم بخصوص اصدقائك واعدائك على السواء؛ وستفهم بعد قراءة الخطاب الذي وُجه الينا وارسلناه الآن اليك، بانك الآن تخوض حرباً مع أناس شرفاء ذوي استقامة، وتثق باوغادٍ وحثالات. ونحن لا ننهي اليك بهذا اطلابا لمنة منك، وانما لئلا يتسبب ذهاب حياتك في لومنا، كأننا نحن الذين انهينا الحرب بالغدر والخديعة لعجزنا عن انهائها بالقوّة والحرب».

ما أن قرأ (بيروس) الرسالة حتى باشر التحقيق في المؤامرة وانزل العقاب بالطبيب. واطلق اسرى الرومان دون فديةٍ اعترافاً بجميلهم. وارسل (كينياس) ثانية للمفاوضة عنه في الصلح. على ان الرومان عدوا اطلاق اسراهم دون فدية منّةً عظيمة جداً من عدوٍ، وجزاءً ضخماً لامتناع عن القيام بعمل وضيع شرير، فبادروا في الحال الى اطلاق عدد مساوٍ من اسرى التارنتيين

والسـامنيين. إلاّ انهم رفـضوا فـتح باب المفاوضـة في السّلام وفي التـحـالف إلاّ اذا سـحب (پيروس) قواته واسلحته من ارض ايطاليا واقلع الى (ابپيروس) بالسفن التي حملته اليها.

وانتهت الأمور بعد هذا الى وجوب خوض (پيروس) قتالاً آخر فبعد أن اصاب جنوده الراحة المنشودة، رفع معسكره وواجه الرومان بالقرب من مدينة (اسقلوم Asclum). فوجد صعاباً كثيرةً في تلك الأراضي الشّجراء التي لاتصلح لحركة الخيالة، وفي النهر القريب السريع المجرى. ولم تستطع الفيلة متابعة حركة المشاة لضيق رقعة الأرض. وبعد أن وقع كثير من القتلى والجرحى وضع الليل حداً للقتال، وفي اليوم التالي قرر (پيروس) تحويل ميدان القتال الى أرض متطامنة، واطلاق الفيلة الى مراكز احتشاد العدوّ فأمر وحدة من قواته بالسيطرة على تلك الأراضي الوعثاء التي جرت فوقها معركة أمس. وخلط حملة القسّي برماة المقاليع وزجهم بين الفيلة وتقدم بعزم شديد وصلابة، وبتشكيلة منضمّة على ابدع ترتيب. ولم يكن الرومان يملكون مزيّة الكرّ والفرّ في مواقعهم حسب ارادتهم ومتى ما شاؤوا مثل يوم امس، وارغموا على القتال الآحادي في ارض مستوية. وكانوا شديدي الاستعجال في ارغام مشاة العدو على التقهقر قبل أن تخفّ الفيلة لعونهم فراحوا يقاتلون بسيوفهم قتال المستميت امام رماح المقدونيين مسترخصين مهجهم غير مفكرين بغير القتل والطعن، دون ان يكترثوا بما يصيبهم وبعد قتال طويل عنيد، قيل أن اوّل من تزحزح من مواقعه هي الوحدات التي كان يقاتلها (پيروس) بشجاعة معدومة النظير. على أن تقهقرهم كان يعزى الى اندفاع الفيلة أساساً، فقد كانت قوتها كاسحة لم تجد معها بسالتهم وذكر انه كان أشبه بثورة البحر او بزلزال ارضيّ بحيث وجدوا ان الإنسحاب والحالة هذه – هو افضل من الموت بلاداع او فائدة واجدى من معاناة الأهوال والشدائد. وهكذا تراجعوا الى معسكرهم القريب. ويقول (هيرنيموس) انه سقط من الرومان ستة آلاف قتيل. وتشير مذكرات (پيروس) الشخصية، الى أن خسارته بلغت ثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسين قتيلاً. على ان (ديونيسيوس) لايورد تفاصيل ما عن المعركتين التي وقعتا بالقرب من (اسقلوم) ولا بصورة جازمة أن الدائرة دارت على الرومان فيهما. وكل مايذكره هو أنهما اشتبكا مرة واحدة حتى مغرب الشمس ثم ارغمهما الليل على الافتكاك كارهين. وأن (پيروس) أصيب بطعنة رمح في عضده. وأن (السامنيين) نهبوا اثقال (پيروس) وان مجموع القتلى من الجانبين يزيد على (١٥) ألفاً.

وتباعد الجيشان. وقيل أن (پيروس) اجاب على تهنئة احدهم بالنصر قائلاً: ان نصراً آخر مثل هذا سيقضي عليه القضاء المبرم! وقوله هذا يشير الى الخسارة الفادحة التي اصابته بقواته وفقده كل اصدقائه المقربين، وكبار ضباطه تقريباً. وعدم وجود من يسدّ مسدّهم. كما

رأى حلفاءه الطليان يتخلفون عنه في حين امتلأ معسكر الرومان حالاً برجال جدد. ولم تفتر عزائمهم قط ولم تثبط من شجاعتهم الخسائر التي حاقت بهم، وانما كسبوا من حنقهم هذا قوة جديدة ومعنوية لمواصلة الحرب.

وفي خضم هذه المتاعب وقع (بيروس) على آمال جديدة وانصرف الى مشاريع أخرى استأثرت باهتمامه. فقد قدم في تلك الفترة وفد من صقلية يعرض عليه مدن (اكرگنتوم) و(سيراقوسة) و(ليونيتي). ويطلب منه العون على طرد القرطاجنيين وانقاذ الجزيرة من حكم الطغاة، وجاء آخرون بانباء من اليونان تشير الى أن (بطليموس) الملقب (كيرانوس Cera-nus) قد قتل في معركة مع الغاليين وتمزق جيشه شرّ ممزق وان الوقت قد حان بشكل لامثيل له، لعرض نفسه على المقدونيين الذين باتوا بحاجة ماسة الى أمير. فراح يشكو من شذوذ الحظّ مرّ الشكوى لوضعه امامه فرصاً كثيرة لاشياء عظيمة في أن واحد. ولتفكيره بأن اضطلاعه بواحدة قد يحرمه من الثانية، اخذ يزن الأمور في ذهنه بكثير من القلق والشكّ. على انه وجد قضية صقلية احفاها بالاهتمام لما فيها من خير وما تتضمن من مشاريع عظيمة، لقرب افريقيا منها، فبادر الى ارسال (كينياس) كما كانت عادته. لعقد معاهدات مع المدن قبل القدوم اليها. ثم وضع حامية في (تارنتوم) خلافاً لرغبة اهلها الذين كانوا يريدون منه اما انجاز ما جاء لأجله ومواصلة الحرب معهم إما ترك المدينة كما وجدها. فلم يظفروا بجواب مرضٍ منه وانما أمرهم بالمحافظة على السكون وانتظار عودته ثم اقلع. ووصل صقلية ووجد الأمور فيها طبق ما اشتهتها نفسه واقرتها آماله، واستسلمت له المدن بكلّ رغبة. ولم يلق مقاومة كبيرة في المواضع التي كان يضطر إلى استعمال القوة فيها. فقد زحف بجيش قوامه ثلاثون ألف راجل والفان وخمسمائة فارس واسطول يبلغ تعداده مائتي سفينة وهزم الفنيقيين هزيمة ساحقة واجتاح كل الأقاليم الذي كانوا يسيطرون عليه. وكانت (ابريكس Eryx) أقوى المدن عندهم وامنعها بالحامية الكبيرة التي وضعوها فيها فعزم على فتحها عنوةً. ونهيأ الجيش للهجوم عليها وتقلد هو شكة سلاحه وبرز في طليعة قواته ونذر ومسرحيات وقرابين لهرقل اذا ما ابدى بطولة وحقق مأثرة في ذلك اليوم امام الاغريق الذين يعيشون في الجزيرة مما يليق بشرف محتده وحسن طالعه واعطي أمر الهجوم بنفير البوق وفرق البرابرة اشتاتاً بما قذفهم من الرماة ثم وضع السلالم على السور وكان أول الصاعدين اليه وظهر العدو باعداد كبيرة فدفع بهم الى الخلف والقى ببعضهم من اعلى السور عن الجانبين. وصرع بحد سيفه آخرين فتكدسوا حوله جثثا هامدة. ولم يصب بأقل خدش، ولهذا تعاظم رعب العدو منه. ولقد برهن بأوضح دليل على أن (هوميرس) كان مصيباً. ولم ينطق الاّ بالحق

الصُراح حين قال: من دون كل الفضائل البشرية، يظهر الاقدام والعزم عادة في ساحة الأنجذاب الإلهي والانخطاف الربّاني. وبعد أن تم له الاستيلاء على المدينة، او في بنذوره لهرقل فقدم اعظم القرابين، وامر باقامة مختلف الألعاب والتمثيل المرسحي.

وكان يعيش الى جوار (مسينا) قوم من البرابرة يطلق عليهم إسم الـ(ماميريين Mamer-ites)، هؤلاء كانوا نكدا لحياة الاغريق هناك، ولم يدعوهم في راحة واخضعوا اعداداً كبيرة منهم للأتاوة. وكانوا كثيري العدد ذوي بأسٍ واقدام (ومن هذه الصفة جاء اسمهم، ومرادفه في اللغة اللاتينية معناه «المحاربون»)(*). فعمد (پيروس) الى القبض على جباة اموال الأتاوة هؤلاء وفتك بهم ثم هزمهم في موقعةٍ حربية ودك عدداً كبيراً من قلاعهم وتحكيماتهم. ولم ير القرطاجنيون بداً من مهادنته، وعرضوا عليه مبلغاً محدداً من المال الى جانب امداده بالسفن التي يحتاجها لقاء رضاه بعقد صلح، فأجابهم بكلّ وضوح وهو مازال ثملاً بآماله العظيمة المقبلة – ان ثم سبيلاً واحداً لا ثاني له الى الصداقة والتفاهم الحقيقي فيما بينهما، هو الجلاء التام عن صقلية والموافقة على جعل البحر الافريقي الحدود الفاصلة بينهم وبين الأغريق. وغرّه حسن خطّه كثيراً وزاده جبروتاً اعتزازه بقواته الجرارة. فجعل هدفه المباشر افريقيا وراء تلك الآمال التي حملته الى القدوم هنا. وكان يملك عدداً كبيراً من السفن الاّ انها ناقصة العدّة جداً فأخذ يجمع لها البحارة لا بأسلوب رقيق عادل مع المدن وانما باستخدام القوة الغاشمة والتحكم المستبد وتحت التهديد بانزال العقاب. ولما كانت معاملته للمدن قد امتازت في باديء الأمر بلطفٍ ورقة لا مزيد عليهما واستعداد للتفاهم ولين المعاملة مع الكلّ. فاذا بالزعيم الشعبي ينقلب الى طاغية مستبدٍ بتلك الاجراءات الصارمة وينعت بالغادر وناكر الجميل. ومهما يكن من امرٍ فقد تغاضوا عن هذه الأمور وقبلوا بها على مضضٍ كضرورة، وحقدوا عليه بصورة خاصة عندما بدأ يظهر شكه بـ(ثونون Thœnon) و(سوسيستراتوس Sosistratus) وهما ابرز رجلين في صقلية، وكانا صاحبي الدعوة له الى الجزيرة، ومسلمي المدن اليه عند قدومه وساعده الأيمن وعونه الاكبر في كل ما فعله منذ وصوله والآن ماعادا يستطيعان ان يكونا بقربه ولا ان يحتملا التغربّ بترك بلادهما. ثم انه لما انسحب (سوسيستراتوس) خوفاً منه، ولما اتهم (ثونون) بالتآمر مع زميله ونفذ فيه حكم الموت، تبدلت احواله تبدلاً مفاجئاً شاملاً لا تدريجياً ولا موضعياً. فقد تصاعد كرهه في المدن الى حَدّ لا مزيد عليه. وانثنى بعضها يناشد القرطاجنيين العون، واستنجد بعضها بالماميريين، ولحظ

(*) كلمة «ماميـر Mamer» هي الشكل القديم للفظة «مارس Mars»، والماميـريون اصلهم من المرتزقة الكامپانيين والاوسكانيين Oscans. وهم يتكلمون لهجة من اللهجات اللاتينية.

بيروس بوادر الثورة تعصف في كل ناحية، وتحسس شدة الرغبة في الانتقاض عليه والتكتل ضده. وفي تلك الاثناء وردته رسائل من (السامنيين والتارنتيين) الذين لحقت بهم عدة هزائم في ميادين القتال وعجزوا عن المحافظة على مدنهم في وجه صولات العدو - يطلبون منه العون بلجاجة واستماتة، فاتخذ من ذلك حجّة وغطاءً لتركه (صقلية)، لا هارباً او يائساً من تحقيق نجاح جيد، بل لعجزه في الواقع عن معالجة الموقف العصيب في الجزيرة التي كانت اشبه بالسفينة المكافحة في لجّة. اراد أن يتركها فالقى بنفسه على ايطاليا. وقيل أنه التفت الى الجزيرة قبيل ركوبه البحر وقال لمن يحيط به - يا له من ميدان قتال فسيح سنتركه ايها الاصدقاء للرومان والقرطاجنيين يصطرعون فيه.

وصدق ظنّه وتحقق ما تكهن به بعد فترة وجيزة من الزمن. وتحالف البرابرة ضدّه وهو في عرض البحر، وأرغم على قتال القرطاجنيين في الماء وفقد عدداً كبيراً من سفنه وافلت بالباقي وهبط برّ ايطاليا. وكان يترصد قدومه الفُ محارب (ماميري) عبروا البحر قبله وكمنوا له في شعب جبليّ وعرٍ، لخوفهم من قتاله في ارض منبسطة، واوقعوا الفوض في صفوف جيشه، وصرعوا فيلين من فيلته وفتكوا بجزء كبير من الساقة. وعندها برز اليهم بشخصه وهزمهم، بعد ان استهدف لخطر عظيم من رجال كهؤلاء، رضعوا لبان الحرب صغاراً وتعودوا الاقدام والاستماتة فيها: فقد اصيب بجرح سيف في رأسه فانسحب من القتال فترةً، وهذا ما رفع من ثقة العدوّ بنفسه، وبرز احدهم مبتعداً مسافة عن أصحابه وراح ينادي (بيروس) نداء الغطريس المعتد بنفسه ويتحداه ان يخرج اليه اذا كان حياً. واخذ يخطر متباهياً بضخامة جرمه وبريق دروعه، فاخذت (بيروس) سورة من الغضب الجائح واندفع من بين حرسه كالوحش الهائج يشق طريقه الى متحديه بين جنوده والدماء تلطخ جسمه حتى بدا منظره مرعباً. ومادنامنه حتى عاجله بضربة سيف صاعقة على أم رأسه فنزل حد السيف فيه وشقه نصفين فكانت دليلاً على متانة حديد السلاح وقوة الساعد الذي هوى به، وبهذا اوقف اندفاع البرابرة، فقد صعقوا رهبةً وفرقاً وحكموا بأنه ليس من طينة البشر.

ثم واصل تقدمه من دون عائق وبلغ تارنتوم بعشرين ألف راجل وثلاثة آلاف فارس، عززها بنخبة ممتازة من المحاربين التارنتيين وتقدم فوراً من الرومان وكانوا معسكرين في ارض (السامنيين). فوجد هؤلاء يعانون الأمرين، من النكبات التي حلت بهم. حطمت معنويات قناصلهم كثرة الهزائم التي الحقها الرومان بهم، وامتلأت نفوسهم سخطاً وحنقاً على (بيروس) بسبب حملته الصقليّة، ولذلك لم يلتحق بجيشه الاّ عدد قليل منهم.

وقسم قواته الى قسمين ارسل احدهما الى (الوكانيا) لمناوشة القنصل المعسكر هناك، ومنعه

من الانتقال الى ميدان القتال لمساعدة زميله، وسار بالقسم الثاني يريد القنصل الروماني (مانيوس كيوريوس) الذي كان قد اختار لقواته افضل المواقع بالقرب من (بنفيتوم -Bene ventum) منتظراً انضمام قوات القنصل الثاني اليه، لأن الكهنة كانوا قد حذروه بما شاهدوا من العلامات النحسة، فقرر بناء على ذلك ان يبقى بلاحراك في مواقعه. فأسرع (پيروس) الى الانقضاض عليهم بخيرة رجاله واحسن فيلته، قبل ان تدركهم النجدة من القنصل الآخر. وزحف على معسكرهم في دجنة الليل، واضطر الى الدوران بقواته مخترقاً ارضاً كثيره الشجر، ولم يفدهم ضياؤهم فضلوا الطريق. فأمر (پيروس) بعقد مجلس حربٍ. وانقضى الليل وهم يتناقشون. وعند انفلاق الصبح لمحهم العدو في اثناء انحدارهم من المرتفعات. فقامت ضجة كبيرة في معسكر الرومان وساده الاضطراب الشديد. على ان القرابين التي قدمت اشارت الى نتائج طيبة، كما ان الزمن أملى عليهم قبول المعركة. ولهذا أخرج (مانيْوس) قطعاته من مواقعها الحصينة وهاجم طلائع قوات العدو فهزمها جميعاً. واوقع سائر جيش العدو في مأزق شديد الحراجة وقضى على عدد كبير من الجنود وأسر بعض الفيلة. وجرَّ هذا النجاح قوات (مانيوس) الى السهل المنبسط، وفيه نشبت معركة طاحنة اسفرت عن هزيمة جانبٍ من قوات العدوّ. لكنه وجد الفيلة تضغط على صفوفه ضغطاً شديداً وتنال منها، فاضطر الى سحب جميع قواته المهاجمة الى خنادقهم. واصدر أمراً للقطعات التي كانت قد تخلفت فيها بالانتفاض والقيام على حراستها والدفاع عنها، وكانت تتألف من قوة كبيرة تقف وراء التحصينات والموانع شاكية السلاح بصفوف كثيفة لايشكون تعباً. خرج هؤلاء من مواضعهم الحصينة وهاجموا الفيلة المتقدمة وارغموها على الانكفاء فدارت على اصحابها واحدثت أثناء ادبارها فوضى عظيمة واضطراباً شاملاً. واقبل النصر على الرومان ضامناً لهم التفوق في المستقبل. اذ ان المعارك التي كسبوها والمجهودات التي بذلوها بثت في نفوسهم شعور السؤدد والمنعة، وبهذا الشعور ماعتموا أن اخضعوا كل ايطاليا ثم ابسطوا سلطانهم على صقلية بعد زمن وجيز.

هكذا خابت آمال (پيروس) في ايطاليا وصقلية بعد ستّة أعوام من الحروب. ولم يفقده فشلُه اعتدادَه بنفسه، ولم ينل من عزمه وبسالته فتيلاً كل النوائب التي انصبت عليه. وبقي المفرد العلم بين كل امراء عصره وملوكه سواء في فنّ القيادة او في شجاعته الشخصية. الاّ انه كان يفقد بآماله الفاشلة الزائلة كلّ ما يكسبه في معاركهُ الفذة وبطولاته الرائعة، ويخسر كل ما يملكه بالسعي وراء تحقيق رغبات جديدة. واعتاد (انتيغونس) تشبيهه بلاعب زهر النّرد: يرمي رميات ممتازة، ولا يعرف كيف يستخدمها لصالحه.

عاد (پيروس) الى وطنه (ايپروس) بثمانية آلاف راجل وخمسمائة فارس لاغير، وهو مشغول البال بالبحث عن مغامرة عسكرية جديدة لافتقاره الى المال الضروري لدفع مرتبات الجنود والانفاق على الجيش. وانضمّ اليه بعض الغاليين، فأغار على مقدونيا وكان (أنتيغونس) ابن (ديمتريوس) ملكاً عليها. ولم يقصد من هذا غير النهب والسلب، لكن الأمال بدأت تداعب فخيلته في اغتنام مكاسب اعظم من مجرد الغنائم بعد اخضاعه عدداً من المدن والتحاق ألفين من المحاربين به. وباغت (انتيغونس) في شعب ضيق فاوقع الفوضى في جيشه. إلاّ ان الغاليين الذين كانوا ساقة الجيش صمدوا له وثبتوا، فحصل اشتباك عنيفٌ قضى فيه على القسم الاكبر منهم واستسلم له القائمون على الفيلة هم وحيواناتهم فركبه الطمع ورغب في استغلال حسن حظه واطرح جانب الرويّة والعقل، فانقض على القسم الرئيس من الجيش المقدوني بتهورٍ واندفاعٍ، وكان الخوف مستوليا على العدو ونالت الخسائر من قوته كثيراً، فاستنكفوا عن القتال معه. وهنا رفع (پيروس) ذراعه الى الأعلى وراح صوته منادياً كبار ضباط المقدونيين وصغارهم بأسمائهم فرداً فرداً، وبهذه الطريقة انحاز اليه كل مشاة (انتيغونس) فما كان من الملك المغلوب الا ان عمد الى الفرار متنكراً، وقد تجرد من ملكه خلا بعض المدن الساحلية.

وتبين (پيروس) ان ما حققه من نصر على الغاليين يفوق مجداً كل ما حباه به الحظّ. فاوقف أنفس غنائمهم وافخرها على معبد (مينرڤا) إيتونس Itonis وخلد عمله بالكتابة الآتية:

«ان (پيروس) المنحدر من نسل ملوك المولوسيين يتقدم اليك ايتها الربة الايتونية بهذه الدروع التي غنمهما من الغاليين الشجعان، عندما هرب (انتيغونس) وكل مقاتليه.. لقد كانت مآثر (الاكيدي) البطولية معروفة منذ القديم، وليس اليوم او البارحة!»

بعد هذا النصر الحربي، باشر پيروس في فتح المدن. فاستولى على (ايجي Ægae) وانزل فيها كثيراً من النوائب ووضع فيها حامية من الغاليين بعضهم من عسكره. ليشبع نهمهم الى الغصب وتملك الأموال، فبادروا الى نبش قبور الملوك المدفوفين في المدينة وسلبوا الغفائس التي قبرت معهم، واخرجوا العظام وبعثروها ولم يبدر من (پيروس) اي استنكار لهذا العمل وتغاض عنه اما لانشغاله في امور أخرى، او تعامى خوفاً مما قد يجره عقاب البرابرة من مضاعفات وعواقب. على أن المقدونيين كرهوا ذلك منه ونددّوا بتراخيه. وفي الوقت الذي لم تستقرّ به الأحوال ولم تستتب له الأمور بدأ ببني قصوراً من المشاريع ويعقد الآمال الجديدة. وعرّض ساخراً (بانتيغونس) ووصفه بالرجل الذي لا يستحي، لأنه ظلّ يلبس الارجوان، ولم

يستبدله بثياب الرجل الاعتيادي. ولما جاءه (كليونيموس Cleonymus) السپارطي وزين له الزحف على (لقيديمون) بادر بالموافقة. كان (كليونيموس) هذا، من نسل الملوك، لا يحظى في وطنه باي احترام او ثقة لميله الى الاستبداد والطغيان. وكان (اريوس Areus) وقتئذ ملكاً على البلاد. فانتهز (كليونيموس) الفرصة لأخذ ثأره واطفاء جذوة حقدة من نزاع قديم شهير مع المواطنين. وكان ايضاً قد تزوج وهو في اراذل العمر من سيدة صغيرة يجري في عروقها دم ملكي ذات جمال آسرٍ هي (خيلونيس Chilonis) بنت (ليوتيخيدس Leotychitedes)؛ ثم انها وقعت في حُبّ (اقروطاطوس Acrotatus) ابن (اريوس) الملك وهو شاب في معية الصبا. وهذا ما جعل زواج (كليونيموس) مضطرباً مخزياً، اذ لم يبق بين السپارطيين من يجهل مدى احتقار زوجه له. فانضمت مشكلته البيتية الى الحقد العام لتدفعه الى تحريض (پيروس) على دخول (سپارطا) فقدمها بجيش قوامه عشرون ألف راجل وألفان من الخيالة واربعة وعشرون فيلاً، وكشفت استعداداته الكبيرة بأن نيته ليس انتزاع العرش (لكليونيموس) بل لإخضاع كلّ الپيلوپونيسوس الى سلطانه. ولكنه أنكر الأمر انكاراً صريحاً عندما سأله سفراء (لقيديمون) الذين اعترضوه في (ميغالوپوليس) فأكد لهم انه ما جاء إلاّ لانقاذ المدن من استبداد (انتيغونس) وذكر لهم على سبيل المجاراة بأنه سيرسل صغار ابنائه الى (سپارطا) ليربّوا على الحياة السپارطية عندما يحين الوقت، ليكونوا افضل نشأة من سائر ابناء الملوك. بامثال هذه المزاعم كان يبدّد قلق من يلقاه في زحفه ويطيب الخواطر حتى اذا دخل (لاقونيا) بدأ يعيث في البلاد نهباً، ويجردها من خيراتها. ولما احتجّ السفراء على مباشرته في الحرب قبل اعلانها لهم اجاب قائلاً:

- نحن نعرف عنكم ايها السپارطيون أنكم لاتتكلمون مسبقاً عن امرٍ نويتم القيام به.

فانبرى (ماندروقليداس Mandroclidas) أحد السپارطيين الحاضرين وقال برطانته السپارطية الغليظة:

- إن كنتَ انتَ إلهاً، فلا يسعك ان تلحق بنا أذىً لأننا لم نخطيء بحق بشرٍ، ولم نؤذ احداً. وان كنتَ بشرا فثمّ من هو أقوى منك.

وتوجه الى (لقيديمون) مباشرةً ونصحه (كليونيموس) باستعجال الهجوم حال وصوله خشية أن يسبب دخول الجنود المدينة ليلاً، النهب والسلب على حَدّ قوله. فاجاب (پيروس) انه يفضلّ الهجوم في الصباح الباكر، لأن حامية المدينة قليلة العدد وجنودها في غفلة عن زحفه المفاجيء، (وآريوس) غائب عن المدينة فقد رحل الى كريت لنجدة الگورتينين. فكان ارجاؤه الهجوم سبب انقاذ المدينة؛ لقد استهان بدفاعها ومناعتها وخيل له انه لن يلقي مقاومة مهما

كانت من أهلها ايّ وقت هاجمها. فعسكر أمامها طول الليل. وكان انصار (كليونيموس) والهيلوت وخدم بيته قد استعدوا استعداداً عظيماً في منزله لاستقبال (پيروس) عند وقت العشاء. بينما عقد اهالي (لقيديمون) اجتماع شورى لبحث موضوع نقل النساء الى كريت بحراً. الاّ أن هذا الاقتراع رفض بالإجماع. ثم دخلت على المجتمعين (ارخيداميا Archida-mia) وهي ممسكة بسيفٍ وسألت باسم النساء جميعاً: هل يتوقع الرجال من النساء أن يرتضين العيش على انقاض سپارطا؟ ثم تقرر حفر خندق على هيئة خط مستقيم بين المدينة وبين معسكر العَدو. ودفن مركبات في قاعه حتى محاور عجلاتها وتثبيتها في امكنتها لتكون موانع لزحف الفيلة. وما أن باشر الرجال في ذلك حتى اقبلت النساء، العازبات منهنّ والمتزوجات (أولياتهن بارديتهنّ الوحيدة، واخيراتهن وقد شددن اثوابهنّ كالأنطقة تحت صُدُرهن) ورحن يساعدن كبار السنّ في حفر الخندق. أما الشبان الذين كانوا سيحاربون العدوّ فقد تركوا لراحتهم وقامت النساء عنهن بحفر ثلث الخندق المطلوب منهم انجازه.

وذكر (فيلارخوس Phylarchus) ان عرضه بلغ ستة كيوبيتات وعمقه أربعةً وطوله ثمانمائة قدم، على أنّ (هيرنيموس) يجعله أقلّ طولاً من هذا. وبدأ تحرك العدوّ عند فلق الصبح فجاءت النساء بالسلاح للشبان وعهدن اليهم بالدفاع عن الخندق والمحافظة عنه مهما كلّف الأمر. فمن حسن حظهم ان ينتصروا على مشهد من ابناء قومهم، أو أن ينالوا شرف الموت بين اذرعة امهاتهم وزوجاتهم وهو مجدُ خليق بالسپارطيين والحق يقال. اماّ (خيلونيوس) فقد رجعت الى دارها وفي عنقها حبلٌ بشكل الشرطة مشيرة بهذا الى تفضيلها الموت على الوقوع في يد (كيلونيموس) زوجها اذا قدر له دخول المدينة منتصراً.

واتقضّ (پيروس) على رأس مشاته يريد أن يشق طريقه عنوةً خلال ثغرة من تروس السپارطيين المتلاصقة في صفٍ منيع امامه، ثم عبور الخندق وكان عسيراً لأن عملية الحفر جعلت التربة هشة لا تتحمل ثقل اقدام الجنود. وخرج ابنه (بطليموس) على رأس ألفين من الغاليين ونخبة من المحاربين (الخاوينين) يروم الالتفاف حول الخندق، والوصول الى مواضع دفن المركبات لإخراجها. الاّ أن تثبيتها متقاربةً ودفنها الى عمق كبيرٍ عرقل مروره، كما ان دفاع اللقيديمونيين المستميت كان مصدر ازعاج كبير له. على أن الغاليين تمكنوا من انتشال المركبات وطفقوا يسحبونها نحو النهر. وهنا لاحظ (اقروطاطوس) الفتى مدى الخطر الذي سيتعرضون له بعد زوال هذه الموانع فخرج من المدينة على رأس ثلاثمائة من الجنود، وقام بحركة التفاف حول (بطليموس) دون ان يدري، مستفيداً من انحدار الارض ثم انقض على مؤخرته فارغمه على التقهقر، ودفع احدهما بالآخر الى الخندق واشتبكوا بين المركبات. اخيرا

انسحب العدوّ بعد أن مني بكثير من الخسائر ولاقى الأهوال. وأطلّ الشيوخ والنساء على (اقروطاطوس) وهو يعود مُنتصراً ليحتل مواقعه في المدينة، وهو مصطبغ بالدماء وحشيّ المظهر مستوفز الحركة، وبدا في انظار السپارطيات اطول قامةً وأجمل وجهاً وحسدن (خيلونيس) على هذا الحبيب اللائق. وتبعه بعض الرجال الكهول وهو يقولون له بصوت جهوري:

- واصل يا (اقروطاطوس) وكن سعيداً مع (خيلونيس) وانجب منها ابناء شجعان لسپارطا.

وزجّ (پيروس) نفسه في اشد مواطن القتال خطراً. وحارب كثير من السپارطيين باستماتة وبسالة خارقة ولاسيمّا (فيلليوس Phyllius) الذي تفرّد بما أبداه من شجاعة معدومة النظير وبفتكه بعدد كبير من المهاجمين. ولما وجد قواه تزايله وانه على وشك السقوط لكثرة ما اصابه من جراح اخذ يتراجع شيئا فشيئاً محتمياً برفيق له ثم خرّ على ركبته بين إخوانه الجنود كل ذلك لئلا يُحرز الاعداء جثته. وانتهى قتال ذلك اليوم. ورأى (پيروس) في الحلم انه يقذف (لقيديمون) بالصواعق فيشغل فيها النار، وبلغ به السرور للمشهد حداً انه استيقظ وهو مأخوذ به، وأمر ضباطه أن يكملوا استعدادهم لهجوم ثانٍ، وقص رؤياه على اصدقائه قائلاً أنه أمرٌ سماوي له بأخذ المدينة عنوةً وامن اتباعه على قوله وهم في غاية العجب. إلاّ (ليسيماخوس) فانه لم يكن مسروراً بها وابدى تخوفه من أن تصيب تلك الصواعق محلات العبادة التي يجب ان تكون مصونةً. ولهذا يرى أن الآلهة تريد أن تمنعه بصورة غير مباشرة عن محاولة اخذ المدينة، وانها لاتقرّ عزمه. فقال (پيروس) ان هذا تعليل سخيف، ورجم بالغيب يصلح لتندّر الدهماء، وانه على الجيش ان يجمعوا في راحات ايديهم قبضات سيوفهم ورأيهم معاً: «فهدف (پيروس) هو البشرى الوحيدة!»

ونهض وخرج الى جيشه فحشده امام الأسوار في صباح ذلك اليوم نفسه وامر بالهجوم، وابدى اللقيديمونيون دفاعاً باسلاً صامداً فاق كل ما أبدوه من قبل وكانت النسوة قريبات من خط القتال يساعدنهم في حمل سلاحهم ويأتين بالخبز والشراب لمن يحتاج منهم ويعنين بالجرحى. وحاول المقدونيون المهاجمون ردم الخندق وجاؤوا بمقادير كبير من الاتربة والقوها فوق الجثث والأسلحة المطروحة فطمردها. ولم تهن مقاومة اللقيديمونيين قط، وظهر (پيروس) على جناحهم مما يلي الخندق والمركبات الغارزة، منطلقاً نحو المدينة على صهوة حصانه. فصاح الرجال المتمركزون في تلك الجبهة واخذت النسوة يصرخن ويتراكضن، وپيروس يشق طريقه بعنفٍ ويُردي كل من يعترض سبيله، واصيبت بطن جواده بنبلة رشقه بها احد الكريتيين فقذف بپيروس الى الأرض وهو في تشنجات احتضاره فقد خرج في منزلق وساد الاضطراب من حوله

وشملتهم، الفوضى، واندفع السپارطيون الى امام واحسنوا استخدام مقذوفهم من السلاح فأجبروا العدو على التقهقر. وبعدها عمد (پيروس) الى وقف القتال في المواضع الأخرى متوهما بأن اللقيديمونيين باتوا على شفا الاستسلام اذ لم يبق بينهم من لم يصب بجرح واحدٍ على الأقل، فضلاً عن كثرة عدد القتلى منهم في ذلك اليوم، إلاّ ان آلهة حظّ المدينة، إمّا رضاءً منها على شجاعة المواطنين وتفانيهم، وإما لأنها ارادت انه تظهر مدى تأثير تدخلّها حتى في آخر مرحلةٍ واشدّها حراجةً، قررت ان تسرع الى نجدتهم وهم على الرمق الأخير ليس لديهم من أمل الاّ بصيص ضئيل، فارسلت اليهم (امينياس Aminias) الفيوكي أحد قواد (انتيغونس) من (كورنث) بقوات من المرتزقة، ثم ما ان وطئت اقدام هؤلاء ارض المدينة حتى وصلها (آريوس) الملك قادماً من (كريت) بألفين من المحاربين. وعندها قفلت النساء عائدات الى بيوتهنّ بعد ان انتفت ضرورة مشاركتهن في القتال. كذلك تمّ تسريح كل الذكور الذين دعت الحاجة الى تجنيدهم وهم دون سنّ الخدمة العسكرية. واستعد الباقون (لپيروس).

انه هذه النجدات التي عززت قوات المدينة ضاعفت من حماسة پيروس وثبت في نفسه المزيد من الطموح والرغبة في اخضاع المدينة بالقوة، عكس ما هو متوقع، الاّ أن آماله باءت بالفشل الذريع وراحت الخسائر تترى عليه يومياً. فاضطر الى رفع الحصار عن المدينة وانطلق بجيشه في ارجاء البلاد يعيث سلباً ونهباً. لكن القدر المحتوم كان له بالمرصاد. فقد حدث نزاعٌ خطير في (ارغوس) بين (ارسطياس) و(ارسطيپوس Aristippus) وهما زعيمان من سراة المدينة، فلما قررّ ثانيهما استغلال صداقته (لانتيغونس) باستقدامه، عمد الآخر الى دعوة (پيروس) للغرض عينه كيداً لخصمه. وكنّا قد عهدنا (بپيروس) أن يبني الآمال فوق الآمال ولا يردّ اية فرصة تعنّ له منها، وان ينظر الى انتصاراته السابقة بمثابة توطئات للمزيد منها، ويعدّ نكساته مجردّ اخطاء قابلة للتصحيح بمغامرات جديدة. وان لا يسمح للهزيمة او النصر بأن يحددا من نشاطه في اثارة المتاعب لنفسه او تلقيها من عدوه، فلذلك لم يتردد في قبول الدعوة والسير الى (ارغوس). فلحق (أريوس) بمؤخرته ونصب له الكمائن وتعرض له في مواقع منيعة حيث تكون الطرق وعثاء صعبة. فاوقع خسائر جسيمة بساقته المؤلفة من الغاليين والمولوسيّين. ووجد احد الكهنة اثناء تقريب الاضاحي أن كبد الذبيحه مشوهة فاتخذها فألاً سيئاً وتنبأ لپيروس بأن هذا نذير بموت احد اقربائه الأدنين. الاّ انه نسي تلك النبوءة وسط انشغاله في المحافظة على مؤخرته التي تتعرض لهجمات العدوّ المستمرة، وبعث لنجدتها بفرقة من حرسه يقودها ابنه (بطليموس) بينما أشرف بنفسه على اخراج القسم الأكبر من المضيق بسرعةٍ في حين اشتد سعير القتال حيث ابنه (بطليموس)، الذي اشتبك مع افضل

محاربي اللقيذيمونيين بقيادة (ايفالكس Evaicus). وفي تلك الاثناء تقدم رجل ضخم الجرم سريع القدم يدعى (اوريسّوس Oryssus) من بلدة (آپتيرا Aptera) في كريت حتى حاذى الأمير الفتى من جانب وهو منشغل عنه في قتالٍ شديد، وعاجله بطعنة جندلته، وبموته انفضّ جنودهُ من حوله مولين الأدبار فلحقت بهم الخيالة اللقيذيمونية وصرعت عدداً كبيراً منهم حتى انتهت الى السهل المنبسط، تجد نفسها ملتحمة بقوات العدوّ دون ان تدري، وهي مكشوفة لا تحميها المشاة، فانبرى لهم (پيروس) بفرسان المولوسيين وقد طارت نفسه شفاعاً لمقتل ابنه وامتلأ قلبه حقداً، وهجم على رأس قواته فاشفى غلّه من دم اللقيذيمونيين ومهجهم كالعهد به دائما. على ان شجاعته التي لم يقف أمامها شيء اتخذت الآن طابعاً مرعباً رهيباً، وفيما هو يحتث جواده الى (ايفالكس) كاد هذا يبتر يده الممسكة بالاعنة لو لم يحد عنها قليلاً. فسقطت الضربة على سيور الاعنة وقطعتها وفي تلك اللحظة وجد سنان رمح پيروس مكانه في احشاء (ايفالكس). هوى پيروس عن صهوة الحصان لكنه وقف على قدميه واستمر يجبذل من يلقاه من الصناديد والابطال الذين تكأ كاؤا حول جثة ايفالكس. وكانت خسارة سپارطا به فادحة جداً في هذه اللحظة وبعد أن وضعت الحرب اوزارها. وسببها هو حقد القادة الشخصي ورغبتهم في اطفاء جذوة غليلهم ليس غير.

قدم (پيروس) القرابين عن روح ابنه، وخاض غمار معركة مجيدة تكريماً لجنازته وبعد أن نفّس كثيراً عن كربه في ضرب العدو ضربات موجعة، واصل السير نحو (ارغوس) ووردته ابناء عن عسكرة (انتيغونس) في المرتفعات القريبة من (ناوپليا Nauplia) وفي صباح اليوم التالي من وصوله، بعث بمنادٍ الى معسكر (انتيغونس) يدعوه الى النزول من المرتفعات ومبارزته على المملكة ونعته بالوغد السافل. فأجاب (انتيغونس) بقوله أن الزمن والسلاح هما اللذان يحددان تصرفاته، واذا كان (پيروس) بريدان يستعجل حَينَهُ فثم طرق عديدة أخرى كفيلة بالقضاء عليه. ووفد على الملكين سفراء من (ارغوس) يطلبون منهما الانسحاب معاً وافساح المجال للمدينة في الابقاء على صداقتهما من غير وقوعها في يد احدهما. فوافق (انتيغونس) وارسل ابنه الى الأرغوسيين رهينةً ودليلاً على صدق نواياه، ولكن پيروس لم يرسل رهينة مع انه وافق على الانسحاب، وهذا ما جعل أمره موضع شكٍّ. ونزلت في تلك الفترة نبوءة (لپيروس) تلفت النظر، فإن رؤوس الثيران التي قُربت بدت وهي بعيدة عن الجثث - وكأنها تخرج ألسنتها وتلطع حناجرها المجزورة. وفي مدينة (ارغوس) اندفعت كاهنة (ابوللوليشيوس A. Lycius) الى خارج المعبد وهي تصيح باعلى صوتها انها شاهدت المدينة ملاىٔ بالجثث وبالقتلى، وأن نسراً برز للقتال ثم غاب عن النظر فجأة كما ظهر.

تقدم (پيروس) من اسوار (ارغوس) في دجنة الليل فوجد الباب المسمى (باب داياميپرس Diamperes) مفتوحاً لهم بسعي (أرسطياس)، وبقي امره مستوراً مدة كافية لدخول كل قطعاته الغالية واحتلال الساحة العمومية. الاّ ان الرتاج كان واطئاً لا يسمح بدخول الفيلة، فاضطروا الى انزال الابراج عن ظهورها، ثم أعادوا تثبيتها بعد دخولها، بصورة غير متقنة بسبب الظلام الحالك. وهكذا تبدد الوقت الثمين وانتبه اهل المدينة الى ما جرى فتنادروا واخذوا يتراكضون بعضهم الى الحصن الرئيس (آسپيس Aspis) وبعضهم الى غيره من المواضع الدفاعية المحصنة. وبعثوا يستنجدون (بانتيغونس) فتقدم هذا حتى بات على مسافة قريبة منها ثم توقف وارسل الى المدينة عدداً من كبار ضباطه وابنه على رأس قوة جسيمة، وخفّ (آريوس) ايضاً بالفٍ من الكريتيين وعدد من ابرز صناديد السپارطيين فانقضوا جميعاً على الغاليين، فمزقوا صفوفهم وشتتوا شملهم. ودخل (پيروس) من جهة قريبة (للكيلارابيس Cylarabis) بضجةٍ وصراخٍ ولما رجّع الغاليون الصراخ لاحظ أنه ضعيف يشبه صوت من يعاني شدّة وضغطاً مرهقاً فاندفع الى الأمام بسرعة يتقدم فرسانه لكنه ارغم على السير ببطء وحذر بسبب سواقي تصريف الماء والبالوعات التي تملأ شوارع المدينة. ثم حفّ الغموض المطلق بهذا القتال الليلي ولم يعد احد يدري ما يجري على وجه الدقة. وتعذر اصدار الاوامر او تطبيقها ووقعت ملابسات كثيرة وعدة اصطدامات دموية في الشوارع الضيقة، وبات فن القيادة في خبر كان ولم يبق للخبير والتجارب نفع في الظلام ووسط الضجة والزحام. وواصل الفريقان اشتباكهما دون نتيجة وكلاهما ينتظر ضوء النهار. وشاهد (پيروس) على اول خيوط الفجر حصن (اسپيس) حاشداً بقوات العدو. فشاع فيه القلق ولفت نظره من بين مختلف التماثيل القائمة في الساحة العمومية، تمثالٌ ذئب وثورٍ من النحاس يمثلهما وهما يتحفزان للصراع فصعق من هول المفاجئة وحكم الصدف متذكراً النبوءة الماضية التي ربطت انتهاء اجله المحتوم برؤيته ذئباً يقاتل ثوراً! يقول الارغوسيون ان هذا التمثال كان قد اقيم تخليداً لحادثة وقعت في المدينة منذ زمن سحيق: عندما نزل (داناووس Danaus) برّ البلاد لأول مرة بالقرب من (الپيراميا Pyramia) في (ثرياتيس Thyreatis) لمح وهو في طريقه الى ارغوس. ذئباً يصول على ثورٍ، فقدرّ لنفسه أن الذئب يمثله (لأنه وهو الغريب يفعل مثل فعله بالانتقاض على اهل البلاد). وظلّ يرقب نتيجة الصراع حتى كتبت الغلبة للذئب، فنذر نذوراً (لاپوللوليشيوس) وانقض على المدينة فانتصر وطرد ملكها (گيلانور Gelanor) واقام في مكانه حزباً حاكماً. هذا هو السبب في اقامة التمثالين.

انتاب (پيروس) كرب شديدٌ لما رأى وادرك أنه لن ينجح في اي مسعى له، وفضل

الانسحاب من المدينة. ولخوفه من ضيق الباب. بعث برسول الى ابنه (هيلينوس) الذي كان قد تركه بقسم كبير من الجيش خارج المدينة - يأمره بالقدوم وهدم جزء من السور ومعاونته في عملية الانسحاب من المدن بمشاغلة العدوّ اذا اشتدّ ضغطه عليهم، لكن العجلة والاضطراب اللذين سادا الموقف ادّى بالرسول الى ابلاغ الأمر بصورة غامضة فاختلط الأمر على الأمير الفتى، وساق وهو في حيرته افضل جنوده وما تبقى من الفيلة الى داخل المدينة فولج الأبواب لمساعدة ابيه وكان (پيروس) وقتئذ قد قطع مرحلة كبيرة في انسحابه فقد قدمت له الساحة العامة رقعة واسعة لتنظيم التقهقر والقتال ونجح مرات عديدة في صدّ كرأت العدوّ عليه، ولما ارغم على اخلاء الساحة والتسرب في الشارع الضيق المؤدي الى الباب الخارجي اشتبك بالنجدة التي جاءته من الجهة المعاكسة ولم يسمع هؤلاء نداءه بالكفّ عن القتال والانسحاب معه. أما الذين سمعوه ووعوا أمره وهموا بالرجوع فقد دفعتهم الى الأمام موجة من رفاقهم الذين استمروا يتدفقون كالسيل من باب السور وفي تلك الاثناء هوى اضخم الفيلة على حينيه امام رتاج السوّر وظلت تنأم نئيماً هادراً وهي مستلقية تسدّ الطريق على الخارجين.
وكان ثم فيلٌ يدعى (نيقون Nicon) قد دخل المدينة بالأول. سقط من فوق ظهره قائده بعد ان اثخن جراحاً، فاندفع نحو المتقهقرين يطأهم هم والاعداء ويرفعهم ويقذف بهم بعضهم فوق بعض، حتى وجد صاحبه المصاب فرفعه بخرطومه الى نابيه وعاد يصول بوحشيةٍ ليطء كل من يعترض سبيله. واسقط في يد الجميع واختلط الحابل والنابل واشتد الزحام والمدافعة فانحصر الكلّ وتسمروا والتصَقوا وكأنهم كتلة واحدة ملتحمة تميل برمتها وتهتز ذات اليمين وذات الشمال ولا تقوى على عمل شيء ازاء العدوّ سواء في ذلك المهاجم منه في المؤخرة أو المتقرب بين الكتلة نفسها. إلاّ أن الضرر الأعظم كان يأتيهم من أنفسهم فكلّ من اشهر سيفه أو اشرع رمحه تعذر عليه اعادته الى غمده او جعبته فكانوا يصيبون بها رفاقهم عن غير قصدٍ حين ملامسة احدهم الآخر.

لما رأى (پيروس) تفاقم العاصفة الحانجة التي تسفّ على جيشه وايقن بالنهاية نزع تاجه وكان يضعه فوق الخوذة ليتميز به، ودفع به الى أقرب الواقفين ووضع ثقته بقوة حصانه واندفع به الى اكثر مواضع العدوّ احتشاداً. واصيب في صدره بطعنة رمح غير بليغة خرقت درعه لكنها لم تمنعه عن التحول الى الطّاعن، وكان ارغوسياً وابنا لأمّ عجوزٍ معدمة، لايتميزّ بنسب عريق. وكانت الأم تتابع سير المعركة من سطح أحد المنازل مع نسوةٍ أُخريات فرأت (پيروس) يحمل على ابنها فاستولى عليها الخوف من الخطر الذي يتعرض له وتناولت آجرّة بكلتا يديها وألقتها على پيروس فهوت على خوذته وعطبت الفقرات العظمية لقاعدة الرقة ففقد الوعى

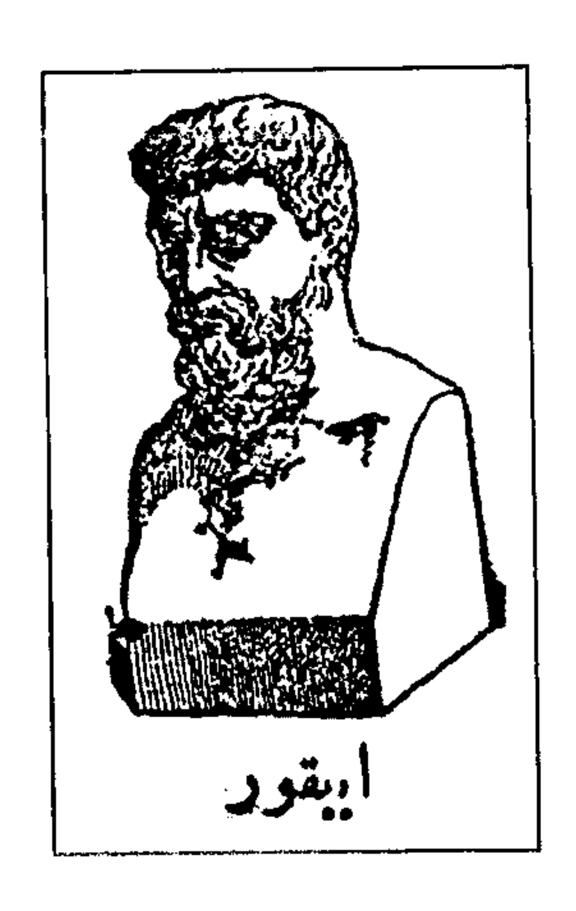
وعميت عيناه وافلت الزمام من يده وسقط على الأرض قرب ضريح (لِقيمنيوس Licymnius) ولم يعرف الجنود هويته الاّ أن (زوپيروس) أحدهم وهو من جيش انتيغونس، أسرع اليه برفقة اثنين او ثلاثة آخرين. فتفرس فيه مليا ولما تثبت من هويته سحبه الى باب أحد المنازل القريبة وقد أخذ يفيق بعض الشيء من الضربة. ثم انتضى (زوپيروس) سيفه الإيلليري وهم بقطع رأسه، فخزره (پيروس) بنظرة صاعقة ارتجف لها واشاعت الخوف في نفسه وراحت يداه ترتجفان برهةً. واعاد المحاولة لقطع رأسه وهو مضطرب وجل فلم يفلح وهوت ضربة السيف على فمه وذقنه، وعالج كثيراً حتى اتمّ احتزاز رأسه.

وسرعان ما ذاع الخبر وسرى بين الجنود، فأسرع (آلقيونيوس Alcyoneus) الى الموضع لالقاء نظرة على الرأس والتأكد من الخبر. ثم أخذه وركب جواده مسرعاً الى والده. وألقاه تحت قدميه وهو جلس مع بعض اصحابه. فتطلع اليه (انتيغونس) ولما وعرفه، نحىّ ابنه عنه بحركة غاضبة عنيفة وضربه بعكازه مطلقاً عليه صفتي الشرير والبربري، وستر عينيه بردائه ويكى مستعيداً ذكرى ابيه وجدّه البطلين، واحداثاً لأسرته اسهمت فيها يد القدر باداور متقلبة كثيرة. ثم أمر ان يحرق الرأس مع الجثة بالاكرام الديني الواجب.

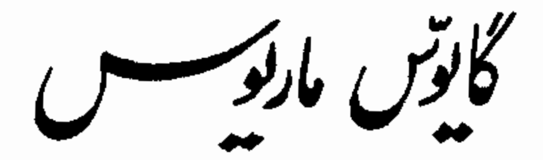
بعد ذلك عثر (آلقيونيوس) على (هيلينوس) ابن (پيروس) وهو متنكر بثيابٍ رثة ومعطف بالٍ، فعامله باحترامٍ كبير وجاء به الى ابيه فلما وقع نظره عليه التفت الى ابنه وقال:

- هذا العمل يا ابني هو افضل من ذلك. ومع هذا فإنك لم تنجزه على الوجه الأكل، لأنك تركته بهذه الثياب الرثة فالحقت عاراً باولئك الذين ظهروا الآن منتصرين.

وعامل (هيلينوس) بعطف وتكريم جدير بأمير واعاده الى عرش مملكة ابيه. وكذلك خصّ كلّ قادة (پيروس) الكبار بلطفه ومعاملته الكريمة بعد ان وقع معسكره وكل جيشه في يده.



ابيقور



GAIUS MARIUS

157 _ 86

اننا لانعرف إسماً ثالثاً لكايُوس ماريوس، كما نجهل (الكوينتوس سرطوريوس Quintus Sertorius) الذي حكم اسپانيا، او (لوشيوس مومَّيوس Lucius Mummius) الذي دَمرٌ (كورنث) وإنه كان هذا الآخير قد لقب بـ(آخانيكوس Achaicus) بسبب فتوحاته مثلما لُقب (سكيپيو) بـ(افريقانوس). ومن هنا يستخلص (پوسيدونيوس) حجته الكبرى في تخطئة اولئك الذين يرون أن الأسم الثالث هو اسم العَلَم عند الرومان، كقولنا: «كاميللوس، ومارچللوس، وكاتو... الخ» فلا يكون في قضيتنا هنا اسم علم على الإطلاق لاولئك الذين لا يُعرفون باسم ثالث حسب رأيه، وقد فاته أن منطقه هذا يجرّه حتماً إلى تجريد النساء من اسمائهن الأولى تجريداً تاماً، فلا يبقى لهنّ ما ينادين به، (اي الإسم الذي يتصوره اسمَ عَلَم عند الرومان) أماً عن الاسمين آلاخرين فاولهما هو اسم الأسرة ويعرف به كل افرادها كقولنا (پومپي Pompii و، مانْلي Manlii و، كورنيلي Cornelii). مثلما يطلق عندنا نحن الأغريق على أسرتي (هيراقليدوي Heraclidœ وپيلوپيدوي Pelopidœ)، واماً ثالث الاسماء او الالقاب فهو نعت لطابع خلقي في المسمى، او لعمل تميز به، أو لمظهرٍ جسماني فيه، كقولنا (ماكرنيوس Macrinus وتوركواتوس Torquatus وسيللا Sylla، مثلما هو عند الاغريق كقولهم (منيمون Mnemon وغرايپوس Grypus وكاللينيكوس Callinieus). وعلى اية حال فإن شواذ العادة في اطلاق الاسماء قد تفتح لنا موضوع حديث طويل إن شئنا خوضه.

هنالك منحوتة حجرية تمثلّ (ماريوس) في رافنّا Ravenna ببلاد الغال شاهدتها بنفسي وهي ذات ملامح تنطبق تمام انطباق على تلك الغلاظة والفظاظة التي عزيت اليه. لقد كان بطبيعته رجل حربٍ واقدام، أقرب طبعاً الى حياة المعسكر منه الى حياة المدينة، ولذلك تعذر عليه أن يخفف من غلواء طبعه عندما تولّى السلطة. وقيل انه لم يتدارس اللغة اليونانية ولم يستخدمها في أيّ موضوع هامٍ فقد كان يرى من السخف أن يخصصّ وقتاً لهذه الثقافة التي يتعهد أمرها معلمون لايزيدون عن عبيد بكثيرٍ. فمرة بعد موكب نصره الثاني أقام العاباً وملاهي على الطريقة اليونانية بمناسبة تكريس احد المعابد فقدم الى الملعب وجلس ثم خرج فوراً.

لقد اعتاد (أفلاطون) ان يقول لصديقه (گزينوقراطس) الفيلسوف الذي كانت صرامته وقسوته اكثر مما يجب: «اضرع اليك اي (گزينوقراطس Xenocrates) الفاضل أن تضحيَّ لآلهة الرّقة»[1] وعلى هذا الاساس استطاع أحدهم اقناع (ماريوس) بعبادة «الميوزات» و«الغريسات» الاغريقية لما بلغ باعماله العظيمة التي لاتضاهى سواء الحربية منها والسلميّة - الى نتائج سيئة غير جديرة بالتقدير ولا جلب الخراب على نفسه وهو في شيخوخته القاسية الناقمة المندفعة بطموح أهوج انكد وجشع لابرتوي. على أن هذا سيتكشف فيما بعد بالتدريج عند سرد الوقائع.

ولد لأبوين كلاهما مغمور معوز، يقيمان أودهما بعمل اليوم وهو سَمّي ابيه، وأمه تدعى (فُولشينيا Fulcinia). وقضى فترة كبيرة من عمره قبل أن يرى ويتذوق ملاذّ المدينة. اذ انه شب في (كيرّياتون Cirrhoeaton) وهي قرية من قرى اقليم (اربينوم Arpinum) وحياتها اذا قيست بمناعم المدينة ومباهجها - حياة خشنة غليظة إلاّ انها تتسق وتوائم الصرامة الرومانية الغابرة. وفي مبدأ الأمر خدم جندياً في الحرب ضد (الكلتيبريين: Celtilerians) عندما حاصر (سكيپيو افريقانوس) مدينة (نومانتيا Numantia). وفيها برز على اقرانه جميعاً بالشجاعة أمام جنراله. ولفت اليه الانظار بتحمسه في اقتبال إصلاحات (سكيپيو) في جيشه الذي كاد يدمره الترف والملاذ. وقيل أيضاً أنه هاجم العدوّ وحده وهزمه على مشهدٍ من قائده، فنال بسبب ذلك كثيراً من التكريم. ومرةً في اثناء مأدبة جرى الحديث عن القادة فأنبرى أحد الحضّار يسأل (سكيپيو) (مدفوعاً أمّا برغبة حقيقية لمعرفة ذلك وامّا بقصد المداهنة والرياء): «هل سيقدر للرومان أن يحظوا بعده بقائدٍ مثله؟» فربت (سكيپيو) على كتف (ماريوس) الذي كان جالساً الى جانبه واجاب:

- ربّما هنا!

الى هذه الدرجة من الوضوح كانت الدلائل تشير الى عظمة مستقبل منذ مطلع شبابه. والى هذا الحدّ بلغت ملاحظة (سكيپيو) من الدقة، في تنبؤه بذلك المستقبل البعيد من مقدماته الأولية القريبة. إن عبارة (سكيپيو) هذه التي كانت أشبه بالنذير الالهي. حثتّ (ماريوس) ودفعته الى معترك الحياة السياسية اكثر من اي عامل آخر كما قيل لنا. ولقد اطلب وحاز منصب تريبيون الشعب بمعونة (كوشيليوس ميتللوس Coecilius Metellus) الذي ينتسب الى أسرة تحدب عليه وعلى أبيه. وفي اثناء مزاولته منصبه هذا اصدر قانوناً لتنظيم التصويت يؤدي على ما يبدو الى التقليل من سلطة العظماء الذي يتولون شؤون المحاكم والأقضية،

(١) «Graces» آلهة اغريقية وهنّ ثلاث شقيقات، يمثلن السحّر والجمال (م. ت).

فعارض فيه (كوتّا Cotta) واقنع مجلس الشيوخ باصدار مرسوم يبطل حكمه واستدعى (ماريوس) لاستجوابه عنه. على انه حضر بنفسه الى مجلس الشيوخ حين أعُدّ قرار الإبطال. ولم يكن سلوكه هناك سلوك الشاب المستجد في ممارسة السلطة، او ذلك الذي حازها دون استحقاق. ولكنه انبرى (لكوتّا) بكلّ تلك الشجاعة التي بررت أعماله التالية وهدده بايداعه السجن إن لم يسحب القرار. والتفت الى (ميتللوس) طالباً صوته فنهض هذا واعطى رأيه لصالح القنصل. فنادى (ماريوس) الضابط من الخارج وأمره بانه يقبض على (ميتللوس). فطلب هذا تدخلّ التريبيونات الآخرين، ولما لم يتقدم أحد لنصرته بادر مجلس الشيوخ الى سحب القرار حالاً. وخرج (ماريوس) من هذا بكسب مجيد للشعب وبمصادقة على قانونه وعُدّ بعدها شخصاً لا سبيل الى فَل غراب عزمه واقدامه. ومعارضاً لا تلين قناته لمجلس الشيوخ والمصلحة العامّة. على أنه سرعان ما فقد ثقه الشعب بعمل مضادٌ. فقد عارض بشدّة اقتراح توزيع القمح ونجح في أبطاله، وبذلك جعل نفسه مكرّما على السواء من الجهتين في عدم محاباته لأحدهما خلافاً لمصلحة الجمهور.

ورُشحَ بعد منصبه هذا، لوظيفة رئيس (الايديل)، وكان يوجد درجتان منها: الأولى هي (الكورول) والصفة مأخوذة من الكرسي ذي القوائم الملتوية الذي يجلسون عليه اثناء تأديتهم واجبات وظيفتهم. والصنف الثاني أدنى من الأول ويطلق على صاحبه عنوان «ايديل الشعب». فما أن تمّ اختيار الأول حتى اعطيت الأصوات الثاني. ووجد (ماريوس) أنه سيفشل في نيل المنصب الأهم على الراجح، فبادر الى تغيير ترشيحه الى المنصب الأدنى. ولكنه فشل في الحصول عليه ايضاً لما بدا عليه من لهفة وتكالب ولم تؤثر خيبته المزدوجة في ما سعى اليه اي تأثير، مع انها لم تحصل لأحدٍ قبله. اذ ما لبث بعدها بقليل أن سعى الى منصب (البريتور) وكاد يفشل، ثم وان كان قد جاء انتخابه آخر الجميع، فقد اتهم بالرشوة.

وكان السبب الأساس للشكّ في أمره، عبدُ لـ(كاسيوس ساباكو Cassius Sabaco) شوهد داخل السياج بين المصوّتين، وقد كان (ساباكو) صديقاً عزيزاً لماريوس، فلما استدعاه القضاة للشهادة امامهم، زعم انه كان عطشاناً بسبب الحرٌ فطلب من عبده أن يأتيه بماء بارد فجاءه بكوب ماءٍ ما أن شربه حتى انصرف. وقد طرد هذا الرجل من مجلس الشيوخ - السنصورون التالون جزاءً وفاقاً سواء لشهادة الزور التي أداها أو لسوء اخلاقه. وكان الشاهد الآخر الذي استدعي للإدلاء باقواله (كايوّس هرينّيوس Caius Herennius) فاعتذر بأن العادة لم تجر بسماع شهادة الپاترون (وهو الكلمة الرومانية التي تعني «الحامي» او «الولي») ضدّ مواليه وان القانون قد اعفاهم من هذا الواجب الصارم القاسي وان (ماريوس)

وأباه كانا دائماً موليين لأسرة (هرينّي Herenni) وعندما قبل القضاة بدفوعه، اعترض (ماريوس) بالذات وقال (لهرينيّوس) بأنه خرج عن موالاته له في اللحظة التي انتخب لمنصب الحاكم، وهي حجّة لا تقوم على سند صحيح بصورة مطلقة. فليس كلّ وظيفة تحرر الموالي وذريتهم من الوجائب المفروضة عليهم ازاء حماتهم. الاّ اولئك الذين عهد اليهم القانون بكرسيّ الكورول. وبغض النظر عن كُلّ هذا فإن القضيّة بدت سيئة عصيبة بعض الشيء، ولم يجد من القضاة اي عطفٍ. لكن الاصوات تساوت في نهاية الأمر خلافاً لما كان متوقعاً تماماً – فبرىء من التهمة.

ولم نيل شرفاً او تكريماً كثيراً اثناء قيامه بوظيفة البريتور. إلاّ انه ارسل واليا على اسبانيا القصوى بعدها. وقيل أنه قضى على اللصوص وقطاع الطرق واستأصل شافتهم وكانوا وباء فتاكا يعيث فساداً في الاقليم كله. وكانت العادات البربرية سائدة آنذاك والإسبان في ذلك العهد مازالوا ينظرون الى السرقة والسلب كمظهر من مظاهر الاقدام والبطولة. ولم يكن لديه في المدينة ما يصح اعتماده عليه من الغنى وقوة العارضة، وهما الوسيلتان اللتان تكفلان لكبار القوم النفوذ عند الشعب في ذلك العهد. إلاّ ان نشاطه الجمّ، وحماسته الى الجدّ والعمل وعيشته البسيطة كانت بحدّ ذاتها عوامل نفوذه وسبب رفع قدره عند الشعب، وضمنت له زيجة مشرُفة من (جوليا) التي تنتمي الى اسرة القياصرة الشهيرة، وابن عمّها هو قيصر الذي يعدّ من اعظم عظماء الرومان؛ وقد كان من اثر قرابتهما أن جعل من ماريوس قدوة ومثلاً له الى حد ما كما سيتبين لنا فيما بعد من سيرته.

واشاد الناس بمتانة خلق ماريوس وشدة احتماله. وقدم على الصفة الثانية برهاناً دامغاً بعملية جراحةٍ أجريت له. فقد كانت ساقاه تشكوان على ما يبدو من دمامل كثيرة، فكره ذلك ورغب في ازالة التشويه بوضع نفسه في يد طبيب جراحيّ. ومدّ احدى ساقيه دون أن يربط وتحمل بصمت اقسى الآلام اثناء الاستئصال ولم تتغير ملامحه او تصدر منه شكوى او آهة. ولكنه أبى الاستمرار عندما همّ الجراحي بالساق الأخرى وقال:

– أرى البرء من دائي لا يستحقّ كل هذا الألم.

وعين القنصل (كَيْكيليوس ميتللوس) جنرالاً في الحرب ضدّ (يوغورثا Jugurtha) في افريقيا فأخذ معه (ماريوس) بوظيفة رئيس اركان حرب. وهناك بدافع من رغبته في انجاز اعظم الأعمال، والنهوض بالوجائب مما يؤهله الى الشهرة والمجد الشخصيّ، لم يقم وزناً لأمجاد (ميتللوس) ولم يتحر خدمته كالآخرين، ولم يعز تشريفه بمنصب اركان الحرب الى (ميتللوس) وانما عزاه الى جده وحظه الذي زوّده بالفرصة المواتية وبمسرح للأعمال الجليلة،

فأبدى اقصى الشجاعة والاقدام في هذه الحرب وعنت له ضروب من المصاعب فلم ينكص عنها مهما بلغ من عظمها ولم يستحقر القيام باصغرها شأناً، وتفوق على اقرانه في حسن الرأي ودقة التنفيذ. وبارى الجنود العاديين في كدحهم، وعيشة التقشف ونال عندهم شعبية واسعة. فالحقيقة هي أن كل مساهمة طوعية من رجل كبير المقام في عملٍ كادح شعبيٍّ تنظر نظرة تقدير وتخفف من عناء العمل نفسه بقدر ما تجعله طيباً وتزيل عنه صفة الإرغام والجبر، وانه لمن أبدع المشاهد واسماها أن يرى الجنديّ الروماني قائده يتناول الصنف الذي يتناوله هو من الخبز، او ينام على فراشٍ مماثل أو ينزل معه عاملاً في حفر خندق أو اقامة متراس. ان الجنود لا يتعلقون ولا يعجبون بمن يغدق عليهم النعم والأموال قدر ما يعجبون بمن يشاركهم المخاطر والجهود مشاركة فعلية. وبهذا يكون حبهم للقادة الذين ينزلون الى المشاركة في اعمالهم أمتن واشد من حبهم اولئك الذين يشجعونهم على البطالة والكسل.

وهكذا ظفر ماريوس بقلوب الجنود وملكها. ولم يطل به الزمن حتى رددت افريقيا وروما اصداء شهرته. وخرجت رسائل من الجيش المرابط، الى المسؤولين في الوطن توصي به وتشير الى ان الحرب في افريقيا لن تنتهي الى نتيجة حاسمة الاّ بانتخاب (كايوس ماريوس) قنصلاً. وكل هذا كان يسيء الى سمعة ميتللوس؛ واكثر ما اغاظه منه هو نكبة (توربيلليوس Turpillius). كان (توربيلليوس) هذا صديقاً حميماً عتيقاً لميتللوس توارثا الصداقة أباً عن جد، وقد وجد معه في الجيش الافريقي بمنصب قائد سلاح الهندسة بما فيه من حدادين ونجارين. وظلت صلتهما دائمة وعلاقتهما وثيقة. ثم عهد (لتوربيلليوس) بآمرية حامية (ڤيغا Vega) وهي مدينة كبيرة. فوضع ثقة عمياء في سكانها، واطلق لهم الحبل على الغارب مطمئناً الى ان معاملته الطيبة جداً لهم ستضمن اخلاصهم. وهكذا وقع في يد العدوّ دون ان يدري. فقد فتحوا لـ(يوغورتا) ابواب المدينة فدخلها إلاّ أنهم تشفعوا (لتوربيلليوس) فاطلقه (يوغورتا) سالماً دون أن يلحق به اي أذى، وهذا ما دفع الى اتهامه بالخيانة وتسليم المدينة للعدو. وكان (ماريوس) عضواً في المجلس العسكري الذي حاكمه. فلم يكتف أن يظهر التحامل العنيف والصرامة، بل راح يشير عليه معظم اعضاء المجلس. وهكذا اضطر (ميتللوس) كارها الى فرض حكم الموت وانفاذه فيه. وما عتمت الحقيقة ان انجلت وظهر زيف التهمة، وبينما خف الآخرون لمواساة ميتللوس الذي وقعت عليه المصيبة وقعاً مُراً راح (ماريوس) يفخر بين كل السرايا بلهجة جارحة وقحة بأنه هو الذي ورط (ميتللوس) في انفاذ حكم الموت بصديقه.

ولم ينكشف خلافهما للملأ حتى ذلك الحين. وذكر أن ميتللوس قال في مجلس كان

ماريوس فيه، بلهجة مهينة:

- أنت يا سيدي تنوي مغادرتنا الى الوطن لترشح نفسك لمنصب القنصل ولا تريد الانتظار لتصبح قنصلاً مع ابني هذا؟

وكان ابن (ميتللوس) صبياً يافعاً في ذلك الوقت. على أن (ماريوس) كان شديد الاصرار على السفر، وبعد عدة تأخيرات فكّ من منصبه ولم يبق من موعد انتخاب القنصل غير اثني عشر يوماً. فقطع المسافة الطويلة بين المعسكر وميناء (اوتيكا Utica) بيومين وليلة وهناك قرّب آلالهة قبل أن يركب البحر وقيل أن العرّاف اخبره بأن السماء ادخرت له حظاً سعيداً لا يصدق ولا يتوقعه أحدٌ. وبدأ (ماريوس) رحلته وهو منتعش الروح بهذه النبوءة الطيبة انتعاشاً ليس بالقليل وقطع البحر في اربعة أيام وبريح رخاء، واستقبله الشعب بفرح عظيم وجاء به الى الجمعية العامة احد التربيونات فاعلن ترشيح نفسه وهاجم (ميتللوس) مهاجمة عنيفة من كل ناحية. ووعد الناخبين امّا ان يقضي على (يوغورثا) أو يأتي به حياً.

وتمّ انتخابه باكثرية ساحقة وحماسة، وبدأ في الحال في تجنيد المحاربين خلافاً للقانون والعُرف، فسجّل عبيداً واناساً معدمين، مما لم يقدم عليه احد من القادة السابقين، وانما كانوا يصرفون السلاح والعُدّة كما يمنحون خلافها من النعم والمكافآت بمثابة تكريم وتبريز لذوي المؤهلات المستحقين، وعلى هذا الأساس تكون ملكية المرء نوعاً من الضمان لحسن سلوكه. ولم تكن هذه الأسباب هي العامل الأوحد لاضطغان طبقة الأشراف له واضمار السوء. فقد ثار حقدهم عليه ببعض خطبه الغريطسة المتعالية، ذات اللهجة الجارحة الساخرة. فقد كان يقول مثلاً: أنه فاز بمنصب القنصل كما يفوز بغنيمة حربٍ. وانتزعها من خنوثة المواطنين الأغنياء ذوي الحسب والأصل العريق! وقال لعامة الشعب انه ليعتز بالجراح التي اصابته لأجلهم، قدر ما يعتز غيره بتماثيل أو اضرحة الموتى من اجدادهم! وكثيراً ما ندّد بالقادة الذين عادوا من افريقيا يجرون اذيال الخيبة دون ان يحققوا شيئاً ويقدّم كلاً من (بستيا Bestia) و(البينوس Albinus) نموذجاً لهؤلاء القادة الفاشلين (وكلاهما من أسر كريمة جداً). فيقول عنهما أنهما لا يصلحان للحرب، وقد فشلا فشلاً ذريعاً لانهما لا يملكان الخبرة. وتساءل ممن يحيط به قائلاً: أليس يرون أن الأجدر كثيراً باجداد هؤلاء الاشراف ان يخلفوا نسلاً مثله، ماداموا هم أنفسهم قد اشتهروا لا بسبب عراقة اصلهم ونبل ارومتهم بل لبسالتهم ولما حققوا من الأعمال الجسام. وهو لا يقول هذا تفاخراً واعتزازاً، او رغبة في جرح مشاعر الأشراف بل كان يتوخى منفعةً وهي أن عامة الشعب كانت تُسرّ كثيراً لكلّ إهانة أو عيب يقذف به الشيوخ وكانت مقاييس عظمة الخطيب عندهم هي جرأة الخطبة وسلاطتها. لذلك واصلوا تشجيع (ماريوس) وشد ازره

في ميله الى النيل من اي شخص ذي مقام ارضاءً لعامة الشعب. ولم يستطع (ميتللوس) أن يخفي شعور حسده وحقده (لماريوس) بعد أن عاد الى الحرب وهو بمنصب قنصل. ذلك لأنه كان قد انهى الحرب فعلاً، ولم يتبق شيء خلا وضع اليد على (يوغورثا)، فيأتي ماريوس في هذه المرحلة شهيراً رفيع الشأن كبير المنصب عن طريق انكاره جميله، ليجرده من ثمار نصره وموكب الظفر الذي يستحقه! ولذلك لم يتحمل رؤيته ولم تجر مقابلة بينهما وترك (ميتللوس) المعسكر واناط بمساعده (روتيليوس Rutilius) مهمة تسليم قيادة الجيش لخلفه. والشيء بالشيء يذكر ان (ماريوس) لقي على يد (سيللا) المعاملة نفسها عند ختام الحرب اذ جرده هذا من مجد النصر كما فعل هو بميتللوس. واني سأعمد الى ذكر الاحداث والوقائع باختصار هنا، لكونها قد فُصلت تفصيلاً وافيا في سيرة سيللا:

كان (بوخَوس Bocchus) ملكا للاقليم الأقصى من بلاد البرابرة، وهو حمو (يوغورثا) إلاّ أن المعونة التي ابداها له في هذه الحرب كانت تافهة تكاد لا تذكر، وقد الجأه الى هذا الموقف خوفه من غدر ختنه وانقلابه عليه اذا انتصر، وحسداً له اذا ما تعاظمت قوته. وبعد هزيمة (يوغورثا) رحل اليه في غمرة من يأسه ليكون له آخر ملاذٍ. فاستقبله (بوخوس) كما يستقبل اي لاجيء، لا بدافع من عطفٍ او حدبٍ حقيقي عليه بل حرصاً على سمعته، لئلا يُعيّر بأنه لم يقم بواجب الإجارة. وما أن غدا (يوغورثا) طوع يده حتى اتصل رسمياً (بماريوس) متشفعاً له موهما للناس بأنه مصرٌ على عدم تسليمه وهذا في الظاهر، إلاّ انه كان يبطن الغدر به. وارسل يطلب حضور (لوشيوس سيللا) الذي كان بمعيّة (ماريوس) في منصب الكويستور (امين خزانة الجيش) وكان (سيللا) قد ارتبط بعهد إخاء مع (بوخوس) في احدى مناسبات الحرب لذلك رحل اليه معتمداً على كلمته. ولما وصل بدأت الحيرة تتنازع نفس (بوخوس) وظلّ التردد مستوليا عليه عدة أيام: هل يسلّم (يوغورثا) أم يحتجز (سيللا)؟ اخيرا قرّ قراره على سلوك سبيل الغدر الذي نواه منذ البدء، وسلّم (يوغورثا) الى (سيللا) حياً، وكانت هذه الحادثة هي الشرارة الأولى التي قدحت نار النزاع الرهيب، نزاع لا يرأب صدعه كاد يطوّح بالامبراطورية الرومانية ويوردها موارد الدمار. لقد عزا حسّاد (ماريوس) الكثيرون كلّ النجاح الى (سيللا). وعمل سيللاً ختماً لنفسه حفر عليه صورة تمثل (بوخوس) وهو يدفع اليه بـ(يوغورثا) واخذ يكثر من استخدامه مثيراً بذلك حنق (ماريوس) وهو بطبعه سريع الاثارة والانفعال حاد المزاج مفطور على التهالك على الشهرة سريع الاضطغان، ضنين جداً على غيره بالشهرة يكره أن يشاركه احدٌ في اي مجد يناله. ولم يأل اعداؤه جهداً في اذكائهم نار النزاع، بترديدهم القول إن (ميتللوس) خاض اهم وقائع الحرب، وان (سيللا) كان

له فضل انهائها، يريدون أن يصرفوا الشعب عن تعظيم (ماريوس) واجلاله واعتباره اجدر الناس بهذا الحبّ.

لكن هذا التحاسد والتباغض ما لبث ان زال وانقشعت غيومه عن خاطر (ماريوس) بالخطر الذي بدأ يهدد ايطاليا من جهة الغرب. وآضت العاصمة الرومانية في امسّ الحاجة الى قائد محنك فراحت تبحث عمن ستودع اليه الدفّة لمواجهة اعصار الحرب العظيمة القادمة. ولم يُزكِّ احد من المواطنين فرداً واحداً من افراد الأسر الغنية او الشريفة الذين عرضوا أنفسهم لمنصب القنصل، وانتخب (ماريوس) قنصلاً وهو بعيد عن ارض الوطن.

ما كاد يذاع نبأ وقوع (يوغورثا) في قبضة الرومان، حتى وردت اولى الاخبار عن بدء غارة (التيوتون Teutones) و(الكيمبري Cimbri) وفاقت المعلومات الأولية عن كل ما هو معقول. بخصوص عدد المقاتلين في عسكرهم الزاحف ومبلغ قوتهم، الاّ ان المعلومات التالية اثبتت ان الاخبار السابقة تنطوي على كثير من المبالغة وان الواقع هو اقلّ جداً. فقد قدروا بثلاثمائة الف مقاتل تحت السلاح مع عددٍ من النساء والاطفال يفوقه كثيراً. وكان ادعاؤهم انهم يبحثون عن بلاد واراضٍ جديدة يستقرون فيها لإعالة هذا الحشد الهائل من اهاليهم، وينشدون مدناً يسكنونها كما فعل (الكلتيون) قبلهم عندما طردوا (التيّرينيين Tyrrheni-ans) من بلادهم وسيطروا على خير جزءٍ من ايطاليا على ما قيل لهم. كان الناس كافة يجهلون صفة هؤلاء القوم المغيرين، ومن اين جاؤا؛ ذلك لأنهم لم ينشئوا قط علاقات تجارة مع اقوام الجنوب، وتميزهم بصفة الترحال والتنقل في ارجاء واسعة من الارض. ولهذا كان اندفاعهم الآن اشبه بسحابة عظيمة انتشرت فجأة فوق بلاد الغال وايطاليا. على أنَّ عيونهم الرمادية، وضخامة اجسامهم كانت توحي بأنهم شعب من تلك الشعوب الجرمانية التي تعيش في سواحل بحر الشمال. هذا وانَّ الجرمان انفسهم يطلقون اسم (كيمبري) عادةً على الناهبين.

هناك بعض من يقول ان بلاد الكلت تمتد بارجائها الرحيبة من أقصى المنطقة القطبية الى بحيرة (ميوتيس Mœotis) شرقاً، الى ذلك الجزء من بلاد (الصيثيين) القريب من (بونطس) وتتمازج الاقوام هناك وتختلط، وهم لا يخرجون من البلادِ دفعةً واحدة وبصورة مفاجئة وانما يتقدمون على شكل موجات ويشقون طريقهم بقوة السلاح في موسم الصيف من كل سنةٍ حتى اجتازوا القارة كلها بكرور الزمن. ومع ان كل فرقة من هذه الفرق المغيرة كانت تعرف بعدة اسماء، الاّ ان الموجة كلها عرفت باسم واحدٍ عام هو (كلتوصيثيوّن). ويقول آخرون ان الكيمّريين Cimmerii الذين عرفهم الأغريق منذ قديم الزمان ما هم الاّ جانب صغير من هذا الشعب كان قد طرد من البلاد الأم على اثر نزاع بين (الصيثيين). فنزح برمته من اطراف

بحيرة (ميوتيس) الى آسيا بزعامة (ليغْداميس Lygdamis). ومازال معظم هذا الشعب واقواه مراساً يعيش في اقصى الأصقاع الممتدة على طول سواحل الاوقيانوس الخارجية. وقيل أنهم يستوطنون بقاعاً معتمة تكتاثف فيها الغابات وقلما تخترقها اشعة الشمس لتقارب الاشجار الشديد وامتدادها الى الداخل حتى الغابة الهركينية Hercynian. وموْضعهم في الارض يقع تحت ذلك الجزء من الفلك الذي يرتفع عنده القطب ارتفاعاً كبيراً ليميل الى خطوط العرض، الى الحدّ الذي تبدو وكأنها على مسافة قريبة من سُموُت السكان. وبما ان ليلهم ونهارهم يكادان يكونان متساويين طولاً فإنهم يجزؤن سنتهم.

وعن هذا السبيل جاءت قصّة (هوميروس) عن (يوليسيس) وكيفية ندائه الموتى. ومن هذه الاصقاع انحدر شعبا (الكيمبري) الى ايطاليا (كان يدعى في قديم الزمان الكيمّيري وجرت عليه الالسن بهذا التعديل الملطف).

ويتفق معظم الكتاب أن عدد المغيرين لم يكن أقل مما ذكرنا. وذكر بعضهم انه أكثر. وكانوا قوماً اشداء، محاربين لا يشقّ لهم غبار امتازوا بالغلاظة والوحشية الفائقة، تراهم يهرعون الى المعركة مسرعين كما تسرع النار العظيمة الآكلة. فلا يقف أمامهم شيء. ويفترسون كل من يعترض سبيلهم. وطالما الحقوا الهزائم النكراء بكثير من القواد الرومان وحض على جيوشهم المتقدمة للدفاع عن الغاليين الساكنين فيما وراء الألب. كانت المقاومة الضعيفة التي جابهوها في توغلهم المحرض الرئيس لهم هو الزحف على روما. فبعد ان هزموا كل من تصدّى لقتالهم. وبعد أن وقعوا على تلك الاسلاب والغنائم الكثيرة آلوا على انفسهم أن لا تستقرّ بهم ارض قبل أن يجتاحوا المدينة ويسوّدها بالقاع ويخضعوا كل ايطاليا. واستبد القلق الشديد بالرومان في كل مكان بهذه الانباء وبعثوا سيتقدمون (ماريوس) ليأخذ الحرب على عاتقه واختاروه قنصلا للمرة الثانية وان كان القانون لا يسمح أن يجري انتخاب القنصل بغياب المرشح له. أو أن يعاد انتخاب القنصل لدورة ثانية الا بعد مرور فترة معينة من الزمن على قنصليته الأولى. الاّ ان الشعب رفض كل الاعتراضات بهذا الخصوص. اذ لم تكن هذه المرّة الأولى التي أفسح القانون سبيلاً لتفضيل المصلحة العامة. ولم يكن الوضع الحالي بأقلّ حراجةً من ذلك الوضع الذي حملهم على انتخاب (سكيپيو) قنصلاً خلافاً لاحكام القانون. ولم تكن مدينتهم مهددّة بالدمار وقتذاك بل لأنهم كانوا يريدون تدمير مدينة القرطاجنيين.

هذا ما تمّ تقريره. وسحب (ماريوس) كتائبه من افريقيا في اليوم الأول من شهر كانون الثاني الذي يعتبره الرومان مبدأ العام الجديد. وتسلم مقاليد الحكم ثم دخل في موكب نصر عرض فيه على الشعب (يوغورث) الملك الأسير، وهو مشهد كانوا قد يئسوا من تحقيقه، كما

لم يصدق أحد منهم انه سيرى في حياته اندحار العدوّ في افريقيا. لقد بلغ من قابلية (يوغورثا) على تكييف نفسه لكلّ دورة من دورات الخطّ، ما يوازي جرأته وسعة حيلته. ولكن قيل أنه كبا اثناء ما كان يقاد في الموكب، من فرط الحزن. ثم زجّ في السجن فأخذ بعضهم يشق ثيابه، وقطع آخرون شحمة اذنه اثناء نزاعهم على قرطه الذهبي. ولما القي في الجبّ عارياً، صاح وهو ذاهل، ضائع اللبّ يضحك ضحكةٍ مخيفة رهيبة:

- ايه يا هرقل! ما أبرد حمّامك هذا؟

وبقي ثمّ، ستة ايام يصارع الجوع، ولم يفارقه تشبثه بالحياة الى آخر لحظة. وهكذا لقي جزاءه العادل عن كل ما ارتكب من شر.

وذكر أن (ماريوس) جلب الى روما بمناسبة نصره مقادير من الذهب بلغت زنتها (٣٠٠٧) باوندات ومن سبائك الفضة ما يزن (٥٧٧٥) باونداً. ومن المصكوكات النقدية الذهبية والفضية ما قيمته (٢٨٧٠٠٠) دراخما. وبعد انتهاء مراسيم الموكب طلب (ماريوس) عقد اجتماع لمجلس الشيوخ في الكابيتول. ودخل عليهم وهو مايزال في حُلّة موكب النصر، إماً غفلةً منه واهمالاً، وإما تباهياً واختيالاً غير لائق، واعتزازاً بالحظّ الذي حالفه، ولكنه ادرك فوراً استنكار المجلس لعمله فخرج وعاد مرتدياً وشاحه الاعتيادي بحاشيته الارجوانية. واهتم كثيراً بتدريب وتمرين جيشه في اثناء مسيرته الى ساحة القتال فكان ينظم له مسيرات طويلة، وتمارين عدة مختلفة مجبرا كل جندي على حمل تجهيزاته، وتهيئة طعامه، حتى بات الجندي الصبور على المشاق الذي يؤدي عمله بصمت وبدون تأفف يطلق عليه اسم «بغل ماريوس». على ان بعضهم يظن أن أصل اللقب هو غير ذلك وانه نشأ عندما كان (سكيپيو) يحاصر (نومانتيا) وامتاز بالدقة والعناية في تفقدّ خيول الجنود واسلحتهم، فضلاً عن بغالهم ومركباتهم، ليرى درجة تسليحهم، ومبلغ استعداد كل واحد منهم وتقدم (ماريوس) ليعرض حصانه المعلوف علفاً جيداً وبغله في حالة ممتازة جداً، يبدو اقوى واطوع قياداً في بغال الآخرين. فسُر الجنرال كثيراً، وظلّ يلهج بذكر حيوانات (ماريوس). ومنذ ذلك الحين والجنود يطلقون عبارة «بغل ماريوس» مازحين عندما يقصدون مدح زميل دؤوب كدود.

ولنعد الى الموضوع؛ يظهر أن حظاً نادراً حالف (ماريوس). فقد انحرف العدوّ بكيفية ما عن سبيل زحفه وانقض اولاً على اسپانيا وبذلك اتاح لماريوس وقتاً لتدريب جنوده واستئصال عوامل الخوف من نفوسهم واحلال الشجاعة في محلها، واهم من هذين ليعرّفهم بحقيقته ويظهر لهم صلابة معدنه. فإن اسلوب القيادة الصارم الذي اتبعهُ، وشدة العقوبات التي فرضها على الرجال ادّى الى اجتثاث حبّ الفوضى والتمرد على الأوامر من أنفسهم وجعلتهم يشعرون

بقيمته وفائدته، فضلا عن عدالته، وطبعه العنيف، وصوته القاسي وملامحه الصارمة، مما ألفوُه منه بعد فترة من الزمن قصيرة وعُدت عاملاً مخيفاً للعدوّ لا لهم. واكثر ما سَرّ الجنود منه استقامته في اصدار احكامه. وسنورد الحادثة التالية كمثل بليغ على ذلك: كان المدعو (كايوس لوسيوس Caius Lusius) وهو ابن عَمّ (لماريوس) يحتل منصباً قيادياً تحت أمرة قريبه في الجيش وكان رجلاً حسن الخلق بصورة عامة إلاّ أنه تميزّ بعلاقاته الآثمة مع الفتيان. وكان يوجد تحت امرته فتى في مطلع الشباب يُدعى تريبونيوس Trebonius امتنع عنه واستنكف عن مواصلته رغم الجهود التي بذلها معه ومختلف وسائل الاغراء التي عرضها له. ولما اعيته الحيلة فيه بعث اليه بالاخير رسولاً يطلب حضوره فقدم اليه لأن القانون العسكري لا يسمح له برفض أمر الاستقدام من المافوق، فجيء به الى خيمة (لوسيوس) وعندما بدأ هذا يستعمل معه وسائل الإرغام والعنف سحب الفتى سيفه وطعنه طعنةً نجلاء القته قتيلاً. حدث هذا اثناء غياب (ماريوس) فلما عاد أحال (تريبونيوس) الى المحاكمة. فجاء عدد كبير من الشهود وشهدوا ضده بينما لم يتقدم احد بشهادة دفاع عنه. وادلى المتهم بافادة صريحة وقدم دلائل وشهادات على مواقفه السابقة من (لوسيوس) وكيف أن هذا كان لا يفتأ يعرض عليه كثيراً من الهدايا الثمينة. فاعجب (ماريوس) بتصرفه وسُرّ كثيراً وأمر أن يؤتى بقلادة الزهر وهي المكافأة التي اعتاد الرومان أن يجازوا بها الشجاعة وقام هو بنفسه بضفرها على رأس (تريبونيوس) معتبراً عمله هذا مأثرة ممتازة في وقت كانت الحاجة ماسّة جداً الى مثل هذه الأمثلة.

وعندما انتشرت هذه الحادثة في روما، ساعدت مساعدة غير قليلة في انتخاب (ماريوس) قنصلاً للمرة الثالثة. وكذلك ادت بالبرابرة وهم في فصل الصيف إلى الاعتقاد بأن القوم لا يرغبون في ايداع مقدارتهم الى جنرال آخر غيره. على أن وصولهم لم يكن مُبتسراً كما انصرف اليه الذهن، فما بدت طلائعهم الاّ وكانت فترة قنصلية (ماريوس) قد انتهت. وحان موعد الانتخاب. وزميله قد قضى نحبه فأُودع قيادة الجيش الى (مانيوس اكويليوس Man-ius Aquilius) وأسرع الى روما فوجد كثيرين من الشخصيات البارزة يزاحمونه المنصب.

وانبرى (لوشيوس ساترنينوس Lucius Saturninus) وهو من ألصق الناس (بماريوس) واكثر الناس تأثيراً على الجماهير بقوة عارضة وذلاقة لسان، واخذ يعمل على اقناعهم بانتخابه قنصلا. وعمد (ماريوس) الى تمثيل دور ذلك المعتفف الزاهد برفضه تسنّم المنصب. وراح (ساترنينوس) يدعوه بخائن الوطن لاستنكافه عن القيادة في هذه المحنة الخطيرة. ولم يكن يصعب على المرء أن يتبين هذه اللعبة المزدوجة. وأن يدرك مسعى (ساترنينوس) لمساعدة

(ماريوس) بفرض انتخابه على الجماهير كضربة لازب، ومع عدم انطلاء اللعبة عليهم فقد انتخبوه قنصلا للمرة الرابعة متعللين بأن الوضع الراهن يحتم عليهم الافادة من درايته، ومن السعود الذي لا يتخلف عنه. وانتخبوا (كاتولوس لاتوشيوس Catulus Latutius) زميلاً له، وهو رجل يجلّه الأشراف كثيراً، ولا تمجّه العامة.

ولاحظ (ماريوس) اقتراب العدو بكامل عدده وعدته وعبوره الألب وضرب معسكره على نهر الرون. فاهتم اولاً باختزان كميات كبيرة من الأرزاق ومواد الإعاشة، لئلا يضطر فجأة الى حرب غير متكافئة بسبب نقص الضروريات. وكان نقل الارزاق للجيش بحراً، يتم بمرحلة طويلة وتعتوره مصاعب جمة فجعله سهلاً وسريعاً. فالطمى والتربة المخلوطة بالطين تراكما بمرور الزمن ليسداً فم الممر الذي تمخره سفن النقل وليجعلاه ضيقاً خطراً. فأمر عسكره وكان في عطلة. أن يحفروا قناةً عظيمة، وحول اليه مجرى القسم الاكبر من النهر ليصل به الى نقطة مناسبة من الساحل، حيث كان عمق الماء كافياً لإمرار السفن ذات الحمولة الكبيرة، فضلاً عن هدوء سطح البحر في تلك الفتحة وخلوها من عوائق الملاحة. ومازالت هذه القناة تعرف باسمه حتّى يومنا هذا.

وقسم العدوّ نفسه الى قسمين: فقرر الكيمبري أن ينازلوا عسكر (كاتولوس) في اقليم النوريكي Norici الجبلّي، وان يقتحموا الشِعْب هناك وينحدروا منه الى داخلية البلاد، وقرر التيوتون والامبرونيون Ambrons أن يزحفوا على (ماريوس) بمحاذاة الساحل خلال اقليم (ليغوريا Liguria). وتأخر (الكيمبري) كثيراً في انجاز مهمتهم. الاّ ان التيوتون والامبرونيين اجتازوا بكلّ خيلهم ورجلهم الأراضي التي تفصل بينهم وبين عدوهم وسرعان ما اصبحوا على مرآى منهم، عدد لا يصدقه العقل! منظره يوقع الهلع في النفوس بصراخهم وصياحهم الغريب. وبعد أن ضربوا معسكرهم في جزء كبير من السهل بدأوا يستفزون (ماريوس) للقتال فلم يبد منه قبول وتجاهلهم كأنهم ليسوا موجودين وابقى جنوده وراء المتاريس والتحصينات، واشتدّ وقسا في تعنيفه كلّ المتهورين والمتحمسين لإظهار بسالتهم من الذين انساقوا الى القتال بدافع العاطفة الجامحة ليس غير، ووصفهم بخونة الوطن قائلاً لهم أن الواجب يقضي عليهم الآن بصرف اذهانهم عن مجد النصر والفوز بغنائم الحرب، وبالتفكير في كيفية صدّ هذا الإعصار الحربيّ الكاسح وانقاذ ايطاليا فحسب.

بهذه الأقوال كان يتحدث في مجالسه الخاصّة مع ضباطه واقرانه الاّ أنه عمد إلى توزيع جنوده بطريقة دورية في نقاط امامية من الاستحكامات لمراقبة العدوّ ومدارسته، وليألفوا شكله وصوته. (وكان والحق يقال بربرياً في هاتين الصفتين مُفرطا بهما) وليتفحصوا عن كثب

اسلحته ويدرسوا طرقهم في استعمالها. ولم يمرّ وقت قصير الاّ ووجدوا ما كان مخيفاً لهم ما هو الاّ شيء عاديّ بعد دوامهم النظر اليه اولاً. اذ كان يدرك بعقله الراجح المتوقد أن غرابة الاشياء كثيراً ما تسبغ عليها مهابة مظهرٍ في حين انها ليست كذلك. وإن معرفتنا الجيدة للاشياء المخيفة والمرعبة حقاً، تفقدها كثيراً من هاتين الصفتين. إن وصاياه وتنبيهاته اليومية هذه لم يقتصر أثرها على التقليل من خوف بعض الجنود، وانما ادت الى اثاره حقدهم واضرام النار في اقدامهم، لاسيما عند سماعهم تهديدات العدوّ وشتائمه القبيحة. هؤلاء الاعداء لم يكتفوا باجتياح الانحاء المجاورة وافناء سكانها وانما تمادوا بالتعرض للتحصينات والاستحكامات الرومانية استهانة بخصمهم واعتداداً بأنفسهم.

واخذت تبلغ اذنيّ (ماريوس) شكوى الجنود المتواترة:

- أيّ خنوثة يجدها (ماريوس) فينا ليحبسنا هكذا داخل المعسكر ويمنعنا من منازلة الاعداء؟ هيا بنا، لنكن رجالاً ولنسأله هل يتوقع من غيرنا قتالاً في سبيل ايطاليا؟ او أنه يريد فحسب أن يستخدمنا في الاشغال التي تخصص بها العبيد، كلما يرغب في حفر اقنية أو كري السواقي واستخلاصها من الطين والاتربة او تحويل مجاري الانهار؟ ام الظاهر أنه لم يُخضعنا الى هذا التدريب العسكري الطويل إلا لتكليفنا بمثل هذه الأعمال، ثم يعود الى الوطن ليفخر امام الشعب بجلائل الاعمال، خلال فترة قنصليته. ايمكن ان يكون اندحار (كاربو Carbo) و(چيپيو Cœpio) امام العدو سبباً في احجامه وجبنه؟ الحق يقال انهما كانا أقل شأناً بكثير من (ماريوس) سواء من ناحية البسالة ام ناحية الشهرة، كذلك كان جيشهما ضعيفاً، وعلى اسوء الاحتمالات فإن القتال وإن تكبدنا به خسائر مماثلة لخسائر العدو، لهو افضل من القعود كالمتفرج العاطل. نشهد خراب حلفائنا وابادة اصحابنا ولا نحرك ساكنا!».

لم يكن سرور (ماريوس) بالقليل من هذه الأحاديث. الاّ أنه ظلّ يهدىء من غلوائهم باسلوب رفيق، ويقول لهم إنه ما ارتاب قط في شجاعتهم إلاّ انه يحسب للنصر حسابه الزماني والمكاني على ضوء تنبؤات معينة.

وكان هذا هو الواقع، فقد اعتاد دينياً أن يحمل معه في سائر تنقلاته في محفّةٍ امرأة سورية تدعى (مرثا) يقال انها نبيّة يوحى لها. فلا يقدم قرابينه إلا بتوجيه منها. وكان مجلس الشيوخ فيما مضى قد طرد هذه المرأة عندما اتصلت باعضائه شخصياً وعرضت تزويدهم بمعلوماتها في هذه الأمور والتنبؤ لهم بمستقبل الأيام. ثم انها مارست صناعتها هذه بين نساء روما، فصرن يراجعنها فاظهرت لهن قوة نبوآتها بالدلائل. وتحمست لها زوج (ماريوس)

بصورة خاصة، ويروى أنها كانت تجلس عند قدميها اثناء قتال المصارعين في الملعب. وتتبنأ لها بالغالب المنتصر من المتبارين وتصيب كبد الحقيقة دائماً. ولهذه العرافة ولغيرها عمدت الى ارسالها (لماريوس) وجيشه. فاحيطت هناك برعاية كبيرة وكانت تنقل غالباً في محفة. وكانت اثناء تقريبها الأضاحي تلبس رداء ارجوانياً مشطباً محزوماً عليها. وتمسك رمحاً صغيراً مزدانا بالقلائد والشرائط. وكان هذا المشهد المسرحي مثار تساؤلات كثيرة عما يقصد (ماريوس) منه. هل انه يؤمن بها ويثق بنبوآتها شخصياً أم انه يتظاهر بذلك زيفاً فيعرض ساحرته بهذه الهيئة ليبهر جنوده بها.

على إن ما يرويه الاسكندر المنداني Myndian عن العُقبان يستدعي الدهشة والعجب حقاً، فهو يقول أن طائرين من هذه يظهران دائماً قبل اي انتصار يحققه ماريوس ويرافقان الجيش وهما يتميزان بطوق نحاسي يحيط بعنق كل منهما (كان الجنود قد امسكوا بهما وطوقوهما واطلقوهما، ومنذ ذلك الحين اصبحا على معرفة بالجنود بكيفية ما، واعتادا تحيتهم!) وكان الجنود يغتبطون كلّما ظهرا لهم اثناء سيرهم ويداخلهم شعور اكيد بإصابة نجاح ما. وكان معظم الخوارق التي لوحظت في ذلك الزمن، ذات طابع اعتياديّ. وعلى كُلٍّ فقد ذكر عن ظهور رماحٍ نارية وتروس في سماء مدينتي (اميريا Ameria) و(تودر Tuder) الايطاليتين ليلاً، ترى وهي تتحرك في الفضاء آنا ثم تشتبك بعضها ببعض وتتقارع مثلما تتقارع الاسلحة في ايدي الجنود اثناء معركة حقيقية. ثم ينسحب فريق من هذه الاسلحة فيطارده الفريق الآخر ويغيب الكلّ معاً من ناحية الغرب. وفي حدود ذلك الزمن تقريبا جاء من (پسِّينوس Pessinus) أحد كهنة (كيبيل Cybele) ويدعى (باتاشيس Bataces)، واعلن لمجلس الشيوخ أن الربة صرحت له بوحي انزلته عليه فحواه أن الرومان سيكسبون الحرب. فصدقه الشيوخ وصوّتوا على اقامة معبد لها تعشّما بنصر. إلاّ أن (آولوس پومپيوس Aulus Pompeius) التريبيون اعترض سبيل (باتاشيس) عندما هَمّ برواية قصته هذه للشعب، ووصفه بالدّعي وجرّه من فوق المنصّة بصورة مخزية، الأمر الذي كان في النهاية عاملاً رئيساً في الوثوق بقصّة الرجل، اذ فما كاد الاجتماع العام ينفض ويعود (آولوس) الى بيته حتى ركبته حمّى شديدة واصبح شائعاً على لسان الجميع انه مات بعد اسبوع واحدٍ من تلك الحادثة.

وحاول (التيوتون) مهاجمة معسكر (ماريوس) وهو ساكن لا يأتي بحركة. ولكنهم بعد أن واجهوا وابلاً في مقذوف الرماح وخسروا عدداً من رجالهم قرروا الزحف الى الامام بقصد الوصول الى الجهة الأخرى من جبال الألب دون مقاومة. فشدوا اثقالهم ومروا بامان بجانب المعسكر الروماني وظهرت للعيان كثرة عددهم وخاصة من الوقت الطويل الذي استغرقوه في

المرور من امام استحكامات (ماريوس) ولم يكونوا يبعدون كثيراً ولذلك أخذوا ينادون المعسكرين الرومان ويسألونهم بلهجة مهينة هل يودون أن يزوّدهم بوصايا لزوجاتهم فهم سيكونون معهنّ عما قريب! وظلّ سيلهم لا ينقطع ستّة ايام حتى اذا مروا جميعاً واصبحوا على مسافةٍ مناسبة، بدأ (ماريوس) بالحركة واخذ يتبعهم على هونه يعسكر دائما على مبعدة قليلة منهم، متخيراً المواقع القوية لمعسكره، ومهتماً بتحصيناته غاية الاهتمام حتى يضمن السلامة للجيش. وهكذا واصلوا السير حتى بلغوا موقعاً يدعى مياه (سكستيليوس: Sextil-ius)، وهو موضع لا يبعد كثيراً عن قلب جبال الألب. وهنا تهيأ (ماريوس) للقتال.

واختار موقعاً لمعسكره في غاية المناعة، الاّ انه كان شحيح الماء وقيل انه كان يريد بهذا أن يضع صبر رجاله وشجاعتهم على المحك وعندما برّح الفنى بعدد منهم وشكوا العطش قال لهم مشيراً الى النهر الذي يجرى بالقرب من معسكر العدوّ:

- قد تنالون شربة ماء من هناك إن ابتعتموها بدمائكم.

فأجابوه متسائلين: اذن فلم لا تقودنا اليهم قبل أن تجفّ دماؤنا في عروقنا؟

فقال لهم بلهجة أرق: فلنحصن اولاً معسكرنا.

فباشر الجنود بتلبية الأمر متذمرين. ثم خرجت جماعة كبيرة من اولاد المعسكر ومن يلحق به من خدم الى النهر تستسقي لنفسها ولخيولها واخذ بعضهم فؤوساً وبلطات وبعضهم تسلح بالسيوف والرماح الى جانب آنية الماء، مصممين على الفوز بالماء وإن قاتلوا في سبيله فاصطدموا إلا بشرذمة صغيرة من العدوّ معظمهم كان قد انتهى او كاد من استحمامه وهم يأكلون ويشربون بينما واصل عدد آخر الاستحمام وكانت البقاع المجاورة ملأى بالينابيع الحارة. فانقض الرومان على قسم منهم وهم في شغل عنهم بالاستمتاع بمشاهد الطبيعة الرائعة وجمالها. ولما سمع الصياح هرع الى القتال اعداد أخرى. وعانى (ماريوس) صعوبة كبيرة في كبح جماح جنوده الذين داخلهم الخوف على خدم المعسكر، ولبىّ نداء الاستغاثة اولئك المحاربون الأمبرونيون الاشداء الذين هزموا (مانليوس) و(كيپيو) وانتفضوا فاحتقبوا سلاحهم وهرعوا الى القتال ثلاثين ألفاً او يزيدون عَدّاً رجلاً على رجلٍ.

ومع ان هؤلاء كانوا قد اتخموا انفسهم بالطعام، وسرت فيهم النشوة والهياج من فرط الشرب. إلاّ انهم تقدموا بخطى ثابتة منتظمة، لا يظهر عليهم ذلك الهياج الجنوني ولم تكن صيحاتهم مجرد ضجّة غير مفهومة. وانما تقارعوا السلاح باتساقٍ وساروا سيراً موحد الايقاع وكانت قفزاتهم وخطواتهم الأمام منتظمة مع تكرارهم لفظة «آمبرون!» إما لتشجيع بعضهم

بعضاً أو لايقاع المزيد من الرعب في اعدائهم. وكان الليغوريون أول الطاليان المهاجمين من جيش (ماريوس). وعندما طرقت اسماعهم صيحة العدوّ الغامضة، ردّوا عليها بصيحة مماثلة، لأن «امبرون» هو اسم بلادهم القديم والليغوريون يستخدمونه دائماً عند الاشارة الى مبنتهم واسلافهم. وانتقل هذا الهتاف من جيش الى جيش، قبل أن يشتبكا، وعملت على تصاعد حماستهم واندفاعهم في حين جاهد الرجال من الجانبين في رفع عقائرهم لتعلو اصوات بعضهم على اصوات بعض.

واوقع النهر الفوض في صفوف الأمبرونيين. فقبل أن يتمكنوا من ترتيب صفوفهم على الجانب الآخر منه، انقض الليغُوريون فوراً على الطلائع وبدأوا يقاتلونهم يداً بيد. ثم تقدم الرومان ايضاً لمعونة اصحابهم هؤلاء وانحدروا من المرتفعات على الاعداء كالسيل الجارف وصكوهم صكاً عنيفاً ودفعوا واحدهم الآخر الى النهر وذبحوا معظمهم فيه وصبغوا ماءه بدمائهم وملأوا قاعه بجثثهم. وتلقى الرومان اولئك الذين عبروا النهر سالمين وقتلوهم اثناء ما كانوا يهربون الى مركباتهم ومعسكرهم وانبرت نسوة العدوّ للرومان بالسيوف والفؤوس وهن يصرخن صرخات منكرة، ينعتن الهاربين بالخيانة والجبن، ويهجمن على المطاردين كاعداء واختلطن بالمقاتلين يعاركن الرومان باذرعهن العارية على تروسهم وينتزعنها منهم ويتشبثن بسيوفهم متحملات الجراح وتمزيق اجسامهن الى آخر نفس بعزمٍ لا يلين. وهكذا بدت معركة النهر من قبيل الصدف، لا من سبق تخطيط القائد.

وما أن انسْحب الرومان بعد المذبحة التي اوقعوها في الامبروتيين حتى جنّ الليل. ولكن الجيش لم يكن عاكفاً كالعادة على انشاد اغاني النصر وشرب الراح واقامة المآدب المتبادلة (وهو ما يغرم به الجندي بعد القتال الناجح) ثم النوم الهادىء. وانما قضى ليلة نابغية حافلة بالخوف والقلق. فمعسكره مكشوفٌ لا يحميه خندق ولا متاريس. وهناك قبالتهم الآف مؤلفة من الاعداء لم تلحق بهم هزيمة انضم اليهم كل من نجا من الامبروتيين. وتناهت اليهم طوال الليل اصوات عويل وحشي لا يشبه آهات وانات البشر، بل هو أقرب شبهاً بعداء الضواري تتخلله اللعنات والشتائم مختلطة بالتهديد والوعيد، والنواح العظيم مرتفعاً من حناجر تلك الحشود الهائلة، ليرجع صداه الجبال المجاورة، وضفاف النهر الفقراء وامتلأ السهل كله بضجيج رهيب بعث رعباً ليس بالقليل في الرومان، وجعل (ماريوس) يخشى قتالاً ليلياً مضطرباً على شكل غارة إلاّ ان العدو لم يخرج من مكامنه لا في الليل ولا في النهار الذي عقبه وانما انشغل في تثبيت مواضعهم واحتلال مواقع قوية جداً في المرتفعات.

وافاد (ماريوس) من هذه الفرصة أحسن فائدة. فقد كان يوجد فيما وراء مواقع العدوّ بعض

المرتفعات المشجرة، والوديان العميقة التي تغطيها الغابات. فجردَ اليها (كلوديوس مارچللوس) على رأس ثلاثة آلاف من الجنود النظاميين وأمره أن يزحف اليها خفية ويضع جنوده في كمائن هناك، تخرج لتتعرض الى مؤخرة العدوّ حال بدء القتال. أما هو فقد عمل على اراحة عسكره بالنوم والغذاء ولما اصبح الصبح أخرجه وصفه للقتال أمام معسكره، واصدر أمراً للخيالة بالنزول الى السهل والطراد في ارجائه. فلم يتمالك (التيوتون) اعصابهم للمشهد ولم يطيقوا انتظاراً لانحدار الرومان اليهم حتى يقاتلوهم في احوال متكافئة وانما احتقبوا السلاح وصعدّوا المرتفع لمهاجمتهم. وبعث (ماريوس) بضباطه الى جميع وحدات جيشه يوصيها بعدم الحركة وبالثبات في امكنتهم حتى اذا بات العدوّ قريباً امطروه بوابل من الرماح، من ثم يلجاؤن الى السيوف، وبعدها يضموّن تروسهم بعضها الى بعض ويدفعون بقية المهاجمين بها دفعاً الى الخلف. واشار بأن انحدار الأرض الشديد ستجرد ضربات العدوّ من اي أثرٍ فعالٍ ولن تسمح له بضمّ التروس البعضِ الى بعضها، فضلا عن أن طبيعة الأرض المتعادية ستفقده ميزة الصمود والثبات.

وكان (ماريوس) أول من طبق الأمر الذي اصدره. اذ لم يكن ليقلّ عن أحد في متانة الجسم ونشاطه ولم يفقه احدٌ في شدة العزم. وهكذا استعد الرومان لمقدمهم واوقفوا اندفاعهم الى المرتفع ثم ارغموهم على التقهقر شبراً شبراً حتى ازاحوهم عن المرتفع وقذفوا بهم الى السهل. وهنا أخذ (الأمبرونيون) يلمون شعث المقدمة ويصلحون صفوفها ليواجهوا العدوّ بالمقاومة، فاذا بمؤخرتهم تدب فيها الفوضى. لأن (مارچللوس) لم يضيع الفرصة. فما أن ارتفعت الصيحة من الرومان المتمركزين في المرتفعات حتى أمر جنوده بالخروج من مكامنهم وانقضّ على العدوّ من الخلف انقضاضاً صاعقاً وهم يطلقون صيحات عظيمة، فهزموا أقرب وحدات العدوّ اليهم فهربوا واخترقوا صفوف من يليهم ونشروا اضطراباً عاماً في جيشهم. ولم يحاولوا إطالة المقاومة بعد أن دب دبيب الفوضى في صفوفهم ولم يعد يجمعهم نظام فولوا الأدبار. فولوا لاحقهم الرومان وقتلوا واسروا منهم مائيون على مائة الف وظفروا باسلابهم وغنموا خيامهم وعجلاتهم، وصوتوا على أن يكون من سهم (ماريوس) كل ما لم ينهب ومع أن المكافأة جزيلة إلاّ انها اعتبرت عموماً بأنها أقل مما يستحق اذا قورنت بالخطر العظيم الذي واجهه. واورد كتاب آخرون رواية مختلفة حول تقسيم الأسلاب وعدد القتلى. ويذكرون على كُلّ أن سكان (ماسيليا Massilia) عملوا اسيجة حول كرومهم من عظام القتلى وزادت خصوبة الأرض بتحلل الجثث وتفسخها بعد أن تشبعت بامطار الشتاء التالي ودرّت محصولاً عظيماً لا مثيل له في ذلك الموسم فاصدقت رأى (ارخيلوخوس) القائل بأن الأرض البائرة

هكذا تُسمد وتخصب. والذي يلاحظ كذلك عموماً ان امطاراً غزيرة غير اعتيادية تعقب المعارك الكبيرة. ويعلل بعضهم ذلك أن القوى الربانية تقوم بغسل الأرض النجسة وتطهيرها بصبّ سيول الماء عليها من السماء اثر المعركة، أو لأن الرطوبة والتبخر الثقيل المتصاعد من الدم المسفوح وغازات التفسخ والعفونة، من شأنها أن تكثف الهواء المعرض الى التغير لأقل سبب بطبيعة الحال.

وبعد انتهاء المعركة تخيرّ (ماريوس) من بين اسلاب البرابرة واسلحتهم أنفسها واجملها لتكون اروع مشهدٍ من مشاهد موكب نصره. أما الباقي فقد كدّسه فوق محرقة عظيمة، وقدّم قرباناً فخماً رائعاً، تحف به الكتائب باسلحتها وقلائدها. وكان (ماريوس) مشتملاً برداءٍ ذي اهداب ارجوانية كما يفرضه الزّي الشائع لتلك المناسبات، ثم انه امسك مشعلاً ملتهباً ورفعه بكلتا يديه نحو السماء، وفيما هو يريد وضعهُ على المحرقة، اذ لمح كوكبة من الفرسان تتجه نحوه تحثث خيلها بسرعة عظيمة فساد صمت شاملٌ في الجنود وبدت عليهم سيماء الترقب والتشوف، ولما وصل الفرسان حيث يقف (ماريوس) ترجلوا قفزاً وحيّوه وابلغوه بنبأ انتخابه قنصلاً للمرة الخامسة ودفعوا اليه بالرسائل الناطقة بذلك. فزاد هذا فرحاً عظيماً الى الحفل الديني. وفيما كان الجنود يقرعون اسلحتهم بعضها ببعض ويهتفون عمد الضباط الى تتويج (ماريوس) باكليل الغار دفعةً أخرى. وتقدم بهذه الهيئة من المحرقة والقى المشعل فيها واكمل تضحيته.

ولكن أيهّا كانت القوى التي تتدخل للحيلولة دون التمتع بالنعم تمتعاً تاماً لا يشوبه كدر او نغصة، او الى اي شيء يُعزى تغيير شؤون البشر الى ما هو مزيج من السيء والحسن. أهي عوامل الحظ، او غضب القوى العلوية، أو الضرورة التي تحتمها طبيعة الأشياء، فإن (ماريوس) تسلم بعد ايام قلائل تقريراً عما حصل لزميله (كاتولوس)؛ اشبه بغيمةٍ في هدؤها وجهامتها، فنشر الهلع في روما وافعم النفوس توجساً باقتراب عاصفة هوجاء. وخلاصة الأمر: أن (كاتالوس) الذي توجه بجيشه نحو (الكيمبري) رأى أن الدفاع عن ممرات الألب يكاد يكون متعذراً، لأنه سيرغمه على تجزئة قواته اجزاءً عديدة، فيضعف نفسه. فما كان منه الاّ وانحدر من منطقة الجبال عائداً الى ايطاليا واتخذ مواقعه فيما وراء نهر (أديغه Adige) بعد أن حصّن كل المسالك المؤدية اليه باستحكامات قوية على الضفتين. ثم اقام على مجرى النهر جسراً يستخدمه لمساعدة رجاله المتمركزين في الجانب الآخر اذا ما قرر العدوّ مهاجمة الاستحكامات بعد نجاحهم في شق طريقهم اليها عبر ممرات الجبال. على كلّ، تقدم البرابرة بكلّ جرأة مستهينين قوة الرومان ومظهرين مدى قوتهم وشجاعتهم فحسب دون أن تدعو الى

ذلك ضرورة عسكرية. ساروا وهم عراة تحت وابل متساقط من الثلج وفوق الجمد والثلج الكثيف. حتى بلغوا القمم الشاهقة ومنها نزلوا المنحدر باستلقائهم على تروسهم العريضة وانزلاقهم فوق سفوح واسعة حادة الى تحت.

ثم انهم ضربوا خيامهم على مقربة من النهر، واستشرفوا الممر فأخذوا يردمونه ويسوونه باذلين مجهوداً جباراً، مزيلين المرتفعات المجاورة وناقلين اشجاراً مقتلعة من جذورها مع اكداس من التراب الى النهر ليعملوا سّداً فيه لقطع مجراه، وبعد ذلك دفعوا بموادّ ثقيلة عظيمة الى المجرى لتصدم الجسّر وتقوض الدعائم التي ترفعه، وهذا ماحدا بمعظم جنود الرومان الى ترك المعسكر الكبير وهروبهم خوفاً. وهنا أظهر (كاتالوس) نبلاً وانكار ذات بتقديم سمعة شعبه على سمعته. فحينما عجز عن اقناع جنوده بالبقاء، كل تحت رايته، ورأى بأم عينه كيف اولوها ظهورهم وتركوها، أمر أن يؤتى بلوائه الخاص ورفعه واستبق به اوّل الهاربين وجعله في مقدمتهم وقاد عملية التقهقر مفضلاً ان يقع العار عليه ولا يقع على بلاده، ولكيلا يبدو الأمر فراراً بل مجرّد عملية انسحاب وراء القائد العام. وهجم البرابرة واحتلوا الحصن الذي هو على الجانب الآخر من نهر (اديغة) واعجبوا كثيراً بالرومان القليلين لمنتهى البسالة التي ابدوها في قتالهم قتالاً جديراً ببلادهم، واطلقوا سراحهم بشروط وجعلوهم يقسمون على عِجْلهم النحاسيّ الذي غنم منهم فيما بعد وحمل بعد المعركة الى منزل (كاتولوس) على ما يقال بوصفه اعظم تذكار للنصر.

وهكذا اندفعوا في ارجاء البلاد كافة واجتاحوها وعاثوا فيها ما طاب لهم وهي مجردة من اي دفاع. واستدعي (ماريوس) الى روما فوراً. وتوقع الجميع عند وصوله أن يدخل دخول الظافر كذلك صوّت مجلس الشيوخ بالاجماع على ذلك، إلاّ أنه لم ير ذلك مناسباً. وسواء أدفعه الى هذا عدم رغبته في حرمان جنوده وضباطه نصيبهم من المجد، أو تركه التكريم الذي يستحقه نصره السابق وديعةً في يد المدينة، وحظها المقبل، تشجيعاً للشعب في هذه الفترة، فأجله الآن ليستوفيه فيما بعد بصورة اكثر فخامة وروعة. وبعد أن أعلم الناس بقراره هذا ترك الاوامر التي تتطلبها معالجة الحالة واسرع الى (كاتالوس) الذي ارتفعت معنوياته كثيراً بقدومه بعد ان كانت قد بلغت الحضيض وارسل يسحب جيشه الخاص من بلاد الغاليين فما ان وصل قاطعاً نهر (البو) حتى اخذ يعمل على منع البرابرة من دخولهم للجزء الجنوبي من ابطاليا فيما يلي ذلك النهر.

وكانوا ينتظرون التحاق (التيوتون) بهم، ويبدون دهشتهم وحيرتهم من مرور زمن طويل دون ان يظهر لهم أثر. ولهذا ارجاؤا الدخول في معركة. أمّا جهلاً منهم بأندحار اصحابهم أو

تجاهلاً وعدم رغبة في الظهور بذلك. إذ مما لاشك فيه انهم عاملوا اولئك الذين جاؤا اليهم بهذه الانباء معاملة في منتهى القسوة. وبعثوا الى (ماريوس) يطلبون رقعة من البلاد لهم ولإخوانهم ومدنا ملائمة ليعيشوا فيها. ولما سأل (ماريوس) سفراءهم عمن يكون اخوانهم هؤلاء، واجابوا: (ألتيوتون)، قهقه كل من كان حاضراً، واجابهم (ماريوس) متندراً:

- لا تتعبوا أنفسكم في سبيل اخوانكم. فقد سبق لنا وخصصنا لهم ارضاً سيبقون مالكين لها الى الأبد الأبيد.

وادرك السفراء وجه السخريّة في القول، فانفجروا يشتمون ويتوعدون قائلين أن (الكيمبري) سيجعلونه يدفع ثمنا غالياً، وكذلك (التيوتون) حينما يأتون. فاجاب (ماريوس):

- إن مكان اخوتكم هؤلاء ليس على مسافة بعيدة من هنا، وسيكون من القسوة أن تغادروا الأرض قبل أن تزوروهم.

وما أن انهى قوله حتى أمر بأن يُجلب امراء التيوتون وهم مكبلون بالسلاسل. فقد أسرهم (السيكواني Sequani) في جبال الألب ولم يفلحوا في الفرار منهم. وما أن ذاع هذا الأمر بين (الكيمبري) حتى هبوا بجموعهم لنزال (ماريوس) الذي ظلّ ساكنا يقظاً على معسكره. وقيل أن (ماريوس) استعداداً لهذه المعركة، احدث اولاً تعديلاً في تركيب الرمح الروماني الخفيف. فقد كان يوجد في موضع شدّ السنان الحديدي بقناة الخشب مسماران حديديان ثابتان، فترك (ماريوس) احدهما على حاله واستغنى عن الثاني بشظية خشبية ضعيفة، وكانت الحيلة التي توخاها من ذلك أنه عندما ينفذ الرمح في ترس الخصم لا يخرج السنان من الطرف الآخر مستقيما فيسهل نزعه. بل تنكسر الشظية الخشبية بفعل الطعنة فيلتوي السنان ويعوّج ويعصي ولا يعود الترس مؤشراً في القتال.

ثم أن (بيوريكس Boeorix) ملك الكيمبري جاء الى المعسكر الروماني بكوكبة صغيرة من الخيالة، وتحدى (ماريوس) للنزال في زمان ومكان معينين ليقررا مصير البلاد فودّ (ماريوس) قائلاً «إن الرومان لا يستشيرون اعداءهم في مواعيد قتالهم. ومع هذا فيسحقق طلب الكيمبري من هذه الجهة». وعليه تقرر أن تكون المعركة بعد ثلاثة أيام وعُيِنّ موضعها في سهل يقع على مقربة من (فرچيللي Vercelloe) وهو ميدان مناسب جداً لحركة الخيالة الرومانية. كما أنه يتيح (للكيمبري) فرصة استعراض قواتهم الجرارّة وعددهم الكبير.

وحافظ الطرفان على الموعد واخرج كل منهما قواته وصفها قبالة الآخر. وكانت قوة

(كاتولوس) تبلغ عشرين الفاً وثلاثمائة مقاتل. امّا (ماريوس) فكان تحت امرته اثنان وثلاثون ألفاً، وزعهم على الجناحين تاركاً القلب لقوات (كاتولوس). وهذا ما يقوله (سيللا) الذي كان حاضراً المعركة، ويضيف أيضاً أن (ماريوس) أختار لجيشه هذه المراكز لتوقعه ان يكون التحام الجيوش على الاجنحة، لأن الذي يحصل عموماً في المعارك ذات الجبهات العريضة أن القلب يتقهقر. وبذلك يستأثر هو وجنوده بثمار النصر كله ولا يخلّف (لكاتولوس) شيئاً، اذ لايتاح له فرصة للاشتباك الفعليّ. ويروون لنا أيضاً أن (كاتولوس) فسّر الموضوع هكذا انتصافاً لشرفه وانتقاماً لسمعته، واتهم انانية (ماريوس) وحسده، بشتى الصور ومختلف الاتهامات.

زحف مشاة (الكيمبري) بكلّ هدوء خارج استحكاماتهم. وجعلوا خطّ كل جناحٍ من جناحيهم مساوياً بالطول للجبهة. وكان كل جانب عيَدّ ثلاثين فرلنفاً. وكان منظر خيالتهم التي تعد خمسة عشر الفا، من أروع المناظر وافخمها. فخوذهم كانت تشبه رؤوس وفكوك الضواري والوحوش وغير ذلك من الاشكال الغريبة. يتوجها ضمّات من الريش تجعلهم يبدون اكثر طولاً مما هم فعلاً، وكانت دروع صدورهم من الحديد، وتروسهم تسطع بياضاً. واما عن سلاحهم الهجومي فقد تزودّ كل واحدٍ منهم برمحين. وفي القتال القريب كانوا يستخدمون سيوفاً ثقيلة كبيرة.

ولم تنقض خيالتهم على جبهة الرومان مباشرة. وانما اتجهت الى اليمين، تريد أن تجرهم الى تلك الجهة شيئاً فشيئاً الى ان تجعلهم بينهم وبين مشاتهم الذين كانوا في المسيرة. وأدرك قوّاد الرومان الخطة من اول وهلة إلاّ أنهم لم يستطيعوا كبح جنودهم إذ هتف أحدهم أن العدو يلوذ بالفرار فاندفع الكلّ لملاحقته وتقدمت مشاة البرابرة مثلما تزحف مياه البحر العظيم. وهنا غسل (ماريوس) يديه ورفعهما الى الأعلى نحو السماء، ناذراً قربان الهيكاتوم الالهة. وقطع (كاتولوس) على نفسه عهداً وهو واقف بهذه الهيئة الخاشعة أن يكرّس معبداً لـ«حظّ ذلك اليوم». ويروون أيضاً أن (ماريوس) صاح بصوت عظيم عندما عرضت عليه الذبيحة اثناء التضحية:

- النصر هُوَ لي!

ومهما يكن من أمرٍ فقد صادف (ماريوس) في الاشتباك، ما يمكن أن يطلق عليه باشارة عدم رضاً من الالهة فعليَ ما يرويه (سيللا) واصدقاؤه ثار غبار عظيم حجب الجيشين عن الرؤية معاً (فعلى اغلب الإحتمال ان ذلك حصل). وفقد ماريوس اثر العدو اثناء مطاردته ومر بالقرب من تحشداتهم دون ان يعثر عليهم وتحرك في مجالات واسعة خلال ميدان القتال ذاهباً

آيباً بلا جدوى. وفي تلك الأثناء اصطدم العدوّ بمحض الصدفة. بقوات (كاتولوس) واشتبك معه. وتحولت وطأة القتال الرئيسة عليه وعلى جنوده. وكان بينهم (سيللا) كما يزعم. ويضيف قائلاً ان الرومان أفادوا فائدة عظيمة من الحرّ والشمس التي كانت تلفح وجوه (الكيمبري). فهولاء القوم وهم خير من يصبر على البرد، لأنهم نشأوا في بلاد باردة كثيرة الظلّ كما اسلفنا، لم يسعهم احتمال شدة الحرّ وعرقت اجسامهم عرقاً كثيراً، واخذوا يلهثون وتقطعت انفاسهم واضطروا الى ستر وجوههم بتروسهم. فالمعركة وقعت في زمن غير بعيد كثيراً عن انقلاب الصيف وهو عند الرومان اليوم الثالث قبل القمر الجديد للشهر الذي يُسمى الآن (أغسطس)، وكان قبلاً (سكستيليس). وعززّ الغبار من شجاعة الرومان تعزيزاً ليس بالقليل لأنه حجب العدوّ عنهم، ولم يترام بصرهم بعيداً ليتبينوا اعداد العدوّ الضخمة فيتهولوها. وانما تقدم كل جندي لقتال أقرب الخصُوم اليه وتم التحامهم قبل أن يُلقي منظر حشود العدوّ الهائلة الرعب والفرق في نفوسهم. ولقد بلغ من شدة تدريبهم وتعودهم اشق الأعمال أنه لم يصب أحد منهم بخور في قواه ولا عَرِق جسمه في ذلك القيظ المحرق وجهد المعركة. ولم يخف هذا حتى ملاحظة (كاتولوس) نفسه فسجلّه على سبيل المديح لجنوده.

وفي هذا الميدان أبيد ابادة تامة معظم شجعان العدو واكثرهم بسالة. وعمد من كان يقاتل في الجبهة الأمامية الى ربط أنفسهم بعضهم ببعض بسلسلة طويلة تمرّ من خلال احزمتهم كيلا لا ينكسر خط قتالهم ورأى الذين طاردوا العدوّ المقهور الى معسكره مأساة رهيبة. راؤا النساء يقفن في المركبات وهن متشحات بالسواد يوقعن ذبحاً بكلّ هارب من الميدان الزوجات يقتلن ازواجهن. الأخوات يردين اخوانهنّ، وآباءهنّ، ويخنقن اولادهن بأيديهن، ويلقين بهم تحت العجلات واقدام الماشية ثم يبخعن انفسهن. وروي عن واحدة منهن شنقت نفسها من رأس عمود مركبة بعد أن شدت اولادها في قدميها وتركتهم يتدلون منها. وانهى الرجال حياتهم بشد أنفسهم في قرون الثيران. وبعضهم ربط عنقه الى اقدامها. ثم يروحون يحثونها ويثيرونها بالوخز فتجفل وتتواثب لتستحقهم تحتها وتمزقهم ارباً. وقد لجأوا الى هذه الطريقة في الموت لعدم وجود اشجار يشنقون انفسهم عليها. ومع كل هذا الانتحار والمذابح فقد وقع منهم في الأسر ستون ألفاً او يزيدون. وأما عدد القتلى فقد بلغ على ما قيل ضعف هذا العدد.

وروي ايضاً أن الأسلاب الاعتيادية استولى عليها جنود (ماريوس) أما الغنائم الأخرى كالرايات والابواق وما اشبه فقد جيء بها الى معسكر (كاتولوس). وقد اقام بها الحجّة الدامغة على أن النصر كان من عمله وعمل جيشه. ونشأ بعض الخلاف بين الجنود مما هو

طبيعي، فنصب المنتدبون من (پارما Parma) الذين كانوا موجودين حينذاك، محكمين للفصل في النزاع. ورافقهم جنود (كاتولوس) في طوافهم بين جثث الاعداء، مثبتين لهم أنهم صرعوا برماحهم التي تميزت عن غيرها باسم (كاتولوس) الذي كان منقوشاً على خشب كل رمح. وعلى اية حالٍ فقد عزي مجد المعركة كله الى (ماريوس) بسبب نصره السابق، ولأنه تمّ تحت راية سلطته الحالية. وتمادى الجمهور في تكريمه فعدّه المؤسس الثالث لمدينتهم. لأنه ازال عنها خطراً لا يقل أثره عن الخطر الذي استهدفت له عند حصار الغاليين لها. وعمد كل روماني في احتفالاته ومهرجانات الفرح في المدينة الى تقديم القرابين الصلبة والمائعة مع زوجه واولاده تكريماً لـ«للأرباب ولماريوس» وكان الجميع يودون أن ينال وحده شرف موكبي النصر، ولكنه لم يفعل وانما اشرك (كاتولوس) ودخلا معاً، يريد ان يظهر زهده وايثاره حتى في مثل هذه المناسبات السعيدة العظيمة. زد على هذا ان خوفه لم يكن بالقليل من جنود جيش (كاتولوس) لئلا يحاولوا حرمانه من موكبه الظافر إن عمد الى حرمان جنرالهم من هذا الشرف حرماناً تاماً.

كان (ماريوس) في هذا الزمن يزاول سلطات قنصليته الخامسة، عندما ازف موعد الانتخاب فرشح نفسه للسادسة بشكل لم يسبقه فيه أحد من قبل. وبصورة مغايرة لترشيحه الأول ايضاً. فقد اخذ يخطب ودّ العامة بالتزلف اليه مستخدما كل نوع متصور من الوعود والتنازلات، ولم يكتف باهانة وظيفته الرسمية والحط من مكانة سلطانه الرفيع بهذا السلوك وانما ابتذل شخصيته بمحاولته الظهور بمظهر الشعبيّة والتواضع، وهو خلق بعيد عما جبل عليه من طبع. وعلى ما يقال كانت شدة طموحه الى الشهرة والبروز على الاقران قد جعلته كثير التردد في أمور السياسية كافةً، شديد الخفر والاحجام عن مواجهة الاجتماعات العامة الشعبية فترى حضور بديهته المتناهي الذي يواجه به العدوّ في سائر المعارك، يخذله دائماً كلما واجه الجمهور، فيعتريه الاضطراب ويتغيرّ حاله ويفلت زمام نفسه منه لأقل ثناء أو نقدٍ. وذكر عنه مرّةً انه منح حرية المواطنة لألف من أهل (كاميرينوم Camerinium) لاستبسالهم وتفانيهم في حربه الاخيرة. ولم يتبع في ذلك الأصول القانونية على مايبدو. فلما نوقش الحساب أجاب قائلاً:

- إن صوت القانون لضعيف حتى انه لا يسمع في مثار النقع وضجّة الحرب.

على انه كان أضعف واكثر اضطرابا من القانون بالضجة التي تثيرها الاجتماعات العامة. حقاً أن ركون الشعب اليه في الملمات والحرب ضمن له السلطان والهيبة. إلاّ انه يعدم الحيلة في الشؤون المدنية ولما يدركه اليأس من احرازه المقام الأول فيها يلجأ مضطراً الى خطب ودّ

الجماهير او اليها. ولا يهتمّ بأن يكون رجلاً صالحاً مادام عظيماً.

ولهذا كرهه الأشراف. وكان (ميتللوس) أخشى من يخشاه منهم بعد أن انكر عليه حسن صنيعه واساء معاملته. و(ميتللوس) فضلا عن هذا يمتاز بسجايا عالية تجعله عدواً طبيعيا لمن ينشد الحظوة عند الشعب بطرق غير مشرفة، كالتزلف، والمصانعة والرياء؛ ولذلك عمل (ماريوس) جاهداً على نفيه من المدينة، فارتبط بكلّ من (غلاوشيا Glaucia) و(ساترنينوس Saterninus) وهما رجلان يمتازان بالجراة، ويتمتعان بسلطان كبير على الجماهير المعدمة الناقمة. وبمعونتها استصدر قوانين عديدة. واستقدم الجنود لحضور الجمعية العامة فحقق بذلك الغلبة على (ميتللوس).

يقول (روتيليوس Rutilius) (وهو من المراجع الأمنية المنصفة إلاّ في هذا الموضع لأنه يبطن عداء لماريوس): «إن (ماريوس) لم يفز بقنصليته السادسة الاّ بعد توزيعه مبالغ طائلة من المال على «القبائل» فتم له إسقاط (ميتللوس) بهذه الرشوة. كذلك سعى الى انتخاب (ڤاليريوس فلاكوس Valerius Flacchus) قنصلا ليكون اداة بيده لا زميلا له.» والواقع هو ان الشعب لم يخلع على رجلٍ روماني مثل هذا القدر من الفترات القنصلية خلا (ڤاليريوس كورڤينوس). وهذا نفسه لم ينل قنصليته السادسة والأخيرة إلاّ بعد مرور خمسة واربعين عاماً على آخر قنصلية له. في حين واصل (ماريوس) منصبه بلا انقطاع بمحالفة الحظّ.

وجرّ على نفسه اكثر النقمة والمقت في قنصليته الأخيرة. لإرتكابه عدة مخالفات كبيرة ترضية (الساترنينوس) وتحقيقاً لاطماعه. فقد اقدم خدينه هذا على قتل (نوينوس Nonius) منافسه على منصب التريبيون. وبعد فوزه به، اصدر قانوناً يقضي بتقسيم الأراضي يتضمن مادة توجب على اعضاء مجلس الشيوخ أن يقسموا يمين المصادقة على اي قرار يصوت عليه الشعب وعدم معارضته فيما يرتيئه. وفي المجلس تظاهر (ماريوس) أنه غير موافق على إعمال هذه المادة رياءً ومكراً، وقال أنه لن يقسم يميناً كهذا قط، ولا يعتقد بوجود شخصٍ عاقل يقبل بها. وإن لم يكن في القانون ما يوجب المؤآخذة فان مجرد وجود عنصر الإرغام فيه يعتبر اهانة للمجلس وحطّاً من قدره باظهاره مجرداً من اية سلطة. لم يصرّح (ماريوس) بهذا الرأي لاقتناعه بصحته، وانما توسل به، لايقاع (ميتللوس) في فخ لافكاك له منه. (فماريوس) الذي كانت اخلاقه ومثله تدور حول المخادعة والمكر، لم ير معرة في الرجوع امام المجلس عن هذا الرأي في حين كان يعلم أن (ميتللوس) هو من اولئك الذين يتمسكون بمعتقداتهم ولا يحيدون عنها مهما كلفهم الأمر. ويرون «الحق اول عناصر البطولة» على حدّ قول (بندار). ولذلك كان (ماريوس) يأمل أن يورطه بتصريح امام مجلس الشيوخ، يعقبه

رفضَ بات لحلف اليمين (الأمر الذي كان واثقاً منه) فيؤدي به الى نقمة الشعب العامة، وكره عظيم تتعذر ازالته. ونجحت مكيدته كما تمنىّ، اذ ما ان صرح (ميتللوس) بأنه لن يؤدي القسم على المصادقة حتى تأجل اجتماع المجلس وانفضّ. وبعد مرور بضعة أيام دعا (ساترنينوس) اعضاءه الى الظهور امام الشعب لاداء القسم علناً. وانبرى (ماريوس) فران سكون عميق وشخص الجميع اليه ليسمعوا مقالته فكانت بمثابة وداعٍ ابديّ لخطبه الجميلة تلك التي طالما ألقاها في المجلس! قال: «أن ظهره ليس عريضاً بدرجة يرى نفسه ملتزما التزاما نهائياً بفكرة عابرة خطرت له يوماً عن هذا الأمر الخطير. وانه الآن ليقسم بطيبة خاطر على احترام هذا القانون». وهكذا اضاف هذا التبرير لستر صفاقته وقلة حيائه. فراح الجمهور يهتف له ويصفق وكاد يجن فرحاً عندما كان يؤدي اليمين في حين انتحى الأشراف جانباً، وقد امتلأوا خجلاً وغيظاً لما آبداه من غدر ونكولٍ. إلاّ انهم تقدموا لحلف اليمين تباعاً خوفاً من غضبة الشعب. ولما حان دور (ميتللوس) رفض وأبى أن يتزحزح عن موقفه قيد شعرة، رغم الحاح اصحابه وضراعتهم ورجائهم. فقد كان يرى في ذلك عملاً وضيعاً دنيئاً غير جديرٍ بالرجل المبدئي مع علمه بالعقوبات المحتومة التي قررها (ساترنينوس) بحق كل من يستنكف عن اليمين. ثم أنه غادر (الفورم) قائلاً لمن رافقه:

- إن إقدام المرء على الوضيع من الأعمال ينطوي على دناءة. والاقدام على الحسن من الأعمال عندما لايحف به خطر، هو أمر اعتياديّ. أماّ الاقدام على العمل الحسن في ساعة الخطر فهو من خلق الرجل الكريم.

وعلى اثر ذلك وَضَع (ساترنينوس) في التصويت إقتراحاً يقضي على القنصلين بوضع (ميتللوس) تحت الحجز. وبحرمانه النار والماء والمسكن، فقرر ذلك. وكان ثم كثير من اوشاب الناس يبدون استعدادهم للفتك به. على أن عدداً كبيراً من كرام القوم اجتمعوا حوله وراحوا يظهرون شدّة اهتمامهم بشخصيه ومبلغ استعدادهم لمساندته. الاّ انه رفض قيام اي تمرد او اعتصابٍ بسببه وترك المدينة وهو يوازن الموقف بشكل هادىء على النحو التالي:

- إماً ان تنصلح الأمور، ويزجع عامة الشعب عن غيّه، وعند ذلك سيطلب مني العودة. وإماً ستبقى على حالها فيكون غيابي عن مسارحها افضل شيء.

وعن التكريم والحفادة التي لقيها (ميتللوس) خلال فترة نفيه، وباي اسلوب عاش في (رووس) وما مارس من فلسفة هناك. فألاجدر بنا أن نفصلها عند كتابتنا سيرته.

وكافأ (ماريوس) شريكه (ساترنينوس) عن هذه الخدعة باطلاق يده واغضائه عنه في كل

ما يفعل. فتمادى (ساترنينوس) في استهتاره وعنفه وغدا دون ان يدري مصدر الشرّ والفوضى التي فاقت كل حدود الاحتمال، وهذا هو السبيل الأوحد الى الطغيان والى الاستبداد بمقدرات الدولة، ثم الى المذابح والفضائح وهتك الحرمات.

وكان (ماريوس) يتهيبّ طبقة الأشراف من جهة، ويريد ارضاء طبقة العامة في الوقت عينه، ولذلك لجأ الى أحط الاعمال وادناها. فمثلاً قدم الى منزله لفيف من كبار القوم ليلاً يريدون اثارته على (ساترنينوس). وفي اثناء ذلك قدم هذا الى منزله، فادخله من باب ثان واجلسه في غرفة أخرى دون أن يُعلم الضيوف بمجيئه ثم تعلل بوعكةٍ ألمت به فخرج من لدنهم ليدخل الى زائره المنفرد ولا يلبث ان يحتج بالعذر نفسه حتى ينصرف الى الآخرين وهكذا ظلّ يتناوبهما مثيراً حفائظ بعضهم على بعض!

أخيراً اتفق الشيوخ وطبقة الفرسان الرومان على سوء سياسته واعلنوا سخطهم عليها بمجهود منسّق. فما كان منه إلاّ واقتحم (الفورم) بجنوده، وارغم المتآمرين على التراجع نحو الكابيتول فحوصروا فيه. ثم قطع عنهم انابيب الماء وارغمهم على الاستسلام بسبب العطش، فتوجهوا اليه مستسلمين وهم بحالةٍ يرثى لها، واودعوا انفسهم الى «حسن نية الشعب» كما اطلق على عملهم في حينه، وبذل (ماريوس) أقصى الجهود لانقاذهم فلم يفلح وقتلوا شرّ قتلة عندما هبطوا الى (الفورم) وبهذا اصبحت الطبقتان تحقدان عليه. ولذلك لم يرشح نفسه لمنصب (الجنصور) عندما أزف موعد الانتخاب مع انه كان اقوى المرشحين واضمنهم، لأنه كان يخشى مغبّة الفشل وعاره. فافسح السبيل لمن هم دونه بكثير فتقدموا للترشيح وفازوا وعزّى نفسه عن خيبته هذه متعللاً بكرهه تكدير عيش الناس نظراً لما يقتضيه المنصب من تدخل في مسلكهم وتصرفاتهم والتحقيق الدقيق عنها.

وقدّم مشروع مرسوم يقضي بالغاء قرار نفي (ميتللوس) استدعائه من المنفى. فانبرى يعارض فيه معارضة شديداً قولاً وعملاً. فلم يفده ذلك واضطر بالاخير الى الاقرار بهزيمته والنزول الى رأي الشعب الذي صوت بالاجماع على ذلك. ولم تحتمل نفسه رؤية (ميتللوس) يعود الى وطنه فشد الرحال الى (كّپادوكيا Cappadocia) و(غلاطيه Galatia) متعللاً بايفائه نذوراً كان قد وعد بتقريبها لـ(كيبل Cybele) امّا الدوافع الحقيقية خلافاً لما تقدم فقد شابها غمُوض وخفيت عن العين. (فماريوس) كان اجهل الناس بالحياة المدنيّة وشؤون السياسة، وكان مدينا بكلّ مجده وعلاه الى الحرب والشؤون العسكرية. وقد ادرك أن سلطانه وعزّه سيعفي عنهما الزمن شيئاً فشيئا، وهو قاعد لا يعمل شيئاً ولذلك كان شديد الرغبة للتشبث بوسيلة ما قد تثير ضجةً ونزاعاً حتى تتجه نحوه الأبصار. فأخذ يعمل على ايقاع

خلاف بين الملوك، وبخاصة اغاظة (ميثريداتس) الذي كان يتأهب للحرب علنا آنذاك. وبذلك يؤمن لنفسه منصب الجنرال في اي حرب تنشب ضده، ويتحف روما بنصر جديد، ويملأ منزله بأسلاب (البونطس) وثروات ملوكها. ولم ينثن عن مسعاه هذا، مع ان (ميثريداتس) بالغ في اكرامه واحاطه بكلّ ما يتصوره العقل من الرعاية والإحترام لم يتزحزح بل قال له بكل صرامة:

– عليك ايها الملك إما ان تكون اقوى من الرومان، واما أن تخضع لأوامرهم بهدوء.

وبهذا ودّع (ميثريداتس) الذي كان قد سمع الكثير عن شهرة الرومان بصريح القول وجرئته، ولم يجربه إلا الآن.

وبنى ماريوس منزلا بالقرب من الفورم على اثر عودته الى (روما). وقال ان قصده من ذلك أن لا يتعب زوّاره في السير مسافة طويلة لمقابلته. او لعله كان يتصور أن بعد بيته الأول كان يحول دون زيارة ناس اكثر له. وعلى اية حال فليس هذا هو السبب الحقيقي. وانما كانت العلة هي افتقاره الى طلاوة الحديث ولطف المجلس، وفن المعاشرة الاجتماعية. مما جعله اداة جامدة من ادوات الحرب لا نفع فيها أيام السلم. ولهذا نُبذ نبذ النواة ولم يُعد يطرق بابه زائر. وممن كسفت لوذعيتهم شمس عظمته كان (سيلّلا) فخصه باكثر الحقد لأنه كان مدينا بارتفاعه الى مراقي الشهرة للكره الذي اضمره الأشراف (لماريوس)، لهذا كان نزاعه معه منهاج حياته السياسيّ. ولما أقدم (باخوس) ملك النوميديين على اهداء عدد من التماثيل لآلهة النصر عربونا لصداقته مع الرومان لنصبها في اروقة (الكابيتول) ارفق بها تمثالاً من الذهب الخالص يمثله وهو يُسلم (يوغورثا) الى (سيلّلا) فجنّ جنون (ماريوس) واخرجه الغضب والغيرة عن طوره وتوهم ان (سيلّلا) يريد ان يسلبه مجده ويتأثر به. وحاول بالقوة رفع التماثيل من مواضعها فتصدى له (سيلّلا) وقاومه مقاومة عنيفة. لكن «حرب الشركاء» التي هددت المدينة وضعت للنزاع حداً في الوقت الذي كادت تنفجر براكينه. فقد عقدت اكثر بلاد ايطاليا سكانا وتعلقاً بالحرب حلفاً عسكرياً ضدّ روما. وراحت عساكرهم تهدد امبراطوريتها بالويل والفناء. ولم تكن قوتهم قاصرة على سلاحهم وبسالة جنودهم وانما كان قوّادهم لا يقلون عن قواد الرومان في الحنكة والاقدام.

إن هذه الحرب التي حفلت بمختلف الاحداث والتقلبات، وامتازت بغموض نتائجها، اكسبت (سيللا) شهرة وسلطاناً بقدر ما سلبت من شهرة (ماريوس) وسلطانه. فقد ساد الرأي عنه أنه أمسى متخوفاً متردداً محجماً. ولا يعرف هل أن كبر سنهً فلّ من غراب عرفه وخضد من قوته (وكان قد أناف على الخامسة والستين) أم لابتلائه بداءٍ أثر على عضلات جسمه كما زعم – فبات غير صالح للنهوض باعباء القتال. ومع ذلك فقد انجز واجبه على خير ما يرام واستظهر

على العدوّ في معركة كبيرة صرع فيها ستة آلاف منه ولم يمنحه فرصة للتفوق عليه. ووجد نفسه مرة مطوقاً باستحكامات العدوّ. فصمد ولم يتحرك من مواضعه ولم يؤثر فيه استفزاز خصمه بالشتائم، والتحديات ويروى في هذا الصدد أن (پوبليوس سيلو Publius Silo) وهو رجل عظيم المنزلة والسلطان عند العدو - قال له متحدياً:

- لو كنت حقاً جنرالاً عظيماً يا ماريوس، لخرجت من معسكرك وخضت معركة.

فاجابه: أرغمني على ذلك ان كنتَ أنت كذلك.

وفي مناسبة أخرى منحهم العدو فرصة مواتية لخوض معركة فتهيب الرومان الهجوم واحجموا ثم تراجع الفريقان فجمع (ماريوس) جنوده وقال لهم:

- انها مسألة ليست بالهينة أن أختار اكثركما جُبنا. أنتم أم عدوكم، فليس بينكما من تجرأ على مواجهة قفا خصمه!

ثم لم يسعه بالأخير الا الإقرار بعجزه عن مواصلة الخدمة فاستقعى من القيادة لاعتلال صحته.

وبعد أن تمت هزيمة الاتحاد الإيطالي أمام الرومان. تقدم عدد من المرشحين للقيادة العامة في الحرب ضد (ميثريداتس) يدعمهم زعماء الشعب وقادته. وانبرى (سولْپيشيوس) أحد مفوضي الشعب (تريبيون) وهو رجل جريء مقدام، ورشح (ماريوس) للمنصب مقترحاً أن ينتخب بمثابة پروقنصل وجنرال لادارة الحرب فكانت مفاجأة لم يتوقعها احدٌ، وانقسم الناخبون الى حزبين: احدهما يؤيد (ماريوس) والأخر يناصر (سيللا) وراح هذا الفريق يشير على (ماريوس) متهكماً بالذهاب الى حمامات (باياي Baiae) للاستشفاء. بعد أن ضعفت قواه لكبر سنه واصابته بالتهاب القصبات كما أقرَّ هو بذلك. وكان (ماريوس) يملك هناك مغنى كڤيلا Cvilla بالقرب من (ميسينوم Misenum) فيها من الأثاث الفاخر والتحف النفيسة ما لا يتفق ابداً وصفة الرجل الذي قضى جل حياته في ميادين القتال والحملات العسكرية الكبيرة. وقد ابتاعت (كورنيليا Cornilia) هذه الڤيللا بمبلغ خمسة وسبعين ألف دراخما. وبعد فترة قصيرة من الزمن ابتاعه منها (لوشيوس لوكوللوس) بميلونين وخمسمائة ألف دراخما؛ وهذا الارتفاع الخيالي انما يدلّ على تضخم ثروات الرومان وبذخهم بسرعةٍ.

ومع تهافت قوى (ماريوس) فقد اخذ يتردد يوميا الى مخيم (مارتيوس Martius) للتمرين مع المرتادين الشبان، تدفعه الى هذا عاطفة صبيانية للظهور بمظهر من يريد أن يتخلص من الضعف او الهرم، متوخيا أن يبدو خفيف الحركة في دروعه ماهراً في ركوب الخيل وان كان

الشيب قد اورثه بدانةً وجعله عرضةً للتعب الشديد والبهر.

وواصل بعض الناس الذهاب الى المخيم لمراقبته مستمتعين بتمارينه وعرضه نفسه على هذه الشاكلة. إلاّ أن أفاضلهم سخروا من تهالكه وطمعه اللذين رفعاه من حالة الفقر المدقع الى الغنى الفاحش، وجعلاه عظيماً بعد ان كان نكرة. وظلّ لا يريد الإقرار بحدود لحسن طالعه العجيب ولا يقنع بأن يبقى محطّ اعجابٍ ويستمتع بما ناله بهدوء. إذ ما الذي يدفعه الى ترك مجده وانتصاراته وهو في اراذل الشيخوخة ليرحل الى كپادوكيا والبحر الأسود مقاتلاً (ارخيلاوس) و(نيوبطليموس) قائدي (ميثريداتس) كانما هو في حاجة الى المزيد مما عنده؟ يبرر (ماريوس) عمله هذا تبريراً في غاية السخف إذ يقول أن القصد من ذهابه هو تعليم ابنه كيف يكون جنرالاً.

وتردى وضع المدينة التي عمنها الفوض وانتابتها العلل السياسية من عهدٍ بعيد حتى آضت في حالة يأس وهنا وجد (ماريوس) ضالته المنشودة في (سولپيشيوس) واستهتاره، حتى تتم اعماله دمار البلاد وخرابها كان هذا الرجل نسخةً ثانية (لساترنينوس) من كلّ الوجوه خلا أنه كان يعيب على صاحبه غباءه، وقلة مكره وتردّده. فتوخى اجتناب معايبه بجمع ستمائة من «عصبة الفرسان eqmestrian» حوله بمثابة حرس خاصٍ له اطلق عليهم اسم «ضدّ الشيوخ anti - Sentors» وانقض بهم على القنصلين وهما في الاجتماع. فهرب احدهما من الفورم فقبض على ابنه وفتك به. وراح يطارد (سيللا) مطاردة عنيدة، فلجأ الى بيت (ماريوس) وهو ملاذ لا يمكن أن يكون موضع ريبة، وبهذا نجا من مطارديه الذين مروا بالدار دون أن يفطنوا له. وقيل أن (ساريوس) أخرجه سالماً من باب خلفيّ واوصله الى المعسكر، إلاّ أن (سيلّلا) في مذكراته ينكر انكاراً باتاً انه استجار (بماريوس) ويقول أنه حُمل الى هناك لاجراء مشاورات في امور كان (سولپيشيوس) يريد ارغامه عليها وهو لا يقبل. فاحاطه بحرس سيوفهم مجردة واسرع به الى (ماريوس) وهناك ارغم بالتهديد والوعيد على القبول فخرج من المنزل الى (الفورم) والغى قرار الاحتجاز الصادر حسب رغبة سولپيشيوس.

بعد ان استظهر (سولپيشيوس) ودانت له السلطة. اصدر مرسوماً بتعيين (ماريوس) قائداً للجيش فتأهب هذا للرحيل الى المعسكر وارسل قبله (تريبيونين) ليتسلما قيادة الجيش من (سيللا). وباشر سيلّلا من جانبه باثارة الجنود وتحريضهم وكان عددهم يناهز خمسة وثلاثين الفاً كاملي العدة. فاعلنوا ولاءهم له فزحف بهم الى روما ولقي رسولي (ماريوس) فقبض عليهما وقتلهما. فرد عليه (ماريوس) بذبح عدد مساوٍ من اصحابه في روما. واعلن قراراً بمنح الحرية لكلّ عبدٍ يحارب معه ويقال أن ثلاثة عبيد فقط التحقوا به. ولم يصمد (ماريوس)

امام سيللا غير فترة قصيرة جداً ثم غلب على أمره فولّى الأدبار وتفرق عنه اتباعه حال خروجه من المدينة. وادركه الليل فتوجه الى بيت في الريف يملكه واسمه (سولونيوم Solonium). ومنه ارسل ابنه الى أحدى مزارع حميه (موشيوس Mucius) القريبة للتزودّ بالمؤن الضرورية ورحل هو الى (أوستيا Ostia) حيث هيأ له صديقه (نوميريوس Numerius) سفينة. فلم يجلس في انتظار ابنه ورفع المرساة مبحراً يرافقه ختنه (غرانيوس Granius).

وتزود (ماريوس الأبن) بالمؤون الضرورية بعد وصوله مزارع (موشيوس) إلاّ أن المطاردين كادوا يكتشفونه قبيل ابنلاج الصبح فقد اشتبهت ثلة من الخيالة بوجوده هناك فداهمت الموضع إلاّ ان وكيل المزرعة بدافع من حذره وتوقعاً لهذا الأمر عمل على اخفائه في عربة ملأى بالفاصوليا. ثم شدّ في نيرها زوجاً من الثيران وساقها نحو المدينة والتقى بالقوة المعقبّة الخارجة عليه، فنجا (ماريوس الأبن) وبلغ منزله وزوجه وهناك تزوّد بما يحتاجه وتسلل الى ساحل البحر في موهن من الليل وركب سفينه كانت تهم بالاقلاع الى افريقيا.

لما صار (ماريوس الأب) في عرض البحر دفعت بسفينته ريحٌ قوية وجرت على طول الساحل الايطالي. ولازمه قلقٌ وخوف شديدين من عدوٌ له هو أحد رجال (تيراّكينا Terraci-na) البارزين فرجا البحارة أن يجانبوا تلك الانحاء. وكانوا والحق يقال يتوخون رضاه إلاّ أن الريح جرت خلاف ما تمنوا، اذ غيرت اتجاهها وراحت تهب من البحر فتدفع بامواج عالية كالجبال. حتى خافوا أن لا تقوى سفينتهم على الخروج من العاصفة، وأصيب (ماريوس) بدوار البحر وساءت حالته كثيراً. فوجهوا دفعهم الى اليابسة وبلغوا الساحل بشيء من الصعوبة ورسوا في موضع قريب من (كيركيوم Circeum). واشتدت العاصفة وشارفت قوات السفينة على النفاد، فتركوها وراحوا يضربون في الأرض على غير هدى هائمين على اوجههم كالذين اصابتهم مصيبة: يتغاضون عن حاضرهم لأنه شرّ عظيم ويتشبثون بآمال خادعة واهمة فالأرض والماء كلاهما موضعان غير مأمونين، والخطر كل الخطر ان يقابلوا أناساً ولا يقل عن هذا خطراً عدم عثورهم على احدٍ من الناس لحاجتهم الماسة الى القوت الضروري. وبعد لأيٍ وقعوا على نفرٍ من الرعاة الفقراء الذين لا يملكون ما يسعفونهم به. إلاّ انهم شخصّوا (ماريوس) واشاروا عليه أن يرحل بأسرع ما يمكنه، لأنهم لمحوا قبل قليل كوكبة من الفرسان على مسافة قريبة، تجد بحثاً من طلبه فلم يسعه ازاء هذا الخطر الجديد، ولأن الذين يرافقونه خارت قواهم جوعاً وعجزوا عن السير اكثر مما ساروا. الاّ أن يحيد عن الطريق العام مؤقتاً ويخفي نفسه في غاية كثيفة ليقضي فيها ليلة بائسة لم ير مثلها، واصبح عليه اليوم والجوع يقرص احشاءه. فقررّ أن يستخدم ما بقي من قواه الخائرة قبل أن تستنفد وسار اتباعه بمحاذاة الساحل يشجعهم

وبحضهم على البقاء معه حتى تتحقق آخر آمانيه. وهذا ما كان يبث في نفسه العزم ويزيد من صبره على المكاره، توقعاً لنبؤة قديمة بحقه ايام كان فتى يعيش في الريف. فقد سقط عليه عش عقاب وعلق بردائه وكان فيه سبعة فراخ. وادرك ابويه العجب الشديد لما شاهدا ذلك وراحا يستشيران العرافين فيما تعني الحادثة. فقالوا ان ابنهما سيغدو أعظم رجل في عصره. وان القدر حكم له بالسلطان والسؤدد المطلقين سبع مرات. وفي رأي بعض الكتاب أن مارويناه قد وقع (لماريوس) فعلاً الاّ أن بعضهم الآخر أن من روى هذه الحادثة المخرفة التي لا نصيب لها من الصحة، انما اخذها ورددها نقلاً عن صاحبها الذي كان يعيد ويُبدي فيها طوال مدة نفيه. لأن انثى العقاب لا تفقس اكثر من فرخين. ولقد كان (موسيوس Musaeus) واهما عندما قال مشيرا الى العقاب:

"انها تضع ثلاث بيضات فتفقس فرخين اثنين، وتربي واحداً»

ومهما كانت حقيقة الأمر في هذا، فالثابت ان (ماريوس) ظلّ يردد في منفاه وفي أحرج الساعات التي مرت به بأنه سيبلغ قنصليته السابعة حتماً.

عندما بات (ماريوس) وتابعوه على بعد عشرة فرلنغات تقريباً من المدينة الايطالية (منتورناي Minturnae) لمحوا عن بعد، ثلة من الفرسان تتقدم نحوهم بسرعة عظيمة وفي الوقت نفسه شاهدوا بمحض الصدف سفينتين تهمان بالاقلاع. فما كان منهم إلاّ وهرولوا نحوهما باقصى ما يطيقون وقذفوا بانفسهم في الماء وسبحوا اليهما فبلغ (غرانيوس) والفريق الذي كان معه واحدة منهما اخذتهم الى جزيرة تواجه الساحل اسمها (ايناريا Ænaria). أما (ماريوس) البدين البطيء الحركة فقد ساعده خادمان على البقاء فوق سطح الماء بصعوبة وعناء ثم رفعاه الى السفينة الثانية عندما بلغ الفرسان الساحل وراحوا ينادون الملاحين ويأمرونهم بالعودة الى البرّ أو باخراج (ماريوس) من السفينة وقذفه في البحر. واذ ذاك ينطلقون في سبيلهم آمنين. فانشأ (ماريوس) يتوسل بهم ضارعاً والدموع تجول في عينيه، بألاّ يفعلوا ذلك. ووقع الملاحون في حيرة شديدة. ومرت عليهم فترة من الزمن وهم لايدرون علام يستقرون. تجدهم تارة يميلون الى هذا الرأي، وتارة ينقلبون الى ضده. وهكذا حتى استقروا على رفض طلب الجنود واجابوهم انهم لن يسلّموا طريدهم. ولكن ما أن انقلب الفرسان عن الساحل حانقين، حتى غير الملاحون رأيهم وعادوا بالسفينة الى البّر والقوا المراسي في فم نهر (ليريس Liris) الذي ينساخ ماؤه هناك فوق رقعة واسعة من الأرض ليكوّن منها مستنقعاً. هنا اشاروا على (ماريوس) بالنزول الى الساحل لأراحة جسمه المنهوك واسترداد بعض قواه حتى تستقيم لهم الريح ونواتيهم. وعلى حَدّ قولهم ان هذا سيحصل في الساعة كذا

عندما تهدأ الرياح القادمة من البحر وتبدأ الريح القادمة من المستنقع بالهبوب. فعمل (ماريوس) بقولهم. وانزلوه الى اليابسة وهو لا يتوقع ما سيأتي به القدر. اذ ما احتوتهم السفينة حتى رفعوا المرساة ورحلوا مخلفين (ماريوس) على الساحل. لم يروا من الشهامة أن يدفعوا (بماريوس) الى ايدي طالبيه، ولا من السلامة أن يتولوا حمايته.

وهكذا تركه الجميع وبقي ردحاً من الزمن قاعداً على الساحل لايدري ما يفعل. ثم استجمع قواه ونهض وسار يخوض البرك ويتخطى السواقي الملأى بالماء والاوحال بصعوبة والآم شديدة. يبحث عبثاً عن طريق يسلكه، الى أن بلغ كوخاً لشيخ عجوز يشتغل في المستنقعات فخر جاثياً على قدميه يناشده العون والغوث ويعده بجزيل العطاء والمكافأ إذا نجاه من الخطر الذي يتهدده فأجاره إما بدافع معرفة سابقة به، أو تأثراً بمظهره الجليل، وقال له ان كوخه مناسب أن شاء ان يصيب راحته. أما ان كان هارباً من وجه أحدٍ فسيخفيه في موضع متطرفٍ. فرغب (ماريوس) في الأخيرة، فقاده العجوز الى المستنقع وانزله في نقرةٍ قريبة من ضفة النهر وغطاه بالقصب وبغيره من النبات الخفيف الذي لا يؤذيه ثقله. وما مرت برهة من الزمن حتى اشاعت الرعدة في اوصاله ضجة واصوات صادرة من الكوخ؛ فقد ارسل (گمينيوس) نفراً من اتباعه الى (تيراكينا) لتعقيبه واتفق أن بعضهم اختار ان يسلك ذلك السبيل فبلغ بهم كوخ العجوز فراحوا يستجوبونه ويتهددونه ويرهبونه بالعقاب لأنه آوى واستضاف عدواً للرومان. فخرج (ماريوس) من الحفرة وخلع ثيابه والقى بنفسه في حمأة مملوءة بماء جعله الطين كثيفاً لزجاً. ومع هذا خاب سعيه في التواري عن انظارهم، وأخرج من الحمأة وهو ملوث بالطين وحمل عارياً الى مدينة (مينتورناي) ودفع الى حكامها اذ كانت الأوامر التي عُممّت على المدن تقضي ان يكون البحث عن (ماريوس) على نطاق شاملٍ. وأن ينفذ فيه حكم الموت حال العثور عليه. على ان الحكام مالوا الى التريث او التفكير في الأمر. واودعوه منزل امرأة تدعى (فانيا Fannia) سجيناً تحت الحراسة.

كان متوقعاً أن لا تحدب عليه هذه المرأة أو ترق لحاله، لحادثة سلفت لها معه. فقد تزوجت (فانيا) هذه من رجل يدعى (تينيوّس Tinnius) ثم طلقها فرفعت عليه دعوى المطالبة بمهرها وكان مبلغاً جسيماً. فاتهمها مطلقها بالزنا ورفعت القضيتان المتقابلتان الى (ماريوس) أثناء قنصليته السادسة. وبعد أن محصها ودققها من جميع الوجوه تبين له ان فانيا عفيفة الاّ ان زوجها كان يعرف فيها ذلك عندما تزوجها وعاشرها ذلك الزمن الطويل. ولذلك كان حكم (ماريوس) صارماً على المتداعيين فقد قضى بأن يدفع الزوج مهر مطلقته كاملاً. وفرض على المرأة غرامة رمزية قدرها أربعة أفلس نحاسية لتكون وصمة عارٍ لها. لكن (فانيا) هنا أبت

أن تستغلّ حالة (ماريوس) في اطفاء جذوة حقدها عليه ونسيت كل ما يتعلق بالأمر حالما وقع نظرها عليه وتوفرت الى العناية به ورعايته على قدر طاقتها وطيبت خاطره فشكرها وأظهر امتنانه منها وقال لها انه لن ييأس قط بعد أن صادفه الفأل الحسن لما جيء به الى منزلها. اذ ما أن فتح مدخل المنزل حتى اندفع منه الى الخارج حمار وعدا الى نبع قريب ليشرب منه ثم ألقى عليه نظرة جريئة لطيفه ووقف ساكنا أمامه ونهق ورفع قائميته الخلفيتين. ومن هذا استنتج آيةً، فسرها بأن القدر قد قصّ بنجاته بحراً لا برا لأن الحمار عاف علفه اليابس وانصرف عنه الى الماء. وبعد أن قصّى قصته هذه على (فانيا) طلب منها أن تغلق عليه باب الحجرة ليصيب راحته.

وفي اثناء ذلك كان قضاة (نيتورناي) ومستشاروها يتداولون في مصيره. وقررا أن يقضوا عليه حالاً ولا يؤجلونه. ولما احجم كل رجال المدينة عن ذلك انبرى فارس (غاليّ) او (كيمبري) (وتروي القصة بالوجهين) ليأخذ على عاتقه قتله ودخل عليه وسيفه مشهر ولم تكن الغرفة مضاءة بنورٍ كاف، ولاسيمًا الزاوية التي احتلها (ماريوس) فقد كانت مظلمة. وقيل ان عيني (ماريوس) كانتا ترسلان شواظ نار او شراراً إلى القادم. ثم انه صعقه بصرخة عالية من ركنه المظلم قائلاً له:

- اتجرأ يا صاح على قتل (كايوس ماريوس).

فاطلق البربريّ ساقيه للريح ملقياً بسيفه وخرج من الدار مهرولاً وهو يصيح

- لا استطيع قتل (كايوس ماريوس).

ولم ينطق بسواها.

في مبدأ الأمر ذهل المنتورنيون لما جرى. ثم سرعان ما امتلأت قلوبهم بالعطف والألم. وادركهم الحنق على انفسهم لاصدارهم حكماً جائراً كفوراً بحق رجل حفظ ايطاليا وحماها، رجل يعد انكار المعونة له اسوء عملٍ يقدم عليه المرء. وقالوا بصوت واحدٍ

- الا فلندعه ينطلق الى حيث يشاء شريداً منفياً وسيلقى حتماً ما كتب له في لوح القدر في غير هذا المكان. وليس علينا إلا ان نطلب المغفرة من الأرباب لاخراجنا اياه من المدينة، مشرداً وحيداً طريداً.

وهرعوا اليه جميعا واخرجوه من الغرفة وساروا يحفّون به الى ساحل البحر، وكان بينه وبينهم مسافة طويلة يضيع فيها وقت ثمين. لأن بستاناً مقدساً يطلق عليه اسم «بستان مارشيا Marcia» كان يعترض سبيلهم. ولابد من الانحراف عنه والدوران حوله لأن الأهالي

يحرمون اخراج اي شيء يدخل اليه. فوقعوا في حيرة ثم صاح احد الكهول بهم قائلاً:

- ليس ثم شيء في الدنيا يبلغ هذه الدرجة من القداسة. وعليكم أن تمروا من داخل البستان توخيا لسلامة (ماريوس)

ثم اندفع الى الامام فصار في المقدمة ومعه شيء من المؤن الذي زود به ماريوس ودخل البستان فتبعه الآخرون بلا تردد. وبلغوا ساحل البحر حيث كانت السفينة التي هيأها (بيليوس Beloeus) راسية فصعد اليها. (اوحى هذا الرجل فيما بعد برسم صورة لهذه الواقعة وزين بها معبداً يقع قرب منطقة ابحار ماريوس) ونشرت قلوعها وشاء الخط أن يلقي بها البحر على السفينة ساحل جزيرة (ايفاريا) وهناك تمّ اللقاء (بغرانيوس) وصحبه وابحروا جميعاً الى افريقيا. ونضب ماء الشرب عندهم وهم في عرض البحر فاضطروا الى الجنوح بها ورسوا بالقرب من (اريكس Eryx) في صقلية، وكان فيها (كويستور) روماني يقوم بمهمة المراقبة والترصد وكاد يضع يده على (ماريوس) بعد ان فتك بستة عشر من اتباعه كانوا قد نزلوا البرّ بطلب الماء. فلما ادرك ما حَلَّ بهم ابتعد عن الساحل متجها الى جزيرة (مينيْنكس Mininx) وفيها علم لأول مرة بنبأ سلامة ابنه مع (گثيغوس Gethegus) وعن ذهابه الى (هيمپسال Hiempsal) ملك النوميديين ليرجو منه العون.

واشاعت هذه الانباء بعض الراحة في نفسه، ورحل عن الجزيرة متجها الى قرطاجنة. وكان (سكستيليوس Sixtilius) الحاكم الروماني في افريقيا وهو شخص لم يصبه (ماريوس) بضرر أو بنفع. وكان المأمول منه أن يدفعه العطف فحسب الى اسداء بعض المعونة للمنفيّ ولكن ضابطاً من ضباطه كان في انتظار (ماريوس) عند وضع قدمه على البرّ مع نفر قليل. فتقدم منه وقال له:

- ان الحاكم (سكستيليوس) يمنعك يا (ماريوس) من وضع قدمك في افريقيا. وإن فعلت فسيطبق عليك المرسوم الذي اصدره مجلس الشيوخ بحقك ويعاملك معاملة اعداء الرومان.

واصغى (ماريوس) الى هذا القول وخانه التعبير عن حزنه وغضبه فارتج عليه وصمت ملّياً وهو ينظر الى الرسول شزراً. فسأله هذا عما اعتزمه وما هو الجواب الذي سينقله للحاكم فأجابه (ماريوس) وهو يتنهدّ تنهيدة عميقة:

- اذهب فقل له انك رايت (كايوس ماريوس) المنفيّ جالساً بين اطلال قرطاجنة.

مقارناً حظة وتغير احواله، بحظّ تلك المدينة ومصيرها الأليم. في أثناء ذلك كان

(هيمپسال) ملك النوميديين تتجاذبه الحيرة بين قرارين. وكان يعامل (ماريوس الابن) ومرافقيه اكرم معاملة الاّ انه اخذ يتعلل بشتى الحجج ليبقيهم عندما رغبوا في الرحيل، واتضح أنه كان يضمر لهم شراً ويبيت لهم أمراً. إلاّ أن صدفةً من الصدف ضمنت لهم السلامة ضماناً اكيداً. فقد رقت مخطية من مخطيات الملك لحال ماريوس الإبن وكان جميل الصورة، ثم تحول عطفها الى مشاعر حبٍ وغرامٍ فصدّها عنه في مبدأ الأمر ولم يبادلها عاطفة حتى وجد سبيل الخلاص مقفلة في وجهه الاّ هذا السبيل وايقن أن شعورها ليس نزوة عابرة بل حُباً مقيماً فبادلها الحبّ. وهيأت له الوسائل لرحيلهم وهكذا نجا هو وصحبه في عملية الفرار وسعى الى ابيه حتى تم لقاؤهما وما كادا يبدآن السير على طول الساحل حتى لمحا عقربين تقتتلان فعدّها [ماريوس] فألاً سيئاً وأسرع بركوب قارب صيد صغير اتجه به الى [كرچيناس Cercinas] وهي جزيرة لا تبعد كثيراً عن القارة. وما ان غادر القارب اليابسة حتى رأى راكبوه ثلة من الفرسان ارسلها ملك النوميديين للقبض عليهم تتجه بأقصى سرعتها الى البقعة التي اقلعوا منها. وهكذا نجا [ماريوس] من خطر قيل انه فاق أعظم الأخطار التي تعرض لها قبلاً.

وفي روما وردت الانباء حول اشتباك [سيللاً] في عدة معارك مع قوّاد [ميثريداتس] في [بويوسيا]. كما نشب صراع علني بين القنصلين سببه التناحر الحزبي. وأستظهر فيه [اوكتاڤيوس Octavius] على زميله [چينّا Cinna] فطرده خارج المدينة بلاستبداده بالحكم. ونصب [كورنيليوس ميرولا: Cornelius Merula] قنصلاً في محله. فراح (سينّا) يحشد قوات عسكرية في بعض انحاء ايطاليا وأعلن الحرب على القنصلين. وما ان سمع [ماريوس] بما يجري في الوطن حتى قرر ان يعود بحراً باسرع ما امكنه ومعه عدد من الخيالة الموريتانيين Mauritania الأفارقة، وبعض اللاجئين الايطاليين لا يزيدون جميعاً عن ألف رجل. وبهذه الحفنة بدأ رحلته فبلغ [تيلامون Telamon] من أعمال [اثروريا]. وما ان هبط الساحل حتى أعلن حرية العبيد الذين ينتظمون في صفوفه وتقاطر اليه أيضاً عدد كبير من ابناء البلاد، وجماعات من الرعاة الذين سبق تحريرهم من العبودية، حالما سمعوا باسمه فانضووا تحت رايته وهو بعد على الساحل. وأستهوت دعوته أصلب الرجال وأكثرهم فتوةً فالتحقوا به وأجتمع له في فترة وجيزة عسكرٌ كثير ملأ به اربعين سفينة.

كان يعلم عن [اوكتاڤيوس] الطيبة والصلاح، والتفاني في القيام بمهام وظيفته باعدل ما يتصور من أحكام. وكان يدري أيضاً أن [چينّا] موضع ريبة [سيللاً] وشكه. ولم يطل تردده في اختيار شريكه في حرب الدائرة على الحكم القائم وقرر أن يحالف [سينا] وأرسل اليه

خطاباً يعلن فيه عن استعداده لأطاعته بوصفه قنصلاً.

وسرّ [چينّا] بعرض [ماريوس] وسارع بتوجيه منصب البروقنصل اليه وبعث له بالفاچي وغيرها من شعارات السلطة. فعاينها وقال: ان مظاهر العظمة لا تناسب عثار خطه الحاضر، وارتدى ثياباً عادية وابقى شعره نامياً مثلما أطلقه في اليوم الأول لنفيه. وأقبل على [چينّا] وهو الآن في السبعين يسير ببطء ومسكنةٍ بقصد اثارة عطف الناس عليه. إلاّ ان تظاهره هذا لم يستر ملامحه القاسية التي ظلّت تغلب عليه وتفصح عن طبعه الحقيقي الغاشم. فكلّ التحقير والإذلال اللذين لقيهما عند تغيّر حاله، لم يظهرهما شديد ألمه ومسكنته تلك. وبعد أن حيّا [چينّآ] وسائر الجنود، عكف حالاً على تنظيم خطط القتال محدثاً تغييراً جوهرياً في الموقف بمنتهى السرعة. عمد أولاً الى وضع الحصار الاقتصادي وقطع سفن المؤون والارزاق. وصادر كل ما لدى التجارمن بضاعة ووضع يده على جميع مستودعات الخلال ثم استقدم اسطوله وأحتل به المواني‌ء. وأخيراً أستولى على [اوستيا] بالحيلة والغدر، ونهبها وفتك بعدد كبير من أهاليها، وسدّ مدخل النهر وبذلك قضى على آخر أمل للاعداء بالتموين عن طريق البحر. وبعدها زحف بالعسكر على العاصمة وركز قواته على جبل يدعى [يانيكولوم Ganic-ulum].

إن الضرر الذي أصاب المصلحة العامة من سوء تصرف [أوكتاڤيوس] من شؤون الحكم لم تبلغ جسامته مبلغ ما أصابها من اهماله اتخاذ الاجراءات الضرورية العاجلة التي تقتضي عدم التقيد الشديد باحكام القانون، بسبب تزمته وحرصه على مراعاته. فمثلاً عندما نصحه كثيرون بتحرير العبيد أبى وقال انه لم يمنح العبيد امتياز حرية البلاد التي يطرد منها الآن [ماركوس] تطبيقاً لحكم القانون فيه. ولما جاء [ميتللوس] الى روما (وهو ابن ميتللوس الذي كان جنرالاً في الحرب الأفريقية وسعى [ماريوس] فيما بعد الى نفيه كما اسلفنا، ساد الاعتقاد بأنه كقائد - أفضل بكثير من [اوكتاڤيوس] ولذا انفض الجنود عن هذا القنصل وأقبلوا على [ميتللوس الإبن] يلحون عليه بتولي قيادتهم والمحافظة على سلامة المدينة وعاهدوه على الاستبسال والاستماته في القتال اذا تسلّم قيادتهم رجل صنديد مجرب مثله وان النصر سيكتب لهم حتماً. ولكن [ميتللوس] استنكر عملهم هذا وأمرهم مغتاظاً بالعودة الى القنصل. فتمردوا والتحقوا بقوات العدو. وتبين [ميتللوس] الموقف الحرج في المدينة فتركها هو الآخر. إلاّ أن فئة من الكلدانيين Chadæns الذين يزاولون تقريب الذبائح وتفسير كتب [سيبيل Sybile] الدينية، اقنعوا [أوكتاڤيوس] بأن الأحوال ستنصلح وتتخذ سبيلاً طيباً فأبقوه في روما.

كان هذا القنصل بلا جدال أعدل الرومان وأشدهم استقامة مخفظ للمنصب القنصلي كرامته وشرفه وابتعد به عن المصانعة والامتهان وقصره ضمن أضيق حدود قوانين الشريعة الأولى وقواعد الصرف القديم كانما هي حقائق رياضية ثابتة لا يمكن تحويرها. ومع هذا فأنا لا ادري حقاً كيف أبتلي ببعض الضعف من ناحية ميله الى الأخذ بأقوال قارئي الحظ والعرافين أكثر من نصح الرجال المترسين في الشؤون العسكرية والسياسية. وكانت نهايته أنه جُر جَراً من منبر الخطابة قبيل دخول [ماريوس] المدينة وقتل بيد أولئك الذين أرسلهم قبله. وورد في الأخبار انه وجد في طيات ثوبه عند قتله رقعة عليها كتابة كلدانية. ومما لا يمكن تفسيره والحق يقال، أن ينجح أحد جنرالين شهيرين وهو [ماريوس] في استخلاص الصائب من النبوءات. بينما يلحق الخراب بثانيهما وهو [اوكتافيوس] لخيبته فيها.

بعد أن آلت الأمور الى هذا الحدّ، اجتمع الشيوخ وقرروا ارسال وفد الى [چينّا] و[ماريوس] يرجو منهما دخول المدينة دخولاً سلمياً والعفو العام عن سائر المواطنين. وأستقبل [سينّا] الوفد بحكم منصبه القنصلي وهو جالس على كرسي [الكورول] وكان ردّه على الوفد لطيفاً. أمّا [ماريوس] فقد ظلّ واقفاً الى جواره ولم يقل شيئاً، انمّا أظهر امارات كافية على نيته في اغراق المدينة بالدماء، بانقلاب سحنته وصرامة نظراته. وما ان نهض الوفد وتوجه الى المدينة حتى دخلها [سينا] وحرسه لكن [ماريوس] توقف لدى ابوابها وارسل يقول مخفياً حقده: انه شخص منفي أبعد عن موطنه بحكم قانوني. فاذا وجد ان حضوره ضروري فينبغي ابطال القرار الذي قضى بنفيه، بقرار آخر جديد. وقد اراد بهذا الظهور بمظهر المتزمت الحريص على حرفية القانون، وبأنه يعود الى المدينة وقد تحرر من الجور والخوف. فأجتمع الجمهور للتصويت وقبل أن يتم أخذ أصوات ثلاث قبائل أو اربع. أسقط [ماريوس] قناع ادعائه الكاذب ونبذ تزمته القانوني الزائف حول قرار نفيه ودخل المدينة بنخبة من حرس خاص أطلق عليه الحرس البارداييي Bardyaei الفه من العبيد الذين التحقوا به. فباشروا بقتل المواطنين بناءً على أوامر كان سيدهم يلقيها اليهم لفظاً أو بايماءة من الرأس.

وأقبل على [ماريوس] السناتور [أناخاريوس Anacharius] وهو [بريتور] سابق، والقى بالتحية على الظافر فلم يرد عليه فهجم عليه الحرس بسيوف مشهرة وفتكوا به أمام رئيسهم. وبعدها أصبح عدم الرد على التحية الاشارة المتعارف عليها. فإن لم يلتفت ماريوس اليهم أو يردّ عليهم قتلوه. حتى شاع القلق والرعب في نفوس اصدقائه وكان الخوف على أرواحهم يتملكهم كلما واجهوه أو حدثوه.

بعد أن ذبح هذا الحرس عدداً كبيراً. بَشِم [چينا] وزاد نفوراً وملالاً من القتل. إلاّ ان

[ماريوس] لم يرتو من الدماء، وواصل فتكه بالناس بشهوة متعاظمة، وأستمر في تعقيب ومطاردة كل من كان يشك فيهم بكيفية ما. وأمتلأت الطرق والمدن برجال التعقيب والمطاردة وبالفارين والمختفين. ومما كان يدعو الى الدهشة والعجب ان الثقة زالت من الناس، ولم تعد النفوس والحالة هذه تطمئن الى صداقة أو ضيافة. فلا ترى من لا يشي، باللاجيء اليه أو المستجير به إلاّ في القليل النادر. ولذلك استحق عبيد [كورنوتوس Cornutus] أعظم الثناء والأعجاب لأنهم أخفوا سيدهم في المنزل، وجاؤا بجثة أحد القتلى وفصلوا رأسها عنها ووضعوا خاتماً له في أصبعها وعرضوها على حرس [ماريوس] ودفنوها دفنة لائقة وبكلّ المراسيم الواجبة لمكانة سيدهم. ولم تكتشف الخدعة بتاتاً منجا [كورنوتوس] ورحلَه أهل بيته الى بلاد الغال.

ومع أن [ماركوس انطونيوس] الخطيب المصقع، وجد صديقاً وفياً فان خطه العاثر لازمه. هذا الصديق لم يكن إلاّ رجلاً معدماً من الطبقة العامة. ولأن ضيفه كان من سراة روما وأعلاهم مقاماً فقد حاول أن يقدم له أفضل ما في طوقه وبعث بخادمه الى الدكان ليبتاع مقداراً من الخمر فراح الخادم يتذوق اصناف الخمر التي عرضها الخمار بدقة واعتناء فسأله البائع: ما خبره؟ وما الذي يدعوه الى التشددّ في الاختيار ولم لا يبتاع كعادته خمراً جديدة عادية ويريد سلافاً معتقة غالية الثمن؟ مما كان من الخادم إلاّ ان أفضى اليه بكلّ براءة وثقة من صديقه وعشيره: أن سيده أقام وليمة [لماركوس انطونيوس] المختفي في منزله. فأنتظر الخمار السافل حتى انصرف الخادم وأسرع الى [ماريوس] بذاته. وكان هذا جالساً على مائدة العشاء، فاحضر أمامه، وسأله عنا يريد فقال ان في مقدوره أن يدفع اليه [بانطونيوس] وما كاد [ماريوس] يعي حديثه حتى أطلق صيحة سرور عظيمة وصفق بيديه مغتبطاً على ما يروى. وتملكته رغبة شديدة في الذهاب الى المخبأ لولا وجود أصدقائه. على انه بعث [بآنيوس Annius] وثلة من الجنود وأمره أنه يأتيه برأس [انطونيوس] بأسرع ما يمكن ولما بلغوا المنزل تأخر [آنيوس] عنهم ووقف بالباب وأرتقى الجنود الدرج الى الأعلى ودخلوا الغرفة وعندما ابصروا به راح واحدهم يحاول نقل المهمة الكريهة الى الآخر. ويظهر أن سحر لسانه اذهلهم فوجموا واحجموا عن الاقتراب منه ولمسه وأطرقوا وقد علاهم الخجل وشعر كل واحد منهم ان العبرة تكاد تخنقه وطال وقوفهم مصغين الى بيانه الرائع ودفاعه عن نفسه حتى ضجر [آنيوس] من الانتظار وولج المدار ليشاهد [انطونيوس] مسترسلاً والجنود مبهوتون مأخوذون فأنبهم ووصمهم بالجبن وتولى هو قطع رأسه.

ولما راح بعضهم يتشفع في [كاتولوس لاتاتيوس Catulus Latatius] زميله وشريكه في

الانتصار على الكيمبري أجابهم بعبارة واحدة فحسب:

- موته لابد منه.

فما كان من المتشفع فيه إلاّ وأغلق باب حجرته عليه وأوقد فيها ناراً عظيمة فأختنق بدخانها. ولكثرة ما كانت الجثث المشوهة المحزوزة الرؤوس تلقى في الشوارع تحت مواطىء الاقدام لم تعد تثير في الناس مشاعر الألم والرثاء بقدر ما تشيع في انفسهم من الحنق والرُعب، إن الفظائع التي ارتكبها رجال الحرس البدراي كانت أعظم بلوى حلت بالناس، فهؤلاء فتكوا بارباب الأسر في عُقر دورهم واذاقوا مرّ العذاب أولادهم وهتكوا اعراض نسائهم لا رادع يردعهم عن اعتداءاتهم المنكرة وقتولهم حتى بلغ السيل الزبى وأتفق حزبا [چينّا] و[سرطوريوس] على تصفيتهم فانقضوا عليهم وهم في معسكرهم وفتكوا بهم الى آخر رجل.

ومرت فترة شبيهة بفترة تغير اتجاه الريح للسفينة. وتوازت ابناء من شتىّ الانحاء تفيد بأن [سيللا] بعد أنهى الحرب مع [مثيريداتس] وسيطر على الاقاليم - عائد الى ابطاليا بجيش لجب. فوضعت حداً للفظائع وهدأت النفوس منها قليلاً. ولأعتقاد [ماريوس] أن الحرب توشك ان تندلع جرى انتخابه قنصلاً للمرة السابعة فبدأ حكمه الموافق لليوم الأول من كانون الثاني وهو بداية السنة الرومانية بالقاء شخص يدعى [سكتوس لوكينوس] من فوق الصخرة الثارپية فكان شؤماً عليه كما يبدو ودليلاً على تجدد المآسي على المدينة وعلى حزبه. وكان الوهن والانهاك قد أعترى بسد [ماريوس] من ثقل السن، وهدت الهواجس قواه وعجز من استجماع معنوياته وراحت نفسه تتأرجح بالخوف من حربٍ جديدة ومعارك وأخطار مدلهمة. فقد علمته تجاربه الأولى من الدروس ما حتم عليه إلاّ يخاطر بحربٍ مع [اوكتاڤيوس] أو [ميرولا] وهو يقود أوشاباً ورعاعاً متمردين على الضبط العسكري، ولا خبرة لديهم. وها ان [سيللاً] ذلك الشخص الذي سعى جاهداً الى نفيه، يقترب من المدينة عائداً بعد استظهاره على [مثيريداتس] ودفعه حتى أقاصي البحر الأسود (البونطس).

تناهبته الافكار المزعجة، وأخذ يتذكر نفيه وتشريده الأليم والأخطار التي تعرض لها في البرّ وفي البحر. فركبته السويداء، وطاردته أشباح المخاوف ولم تعد عيناه تكتحلان بنومٍ هنيء، وكان يتصور ان شخصاً يلازمه كالظلّ ولا يفتأ يهمس في أذنيه هذا البيت:

«... إن وجار الأسد خطر وان غاب عنه صاحبه»

وكان أخشى ما يخشاه ان يظل صاحياً يقظاً فعكف على الشراب ليلاً الى درجه الثمل

وتبلد الحسّ بدرجة لا تناسب عمره يريد أن يفقد وعيه أو يصطاد النوم بأية وسيلة للخلاص من أفكاره. وفي النهاية ادركه قلق جديد عند وصول رسول من الساحل. وما لبث ان سقط مريضاً بذات الجنب بتزايد مخاوفه وثقل حاضره بعد وعكة بسيطة، كما ذكر [بوسيدونيوس] الفيلسوف الذي يضيف قائلاً انه كان قد زاره اثناء مرضه وتحدث اليه حول أمور سفارته. ويحدثنا [كايوس بيسو Cauis Piso] المؤرخ ان [ماريوس] كان مرة يتمشى مع اصدقائه بعد تناول العشاء، فأخذ يتحدث اليهم عن ماضي حياته ويستذكر التقلبات العديدة التي عاناها في حياته من المبدأ الى المنتهى فقال: «يجدر بالرجل الحصيف البعيد النظر أن لا يودع كل مقدراته الى تصاريف الحظّ دائماً». ثم انه استأذن من صحبه وانسحب الى فراشه فلازمه عدة أيام وبعدها ادركته الوفاة.

وروى بعضهم أن مرضه كشف عن مدى تهالكه على السلطة وطموعه الى العلا ففي هذيانه توهم أنه جنرال يقود معركة ضدّ [ميثريداتس] وأخذ يأتي بحركات وايماءات من جسمه وأطرافه مثلما كان يفعل عند خوضه معركة ويكثر صراخه وزعيقه، حتى لكأن رغبته الدفينة هي التي تدفعه بكبرياءٍ منه وحبٍّ للظهور. ومع انه بلغ السبعين من العمر وكان أول من تولى المنصب القنصلي سبع مرات، وجمع أموالاً طائلة تغني عدة ملوك. فقد ظلَّ الى آخر لحظةٍ من حياته يندب حظّه العاثر وينعى على الاقدار غدرها به لموته قبل ان يحقق أمانيه.

لما حضرت الوفاة [افلاطون]، راح يشكر العناية الالهية، وسعادة حظه في الحياة: أولاً لأنه ولد رجلاً واغريقياً ولم يولد بربرياً أو همجياً. وثانياً لأنه عاش في عصر سقراط. وكذلك قالوا عن [انتيباطر] الطرسوسي انه أخذ يستذكر في ساعة أحتضاره السعادة التي استمتع بها ولم يغفل منها حتى رحلته الناجحة الى آثينا. مقراً بكل فضل لحظه عليه مع الشكران والاعتراف بالجميل، مختزناً اياها الى الأخير في ذاكرته وهي أمنع حجرة كنوز بشرية أما المتبذلون والمستهترون فمن شأنهم أن يطرحوا من ذاكرتهم كل ما صادفوه من أحداث فلا يشعرون باعتزاز بها ولا يفكرون باختزانها وبذلك يفقدون لذة حالهم الطيبة الحاضرة في أوهام توقع حال أفضل. في حين أن ما بيدنا لا تستطيع ان تحرمنا منه الاقدار مثلما هي قادرة على حرماننا مما سيأتي. أن هؤلاء لا يقبلون بواقعهم الناجح ولا يهمهم امره، ولا يجدون ضالتهم الاّ في الأحلام بالمستقبل غير المحقق. وهذا ليس بالشيء الغريب. فالرجال لن يستطيعوا مطلقاً ان يرضوا رغبات عقلهم اللا محدودة ألاّ باطلاب الثقافة والعلم فبهما فقط يضعون الأسس الجيدة للبناء الفوقي الخارجي.

قضى [ماريوس] نحبه في اليوم السابع عشر لممارسته مهام قنصليته السابعة فأحدث فرحاً

وارتياحاً في روما بقصران عن الوصف وانتعشت آمالها في الخلاص من بلايا الطغيان القاسي لكنها سرعان ما وجدت انها أستبدلت بسيدها الهرم المنهوك، سيداً آخر قوياً فتياً بشخص ابنه [ماريوس] الذي أظهر وحشية وقسوة لا توصفان في قتل اشرف المواطنين وأكرمهم. توهموا به أولاً، رجلاً جسوراً عزوماً بمواجهة اعدائه فأطلق عليه لقب [ابن مارس] لكن أفاعيله التالية كشفت عن الجانب السيء منه فلقب [بابن ڤينوس]. وقد حاصره [سيللا] في [پرينيست Præneste] وضيق عليه الخناق ولما فشلت وسائله العديدة في انقاذ نفسه، وتم الاستيلاء على المدينة وسدّت بوجهه منافذ الهرب، نحر نفسه بيده غير مأسوف عليه.


ليساندر
LYSANDER
395

يوجد في غرفة كنوز [الأقانيثين Acanthians] بدلفي النقش التالي: «الغنائم التي استولى عليها [براسيداس Brasidas] والاقانثيون، من الآثينيين». وبناءً على هذا يتوهم كثيرون بأن التمثال الرخامي القائم في داخل البناية بالقرب من الابواب، انما هو تمثال [براسيداس] بينما هو في الحقيقة تمثال [ليساندر] يمثله بشعره الطويل المسترسل حسب الزيّ القديم، وبلحتيه الكثة. وليس بصحيح ما زعمه بعضهم بأن [الارغوسيين] عمدوا بعد هزيمتهم الى حلق شعورهم حزناً. وليس بصواب كذلك أن السپارطيين أطالوا شعورهم للانتصارات التي حققوها، أو أنهم أرسلوه تباهياً وفخراً لأن [الباخيادي Bachiadae] الذين هربوا من [كورنثا] الى [الفيديمون] كانوا يحلقون شعرهم قصيراً. انما كان ذلك بمقتضى قانون من قوانين [ليكورغوس] الذي روى أنه كان لايفتأ يقول: ان الشعر الطويل يزيد في وجه الرجل الجميل جمالاً وفي ذي الوجه القبيح نفرة وارعاباً.

وقيل أن والد [ليساندر] هو [ارسطوقليطس Aristoclitus] الذي وان كان لا ينحدر من صلب الملوك إلاّ انه من نسل الهيراقليدي. لقد نشأ الأبن نشأة فقر وأظهر من الطاعة وتقاليد بلاده والانصياع الى قوانينها بشكل لم يفعله أحد، وكان يمتاز ايضاً بالرجولة والترفع عن الملاذ كلها، خلا تلك التي تأتي للمفلحين والعظماء، بأعمالهم ومآثرهم الطيبة. ولم يكن يعتبر من الامتهان في سپارطا ان يستسلم الشباب لمثل هذا النوع من الملاذ. فمن المستحبّ عندهم أن ينشأ شبانهم من البداية وهم حساسون ازاء حسن السمعة وشؤنها وان يشعروا بالألم عندما يصابون بعارٍ وبالفخر عندما يثنى عليهم. ومن لا يكون مهتماً أو حساساً بهذا يُعدّ فقير النفس لا تجود بالسجايا والخلق الكريم، لذلك غرس الطموح والتهافت الى المجد في شخصيته بفضل تربيته اللاقونية. واذا كانت هاتان الخصلتان ملازمتين لأهل البلاد، فليس لنا ان نلوم طبيعته تلك. على انه كان شديد الطاعة للزعماء وعظماء الرجال بشكل غير مستحب وبافراط يبو عنه الذوق السپارطي. فهو يستطيع أن ينحمل بكلّ طيبة خاطر غطرسة مالكي زمام السلطة كلما عاد ذلك عليه بالنفع وهذا على رأي بعضهم من مقدمّات الحنكة السياسية الهامة ويقول ارسطو أن سوداوية المزاج تلازم كل عظماء الرجال وإن بدرجات متفاوتة ويضرب

مثلاً لذلك [بسقراط وافلاطون وهرقل]. وقد جاءنا من المصدر نفسه أن ليساندر غلب عليه هذا الطبع في كهولته لا في مقتبل عمره.

إن الأمر الذي تفرد به [ليساندر] هو مدى تحمله فقره ورضاه بحاله بأفضل صورة. الثروة لم تقو على استعباده أو افساده مع انه ملأ بلاده بالأموال واغى في نفوس أهلها حبّ الغنى وجردهم من فضيلة أحتقار النقود السامية. لقد حمل الى بلاده قناطير مقنطرة من الذهب والفضة بعد الحرب الآثينية لكنه لم يختص لنفسه منها بدراخما واحد. وعندما بعث الطاغية [ديونيسيوس] اثواباً غالية الثمن لبناته من صنع صقلية هدية ردّها عليه قائلاً: انه يخشى ان يزددن قبحاً بها! وبعدها بزمن كان [ليساندر] قد أرسل بسفارة الى البلاد نفسها وللطاغية نفسه. فاعاد معه العمل نفسه وأرسل اليه ثوبين ليختار أحدهما لابنته فقال [ليساندر]:

- انها وحدها قادرة على اختيار الأفضل.

وأخذهما ورحل بهما.

مرّ على حرب البلوبونيس زمن طويل وكان يتوقع من الآثينيين بعد نكبتهم في صقلية أن يخسروا سيادتهم على البحار حالاً وأن تحل بهم الهزيمة في كل مكان بعد فترة قصيرة؛ إلا أن عودة [الكيبياديس] من المنفى وتوليه القيادة أحدث تغييراً عظيماً في الوضع ورفع الاثينيين الى درجة التكافؤ مع خصومهم في البحر. فدبّ القلق الشديد في نفوس اللقيديمونيين ودعوا الى المزيد من التفاني والحماسة والعمل للمعركة القادمة. ولشعورهم بنقص في عدتهم الحربية وحاجتهم الى قائد قدير، بعثوا [بليساندر] بمنصب قائد لأساطيلهم في عموم البحار. ورحل الى [افسس] فوجد مشاعر المدينة معه وأهلها يشايعون الحزب اللقيديموني. إلاّ انها كانت سيئة الأحوال معرّضة الى خطر صيرورتها بربرية القوام لممارستها عادات الفرس الذين كانوا في أشدّ التمازج والاختلاط فيما بينهم، ولأن بلاد [ليديا] تجاورهم، وقوّاد الملك قد استقروا فيها منذ عهد بعيد. ولذلك عسكر هناك وأمر بأن يتم ارساء كل سفن التجارية في مينائها وباشر في بناء السفن وبهذا النشاط التجاري الذي خلقه أحيا موانيهم وانعش اسواقهم بالأعمال التي اوجدها وملأ بيوتهم الخاصّة وحوانيتهم بالبضائع والأموال.

وهكذا بدأت المدينة منذ ذلك العهد وبسعي [ليساندر] أولاً، تؤمل بعض الشيء في بلوغ ذلك السؤدد والعظمة اللذين ترفل فيهما الآن.

وعلم [ليساندر] أن [كورش Cyrus] ابن الملك قد قدم الى [سارديس] فقصده ليكلمه وليشكو اليه [طيسافيرنس] الذي بلغه الأمر بوجوب معاونته اللقيديمونيين وطرد الآثينيين من

البحر فتقاعس وتلكأ بسبب [الكيبيادس] واساء العمل بدفعه اجوراً زهيدة للبحارة حتى يلحق الدمار بالاسطول. وكان [كورش] يتمنى أن يثبت التقصير على [طيسافيرنس] وأن تشوه سمعته وتظهر حقيقة أمره كما هي في الواقع لأنه كان يحقد عليه في سرِّه. وافلح [ليساندر] في نيل ثقته وحبّه عن طريق ذلك وبمحادثاته اليوميّة المشوبة بطابع الخضوع للأمير الفتى، ورفع كثيراً من حماسته في مواصلة الحرب. واقام له [كورش] وليمة خاصة قبيل رحيله ورجا منه الا يتردد قطّ في الثقة به وان يتكلم بكلّ حرية ويطلب كلّ ما يريد، فسيحققه له مهما كان. فأجاب [ليساندر]

– لما كنت بهذه الدرجة من العطف، فانيّ الحّ عليك في الرجاء بأن تمنح البحارة دانقاً واحداً زيادة على اجرهم اليومي. فيكون اربعةً بدلاً من ثلاثة.

فسّر [كورش] لاخلاص [ليساندر] وتفانيه في المصلحة العامة ولم يكتف باقرار الزيادة التي اقترحها وانما منحه عشرة آلاف «داريكي Daric». وكان من آثار هذه العلاوة أن فرغت سفن الأعداء من البحارة تقريباً وتقاطروا على الجانب الذي يدفع أعلى الأجور. واما من بقي فقد فترت حماستهم، وتمردوا على قباطنتهم وصاروا يثيرون لهم المشاكل يومياً. ومع كل هذا الضعف والاضطراب الذي سببه [ليساندر] لعدوّه فقد ظلّ يخشى الاشتباك معه في البحر. اذ كان [الكيبيادس] قائداً عبقرياً، ولديه عدد من السفن يزيد عما لدى [ليساندر] ولم يخسر قط اية معركة لا في البرّ ولا في البحر.

لكن عندما اقلع [الكيبيادس] من [ساموس] الى [فوكيا] فيما بعد مودعا القيادة العامة لانطيوخوس القبطان، راه هذا القائد الجديد يتحرش بليساندر، وابحر بسفينتين فقط الى ميناء [افسس] بقصد اهانته وأخذ يتجول بهما على طول الساحل ساخراً متندراً أمام صفوف السفن. ودفع [ليساندر] في سورةٍ من الغضب ببضع سفن أولاً لمطاردة. ولكن ما أن وجد الآثينيين يخفون الى نجدته حتى أخرج عدداً اخر من سفنه وبالأخير انقلب الأمر الى معركة حاسمة انتصر فيها [ليساندر] وغنم خمس عشرة سفينة وأقام نصباً تذكارياً.

وغضب أهل المدينة لهذه الخسارة فعزلوا [الكيبيادس]. ولما وجد هذا نفسه موضع أحتقار ونقد شديد من الجنود في [ساموس] ترك معسكر الجيش الى [الخرسونيز] ومع أن هذه المعركة لم تكن هامة بحدّ ذاتها إلاّ ان آثارها كانت كبيرة بالنسبة الى [الكيبيادس].

ودعا [ليساندر] في اثناء ذلك الى [افسس] عدداً من شخصيات مختلف المدن البارزة، ممن توسم فيهم روح الجرأة والكبرياء وبدأ يضع أسس نظام حكم جديد فيها يرتكز على مجلس

دولة يتكون واحدها من عشرة اشخاص،. وزرع فيها بذور تلك الثورات التي انفجرت فيما بعد. وحث أولئك الأشخاص وحمّسهم على الاتحاد في نوادٍ واحزاب والانصراف الى الشؤون العامة فعما قريب ستنكسر شوكة الآثينيين. وسيقضى على نظم الحكم الجمهوري وبذلك سيتسلمون مقاليد الحكم في بلادهم المختلفة، وأثبت لهم بالبرهان اقواله هذه بتقليد اصحابه وخلاّنه المناصب الرفيعة والوظائف الحساسّة وخلع ضروب التكريم عليهم. وشارك في ظلمهم وشرورهم ارضاءً لأطماعهم حتى أحاطوا به واصبحوا بطانةً تتزلف اليه وتحرص على وجوده مؤملين من بقائه في دست الحكم، تحقيق أعظم رغباتهم وغاياتهم. ولذلك ضاقوا ذرعاً من البداية بـ[قاليقراتيداس Callicratidas] عندما عين خلفاً [لليساندر] في قيادة الاسطول وكرهوه في النهاية عندما جربّوا نبله وعدالته. ولم يكونوا مسرورين قط من اسلوبه في الحكم واستقامة اخلاقه وأمانته وطبعه «الدوري»[1] المثالي. الحق يقال انهم أعجبوا بمزاياه، مثلما يعجبون بجمال رسم بطلٍ من الأبطال فحسب. أما رغباتهم فكانت كلها تحوّم حول ليساندر ودعمه لمصالح اصدقائه وانصاره وترويجه كل ما فيه منفعتهم. ولذلك ذرفوا الدمع حزناً عندما رحل عنهم. وزاد في اضطغانهم لخلفه انه ارجع الى [ساردیس] بقية الأموال التي صرفت له لدفع مرتبات بحارة الاسطول، وأوعز لأصحابه بأن يراجعوا القائد الجديد، بهذا الخصوص ويحرجوه بطلب مالٍ لا يملك منه شيئاً. وأخيراً قال له قبل ابحاره: انه يسلم اليه الاسطول بعد أن صار سيداً مطلعاً على البحر. فبادر [قاليقراتيدس] وقصده أن يفندأ كذوبته هذه ويميط اللثام عن ادعائه الفارغ.

- إن كان الأمر كما تقول فأخرج بالاسطول من [ساردیس] متياسراً واتجه نحو [ميليطس] وقم بتسليم قيادة الاسطول لي هناك. اذ ليس ما نخشى منه بابحارنا عن طريق [ساموس] حيث اعداؤنا، مادمنا سادة البحر.

فردّ [ليساندر] قائلاً: «انه لم يعد قائداً للاسطول وانما هو ليساندر فقط.» ثم أبحر الى [البلوبونيس] مخلفاً [قاليقراتيداس] في ورطة ليس أعظم منها. لأنه كان خالي الوفاض ليس عنده ما يدفع نفقات الاسطول كما انه لم يشأ ان يجبي ضريبة من المدن، أو يرغمها على الدفع. فأصبح في عسرٍ شديد. ولم يجد وسيلة أفضل من أن يطرق ابواب قادة الملك مستعطياً كما فعل سلفه [ليساندر] لكن نفسه الرفيعة جعلته أبعد الناس جدارة بهذا العمل. فهو من أولئك الذين كانوا يرون من الأفضل للأغريق ان يؤذوا بعضهم بعضاً ولا يتصاغرون أو

---

(١) هي بالأصل نسبة لأهل «دوريس Doris». ودوريس اقليم من اقاليم اليونان القديمة. (اما الاقليمان الآخران منهما ايوليا وايونيا). ومنه جاء «المقام الدّوري Dorian» في الموسيقي اليونانية القديمة.

يتزلفون أو يقفون بذلة على ابواب البرابرة الذين لا نكران في انهم يملكون مالاً كثيراً. ولا يملكون شيئاً آخر غيره يستحق الذكر إلاّ أن الحاجة ارغمته، فرحل الى [ليديا] وقصد منزل [كورش] مباشرة. وأرسل من يعلمه أن [قاليقراتيداس] أمير البحر قد حضر لمحادثته فأجابه أحد المكلفين بحراسة الأبواب:

- إن كورش أيها الغريب مشغول لأنه يشرب.

فقال [قاليقراتيداس] بسذاجة: حسن جداً، سانتظر هنا اذن حتى ينتهي من شرابه.

وهذا ما حملهم على الاعتقاد بأنه نوع من المهرجين أو المضحكين فلم يابهوا به وانسحب هو يشيعه ضحك البرابرة. ولكنه شعر باهانةٍ لكبريائه عندما جاء ثانيةً ولم يفسح له. فأنطلق عائداً الى [إفسس] وأخذ يدعو بالويل والثبور على بني قومه الذين سمحوا الهؤلاء البرابرة باهانتهم وعلموهم الوقاحة والغطرسة، بسبب ثرواتهم. وقطع على نفسه عهداً امام من كان حاضراً بأنه سيعمل حال عودته الى سبارطا على بذلِ أقصى جهوده لاصلاح ذات البين بين الاغريق ليكونوا اعزّ جانباً وأقوى من البرابرة. ولكي لا يمدوا يد الصدقة اليهم أو يطلبوا مساعدتهم بعضهم على بعض. إلاّ ان [قاليقراتيداس] هذا الذي حاول انجاز عملٍ جليل جدير باللقيديموني حقاً. وكان في جرأته عليه واستقامته وسمّو فكرته أهلاً لمضاهاته بأعظم عظماء اليونان وافاضلهم، ما عتم ان قضى نحبه عقب اصابته بهزيمة بحرية في [ارغينوسي Arginu-sae].

وراحت الاوضاع تنتقل من سيء الى أسوء، وبعثت دول الحلف العسكري بسفارة الى سبارطا تطلب منها [ليساندر] ليتولى قيادة الاسطول العامة. وزعموا ان هذا التعيين سيشد من ازرهم ويقوي من عزماتهم وايّد [كورش] هذا الاقتراح أيضاً. إلاّ ان القانون السبارطي لم يكن يسمح بتعيين الشخص نفسه أيداً للبحر أكثر من مرة واحدة ولكنهم كانوا يريدون ان يحققوا رغبة حلفائهم. ولذلك منحوا اللقب لشخص يدعى [آراكوس Aracus] وارفقوا به [ليساندر] بوظيفة نائب له اسمياً على أن تكون له جميع السلطات الفعلية. وهكذا عاد بعد طول انتظار وشوقٍ من معظم زعماء المدن وسراتها لأنهم كانوا يعتمدون على وجوده للقضاء على الحكومات الجمهورية في كل مكان حتى يزداد نفوذهم ويتعاظم.

على أن من أحبَّ الاستقامة والنزاهة والنبل في قائده، وجد [ليساندر] اذا قورن [بقالقراتيداس] شخصاً مخادعاً مراوغاً ماكراً وسيلته في الحرب الغدر والحيلة. يُشيد بما هو عدلٌ ان كان في العدل منفعة له، فان لم يكن، تحول عنه الى ما يصلح له وان لم يكن حسناً.

وهو أصلاً لا يرى فضلاً للحقيقة على الزيف وقيتهما واحدة عنده نسبةً الى مصلحته. ويستخفّ باولئك الذين يرون أن أحفاد هرقل ينبغي لهم أن يترفعوا عن الخدعة في الحرب، وآيته في ذلك «إن لم يكن جلد الأسد كافياً فارقعه بجلد ثعلب». وكان هذا هو الأسلوب الذي أثر عنه في معالجته مسألة [ميليتوس] عندما آثر اصحابه وانصاره الذين وعدهم بالتعاون معهم للقضاء على الحكومات الجمهورية وطرد خصومهم السياسيين – أن يغيروا رأيهم ويصالحوا أعداءهم، فتظاهر بسروره من عملهم، والرّغبة في المزيد من الصفاء والوئام. إلاّ أنه انتقدهم وانبهم في السرّ وحرضهم واستفزّهم على الشعب. وعندما تبين بوادر محاولة جديدة للثورة حتى عجل بالدخول الى المدينة وأخذ يعنّف اول من التقى به من المتآمرين ويكلمه بخشونة مهدداً الجميع بالعقاب على ملأ من الناس، ولكنه أخذ يشجع الآخرين على تمردهم واوصاهم الاّ يخشوا شيئاً لأنه في جانبهم. وكان هدفه من كل هذا التمثيل والمراوغة والتستر، اشاعة الإطمئنان في قلوب زعماء حزب طبقة العامة فيطرحوا جانب الحذر ولا يهربون من المدينة ليفتك بهم. وهو ما حصل فعلاً فقد قتل كل من صدق اقواله.

وثم قول يُعزى الى [اندروقليدس]. يتهم فيه [ليساندر] بأنه لا يحترم قط اي عهد يقطعه، ولا يحافظ على اي قسم يحلفه وأورد عن لسانه وصيّة وهي «الصِّبية غشهم بالنرد، والرجال اخدعهم باليمين» وهو ما يشبه أخلاق [پوليقراطس] السّاموسي على انه ليس مما يشرف قائداً يخضع لحكم الشريعة أن يحتذي حذو طاغيةٍ مستبدٍ ويتخذه مثلاً. وليس بليق أخلاقياً، بالتقاليد اللاقونية، ان تعامل الالهة معاملة الاعداء بل أسوء. فمن يستظهر على خصمه بحلف يمين يكن مقراً ضمناً بخوفه منه ولا يحترم آلهته.

بعث [كورش] يستقدم اليه [ليساندر] في [سارديس] فخف لمقابلته فأعطاه مقداراً من المال ووعده بالأكثر وتعهد له بنزق الشباب وتسرعه بان يمده بكلّ ما يحتاجه إن أمتنع ابوه الملك عن سدّ حاجاته، وإن اقتضى ذلك منه النزول عن كل ثروته وأملاكه، وأقسم انه سيصهر عرش حكمه المصنوع من الفضة والذهب لأجله. ولما رحل الى موطنه بلاد مادي لمواجهة ابيه أمر أن تدفع [لليساندر] أتاوات المدن وأوكله على تصريف شؤون الحكم في غيابه وأوصاه قبيل سفره بألاّ يدخل معركة بحرية قبل مجيئه، لأنه سيأتيه بسفن كثيرة من [فنيقيا وكيليكيا].

كان عدد السفن التي وضعت بأمرة [ليساندر] قليلاً جداً لا يسمح له بالمغامرة في قتال. كما لا يسمح له بالسكون وعدم الحركة فأنطلق بها مستولياً على بعض الجزر، ومجتاحاً [ايجينا] و[سلاميس]. وبعدها نزل برّ [آتيكا] وسلم على [آغيس] الذي قدم من [ديقيليا

[Decelea] لمقابلته. وهناك قام باستعراض بحري لقواته أمام قوات البرّ، يريد أن يوحي لهم بقدرته على الانطلاق الى حيث يشاء لكونه سيد البحر المطلق. إلاّ انه هرب بطريق آخر عندما شعر بأن الآثينيين يتعقبونه فعبر الجزيرة الى آسيا. ولما وجد [الهللسپونت] من غير دفاع، هاجم بسفنه [لامپاسكوس] من جهة البحر. وتعرض [ثوراكس Thorox] بقواته البرية لأسوارها وما لبثا ان فتحوها عنوة، وأطلقوا جنودهم فيها ينهبونها ويستحلوّن حرماتها. وكان الاسطول الآثينيي في تلك الاثناء قد وصل [اپليوس] في [الخرسونيز] بسفنه المائة والثمانين. فبلغتهم ابناء ذلك مدينة [لامپاسكوس] فأسرعوا الى [سيستوس] حيث تزودوا بالمؤن والارزاق ثم اتجهوا الى [ايكوس پوتابي Aegos Potami] وانقضوا على أعدائهم الذين كانوا قد القوا مراسيهم حول [لامپاسكوس]. وكان [فيلوقليس Philocles] من القواد الآثينيين وقتذاك فاقترح أصدار مرسوم يقضي بقطع الابهام الأيسر من ايدي كل الأسرى الذين يقصون في ايديهم حتى لا بعدوا قادرين على مسك الرمح، في حين لا يعجزهم عن التجذيف.

وراح الطرفان قواتهما استعداداً لمعركة صباح اليوم التالي إلاّ ان تفكير [ليساندر] كان منصرفاً الى شيء آخر غير المعركة. فأمر البحارة والملاحين أن يصعدوا ظهر سفنهم في أول الفجر كأنهم يتأهبون لخوض معركة النهار. وان يتخذوا مجالسهم هناك بكلّ انتظام أو يتحاشوا اي ضجّة خلا الأوامر. وأوعز للجيش البريّ أن يتخذ عين موقفه وكان قريباً من الساحل. ثم بزغت شمس اليوم التالي فدبت الحركة في سفن الآثينيين كافةً وتقدمت من سفن [ليساندر] في صفّ المعركة وأخذت تتحرش به فلم يتحرك ولم يخرج لقتالهم رغم انه اتم حشد كلّ قواته قبيل الفجر. على انه أرسل عدداً من الزوارق الصغيرة الى القطع الأمامية من اسطوله يأمرها بالسكون ويحذرها من الإخلال بنظامها أو قبول المعركة. فلم يسع الآثينيين إلاّ ان يعودوا ادراجهم بحلول الليل. وابقى [ليساندر] البحارة في السفن حتى آبت سفينتان أو ثلاث كان قد أرسلها للاستطلاع وأبلغته بنبأ انسحاب الاسطول الآثيني. وفي اليوم التالي كرر العمل نفسه. ومضى اليومان الثالث والرابع على هذا المنوال. فأرتفعت معنويات الآثينيين وبلغت ثقتهم بانفسهم غايتها وزادوا استهانة بأعدائهم وتوهموا فيهم الخوف وخور العزم. وفي تلك الاثناء قدم الى الجيش الآثيني [الكيبيادس] على ظهر جوادٍ من حصنه في [الخرسونيز] وراح ينتقد القادة في أمورٍ كثيرة، منها عسكرتهم في الساحل المكشوف، بصورة سيئة تعرضهم للخطر. وعاب عليهم اختيار مواقع رسو سفنهم وذكرهم بأنها سترغمهم على الرجوع الى [سيستوس] في كل ما يحتاجه الأسطول. والمسافة بينها وبينهم بعيدة. فلو

تقربوا قليلاً من مدينة [سيستوس] وميناتها لكانوا أكثر أمناً من غائلة العدوّ الذي جثم في مواضعه يتابع كل حركة يأتونها تحت قيادة جنرال واحدٍ، يطيع مرؤوسوه كل أمر يصدره الطاعة حرفية آنية بدافع الخوف منه. إلاّ ان الآثينيين لم يأبهوا بنصحه وردّ [تيديوس Tydeus] عليه باحتقار: «انه الآن ليس قائداً وهناك آخرون مسؤولون»، فرحل عنهم وكله شكّ في خيانتهم.

في اليوم الخامس خرجت سفن الآثينيين الى عدوّها ثم أقفلت راجعة كعادتها، وقد طغى على اصحابها شعور بالكبرياء، والاحتقار للعدو. وبعث [ليساندر] ببعض السفن للاستكشاف وامر قباطنتها أن يعودوا بأقصى السرعة حالما يشاهدون الآثينيين ينزلون من السفن الى اليابسة. وأمرهم أن يرفعوا في مقدمة سفنهم تروساً نحاسية بعد ان يقطعوا نصف المسافة في طريق العودة، ليكون ذلك اشارة الحركة وبدء القتال؛ ثم تجوّل بين سفن اسطوله لتشجيع الربابنة والملاحين. والتشديد عليهم بابقاء رجالهم كل في موضعه جنوداً وبحارة على حد سواء. حتى اذا لمحوا اشارة الحركة سارعوا بالتجذيف بكلّ قوتهم وانقضوا على اعدائهم.

وهكذا تّم الأمر وفقما رسم فما ان رفعت التروس في مقدمات السفن ونفخ نفير الهجوم من سفينة القيادة حتى دبت الحركة في الاسطول وتقدم الجيش البريّ على طول الساحل مستهدفاً بلوغ المرتفع. كانت المسافة بين القارتين خمسة عشر [فرلنغا] قطعها ليساندر بأقصر وقت بفضل مثابرة الجذافين وحماستهم وكان القائد الآثيني [كونون Conon] أوّل من فطن الى اسطول العدو وهو يقترب. فصاح يأمر بالعودة الى السفن. وراح يتوسل ببعض ويرجو آخرين، وبرغم سواهم بركوب السفن وهو في أشدّ حالات الغمّ والقهر. وذهبت جهوده ادراج الرياح لأن الرجال كانوا قد تفرقوا على أثر نزولهم البرّ ففريق ذهب الى السوق وفريق راح يتجول في الريف، وفريق آوى الى خيامه ورقد أو انهمك في تهيئة العشاء. فقد تركتهم غباوة قوّادهم وهم ابعد الناس عن توقع هجومٍ كهذا. وانقض العدوّ عليهم بضجة وصياح. وتمكن [كونون] من الافلات بثماني سفن فقط. اتجه بها الى [قبرص] ومنها ابحر الى [ايفاغوراس Evago-ras]. وهجم البلوبونيسيون على البقية وليس فيها بحارٌ واحدٌ وحطموا بعضها اثناء ما كان رجالها يحاولون الصعود اليها وهم يتقاطرون من كل الجهات فرادى عزلاً ليلاقوا حتفهم في سفنهم أو يفروا الى اليابسة فيقضى عليهم هناك لأن المنتصرين نزلوا من سفنهم وشرعوا يتعقبون فلولهم.

ووقع في يد [ليساندر] ثلاثة آلاف أسير مع قادتهم. وغنم كل سفن الاسطول خلا السفينة المقدسة المسماة [پارالوس Paralus] وما هرب به [كونون]. وقادوا السفن الأسيرة خلفهم

ونهبوا معسكرهم ثم ابحروا عائدين الى [لامپاسكوس] وهم ينشدون اناشيد الظفر وينفخون في السرنايات، ولا عزو فقد حقق قائدهم عملاً عظيماً بمجهود قليل، وانهى في ساعة واحدة حرباً طويلة مضنية، تقلبت خطوط المحاربين فيها تقلباً عجيباً يفوق العقل وكثرت أحداثها ومفاجآتها فغلبت كل ما سبقها. وها هي ذي خاتمتها يمليها حسن تدبير وسرعة بديهة رجل واحد فيضع اوزاراً لها تسببت في دمار عدد من القادة يفوق كل ما دمرته حروب اليونان السالفة مجتمعةً. ولذلك مال بعضهم الى أن يعزو نتيجتها هذه الى التدخل الالهي. وهناك من يؤكد أن الكوكبين [كاستور] و[پولوكس] شوهدا يحفان بجانبي سفينة [ليساندر] اوّل خروجه من الميناء الى عدوّه. تلتمعان ساطعتين عند الصاري.

أو زعم بعضهم أن الحجر الذي سقط كان نذيراً بهذه المذبحة. فقد ساد الاعتقاد ان حجراً عظيماً سقط فعلاً من السماء وانه ما زال موجوداً في ايكوس پوتامي في موضع سقوطه الى يومنا هذا. والخرسونيون ينزلونه منزلة تقديس واجلال. وقيل ان كساغوراس تكهن بأن اي انهيار أو هزة بين الاجرام السماوية الثابتة قد يؤدي الى زحزحة اي واحدٍ منها عن موضعه وتبعه حتى سقوط الاجرام كلها. اذ ليس هناك كوكب واحد وهو باقٍ في موضعه الأول لأنها على حَدّ زعمه ثقيلة كالحجارة وسطوعها متأتٍ من انكسار الهواء الأعلى الذي يحيط بها، فوق سطحها وتظل ثابتة في موضعها مرغمةً، بسبب شدة الحركة المحورية التي منعتها من السقوط عند انفصال الاجرام الثقيلة الباردة عن الكون في مبدأه. على أن لبعضهم رأيا أقرب من هذا الرأي احتمالاً. يقول هؤلاء أن الشهب ليست إلاّ نفثات، أو ألسنة من النار الآثيري، ما ان يلامسها الهواء الأسفل (الأرضي) حتى يخمد. ولا يمكن أن تكون تفجيراً أو ثوراناً مفاجئاً لكمية من الهواء الأسفل عندما ينطلق الى طبقات الجوّ العليا باندفاع هائل. على أن الاجرام السماوية الساقطة تتخذ بتباطيء قوة حركة دورانها - مساراً غير منتظم لا يتجه بها عادةً الى الجزء المسكون من الأرض وأنما يسلك بها سبيل البحر المحيط على الأغلب وهذا هو السبب في اننا لا نشاهدها.

ولايختلف الرأي الذي اثبته [دياماخوس Diamiachus] في رسالته «في الدين» عن رأي [اناكساغوراس] فهو يقول: قبل أن يسقط هذا الحجر ظلّ الناس طوال خمسة وسبعين يوماً متعاقبة يشاهدون جسماً نارياً كبيراً في السماء اشبه بسحابة ملتهبة دائمة الحركة لا تستقر على حال. ولوحظ ان تحويمها كان معقداً وخطّ سيرها متكسراً حتى أن الأجزاء الملتهبة التي كانت تنفصل عنها بفعل حركتها السريعة وثورانها، تتفرق في جميع الاتجاهات مثل الشهب التي تخرّ. وعندما هبطت الى الأرض فوق المنطقة التي أسلفنا ذكرها وزال الرعب والعجب من

الأهالي وذهبوا الى موضع سقوطها جّماً غفيراً، لم يشاهدوا ناراً، ولا أثراً النار. وانما رأوا حجراً كبيراً فحسب لا تكون شيئاً مذكوراً اذا قيس بحجم ذلك الجسم الناري ان صحّ هذا التعبير. وواضح أن [دياماخوس] يفتقر الى سامعين مقتنعين بتعاليله. أما اذا كان مصيباً الحقيقة فيما يزعم، فهو يخطيء كل قائل بأن تلك الصخرة انفصلت عن قرن جبل من الجبال بفعل الرياح والعواصف فحُملت عنه وراحت تدور على نفسها في الفضاء كالدوّامة. وما ان أعترى القوى المحركة لها بعض البطء أو توقفت حتى انتكست وسقطت على الارض، هذا إن لم نشأ اعتبار الظاهرة السماوية المتواصلة طوال الأيام الخمسة والسبعين ناراً حقيقية، تلاشت وانطفأت فتغير الجوّ بفعل ذلك تغيراً مصحوباً بريح زعزع ورجّات ارضية رفعت ذلكم الحجر الى الفضاء... وعلى اية حال فإن معالجة موضوع كهذا بشكل دقيق يتطلب ميداناً للكتابة غير ميداننا هذا.

بعد أن قضى مندوبو الحلفاء بالموت على الآلاف الثلاثة من أسرى الاثينيين، أستدعى [ليساندر] القائد [فيلوكيس] وسأله اية عقوبة يقترحها لنفسه تكفيراً عن أغوائه مواطنيه للقيام ضد الأغريق؟ ولم تفقد النكبة كرامة هذا القائد وقال رداً عليه – ليس لك ان تتهمني بأمور لا يحق لأحدٍ أن يحكم فيها. أما وأنك الجانب المنتصر الآن فلك أن تصنع ما كان سيُصنع بك لو هُزمت ثم انه أغتسل وارتدى معطفاً جميلاً وسار الى ساحة الموت على رأس مواطنيه المحكومين. وهذا ما ورد في تاريخ حياته.

وتنقلّ [ليساندر] في عدد من المدن زائراً. وأمر كل الآثينيين الذين لقيهم بالعودة الى آثينا وقال انه لن يتغاضى عن بقاء ايّ واحد منهم خارج آثينا والاّ قتله، وكان يرمي من جمع الآثينيين في مدينتهم، أحداث مجاعة وقحطٍ باحتشاد السكان فيها. حتى لا يتكلف جهداً كثيراً في حصار نوى ان يلقيه على المدينة. لأن نضوب المؤن والارزاق سيرغم المدافعين على الاستسلام السريع. ثم انه قضى على كل أنظمة الحكم الجمهورية والدساتير الأخرى، ونصب قائداً عسكرياً ليقديمونياً في كل مدينةٍ، وعين عشرة من الحكام المحليين لمعاونته، كان يختارهم من أحزابه التي سبق له تشكيلها. وقام بتطبيق هذا النظام الجديد في بلدان عديدة، وفرضه أيضاً على حلفائه. ثم استأنف تجواله البحري على رسله ناشراً بذلك سلطانه وهيبته على كل البلاد الأغريق.

لم يكن اختياره أولئك الحكام مبنيّا على الثروة أو كرم الأصل وانما قصره على محسوبيه ومنسوبيه. وقد عمل على أرضائهم بكلّ وسيلة، وخولهم سلطات مطلقة في مجالي العقاب والثواب ولهذا كنت تراه حاضراً في عدة مذابح ومناسبات سفك دماء بشخصه. وعاون

اصحابه أيضاً في طرد وإبعاد معارضيهم فضرب للأغريق نموذجاً جدّ سيء لأسلوب الحكم اللقيديموني. ولقد كان وصف الشاعر الساخر [ثيومبوبوس] للقضية ضعيفاً تافهاً عند تشبيهه اللقيديمونيين بنساء الحان. لأن الأغريق عندما ذاقوا خمرة الحرية الحلوة في مبدأ الأمر عادوا فصبوا في الاقداح خَلاً فوجدوه حاداً حذيفاً. لقد ازال [ليساندر] كل الحكومات الجمهورية الشعبية. وتخيَّر أشدّ أعضاء الحزب الاوليفارشي ظلماً واستهتار لحكم المدن.

في أثناء انشغال [ليساندر] بعض الوقت بتصريف هذه الأمور أرسل رسلاً الى آثينا يخطرها بقدومه على رأس مائتي سفينة وفي [آتيكا] أنضمت الى الهجوم قوات الملكين [آغيس] و[باوسنياس]. وكان يأمل بحشد هذه القوات الكبيرة أن يستولي على آثينا فوراً. إلاّ ان الآثينيين دافعوا عن مدينتهم دفاع المستميت فما كان منه إلاّ وانسحب باسطوله عائداً الى آسيا. وهناك عمد جرياً على عادته - الى ازالة النظم الجمهورية من كل المدن ووضعها تحت سيطرة مجلس العشرة الرؤوساء. وذبح كثيراً من الأهالي ونفى عدداً أكثر منهم. وفي [ساموس] هجّر كل المواطنين وسلّم مدنهم للمبعدين الذين أعادهم وانتزع [سيستوس] من الآثينيين الذين كانوا يسيطرون عليها وقتذاك. واخرج كل سكانها منها وقسم المدينة والاراضي بين الملاحين وربابنة السفن الذين يعملون بأمرته. ولم يرضَ اللقيديمونيون على عمله الأخير فأمروا بعودة أهل [سيستوس] المطرودين الى موطنهم وكان هذا أوّل قرار ينقض له. على ان الاغريق كافةً أغتبطوا لاستعادة [الايجينيين] مدنهم بعد زمن طويل من التشريد بفضل [ليساندر] كذلك سُروا بعودة الميليطين و[السكيونيين Sciomæans] الى اوطانهم في حين لم يتمّ طرد الآثينيين من كل مكان ويرغمون على اخلاء المدن وتسليمها.

وابحر عائداً الى [بيريوس] بعد علمه أن الآثينيين يعانون ضيقاً شديداً وقد ساءت حالهم داخل المدينة بتفشي المجاعة فالقى الحصار عليها وارغمها على الاستسلام اليه وفق شروط أملاها عليهم. ويروى نقلاً عن المصادر اللقيديمونية أن [ليساندر] كتب [للايفور] الزعماء ما يلي: «لقد اغتنمتُ آثينا».

فبعث اليه [الايفور] بالرد التالي: «كفى اغتناماً!».

إلاّ أن هذه الحكاية مخترعة أساساً، بسبب المقابلة اللفظية الظاهرة في العبارتين. اما البيان الحقيقي الذي صدر عن الحكام [الايفور] فاليك هو:

«يصدر حكام لقيديمون الأوامر التالية الى الآثينيين: أهدموا ميناء [بيريوس]، والأسوار الطويلة، اتركوا كل المدن التي تسيطرون عليها. ورابطوا في اراضيكم.

فان فعلتم فسيكون لكم سلامٌ حيثما شئتم. وليعد منفيوكم الى المدينة. واما بخصوص سفنكم فسيترك لكم ما انتم بحاجة اليه».

ورضي الآثينيون بهذه الشروط. وأيدها [ثيرامينيس Theramenes] ابن [هاگنون Hag-non]. وقيل أن [كليومينيس] احد الخطباء الشبان سأل ثيرامينيس في حينه كيف يجرأ على تأييد ما يخالف سياسة [ثمستوكليس] وكيف تطاوعه نفسه على تحبيذ تسليم الأسوار الى يد اللقيديمونيين وهو الذي بناها رغم أنفهم. فأجابه [ثيرامينيس]:

- ثق أيها الشاب اني لا أنقض سياسة [ثمستوكليس]. فقد بنى الأسوار لسلامة المواطنين ونحن الآن نقوضها لسلامتهم وان كانت الأسوار تضمن للمدينة أمنها وراحتها، فلا شك ان سپارطا انكد المدن خطاً لأنها عاطلة عن الأسوار.

استولى [ليساندر] على كل سفن الآثينيين وترك لهم اثنتي عشرة فقط. واحتل اسوار آثينا في اليوم السادس عشر من شهر [مونيخيون] وهو الشهر الذي خلد انتصار الآثينيين على البرابرة في موقعة [سلاميس] الفاصلة. وعكف بعدها مباشرة على تغيير نظام الحكم فيها. فتبرم الآثينيون من ذلك وأخذوا يقاومون اجراءته. فاذاع بياناً الى الأهلين جاء فيه قواه انه المدينة أخلت بشروط الصلح فالأسوار ما زالت قائمة وها قد مضى عدة ايام على الأجل المضروب لتقويضها. فلا يسعه والحالة هذه وبعد أخلالهم بأوّل الشروط ان يعيد النظر في الصلح. ويقول بعضهم أن اقتراحاً عرض للمناقشة أمام مجلس الحلفاء، يقضي ببيع كل الآثينيين في سوق النخاسة. وفي ذلك الاجتماع ايدّ [ايريانثوس Erianthus] الثيبيّ اقتراحاً بدك المدينة دكاً وهدمها الى آخر منزلٍ وجعلها مرعى ومسارح للغنم. إلاّ أن مواطناً من [فوكيس] نهض في اجتماع عقده قادة الوحدات العَسكرية وانشد المقطع الأول من ترنيمة الجوق في مسرحية [يوريبيديس] المسماة [اليكترا Electra] ويبتديء بالبيت الآتي:

«[ليكترا]! يا بنت [آغاممنون] ها اني قادم الى بيتك المهجور».

فذابت حدة الجميع بنار العاطفة، واتضح لهم جانب القسوة في تدمير مدينة كآثينا طبقت شهرتها الآفاق وأنجبت أولئك الرجال العظام.

بعد أن نزل الآثينيون عن كل شيء. أستقدم [ليساندر] عدداً من اللاعبات على الناي وارسلهن خارج المدينة وجمع في موضع واحدٍ كل من كان في المعسكر وباشر في هدم الأسوار واحراق السفن على انغام النايات. وطوق الحلفاء أعناقهم بقلائد الزهر حبوراً وأستسلموا للهو والطرب. فقد كان اليوم بمثابة بداية عهد جديد لحريتهم وخلاصهم من نير الآثينيين. وبعدها

باشر ليساندر في تغيير نظام الحكم فعين لآثينا ثلاثين حاكماً، وعين [لبريوس] عشرة حكام. ووضع حامية عسكرية في [الاكروبوليس] ونصب [كالليبيوس Callibius] السپارطي قائداً لها. وهذا هو الذي رفع عصاه مرةً ليضرب [اوتوليقوس Autolycus] البطل الرياضيّ لخلاف نشأ بينهما حول هوية الشخص الذي كتب له گزينفون رسالته «الوليمة». ولما تعمد عثارة بوضع قدمه امامه فأسقطه على الأرض لم يظهر [ليساندر] استياءً من عمل [كالليبيوس] وانما وبّخه قائلاً انه لا يعرف كيف يحكم احرار الرجال. ومهما يكن فقد عمد الحكام الثلاثون الى قتل [اوتوليقوس] ارضاء [لكاليبيوس] وتزلفاً اليه.

بعد هذا، ابحر [ليساندر] الى [ثراقيا] وبعث الى لقيديمون بما تبقى من أموال الخزينة. وبالهدايا والتيجان التي قدمت له شخصياً وكانت كثيرة لأن عدداً كبيراً من الناس كانوا يتزاحمون على التقرب منه بتقديم الهدايا له، كما هو متوقع بالنسبة الى شخص مثله يملك سلطات غير محدودة أو بكلمة أخرى سيد بلاد الاغريق المطلق. وأوكل أمر نقلها الى [غيليپوس Gylippus] الذي كان قائداً في صقلية. وقيل ان هذا الوكيل المؤتمن أحدث فتوقاً في قيعان الجوالق واختلس من كل جوالق كمية من الفضة جمعت له مالاً طائلاً ثم خاطها ثانية دون أن يدري بوجود قائمة في كل جولق ثبت فيها تفاصيل الأموال وكمياتها. ووصل سپارطا وأسرع يخفي ما أختلسه تحت آجر سقف بيته. ثم قام بتسليم ما استؤمن عليه الى الحكام مظهراً لهم سلامة اختامها ولما فتحوها واحصوا فيها وجدوا نقصاً بين ما أحصوه وبين ما دون في القوائم. وبينما هم في حيرة شديدة، انبرى خادم [لفيليپوس] ليحل لهم اللغز بهذه العبارة: «تحت الآجر يختفي كثير من البومة!».

إشارة الى أن معظم النقود المتداولة آنذاك كانت تحمل النقش الاثيني وهو رسم البومة ولم يسع [غيليپوس] مرتكب هذا العمل المخزي الوضيع بعد أعماله البطولية، الا الرحيل عن لقيديمون.

بسبب هذه الحادثة خشي عقلاء السپارطيين من تأثير النقود في إفساد أشرف المواطنين. فانتقدوا عمل [ليساندر] وأشاروا على [الايغور] باعادة الذهب والفضة الى مصدرهما لأنها «عوامل فتنةٍ أجنبيّة عن الوطن» فتداول الايغور فيما بينهم. ويقول [ثيوميپوس] ان [سكيرافيداس Sicraphidas] هو الذي اشار بمنع دخول الذهب والفضة الى المدينة والمداومة على استعمال نقود المدينة الحديدية. ويرغم [ايفوروس] أن الناصح بذلك هو [فلوغيداس Phlogidas] لا غيره. فالسپارطيون كانوا يغمسون مسكوكاتهم الحديدة بالخل وهي محمرة من فرط التسخين حتى يتلف معدنها ولا تعود صالحة لصناعة أو حاجةٍ لأن الحديد يتصلب

بالخلّ ويفقد مطاوعته. ثم ان أي مقدار كبير منها أوزاناً وحجوماً، لا يتضمن إلاّ قيمة تافهة، وربما كانت النقود المتداولة عموماً في ذلك العصر تسكّ من معدن الحديد. وتقوم المسامير النحاسية في بعض البلاد مقام النقود. ولهذا ما زلنا الآن نجد كثيراً من قطع النقد الصغيرة محافظة على الاسم القديم «اوبول»، وكل ستة اوبولات تعدل دراخماً واحداً. لأن اليد تستطيع أن تمسك بستة منها دفعةً واحدة.

إلاّ أن انصار [ليساندر] عارضوا في هذا الرأي وبذلوا كثيراً من الجهود لابقاء تلك الأموال في المدينة، وأخيراً تقرر ابقاؤها بيد الدولة فقط وحرموا تداولها على الناس. وأصدروا قانوناً يقضي بالموت على كل من وجد شيء منها في حيازته الخصوصية، كأنما كان خوف ليكورغوس متأتياً من المسكوكة الذهبية والفضية لا من الجشع الذي تولده في النفوس. وهو ما لم يفكروا بقمعه والقضاء عليه عند سنهم قانونهم. فقد حرموا على الشخص العادي اكتناز شيء منها، بينما شجعوا وجودها بسماحهم للدولة ان تحتفظ بها فاضفوا عليها نوعاً من القدسية والمكانة يفوقان فائدتها وقيمتها الحقيقية ولم يكن من المعقول ايضاً أن ما وجدوه موضع تقديس واحترام من جانب الدولة، يجب أن يحتقر ويعتبر عديم الفائدة عند الاشخاص. وان يجبر المواطن على الأ يرى في هذا الشيء اي وجه من اوجه الانتفاع الشخصي له بينما وجب عليه أن يقرّ بعظم قيمته ومنفعته للدولة. والعادات الخلقية التي تسود المجتمع بالممارسة بكون طريقها الى حياة المرء الخصوصية أسرع من طريق أخفاقات الأفراد واخطائهم الى التفشي في المدينة على أوسع نطاق. وقد تفسد الاجزاء بفساد الكل، في حين ان الرذائل التي تنبثق من الجزء وتنفذ الى الكلّ قد تجد كثيراً من العلاجات وعوامل الاصلاح لابقاء الكلّ سليماً. إن الإرهاب وصرامة القانون سلطا لمراقبة بيوت المواطنين ومنع دخول النقد الذهبي والفضي اليها. ولكن لم يعد ثم قوة تستطيع تزّهد الناس فيه وتكبح رغبتهم الى اكتنازه بعد ان أنزلته الحكومة تلك المنزلة الرفيعة، واعتبرته مما يستأهل بذل الجهود للحصول عليه. وكنا قد بيّنا انتقاداتنا لموقف اللقيديمونيين من هذه المشكلة في كتابة سالفة لنا فلتراجع.

عمل [ليساندر] من غنائم الحرب عدة تماثيل من النحاس في دلفي، له ولكلّ قبطان من قباطنة أسطوله. وصاغ نجمتين ذهبيتين تمثلان كوكبي [كاستور وبوللوكس] اللتين غابتا في [ليوكترا] قبيل المعركة. وفي غرفة كنز [براسيداس] ،[الأقانيثين] يوجد نموذج لـ[تريريمه][2] صيغ من الذهب والعاج. يبلغ طولها [كيوتين: حوالي ٤٠ انجاً]، كان [كورش] قد أرسلها

(٢) «Trireme» وهي بارجة اغريقية قديمة فيها ثلاث مصاطب للتجذيف [م.ت].

الى [ليساندر] بمناسبة انتصاره، ولكن [الكساندريدس] الدلفي ينوه في تاريخه بوجود وديعة هناك لليساندر مقدارها تالنتٌ واحدٌ من الفضة واثنان وخمسون مينا واحد عشر ستاتر[٣] وهذه رواية لا تتفق مع عموم الأخبار المتواترة عن فقر [ليساندر]. لقد كان يتمتع بسلطان وحول لم يتمتع بهما أغريقي آخر قبله، ولكن كبرياءه واستعلاءه زادا كثيراً عما يناسب ذلك السلطان. قال عنه [دوريس Duris] في تاريخه انه الأول من الاغريق الذي أقامت له المدن الهياكل كما تقيم للآلهة وقدمت له القرابين كما تقدم للأرباب وكان أول من صدحت الأصوات باناشيد نصره. ودونك مطلع واحد من تلك الأغاني وجدناه في الكتب:

«هوذا الجنرال الاغريقي العظيم، من سپارطا المفخمة. اننا لنستقبله بأغاني النصر...»

وقرر [الساموسيون] ان يطلقوا اسم «ليساندريا» على المراسم الدينية الخاصة بالآلهة [جونو]. ومن الشعراء الذين أختصوا به، [خوريلوس Choerilus] الذي كان يرافقه دائماً ويشيد بمآثره في أشعاره. ولازمه أيضاً [انطيوخوس] الذي نظم عدداً من القصائد في مدحه. وقد هزته الاريحيّة يوماً فملأ لكلٍ قبعته فضةً ودخل كُلّ من [انطيماخوس Antimachus] [الكولوفوني Colophon] و[نيقراطوس Nicratus] الهيراكلي في مساجلة شعرية موضوعها تعداد مآثر [ليساندر] ووقائعه، فمنح الثاني منهما قلادة فاستاء انطيماخوس. واتلف كل ما قال فيه من الشعر. وكان [افلاطون] اذ ذاك فتى غضى الإهاب معجباً بشعره. فأخذ يهون عليه الفشل قائلاً: إن الجهلة هم الذين يقاسون من الجهل في الواقع كالأعمى الذي يعاني من فقدانه حاسة البصر. ثم ان [ارسطونس] الموسيقار الذي فاز ببطولة الموسيقي في الالعاب البيثية ستّ مرات متوالية - التقى بانطيماخوس مرة فقال له على سبيل التزلف والرياء:

- لو اني فزت مرة أخرى لأعلنت نفسي باسم ليساندر...

فأسرع [انطيماخوس] يقول: تقصد: عبداً له؟

كان طموح [ليساندر] المفرط بحد ذاته عبئاً يرزح تحته أقرانه، وكبار القوم. فلما كثر الناس الذين يتسابقون الى خدمته ويتلهفون الى تلبية كل طلب له أو أمر يصدر منه. استعلى واستكبر حتى خرق كل الحدود وتطرف في استخفافه بالبشر ولم يعد يراعي الاعتدال الجدير بالبشر السوي في عقابه وثوابه. فتراه يمنح لانصاره وصحبه سلطاناً مطلقاً على مقدرات المدن،

(٣) عملة يونانية قديمة أختلفت قيمتها باختلاف العصور. وأشتهر بصورة خاصة الستاتر الذهبي Stater وقيمته عشرون دراخماً [م-ت].

لا يرقى اليه حساب وتحفّ به العصمة، وترى سبيله الوحيد لانفثاء غضبه من عدوه، القضاء عليه وتدميره.

والنفي والإبعاد لايكفيه منه. ولنذكر على سبيل المثال المصير الذي دبره لزعماء الشعب البليسين بعد زمنٍ عندما ادركه الخوف من فرارهم، ولرغبته في الكشف عن المختبئين منهم، فأقسم قأنه لن يلحق بهم اي أذىً فصدقوه وخرجوا من مكامنهم. فقبض عليهم وارسلهم الى الحكام الاوليغارشين ليقتلوهم كافة وكان عددهم ثمانمائة. أما المقتلة التي أوقعها باعضاء الحزب الجمهوري في سائر المدن فقد فاقت كل تصور وحساب. ولم تكن عقوبة الموت قاصرة على من يرتكب ضده جريمة. بل عممها على انصاره وأصبحت بمثابة امتياز يمنحه لمحسوبيه ومنسوبيه بكل سخاء. ولم يكن يتعفف عن المشاركة في تنفيذ أحكام الموت ارضاء لاطماع اصدقائه الكثيرين الملتفين حوله واشباعاً لاحقادهم وروح الانتقام فيهم. ومن هنا أشتهر قول [ايتيوكليس Eteocles] اللقيديموني: «ما استطاع الأغريق ان ينجبوا [ليساندرين]!». ويزعم [ثيوفراستوس] ان [ارخسطراطوس Archestratus] قال العبارة نفسها بحق [الكيبياديس]. على أن أكبر الأذى الذي لحق بالناس منه جاء من استهتاره بالقيم وأفتقاره الى ضبط النفس. فكانت سلطته توحي بالخوف والكره النابعين من قسوة طبعه. ولم يكن اللقيديون يشغلون بالهم بالتحقيق في الشكاوى التي ترفع عنه حتى وردتهم شكوى [فارنابازوس] فقد بعث بوفد الى سپارطا ليبلغوا عن [ليساندر] ما أحدثه في بلاده من اضرار وفساد عندما اجتاحها بقواته. وعندها استشاط الايفور غضباً واستقبحوا ما فعل. ولما قبضوا على أحد ضباطه الكبار المدعو [ثوراكس] متلبساً بجريمة حيازة مقدار من النقود الفضية أوقعوا فيه عقوبة الموت فوراً. ثم انهم بعثوا اليه «بالرقّ» يأمرونه بالعودة الى البلاد. ويتم اعداد الرق على النحو الآتي: عندما يرسل الايفور امير بحرٍ أو جنرالاً في حربٍ، فانهم يزودونه بقطعةٍ خشبية اسطوانية ويحتفظون هم بمثيلتها طولاً وسمكاً ومظهراً؛ ويطلقون عليها [سكيتال Scytale]. فاذا ارادوا ارسال رسالة سرية أو هامة اليه، جاؤا بشريط طويل ورفيع من الرّق [الپارشمنت] تشبه السير الجلدي فيلفونها على قطعتهم الخشبية لفاً محكماً بحيث يغطون سطحها تماماً ولا يخلفون اي فراغ. ويقدمون اثناء اللّف بكتابة ما يريدون على الرقّ سطراً بعد سطر. وبعد الفراغ من ذلك يستلّون القضيب الاسطواني ويرسلون الرّق. ولايتمكن المرسل اليه من قراءته بحالته تلك لأن الاحرف والكلمات تبدو متفرقة متباعدة. فيأخذ قضيبه ويلّف الشريط المرسل اليه فتعود اجزاء الكتابة متلاحمة منتظمة كما كانت على القضيب الأول ويتصل اول الكلام بمايتلوه ويسهل على النظر تتبع المدون سطراً سطراً بإدارة الاسطوانة.

استبد القلق [بليساندر] عند ورود «الرقّ»، وكان في الهللسپونت. وعمد فوراً الى مقابلة [فارنابازوس] لازالة الخلاف بينهما. لأن شكوى هذا القائد كان اخشى ما يخشاه. وفي اجتماعهما طلب منه ان يوجه رسالة أخرى الى [الايغور] ينفي فيها اصابته باضرار أو اساءة وينزل عن كل شكوى. وقد جهل أن [فارنابازوس] هو ممن ينطبق عليه المثل السائر «استعمل الكريتي ضد الكريتي» فقد تظاهر له بانه سيفعل كلما يريده منه وكتب رسالة أملاها ليساندر عليه إلاّ انه أخفى رسالة أخرى كتبها سراً تشبه في مظهرها الرسالة الأولى. وعند وضع الاختام أبدلها وأعطاها لليساندر فحملها معه الى لقيديمون. وذهب لمقابلة مجلس الايغور. كما تقضي به التقاليد ودفع اليهم برسالة [فارنابازوس] التي كان يعتمد عليها في سحب أكبر تهمة تعرض لها، ذلك ان [فارنابازوس] كان موضع تقدير اللقيديمونيين لتفانيه وتشيعه لهم في الحرب، تشيعاً فاق به كل قوّاد ملك الفرس. فقرأ الحكام الرسالة وناولوها لليساندر فما ان ادرك «ان ثم اذكياء آخرين خلافاً [ليوليسوس] وانه ليس العاقل الوحيد في هذه الدنيا...» انصرف وقد علاه اضطراب شديد. وبعد بضعة أيام زار الايغور وأبلغهم انه كان قد نذر في اثناء الحرب بعض القرابين للرب [آمون Ammon] ولذلك يتعين عليه أن يرحل الى معبده ليفي بنذره. ويقول بعضهم ان [ليساندر يكذب في زعمه هذا. فقد ظهر له [آمون] وهو نائم وأستوى واقفاً بالقرب منه – عندما كان يقود الحصار ضدّ مدينة آفيتي Aphytae في ثراقيا. فما كان منه إلاّ ان رفع الحصار عنها متوهماً أن ذلك الرب غير راضٍ عن حصاره، وبعدها نبّه أهل المدينة بأن يضحوا لآموّن. وقرر القيام برحلة الى ليبيا ليسترضي الآله ويهدىء من سورة غضبه عليه. على ان معظم الكتاب يرون ان حكاية النذر لم تكنْ إلاّ تعلة للرحيل لأنه كان يخشى اتخاذ الايغور اجراءات ضده، كما وانه ضاق ذرعاً بالنير الذي يطوق رقبته في بلاده، وكره العيش تحت سلطة أقوى من سلطته. فصبا الى السفر والتجوال مثله في ذلك كمثل جوادٍ أقتيد من المراعي المترامية الى الاسطبل وأعيد الى عملة اليومي. يقول [ايغورروس] ان هذا هو سبب جولته التي سأروى تفاصيلها فيما يلي:

نال موافقة الحكام على السفر بعد لأي. فأسرع بالابحار. وعلى أثر ذلك اجتمع ملكا لقيديمون واستعرضا الموقف السياسيّ فوجدا ان ابقاء المدن تحت سيطرة بطانة [ليساندر] ستبقيه سيد بلاد الاغريق الأعلى وملكها المطلق. فأتخذا تدابير لاعادة السلطة الى الجمهور وطرد عملاء [ليساندر] من الحكم فعادت الاضطرابات والقلاقل مجدداً وأستبق الآثينيون الى الثورة فانقضوا من [فيله Phyle] على «مجلس الثلاثين» واطاحوا به. فأسرع ليساندر الى بلاده، واقنع مواطنيه بمساندة حكم الاوليغارشية والقضاء على الحكم الجمهوري وتم ارسال

اعانة مالية للحكام الثلاثين الآثينيين تبلغ مائة تالنت لانفاقها على الحرب. وخف ليساندر الى معونتهم عسكرياً بحكم منصبه.

وهذا كله لم يرق في عين الملكين، وخشيا أن يستولي ليساندر على آثينا مرة أخرى. فسارع [باوسانياس] بموافقة زميله الى المدينة ليقبض على زمام الأمور. وهناك تظاهر بتأييده حكم الأقلية ضد الشعب. وأخذ يعمل سِراً لأجل السلام وتهدئة الوضع ليحول دون استعادة [ليساندر] سيطرته على المدينة بمعونة بطانته. فلم تقف في وجهة أية عقبات ونجح في اصلاح ذات البين بين الآثينيين المختلفين وهدأ من الثورة وازال الشغب وبذلك حقق الانتصار على طموح [ليساندر] المتهالك. على انه واجه لوماً شديداً بعد زمن قصير لاندلاع السنة الثورة في آثينا من جديد. فقد نزع اللجام من فم الشعب بعد تحرره من الاوليغارشية المستبدة فانتفض انتفاضة عنيفة وأخذ يأتي باعمال فيها الكثير من الوقاحة والصلافة والاعتداء. وبذلك استعاد [ليساندر] سمعته، سمعة الرجل الذي يستخدم قيادته لا لارضاء الاخرين ولا لأجل الهتاف له والثناء عليه بل لمصلحة سپارطا وحدها.

امتاز [ليساندر] بالشدة في الكلام والجرأة امام معارضيه فمثلاً لما راح الارغيوسيون يجادلون في امر تعيين حدود بلادهم متوهمين ان حججهم ودلائلهم مدعمة بالعدل أكثر من ادعاءات اللقيديميين، استلّ ليساندر سيفه وقال:

- صاحب أقوى حجّة في قضية الحدود، هو من كان سيداً لهذا...

ومرة تمادى أحد [الميغاريين] في التطاول والتحرر من قيود الكلام اثناء انعقاد مؤتمر من المؤتمرات فقال له [ليساندر]:

- لهجتك هذه يا صاح، يجب أن يكون مصدرها مدينة!

وخير البويوسيين الذين كانوا يقومون بدور مزدوج، في أن يخترق بلادهم برماح ممدودة، أو برماح قائمة. وعندما زحف على كورنث بعد ثورتهم وجد اللقيديين مترددين في الانقضاض على اسوارها. ولما شاهد ارنباً يقفز عابراً الخندق قال لجنوده المترددين:

- الا يخجلكم خوفكم من عدوّ بلغ من خموله انه ترك الأرانب تنام فوق أسواره؟

وتوفي [آغيس] الملك عن أخيه [اغيسلاوس]، والفتى [اليونتخيداس] الذي كان يُعدّ ابناً له. وكان [ليساندر] صديقاً [لآغيسلاوس] فتمكن من حمله على المطالبة بالعرش لأن نسبه من هرقل لا تشوبه شائبة. بينما كان ثم شك في ان [ليونتخيداس] هو ابن [الكيبيادس] السفّاح من [تيميا] زوج [آغيس] التي عاشرت [الكيبيادس] تأكد من عدم نسبة الفتى

اليه بحساب وقت الحمل. وبقي حتى ملازمته فراش المرض يهمل أمر [ليونتخيداس] وينكر عليه ابوته له. فلما دنا أجله راح الفتى يتوسل به ويلح عليه ليقرّ ببنوته وحثه على ذلك اصدقاؤه فاقر بمحضر من الكثيرين ببنوة [ليونتخيداس] وأشهدهم على اقراره وطلب منهم ان يشدوا ازر الفتى ويناصروه. وكان [آغيسلاوس] الذي يتمتع بتقدير عظيم من مواطنيه، ويستأثر بنفوذ ليساندر ومعونته، قد وقع تحت تأثير [ديوفيثس Diophithes] وهو رجل أشتهر بالوقوف على النبوءات. أستشهد هذا الرجل بالنبوءة التالية التي وردت فيها اشارة الى عرج [آغيسلاوس]:

«اي سپارطا العظيمة إحذري من انجاب ملك أعرج وان كنت انت صحيحة سليمة. فسيتبع ذلك قلاقل طويلة الأمد، ليست في الحسبان. وستهب عواصف من الحروب الطاحنة فلا تبقي ولا تذر».

فآمن الكثير بالنبوءة وقوي مركز [ليونتخيداس]. إلاّ ان [ليساندر] قال [لآغيسلاوس] أن [ديوفيثوس] قد أخطأ في تفسير النبوءة وان الآله الموحي بها لم يرد تحذير اللقيديميين من حكم ملك اعرج. والتفسير الصائب هو ان المملكة ستكون عرجاء اذ حكم ولد السفاح والنغولة مع نسل [هرقل]. وبهذا التعليل وبنفوذه الواسع على المواطنين حقق مسعاه في نصب اغيسلاوس ملكاً.

وزيّن [ليساندر] له أن يقود حملةً عسكرية الى قلب آسيا. وأقنعه بامكان كسر شوكة الفرس وبلوغه أوج السلطان والسؤدد. وكتب الى عملائه وانصاره في آسيا، يطلب منهم أن يعلنوا [اغيسلاوس] قائداً لهم في الحرب ضدّ البرابرة. فأجابوه الى ذلك وبعثوا بسفارات الى اللقيديميين بهذا الشأن فكان فضلاً ثانياً به طوق ليساندر عنق [اغيسلاوس] لا تقل أهميته عن فوزه له بالعرش. على ان الطموح الى الشهرة الذي كان يجيش في نفس [آغيسلاوس] وصنوه الحسد الذي يلازم ذوي الطموح عادةً، كان يقف حجر عثرة في سبيل انجاز الأعمال الجليلة، مع ان [اغيسلاوس] لم يكن يفتقر الى مقومات القيادة الحكيمة الكفوءة. شعور كهذا، كان يبعد عن أمثال [اغيسلاوس] كل صديق ينتظر منه ان يغدو له عوناً، ويدفعهم الى منافسته في المآثر وأطلاب المعالي بدل ذلك. وكان [ليساندر] من بين ثلاثين مستشاراً خبيراً صحبوا [اغسيلاوس] في حملة آسيا. اراده مشاوراً خاصاً وصديقاً نصوحاً، وما ان توغل في قلب آسيا حتى تبين مكانة [ليساندر] عند السكان وكيف كانوا يتوجهون اليه ويزورونه ويتوفرون الى خدمته والسير في ركابه. اصدقاءً أيفاءً بواجب الصداقة واعداء بدافع الخوف في حين لم يكونوا يقبلون على [آغيسلاوس] لقلة معرفتهم به. وبات الأمر فهو شبيه

بما نراه في التراجيديات. فكثيراً ما تجد الشخص الذي يمثل دور الرسول أو الخادم يستأثر بالبطولة واهتمام النظّار وتتبعهم في حين لا يهتمون بالممثل الذي يتقمص دور الملك ويضع التاج على رأسه وتقبض على الصولجان في يده، هذا الممثل قلما يتكلم عادةً، وقلما يسمعه النظار. ووضع المستشار أقرب الى وضع الرسول في التمثيلية فهو الذي ينهض باعباء الحكم الحقيقية واليه تعزى سمعة الأعمال الجليلة فلا يترك للملك الآ اسم السلطان الأجوف.

وكان باستطاعة [اغيسلاوس] أن يخفف من غلواء طموحه الشائه ويتخلص من موقفه الحرج بوضع [ليساندر] في المقام الثاني بعده وهو أهل له حقاً. لكنه أقدم على عمل معاكس فنبذه نبذ النواة واهانه وجرح عزة نفسه على مذبح طموحه ونسي أنه آخاه وأحسن اليه. ولم يكن هذا يجمل باغيسلاوس أو يليق به في الواقع. فهو لم يتح له فرصة لأيّ عمل، ولم يسند اليه منصباً من المناصب القيادية. وأخيراً عمد الى كل من وجده غيوراً على مصلحة [ليساندر] فجفاه وازور عنه وعامله كما يعامل ذوي الحاجة الاعتياديين من قلة اهتمام. وهكذا راح يضعف من مركز [ليساندر] ويهدد نفوذه بطريقة هادئة.

ووجد [ليساندر] اخفاقاً اينما توجه. وادرك ان حرصه وغيرته على مصلحة انصاره ستكون عقبة لهم. فانصرف عنهم ورجا منهم أن لا يتصلوا به ولا يراجعوه في أيّ أمرٍ من الأمور. بل يراجعون الملك وكل من هو انفع للاصدقاء منه في الوقت الحاضر. وامسك معظم اصدقائه عن ازعاجه بمشاكلهم حسب توصيته إلا أنهم داوموا على اظهار الاحترام والاجلال له والوقوف في خدمته والسير في ركابة في ميادين العرضات والمسيرات. وهذا ما زاد في انزعاج [آغيسلاوس] وغيرته. حتى انه أهمله عندما وزع مناصب قيادته على كثير من القادة وحاكميات المدن على الرؤوساء. واسند اليه وظيفة «مقطع اللحم» على مائدته وقال معرضاً بالآيونيين على سبيل الإهانة والتعشفي:

- فليذهبوا الآن وليقدموا ولاءهم لمقطِّع لحم مائدتي.

ورأى [ليساندر] الوقت مناسباً لمصارحته القول فجرى بينهما حوار قصير بليغ على النحو الآتي:

ليساندر: لعمري انك أخبر الناس واعرفهم بكيفية ايلام اصدقائك.

اغيسلاوس: الاصدقاء الذين يريدون ان يرتفعوا عليّ. أما الذين يعملون على زيادة سلطاني فمن العدل أن يقاسموني اياه.

ليساندر: قد يكون في كل هذا مجرد أقوال من ناحيتك أكثر مما هو أعمال من جانبي. على

انـي اوجـو مـنك يا آغيسـلاوس حفظاً للمظهر الخارجي، ان تضـعني في أي منصب قيادي
تحت أمرتك - أكون فيه أقل ضرراً وأكثر نفعاً في اعتقادي.

فبعـث به سفيـراً الى الهللسـپونت. ولم يهـمل واجبـاته فيـه مع أنه رحل عن [اغـيسـلاوس] حانقاً. وأفلح هناك في اقناع [سپيثريدات Spithridates] الفارسي بالثورة والتمرد وهو رجل شـهم، أختلف مع [فـارنابـازوس] وكـان يملك بـعض القوات فـأنضم الى اغـيـسـلاوس بمسـعى [ليسـاندر]. ولم يكلف بمهـمة أخرى فعاد الى سپارطا فور انقضـاء مـدته دون ان ينال تكريماً. وهو حـاقـد على آغـيـسلاوس] والحكومة السـپـارطية حقـداً طغى على كل شيء حتى انه قـرر القيـام بتنفـيـذ خططه في اشعـال نار الثـورة وتغـيـيـر الدسـتور. وكانـت فكرتها قـد أختمـرت في رأسـه منذ زمـن علـى مـا يبـدو فـعزم الآن على اسـتـغلال الوقت لهـا. وكـانت خطتـه تدور حـول الاستـفـادة في الطريقـة التي يجري بموجبـها اختيـار الملوك. فـحين قـدم [الهـيـراكليـدي] الى البيلوپونيـس أمتزجوا بـالدوريين وصاروا عشيرة كثيرة العدد مـهابة الجانب في سپارطا. إلاّ ان أسرها لم تكن تملك كلهـا أمـتيـاز أختيـار الملوك فـيهـا وانما كـان ذلك مقـصـوراً على جمـاعـتـي [اليـوريپـونتـيدي Eurypontidae] و[الاگـيـادي Agiadae] ولم يكن للبقـيـة امـتيـاز ممارسـة الحكم أو تولـي المناصب الرفـيـعـة، التـي كـان يجب أن تـسـند الى كل ذي أهليـة وكـفـاءة فـهـي وحدها تفتح الطريق امـام المرء للوصـول الى الحكم. و[ليـسـاندر] الذي انحـدر من أحدى الأسـر التي لا تملك هذا الامتيـاز، فأرتفعت به مآثره الى أعلى درجات الشـهرة والسلطان، وأجتمع له انصـار كثيـرون ونفـوذ قـوي، كره ان يرى المدينة التي رفع من شـأنهـا، وزادها سعـةً وعظمـة انْ يحكمـهـا اناس لا يفـضلونه حـسـبـاً ونـسـبـاً وكـفـاءة فـهـيّـأ الوسـائل لانتزاع الحكم من أيدي العشيرتين وإتاحته للهيـراكليدي عمـوماً. أو على مـا يقول آخرون ليس للهيراكليـدي وحدهم، بل لكلّ السپارطيين. كيلا يكون الامتـيـاز مقصوراً على نسـل [هرقـل] بل تعميمـه على اشباه [هرقل] في المؤهلات الكفاءات نفسها التي رفعته الى مقام الالوهيـة. وكان يأمل من هذا أن يبرز المرشح الوحيد للعرش بين السپارطيين. عندما تغدو المنافسة عليه وفق هذه الشروط.

وعلى هذا الاساس تـهيأ أولاً للدعـوة بين المواطنين وحاول اعـداد اذهانهم. فدرس مليّـاً خطبةً في هذا المآل أعدّها [كليـون] الهليـقـارناسي. ومـا لبث ان وقع على حيلةٍ عظيـمـة لم تكن في حسـابه تتطلب وسـائل جريئة، ومعـاونة كثيـرة. وهي الإفـادة من تأثيـر المعجزات والخوارق على العـقـول واسـتـخـدام الوحي الآلهي لغـرضـه هذا، فـبـاشـر وكـأنه ممثل يلعـب دوراً على المرسح - بجـمـع وترتيب ردود ونبـوءات معزّوة الـى ابوللو تعزيزاً لدعـوته. وعدل عن اسـتـخـدام فصـاحـة [كليـون] إلاّ بعـد اثارة عـقـول المواطنين بالمخـافـة الدينيـة وغـزو اذهانهم بـالأوهام والكهـانات،

وبعدها يكون طريقه معبداً اليهم لتفهم حججه واسبابه. ويروي [ايغورروس] أن [ليساندر] بعد أن حاول الدسّ في نبوءة [ابوللو] وفشل وبعد أن أخفق في إقناع كاهنة [دودونا Dodo-na] عن سبيل [فيريقليس Pherecles]، توجه الى سدنة [آمون] وعرافيه محاولاً شراءهم بكميات كبيرة من الذهب والفضة. فثاروا وغضبوا وبعثوا بنفرٍ منهم الى [سپارطا] يشكونه. وعندما برئت ساحته خرج الكهنة الليبيون وهم يقولون:

- ستجدونا أيها السپارطيون أفضل منكم حُكماً عندما ستأتون الينا وتساكنوننا في ليبيا.

وهم في هذا ينوهون بنبوءة قديمة تشير الى ان اللقيديميين سينزحون يوماً ما الى [ليبيا] ويستوطنونها. على أن مجمل مؤامرة [ليساندر] وسبل تنفيذها لم تكن اعتيادية ولا بسيطة وصفحاتها المتدرجة الى النهاية تعتمد على انواع من الافتراضات مثل مسألة حسابية، وتنطلق في سلسلة من الخطوات فيها تعقيد وصعوبات. لذلك نؤثر أن نسردها بالتفضيل نقلاً عن رواية مؤرخ وفيلسوف معاً:

قبل ردح من الزمن ادعت امرأة من [پونطس] انها حملت من ابوللو. وانقسم الناس بطبيعة الحال الى مصدق ومكذب ثم انها الحال. انجبت ذكراً أهتم عدد من سراة القوم بتربيته وتنشئته وسمي [سلينوس Selinus] لأمرٍ ما. فجاء [ليساندر] ليتخذ من هذه الحادثة قاعدة عملٍ وقام باستنباط البقية وبنائه مستخدماً عدداً ليس بالقليل من ابطال تلك الحادثة البسطاء الذين أوصلوا خبر الطفل الى مرتبة الحقائق التي لا يرقى الشك اليها في دفاعهم الحار عن زعم الوالدة بسذاجة الايمان وعناده. ثم انه قام بتهيئة نبأ آخر مصدره [دلفي] ونشره في [سپارطا] حول وجود نبوءات قديمة حافظ الكهنة على سرِّها في اسفارٍ. ولم يجيزوا قراءتها أو تداولها؛ الى أن يأتي في المستقبل ذلك الذي أنحدر من صلب ابوللو. فيقصدهم وبعد أن يعطي علامات مخصوصة للكهنة تقنعهم بهويته، يسلمون له أسفار النبوءات المكتومة. ورتبت الأمور بحيث يذهب [سلينوس] هذا الى الكهنة بوصفه أبناً لاپوللو للمطالبة بالنبوءات. ويتظاهر الكهنة - الواقفون على الخطة طبعاً - بالحذر والتدقيق في التفاصيل والجزئيات ويقومون باستجدابه حول ميلاده. ثم يتظاهرون بالقناعة فيدفعون اليه بالنبوءات. فيقوم هو بتلاوتها امام جمهور من الشهود ولاسيما تلك النبوءة التي جُعلت حجر الزاوية وبيت القصيد في مؤامرة ليساندر حول منصب الملك وكيفية أختياره، والتنبيه على السپارطيين بانه يجمل بهم ان يؤمّروا عليهم اكفأ المواطنين ولا يلقوا بالاً على الحسب والنسب. وكان [سلينوس] الشاب آنذاك مستعداً للقيام بالمهمة إلاّ ان [ليساندر] فشل في اخراج تمثيليته بسبب نكوص ممثل فيها. فقد ركب الخوف واحداً من أعوانه في المرحلة الأخيرة

فانسحب فجأة. وبقي الأمر مع ذلك - سراً مكتوماً طوال حياة ليساندر.

وقضى نحبه قبيل عودة [اغيسلاوس] من آسيا. وكان هذا الملك قد تورط - أو لعل الاصح قولنا - ورط بلاد الاغريق في الحرب البويوسية. والشكلان مقبولان. فبعضهم يعزو سببها اليه وبعضهم الى الثيبيين. وآخرون الى الطرفين معاً. وكانت جهة اتهام الثيبيين: أنهم القوا بالقرابين جانباً في [اوليس Aulis] وانقضوا على [الفوكيين] وأجتاحوا بلادهم وغايتهم توريط اللقيديميين في حرب اغريقية. فقد حرضهم الملك ورشاهم بمال حمله اليهم [اندروقليدس] و[أمفيثيوس Amphitheus]. ومن جهة أخرى قيل ان [ليساندر اغضبه من الثيبيين طلبهم عشر الغنائم في حين لم يعترض بقية حلفاء [سپارطا] على نسبة ما ينالهم. واحنقه أظهار استنكارهم لارساله الأموال والنفائس الى سپارطا. على أن أعظم ما كان يضطغنه لهم هو وقوفهم الى جانب الآثينيين عندما انتفضوا لتحرير انفسهم من استبداد الحكام الثلاثين الذين نصبهم هو. وكان اللقيديمونيون قد أصدروا بلاغاً يقضي بالقاء القبض على كل اللاجئين السياسيين الهاربين من آثينا حيثما كانوا وفي اي بلد وجدوا ومن يمانع في ذلك يطرد من الحلف الاغريقي فأجاب الثيبيون على هذا ببلاغ مناقض له، جدير وايم الحق بسجايا [هرقل، وباكوس] ومرؤاتهما. ينص على ان يفتح باب كل منزل ومدينة في بويوسيا في وجه كل من يحتاجها من الآثينيين. ويقضي على كل شخص ابى مساعدة لاجيء مطارد أو مقبوض عليه، بدفع غرامة قدرها تالنت واحد تعويضاً له. ورسم أيضاً بأن كل من حمل السلاح الى آتيكا عبر بويوسيا، ليس لأي ثيبيّ أن يراه، أو يسمع بخبره. والحق يقال انهم اصدروا هذه المراسيم الانسانية الخليقة بالروح الاغريقية لتنفيذها بالحرف الواحد، لا لتبقى حبراً على ورق. وبذلك قرنوا القول بالفعل. [فثراسيبولوس] ورجاله الذين أحتلوا [فيله] كانت ثيبة نقطة انطلاقهم. والثيبيون هم الذين زودوهم بالمال والسلاح واسدلوا على حملتهم ستار الكتمان وهيّأوا لهم وسائل الزحف. تلك هي بالاجمال اسباب تحامل [ليساندر] على ثيبة. وها هوذا الآن وقد زادته الشيخوخة عنفاً وسوداوية، يشتد في حث [الايفور] على وضع حامية عسكرية في [ثيبه] ثم انه تسلم القيادة وزحف عليها. وأوعز الى [پاوسنياس] بالتحرك على رأس جيش، بعده بقليل. فدار هذا حول [كيثيرون Cithæron] للانقضاض على [بويوسيا] واجتاز ليساندر [فوكيس] بعسكر جرار ليلتقي برتل [باوسنياس] عند الهدف. وأستولى في زحفه هذا على مدينة [الادرخونيين] التي استسلمت له بدون قتال. ونهب [ليباديا Lebadea] وبعث برسائل الى [پاوسانياس] يأمره بالحركة من [پلاطيا] لمقابلته في [هاليارتوس Haliartus] لأنه سيكون تحت أسوار تلك المدينة في فجر اليوم

التالي. فوقع الرسول بأيدي كشافة الثيبيين وضبطت الرسائل وجيء بها اليهم. فما كان منهم إلاّ أن عهدوا بحماية مدينتهم الى النجدات العسكرية التي جاءتهم من آثينا وخرجوا في أول هزيع من الليل بكلّ عسكرهم فبلغوا [هاليارتوس] قبل وصول [ليساندر] بقليل ودخل المدينة قسم منهم.

قرر [ليساندر] قبل كل شيء أن يعسكر فوق المرتفعات انتظاراً لوصول [پاوسانياس]. ولما تقدم به النهار ولم يعد يطيق الانتظار أمر جنوده باعداد أسلحتهم للهجوم، وقام يشجع الحلفاء، ثم انحدر نحو الأسوار برتلٍ على طول الطريق إلاّ ان القسم الذي ابقاه الثيبيون خارج الأسوار وضع المدينة على جهته اليُسرى وتقدم متعرضاً لمؤخرة العدوّ بالقرب من النبع المعروف باسم [كيسوسا Cissusa] يروى عنه ان المرضعات غسلن فيه الطفل [باكوّس] على أثر ميلاده. ولون مائه أشبه بالخمر المشعشعة واعذب وأصفى من كل ماءٍ. وعلى مسافة قليلة منه تنتشر اشجار البلسم الكريتي بكثرةٍ. وقد غرس ثمّ، تذكاراً للحياة التي قضاها [رادامانثوس Rhadamanthus] هناك. ويرشدونك الى ضريحه الذي يطلقون عليه اسم [أليا Alea]. وبالقرب منه يقوم نصب [الكمينا] أيضاً وهي زوج رادامانثوس تزوجته بعد وفاة بعلها الاول [امفتريون Amphitryon].

على ان من ولج المدينة من الثيبيين نظموا صفوفهم من الهاليارتين وظلّوا ساكنين برهة من الوقت حتى اذا شاهدوا [ليساندر] مع لفيف من جنوده يتقدمون طلائع الرتل اليهم فتحوا ابواب المدينة فجأة وانقضوا عليه وفتكوا به مع العرّاف الذي كان يرافقه ونفر قليل من الجنود. اما معظمهم فقد ولى الأدبار والتحق بالقسم الأكبر. ولم يفتر الثيبيون واطبقوا عليهم فاذا بالرتل كله ينقلب مولياً الأدبار نحو التلال. وسقط منهم ألف قتيل ومن الثيبيين ثلاثمائة خروا صرعى الى جانب قتلى الأعداء لتحمسهم في المطاردة فوق ارض وعرة مصخرة. كان هؤلاء الثلاثمائة موضع شك في ممالأة اللقيديميين فأرادوا أن يقدموا الدليل على كذب الشائعة عنهم ويبرئوا أنفسهم منه بتعريض أنفسهم لأشد الأخطار فلقوا حتوفهم.

وبلغت انباء فاجعة [پاوسانياس] وهو في طريقه الى [ثسپاي] من [پلاطيا] فاعدّ جيشه للمعركة المقبلة وزحف نحو [هاليارتوس] وخرج [ثراسيپولس] من ثيبة على رأس النجدات الآثينية. لتعزيز قوات الثيبيين. وأقترح [پاوسانياس] طلب هدنة لسحب جثث القتلى. فاستاء زعماء السپارطيين وأظهروا غضبهم الشديد فيما بينهم وأقبلوا على الملك قائلين:

– إن جثة [ليساندر] لايمكن أن تؤخذ تحت علم الهدنة، وان نحن قاتلنا بسلاحنا لانتزاعها عنوةً، وانتصرنا فسنقوم بدفنها بصورة لائقة. وان غُلبنا على أمرنا فذلك خير وأبقى.

وانه ليشرفنا أن نموت على البقعة التي سقط فوقها قائدنا.

إلاّ ان [پاوسانياس] كان يدرك صعوبة التغلب على الثيبيين بعد أن اسكرتهم خمرة الانتصار الأخير. ثم ان جثة [ليساندر] كان سجاة تحت الاسوار مباشرة وسيصعب عليهم حتى اذا انتصروا أن يحملوها الى المعسكر من غير هدنة. ولذلك بعث بمنادٍ وحصل على هدنة فسحب قواته الى الخلف ونقل جثمان [ليساندر] ودفنه في أول أرضٍ صديقة وطؤها بعد أجتيازهم حدود [بويوسيا] وهي ارض [الپانوپيين Panopæan] حيث يشاهد نصب ضريحه الآن. وأنت مارّ في طريقك الى [خيرونيا] من دلفي.

في الوقت الذي كان الجيش معسكراً هناك، قيل ان رجلاً من فوكيس راح يسرد وقائع المعركة على آخر لم يكن فيها، فقال ان العدو انقض عليهم إثر انتقال [ليساندر] الى [هوپليتس Hoplites] فعجب هذا وكان سپارطياً وصديقاً لليساندر. وسأله ماذا يقصد بـ[هوپليتس]؟ فالأسم غامض عنه. فأجاب [الفوكيّ]:

- قتل العدوّ هناك أوّل صرعانا. فالنهر الذي يحاذي المدينة، اسمه [هوپليتس].

وما ان سمع السپارطي الأسم حتى غلبه البكاء، وقال معقباً ان الانسان لا نجاة له قط من حكم القدر. فالظاهر أن مصير [ليساندر] نوهت به النبوءة التالية التي نزلت في عهد السابق:

> اني انذرك. احذر أكثر من اي شيء آخر كل صوت صادر من الهوپليتس المندفع
> ومن التنين المولود على الأرض الذي يضرب بمكر من ورائك.

على ان بعضهم يقول ان [هوپليتس] لايجري بالقرب من [هاليارتوس] وانما بالقرب من [كورونيا Coronea] وبعدها بمسافة يصبّ في نهر [فيلاروس]. عند مدينة [ايسومانتوس Isomantus] التي كانت تعرف سابقاً بـ[هوپلياس Hoplias].

والهياليارتيّ الذي فتك بليساندر واسمه [نيوخوروس Neochorus] كان يوجد على ترسه صورة تنين، وهذا ما تشير اليه النبوءة على ما يفسرون. وقيل ايضاً ان الثيبيين ايام حرب الپلوپونيس نزلت عليهم نبوءة في هيكل [ايسمينوس Ismanus] أشارت صراحة الى موقعه [دليوم Delium] مع التنويه بهذه الحادثة التي وقعت في [هاليارتوس] بعد ثلاثين عاماً من نزولها واليك نصّها:

> عندما تخرج لصيد الذئب فعليك مراعاة أقصى الحدود.

وملاحظة جبل اورخاليدس Orchalides الذي تكثر فيه الثعالب وبتعبير «أقصى الحدود»،

يقصد [دليوم] حيث تكون الحدود مشتركة بين [بويوسيا] و[آتيكا]. وبا[اورخاليدس] يقصد الجبيل الذي يعرف الآن بـ[الوپيكوس Alopecus] الذي يقع في ظاهر [هاليارتوس] باتجاه [هيليكون Helicon].

وشاع الحزن في نفوس السپارطيين لميتة [ليساندر] هذه وبلغ الأمر حداً بهم أنهم قدموا الملك للمحاكمة بتهمة الخيانة التي تقضي بعقوبة الموت فلم يجرأ على مواجهتها وفرّ الى [تيغيا Tegea] وعاش حتى وفاته لاجئاً في محراب مينرڤا لا يغادره. وانكشف للعيان فقر ليساندر بموته فزاد هذا في تبجيل الناس له وتقديس ذكراه لأنه على حدّ ما أورد [ثيوميوس] في تاريخه، لم ينشد لنفسه ثروة خاصة مهما قلت، ولم يطمع شيء من كل الأموال والنفائس التي وضع يده عليها، وكل الهدايا التي قدمتها له المدن، ومملكة الفرس. وتلك فضيلة لا يسع اي امرءٍ ان يقلل من شأنها في معرض الثناء والمديح. فيقدمها على معايب صاحبها. و[ليساندر] بلاشكّ أكثر استحقاقاً للقدح منه للمدح. ويقول [ايفوروس] أن خلافاً نشأ بين الحلفاء في سپارطا، اضطروا معه الى مراجعة اوراق [ليساندر] فقصد [اغيسلاوس] منزله لهذا الغرض، وهناك عثر على الدفتر الذي دونت فيه كل النبوءات المتعلقة بمؤامرة الدستور السپارطي ويشير كلها الى وجوب اجراء تعديل فيه وسحب امتياز الملك من اسرتي [يوريپونتيدي داگيادي] وجعله حقاً مشاعاً للواطنين كافة. يختار له الأفضل الناس واكفأهم. وتملكت [اغيسلاوس] الرغبة في فضح القضيّة على نطاق شعبيّ.

وكشف خلق [ليساندر] على حقيقته. الاّ ان [لاكراتيداس Lacratidas] رئيس مجلس الايغور آنذاك. وهو من حكماء الناس وعقلائهم حال دون رغبة [اغيسلاوس] وقال له: ليس جديراً بهم أن ينبشوا قبر [ليساندر]، وحريّ بهم أن يدفنوا معه مسألة فيها الكثير من الوجاهة ومهارة الحبك.

واسبغوا على ذكراه ضروباً من التكريم. منها انهم فرضوا تعويضاً على أولئك الذين كانوا قد خطبوا بناته اثناء وجوده في قيد الحياة، فبادروا الى فسخها على أثر وفاته وانكشاف إملاقه. عوقبوا لأنهم لم يتقدموا بطلب ايدي بناته الاّ لتصورهم بأنه ثريّ. وتركوهن بعد أن قام فقره دليلاً على عدالته ونزاهته. ويبدو أن سپارطا كانت تطبق في ذلك العصر قانوناً يفرض عقوبات على من لا يتزوج، ومن يتزوج عن كبر وشيخوخة، ومن يتزوج زواجاً فيه تدليس وسوء نية وتطبق عقوبة الحالة الأخيرة بصورة خاصة على أولئك الذين ينشدون الغنى من الزواج لا الصلاح والحبّ.

هذا هو كل ما وجدناه من الاخبار الخاصّة بسيرة [ليساندر].

سيلا

SYLLA
(Lucius Cornilius)

138 - 78



انحدر [اوشيوس كورنيليوس سيللا] من أسرة باتريشية أي أسرة شريفة. وقيل أن [روفينوس Rufinus] من أسلافه تولى منصب القنصلية، والحق عاراً بنفسه بلغ من عظمه أن كسف شمس مآثره. فقد طُرد من مجلس الشيوخ لحيازته صفيحة من الفضة تزن أكثر من عشرة پاوندات خلافاً لأحكام القانون وخمل ذكر ذريته من بعده. ولم يكن [سيللا] غنيّ الأبوين. وعاش مقتبل شبابه في بيت مأجور، أجرته بخسة. الأمر الذي اتخذ فيما بعد برهاناً ضدّه، في انه كان أكثر توفيقاً مما تستأهل طينته واصله. ولما كان في معرض الفخر والتباهي بنفسه والمبالغة في وصف مغامراته في ليبيا ردّ عليه رجل من كبار القوم بقوله

- وكيف يتفق أن تكون نزيهاً. وانت الآن بهذه الدرجة من الثراء حين لم يخلفَ لك ابوك شيئاً؟

ولم يكن العصر الذي عاش فيه عصر استقامة ونزاهة فقد تسرب الانحلال في الأخلاق وسقطت النفوس في أحضان الجشع وشهوة المال والترف. إلاّ أن الرأي العام بقي ينظر بعين السخط الشديد الى من ضاق صدره بفقر أسرته المتوارث فتطالب على الغنى، مثلما كان ينظر الى من هجر المزرعة التي ورثها عن أسلافه.

وعندما اجتمع [لسيللاً] السلطان المطلق وراح يرسل الناس زرافات الى حتوفهم، حام الشكّ يوماً في أن رجلاً من المعتوقين الأحرار قد أخفى واحداً من أولئك الذين أهدر دمهم ورفعت عنهم حماية القانون. فحكم عليه سيللاً لهذا الشكّ بأن يلقى من أعلى الصخرة [التارپيّة] فطفق يذكره بلهجة تقريع وعقاب، كيف أنهما عاشا معاً طويلاً تحت سقف واحد، هو في الطابق الأعلى بأجرة قدرها ألفا سستريوس[1]، وسيللاً في الطابق الأسفل بأجرة قدرها ثلاثة آلاف. فيكون الفرق بين حالتيهما الماليتين آنذاك ألف سستريوس وهو ما يوازي بالعملة الآتيكية ماءتين وخمسين دراخما. كذا كان وضع سيللاً الماليّ في مقتبل عمره.

---

(١) Sesterius أو Sesterces: عملة رومانية قديمة فضية [ثم برونزية] تساوي ربع ديناريوس أو أسيّن Ass-es وربع آس، وهي تعدل عشرة أفلس تقريباً.

وبامكانك الاطلاع على شكله وسيمائه العامة من تماثيله. وكان أهم ما يميزه عينان زرقاوان شديدتا الحِدّة حتى لكأنهما ترسلان شرراً من نارٍ يزيدهما رهبة وقسوة تقاسيم وجهه وكان ابيض تشوبه بقع خشنة لونها أحمر ناري. وقيل ان لقبه «سيللاّ» جاء من هذه الصفة. وقد نظم أحد الساخرين الآثينيين الذي عرف البذاءة وسلاطة اللسان هذين البيتين معرضاً بذلك:

«يشبه سيللاّ ثمر التوت الذي رشّ فوقه عدس»

وليس بالذي يخرج بنا عن موضوعنا أن نورد وصفاً للسمات الخلقية في صدد كتابة سيرة شخص كان طبيعته مغطوراً على حب المزاح والتندر، مما جعله منذ اول شبابه دائم الاختلاط بالممثلين ومشاهير المهرجين. كثير الصحبة لهم في دروب الغواية والملذات السافلة. وظلّ يزاول هذه العادة لما أصبح السيدّ الأعلى. فكان يجمع سفلة لاعبي المدينة وأوشاب ممثليها فيساقيهم الراح ويبادلهم المزاح دون اعتبار لسنه ومقامه السامي تاركاً الأمور الهامّة التي تتطلب منه الاهتمام والرعاية. ولم يكن من طبعه أن يسمع بايّ حديث جدّي عند جلوسه الى المائدة في حين تراه في سائر الاوقات رجل عملٍ وكدٍّ. لايعرف البِشرُ والابتسام وجهَهُ. هذا القطوب والعبوس يعتريه أنقلاب عام مفاجيء، ويتحول الى بشاشة وايناساً لا حدود لهما حالما يحتويه مجلس شراب ومنادمة. فينشرح صدره ويستخفه الطرب بين أهل الرقص والغناء الوضعاء، ويكون على اتم الاستعداد لارضاء كل من يقصده محدّثاً. والظاهر ان سهولة وقوعه في اسر لذاذات الغرام، وتهافته بدون مقاومة على الشهوة والفسق هي اشبه بالاعراض المرضية لتراخيه واستهتارٍ في طبعه لم يكبح جماحها حتى شيخوخته. وقد بقي مدة طويلة يعشق ممثلاً اسمه [ميتروبيوس Matrobius]. وغازل في مفتتح حياته الغرامية سيدة غنية من طبقة العامة تدعى [نيقوپوليس Nicopolis] وتمكن بمظاهر شبابه الغضّ وبعاشرته الطويلة لها أن يوقعها في غرامه وبأسر مشاعرها ففاق حبها له حبه لها حتى انها اوصت له بكلّ ثروتها عند موتها. واحبته زوج ابيه حبّ الأم لابنها فاورثته مزرعتها، وبهذين الحدثين السعيدين أعترى أحواله تغيير عظيم. واصبح في عداد الاغنياء.

وأختير [كويستوراً] لماريوس في أولّ منصب قنصلي له، فأبحر معه الى ليبيا لخوض الحرب ضدّ [يغورثا]. فكان موضع رضى هناك. ولاسيّما في حادثة وقعت على غير انتظار أحسن التصرف فيها فكسب صداقة [بوخوس] ملك النوميديين. فقد كاد سفراء هذا الملك يقعون في كمين نصبته عصابة من اللصوص لهم وفروا منهم فتلقاهم سيللاّ بترحابٍ وأكرمهم غاية الاكرام وأطلقهم محملين بالهدايا وزودهم بحرسٍ لحمايتهم. وكان [بوخوس] دائم الخوف شديد الكره لختنه [جغورثا]، الذي فرّ اليه لاجئاً بعد أن مني بالهزيمة. وكان يبيّت أمر تسليمه

للرومـان وقـتـذاك. ولـهـذا دعـا [سـيللا] لزيارتـه حتى يكون تسليم الملك المقـهـور عن طريقـه وبواسطتـه لا ان يقوم [يغورثا] بـتسليم نفسـه طوعـاً. وبورود الدعـوة اليـه فـاتح [مـاريوس] فـزوده هذا بثلة من الجنود قـليلة العـدد. فـخرج بـهـا لانجاز المهـمـة وهو يدري انه يعـرض نفسـه لأعظم الأخطار، ويضـع ثقـتـه في بربريّ لم يخلص حتى لاقربائه. ويـعـتـمـد عـلـيـه للقبض على شخصٍ سلّم نفسـه له بمحض اختياره. ولما بات المطارد والطريدة تحت رحمـة [بوخوس]، وجد ان عليـه واجب الاختـيـار في الغـدر باحدهمـا فـأطـال تقليب الأمر من شتى وجوهه وقـررا أخيـراً أن يسلم [يغورثا] لسيللا كما نوى أولاً.

ومنح [ماريوس] شرف موكب النصر بهذه المناسبة. إلاّ أن فضلها عزي الى [سيللا] فأحقد عليه [مـاريوس] واضـمر له السوء في نفسـه. والحق يقال أن [سيللا] نفسـه كـان تياهًا معجباً بنفسـه؛ ازداد غـروراً بهذه المأثرة فقد نبـه ذكره عند المواطنين توجهت انظارهم اليـه ونقلتـه من الخمول الى عالم الشـهرة وذاق طعم المجد وتعاظمت شهرته الى الشـهـرة ودفعت به الى التباهي والفـخـر وعـمـد الى نقش صورة تمثل عـمله هذا على خـاتم لم يفـارقـه قط وظلّ يسـتـعـمله بمثابة ختم. ويرى في النقش [بـوخوس] يسلم [يغورثا] لسـيللا. آثار هذا العـمل حقـد [مـاريوس] الشـديد ومسّ منـه وتراً حسـاسـاً. إلاّ انه اعـتـبر [سيللا] أقل منزلة مـن ان يصلح خصـمـاً له. وابقـاه في خدمتـه وجعلـه ضابط ركنه في قـنصليتـه الثـانية، وتريبيـونـاً في قنصليتـه الثالثـة. فحقق [سيللاً] أعمالاً جليلة عديدة في الفترتين. منهـا أنه أسر [كوپيللوس Copillus] زعيم التكتوساگ Tectosages وأجبر المارسيين Marsians وهم شعب كثير العدد، على محالفة الرومان وموآخاتهم، خلال قيامه بوظيفته الأولى.

على أي حالٍ لم يفت [سـيللاً] حسـد [مـاريوس] وغيرته منه وأدرك أنـه سيـغلق في وجـهـه فرص العـمل ويقيم العقبات في سـبيل تقدمه السـيـاسي. فـأنصرف عنه الى زمـيله [كـاتولوس] وأختص به وكان هذا إنسـانـاً كريمـاً لكنه يفتقر الى حيوية القائد فأوكل الى سيللاً واجبات هامة وأعـمـالاً خطيرة فانـقـادت اليـه الشـهرة وتوقل سلم المجد وأخضع بقـوة السـلاحِ معظم البرابرة الذين يسكنون أقـاليم الألب. وأضطلع شخصيـاً بتأمين ارزاق الجيـوش عندما شحّت فنجح في نقل مـقـادير هائلة لسـد حـاجة جنود [كـاتولوس] وجنود [مـاريوس] أيضـاً. ويقـول سيللاً في مذكراته كان عملي هذا مثل طعنةٍ في قلب ماريوس».

بدأت العداوة بين هذين الرجل باسباب تافـهة صبيـانية جداً لكنهـا سلكت سـبيلاً عنيفاً وادت الى حربٍ أهليـة سـفكت فـيـهـا دمـاء الرومـان. وأحـدثت انقسـامـاً لارأب لـه. وآلت الى حكم الطغـيـان وتفـشي الفوضى في جهـاز الدولة. كل هذا يشـهـد على حكمـة [يوربيدس] وصدق

فراسته ومعرفته التامة باسباب الفوضى السياسيّة، عندما انذر الجميع وناشدهم بأن يحذروا من الطموح، فهو من بين كل القوى العليا أعظمها تدميراً لعبادّها.

ووجد سيللا في ذلك الزمن أن شهرته العسكرية التي نالها خارج الوطن كافية لتؤهله الى المناصب السياسية العليا فرحل الى روما وتقدم من الجمهور مرشحاً نفسه لمنصب البريتور فأخفق وعللّ سبب أخفاقه الى علم جمهور الناخبين بعلاقته الطيبة مع [بوخوس] الليبيّ ولهذا فضلوا ان يختاروه لمنصب الايديل قبل منحه البريتورية ليؤمن لهم مشاهدة العاب الصيد وقتال الوحوش باستيرادها لهم من ليبيا. نظراً لدالته على ملكها. وهكذا أختاروا حسب تعليله - آخرين لارغامه على قبول منصب [الايديل] وقام الدليل الساطع على خطأ تعليله هذا عندما نجح في الفوز بمنصب البريتور في السنة التالية، بتزلفه للجماهير من جهة، وبتفريقه الأموال على الناخبين من جهة أخرى وعلى هذا الأساس كان جواب قيصر له. فمرة قال [سيللاً] غاضباً:

- ينبغي لي أن استعمل سلطتي ضدك.

فأجاب [قيصر] باسماً: حسناً فعلت بتسميتها «سلطتي» لأنك اشتريتها.

وفي نهاية فترة [بريتوريته] أرسل الى [كبادوكيا] تحت زعم اعادة [آريو بارزان Ario Barzan] الى عرس مملكته في حين كان السبب الأصليّ لبعثته صدّ هجمات [ميثريدات] ووقف اعتداءاته المتكررة. والحدّ من سلطانه المتعاظم واتساع رقعة مملكته بما كان يضيفه الى ما ورثه عن أسلافه. ولم يُسلِّم [سيللا] قوات كثيرة. وكان جلّ اعتماده على مساعدات حلفاء روما الصادقة. وبعد أن خاض معارك طاحنة مع الكپادوكيين سألت فيها دماؤهم ودماء حلفائهم [الأرمن] انهاراً، نجح في طرد [غورديوس Gordius] واعادة [آريو بارزان] الى عرشه.

وفي اثناء اقامته على ضفاف نهر الفرات قدم اليه [اوروبازو Orobazus] الفرثي سفيراً من الملك [ارشاك Arsaces] وعلينا في هذا الصددّ أن لا ننكر حظّ [سيللا] بوصفه اول روماني فاوضه الفرثيون حول انشاء علاقات صداقة وحسن جوار. والحكاية التي تروى عن استقبال السفير المذكور تقول أن [سيللا] أمر بوضع ثلاثة كراسٍ ملكية. واحدة [لآريو بارزان] والثانية لاوروبازو وجعل كرسيه يتوسط الآثنين وتم الاحتفال على هذا الشكل إلاّ أن الملك الفرثي أرسل اوروبازو الى حتفه لهذا السبب. وبعضهم يثني على [سيللاً] لاتخاذه هذا الموقف المتعالي من البرابرة. بينما يأخذ عليه بعضهم ظهوره هذا بالذي لايتفق والظروف

آنذاك. ويذكر أيضاً كلدانيّا من حاشية [اوروبازو] انعم النظر في سيماء سيللاً وأطال التدقيق في تقاطيع وجهه متابعاً باهتمام انتقالاته الفكرية وحركات عضلاته. وأصدر حكمه عليه وفق مبادىء صناعته في الفراسة وقال: «من الصعب أن لا يكون أعظم الرجال طراً، ومن العجيب أن لا يبادر الآن في رياسة الجميع».

وعلى أثر عودته الى روما. اتهمه [كنسورنيوس Censorinus] بالغصب والابتزاز لأنه جبى أموالاً طائلةً من ممالك حليفة وبلاد حسنة العلاقات مع الرومان. ولكن الشاكي لم يحضر في يوم المحاكمة وتنازل عن التهمة. وما لبث ان شبت نار الخلاف ثانيةً بين سيللا وماريوس، والذي زوّده بمادة الوقود طموح [بوخوس] وحب ظهوره فقد أرسل الى روما تماثيل وانصاباً وتحفاً منها صورة من الذهب تمثل تسليمه [يغورثا] [لسيللا] وكان يرمي من ذلك التقرب الى الرومان. وتكريم [سيللا] فحاول [ماريوس] رفع الانصاب من معبد [جوپتر كاپيتولينوس] وهو في أشد سورات غضبه إلاّ أن فريقاً من الرومان عارضوه ووقفوا في صف [سيللا] واستفحل الخلاف حتى كاد يؤدي الى اضرام النار ثورة جائحة في المدينة لو لم تندلع براكين «الحرب المشتركة» التي كانت خامدة منذ عهد بعيد، فوضعت بذلك حداً مؤقتاً لهذا النزاع.

في هذه الحرب الضروس التي اعترتها تقلبات عديدة واضرت بالرومان أكثر من أية حربٍ سابقة وهددت امبراطوريتهم كلها بالزوال لم يوفق [ماريوس] الى الإتيان باي عمل بطولي في اية موقعة حربية. وبذلك ترك دليلاً ساطعاً على أن التفوق في مجالات الحرب يتطلب بدناً قوياً قادراً على تحمّل اعبائها ومشاقها.

وأحرز سيللاً من مواطنيه لقب القائد العظيم بما حققه من المآثر العديدة اما صحبه فقد رفعوه الى مرتبة أعظم القادة، في حين اعتبره الاعداء أسعدهم حظاً. وكل هذا خلف في نفسه أنطباعاً مغايراً لما تخلّف في نفس [تيموثيوس Timothius] الاثيني ابن [كونون] الذي عزا خصومه اسباب نجاحه الى حسن حظّه فرسموا صورة له وهو نائم وآلهة الحظّ تقف الى جانبه وترمي بشباكها فوق المدن، فكان فظاً في استنكاره العمل. كأنما سلبوه حقه في المجد بنسبتهم كل شيء فعله الى آلهة الحظّ، مرةً عاد من الحرب وقال للجمهور مذكراً بانتصاره:

- اعلموا يا رجال آثينا أن آلهة الحظّ لم تسهم في هذا النصر.

وهي عبارة تنمّ عن تسرع صبيانيّ. لم تسكت عنه الآلهة، فازورت عنه كما قيل لنا، ولم يعد يحقق اي عملٍ جليل، وناكده الحظّ في كل شيء. حتى سقطت منزلته في اعين الشعب، وحكم عليه بالنفي من البلاد. اما سيللاً ففضلاً عن قبول فضل الآلهة عليه بسرورٍ واعتزازه

بثقتها فيه؛ فانه عزا شرف كلّ ما عليه بسرور، واعتزازه بثقتها فيه؛ فانه عزا شرف كلّ ما تمّ الى الحظ، في معرض تعظيم تلك الأعمال وتمجيدها، سواءً قصد من هذا التباهي والفخر، أو أظهار شعوره الحقيقي من العناية الالهية. وفي مذكراته ينوه باعماله الحكيمة التي أقدم عليها بجرأة وغير مبالاة فيقول أن أعظمها توفيقاً هي الأعمال التي جاءته من وحي ساعتها وليس الأعمال التي نفذها بعد حساب وتدقيق. ومن الصفة التي أعطاها شخصه بذكره انه ولد للحظّ أكثر منه للحرب، يبدو انه ينزل الحظ منزلة أرفع من الكفاءة. فهو بمختصر القول يجعل نفسه مخلوقاً ذا قوى عليا من كل ناحية. حتى انه عَدّ قرابته من ميناللوس زميله في الوظيفة عن طريق المصاهرة - نعمة من النعم الفائقة. فقد كان يتوقع أن يجد في هذا الرجل زميلاً مثيراً للمشاكل لا يسلس قياده فاذا به ألين الناس عريكة وأطيبهم نفساً، ويزيد على هذا في مذكراته التي خاطب بها [لوكوللوس] تحذيره للمخاطب من وضع ثقته في غير الارادة الالهية وما تشير عليه به ليلاً. وروى انه بينما كان يغادر المدينة بجيشه للقتال في «الحرب المشتركة» شاهد الارض بالقرب من [اللافيرنا Laverna] قد انشقت، وخرج من جوفها قدر من النيران ارتفعت نحو السماء يلهب خاطف وتكهن السحرة منها بأن شخصاً ذا مزايا عظيمة وسيماء فريدة نادرة المثال، سيتسلّم مقاليد الحكم. فأسرع [سيللا] يؤكد بانه هو الرجل المقصود لأن لمة شعر رأسه الذهبي تظهره بمظهر غير اعتيادي وتجعل هيئته غريبة جداً، ولم يكن ليحسّ باي خجلٍ من الشهادة على ميزاته العظيمة الخصوصية بعد الأعمال الجليلة التي انجزها ونكتفي الى هنا بالحديث من آرائه في نفسه وفي العناية الآلهية.

وعلى العموم، بدا سيللاً شخصية حافلة بالمتناقضات. قلق النفس لايقر قراره على اتجاه خلقي ثابت. مفرطاً في استسلامه للحنق وأكثر. غير شاعرٍ بأية مسؤولية في اعزازه من يشاء واذلاله من يشاء، ذليلاً امام من كانت حاجته عندهم، متجبراً على من تكون حاجتهم عنده. ولذلك يصعب الحكم في أيهما أغلب على طبعه، أعزّة النفس أم ضعتها ؟ وتراه أظلم الناس في العقاب: يسلم المرء الى العذاب لاتفه دليل.

ويصبر صبراً عجيباً على أعظم الزلل. تجده يصفح ويصفو حالاً بعد اشنع عملٍ من أعمال الحقد والعداء، في حين يفرض حكم الموت ومصادرة الأموال لأبسط المخالفات والهفوات. فلا مندوحة للمرء من ان يحكم على طبعه بالعنف وحب الانتقام، على انه كان يستطيع عند التبصر أن يستخدم هذا الطبع لمصلحته. فيفيد منه. وفي هذه «الحرب المشتركة» لما هاجم جنوده ضابط ركنه [آلبينوس Albinud] الذي كان يحمل رتبة البريتور فقتلوه بالهراوات والحجارة أغضى عن هذه الجريمة الشنعاء ومرّ بها مرور الكرام ولم يفتح تحقيقاً. وزاد فعلق

على الموضوع متباهياً بقوله إن سلوك الجنود سيحسن جداً بعد هذا وسيعوضون عن خرقهم هذا للنظام العسكري، بعمل بطولي مجيد. ولم يقم وزناً للأصوات التي ارتفعت تطالب باحقاق الحق والانتصاف من الفاعلين. ولأنه كان قد قررّ ازاحة [ماريوس] بعد أن وجد «الحرب المشتركة» تشارف نهايتها، فقد أفاد كثيراً من جيشه مؤملاً تعيينه جنرالاً على رأس القوات التي سترسل لقتال [ميثريدات].

وعند عودته الى روما، أنتخب قنصلاً مع [كوينتوس پومپيوس Quintus Pompeius]، وهو في الخمسين من عمره ووفق الى زواج طيب جداً من [كيسيليا Cæcilia] بنت [ميتيللوس] عظيم الكهنة. فنظم عامة الشعب مختلف القصائد في التندر على هذه الزيجة. وثارت نفوس كثير من الاشراف اشمئزازاً على هذه الزيجة. وقالوا ان سيللاً غير جدير بهذه المصاهرة. كما نقل لنا [ليڤي] ولسنا ندري كيف أعتبروه قبلها جديراً بمنصب القنصل!

ولم تكن [كيچيليا] زوجه الوحيدة ففي مطلع شبابه تزوج [إليا Ilia]، وانجب منها ثم تزوج بالثانية [ايليا Aelia] ثم بالتالية [كلوليا Cloelia] التي طلقها لأنها عاقرٌ. وسرحها باحسان واكرام وحملها هدايا واموالاً. إلاّ ان الزواج الذي تمّ بينه وبين [ميتللاً Metella] بعد أيام قليلة من طلاقه [كلوليا] آثار الشك في ان ادعاءه بعقمها لا يستند الى اسباب وجيهة. وظل دوماً يظهر [لميتللا] أعظم الاحترام حتى أن جماهير الشعب راجعتها بطلب تدخلها في قضية اعادة المنفيين من حزب [ماريوس] الى الوطن بعد ان رفض [سيللاً] ذلك. والمعتقد ان الاجراءات التي فاقت قسوتها العادة لم تتخذ ضدّ الآثينيين عند استيلاء [سيللاً] على مدينتهم الاّ لاستعمالهم عبارات جارحة مهينة في معرض سخرهم وتندرهم [بمتيللاً] من أعلى الأسوار اثناء الحصار. ولنا عودة الى هذا الموضوع فيما بعد.

في تلك الفترة من الزمن كان [سيللاً] يعتبر منصبه القنصلي شيئاً صغيراً بالنسبة الى ما سيصل من سموّ ورفعة. ولهذا أحتلت الحرب ضد [ميثريدات] كل جانب من تفكيره وأشتدت رغبته فيها فوقف [ماريوس] حائلاً يتعذر أقتحامه. وبدافع من الحب الجنوني للمجد والتعطش للشهرة وهما عاطفتان لا تموتان في البشر، واصل [ماريوس] مساعيه لتقلد منصب قيادة الجيش الخارجي الذي كان يقاتل فيما وراء البحار. غير مكترث لشيخوخته التي انهكت قواه والجأته الى اعتزال الخدمة في مراحل الحرب الأخيرة فأنتهز فرصة مغادرة سيللاً المدينة الى المعسكر للأشراف بنفسه على تنفيذ بقية أوامره. وقعد محتضناً بيوض جشعه ليفقس بالأخير تلك الفتنة الدنيئة الهوجاء التي أصابت روما من الرزايا ما يفوق كل الرزايا التي اصابها به كل أعدائها مجتمعين. والواقع أن الآلهة كشفت عن دلائل ومقدمات لها.

منها أن النار شبت في مقابض الرايات من الأسفل ولم يكن من السهل السيطرة عليها واخمادها. وحمل ثلاثة من الغربان النوخية صغارها الى وسط الطريق العام فاكلوها ثم عادوا الى الأعشاش بعظامها. ومنها ان الفيران قرضت الذهب الذي كان موقوفاً على أحد المعابد فوقعت أحداها في مصيدة نصبها الكهنة لها وهناك وضعت خمسة. وأكلت ثلاثة منها. وكان أعظم ظاهرة دوى صوت نفير راعدٍ رهيب في سماء هادئة صافية اشاع الهلع والبغتة في أفئدة الناس، فراح حكماء الاتروسكان يؤكدون أن هذه المعجزة تشير الى تغير العصر وانقلاب حال الدنيا. فعندهم ان العصور ثمانية فحسب وتغيرّ طباع الناس وطرز حياتهم هو الدليل على انتهاء عصر وابتداء آخر. وقد جعل الله لكلّ عصر أجلاً مرسوماً تحدده دائرة السنة العظمى. وكلما شارف عصر على نهايته، ظهرت اشارة خارقة كدليل على مجيء العصر التالي سماوية أكانت أم ارضية وبها يسترشد الحكماء المتخصصون في دراسة هذه الظواهر على انقلاب العصر ومجيء جيل جديد من البشر يختلف عن سابقه في عاداته وأساليب حياته ويتميز برعاية متفاوتة من الآلهة أكثر من سلفه. ويقولون أيضاً ان صناعة الوحي والتنبوءات ترتفع بهذه المناسبة الى مقامٍ جليل فجأة وتزداد تفاسيرها إصابة وتقلّ اخطاءً لأن الآلهة تطلق اذ ذاك علامات واضحة أكيدة. ويدبّ في هذه الصناعة الانحلال والخمول في الجيل التالي فتغدو مجرد حدسٍ ورجم بالغيب في أغلب الأحوال، وتكون شديدة الغموض في الكشف عن احداث المستقبل. تلك هي «ميثولوجيا» أحكم حكماء التوسكان الذين لا ترقى معرفة أحد الى معرفتهم. وفيما كان مجلس الشيوخ منعقداً في معبد [بللونا Bellona] يناقش السحرة والعرافين في دلائل هذه الخوارق. اذا بعصفور دوري يقبل طائراً اليهم وفي منقاره جُندبٌ فأفلت جزءً منه وحلق بعيداً ببقيته. ونهى العرافون عن شحناء أو أنشقاق تحصل بين الاقطاعيين الكبار وبين جمهور المدينة فهؤلاء الأخيرون كثيرو الضجّة والكلام مثل الجُندب. بينما يمثلّ العصفور الدوري «المزارعين سكان الريف».

وجعل [ماريوس] من التريبيون [سولبيشيوس] حليفاً له. وليس لهذا الرجل ثانٍ في النذالة واللؤم ولا نظير. والنقطة فيه هي أنك لا تبحث عمن فاقه لؤماً وخسّةً، وانما تبحث عن أي ناحية فيه فاقت الأخرى في الشرّ. لقد كان فظاً غليظاً مفطوراً على الاعتداء والأذى. لا يعرف الخجل أو تأنيب الضمير قط ولا يتردد في عرض امتياز المواطنة الرومانية في المزاد العلني للأجانب وللعبيد المحررين، ويحصى الثمن المدفوع بها على مناضد الخزينة العامة. وكان قد جمع حوله ثلاثة آلاف من رجال السيف، فلا تراه إلاّ وبرفقته عصبة من شبان طبقة «الفرسان» مستعدين لسائر المناسبات، أطلق عليهم اسم «حرس معارضة الشيوخ». وكان قد

اشترع قانوناً، يحظر على عضو الشيوخ أن تزيد استدانته عن ألفي دراخما في حين تبين بعد موته أنه استدان ثلاثة ملايين ذلكم هو الرجل الذي أطلقه [ماريوس] على الجمهورية وكان السيف والقوة وسيلقاه في العمل وايقاع الخلل والارتباك في كل شيء.

واصدر مراسيم نجم عنها أخطر النتائج. منها مرسوم يقضي باسناد قيادة الجيش الروماني في حرب [مثيريدات] الى صفيه [ماريوس] وعلى أثر ذلك أعلن القنصلان عن عطلة عامة للأهلين وبينما كانا يعقدان إجتماعاً جماهيرياً بالقرب من معبد [كاستور و پوللوكس] أطلق عليهما الرّعاع والأوشاب وفتكوا بمن فتكوا بابن القنصل [پومپيوس] الأصغر في الفورم. ولم ينج [پومپيوس] من القتل الا بصعوبة باختلاطه بالجمع وطورد [سيللا] الى منزل [ماريوس] وأرغم على الخروج منه والغاء قرار العطلة. وهذا ما حدا [بسولبيثيوس] الى تركه في منصبه القنصلي، في حين عزل [پومپيوس] إلاّ انه وجّه قيادة الحملة على [مثيريدات] الى [ماريوس].

وأرسل الى [نولا Nola] فوراً [تريبيونين] من اتباعه لتسلم قيادة الجيش نيابة عن [ماريوس] إلاّ ان [سيللا] كان قد سبقهما الى المعسكر وأبلغ الجنود بما وقع فاستقبلوا التريبيون بالحجارة ورجموهما. فردّ [ماريوس] على هذا العمل بوضع السيف في رقاب أنصار [سيللا] ونهب أموالهم في المدينة. ونجم كل ما يتصور المرء من الانتقال والفرار فبعضهم هرع الى المدينة المعسكر، وبعضهم انتقل الى المعسكر من المدينة.

وفقد مجلس الشيوخ سيطرته على الموقف وباتت سلطته في حكم العدم وقبض [ماريوس] و[سولپيشيوس] على زمام الحكم والسلطة بلا منازع. إلاّ ان المجلس أقلقته انباء تقدم [سيللاّ] بجنوده نحو المدينة فأرسلا اليه البريتورين [بروتوس وسرڤيليوس] ليمنعاه من الاقتراب أكثر من ذلك. وكاد الجنود يفتكون بالپريتورين في حدة ثورتهم لوقاحتهما في الحديث مع سيللا إلاّ انهم أكتفوا بكسر عصّي الفاچي رمز سلطتهما وبتمزيق ثوبيهما الحاشية الأرجوانييّ. وأطلقوهما أخيراً بعد معاملة فظّة واعتداءات كثيرة. فعادا الى أهل المدينة في هذه الحالة المزرية، وشاع في النفوس همّ عظيم لرؤيتهما مجردين بهذه الصورة الحقيرة من شعار الحكم وعلامات المنصب. وأعلن هذان للجمهور بأن الأمور آلت الى نهاية لا علاج لها ولا شفاء، وتأهب [ماريوس] وتحرك [سيللاّ] مع زميله من [نولا] على رأس ستّ فرق كاملة العدد والعدّة وكلها متحمسة للزحف فوراً على المدينة، على وان كانت افكاره في لجّة من الشكوك والتخوف من الخطر. وبينما كان يضحّى عمد الكاهن [پوستيميوس] الى فحص احشاء الضحية، ثم مد كلتا يديه الى [سيللا] وطلب منه ان يقيده ويضعه في السجن حتى

تنتهي المعركة. لأنه يقبل بطيبة خاطر أشدّ العقاب وأقساه إن ام يحرزوا نصراً سريعاً كاملاً. وقيل أيضاً أن ربّة من الأرباب كان الرومان قد أخذوا عبادتها عن الكبدوكيين. ولعلها «القمر» و«باللاس Pallas» أو «بلّلونا» قد ظهرت [لسيللاّ] نفسه في الحلم ووقفت على ما نظنّ بالقرب منه ووضعت في يده الرعد والبرق. وعددت اسماء اعدائه واحداً واحداً وطلبت منه ان ينزل بهم ضربته كافةً، أولئك الذين أختفوا وتفرقوا وأن لا يستثني منهم أحداً. فزادته الرؤيا شجاعةً وقصها على زميله. وفي اليوم التالي تقدم بعسكره نحو مدينة روما. والتقى بالقرب من [پچيني Picinæ] بوفدٍ أخذ يتوسل به أن يؤجل هجومه قليلاً وان لاتأخذه حرارة الزحف. لأن مجلس الشيوخ قد قررّ أن لا يغمط له حقاً وان لا يرد له اي طلب عادل، فوافق على الوقوف حيث هو وبعث ضباطاً لقياس ارض للمعسكر كما جرت به العادة. فاطمأن الوفد الى ذلك وعاد ادراجه. وما كادوا يغيبون عن نظره حتى أمر بتقدم وحدة عسكرية بقيادة [لوشيوس باسللوس Lecius Busillus] و[كايوس موميّوس Caius Mummius] لإحتلال باب المدينة الذي يقع في جهة مرتفع [اسكويلين Esquiline] واحتلال الأسوار المجاورة له. وساق عسكره في اعقاب الوحدة بأسرع ما أمكنه. ونجح [باسيليوس] في دخول المدينة إلاّ أن الجمهور الأعزل أخذ يقذف جنوده بالحجارة والطوب من الأعلى المنازل فأوقفوا تقدمه ثم أرغموه على التراجع الى السور. وكان [سيللا] في تلك الاثناء قد بلغ المدينة ورای ما يحصل فصاح برجاله آمراً ان يشعلوا النار في المنازل وتناول مشعلاً ملتهباً وسار في الطليعة وأوعز الى رماة النبال باستعمال نبالهم المشتعلة فراحوا يفوّقونها على أسطح المنازل. ولم يكن في ذلك يطبق خطة سبق ان رسمها وانما انساق بسورة غيظ عظيم. فكان عمل ذلك اليوم كله من وحي العاطفة الجائحة التي تجد الكل اعداءها ولا ترعى حرمة أو تشعر بشفقة لصديق أو قريب أو صاحب. وهكذا دخل [سيللا] روما بالنار لا تعرف فرقاً بين صديق أو خصم.

وفي القتال الناشب أرغم [ماريوس] على التقهقر الى معبد «الأرض الأم» ومن مقره هذا أصدر بياناً يعد فيه العبيد بالحرية أن هم التحقوا به. إلاّ أن عدوّه ادركه فانهارت مقاومته وهرب من المدينة.

دعا [سيللاّ] مجلس الشيوخ الى اجتماع عاجل للتصويت على حكم الموت بحق [ماريوس] وعدد قليل من اتباعه ومنهم [سولپيشيوس] مفوض الشعب، فوشى به خادمه فقتل. وكافأ [سيللا] الواشي بعتقه، ثم ألقاه منكوساً من الصخرة التارپيّة! ووضع لرأس [ماريوس] ثمناً ببيان عام أصدره. ولم يكن عمله هذا ينطوي على تبصر سياسيّ، ولا اعتراف بجميل اسداه اليه [ماريوس] حين آواه وحماه وأخرجه سالماً منذ زمن غير بعيد. ولو لم يُطلِق [ماريوس]

[سيللاً] في ذلك الحين وترك [سولپيشيوس] يفتك به لكان السيد الأوحد الآن. على أنه حفظ له حياته وبعد بضعة أيام لقي هو معاملة مختلفة، عندما وجد نفسه في موقف مماثل.

أثار [سيللاً] باجراءاته هذه اشمئزازاً خفياً في نفوس اعضاء مجلس الشيوخ. إلاّ أن سخط العامة واستنكارهم تجلّى في تصرفاتهم فقد أجمعوا على رفض ترشيح ابن أخيه [نونيوس Nonuis] و[سرڤيوس] لمنصب الحاكميّة، وهما من محسوبيه، وانتخبوا غيرهما نكايةً به وازعاجاً له فتظاهر بالرضا التام عن كل هذا كأنما الشعب لايتمتع بحرية التصرف وتقرير ما يراه مناسباً له الا بفضله. وعين [لوشيوس سينّا] قنصلاً تسكينا لعداء الجماهير، وهو من الحزب المعارض له. إلاّ انه انتزع منه قبل ذلك يميناً وعهداً موثقاً بأن يرعى مصالحه ويكون أميناً عليها. وظهر [سينّا] يرتقي درجات الكابيتول وهو يحمل حجراً وأقسم يميناً مغلظة، ودعا باللعنات المخيفة أن يطرد خارج المدينة وينبذ نبذاً إن لم يبق حريصاً على صداقته مع سيللاً. مثلما يلقي هذا الحجر من يديه. ثم القى الحجر على الأرض امام حشد من الناس. ولكن ما ان تسلم مهام وظيفته حتى أتخذ اجراءات مضّادة تخالف العهد الذي قطعه وهيّأ تهمةً ضدّ [سيللاً] ودفع [ڤرجينيوس] أحد مفوضي الشعب ليرفعها الى دار القضاء. إلاّ ان [سيللاً] تركه هو وقضاته ومحاكمة لشأنهم وأنطلق لقتال [ميثريدات].

وبينما كان يقوم بالاستعداد والتأهب للرحيل من ايطاليا بقواته حصل [الميثريدات] بعض الحوادث التي فسرت بالشؤم. ومنها الحادثة التي اشتهرت عنه اثناء وجوده في [برغاموس]. فقد صنع البرغاميون تمثالاً لآلهة النصر ووضعوا بيدها تاجاً وعملوا على انزالها بحيلٍ الميكانيكا من الأعلى بشكل يبدو معه وكأن التمثال يقوم بوضع التاج على راس الملك. وما كاد يُنزل ويقرب من رأسه حتى تفكك في الهواء وهوى التاج واصطدم بالأرض في وسط الملعب وتحطم. فأحدث هذا هلعاً عاماً واورث [ميثريدات] قلقاً عظيماً. مع انه كان ينتقل من نجاح الى نجاح ويحرز انتصارات رائعة غير منتظرة فقد أنتزع [آسيا] من يدّ الرومان و[بيثنيا] و[كبدوكيا] من ملكيهما وجعل [برغاموس] حاضرة ملكه، وراح يوزع الممالك والأقاليم والأموال على اصحابه والمقربين. وأستقر أحد ابنائه في [پونطس والبوسفور] ليحكم مملكة ابيه الأصلية الممتدة حتى البوادي فيما وراء بحيرة [ميوتيس] من غير منازع أو تحرش. وقام ابن آخر له اسمه [ارياراثوس Ariarathuz] باخضاع ثراقيا ومقدونيا بجيش جرار.

وعمل قواده بالجيوش التي وضعها تحت تصرفهم على توطيد سلطانه في أقاليم أخرى. ونذكر منهم بصورة خاصة [ارخيلاوس] الذي حقق باسطوله السيادة التامة في البحر، وأخضع [السيكلاديين Cyclades] وأستولى على كل الجزر حتى [ماليا Malea]، وفتح [يوبوا].

ثم انه جعل اثينا مقراً لحركاته وتمكن من حمل الدويلات الاغريقية على الانسحاب من الحلف الروماني في منطقة تمتد حتى [تساليا]. ماعدا [خيرونيا] فقد وجد هناك قائد عسكري [لسنتيوس Sentius] حاكم مقدونيا، يدعي [بروتوس سورا Brutus Sura] وهو جندي صنديدٌ وبطل فريد لا حَدّ لبسالته واقدامه. وقف في وجه [ارخيلاوس] الذي انقضّ بجيشه على [يوبوا] كما ينحدر السيل الجارف. فتصدى له [بروتوس سورا] وابدى مقاومة ضاريه وأشتبك معه في ثلاث معارك بالقرب من [خيرونيا] فصده وارغمه على التراجع نحو البحر. إلاّ ان هذا القائد الهمام سلّم القيادة لخلفه [سيللاّ] بناء على أمر صدر من [لوشيوس لوكوللوس] وعاد الى رئيسه [سنتيوس] بعد أن حقق من النجاح ما فاق كل آمال وهيّا بلاد اليونان من جديد الى الانتقاض والثورة لما أظهره لهم في البطولة والشهامة. تلكم هي المآثر المجيدة التي حققها [بروتوس].

وكان في استقبال سيللاّ وفود من سائر مدن اليونان لتقديم التهاني والولاء باسمها، إلاّ اثينا. فقد أرغمت باستبداد الطاغية [ارسطيون Aristion] على البقاء في صفّ [ميثريدات]. فزحف عليها [سيللاّ] بكامل قواته وأكتنف [بيريوس] والقى حصاراً شديداً على المدينة مستخدماً كل نوع من آلات الحصار ومطبقاً مختلف الخطط الهجوميّة. ولو انه صبر عليها قليلاً لامكنه الاستيلاء على الحيّ الأعلى من المدينة بدون صعوبة تذكر أو تعرض لأية خسارة بسبب المجاعة التي تفشت في المدافعين واستنزافهم كل ما لديهم من الارزاق وأفتقارهم الى الحاجات الضرورية جداً. ولكن سيللاّ كان مستعجلاً العودة الى روما لتعاظم خوفه من المؤمرات هناك. فواصل الهجوم العنيف مع ما فيه من مخاطر وكثرة من النفقات. وكان من بين المهمات التي تزود بها سيللاّ عشرة آلاف نير خشبي للبغال وهي مخصصة لبطاريات آلات الحصار والشغر لايستغنى عنها في العمل اليومي وكانت المتاريس الخشبية التي تحيط بمعسكر الرومان قد تعرضت للتلف بعضها تكّسر من تلقاء نفسه جراء ثقله، وبعضها أحترق بالمقذوفات النارية التي كان يوجهها العدوّ اليها بلا انقطاع. فشح الخشب كثيراً واضطر سيللاّ الى قطع اشجار الحدائق المقدسة لسدّ حاجته من الخشب، فقطع أشجار «حديقة الاكاديميا» و[الليكيوم Lyceum] والأولى هي أكثف حدائق ضواحي آثينا وأكثرها ظلاً. وأدركت الحاجة الى المال لسدّ نفقات الحرب الطائلة، فلم يتردد [سيللا] من اقتحام الاماكن المقدسة اليونانية وبعث يطلب ما احتواه معبدا [ايبداوروس Epidaurus] و[اولمبيا] من تحف ونفائس التقدمات. واجملها وكتب أيضاً الى [الامفكتيون] في [دلفي] يطلب منهم أن يسلموه ثروة الربّ لأنه اقدر منهم على محافظتها. واذا خطر بباله انفاقها فسيعوض

عنها. وبعث بهذه الرسالة مع [كافيس Caphis] الفوكيّ أحد اصدقائه وأمره أن يتسلم كل قطعة بالوزن. فقدم [كافيس] اى دلفي. ولكنه ارتعب من لمس الأشياء المقدسة وراح يذرف دمعاً غزيراً أمام جمهرة الامفكتيون معتذراً بالضرورة والحاجة وعندما قال بعضهم انه سمع عزف قيثار صادراً من المحراب الداخلي بادر حالاً بارسال رسول سريع الى سيللاً بهذا المآل إمّا لاعتقاده الحقيقي بها وإما لرغبته في تجربة تأثير المخافة الدينية في [سيللاً] فكان ردّ القائد الروماني حافلاً بالسخرية قال انه ليعجب منه كيف لا يدري ان الموسيقي هي علامة فرحٍ لا غضب. وعليه والحالة هذه أن يدخل بكلّ ثقةٍ ويتقبل ما يقدمه الربّ الكريم من نعمه وخيراته.

وتسربت أموال أخرى وأخذت طريقها اليه خلسة دون علم اليونانيين أو ملاحظتهم. إلا في قضية جفنة[٢] الفضة وهي الاثر الوحيد الباقي من أوقاف الملوك على معبد دلفي فقد بلغ من حجمها وثقلها أن لم تتسع لحمل أية عجلة، فأخطر الامفكتيونالى قطعها اجزاءً وأستذكروا اثناء عملهم هذا، كلاً من [تيطس فلامينينوس] و[ماينوس أجيليوس] من بلاد اليونان وأولئك الذين قهروا ملوك المقدونيين. كم كانت نفوسهم عفّة، وكيف أنهم لم يلوثوا ايديهم بهتك حرمة المعابد الأغريقية. ولكنهم قدموا اليها مختلف الهدايا واسبغوا عليها مختلف آيات التكريم ورفعوا بذلك من مقامها وأحترام العموم لها. هؤلاء في الواقع قادة شرعيون لجنود ديدنهم الطاعة ومتانة الخلق. كانوا عظماء بنفوسهم بسطاء في عيشهم واسلوب حياتهم لايتعدى مستوى نفقاتهم الحدود الاعتيادية السائدة. وهم يعتبرون التقرب من الجنود بالزلفى عالاً أعظم من عار خوفهم من الاعداء. أمّا قواد زمننا هذا فهم مدينون بمناصبهم الرفيعة الى القوة لا الأهلية ويلجأون الى السلاح لحَلّ خلافاتهم الخاصة بدلاً من توجيهه الى أعداء الوطن وهذا ما يدفعهم الى المخاتلة والمناورة في الحكم لكسب الوقت؛ ولدفع ثمن جهود جنودهم في تثبيت سلطانهم تراهم ينزلقون دون ان يدروا الى بيع بلادهم نفسها ويرتضون لأنفسهم ان يكونوا عبيداً طائعين للحثالات وأحطّ الأنذال في سبيل ان يحكموا رجالاً أرفع منهم وأفضل في كل شيء. هذه الأساليب هي التي أدت [بماريوس] الى الخروج من وطنه منفياً، لتأتي به ثانية امام [سيللا]. وهي جعلت من [سينّا] قاتلاً [لاوكتافيوس]، ومن [فمبريا Fimbria] ذبّاحاً [لفلاكوس Flacchus]. ولم يكن ذنب [سيللاً] بأقلّ من الثلاثة المذكورين. فلأجل إفساد وكسب الجنود الذين يخدمون تحت امرة الآخرين، تراه ينقلب كريماً جواداً لجنوده يحبب اليهم حياة الفسق والفجور مغرياً جنود القوّاد الآخرين بالانتقاض على رؤوساهم والغدر بهم

---

(٢) [Tun] وهي آنية كبيرة. تتسع لحوالي (٢٥٢) غالوناً من المائعات. وقد تستخدم مكيالاً والمرجح ان كلمة [Ton: طن] وهو الوزن المشائع الآن – مأخوذ منها.

فلا غرابة في أن يكون بحاجة دائمة الى الأموال الطائلة ولاسيما في اثناء الحصار.

وسواء أقَصَدَ سيللاً من فتح آثينا التباهي والفخر بقتال يجري تحت ظلّ ما كان يوماً ما مدينة شهيرة، أم حنقاً وغيظاً للكلام البذيء الخالي من الحشمة الذي كان يتندر به الطاغية [ارسطيون] من فوق الأسوار يومياً بإيماءات شائنة معيبة الى سيللاً وزوجه ميتللاً، فان رغبة [سيللاً]في إقتحامها عنوة لم تكن تعرف حداً.

وكان [ارسطيون] مخلوقاً مركباً من الدناءة والقسوة. جمع في نفسه أسوء ما في [ميثريدات] من رذائل وبيلة شريرة، فكانت فيه داءٌ عضالاً لا سبيل للشفاء منه، حكم القدرُ به على المدينة في ايامها الأخيرة على يد الطغاة المتعاقبين، ونتيجة سلسلة من الفتن والدسائس في أعقاب خروجها سليمةً من حروب لا تحصى.

كان الوضع في الدينة لا يمكن وصفه فقد بيع المديمنوس Medimnus الواحد من القمح بألف دراخما. وأضطر الناس الى أكل حشيشة نبتة الاقحوان Feverfew التي تنمو حول القلعة. وسلق الأحذية الجلدية وأجربة الزيت ليسدوا بها رقعهم. بينما استمر [ارسطيون] في اقامة المآدب واحياء مجالس الشراب في رائعة النهار. والرقص بالسلاح والتندر على الاعداء. ولم يأبه لانطفاء سراج الربّة المقدس لنضوب زيته. وطلبت الكاهنة العظمى جزءً واحداً من أثني عشر جزء من مديمنوس قمح، فأرسل اليها بدل ذلك مقداراً من الفلفل مساوياً لما طلبته. أما الشيوخ والكهنة الذين أقبلوا عليه متوسلين، مناشدين عطفه على المدينة، ومفاوضة [سيللاً] في الصلح؛ فقد طردهم وفرقهم برشقات من النبال. وأخيراً، بعد الحاح كثير وضجّةٍ ونقاش، بعث بنديمين من ندماء مجلس شرابه الثلاثة للتفاوض مع [سيللا] فقدما اليه وتبين ان الموفدين لا يحملان عروضاً جدية تؤدي الى تسويةٍ، وانما أخذا يلقيان خطباً في تقريظ [ثسيوس] و[يومولپوس Eumolpus]، والاشادة بغنائم الحرب المادية فقال لهما:

- خير لكما يا صاحبي أن تختما حديثكما هذا وتنصرفا. فالرومان لم يرسلوني الى آثينا لأتلقى دروساً، بل لأرغم العصاة على الطاعة.

وفي أثناء ذلك رويت [لسيللاً] محاورة بين بعض الكهول في الكيراميكوس، فقد سُمعوا يَلومون الطاغية لإهماله في تحصين الممرات والمداخل المجاورة لـ[هبتاخلتوم Heptachalcum] وتعزيزها بالقوات. لأنه الموضع الوحيد الذي يمكن النفوذ منه الى المدينة بسهولة. فأصاخ [سيللا] سمعه للنبأ وخرج بنفسه لاستطلاع الموقع ليلاً وتأكد من سهولة اقتحامه فباشر بالحركة فوراً. وينوه [سيللا] في مذكراته بأن [ماركوس تايّوس Marcus Teius] كان أولّ

من اعتلى السور فاعترضه أحد المدافعين فأهوى على خوذته بضربة سيف صادقة فانكسر السيف. فلم ينثن عنه ولم يتزحزح عن مكانه بل صمد وامسك بعدوه فتلاحما. وتمّ الاستيلاء على المدينة من هذا الجزء على وجه التحقيق وفق التواتر الذي اجمع عليه الأثينيون الأقدمون. وبعد أن اكملوا ثغر السور وسوّوه بالأرض ما بين الباب المقدس والپيرياك Pirac دخل سيللاً منها الى المدينة في حوالي منتصف الليل على صوت الأبواق والانفار المرعد وبهتافات النصر المنطلقة من أفواه جيش أنطلق من عقاله لينهب ويذبح ويصول في الشوارع والطرقات وسيوفهم بايديهم مشهرة. ولم يعرفوا حَدّاً في فتكهم بالناس، وظلّ عدد القتلى الى يومنا هذا موضع تخمين وحدس. وقدّر بمساحة الأرض التي أغرقتها الدماء فحسب. فإن تركنا جانباً حوادث القتل التي وقعت في كل أحياء المدينة وركزنا تقديراتنا على منطقة الساحة العمومية فان ما نقله لنا معظم الكتاب يؤكد أن الدم المسفوك في الساحة أخذ يجري ليغطي [الكيراميكوس] وعبر الباب المزدوج حتى بلغ مسيله الضاحية القريبة وكان عدد من قتل نفسه بيده لا يقل عما قتله العدوّ. لقد كره هؤلاء الحياة بعد أن تأكدواأن نهاية بلادهم محتومة ولات حين مناص. كانوا من أفضل أهل المدينة وأشدهم تعلقاً ببلادهم. اشاع يأسهم من بقائها خوفاً فيهم من الحياة التي لا أمل لها في رحمةٍ أو انسانية من [سيللاً] واستمرت المذابح والقتول في المدينة هكذا، حتى تدخلّ [ميدياس Midias] و[كالليفون Calliphon] المبعدان الأثينيان. بان القيا بنفسيهما تحت قدمي القائد الظافر متوسلين من جهةٍ، وتوسط عدد من اعضاء مجلس الشيوخ التحقوا بالمعسكر - من جهة أخرى. فاستجاب [سيللاً] لرجاء الجهتين وأوقف المذابح بعد أن شبع وارتوى وأخذ بثأره كاملاً. وقال منّوها تنويهاً كريماً بالآثينيين الأولين:

- ها اني اصفح عن العدد الكبير لأجل القليل، وأغفر للأحياء، من أجل الموتى.

إحتل [سيللاً] آثينا في اليوم الأول من شهر آذار حسبما أثبت في مذكراته وهذا يوافق ظهور القمر الجديد لشهر [آنثستريون Anthesterion]. وهو اليوم الذي أتخذه الآثينيون للقيام بكلّ المراسيم والواجبات الخاصة باحياء ذكرى الخراب والدمار الذي أحدثه الطوفان العظيم لوقوعه في ذلك اليوم بالذات كما هو معلوم.

على أثر الاستيلاء على المدينة فرّ الطاغية الى القلعة وامتنع فيها. فحاصره [كيوريو Cu-rio] وظلّ صامداً مدة طويلة الى أن نضبت المياه فيها فاستسلم للعدو. ولم تتأخر الارادة الأهلية عن أظهار الدليل على مشيئتها فيما حصل، ففي الساعة واليوم الذي اقتيد [كيوريو] الطاغية الأسير هابطاً من العلقة تجمعت الغيوم في السماء الصافية وهطل المطر

مدراراً فملأ القلعة ماءً ولم يطل الزمن [بيريوس] فقد سقطت هي الأخرى واشعل [سيللا] النار في معظم اجزائها، ومما التهمته النيران وأتت عليه «مستودع الذخيرة» المعروف باسم [فيلو] وكان بناءً فخماً مثيراً للأعجاب.

وفي أثناء ذلك انحدر [تاكسيلس Taxiles] أحد قواد [ميثريدات] من ثراقيا ومقدونيا بجيش جرار يبلغ تعداده مآئة ألف من المشاة وعشرة آلاف من الخيالة وتسعين عربة حربية ذات عجلات مسلّحة بالأسنّة، وكانت خطته الانضمام الى قوات [ارخيلاوس] المرابط باسطوله على الساحل بالقرب من [مونيخيا Munychia]. وكان هذا متردداً بين النزول الى البرّ، وبين الامساك والاشتباك بالرومان، فهو يحبذ أن يمدّ في أجل الحرب ويتحاشى المعارك قدر امكانه معتمداً على خطة تهدف الى قطع امدادات العدو 'رزاقه. وكان [سيللا] أكثر ادراكاً وتحوطا للموقف الخطير الذي يعانيه. فتحرك الى [بويوسيا] تاركاً المنطقة القفراء التي كان معسكراً فيها لعجزها عن سدّ حاجة الجيش من الارزاق حتى في وقت السلم.

وإعتقد بعضهم أنه أخطأ الحساب بتركه [آتيكا] وهي منطقة جبلية وعرة لا تصلح لحركة الخيالة، ودخوله اراضي [بويوسيا] السهلة وحقولها المنبسطة، وهو العارف جيداً بأن قوة البرابرة هي في صنفي الخيالة والآليات. والحقيقة هي أنه كان مرغماً على مغامرة بمعركة، خوف المجاعة وانقطاع المؤون عنه كما أسلفنا. زد على هذا أنه كان في أشدّ القلق على مصير [هورتنسيوس Hortensius] وهو ضابط جريء كفء، كان قد خرج من [ثساليا] على رأس قوة عسكرية للانضمام اليه، وأخذ البرابرة يترصدونه عند المضايق وهذا هو السبب الآخر الذي حمل [سيللا] على التحول بقواته الى [بويوسيا]. في أثناء ذلك كان يستهدي طريقه بدليل من ابناء قومنا يدعى [كافيس Caphis] قاده من سبيل لا يعرفه البرابرة قريب من [پارناسوس Parnassus] فيما يلي [طيثورا Tithora] مباشرة. ولم تكن وقتذاك مثلما هي الآن مدينة كبيرة وانما مجرد حصن يقوم على نشز من الأرض وتحف به منحدرات حادة جداً، واليها انتقل الفوكيون بمالهم ونشبهم هرباً من جحافل [احشويرش] الغازية في زمن غابر فسلموا منه.

عسكر [هورتنيسيوس] هنا وصدّ هجمات العدوّ الليلية عليه، وتسلّل تحت جنح الظلام من ممرات وعرة حتى بلغ [باطرونس Patronis] وانضم الى قوات [سيللاً] التي خفت لملاقاته وبعد اتحاد القوتين استقر في مرتفعات خصبة تتوسط سهل [ايلاتيا Elatea] تسمى [فيلوبيوتوس Philoboeotus] يُغطيها الشجر الوراف الظلّ وتسقيها المياة المتحدرة الى الجوانب والسفوح. وسيللاً يشيد بهذا الموقع، ويبدي أعجاباً شديداً بميزاته - فيما دونه.

كانت قوة الرومـان في مواقـعهم هذه مثار أحتقار العدوّ لقلة عـددها. فهي تتـألف من ألفٍ وخمسـمائة من الخيالة، وأقل من خمسة عشر ألفاً من الرّجالة. ولذلك نجح قادة قـوات البرابرة بتحويل [ارخيـلاوس] عن رأيه في التربص والانتظار ونشروا جيوشهم فغطت السـهل بخيولها وعرباتها، ودروعها ودرقاتها ومزقت الفضاء جلبة الاقوام العديدة المصطفة للمعركة وصياحها الداوي ولم تكن ابهـة كسـواتهم الفـاخرة ونفـاسـتهـا بأقل ابتعـاثاً للرعـب فـدروعـهم الصـقيلة اللامعة المكفته تكفيتاً بديعاً بالذهب والفضة والآلوان الزاهية التي تعرضها معاطفهم الميدية والصقلية، ممتزجة بالنحاس، والفولاذ اللامع تؤلف مشهداً مريعاً ملتهباً كالنار المتحركة عندما تميل صفـوفـهم وتتـنقل في مـواقـعـهم مما جعل الرومـان ينكمـشـون فـي اسـتـحكامـاتهم. وعـجز [سـيللاً] عن تبـديد خـوفـهم بأيّ وسـيلة أو منطق. فـأضـطر الـى القـعود وعـدم الحركـة لأنه كره ارغامهم على القـتال ضدّ رغبتهم، وصعب عليه أن يغدو مـوضع اهانة البرابرة به واستخفافهم بقـوته جعلتـهم يـطرحـون جـانب الحـذر ويميلون الى الفـوضى وكـانوا بالأصل قليـلي الاهتـمـام بالضـبط العـسكري والخضوع للأوامر بسـبب كـثـرة القـوّاد فـيـهم. ولـم يلازم المعـسكر منهم الاّ قليل وغادره القسـم الأكبر جماعـات وزرافات للقيام بغارات سلبٍ ونهب في الانحاء المجاورة، كـانت تقـتـضي منهم الغـيـاب أيامـاً عـن المعـسكر وذكـر أنهم دكـواً مـدينة پانوپه [Panope] ونهبوا [ليباديا Labadea] وسلبوا «مهبط الوحي» هناك دون أمر من قادتهم.

وهاجت كـوامن غـضـب [سيللا] واحتـدّ وهو يرى المدن المجاورة تصبح خراباً وتدك دكـاً. ولم يسـعه ابقـاء الجنود سـاكنين حيث هم فأخرجهم من المعسـكر وأمرهم بتـحـويل نهر [كـفيسوس Cephisus] من مـجراه القـديم، بحـفر ترع، ولم يسـتـثن من العـمل أحداً، وأشـتد فـي معـاقـبة المقصرين مقدراً أن يضيقوا بهذا العـمل ذرعاً وتنمو في أنفسـهم الرغبة في القتـال والتـعرض للخطر تعـوضـاً عن مشـقـة العمل فكـان مصيـباً في تقديره. فـفي اليوم الثـالث من بدء العـمل بينمـا كـان سـيللا مـاراً... تقـاطر عليـه الجنود بين مـتـوسـل وراجٍ منه أن يقـودهم الى المعـركـة. فـأجابهم [سيللا] أن رغـبتـهم هذه في القـتال انما جاءت من ضـيـقـهم بالعـمل، لا من تحمسـهم للقـتـال. فـاذا كـانوا صـادقين في رغبـتـهم ومسـتـعـدين عـسكرياً فـعليـهم أن يتقلدوا سـلاحـهم ويصلوا الى هناك، وأشـار بيـده الى الحـصن البـاراپوتامي Parapotanine القـديم الذي باتت مدينته المجاورة بلقعاً خراباً ولم يبق الا التل الصخري وهو مستوعرٌ صعب المرتقى من أي جهة فيه يفصله عن جبل [هديليوم Hedylium] مجرى نـهر [آسوس Assus] الذي يجرى بينهما ليصب في نهـر [كـيـفـيسـوس] عند قـاعدة التـل، بتيـار سريع صـاخبٍ مما يجعل المرتفع منيعـاً للغاية يشق احتلاله على الجنود. وكان [سـيللا] قد لحظ أن فرقـة «التروس النحاسية» العدوّة

تسعى في طريقها لأحتلال ذلك الموقع فأراد ان يسبقها اليه ونجح في ذلك بعد بذله الجهود العظيمة مع جنوده. ولما أبعد ارخيلاوس عن الموقع تحول بقواته الى [خيرونيا]. وأخذ الخيرونيون الذين كانوا يحملون السلاح مع الرومان - يرجون [سيللا] في المعسكر أن لا يتخلّى عن مدينتهم فأرسل التريبيون [غابينيوس Gabinius] على رأس فرقة رومانية واحدة ثم اشفعها بالمقاتلين الخيرونيين الذين حاولوا عبثاً الوصول الى المدينة قبل [غابينيوس]. فقد كان هذا متحمساً لنجدة المدينة، سريعاً في حركته بصورة بزّ فيها طالبي النجدة انفسهم. على أن [جوبا] يذكر أن [اريشيوس Ericius] هو الذي قاد الحملة الى خيرونيا، لا [غابينيوس]. وهكذا تمّ انقاذ المدينة في آخر لحظة.

وورد من [ليباديا]، وكهف [تروفونيوس] اشاعات ونبوءات طيبة عن النصر. وكان سكان تلك النواحي أدرى من الرومان بتفاصيلها وأكثر بثاً لها. على ان [سيللا] يؤكد في الكتاب العاشر من مذكراته أن [كوينتوس تيتيوس] وهو رجل ذو مكانة عند الرومان يزاول التجارة في بلاد اليونان، جاء اليه بعد ربح معركة [خيرونيا] وانهى اليه أن النبوءة الصادرة من [تروفونيوس] تشير الى قتال ونصر ثانٍ في الموضع نفسه بعد وقت قصير. وتلاه جندي يُدعى [سالفينيوس Salvinius] بقرار من الربّ حول مستقبل الأمور في ايطاليا. وأتفق كلا الرجلين على رؤيتهما من هو شبيه [بجوبتر] الاولمبي مهابة وجلالاً وهيئةً.

وعبر [سيّللا] نهر [آسّوس] وسار بمحاذاة قدمة جبل [هديليوم] ثم عسكر بالقرب من [ارخيلاوس] الذي أختار لقواته موقعاً حصيناً ما بين جبليّ [اكونتيوم Acontium] و[هديليوم] قريباً مما يدعى اليوم [آسيا Assia]. وظلّ موضع معسكره يسمى [أرخيلاوس] الى يومنا هذا. واستراح سيللاً يوماً واحداً ثم خلّف [مورينا Murena] وراءه بفرقة واحدة ولوائين لمشاغلة العدوّ بصورة مستمرة وازعاجه بصورة مواصلةً. وقصد هو ضفاف [كيفيسوس] وضحّى للآلهة، وبعد ختام المراسيم الدينية استأنف سيره نحو [خيرونيا] لضم القوات هناك واستطلاع جبل [ثوريوم Thurium] الذي كان قد ركز العدوّ فيه جانباً من قواته. وهو مرتفع يتعالى بصورة هَرَم حتى ينتهي بقمّة نطلق عليها قمة [اورثوباغوس Orthpgus] وفي أسفله يجرى نهر [موريوس Morius] ويقوم معبد [ابوللو ثوريوس]. وهذه النسبة مشتقة من [ثورو Thuro] أمّ [خيرون Chæron] مؤسسة مدينة [خيرونيا] حسبما جاء في المدونات الغابرة. ويؤكد آخرون أن البقرة التي اعطاها [ابوللو] لـ[قدموس -Cad mus] لتكون بمثابة دليل له، قد ظهرت في هذه البقعة وان اسمها أطلق على الموضع لأن لفظة [ثور Thor] هي الكلمة الفينيقية للبقرة.

وبوصول [سيللا] الى [خيرونيا] خرج التريبيون الذي عين لحراسة المدينة بجيشه وهو شاكي السلاح لاستقباله بأكليل من الغار في يده. فقبله [سيللا] منه والتفت الى الجنود وحياهم وأخذ يحمّسهم على المعركة وتقدم كل من [هومولويخوس Homoloichus] و[أناكسيداموس Anaxidemus] الخيرونيان اليه وعرضا عليه أن يزيحا العدوّ المسيطر على جبل [ثوريوم] بقوةٍ صغيرة اذ كان يوجد مر لا يعرفه البرابرة يبتديء من [پطروخوس Petrochius] ويمتد على طول [الميوزيوم] منحدراً الى قمة الجبل مباشرةً. فيكون من السهل الانقضاض عليهم بصورة مفاجئة ورجمهم بالصخور من الأعلى او أرغامهم على النزول الى السهل. وبعد أن تأكد سيللا من اخلاصهم وشجاعتهم بشهادة [غابينيوس] سمح لهم بتنفيذ خطتهم في حين صف جيشه للمعركة وجعل الخيالة على الجناحين واستبقى لنفسه قيادة الميمنة. واناط قيادة المسيرة [بمورينا] ووضع في المؤخرة [غالبا] و[هورتنسيوس] مساعده فاتخذا المرتفعات موقعاً للألوية الاحتياطية. يرقبان منه حركات العدوّ، الذي لوحظ بأنه شكلّ جناحه من اعداد خيالة، ومشاة من صنف الاسلحة الخفيفة، ورجالة سريعي الحركة، ليكون اسرع الى تغييرّ مواضعه، وأقدر على التحول والإنتقال بخفةٍ. ومن هذا استنتج الرومان بأن العدو ينوي توسيع ميدان القتال للقيام بحركة التفاف حولهم وتطويقهم.

وفي تلك الأثناء كان [الخيرونيون] بقيادة [اريشيوس] الذي عينه [سيللاً] يلتفون خفية حول [ثوريوم]، ثم أظهروا أنفسهم للاعداء، فجأة فأحدثوا فيهم اضطراباً وفوضى اعقبتها هزيمة، وقع فيها عدد من القتلى أغلبهم فتك بهم اخوانهم. لأنهم لم يبقوا في مواضعهم بل اندفعوا يهبطون المنحدر الوعر الحاد فراحت رماحهم تخرق اجسامهم وأخذ بعضهم يدفع بعضاً الى الجرف والاطنان الصخرية وكان العدوّ يشد عليهم من فوق ويصيبهم بالجراح كلما انكشفوا له حتى بلغ عددِ القتلى حول [ثوريوم] ثلاثة آلافٍ. وكان [مورينا] مستعداً للقاء الفلول الهاربة منهم فمزقهّم وابادهم. وتمكن بعضهم من اختراق النطاق المضروب عليهم للوصول الى رفاقهم وقذفوا بأنفسهم الى صفوفهم فأختلط الحابل بالنابل ودبت الفوضى في الجيش مما أدّى الى اشاعة الخوف والاضطراب في معظم الوحدات وآل الى تردد وتأخير عند القادة. ولم يكن هذا بالقليل لسيللاً فقد أنتهز فرصة اختلال صفوفهم وأسرع حالاً للهجوم وقطع برمضة عين الأرض التي تفصل بين الجيشين فضيع عليهم فرصة استخدام عجلاتهم المسلحة التي تتطلب فسحة كبيرة من الأرض ليستفاد من فعاليتها وقوة تسليحها في حين تكون ضعيفة قليلة الفائدة في الميدان القصير مثل الصاروخ الذي لا يملك مجالاً كاملاً.

هذا ما حصل للبرابرة حتى الآن. فقد اندفعت أولى عرباتهم اندفاعاً بطيئاً ولم تحدث غير

اثر تافه فقابلها الرومان بالصياح والضحك وأخذوا يطلبون المزيد منها سخريةً كما أعتادوا في الملاعب. وفي تلك اللحظة اصطدم الجيشان. قام جانب من البرابرة من جهتهم بتثبيت رماحهم الطويلة افقياً وضموا تروسهم ضَماً محكماً بعضها الى بعض مستهدفين المحافظة على سلامة خطَ قتالهم لوقوع ذلك على عاتقهم. بينمت اندفع الرومان اليهم بعد أن استنفذوا مقذوفهم من الحراب القصّار، وسيوفهم مشهرة متحاشين رماح العدوّ للوصول اليه بأسرع ما يمكنهم وقد استفزتهم رؤية خمسة عشر ألف عبدٍ وضعهم العدوّ امام صفوفه، وكان قواد الملك قد أعلنوا عتقهم في المناسبة وجعلاهم في مستوى محاربيهم. وروي عن سنتورين (قائد مائة) روماني انه قال بهذا الصدد: إنه لم يعرف قبل هذا - عبيداً سُمح لهم أن يمارسوا أعمال السادة إلاّ في [ساترناليا Saturnalia]. ولم ينكسر هؤلاء أمام الفرق الرومانية المهاجمة بسبب عمق خطوط قتالهم ومتانتها، فضلاً عن شجاعتهم الفائقة وانما أخذوا يتراجعون ببطءٍ شديد، ولم ينقلب تراجعهم المنظم هزيمة إلاّ بعد أن صب الرومان على مؤخرتهم وابلاً من حرابهم الطائرة ومقذوفات من آلات هجومهم. فتفرقوا وتبعثروا.

وفيما كان [ارخيلاوس] ينشر ميمنته مسافة بعيدة مستهدفاً تطويق عدوّه، انحدر [هورتنسيوس] بألويته الاحتياطية الخمسة بشدة لمهاجمته. إلاّ ان ارخيلاوس باغته منقضاً عليه بألفين من الخيالة. ولشدّة هذه الهجمة وللتفوق العددي أرغم على الانسحاب الى الأراضي المرتفعة، ليجد نفسه وهو يبتعد شيئاً فشيئاً عن بقية جيش [سيللاً] وينقطع اتصاله بها. فزادت احتمالات تطويق قواته. لولا أن خفّ اليه [سيللا] تاركاً الجناح الأيمن الذي لم يدخل المعركة بعد. فادرك ارخيلاوس نية خصْمه من الغبار الذي تثيره خيالته، فما كان منه الاّ واستدار الى الجناح الأيمن الروماني الذي بقي بدون قائد بعد أن تركه [سيللا] مؤملاً أن يحقق شيئاً بمباغتته. وانقض [تاكسيليس] في تلك اللحظة على [موريتا] بفرقة «التروس النحاسية» فأنطلقت صيحتا قتالٍ من ميدانين في آن واحدٍ رددت التلال صداها. ووقف [سيللا] موتر الاعصاب حائراً لايدري الى ايّ جهة يتحرك. ثم انه قرر العودة الى جناحه الأيمن. وأرسل أربعة ألوية «Cohort» بقيادة [هورتنسيوس] لشدّ أزر قوات [مورينا] وأمر اللواء الخامس الباقي أن يتبعه وساقه مسرعاً الى الميمنة. وكان هذا الجناح رغم غياب [سيللاً] عنه قد صمد أمام [ارخيلاوس] ولم ينل فريق من الآخر مأرباً. حتى جاء [سيللاً] فغير الموقف بهجمة جريئة واحدة تمكن بها من زحزحة العدو الى الخلف وحمل عليهم حملة صادقة فرجحت كفته وأنقلب يطاردهم فأنفرط عقدهم وأختل نظامهم وأخذوا يفرون نحو النهر وجبل [اكونتيوم]. على أن الخطر الذي كان يتعرض له [مورينا] لم يغب عن بال [سيللا]

فأسرع اليه ليجده مستظهراً على قوات العدوّ فوحدا قواتهما لاستئناف مطاردة العدوّ.

في هذه الوقعة قتل كثيرٌ من البرابرة في ميدان المعركة نفسها وتم الفتك بعدد أكبر اثناء محاولتهم ولوج معسكرهم. ولم ينج من ذلك الجيش اللجب غير عشرة آلاف وصلوا [خلقيس] سالمين. ويكتب [سيللا] في مذكراته أن خسائر الرومان لم تتعد اربعة عشر مفقوداً عاد اثنان منهم في آخر المساء. وأمر سيللا بنقش اسماء [مارس وڤكتوري وڤينوس] على انصاب النصر التذكارية التي اقامها. يريد بذلك ان يوحي بأن مداخلة الحظّ في نصره لم يكن بأقل أثراً من الشجاعة وحسن القيادة. واقيم نصب تذكاري للمعركة في عين البقعة التي لقي ارخيلاوس أولّ هزيمة له. وهي في أرض سهلة قريبة من جدول ماء [مولوس Molus]. كذلك أقيم نصب تذكاريّ على قمة جبل [ثوريوم] حيث بوغت البرابرة واجبروا على النزول منهزمين. ونقش عليه باللغة اليونانية ما يفيد أن الفضل في مجد ذلك اليوم يعود الى [هومولويخوس] و[اناكسيداموس]. واحتفل [سيللا] بانتصاره هذا في مدينة [ثيبة] احتفالاً جماهيرياً في ملعب بني خصيصاً بهذه المناسبة بالقرب من بئر [اوديپ] نكاية بالثيبيين. وكان محكمو المباريات من اليونانيين الذين تم أختيارهم بحسب المدن.

وصب جام حقدُه على الثيبيين وهو حقد لم يكن يعرف حدوداً. فصادر نصف اراضيهم واوقفها على معابد [جوپتر] و[اپوللو]. وأمر أن يُسدّد من غلاّتها كل الاموال التي اغتصبها من أوقات هذين الربين.

وأنهي الى [سيللا] أن [فلاكوس] وهو من حزب معارضٍ له قد انتخب قنصلاً، وانه الآن يمخر عباب البحر الآيوني على رأس جيش زعم انه سيحارب به [ميثريدات] والحقيقة انه كان يقصده به. فعجلّ [سيللا] بالسير الى [ثساليا] لمقابلته. الاّ أن انباءً وصلته من كل الجهات تجمع على أن البلاد التي خلفها وراءه قد وقعت فريسة في يد جيش ملكيّ لا يقل عدداً وقوةً عن سابقه فأحالها خراباً ودمرها تدميراً. وخلاصة الأمر أن [دوريلاوس Dorylaus] وصل [خلقيس] باسطول ضخم يحمل على ظهره ثمانين ألفاً من خيرة جنود [ميثريدات] وأحسنهم نظاماً وتدريباً نزل بهم البر فوراً وغزا بهم [بويوسيا] مؤملاً باحتلال هذه البلاد ان يستفزّ [سيللا] ويجره الى معركة، غير ملق بالا الى نصح [ارخيلاوس] ففي رأيه أن الخيانة وحدها هي التي أدت الى خسارة الحرب الأخيرة، وليس من المعقول أن تباد هذه الألوف الولفة من المحاربين عن بكرة ابيها دون خيانة. على أن [سيللا] عاجله بالرد المفحم الواضح بقوله أن [ارخيلاوس] هو من الرجال الفطنين الأذكياء. وهو يعرف الشجاعة الرومانية معرفة خبير. فكان اولّ من ارتاى خطل فكرة تحكيم السيف في هذه الحرب بعد أن أشتبك مع سيللاً عدة

مرات بالقرب من [تيلفوسيوم Telphossium] وفضل اللجوء الى خطة الإنهاك واطالة فترة الحرب واضاعة الوقت وانفاق المال.

وعلى أية حالٍ كانت طبيعة الأرض المجاورة [لاورخومينوس] حيث يعسكر الجيشان مما يشجع [ارخيلاوس] على القتال بعض الشيء لأن الميدان يصلح جداً لجيش متفوق على غريمه في صنف الخيالة. وامتاز هذا السهل بالذات دون سائر بطاح [بويوسيا] المشهورة بجمالها واستوائها، بانه يمتد من مدينة [اورخومينوس] أمتداداً لا انكسار فيه، كراحة اليد خالياً من النبت والشجر حتى ينتهي بالمستنقعات التي تضيع فيها مياه [ميلاس] وهو النهر الصادر من انحاء قريبة لاورخومينوس. والوحيد بين الأنهار اليونانية الصالح للملاحة من منبعه لعمق مياهه. وهو يغيض كالنيل Nile في الانقلاب الصيفي وتنمو على ضفافه انبتة كالتي تنبت على ضفاف النيل الاّ أنها تكون قصيرة الساق غير مثمرة. ولا يجرى مسافة طويلة قبل أن يختفي مجراه الرئيس بين فيقعان المستنقعات الكثيفة الأشجار. على أن فرعاً صغيراً منه يصبّ في نهر [كيفيسوس] بالقرب من الموضع الذي يقال أن البحيرة هناك تنتج أفضل القصب لصنع الرنايات.

وعسكر الجيشان أحدهما مقابل الآخر وبقي [ارخيلاوس] عاطلاً ساكناً، بينما أشغل [سيللاّ] جنوده بحفر المواضع والاستحكامات من مجنبتيه حتى اذا وفّق في دفع العدوّ من الميدان المنبسط الصلب فربما استطاع ارغامهم على الاتجاه نحو المستنقعات. امّا العدوّ فلم يسعه الانتظار أكثر مما انتظر وخرج باندفاع عظيم وجماعات كبيرة فور تلقيه اوامر قوّاده بذلك فشتتوا شمل الرومانيين الذين كانوا يشتغلون في الاستحكامات. وهرب بنظام مختل معظم الخفراء الذين خصصوا لحماية العمل وعندها ترجل سيللا عن حصانه بقفزةٍ وأختطف لواءً واندفع يرفعه بيده الى وسط الفلول الهاربة. ويصيح بملء فيه:

- سيكون لي الشرف أن أسقط هنا أيها الرومان. واما أنتم فعندما يسألونكم اين خنتم جنرالكم وغدرتم به فتذكروا وقولوا أنه [اورخومينوس]!

فعاد رجاله ينتظمون صفوفاً وقد أثرت فيهم أقواله وأقبل لواءان لنجدته من الجناح الأيمن فحمل على العدو بهم وغير وجه القتال. ثم أنسحب مسافة قصيرة لاراحة رجاله ثم عاد يستأنف بناء الاستحكامات لعزل معسكر العدوّ وقطع مسالكه، وكرواً ثانية بنظام أحسن من سابقه وفي هذه المعركة خرّ ابن زوج [ارخيلاوس] المدعو [ديوجينس] صريعاً هو يقاتل في الميمنة بعد أن أبلى خير بلاءٍ وانهى حياته نهاية شريفة. وفي النهاية دفعوا مرغمين الى استحكاماتهم وقضوا ليلة ليلاء بين قتلاهم وجرحاهم. وفي اليوم التالي أخرج [سيللاّ] رجاله

الى مواقع العمل، فتمكنوا من اكمال خطوط الاستحكام، ولما برز العدوّ اليهم باعداد كبيرة للاشتباك معهم عاجله [سيللا] بالهجوم والحق به هزيمة نكراء ولم يجرء جندي منهم على الصمود وأستولى على معسكرهم عنوةً. وكان القتلى كثيرين حتى اصطبغت المستنعقات بالدم وأمتلأت البحيرة بالجثث. ولا يزال الناس الى يومنا هذا بعد مرور مائتي عام على المعركة يعثرون على خوذٍ بربرية وقسيّ وقطع حديدية ودروع وسيوف مدفونة عميقاً في الطين. والى هنا نكتفي بهذا القدر من الحديث عن وقعتي [خيرونيا] و[اورخومينوس].

وفي روما كان افاضل القوم وسراة الرومان يعانون الأمرين من ظلم [سينّا] و[كاربو Car-bo] وقسوتهما، حتى اضطر كثير منهم الى ترك المدينة والاحتماء بمعسكر [سيللا] تخلصاً من الطغيان وابقاءً على أرواحهم. حتى اجتمع لديه منهم ما هو اشبه شيء بمجلس الشيوخ وغادرت زوجه [ميتللا] مع أولاده المدينة خلسة وبعثت اليه بمن يخبره بأن خصومه قد احرقوا منزليه في الريف والمدينة وطلبت منه أن يفعل شيئاً لمساعدة الوطن فتناهبته الحيرة ولم يدر اي سبيل يسلك فما سمع عن الفظائع التي ترتكب في الوطن لم يبق من صبره بقية. وتركه هذا العمل الجبّار، الحرب مع [ميثريدات] دون الوصول الى نتيجة حاسمة أمر من الصعوبة بمكان. ولم تطل به الحيرة فقد أتاه [ارخيلاوس] التاجر الديلوسيّ بمخرجٍ وأملٍ في الوصول الى تسوية سلمية مع العدوّ. جاء هذا موفداً من [ارخيلاوس] قائد الملك يحمل منه تعليمات سريّة للتفاوض فرحب [سيللا] بالفكرة ترحيباً حاراً. ورغب في عقد اجتماع عاجل مع القائد [ارخيلاوس] شخصياً. فتم له ما اراد وجرى الاجتماع على الساحل بالقرب من [دليوم] حيث يقوم معبد ابوللو. وافتتح [ارخيلاوس] باب الحديث وبدأ يدعو [سيللا] الى التخلي عن مطالبته بآسيا وبونطس وان يقلع بسفنه ليخوض حربه في روما، مزوداً من الملك بالمال والسفن وكلما يحتاج اليه. فقاطعه [سيللا] طالباً منه أن يقصد من حرصه على مصلحة [ميثريدات] وان يطلب العرش لنفسه ويغدو حليفاً للرومان بتسليم الاسطول. فأظهر [ارخيلاوس] استنكاره لهذه الخيانة وترفعه عنها. فواصل [سيللاً] الكلام قائلاً:

- انت يا ارخيلاوس الكيدوكي موطناً، والعبد للملك بربريّ. إن يسركَ هذا النعت يا صديقي، الا تشعر بجريمتك فيما يخل بمقاصد الشرف لموقفك هذا ازاء العروض الكبيرة ومع هذا تجرأ عليّ انا سيللا الجنرال الروماني نتكلمني في موضوع الخيانة؟ كأنك لست عين [ارخيلاوس] الذي ولى الادبار في [خيرونيا] بشرذمة هي كل ما تبقى من مائة وعشرين ألف رجل، ولست ذلك الذي لجأ الى مستنقعات [اورخونيوس] لمدة يومين وخلّف مسالك [بويوسيا] مسدودة بأكداس الجثث.

وعلى أثر ذلك عدّل [ارخيلاوس] من لهجته، وأخذ يرجو منه التخليّ عن فكرة القتال، وعقد صلح مع [ميثريدات]. فوافق سيللاً وتمّ الاتفاق على الشروط. وهي تنصّ على أن يخرج [ميثريدات] عن حيازة آسيا و[پافلاغونيا Paphlagonia]، ويعيد [بيثينيا] الى ملكها [نيقوديمس]، و[كپدوكيا] الى ملكها [اريو بارزان]، وان يدفع للرومان ألفي تالنت، مع تسليمهم سبعين سفينة حربية بكلّ مهماتها. وفي مقابل ذلك يتعهد [سيللاً] بأن يحترم ويؤيد سيادته على سائر ممالكه وان ينزله منزلة الحليف الروماني. وبناء على هذه الشروط ساق سيللاً جيشه الى [الهللسپونت] عبر [ثساليا] و[مقدونيا] يصحبه [ارخيلاوس]، فاظهرا له غاية الاكرام والرعاية حتى انه أوقف مسيرة الجيش عند ابتلائه بمرض خطير في [لاريسّا] وتوفر الى العناية به مثل عنايته بقائدٍ من قواده او زميل له في الآمرية. وهذا ما أطلق الألسنة المرتابة تتحدث عن وجود دسيسة ولعبة قذرة في معركة [خيرونيا] ومما عزّز الشكّ ما لوحظ أيضاً أن [سيللاً] أطلق سراح كل أصحاب [ميثريدات] الذين وقعوا في يده أسرى حرب، إلاّ [ارسطيون] الطاغية الذي كان يوجد بينه وبين [ارخيلاوس] عداء، تمّ قتله بالسمّ في السجن؛ كما أنه منح هذا القائد الكبدوكي عشرة آلاف فدان من اراضي [يوبيا] وخلع عليه أيضاً لقب «صديق الرومان وحليفهم». وسيللاً يردّ على كل هذه التهّم ويبررها في مذكراته.

ووصل سفراء [ميثريدات] وأعلنوا قبولهم بالشروط، خلا تمسكهم بفلاغونيا. وامّا عن تسليم السفن فقد قالوا أنهم لم يحاطوا علماً بهذا الاتفاق فصاح سيللا غاضباً:

- «ماذا تقولون؟ ايتمسك [ميثريدات] بفلاغونيا؟ وأما عن السفن أفتراه ينكر الاتفاق؟ كنت أظنه سيلقي بنفسه على قدميّ شاكراً ابقائي على ذراعه اليمنى ليس إلاّ. تلك الذراع التي ارسلت عدداً كبيراً من الرومان الى حتوفهم.

ولكن صبراً فلن يلبث أن يتكلم بلهجة أخرى عندما أندفع الى قلب آسيا. وعندئذ فليجلس مرتاحاً في [برغاموس] ويدير دفة حرب لا يراها قطّ.»

وقف السفراء صامتين وقد شاعت الرهبة في نفوسهم. إلاّ ان [ارخيلاوس] حاول بالرجاء والتوسل تخفيف غضبه وأمسك بيده اليمنى وأخذ يبكي. وفي وسط الاضطراب تمكن من الحصول على أذن بالذهاب الى [ميثريدات] شخصياً. فإما يتمكن من التوسط في عقد سلم يرضى عنه [سيللاً]، وإما يقتل نفسه. وبعد أن رحل قام سيللا بشنّ غارة في [ميديكا Medica] وعاد منها بعد أن طرد سكانها وشردهم في مساحات واسعة. وفي مقدونيا استقبل [ارخيلاوس] بالقرب من [فيليپيّ Philippi] فاعلمه هذا ان كلّ شيء تمّ وفق المرام

وأنّ [ميثريدات] يرغب رغبةً مخلصة في مقابلته. والسبب الرئيس للمقابلة هو [فيمبريا Fimbria] الذي كان يتقدم من [ميثريدات] بجيشه بعد أن قهر قواده وفتك بزميله القنصل [فلاكوس] الذي هو من الحزب المعارض. فآثر الملك البربري خوفاً منه، أن ينشد صداقة [سيللا].

وجرت المقابلة في [دردانوس Dardanus]، الواقعة في [طرواد Troad] وكان في معية [ميثريدات] مائتا سفينة ومن القوات البرية عشرون ألف محاربٍ راجل وستة آلاف فارس ورتل كبير من العربات المسلحة. امّا سيللاً فقد جاء للاجتماع باربعة الوية فقط من المشاة ومائتي فارس. وعندما دنا [ميثريدات] ومديده عاجله [سيللا] قائلاً:

هل هو راغب في انهاء الحرب وفق الشروط التي سلّم بها ارخيلاوس أم غير راغب؟ ولما وجد الملك صامتاً لا يردّ، استطرد يقول

– ما خبرك؟ الا ينبغي على الطالب أن يكون البادىء بالكلام؟

وألا يكون من حق المنتصر أن يسمع صامتاً؟

ولما شرع [ميثريدات] بعرض وجهة نظره، راح يلقي بتعبة الحرب على الآلهة من جهة، ويلوم الرومان عنها من جهة أخرى فأعترضه [سيللاً] قائلاً: منذ زمن بعيد نُقل له أن [ميثريدات] متحدث قويّ العارضة وها هو الآن يرى بأم عينه حقيقة ذلك، ويتأكد بنفسه بأنه لا يعدم الحجج الخلابة والمزاعم الظاهرة المنطق في دفاعه عن أبعد القضايا عن العدالة واشدّها بطلاناً، ثم استطرد يندد به تنديداً قاسياً ويقدح فيه قدحاً عنيفاً مذكراً اياه بما أقدم عليه من الاعتداءات وهتكه من الحرمات.

واعاد السؤال عليه مرة أخرى قال: هل هو راغب في المصادقة على المعاهدة التي عقدها [ارخيلاوس] نيابة عنه، أم غير راغب ولما ردّ [ميثريدات] بالايجاب تقدم منه [سيللاً] واحتضنه وعانقه وبعد قليل أقبل الملكان [نيقوديمس] و[آريو بارزان] وتصافيا مع [ميثريدات] الذي أقلع الى [پونطوس] بعد أن سلّم لسيللاً مائتي سفينة، وخمسمائة من رماة القسيّ الثقيلة (القتّلة).

ادرك [سيللاً] أن الجنود غير راضين عن الصلح. فقد بدأ لهم من الفظاعة المتناهية ان يشهدوا الملك الذي كان ألدّ عدوّ لهم، ومن تسبب في هلاك مائة وخمسين ألف روماني في آسيا خلال يوم واحدٍ، يبحر الآن بأمان حاملاً أموال آسيا وغنائمها التي سلبها منها واخضعها تحت للجزية اربع سنوات. فزعم سيللاً لهم في معرض الدفاع بأنه لم يكن يستطيع التغلّب على

[فيمبريا] الذي كان معسكراً بجيشه في [ثياتيرا Thyatira] فادركه وحزب خيامه حواليها في موضع غير بعيد عنه وراح يحصن معسكره بحفر خندق. فخرج جنود [فيمبريا] لتحية رجال [سيللا] بثيابهم العادية عزلاً، وطفقوا يساعدونهم في عملهم. ولما شهد [فيمبريا] هذا التغيير وفهم أن [سيللاّ] لا يقبل اية مصالحة. انقلب الى المعسكر وتجع نفسه.

وفرض [سيللاّ] على آسيا ضريبة عامة قدرها عشرون ألف تالنت وجرد الأسر مما تملك كل واحدة على انفراد، بأسلوب تحكمي مستهتر، وبسكن الجنود الطويل عند العائلات. فقد اصدر أمراً يقضي بأن يدفع كل ربّ اسرة مستضيف، مبلغ اربعة [تترا دراخمات] يومياً لضيفه الجنديّ وان يقوم باطعامه واطعام من يدعوه الى منزله من أصدقائه للعشاء مهما بلغ عددهم. وان «السنتوريون» يجب ان يدفع له خمسين دراخماً يومياً مع بذلة بيت كاملة وبذلة أخرى للخروج.

أنطلق من [إفسّس] بكلّ اسطوله الى [پيريوس] فوصلها في اليوم الثالث وهنا تقبل الأسرار الآلهية. وضبط مكتبة [ابيلليكون Apellicon] التاياني Teian وهي تضّم معظم مؤلفات ارسطوطاليس وثيوفراستوس التي لم تر بعد طريقها الى التداول بين العموم. وعندما نقلت برّمتها الى روما قيل ان معظمها انتقل الى حيازة [تيرانيون Tyrannion] النحوي وأن [اندرونيكوس] الرودسي الذي أفلح بوسائله الخاصّة في استنساخ عدد كبير من أصولها جعلها في متناول يد الجميع، ورتّب لها القوائم والكاتالوكات الشائعة الآن ويبدو أنّ المشائين Peripateties الأقدمين كانوا في الواقع اناساً كثيري العلم والإطلاع إلاّ أنهم لم يكونوا على معرفة واسعة او وقوف تام على كتابات [ارسطوطاليس وثيوفراستوس] لأن ثيوفراستوس أوصى بكتبه الى وريث [نيليوس Neleus] السبيي Scepsis، فوقعت بأيدي مهملة جاهلة لاتقدر قيمة العلم.

وفي اثناء اقامة [سيللاّ] في ربوع آثينا أصيبت قدماه بآلام شديدة ورثية تذهب بالحسّ، مما يدعو [سترابو Strabo] ببوادر النقرس غير الواضحة. فقام برحلة الى [ايدپسوس Aedep-sus] للانتفاع بينابيعها الحارة، محاولا في الوقت نفسه الابتعاد عن كل عوامل القلق وتناسيها ومنفقاً أوقاته مع الممثلين. وفيما كان يتمشى يوماً على ساحل البحر جاءه بعض الصيادين بسمكة نادرة فسرّ كثيراً بالهدية وعندما علم من سؤالهم بأنهم من أهالي [هالويي Halœce] قال:

– ماذا؟ اما يزال يوجد أحياءً من سكان [هالييء]؟

فبعد انتصاره في [اورخومينوس]، خربّ ثلاث مدن بويوسيّة في ضرام نار ملاحقته العدوّ الهارب. وهي [آنثيدون Anthedon] و[لارمنا Larymna] و[هاليي]. ولم يدر. الصيادون بم يجيبون فرقاً ورعباً، فهش لهم سيللاً وبشّ. وطلب منهم ان لا يخشوا شيئاً وان يذهبوا بسلام فالشفاعة التي جاؤوا بها اليه لم تكن بالقليلة. ويقول الهاليون أن هذا الحادث كان أول ما شجعهم على لم شملهم والعودة الى مدينتهم.

وأجتاز [سيللا] بجيشه [ثساليا] و[مقدونيا] الى ساحل البحر وتهيأ بألفٍ ومائتي سفينة للاقلاع من ديرّ اكيوم Dyrrhachium الى [برنديزيوم]، وعلى مسافة غير بعيدة من هناك تقع أپولونيا وبالقرب منها [نيفيوم Nyphæum] وهي بقعة من الأرض تكسرها الأشجار الخضر والمروج التي تطرزها عدة ينابيع نارية يخرج منها اللهب. والشائع بين الناس انه كان يوجد هنا [ساتير][٣] من تلك التي يصورها المصورون وينحتها النحاتون القي القبض عليه وهو نائم وجيء به الى [سيللاً] فسئل عن طريق عدد من المترجمين عما يكون وبعد معاناة الكثير معه أخرج بالأخير صوتاً غليظاً غير مفهوم صهيل الخيل وبُعار الجدي، فأمر [سيللاً] برفعه عنه وهو فزع متعوذ لدليل الشؤم هذا.

وفي ساعة الرحيل شاع القلق في نفس [سيللاً] لئلا ينفرط عقد الجيش وينحلّ ويتفرق جنوده فرادى بين المدن فور نزوله البرّ الايطالي، ولكنهم تحالفوا فيما بمحض اختيارهم على البقاء الى جانبه جبهة متراصة وأن لا يلحقوا ايّ ضررٍ بايطاليا بصدق رغبةٍ فيهم. ثم لما وجدوه يعاني ضائقة مالية قاموا بجمع تبرعات فيما بينهم من تلقاء أنفسهم على ما قيل، وأكتتب كل واحدٍ منهم بمبلغ من المال حسب طاقته، إلاّ أن [سيللا] لم يقبل تبرعاتهم، وراح يثني ثناء عاطراً على إخلاصهم ويرفع من معنوياتهم ويشجعهم. واستظهر بهم على خمسة عشر قائداً تصدوا له، وقادوا في حربه اربعمائة وخمسين لواءً. على ما ذكر هو نفسه. واسهم تدخل العناية الالهية الواضح في نجاحه الرائع بدور رئيس. اذ بينما كان يضحي قرب [تارنتوم] اولّ ما وطئت قدمه البر الايطالي، ظهر في كبد الضحية صورة تاج من الغار يتدلى منه شريطان. وقيل وصوله [كامپانيا] القريبة من جبل [هفيوس Hephæus] شوهد جديان رشيقان في رائعة النهار وهما يقتلان ويأتيان بكل ما يأتيه رجلان من حركات في ساحة القتال. وتبين انهما مجرد خيال ظلّ. ارتفع عن الأرض تدريجاً وتلاشى في الهواء مثل الاخيلة والصور الموهومة التي تظهر عادة في السحب وترّق وتستدق حتى تغيب تماماً عن

---

(٣) Satyr: آله الغابة، ذو هيئة بشرية وذيل واذني حصان. أو كما يصوره الرومان بأذني جدي وذيله وساقيه وقرنيه المنفردين [م. ت].

البصر. بعد هذه الرؤيا بزمن وجيز وفي موضع ظهورها بالضبط هاجمه [ماريوس الأصغر]، و[ونوربانوس Norbanus] القنصل بجيشين جرارين من دون اصدار أمرٍ بخوض المعركة، وقبل أن يتوفر على تنظيم رجاله بحسب فرقهم. ومع هذا فقد حقق الغلبة عليهم بصولة عنيفة عامة وشجاعة متناهية ولاحق [نوربانوس] حتى حصره ضمن اسوار [كاپوا Capua] بعد ان جندل سبعة آلاف من رجاله. والشائع إن أنتصاره هذا، كان السبب في بقاء الجنود وعدم تفرقهم في المدن، والسرّ في تعلقهم به واستهانتهم بعدوّهم رغم تفوقه عليهم تفوقاً لاحدُ له.

ويذكر أيضاً: انه لقي عبداً [لپونطيوس Pontius] اثناء وجوده في [سلڤيوم Dilvium] وهو في حالة انجذابٍ آلهي يتنبأ قائلاً أنه جاء اليه بسلطان النصر والسيف من [بللونا] ربّة الحرب. وان لم يستعجل فستلتهم النار بناية [الكاپتول]. وقد حصل هذا فعلاً في اليوم الذي عينه الرجل اي في السادس من شهر [كونتيليس] الذي يسمى [تموز - جولاي] في أيامنا هذه.

وفي هذه [فيدنتيا Fidentia] أيضاً بلغت ثقة [ماركوس لوكوللوس] [وهو أحد قواد سيللاً] بحماسة جنوده مبلغاً لم ير معه حرجاً من مواجهة خمسين لواءً من جيش العدو وهو لا يملك غير خمسة عشر. إلاّ أن أفتقار كثير من رجاله الى السلاح، أرغمه على تأخير هجومه. وفيما هو يفكر في وضعه هذا مُنتظراً، إذ بريح رخاء تهب نحو قطعاته من المروج القريبة، حاملة اليه مقداراً من الأزهار لتلقيها على رجاله فتهبط مستقرة على خوذهم وتروسهم باشكال منتظمة رائعة. فظهر جنوده في نظر خصومهم بمظهر المتوجين بأكاليل الزهر فزاد الأمر في حماستهم واندفاعهم وخاضوا المعركة وانتصروا واوقعوا بالعدوّ ثمانية آلاف قتيل وأستولوا على معسكرهم. ان [لوكوللوس] هذا، هو أخُ [اللوكوللوس] الذي حقق النصر الحاسم فيما بعد - على [ميثريدات و ديكران Tigranes].

تلفت [سيللا] فما وجد الأ جيوشاً عدوة تفوقه عدداً وعدة، وتتميز بالقوة والبأس. فرأى مخرجه الوحيد باستخدام الحيلة والدهاء. وبدأ بدعوة [سكيپيو] القنصل الآخر الى عقد معاهدة صلح. فقبل هذا اقتراحه مسروا. وأعقب ذلك عدة اجتماعات ومؤتمرات، كان [سيللاً] يقصد منها التأخير والاطالة بفتح ابواب حجج وتعلات جديدة، بينما انصرف خلالها الى إفساد رجال [سكيپيو] بجنوده أنفسهم ولم يكونوا يقلون عنه خبرة في كل فنون الاغواء. فراحوا يدخلون معسكرات العدوّ ويبادلونه الأحاديث. وبذلك كسبوا جانباً منه بالمال العاجل، وجانباً بالوعد الآجل، وآخرون بمعسول الكلام، وحسن الاقناع.

وهكذا فعندما أقترب [سيللاً] من معسكر [سكيپير] بألويته العشرين وطفق جنوده

يحيون جنود الآخر. بادر هؤلاء بردّ تحاياهم والخروج من معسكرهم للانضمام اليهم الى ان خلا معسكر [سكيپير] منهم تماماً وبقي هو وحده في [خيمته] ولا ثاني معه. بعد ان استخدم [سيللا] ألويته العشرين طعماً لاصطياد الألوية الأربعين وضمهم اليه مشى الى المعسكر الخالي بألويته الستين وأحتله.

ونقل عن [كاربو] قوله بهذه المناسبة: «علّي أت أتصدى للثعلب والأسد في صدر [سيللاً]. والثعلب هو أكثر ما يشغل بالي منه».

وبعد ردح من الزمن تحدّى [ماريوس الأصغر]، [سيللاً] لمعركة في [سغنا Signa]، وكان يقود خمسة وثمانين لواءً. لم يعرف شوق سيللا حداً في قبول هذا التحدي لتقرير مصير المعركة في ذلك اليوم بالذات. لأنه شاهد في الليلة السابقة له حلماً. رأى فيما يرى النائم [ماريوس الأب] (وكان قد مرّ على وفاته زمنٌ) ينصح ابنه بالحذر من خوض معركة في اليوم التالي لأنها ستكون القاضية عليه. ولهذا السبب كان [سيللاً] يستعجل القتال في ذلك اليوم، ويعث يستقدم [دولابللاً Dolabella] الذي كان معسكراً بقواته على بعض مسافة منه. ولكن الإرهاق أستولى على جنود هذا القائد لأنهم كانوا يسيرون ويقاتلون العدوّ الكامن لهم، الذي كان قد أغلق عليهم كل الطرق والمسالك بقواته. ومما زاد في الطين بلّة رداءة الطقس العاصف الماطر. وهو أكثر ما اضرّ بهم. وأقبل أمراء الوحدات وكبار الضباط على [سيللاً] ورجوا منه تأجيل القتال الى يوم آخر وعرضوا عليه منظر الجنود وهم مستقلون على الأرض من فرط الاعياد مسندين رؤوسهم الى تروسهم ليصيبوا بعض راحة فنزل عند رأيهم بكثير من التردد واصدر الأوامر بضرب الخيام. وما أن باشروا في اقامة المتاريس وتخطيط الخندق حتى شاهدوا [ماريوس] يندفع راكباً في طليعة رجاله يريد أغتنام فرصة اضطراب نظام وانفراط عقدهم، لتشتيت شملهم. وهنا حققت الآلهة حلم [سيللا]. فقد اعترت جنوده سورة من الغضب الشديد وتركوا اشغالهم وغرسوا رماحهم على حدود الخندق وانقضوا سيوفهم والتحموا مع العدوّ وهم يصيحون صيحات الحماسة والشجاعة فلم يقو العدوّ على الصمود وابدى مقاومة ضعيفة وفقد عدداً كبيراً من القتلى اثناء فراره. وهرب [ماريوس] الى [پرينست Præneste]. فوجد الأبواب موصدة فشد الى وسطه حبلاً والقى برأسه من أعلى السور، ورفع به. ويؤكد بعض الكتاب ومنهم [فينستيلاً Fenestella] ان [ماريوس] لم يكن يعرف شيئاً عن القتال فقد آوى الى ظل ليصب بعض الراحة بعد ارهاق اعتراه جراء قيامه بواجبه الشاق، عندما أعطيت اشارة القتال، وكان النوم في عينه لما بدأت هزيمة رجاله. وعلى رواية [سيللاً] أنه قتل من العدو عشرين ألفاً، وأخذ ثمانية آلاف أسير في حين لم تزد

خسارته عن ثلاثة وعشرين رجلاً. ولقي قوّاده [بومبي Pompey] و[كراسوس] و[ميتللوس] و[سرفيليوس] نجاحاً مماثلاً. فبخسارة قليلة أو بدونها فتكوا بعدد هائلٍ من العدوّ، حتى ان [كاربو] المروّج الأول للقضية اضطر الى ترك قيادة جيشه وهرب ليلاً ثم أقلع الى [ليبيا].

وبرز له في آخر مرحلة من هذا الصراع [تيليسنيوس Telesinus] السامنيّ Samnite مثل بطل قضت القرعة أن يوضع اسمه في آخر قائمة المبتارين مع البطل الفائز المرهق ولم يبق بينه وبين الإطاحة [بسيللاّ] وهَزْمه إلاّ قيد شعرة. وكاد يقضي عليه امام روما نفسها. فبمساعدة زميله في القيادة [لامبونينيوس Lamponinius] اللوقاني تمكن من تحشيد قوات كبيرة واسرع بها الى [برينيست] لفكّ الحصار عن [ماريوس] إلاّ أن [سيللا] كان قد سبقهما، وجَدّ [بومبي] في مؤخرتهما يريدان الانقضاض عليهما وهما محصوران من امام ومن خلف وكان [تيلينوس] عسكرياً قديراً وجندياً مقداماً. فظلّ يقظا ليلتها وزحف تحت ستار الظلام بكلّ جيشه نحو روما وبلغها والليل داجن فعسكر امامها على بعد عشرة فرلنغات من الباب الكولليني Colline. وقد انعشه نجاحه وافعمه أملاً تفوقه الستراتيجي على أشهر قادة العصر. وفي تباشيرِ الصبح فوجيء بهجمة قام بها شبان المدينة النبلاء فصرع عدداً كبيراً منهم، وبينهم [ابيوس كلوديوس] الذي عرف بسموّ خلقه وطيب محتدة. ومن السهل ان يتصور المرء حالة المدينة من الهرج والمرج، والفزع الذي انتاب النساء، خصوصاً فصرن يتراكض هنا وهناك ويصرخن حينما كان العدوّ قد اقتحم المدينة فعلاً. واستمر الاضطراب يعتمل في النفوس حتى شوهد [بالبوس Balbus] ممتطياً حصانه على على رأس سبعمائة من الخيالة بعث بهم [سيللا] وهم ينهبون الأرض نهباً ولايقفون الاّ لمسح العرق من اجساد حيواناتهم ثم يسرحونها ثانية ويستأنفون عدوهم. ولم ينتظروا. اذ ما وصلوا مواقع العدوّ حتى انقضوا عليه. وفي تلك الاثناء بدت طلائع جيش [سيللاّ] ودخل الميدان مصدراً امره لمن سبقه بالانسحاب فوراً للراحة والاستجمام. وانشأ ينظم جنوده صفوفاً للمعركة، إلاّ ان قائديه [دبلولابللا] و[طوركواطوس Torquatus] ألحا عليه بالتريث فترة قصيرة، وعدم المخاطرة بقوات متعبة منهوكة في المغامرة بآخر أمل. لأن العدوّ الذي يواجههم ليس [كاربو] ولا [ماريوس] بل هما من الأقوام التي تمرست في فنون القتال، وأضمرت حقداً خالداً للرومان. انهم السامنيون واللوقانيون الذين سيقاتلونهم هذه المرّة.

لم يعمل [سيللاّ] بنصيحتها وأمر أن ينفخ نفير الهجوم وكانت الساعة الرابعة عصراً عندما بدأت المعركة الطاحنة. أنيطت [بكراسوّس] قيادة الميمنة فحققت تفوقاً على العدوّ واستظهرت إلاّ ان الميسرة كانت في مأزق. فقد ضيق العدوّ عليها الخناق وصكها صكاً عنيفاً

فخفّ [سيللا] الى نجدتها على صهوة جواد ابيض متين الفصل سريع كالبرق عرفه به اثنان من الأعداء فأشرعا رمحيهما لرشقه وهو غافل عنهما إلاّ أن تابعه الذي كان خلفه وكز جواد وكزة قوية فوثب [بسيللاّ] وثبة خرجت به عن منطقة الهدف في الوقت الذي طار الرمحان نحوه فحادا عن قصدهما ومرقا من ذيل حصانه وانغرزا في الأرض ويوجد في هذه المناسبة قصة تروي عن [سيللاّ] أنه كان يحمل تعويذة من [دلفي] وهي طغراء ذهبة لصورة ابوللو لا تفارقه في ساحة القتال مطلقاً ويحفظها معلقة في صدره. فبعد أن كتبت له النجاة من هذه الغائلة أخرج التعويذة ولثمها وقال يناجي صاحبها:

- سألتك يا [بوللو بيثيوس] الذي أخذت بيد [كورينليوس سيللا] الى أعلى مراقي المجد والرفعة في معارك كثيرة؛ أيرضيك الآن أن تتخلى عنه؟ ايرضيك أن تأتي به الى ابواب مدينته لإهلاكه هو وابناء وطنه وتقضي فيه قضاءً يحفّ به الخزي والعار؟

هذا ما ناجى به [سيللاّ] ربّه على ما قيل. ثم انثنى الى جنوده يهدد فئة ويمسك بتلابيب أخرى. الى ان اضطر الى ولوج المعسكر اثناء التقهقر العام بعد ان مزقّ العدوّ مسيرة شرّ ممزق، وفقد كثيراً من اصحابه واصدقائه، كذلك هلك عدد لا يستهان به من الأهالي الذين خرجوا لمتابعة القتال، ماتوا وطئاً بالأقدام. وادرك اليأس التام سكان المدينة وايقنوا بضياع كل شيء. واعتقدوا بأن الحصار قد رفع عن [برنيست] او كاد. وشق عدد كبير من الهاربين طريقهم الى [لوكريتيوس اوفللاً Lucretius Ofella] الذي انيط به تشديد الحصار على تلك المدينة، وراحوا يهيبون به أن يتحرك حالاً لأن [سيللاّ] قد انتهى، وروما سقطت في يد العدوّ.

وفي حوالي منتصف الليل وفد على معسكر [سيللاّ] سعاةٌ من جيش [كراسوس] ليأخذوا ارزاقاً له. وكانوا قد ضربوا خيامهم تحت اسوار [أنتيمنا] بعد أن الحقوا بالعدوّ هزيمة وطاردوه حتى لجأ الى المدينة هارباً. فما سمع [سيللاّ] بذلك وتحقق من تدمير الجانب الأكبر من قوات اعدائه حتى خفّ الى [انتمنا] فوصلها فجراً فوجد رسولاً بعث به ثلاثة آلاف من المحصورين يريدون الاستسلام بشروط فوعدهم بمعاملة حسنة إذا اما انتقضوا على رفاقهم الباقين. فوثقوا بعهده وحملوا على المحصورين الآخرين بطريقة غادرة. فجرت مذبحة كبيرة سقط فيها قتلى من الفريقين. ولكن [سيللا] بعد دخوله المدينة جمع الأحياء من الفريقين فبلغوا ستة آلاف ووضعهم في محلٍ واحدٍ، وأوكل بذبحهم رجالاً عينهّم لذلك. وفي الوقت الذي كان [سيللاّ] يخطب في اجتماع لمجلس شيوخ المدينة في معبد [بللّونا] بدأت المجزرة وتعالت صرخات هذا الحشد الكبير عندما راح السيف يعمل في رقابهم من الفسحة الضيقة التي حشروا فيها حتى تناهت الى اسماع المجتمعين فأجفلوا لها. ولم يكترث [سيللاّ] واستمر في خطابه هادئاً،

طالباً منهم الانتباه ما يقوله وعدم اشغال اذهانهم بما يجري في الخارج، فكلّ ما هناك أنه أصدر تعليمات بخصوص عقاب بعض المجرمين. من هذا العمل أدرك حتى أغبى الرومان بأنهم لم يتخلصوا من الطغيان وانها استبدلوا واحداً بآخر ليس إلاّ. كان [ماريوس] فظّ الطبع غليظ الفؤاد بفطرته وظلّ هكذا ولم يتغيرّ عندما سيطر على زمام الحكم. أما [سيللاّ] فقد ظهر في مبدأ الأمر رجلاً معتدلاً عزوفاً عن استخدام حظه في مجال الطموح، وفتح باب الأمل الباسم للوطنيّ الغيور الحقيقي بحرصه الشديد على مصلحة طبقتي الأشراف والعامة على السواء؛ أضف الى هذا أنه كان مرحاً رقيقاً منذ شبابه. غنيّ العاطفة يسهل تحريك الشفقة في نفسه الى حَدّ استدرار الدمع من عينيه. هذا ما كانه قبل استيلائه على السلطة. ولكنه انقلب عندما استتب له الأمر فوصم المناصب العليا، بوصمة عارٍ ربّما تستحقها. وجعلها تبدو وكأن مهمتها العمل على تجريد الرجال من أخلاقهم السابقه ومسخ شخصياتهم مسخاً بزرع الكبرياء والقسوة والهمجية في أنفسهم. أما كون هذا التغيير انقلاباً خلقياً حقيقياً، وثورة عقلية، أو أنه فساد خلقٍ مستترٍ كشف عن نفسه عند وصول صاحبه الى السلطة، فهذا موضوع بحثٍ لا شأن لنا به الآن.

وهكذا رأينا [سيللاّ] يميل الى الارهاب والفتك بارواح الناس، وملء المدينة بقتول لا تعد ولا تحصى. وراح كثير من الابرياء الذين لا دخل لهم ولا مصلحة، ضحايا العداء الشخصي لا غير، ارضاء لأصدقائه. واستجابة لرغباتهم. وتجرأ الشيخ [كايوس ميتللوس] وهو من أعضاء المجلس الذين لم يتخطوا مرحلة الشباب على سؤاله في أحد الاجتماعات: متى ستنتهي هذه الشرور؟ وما هي الحدود التي ستتوقف عندها؟ واستطرد يقول له:

- نحن لانطلب منك ان تعفو عمن قررت ازهاق روحه. وانما نسألك أن تريح أولئك الذين يسرّك أن تبقي عليهم، من القلق والشك الذي يساورهم.

فأجاب [سيللا]: اني لا أعرف حتى الآن على من سأبقي!

فقال [كايوس]: إذن فسمّ لنا على الأقل، أولئك الذين ستنزل بهم عقابك فوعده [سيللاّ] بذلك.

ويقول بعض الكتاب ان قائل العبارة الأخيرة ليس [كايوس ميتللوس] بل [افيديوس Afid-ius] أحد اصحاب [سيللاّ] المتملقين.

وبعد هذا مباشرة أقدم [سيللاّ] على رفع الحصانة القانونية عن ثمانين شخصاً دون مراجعة اي قاضٍ كما تقضي به أحكام القانون غير ملق بالاً الى السخط والاستنكار العام. ومرّ يوم

بلا حادث وبعده أعلن قائمة بمائتين وعشرين آخرين، وأشفعها في اليوم التالي بعدد مماثل. وفي خطبة له موجهة الى الجمهور قال أنه ادرج في قوائم «رفع الحصانة القانونية» قدر ما وسعت ذاكرته من اسماء. أما من أغفلهم أو غابوا عن باله، فسيعلن عنهم في المستقبل. وبعد هذا أصدر مرسوماً يقضي بعقوبة الموت على كل من يظهر انسانية لأحد المحكومين وبعقوبة النفي على من يخفي أو يأوي أيّ محكوم برفع الحصانة، ولم يستثن فيه الأخ أو الأبن أو الأبوين. وقضى بمنح مكافأة حكومية قدرها تالنتان لكلّ من يقتل أحد المحكومين برفع الحصانة. حتى ولو كان القاتل عبداً وقتيله سيده. او ابنا وقتيله أبوه. وأما الظلم الأنكى الذي انزله [سيللا] فهو فرضه عقوبة مصادرة أموال ابناء المحكومين وابناء ابنائهم وبيع المقتنى في المزاد العلني. وعمم عقوبة «رفع الحصانة» على كل مدن ايطاليا ولم يقصرها على روما وتدفقت الدماء في كل مكان وجرت سيولاً ولم يعد ينفع اللجوء الى هياكل العبادة، أو منازل الأسلاف، أو مواقد المستجار بهم. وكان الرجال يجزرون وهم في احضان زوجاتهم والأطفال ينحرون على صدور امهاتهم. وكان عدد الذين راحوا ضحية غناهم أكثر بكثير ممن راح ضحية العداء الشخصي ومعارضة النظام القائم. حتى جرت على ألسنة القتلة امثال هذه العبارات:

«هذا المنزل الجميل قَتَلَ مالكه!»

«كان هذا البستان السبب في هلاك صاحبه»

«تلك الحمامات الحارة هي التي أودت بوليّها»

هذا [كوينتوس اوريليوس Quintus Aurilius] رجل وديع مسالم في غاية الطيبة، كانت مواساته للمنكوبين وتخفيفه عن آلام المفجوعين في هذه البلوى العامة، كل ما ساهم به، قدم الى [الفوروم] لقراءة قائمة المحكومين برفع الحصانة فوجد اسمه فيها، فهتف قائلاً:

- الويل لي! لقد وشت بي مزرعتي في آلبان Alban. ولم يسر مسافة بعيدة الاّ وادركه وغد من الأوغاد أرسل خصيصاً فقضى عليه.

وفي زخم هذه الأحداث بخع [ماريوس] نفسه لما وجد طرق النجاة مسدودة في وجهه والقبض عليه وشيك. فدخل [سيللا] [پرينيست] وأفتتح أعماله باجراءات قانونية في ملاحقة الاشخاص وما لبث أن وجد ذلك يستغرق منه وقتاً طويلاً. فحشر الجميع في موضع واحدٍ فبلغوا اثني عشر ألفاً، وأصدر أمراً بقتلهم جميعاً إلاّ الرجل الذي استضافه في بيته. وكان هذا شجاعاً جريء القلب واللسان فتحدى [سيللا] بقوله أنه لا يستطيع ان يقبل منه

العيش من شخص دمَّر بلاده. وانصرف عنه وانضم الى الآخرين ودفع بعنقه الى سيف الجلاّد مختاراً. ويعتقد أن العمل الذي ارتكبه [لوشيوس كاتيلينا Lucius Catilina فاق في شناعته كا الأعمال البربرية التي أرتكبت في حينه. فقبل أن تتردى الأوضاع عمد الى قتل أخيه ثم طلب من [سيللاً] أن يدرج اسمه في قائمة المحكومين «برفع الحصانة» كأنه ما يزال حَياً، ففعل [سيللاً]، وردَّ [كاتيلينا] جميلة بقتله [ماركوس ماريوس] من الحزب المعارض والإتيان برأسه الى [سيللا] اثنان ما كان جالساً في [الفورم]، ثم قصد الى ماء [ابوللو] المقدس القريب فغسل يديه.

هناك أمور عدا سفك الدماء اثارت الاستياء والسخط. منها ان [سيللا] أعلن نفسه دكتاتوراً وهي وظيفة كان الرومان قد تحاشوها طوال مائة وعشرين عاماً. وثم كذلك قانون الاعتراف بالفضل الذي سُنّ لأجله. وعصمه عن اي محاسبة أو مسؤولية سابقة، ومنحه للحاضر والمستقبل سلطة الحياة والموت، والمصادرة وتوزيع الأراضي. وتخريب المدن وأعمارها، ونزع الممالك وأعطائها لمن يشاء. وأشرف في دار القضاء على اجراءات بيع الأموال المصادرة بأسلوب يتسمّ بالظلم والاستهتار، حتى ان انعاماته أثارت من السخط والاشمئزاز اضعاف ما أثار أغتصابه لها. ونال الموسيقيون، والممثلات الكوميديات، وأحط العبيد المحررين هدايا لا تخطر بالبال؛ كأقاليم برمّتها في بلدٍ من البلاد، وجزيات كاملة من المدن. واجبرت الحرائر والعقائل على الزواج من أمثال هؤلاء الأوشاب رغم انوفهنّ. واراد [سيللاً] أن يضمن أخلاص [پومپي الأكبر] له برباط القرابة، فطلب منه تسريح زوجه، وفرض عليه الزواج من [إميليا] ثبت [سكاوروس Scaurus] و[ميتللا] زوجه. بعد أن أجبرها على ترك زوجها [فانيوس غلابريو Manius Glabrio]، فدخلت عصمة [پومپي] وهي حامل من مطلقها وتوفيت اثناء الوضع.

وتقدم [لوكريتيوس افللاً] لمنصب القنصلية مرشحاً. وهو عين القائد الذي تغلّب على [ماريوس] في حصار [پرينيست] فمانع [سيللاً]، واشار عليه بألاّ يفعل فأصرّ هذا ولم يعمل بقوله. وفي ذات يوم شاهده وهو يدخل الفوروم وحوله جمهور غفير من الأنصار والمؤيدين. فأستدعى [سنتوريوناً] من الضباط الذين كانوا يحيطون به وارسله الى [لوكريتيوس] فالتقاه وقتله وسيللاً يرقب الحادث من منصته القضاء في معبد [كاستور] العالي. فقبض المواطنون على السنتوريون القاتل وجروه جراً الى مجلس القضاء امام [سيللاً] فأمرهم بالكف عن الضجة وعدم التعرض [للسنتوريون] لأن نفذ أمراً أصدره هو اليه.

وكان موكب النصر الذي دخل به المدينة آية في الفخامة والرواء. وامتاز بنفاسة الغنائم

الملكية. ولكن أعظم ما فيه وادعى الى الحمد والثناء مشهد المنفيين عن أوطانهم فقد سار في المؤخرة جمهور من ابرز المواطنين العائدين من المنفى وقد ضفروا رؤوسهم بأكاليل الزهر يهتفون باسم سيللاً المنقذ وسيللاً الأب. الذي كان صاحب الفضل في عودتهم الى بلادهم والتمتع بالعيش مع أولادهم وزوجاتهم. وبعد انتهت المراسيم وازف الوقت لتقديم تقريره عن أعماله توّجه بخطابٍ الى الجمعيّة العمومية فيه اسهب واطنب في سرد فرص الحرب السعيدة الطيبة، قدر ما أسهب وأطنب في تعداد مآثرة وكفاءته العسكرية. درجا الشعب في الختام ان يلقبه [فيلكس Felix: أي ذا النعمة].. وكان يخلع على نفسه لقب [إپافروديتوس Epophroditus] في كتاباته الخاصة بالشؤون الاغريقية. وفي انصاب النصر الباقية له الى يومنا هذا يشاهد أسمه على هذه الصورة: [لوشيوس كورينليوس سيللا امپافروديتوس]. وعندما انجبت له زوجه توأمين سميّ الذكر منهما [فاوستوس Faustus] والأنثى [فاوستا Fausta] وهما الكلمتان الرومانيتان اللتان تطلقان على كل ما يبشر بالخير وحسن الحظّ. لقد اودع [سيللاً] أكثر ثقته في جنيّه الطيب الحارس، ولم يودع في قابلياته الاّ القليل من الثقة. وهذا ما دفعه الى التنازل عن سلطاته المطلقة، واعادة حق الإنتخاب القنصلي الى الشعب. وأبى أن يطلب هذا المنصب لنفسه بل عمل أكثر من هذا فقد تخلّى عن مظاهر الأبهة وكشف عن نفسه للجمهور وأخذ يروح ويغدو في [الفوروم] كايّ مواطن بسيط.

وكان [ماركوس ليپيدوس Marcus Lipidus] يطمح الى منصب القنصل ضدّ رغبة [سيللاً]. وهو شخص فيه صفاقة ويضطغن عداءً. ولم يكن في تقدمه للترشيح معتمداً على مزاياه قدر اعتماده على نفوذ [پومپي] ومنزلته ورغبة الجمهور في ارضائه وعلى أثر انتخابه لقي [سيللاً] [پومپي] وهو متوجه الى منزله يكاد يطير فرحاً لفوز مرشحه فاستدناه وقال له:

- ايّ عمل سياسي هذا أقدمت عليه أيها الشاب؟ باغتيالك إسناد [كاتولوس] خير الرجال، وانتصارك [لليپيدوس] أسوأهم؛ من الآن فصاعداً عليك أن تزداد يقظة وانتباه بعد أن قوّيت خصمك على حساب نفسك.

وعلى ما يبدو كانت غريزة التكهن الصائب في [سيللا] هي التي انطقته. فما مرّ زمن قصير على هذا حتى زاد [ليپيدوس] عتواً واسفر عن عداوته لپومپي واصحابه.

وأوقف [سيللاً] كل ما يملك على الرب [هرقل] وكثرت دعواته للناس الى الولائم الفخمة وكان مفرطاً في تقديم الطعام حتى كان يُلقى في النهر كميات كبيرة من اللحوم المتخلفة عنها. وكان يقدم في مجالس شرابه خمراً معتقة يزيد عمرها عن أربعين عاماً وفي اثناء تلك المادب التي أمتدت أياماً توفيت زوجه [ميتللا] إثر مرض ألمّ بها. وكان الكاهن قبل هذا قد

حظر عليه عيادة المريضة أو جعل بيته نجساً باقامة مراسيم الحداد فيه فلم ير بُدّاً من استحصال قرار بالطلاق منها وهي حيّة لنقلها الى منزل آخر. هكذا كان [سيللا] شديد الدقة في تطبيق النواهي والمحرمات الدينيّة ورعاً ومخافةً. إلا انه تخطى الحدود التي رسمها في قانون «تحديد نفقات الجناز» الذي استنّه هو، ولم يبخل على زوجه الراحلة باية مصاريف وكذلك تخطى حدود الصرف التي شرعها هو في قانون الاسراف بخصوص الولائم التي اقامها ومجالس الشرف التي أحياها لصحبه المهرجين والصعاليك، على سبيل السلوى والعزاء.

بعد وفاة زوجه بأيام قلائل اقيمت حفلة نزال للمصارعين في الملعب. وكان جلوس النظارة في ذلك العهد مختلطاً بين الجنسين، ولم يجر بعد تخصيص مقاعد خاصة أو مقاصير ممتازة. واتفق أن حضر [سيللاً] وكان جلوسه بالقرب من امرأة بارعة الجمال شريفة الأصل تدعى [ڤاليريا] وهي بنت [ميّسالا Messala]، وأخت [هورتنسيوس] الخطيب، ومطلقة جديدة. مرّت هذه العقيلة من وراء ظهر سيللا فمالت اليه ونتفت بعض خيوط الصوف من ردائه ثم مضت الى مقعدها وجلست فتطلع اليها سيللاً بتساؤل ودهشة فابتدرته قائلة:

- ما ضرك أيها السيّد العظيم لو كنتُ من جملة الراغبين في شيء من بركاتك؟

وظهر على [سيللاً] سرورٌ، ولعبت هذه الحادثة في خياله لعبة لذيذة على ما يبدو. فقد استفسر في الحال عن اسمها ونسبها وحياتها وماضيها، وراحا يتبادلان اللحاظ وهما في مجلسيهما فيلتفت أحدهما الى الآخر لينظر اليه ويبادله الابتسام. وبعدها حصل اللقاء وتمّ الزواج. قد يكون كل هذا عملاً بريئاً خالي القصد من ناحية السيدة. إلاّ ان الزواج نفسه لم يكن زواجاً متكافئاً ولا لائقاً من ناحية [سيللاً] فضلاً عن كون الفتاة ممن لم يشتهرن بالحشمة والفضيلة. فاشتعال قلبه فجأة بنار الحبّ مثل فتى مراهق، بتأثير وجهٍ جميل ونظرة جريئة دليل على أن [سيللاً] قمين بأحط العواطف وأبعدها عن الحياء.

وظلّ بعد زواجه هذا مقيماً على عادته في مجالسة الموسيقيين والممثلات، والراقصات يشاربهم على المتكأت ليل نهار. وكان من أحبّ ندمائه اليه [روسكيوس Roscius] الممثل الهزلي. و[سوريكس Sorex] زعم المسخراتية، و[ميطروبيوس Metrobius] اللاعب، ظلّ متعلقاً بهم حتى بعد تجاوزه سنّ الكهولة. وأدّى هذا الأسلوب من الحياة الى تفاقم داء كان منشأه بسيطاً. فقد بقي فترة طويلة غافلاً عن تقرّح امعائه، الى ان انشق اللحم المتعفنّ وفقس فيه العمل وأخذ يتكاثر بصورة عجيبة بحيث عجزت كثرة من المرضين عن مكافحته رغم عملهم المتواصل ليل نهار فانتشر في ثيابه وفي الحمام ولوث الاواني واللحوم اذ كانت تتوالد وتتدافع باعداد وكميات مذهلة. واضطر الى ملازمة الحمام لتنظيف جسمه وفركه فلم يأت

بنتيجة. اذ كان الداء يتفاقم وتتسع رقعة الإصابة بسرعةٍ ولم يعد يفيد فيه اغتسال وتطّهر.

إن هذا الداء كان سبب موت كثير من المشاهير في الأزمان الغابرة جداً، مثل [اكاستوس Acastus] ابن [بيلياس Pelias] وفي زمن متأخر عنه [الكمان Alcman] الشاعر، [وكاالليسثينس Callisthenes] الأولينثي Olynthia في فترة سجنه. و[موشيوس] المحامي. و[فيريكيدس Pherecydes] الفقيه وان جاز لنا ذكر اسماء اشتهرت بسوء السمعه والخسة فثمّ الثائر الشريد [يونوس Eunus] الذي حرض عبيد صقلية على الثورة ضدّ اسيادهم ابتلاه الداء بعد ان اقتيد الى روما أسيراً ومات به.

ولم يقتصر [سيللاً] على التكهن بنهايته وانما كتب كما قيل. ففي الكتاب الثاني والعشرين من مذكراته التي ختمها قبل نهايته بيومين كتب أن العّرافين الكلدانيين تنبأوا له بأن حياته المجيدة الحافلة ستختم بتمام الرغد والهناء وخفض العيش وزاد قائلاً انه رأى في الحلم ابنه الذي توفي بعد [ميتللا] بقليل واقفاً على مقربة منه وهو في ثياب الحداد يتوسل به أن يطرح هجوم الحياة جانباً ويلحق به وبأمه ميتلا ليعيش معهما هناك براحةً وهناء. مع هذا كله بقي حتى آخر ايامه مهتماً بالشؤون العامة. فقبل موته بعشرة أيام أكمل تسوية الخلافات بين أهالي [دقيارخيا Dicæarchia] ووضع لها قوانين حكم أصلح. وفي اليوم السابق لموته أبلغ ان القاضي [غرانيوس] أرجا دفع بذمته للحكومة توقعاً لموت سيللاً فطلبه في منزله ووضعه بين اتباعه ثم أمر بخنقه. إلاّ انه فقد مقداراً كبيراً من الدم للجهد الذي بذله من صوته، وانفجار الدّمل خارت قواه ولفظ انفاسه الأخيرة بعد ليلة مزعجة جداً وخلف من [متيللا] طفلين. وانجبت ڤاليريا بعد وفاته بنتاً سمتها [پوستوما] على عادة الرومان بتسمية ابنائهم بهذا الاسم حين يولدون بعد وفاة الأب.

وأسرعت جماعات كثيرة الى [ليبيدوس] تؤيده في حرمان جثمان [سيللا] من مراسيم الدفن المعتادة إلاّ ان [پومپي] وان حقد على [سيللا] (لأنه الوحيد الذي لم يذكره المتوفى في وصيته من بين كل اصدقائه) فقد تمكن بالاقناع وبنفوذه وتهديداته من أحباط مساعيهم فنقل الجثمان الى روما ودفن دفنة مشرفة لائقة. وقيل ان سيدات روما تبرعن بكميات كبيرة من التوابل بلغ مقدارها انها نقلت في مائتين وعشر محفات وبقي منها ما كفى لعمل تمثال كبير لسيللاً وتمثال ثان «للكتور» من صنفي الدراصيني واللبان الذكر. واصبح اليوم فهو مُغيم فأرجئت الجنازة حتى الثالثة ظهراً متوقعين هطول المطر. لكن ريحاً قوية هبت على المحرقة مباشرة فأججت اللهب وأحترق الجثمان في فترة مناسبة وما أن بدأت النار تخمد حتى هطل المطر واستمر حتى الليل. وهكذا لازمه حسن خطه الى الأخير وقام له

بالواجب النهائي. وما زال ضريحة الى الآن قائماً في خطته [كامپوس ماريتوس Campus Martius] وعليه نقشت عبارة من قلمه مفادها: «إن ليس هناك صديق من أصدقائه فاقه في عمل الخير، وليس ثم خصم من خصومه فاقه في عمل الشرّ».

أوجه المقارنة بين ليساندر وبسيللا

بعد إكمالنا هذه السيرة. سنقوم الآن بالمقارنة، فنقول بادي، ذي بدء أن شهرة هذين الرجلين قامت على كونهما بنيا مجديهما بنفسهما. إلاّ أن ليساندر يمتاز عن قرينه بأنه كان موضع رضا مواطنيه في المجد الذي ناله وقتما كان المنطق والعقل السبيل في اصدار الأحكام. ولم يغتصب منهم شيئاً من الصلاحيات خلافاً لما منحوه، ولم ينتزع بالقوة سلطةً إلاّ أملته قوانين بلاده:

«وفي الصراع السياسيّ قد يصل الى السلطة حتى الأوغاد».

وفي روما حيث كان الشعب قد طحنته الرزايا والحكومة قد تفشت فيها الفوضى والفساد لا عجب أن يرتفع الى السلطة حكام مستبدون متعاقبون. وليس بالغريب ان يتولى [سيللا] الحكم عندما يقوم آل [غلاوشي Glauciæ] وآل [ساترنيني Saturnini] بطرد آل [ميتللي]. ويقتل ابناء القناصل في الاجتماعات العامة ويكون للذهب والفضة القول الفصل في شراء الرجال والسلاح ويتولى السيف والنار اشتراع القوانين الجديدة وقمع المعارضة المشروعة. واني لا الوم اي أحدٍ اذا عمل على الوصول الى السلطة العليا في مثل هذه الظروف، إلاّ اني لا أعدّ وصول رئيس دولة بلغت هذه الدرجة العظيمة من التحلل والفساد، دليلاً على صلاحه واستقامته. و[ليساندر] الذي ولّي اهم القيادات وأخطر شؤون الدولة برضى وتشجيع مدينة ناضجة فاضلة تتمتع باحسن الحكومات. يمكن القول عنه أنه بما يملك من حسن السمعة قد يعدّ خير الرجال واميزهم في خير الجمهوريات وأميزها. فكثيراً ما تراه يعيد السلطة التي منحت له الى المواطنين ليرجعوها اليه مراراً وتكراراً. وهكذا يضمن له تفوق مؤهلاته، المقام الأول في السلطة دائماً. أما [سيللاً] فما أن نصب نفسه قائداً للجيش حتى ظلّ حريصاً على قيادته عشر سنوات متتالية. يخلق من نفسه خلالها، قنصلاً مَرّةً، وبروقنصلاً مرة أخرى، ودكتاتوراً أحياناً إلاّ انه ظلّ على الدوام طاغيةً مستبداً.

صحيح أن [ليساندر] أعتزم على ما قيل - تغيير شكل الحكم، إلاّ انه لجأ الى وسائل أكثر اعتدالاً، وأقرب الى القانون من وسائل [سيللا]. فلم يستخدم قوة السلاح. وانما اتخذ طريق الاقناع ولم يرد باحداث انقلاب شامل فوريّ في نظام الدولة وانما حاول اجراء تعديل في تولي الملوك ليس غير. وهو في الواقع تعديل ينطوي على العدل والمنطق، لأنه يشترط فيمن يتولى الملك أهلية وكفاءة خصوصاً في مدينة تقوم بدور القائد في بلاد اليونان. لا بسبب عراقة اصل سكانها بل بسبب فضائلها ومزاياها الخلقية. فالصياد ينشد من الجراء ذكورها لا أناثها، وتاجر الخيل يبحث عن المهر لا المهرة [مالأمر لو ظهر المهر بغلاً؟] وكذلك السياسيّ المتحرز الشديد الدقة يجب عليه عند أختيار رئيس الحكومة أن يتحرىّ لا عن ماهية الرجل بل عن نشأته.

لقد قام السپارطيون أنفسهم بعزل عدة ملوك لافتقادهم فيهم مزايا الملوك، ولأنهم فاسدون لايصلحون للحكم. ولما كان الطبع المفطور على القسوة والغلظة مما يشين المرء ويحطّ من منزلته مهما شرف نسبه، فيجب والحالة هذه أن تكون الفضيلة والخلق الحميد مقياس سموّ الفرد وعلو قدره، لا نسبه وعراقة أصله.

هذا وان [ليساندر] ظلم وعتا ارضاءً لصحبه وانصاره في حين نشر [سيللا] مظالمه بين اصدقائه وصبّها على رؤوسهم ومن المقرر عند الجميع أن [ليساندر] جار على الناس حبًا في اصدقائه وقام بعدة مذابح لتوطيد ملكهم وتثبيت سلطانهم أمّا [سيللا] فإن حسده هو الذي دفعه الى عزل [پومپي] من قيادته للقوات البرية [ودولابللا] من قيادته للقوات البحرية مع انه هو الذي اسند اليهما هاتين القيادتين. كذلك أمر بقتل [لوكريتيوس أوفيللا] الذي رأى أن خدماته الجليلة التي اداها لبلاده تبرر له ترشيح نفسه للمنصب القنصلي. وجرى تنفيذ أمره امام عينيه مثيراً بذلك الرهبة والفزع في الناس جميعاً لهذه القسوة التي ابداها ازاء أعزّ اصدقائه.

أما بخصوص حبّ الغنى والجري وراء الملذات، فإنّا لنجد في [ليساندر] طبعاً رفيعاً سامياً، وفي [سيللاً] افراطاً في اللذة وجشعاً الى المال. ولم يقدم ليساندر على عمل مشين فاجر طوال فترة قيادته التي كانت مطلقة السلطة، حافلة بكلّ الفرص. وظلّ ابعد الناس عن المعنى الوضيع الذي يتضمنه القول التالي:

«هم أسودٌ في وطنهم، وثعالب خارجه».

وتمسك دوماً بالسلوك السبارطي المتزن والمتسم بضبط النفس في حين لم يستطع [سيللاً] التزام جانب الإعتدال في نزعاته العنيدة فلم يؤثر في خلقه فقرٌ عاناه في شبابه. ولا وقار السّن في شيخوخته، ودأب على سَنّ قوانين تحضّ مواطنيه على العفة والاستقامة والجدّ، بينما كان هو يعيش في حمأة الفسق والفجور كما يؤكد لنا [سالّوست Sallust]. وعلى هذا المنوال أفقر مدينته وأخوى خزائنها من المال حتى لجأت الى بيع امتيازاتٍ وحصاناتٍ لمدن حليفة وصديقة لتسد بذلك حاجتها من النقد وكان في الوقت نفسه يتخير أغنى الأسرِ وأبرزها مقاماً فيصادر مقتناها ويعرضه في المزاد العلني يومياً، ويسرف في إغداق ما غصبه على بطانته من المتملقين والمداهنين بلا حسابٍ وبكلّ استهتار. أي أمل يتبقى للناس ثم؟ أي إحتمال في تبصرٍ أو اقتصادٍ يتوقع منه في ساعات لهوه الخاصة، وعكوفه على الشراب، عندما لا يتورع عن الكبائر علناً وأمام الشعب. فقد اراد مرة اثناء المزايدة على مزرعة كبيرة، ان يحيلها الى أحد اصدقائه بثمن بخسٍ. فقام مزايد آخر ورفع البدل فأعلن القائم على المزايدة رسوّها على المزايد الأخير وهنا ثارت ثائرة [سيللا] وصاح في نوبة من الغضب الشديد:

- ما أعجب هذا الأمر أيها المواطنون! وما أظلمه. أتراني لا استطيع أن اتصرف بغنيمتي كما أريد؟

على أن [ليساندر] كان نقيض هذا. فقد أرسل الى مدينته كل الغنائم المتبقية لتكون ايراداً للخزينة العامة وارفقها بكل الثناء على عمله هذا، فلعله سببٌ لسپارطا بأريحيتّه هذه وتساهله المفرط ضرراً أشد وانكى مما سبب الآخرون لروما باستبدادهم وتنطعهم. وقد اوردت هذا دليلاً على احتقاره الغنى ليس إلاّ.

كان كل من الرجلين ذا تأثير عجيب على بلاده [فسيللاً] المفرط في عبثه ومجونه اراد يعيد حياة الجد والزهد الى مجتمعه. و[ليساندر] الزاهد العفيف ملأ سپارطا بوسائل الترف والبذخ التي يحتقرها. فكانا بهذا جديرين باللوم اولهما لارتفاعه بنفسه فوق قوانينه وثانيهما للتسبب في خفض بني وطنه الى ما تحت مستواه الخلقي. فقد علم سپارطا أن تصبو الى الاشياء التي تعلم هو الاستغناء عنها. وفي هذا الكفاية من القول عن تصرفاتهما في شؤون الحكم المدني.

والبون شاسع بين [سيللاً وليساندر] في ما يعود الى مآثر الحرب والحنكة القيادية، والانتصارات العديدة، والمغامرات الحافلة بالمخاطر. الحق يقال ان [ليساندر] خرج منتصراً في معركتين بحريتين، وسأضيف اليهما حصار آثينا وهو عمل شهرته غطت على صعوبته. ولعل ما جرى في [بويوسيا] و[هاليارتوس] كان نتيجة سوء حظٍ، ولكن عدم انتظاره قوات الملك

التي كانت توشك على الوصول من [بلاطيا]، وتحرقه الى القتال بدافع الطموح الى المجد ودنوه من الأسوار دنوا لا فائدة منه مما أدّى الى موته بهجوم قامت به فئة قليلة من الرجال، كلّ هذا لم يكن من الحصافة في شيء، ولا من حسن القيادة. لقد اصيب بجرحه المميت، لا كما أصيب [كيلومبروتوس] في [ليوكترا] وهو يقاوم هجوم العدوّ ببسالةٍ في خطّ القتال، ولا كما أصيب [كورش] أو [ابامنداس] في صمودهما في معركة تسير نحو الخسران. أو عند ارساء قاعدة النصر في القتال هؤلاء جميعاً ماتوا ميتة الملوك والقادة. أما هو فقد ضحىّ بحياته في ظرف لم يكسبه مجداً. وبهذا قدم الدليل على حكمة المبدأ السپارطيّ القديم الذي يحذر من الهجوم الجبهي على المدن المحصنة. حيث يكون أشجع الأبطال عرضة للموت بيد رجل لم تعرف عنه شجاعة لا بل بيد صبيّ أو امرأة، مثلما صُرع [آخيل] بيد [پاريس] عند باب الأسوار، على ما نُقل لنا.

ومن الصعب علينا احصاء المعارك التي خرج منها [سيللاً] فائزاً وكم من الألوف جندل. فقد أستولى على روما مرتين مثلما استولى على ميناء [پيريوس] آثينا لا بفعل الجوع كما كانت الحال مع [ليساندر] بل بعد سلسلة متعاقبة من المعارك الطاحنة دفع بها [ارخيلاوس] الى البحر. واهم من هذا كله صفة القادة الذين نازلوهما فثم فرق شاسع وليس ثم مجال للمقايسة. وانا أرى من الأعمال البسيطة الشبيهة بالتمرين الرياضي الحاق الهزيمة [بانطيوخوس] ربّان [الكيبياديس]، أو المكر بـ[فيلوقليس] الزعيم الشعبي الآثيني الذي

«لم يكن فيه شيء ماضٍ إلاّ رأس لسانه القذر».

حتى ان [ميثريدات] استحقر ان يضاهيه بسائس من سائسي خيوله وترفع [ماريوس] عن ان يرفعه الى منزلة [لكتور] من لكتوريه. ولو استعرضنا الملوك والقناصل والقادة وزعماء الجماهير الذين نازلهم [سيللاً] تاركين البقية. فلنا ان نتساءل: مَن مِن الرومان كان أعظم من ماريوس؟ واي ملك كان أقوى من [ميثريدات]؟ ومن الايطاليين كان يفوق [لامپونيوس وتيليسينوس] مراساً في الحروب؟ أولهم اخرجه [سيللا] منفياً من وطنه. وثانيهما خضد شوكته. وأودى بحياة الأخيرين.

وأهم من كل ما سردته، في رأيي أنا، أن [ليساندر] كان مدعماً بنفوذ الدولة في كل ما أقدم عليه. في حين كان [سيللا] طريد حكومته التي حكمت عليه بعقوبة النفي مضطهداً من الحزب السياسي المعارض. طردت زوجه من منزلها وقوّض بيته من أسسه وقتل انصاره وهو في [بويوسيا] يخوض المعارك مع اعداء وطنه وهم بعدد الحصى، معرضاً نفسه للمهالك في سبيل بلاده، حتى وفق الى اقامة انصاب النصر. لم يظهر منه خلال ذلك كله اي نوع من

التخاذل والمصانعة. حتى عندما تقدم اليه [ميثريدات] بعروض التحالف، والمساعدة على أعدائه، لم تأخذه به رأفة، ولم ينزل الى مخاطبته أو مصافحته، قبل أن يخرج من فم الملك وعدٌ بتنازله عن آسيا وتسليم الاسطول واعادة [كبدوكيا] و[بثينيا] الى ملكيهما. لم يقم [سيللا] بعمل آخر بضاهيه في النُبل والجرأة، ففيه قدم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة. وضرب مثلاً نادراً في الايثار وانكار الذات. وكان مثل كلب الصيد الأصيل ما ان ينشب في خصمه حتى يتعذر أن يُفلت منه الى أن يستكين له. فبعد أن أستتب له النصر تحولّ الى خصوم الدكار ليروي منهم غِلّه ويسوّى خلافاته الشخصية معهم.

وقد يجوز ان تتأثر مقارنتنا هذه بأسلوب معاملتهما لآثينا. فعندما أستولى [سيللا] عليها لم يتردد في اعادة حريتها اليها. ومنحها حق ممارسة شرائعها الخاصة بلا قيد مع انها كانت تعضد سلطان [ميثريدات] وتقف الى جانبه في الحرب. اما [ليساندر] فكان على نقيض ذلك. لم يبد منه اي عطف عليها عندما هوت من حالق عظمتها وسموّ مكانتها. وانما قضى على نظام حكمها الديمقراطي. وفرض عليها حكم أقسى الطغاة وأشدّهم استبداداً.

وينبغي علينا الآن ان نفكر هل نحن نبتعد عن الحقيقة ونجانب الصواب في حكمنا على [سيللاً] بأنه كان الاروع مآثرَ من ليساندر وان ليساندر كان الأقل اخطاءً؟ هل نخطيء ان قدّمنا [ليساندر] على قرينه في الاعتدال وضبط النفس. وفوّقنا [سيللاً] عليه في حسن الادارة والجرأة؟


كيمون
CIMON
510 _ 450

أتى [پيـريپـولتـاس Peripoltas] النبيّ، [باوفلتـاس الملك Opheltas] ومن هم تحت قيـادته، الى [بويوسيـا] من ثسـاليـا وهنـا ترك أسرة سكن معظم افرادها مدينة [خيـرونيـا] وكـانت الى المدن التي طرد منهـا البـرابرة. وظلت هذه العشـيـرة تترعـرع مدة طويلة وأنجبت صناديد وابطالاً عرضوا أنفسهم للأهوال في وجه الغزو الميديّ. وركبوا متن الاخطار في حروب الغاليين حتى انقرضت عشيرتهم او كادت.

بقي من هذا البيت يتيم اسمه [دامـون] ويلقب [پيريپولتـاس] فاق كل لداية بجمـال صورته وحميّـته. إلاّ انه أمتاز بفظاظة الطبع وباستـقلال في النفس. وعنـدما بلغ الفتى مبلغ الرجـال، أغرم به ضابط روماني غرامـاً شديداً ،أخذ يلاحقه بالهـدايا والرجا ء، والضـراعة فلم تفد مـعه، فـعيل صبره وظهر منه مـا يدل على اعـتزامه قـضـا ء وطره منه بالاكراه. وكـان أهل خيـرونيـا وقـتـذاك في أشـد حـالات البؤس والإهمـال لقلة عـددهم وإمـلاقـهم. وكـان [دامـون] يدرك ذلك ويرى نفسه موضع أذى واهانة فعزم على الانتصاف لنفسه بيده. فأتمر بالضابط هو وستة عشر من رفـاقه وعـمـدوا في أحدى الليـالي الى تلويث أوجهـهم بالسـخـام ستراً لأشخاصـهم وشربوا حتى لعبت الخمـر برؤوسـهم وأشـعلت النار في نفـوسـهم وانقـضـوا علـى الضـابط قـبيل انبلاج الصبح فذبحوه هو وعدد ممن كان معه اثنا ء تقديمه القرابين في السـاحة العامة. وفروا من المدينة هاربين. فـاستـبـد القلق بأهلهـا وأجتـمع مجلس شوراها حـالاً ونطق بحكم الموت على [دامـون] وشركـائه في الجريمة يريدون بذلك تبرئة المدينة من التبعة أمـام الرومان. فـمـا كـان من [دامـون] ورفـاقـه الاّ وأقتـحموا القاعة التي أعـتـاد اعضـا ء مجلس الشـورى الاجتـماع فيـها كافـة لتناول العشا ء وقتلوهم ثم خرجوا من المدينة. وأتفق على أثر هذا أن [لوشيوس لوكوللوس] كان مارّاً بالمدينة في حملة عسكرية فعرج عليها عـندما انهي اليه الحادث للقيام بالتحقيق، وتبين بعد الاستـفـسـار والسؤال أن المدينة لا دخل لهـا في القتـل، فـخرج بجنوده منها منسـحبـاً. إلاّ ان [دامون] راح يدوّخ الأنحـا ء المجاورة بغـاراته، فأخذ الخيرونيـون يستـميلونه بالرسـائل والوعود الطيبـة ويرغبونه في العـودة الى المدينة ففعل وأسندوا اليـه منصب [رئيس الجمناز Gymna- siarch] إلاّ انهم باغتوه يومـاً وهـو يدلك جسمه بالزيت في بخار الحمام فقتلوه. وشاهد الناس

رُوى وأحلاماً كثيرة وسمعت تنهدات في ذلم الموضع مدة طويلة من الزمن بصورة مستمرة، حسبما نقل لنا عن السلف. فبنيت ابواب الحمامات وسدّت. ويزعم الناس الساكنون على مقربة من الموضع انهم يرون بين آن وآخر آطيافاً ويسمعون أصواتاً مفزعة الى يومنا هذا. وان ذرية [دامون] الباقية ومعظمها في [فوكيس] قرب بلدة [ستيريس Stires]، غلب عليها لقب [اسبولوميني Asbolomeni] ومعناها باللهجة الايتولية: «الذين لوثوا أنفسهم بالسخام] لأن [دامون] لوث وجهه بالسخام عندما أقدم على جنايته.

على أن خصومة نشبت بين أهالي [خيرونيا] و[اورخومنيوس] جيرانهم. فاستأجر هؤلاء الأخيرون مُخبراً رومانياً لاقامة الدعوى على كل سكان [خيرونيا] بالتضامن وكأنهم شخصٌ واحدٌ بتهمة قتلهم الرومان في حين كان [دامو،] ورفاقه المجرمين. ورفعت القضية امام «بريتور مقدونيا» لأن الرومان لم يكونوا قد عينوا حينذاك حكاماً للبلاد اليونانية.

وطلب محامو أهل المدينة سماع شهادة [لوكوللوس]. اثناء النظر في القضية. فكتب البريتور يستوضح منه معلوماته فبعث له رداً تضمّن الحقائق كما هي وعلى هذا الأساس صدر قرار ببراءة المدينة من دم الرومان، ونجوا من داهية مهلكة. فاقاموا تيمناً بنجاتهم تمثالاً [للوكولوس] في الساحة العامة، نصب الى جوار تمثال الرب [باخوس].

ونحن خيرونيي هذا العصر ما زلنا نشعر بالامتنان لذلك الجميل وإن مر على الحادث أجيال عدة وكاد يسقط من تاريخ الأحداث ويغيب في زحمتها. أننا نرى بأن واجب الإقرار بالجميل قد انتقل الينا نحن ابناء هذا الجيل، وبما أننا نعتقد ان صورة الخلق والأدب يرسمها قلم الكاتب هي خير وأبقى من نحت وجه المعنيٌ به واعضاء جسمه، وأعظم تشريفاً له. فنرى لزاماً علينا ان نضع سيرة [لوكوللوس] في مصاف سير عظماء الرجال وعلى المستوى الذي تخيرناه له. وسيجرى تدوين مآثره وأعماله بامانة والتزام بالحقيقة. وتخليد سيرته على هذه الصورة هو بحدّ ذاته دليل كاف علن شعورنا بالامتنان له. ولن يشكرنا هو إن عمدنا الى الاساءة لذكراه بتزوير اخباره وايراد الزائف منها على سبيل مكافأته لخدمة قدمها لنا، هي شهادته بالحقّ الصراح! فنحن نريد من الرسام الذي يقوم برسم وجه جميل فيه عيب: لا أن يتغاضى تماماً عن العيب ويتحاشى رسمه، ولا أن يتعمد ابرازه. لأن الأسلوب الأول لا يعطي شبهاً صادقاً للمرسوم، ولأن الثاني سيشوه الصورة نفسها. هكذا مادام بشق بل يتعذر أن يعرض أحدنا حياة شخصٍ ما عرضاً منزهاً عن كل ما يشينه. فعلينا أن نلتزم جانب الحقيقة في كل ما هو طيّب رفيعٌ ونضع المسألة امام العين كما هي. وقد يجوز لنا أن نعدّ كل تغيير في عاطفة بشرية أو عمل سياسيّ، أو هفوة من هفواتهما، قصوراً في فضيلة معنية. لا أثراً

طبيعياً في آثار الرذيلة. فلا نحاول والحالة هذه حشرها حشراً واقحامها اقحاماً في قصتنا، فضولاً منا. وهي بعد متأتية من ضعف الطبيعة، التي لم تفلح قط في خلق انسان كامل الفضائل معصوم من النقد. وكلما فكرتُ في صنو [للوكوللوس] أضعه في مجال المقارنة وجدت [كيمون] الشخصيةَ الوحيدة التي تقف في مستواه بالضبط. فكلاهما كان جريئاً مقداماً في ساحة الوغى، موفقاً في حروبه مع البرابرة. وكلاهما امتاز باللطف واللين في حياته السياسية، ولم يمنح أحد غيرهما لبلده ما منحا من استقرار ونعمة بال بعد عهد طويل من الاضطراب السياسيّ. ولم يفقهما أحد في كثرة الانصاب التي اقاماها تخليداً للانتصارات التي نالاها في الخارج لبلديهما. وليس بين الأغريق والرومان من حمل لواء الحرب الى مراسح بعيدة كما فعلا، بعد استثناء أعمال [باخوس] و[هرقل]، وأي مغامرة من مغامرات [پيريوس] ضدّ الأحباش، والميديين والأرمن. ومما انحدر الينا من مآثر [جاسون] مما يستأهل التدوين.

وكانا سواءً في تركهما أعمالهما التي اضطلعا بها غير كاملة. فقد أوصلا أعداءهما الى شفا الخراب غير انهما لم يقضيا عليهم القضاء المبرم. وهنالك شبه اجماع أيضاً على سماحتهما وكرم ضيافتهما المتناهي وأسرافهما العظيم في الاحتفاء بالضيف وميوعة في خلقهما اشبه بميوعة الشباب وطيشه. اما أوجه الشبه الأخرى التي لم نقو على ملاحظتها فيمكن استقراؤها من الوقائع التي سنسردها.

و[كيمون] هو ابن [ميلتيادیس] و[هيگسپيله Hegesipyle] التراقية بالولادة، بنت [اولوروس Olorus] الملك. كما يتبين ذلك من قصيدة [ميلانثيوس Melanthius] و[ارخيلاوس] في مديح [كيمون]. وعلى هذا الأساس يكون [ثوكيديدس] المؤرخ قريباً له من جهة الرحم. واسم ابيه [اولوروس] انما هو أحياء لذكر السلف الواحد من القرابتين. وقد أشتهر بامتلاكه مناجم الذهب في [ثراقيا]. وقتل كما يقولون في [سكابته هيله Scapte Hyle] وهو من أقاليم [ثراقيا] ونقلت رفاته الى آتيكا فيما بعد. ويشار الى ضريح له على ما يزعمون بين قبور اسرة [كيمون] مجاور لقبر ألپنيس Elpinice] أخت [كيمون]. إلاّ أن [ثوكيديدس] كان من سكنة مدينة [هاليموس Halimus]، و[ميليتادس] وأسرته من [الأگيادي]، حكم على [ميلتيادس] هذا بغرامة للدولة قدرها خمسون تالنتاً فعجز عن دفعها فأودع السجن ولم يخرج منه إلاّ ميّتاً وخلف [كيمون] حدثاً يتيماً مع أخته [الپينيس] وكانت مثله صغيرة السن عزباء. لم تكن نظرة الناس الى [كيمون] في مبدأ الأمر نظرةً حسنة. فقد رأوه أهوج منقلب الأهواء مولعاً بالشراب، اقرب الشبه باخلاق جدّه المدعو

[كيمون] أيضاً، إلاّ انه كان يلقب [كواليموس Coalemus] لسذاجته، والمؤرخ [ستسبمروتوس] الثاسوسي Thasos الذي عاش في عصر [كيمون] يذكر انه كان قليل الوقوف على الموسيقى، زهيد الاطلاع في الدراسات الفكرية الحرة، والفنون الشائعة بين الأغريق في تلك الحقبة من الزمن ولم يكن على شيء من طلاقة اللسان، وسرعة الكلام الذي امتاز به مواطنوه الآتيكيون. على انه كان نبيل الخلق صريحاً للغاية، مزاجه أقرب الى المواطن البيلوبونيسي منه الى المواطن الآثيني، أو كما وصف [يوريبيدس] هرقل بقوله:

«فظّ غليظ، لكنه قمين بجلائل الأعمال».

ومن الإنصاف ان نضيف الى هذا، المزايا التي ذكرها [ستسبمروتوس] له.

واتهموه بمعاشرة أخته [الپينيس] في شبابه، وهي على كل حال لم تكن نقية السمعة قبل ذلك، وانما اشيع عن صلة لها مع [پوليغنوتس Polugnotns] الرسام. وقيل انه أتخذها نموذجاً لصورة [لاوديكه Laodice] في رسم «النساء الطرواديات» الذي رسمه على رواق [پلسياناكيتوم Plesianactium] المعروف اليوم باسم [بوكيله Poecile] ولم يكن [پوليغنوتس] من أولئك الفنانين الاعتياديين. فهو لا يأخذ عن أعماله أجراً، وانما قام برسم الرواق اشباعاً لهوايته ورغبة في ارضاء الآثينيين وهو ما أكده المؤرخون واورده الشاعر [ميلانثيوس] بقوله:

«رسمت يده في معابدنا وبلادنا وقائع الأبطال الجليلة، دون أن يستوفي أجراً».

ويصرّ بعض المؤرخين على أن معاشرة [الپينيس] لأخيها كانت أشبه بمعاشرة زوجية، ولم تكن سرية، فقد حال فقرها دون زواج مناسب لها. ألاّ أن [كالياس] هام بحبها وكان من أغنى أغنياء الآثينيين - فأبدى استعداده لدفع الغرامة التي حكم بها الأب ان وافقت [الپينيس] على قبوله بعلاً، فزوجها [كيمون] به.

ولا شك في ان [كيمون] كان مولعاً بالنساء، فقد عرّض [ميلانثيوس] بهذا الطبع في مرثياته وعاب عليه غرامه [بأستريا Asteria] وعلاقته بالتي تدعى [منيسترا Mnestra] أما عن حبه العجيب الخارق لزوجه [ايزيوديكه Isiodice] بنت [يوريپطليموس Euryptole-mus] ابن [ميغاكليس] فلا يجادل فيه أحدٌ أو يماري، يدل عليه حزنه الشديد لموتها الذين بلغ به حَدّ الخبال ان صدقت المرثيات والتعازي التي وجهت اليه عندما فقدها. ويرى [پانيتيوس Panætius] الفيلسوف ان كاتب هذه المراثي هو عالم الطبيعة [ارخيلاوس] والواقع أن الزمن يعزز رأي هذا الفيلسوف.

كان خلق [كيمون] فيما عدا ذلك نبيلاً، طيباً من كل النواحي. فهو في مستوى بسالة [ميليتادس]؛ وليس دون [تمستوكلس] في اصابة الرأي ورجاحة العقل، ألاّ انه يفوقهما نزاهة وعدلاً بما لا يقاس. ويساويهما تماماً في المؤهلات العسكرية امّا في وجائب المواطن العادي تجاه مجتمعه فقد سما عليهما كثيراً. وأعجب ما فيه أنه بلغ هذه المزايا وهو بعد شاب يافع لم تعمل التجارب عملها في حياته. فعندما أشار [تمستوكلس] على الآثينيين أيام الغزو الميدي بالجلاء عن المدينة والبلاد وحمل أسلحتهم وركوب السفن لقتال العدوّ بحراً في مضايق [سلاميس] وعندما جمد الناس ذهولاً من قطعية هذا الرأي وقسوته، شوهد [كيمون] أول رجل يمرّ [بالكيراميكوس Ceramicus] هاشاً باشاً على رأس لفيف من أصحابه متجهاً الى القلعة وهو يحمل سرج حصانه بيده لتقديمه الى الربة، والقصد هو أن الحاجة انتفت من الخيالة، والضرورة تدعو الى الاعتماد على البحرية.

وبعد أن تلا صلاته وقدم السرج أنزل درعاً من الدروع البحرية المعلقة هناك على جدران المعبد وساربه نحو الميناء. فاشاع عمله هذا الثقة بين كثير من المواطنين. وعلى ما ذكره [أيون] الشاعر انه كان وسيماً متناسق الأعضاء، فارع الطول ضخماً، لا يحلق شعر رأسه الغزير الجعد، وعاد من معركة [سلاميس] بعد بلاء حسن ليشتهر أمره بين الآثينيين. فقد أخذوا ينظرون اليه نظرة ودّ واعزاز، وكسب انصاراً كثيرين لازموا جانبه وساروا في ركابه يحثونه على أطلاب المجد في معارك لاتقل شهرة عن معركة مراثون التي كان ابوه بطلها. ورحب به الجمهور مسرورين عند بروزه الى الحياة السياسية مللاً من تمستوكليس؛ فدفعوا به الى ارفع مناصب الحكم نكاية به، ومعارضته له فضلاً عن صراحة [كيمون] ولطف طبعه. وكان [اريستيدس] صاحب الفضل الأكبر في تقدمه. فقد كان أول من أكتشف فيه المؤهلات والقابليات. فأخذ بيده عن قصد ليجعل منه نداً لتمستوكليس يقارع به مكره وجرأته.

بعد أن تم إجلاء الميديين عن بلاد اليونان، عين [كيمون] قائداً لأسطولهم، ولم يكن الآثينيون قد حققوا بعد سيادتهم البحرية، وانما كانوا مسلمين بقيادة [پاوسانياس] واللقيديين. وبرز الآثينيون تحت قيادة [كيمون] ووصلوا الى درجة عالية من الكفاءة في أميتازهم على سائر اساطيل الحلفاء بالنظام والطاعة، وفي خفتهم وحماستهم لاداء ما يناط بهم من مهام. ثم ما لبث ان علم الحلفاء بوجود اتصالات سرية بين [پاوسانياس] والبرابرة وتبادله الرسائل مع ملك الفرس ضدّ مصلحة اليونان. اضف الى ذلك أنهم ضاقوا ذرعاً بخيلائه وغطرسته وسوء استعمال سلطاته الواسعة بعد النجاح الذي اصابه. وكثرة المظالم الشنعاء التي أتاها. ولم يدع [كيمون] هذه الفرصة تفلت من يده، فحرص دائماً على أن يقف

موقف المؤاساة والعطف من المظلومين.

فلم يدر [پاوسانياس] إلاّ وقد انتزعت من يده قيادة الأغريق العامة باستظهار شخصية [كيمون] ولباقته لا بقوة السلاح. ولم تعد أغلبية الحلفاء تطيق صلافة [پاوسانياس] وغلاظته، فثاروا على قيادته وسلموا زمامها [لكيمون واريستيدس] فقبلاها وكتبا الى [الايفور] في سپارطا يطلبون منهم استقدام رجلٍ يلحق وجوده أكبر العار ببلادهم، ويخل بسمعتها، فضلاً عما يسببه من متاعب لسائر بلاد الأغريق ورويا لهم قصة أغوائه سيدة صغيرة السن من اسرة نبيلة اثناء وجوده في [بيزنطة] تدعي [كليونيس Cleonice] واصراره على الزنا بها. وكيف أن ابويها اضطرأ الى التسليم بالأمر الواقع خوفاً من قسوته مخلياً بينه وبينها. وفي الليلة التي قرر أن يقضي منها لبانته طلبت من الخدم خارج المخدع اطفاء كل الأنوار حياءً وتقدمت من فراشه في الظلام بسكون الاّ انها عثرت بمصابيح فقلبته فأيقظ الصوت [پاوسانياس] الذي كان النعاس قد غشيه. مجفلاً وهو يظنّ أن قاتلاً تسلل اليه تحت جنح الظلام يسعى للفتك به، فأسرع الى خنجر تحت يده وطعن به الفتاة فسقطت ميتة في الحال.

روي أن [پاوسانياس] لم يعرف طعماً للراحة بعد هذه الفاجعة وان خيال الضحيّة ظل يلاحقه، وزاره شبحها في نومه ووجه اليه هذه الكلمات الغاضبة:

«سر في طريقك الى شرّ نهاية تنتظرك، فتلك هي عاقبة شهوتك وظلمك».

كانت هذه الحادثة واحدة من أهم أسباب انتقاض الحلفاء على قيادته فتجمع حقدهم عليه، وتألبت قواتهم معه بحلف وتفاهم مع [كيمون] وحاصروه في [بيزنطة] فأفلت منهم. الاّ أن شبح الفتاة ما أنفك يطارده ويقضّ عليه مضجعه. فلم ير الاّ أن يحجّ الى هيكل الموتى في [هيراكليا] وهناك دعا لإستحضار شبح [كليونيس] راجياً منه الصفح والصفاء فخرج اليه واجابه انه سيتخلص من كلّ يعانيه حال وصوله الى سپارطا. ويبدو أن في هذا القول نبوءة غامضة عن قرب موته. وهذه الحادثة رواها كتاب عديدون.

وقوي مركز [كيمون] بنجاح الحلفاء في طرد [پاوسانياس] ورحل الى [تراقيا] بمنصب جنرال. اذ وردت انباء عن قيام لفيف من عظماء الفرس اقرباء الملك ببثّ الفساد وزرع الفتن بين الأغريق المجاورين لمدينة [آيون Eion] الواقعة على نهر [ستريمون Strymon] التي كانت بيد هؤلاء. فأنقض عليهم وهزمهم في معركةٍ فهربوا الى المدينة محتمين بأسوارها فألقى الحصار عليهم. ثم حمل على التراقيين الساكنين وراء نهر [ستريمون] لأنهم كانوا يزودون

[آيون] بالارزاق. واجلاهم بالسيف عن البلاد كافة بعد أحتلالها، فساءت حال المدينة المحصورة واضرّ بها الجوع وادرك قائدها [بوطيس Butes] اليأس فعمد الى اشعال نار في المدينة أحرق فيها نفسه ومقتناه وأهله. فدخلها [كيمون] ولم تقع في يده غنائم كثيرة لأن البرابرة لم يدعوا شيئاً ذا جدوى إلاّ أحرقوه مع أنفسهم. وارتاى أن يدع البلاد المفتوحة للآثينيين فكان هذا العمل أفضل تدبير وفيه أعظم فائدة له. فقد أكرمه القوم لقاء ذلك بأن سمحوا له أن يقيم «انصاب حرب: Mercuries» ففعل ونقش على أولها الأبيات التالية:

«هناك - حيث يجري نهر [سترِمون] تحت [آيون]

تمكن ذوو النفوس الجريئة الصابرة، وأخيراً -

من الحاق الهزيمة بصبيان الميديين.

بفعل الجوع وحدّ السيف. وأشدّ الضيق»

ونقش على النصب الثاني هذه الأبيات:

«منح الآثينيون قوادهم هذا التكريم الذي

استحقوه لقاء خدماتهم الجليلة النافعة

ومن هذا التكريم والثناء سيتعلم الآخرون

التفاني والأخلاص في قضايا أوطانهم»

وعلى الثالث حفر النقش التالي:

«في الزمان القديم، أرسلت هذه المدينة

الى سواحل طروادة - [مينيسثيوس] المتأله

بصحبة ابناء [ارتيوس Artius] وهو بشهادة

قصائد [هوميروس] أقدر من صَفّ الجيوش للقتال

بين سائر الأغريق: كذا كانت شهرة ابنائها

واسماؤهم عاليةٌ بين قادة الميدان وابطاله منذ قديم الزمان»

ومع أن اسم [كيمون] لم ينقش على هذه الانصاب إلاّ أن معاصريه يعدون هذا التكريم أعلى ما أسبغ على قائد لم ينل شبيهاً له لا تمستوكلس ولا ميلتيادس. وهذا الأخير عندما طلب تاجاً من الزهر وقف[سوخارص Sochares] من [ديكيليا Decelea] في الجمعية

العامة بعارض الطلب بعبارات غير لائقة إلاّ انها قوبلت باستحسان وتشجيع. ومّا قاله [ملتياديس]:

- عندما تفوز أنت وحدك بنصرٍ فلك يا ميللتياديس أن تطلب لنفسك تكريماً مثل هذا. اما الآن فلا.

اذن ما الذي جعلهم يخصون [كيمون] بهذا الشرف؟

ألانهم كانوا قبل ذلك في موقف المدافع دوماً تحت قيادة من سبقه. في حين لك يكتفوا بالهجوم على أعدائهم تحت زعامته وانما اغاروا عليهم في عقر دارهم وأنتزعوا منهم مدينتي [آيون] و[امفيپوليس Amphipolis] واستعمروهما بجاليات آثينية. مثلما فعلوا أيضاً بجزيرة [سكيروس Scyros] التي أستولى عليها [كيمون] بالصورة الآتية:

أهمل الدولوپيّون Dolopias سكان هذه الجزيرة، الزراعة والفلاحة وانصرفوا الى القرصنة، وزاولوها عدة أجيال حتى بلغ بهم الأمر الى سلب الأجانب الذين كانوا يأتون ببضائعهم الى موانيهم. وذات مرة سطوا على بعض التجار الثساليين الذين نزلوا ساحلهم بالقرب من بلدة [كطيسيوم Ctesium]. وبعد ان سلبوهم أموالهم قبضوا عليهم وزجوهم في الحبس. وبعد فترة تمكن هؤلاء من الفرار وراجعوا مجلس القضاء «الامفكتيوني» في بلادهم واستحصلوا منه على قرار ضدّ الكيرونيين يقضي بدفعهم تعويضاً لهم من الأموال العامة. فأبى الأهالي تنفيذ الحكم وطلبوا من الجناة المسؤولين اعادة ما نهبوه الى اصحابه. ففزع هؤلاء الى [كيمون] وأرسلوا اليه رسائل يطلبون منه انجادهم باسطوله معلنين استعدادهم لتسليم المدينة اليه دون قتال، وبهذه الوسيلة وضع [كيمون] يده عليها وطرد قراصنه دلوپيا. وفتح طرق التجارة في البحر الايجي بعد أن ظلت مقطوعة زمناً طويلاً. وهناك علم ان [ثيسيوس] ابن [ايجيوس] كان قد لجأ الى تلك المدينة عند خروجه من اثينا. وقد أغتاله فيها [ليتوميدس] ملكها لخشيته منه. فباشر [كيمون] يسأل عن موضع قبره لأن العرافة كانت قد أمرت الآثينيين بنقل رفاته الى الوطن. وتكريمها بما يليق ببطولاته. الاّ ان مثواه كان مجهولاً، لأن أهالي [سكيروس] تعمدوا طمس معالمه ومسح أخباره من الذاكرة، كرها منهم أن يجرى أي بحث عنه. غير أن [كيمون] أمر بأجراء تحقيق واسعٍ جداً. وكشف بعد صعابٍ كثيرة عن القبر وحمل عظام البطل الى آثينا ببارجته الخاصة. فأستقبلت بحفاوة وابهة لا مثيل لهما بعد اربعمائة سنة أو حواليها من نفي صاحبها. ورفع هذا العمل من منزلة [كيمون] عند الشعب كثيراً. ومن دلائلها الحكم الشهير الذي صدر بخصوص الشعراء التراجيديين: كان [سوفوكليس] يومذاك شاباً في مقتبل العمر لم يمر على تقديمه أولى مسرحياته زمن طويل

وفي الملعب أختلف الرأي بشأنه وأشتدَّ تحمسّ المتفرجين وهم بين مشايع ومخالف. وأبى [آپسيفيون Apsefion] الأرخون وقتذاك، أن تجرى القرعة لاختيار المحكمين عندما بلغ الخلاف حَدّ التأزم وأقتضى اتخاذ قرار حاسم. وفي تلك الاثناء دخل [كيمون] وزملاؤه الضباط الملعب قادمين بعد اداء الفريضة المعتادة لآله الاحتفال. فحال بين المحكمين والانسحاب وأمرهم ان يبرزوا للناس لأداء اليمين وكانوا عشرة، كل واحد منهم يمثل قبيلةً. ففعلوا وأنقلبوا اقضاة محلفين وبعدها أمرهم أن يجلسوا لاصدار حكم. وأشتدت الرغبة في الفوز، لما يتمتع به الحكام من مقام رفيع ولما في قرارهم من تكريم للفائز، أخيراً أعلن فوز [سوفوكليس] بالاسبقية. وقيل ان فوزه حزّ في نفس [اسخيلوس] كثيراً حتى أنه كره البقاء في آثينا وغادرها الى [صقلية] كليم القلب ساخطاً. وفيها توفي ودفن قرب مدينة [غيلا Gela].

ويروي [آيون] عن أيام شبابه بعد نزوحه الى آثينا من [خيوس] بزمن قصير. إن مأدبة عشاء جمعته مع [كيمون] في منزل [لاوميدون Laomedon] وعلى أثر انتهائهم من الأكل وصبّ الخمر تكريماً للآلهة حسب العادة المتبعة، رغب الحاضرون من [كيمون] أن يغنيّ لهم أغنية فغنىّ وأجاد وتوالى الثناء عليه من المجلس. وعلقوا على سبقه [تمستوكلس] في مناسبة مماثلة سابقة، حيث قيل انه لم يتعلم لا الغناء ولا العزف قط، وانما تعلم كيف يملأ المدن ثراء وغنى ويزيد في قوتها وسلطانها. وبعد أن تشعب الحديث فيما يتصرف اليه عادة خلال هذه المآدب والحفلات عرجوا على ذكر أعمال ووقائع برز فيها [كيمون]. وجرت مفاضلة بأروعها فقال [كيمون] انهم أغفلوا واحدة وصل بها الى نهاية الدهاء وبعد النظر في أعتقاده. ثم راح يقصّها عليهم فقال: عندما وقع في أيدي الحلفاء عدد كبير من أسرى البرابرة في [كسقوس] و[بيزنطة] أعطيّ حق قسمة الغنائم فجعلها نصيبين: وجمع كل الأسرى في سهم وكل اسلابهم من الحلى والسلاح والنفائس والثياب في سهم فأحتج الحلفاء، قائلين انها قسمة بعيدة عن العدل فبادر [كيمون] الى منح الحلفاء حق الخيار في أحد النصيبين مصرحاً بان الآثينيين يرضيهم اي سهم متخلف. فأشار [هيروفيتوس Herophytus] الساموسي على الحلفاء أن يختاروا الأسلاب ويتركوا الأسرى للآثينيين. وانصرف [كيمون] مشيعاً بالضحك والسخرية لهذه القسمة السخيفة التي جعلت الحلفاء يستأثرون بالأساور والمعاضد والأطراق الذهبية والثياب الارجوانية تاركين للآثينيين أجساماً عارية هزيلة لا يستطيعون استغلالها في عملٍ لعدم تعود هؤلاء الأسرى على الاشغال الجسدية. لكن ما مَرّ زمن قصير حتى تقاطر ذوو الأسرى واصحابهم من ليديا وفريجيا، لافتدائهم بمبالغ جسيمة. وبهذه الطريقة حصل

[كيمون] على أموال طائلة أنفق منها على أسطوله وغاليوناته طوال اربعة أشهر وأرسل ما تبقى، الى الخزانة العامة في آثينا!

واصاب [كيمون] حظاً كبيراً من الغنى. وما اغتنمه من البرابرة بشرفٍ أنفقه على مواطنيه بشرفٍ. فقد أمر بهدم جدران بساتينه واسيجة اراضيه. مفسحاً السبيل للغرباء والمعدمين من بني قومه أن يقطفوا ما شاؤا من ثمارها بلا مقابل. وفي منزله مَدّ سماطاً دائماً يتسع لعدد كبير من القُصّاد رغم بساطة الطعام الذي يقدمه. وكان فقراء المدينة يطعمون منها باستمرار وبذلك لا يشغلهم البحث وراء الرزق عن واجباتهم العامّة ويشجعهم على التفرغ لها. على أن [ارسطوطاليس] يقول أن هذه المائدة لم تكن مشاعة لجميع الآثينيين وانما قصرها على ابناء عشيرته اللاكيادي، زد على هذا أنه أمر تابعين أو ثلاثة شباناً بملازمته في غدواته وروحاته وعليهم ثياب حسنة. فاذا صادف مواطناً متقدم السنّ في ثياب مبتذلة قام أحد هؤلاء الشبان باستبدال ثيابه بثياب المواطن المُعدم. وقد اشتهرت هذه البادرة وعدت من انبل الأعمال. كذلك أوجب على تابعيه هؤلاء أن يتزودوا بصرر من النقود، ليدسّوا في ايدي أفاضل الناس المملقين مبالغ منها أثناء وقوفهم الى جانبهم في الساحة العامة. والشاعر [كراتينوس] ينوه بهذا العمل في «ارخيلوكي Archilochi» أحدى كوميدياته أذ يقول عن لسان أحد شخوص التمثيلية:

«أنا [متيروبيوس] مسجل العقود الفقير.

ضمنت راحتي، وخفض عيش في ارذل عمري

بفضل انبل ابناء الأغريق في هذه الدنيا الفانية.

... انه [كيمون] ذا النفس الزكية، [كيمون] نفحة الآلهة.

وكانت أمنيتي أن أبقى مستمتعاً بالذّ الماكل والولائم

حتى يحين الأجل... الأجل الذي أخذه وآسفي

- قبل أن يأخذني...

ويقول عنه [جورجياس Gorgias] الليونتي: أنه أوتي سعة في الغنى لاستخدامه فيما يشرفه ويرفع من مقامه. ونجد [كريتياس Critias] أحد الطغاة الثلاثين يتمنى في أحدى ملاحمه الشعرية أن يُحرز...

«ثروة [سكوپادس Scopads]. ونبل [كيمون]. ونجاح الملك أغيسلاوس»

ونعلم أيضاً أن [ليخاس Lichas] لم يرتفع مقامه ويشتهر أمره في اليونان إلا لأنه كان معتاداً استضافة الغرباء القادمين لرؤية الألعاب في العهد الذي كان الصبيان يدخلون مسابقات العدو وهم عراة. إلاّ ان [كيمون] بذ الكرم الآثيني القديم وسخاءه. وللآثينيين الحق في أن يفخروا باجدادهم الذين علموا بقية الأغريق زراعة القمح واستخدام ينابيع الماء واشعال النار، إلاّ أن [كيمون] بابقاء باب بيته مفتوحاً لمواطنيه كافة وبافساحه للغرباء، أن يجنوا ما شاؤا من ثمار بساتينه في مختلف فصول السنة، يبدو وكأنه أعاد الى المجتمع البشري نظام شيوعية الأموال الذي كان سائداً كما تقول الأساطير في أيام حكم [زُحل: Saturn] أما المغرضون من الناس الذين رأوا في كرمه هذا وسيلة لخطب ودّ الناس، وتأييد الاوزاع والصعاليك، فيرد عليهم رداً مفحماً وهو الطابع الذي يميزّ سائر أعماله السياسية فقد تحرت دائماً مصلحة الطبقة العليا من القوم. وسارت وفق المبادىء السپارطية. ومن دلائلها قيامه هو و[اريستيدس] بمعارضة [ثمستوكلس] الذي كان يعمل على توسيع سلطات الشعب الى الحد الذي ينافي مبادئ القدالة، ومعارضته ايضاً [لايفيالطس Ephialtes] الذي دعا الى الغاء سلطات المجلس الاريوباغي ارضاءً لجمهور الشعب. ولما عمل كلّ معاصريه من الساسّة على الاثراء من أموال الشعب باستثناء [اريستيدس] و[ايفيالطس] تمسّك هو بعفته وابى ان يلوث يديه بها، وظلّ الى آخر ساعة من حياته لا يقول أو يفعل شيئاً يتحرى منه منفعة خاصة أو كسباً شخصياً. ويحدثونا أن [روسايس Rhoesaees] الفارسي الذي دبرّ مؤامرة للإطاحة بسيده الملك ثم هرب الى آثينا لاجئاً، أضطر الى مراجعة [كيمون] بعد أن ضاق ذرعاً باتهام المنافقين له الى الشعب لينتصف له منهم. ووضع أمام عتبة بيته تقرباً وتودداً - كأسين ملأ أحدهما بالذهب والثاني بداركيات Darcis فضية. فسأله [كيمون] باسماً: هل هو يرغب في خدمات [كيمون] المأجور، أم يريد صداقته، فأجاب انه يريد صداقته فقال [كيمون]:

- إن كان هذا مرامك فخذ نقودك؛ وقد تلجئني ظروف الحياة أن أرسل في طلبها يوماً بوصفي صديقاً لك!

دبّ الملل من الحرب في نفوس الحلفاء. وأثقلت عليهم الخدمة العسكرية، وتاقت أنفسهم الى الراحة والعودة الى زراعتهم وتجارتهم، بعد أن أجلوا أعداءهم عن بلادهم وقضوا على تهديداتهم. فأوقفوا ارسال السفن والرجال. إلاّ أنهم استمروا في دفع ضريبة نفقات الحرب المفروضة عليهم كالسابق. فراح جنرالية الآثينيين يكرهونهم بالاجراءات القضائية ضدّ المتخلفين وبالعقوبات الأخرى. مما جعل حكمهم ممقوتاً لدى الحلفاء. إلاّ أن [كيمون] عالج الموضوع بأسلوب جديد. فقد جعل الخدمة العسكرية اختيارية بالنسبة اليهم، شريطة أن يؤخذ

بدل نقديّ وسفن عوضاً عن الرجال من كل حليف يودّ الاعفاء من الخدمة العسكرية وهكذا تركهم يهيأون ببقائهم في أراضيهم والانصراف الى أعمالهم. فقعدا بهذا صفاتهم الحربيّة وقوتهم، وقلبتهم غباوتهم الى مزارعين وتجار يكرهون الحرب. أمّا [كيمون] فقد فرض على الأثينيين نظام التدريب العسكري الاجباريّ العام على شكل وجبات تدعى بالتعاقب الى الخدمة على ظهور السفن في تمارين عسكرية لتعويدهم على الضبط وحياة الجندية، وما هي الاّ فترة قصيرة من الزمن حتى جعلهم أسياداً لأولئك الذين قنعوا بدفع أجور لهم! فأخذوا يتملقونهم رهبة منهم ليجدوا أنفسهم بعد زمن مجرد تابعين وعبيد لهم لاحلفاء غباوة منهم وكسلاً وتراخياً. هذا والآثينيون دائبون على الاستزادة من المهارة والخبرة البحرية بانطلاقهم في كل مكان من البحر وعدم نزعهم السلاح.

وكان عمل [كيمون] في اذلال ملك الفرس مما يُضرب به المثل فلم يقنع بطرده من سائر بلاد الأغريق، وانما ظلّ يتعقبه باستمرار ولم يدع للبرابرة فسحة من الزمن لالتقاط انفاسهم. فهو أبداً في أعقابهم ينقض عليهم من حيث لا يحتسبون فيدمرّ ويخرب، ويستولي على المواقع والاقاليم، ويستحدث لهم الفتن والثورات في بعض البلاد، ويدخل صلحاً الى بعض الأقاليم، وهكذا حتى تمّ له تطهير آسيا كلها من القوات الفارسية، ابتداءً من [آيونيا] حتى [پامفيليا Pamphylia].

ووردة ما يشير الى آن قواد الملك قد استعدوا له متربصين على ساحل [پامفيليا] بجيش من المشاة لا يحصى عدده، وباسطول جبّار. فقرر أن يجعل البحر كله من جهة الجزر الخلقيدونية مغلقاً في وجههم، منيعاً لا يجرأون على أقتحامه. وانطلق من [كنيدوس Cni-dos] ورأس تريوپيا Triopia بمائتي بارجة كان [تمستوكلس] قد أشرف على بنائها بنفسه وفق مواصفات معينة فتميزت بسرعتها وسهولة دورانها، واضاف اليها [كيمون] تحسينات أخرى فوسعها وجعل سطوحها عريضة من الجانبين لتسهل حركة البحارة فوقها وتتسع لعدد كبير من الجنود بكامل سلاحهم وتتيح لهم المساهمة في القتال البحري. ورسم خطته بأن تكون مدينة [فاسيلس Phasiles] هدفه الأول وهي وان كانت مأهوله بالاغريق - موالية للفرس فاتجه اليها ولدى وصوله امتنعت عنه وابت دخول سفنه مرفأها فأجتاح اراضيها ثم القى عليها الحصار. وكان جنود [خيوس] الذين يخدمون في جيشه اصدقاء للفاسيليين منذ القديم فحاولوا التوفيق بالتوسط لدى الجنرال، وراحوا في الوقت عينه يفوقون على المدينة سهاماً تحمل رسائل بانباء مساعيهم. وبالأخير عقد الصلح ومن شروطه ان يدفعوا عشرة تالنتات غرامةً، وان ينضموا الى [كيمون] في حربه مع البرابرة.

يقول [ايفوروس] ان قائد الاسطول الفارسي هو [تثراوشتا Tithraustes] وقائد الجيش البريّ هو [پيراندات Pherendatus]. إلاّ ان [كاللسيثينيس] يؤكد بأن [آريوماند Ario-mandes] كان القائد الأعلى لجميع القوات. وانه كان ينتظر باسطوله في مصب نهر [يوريميدون Eurymedon]، وليس عنده اية نية في القتال، لأنه كان ينظر ورود نجدة فينيقية من ثمانين سفينة أقلعت من قبرص في طريقها اليه. وكان [كيمون] بعلم بهذا فأنطلق في ارغامهم عليه ان أبوا. وما أن لاح اسطوله للبرابرة حتى انسحبوا الى داخل المصب تفادياً لأي هجوم. إلاّ ان الآثينيين أطبقوا عليهم. فأضطروا الى التخلي عن فكرة الانسحاب، وواجهوا خصمهم بستمائة سفينة فحسب. إلاّ انهم لم يحققوا ما ينتظر من هذه القوة الضخمة اذ ما لبثوا أن اداروا دفاتّ السفن نحو الساحل، والقى اوّل الواصلين بأنفسهم الى اليابسة واسرعوا الى جيشهم البريّ الذي كان قد أعَدّ نفسه للقتال في تلك الناحية. في حين هلك الباقون أو وقعوا أسرى هم وسفنهم، والمرء يستطيع تخمين عددهم فخلافاً لمن فرَّ ناجياً من ميدان القتال، ومن أبتلعته الأمواج، غنم الآثينيون ماءتي سفينة.

ولما دنا الجيش الفارسي البّري من الساحل، أستبدت الحيرة [بكيمون] ولم يدر هل يغامر بشق طريقه الى البرّ فيعرض رجال اليونان الى سيوف البرابرة بعد أن أنهكت قواهم مذبحة الاشتباك الأول. في حين كان البرابرة مستجمين لم يدخلوا اية معركة فضلاً عن تفوقهم في العدد أضعافاً، الا أنه وجد حماسة جنوده لدخول المعركة ونشوتهم بالنصر أشدّ من أن يُحال دونها فأمر بالنزول الى البرّ وحرارة المعركة الأولى ما تزال في جسومهم. وما أن وطئت أقدامهم الأرض حتى أطلقوا صيحة عظيمة وانقضوا على العدو، فوقف لهم وصمد لأول هجمة مبدياً شجاعة كبيرة. ثم أنقلب القتال ضارياً عنيفاً. وخر في الميدان عدد من ابرز الآثينيين مقاماً وبسالة. وأخيراً تمكنوا من هزيمة البرابرة بعد صعوبات وأهوال. فقتلوا من العدو من قتلوا، وأسروا من أسروا، ونهبوا كل خيامهم وسرادقاتهم الملأى بالغنائم الثمينة. وكان [كيمون] اشبه بالرياضي البارع في المسابقة. فقد أحرز نصرين في يوم واحدٍ. وفاقت معركته البحرية معركة [سلاميس]، وكانت معركته البرية، أعظم من معركة [پلاطيا]. وهذا ما شجعه على اطلاب نصر آخر فقد وردته انباء عن وصول النجدة الفينيقية وقوامها ثمانون بارجة الى [هيدروم Hydrum] فأنطلق نحوها بأقصى سرعته. وكانت النجدة لا تدري ما حَلّ بالاسطول الأكبر. وانتابتها الحيرة فيما تفعل وبوغتوا [بكيمون] وهم في حيرتهم ينقض عليهم، ففقدت كل سفنهما ومعها معظم رجالها. هذا النصر الأخير اورث الملك الفارسي فزعاً عظيماً والجأه فوراً على طلب ذلك الصلح الشهير الذي تعهّد فيه أن لا تقترب جيوشه من

البحر اليوناني أكثر من مدى مرحلة حصانٍ وأن لا تظهر اية سفينة او بارجة من اسطوله فيما بين الجزر [الكيانية Cyania] والجزر [الخيليدونية Chelidonia]. على أن [كاللسثينيس] ينفي الاتفاق على مثل هذه الشروط ويقول أن الخوف الذي اشاعه هذا النصر، حمل الملك الفارسي على الابتعاد عن بلاد الاغريق بهذا المقدار من تلقاء نفسه. حتى ان [بيركلس] و[ايغيالطس] عندما انطلقا ما وراء جزر [خيليدونيا] أولهما بخمسين سفينة، وثانيهما بثلاثين، لم يقعا على سفينة فارسية واحدة. إلاّ ان مجموعة المراسيم الجمهورية العامة التي صنفها [كراتيروس Craterus] تتضمن صورة لهذه المعاهدة. وقيل أيضاً ان الآثينيين أقاموا في مدينتهم مذبحاً لآله السلم بمناسبة هذا الصلح، وقرروا تكريماً خاصاً لـ[كاللياس] الذي كان قد أرسل سفيراً لإبرام المعاهدة.

وجنى الآثينيون مالاً طائلاً من غنائم هذه الحرب. التي بيعت بالمزاد العلني. وصرفوا منها الكثير على بناء السور الجنوبي من القلعة ووضع أسس الأسوار الطويلة المسماة «بالسيقان»، التي لم تكمل الاّ بعد مرور فترة من الزمن طبعاً. وكانت مواقع الأسس منطقة مستنقعات وتربة رخوة ولذلك اضطروا الى استخدام كميات كبيرة من الحجارة الضخمة والأتربة لردمها وتقويتها. كلّ ذلك صرفوا عليه من الأموال التي كسبها [كيمون]. وكان أوّل من بدأ بتجميل الجزء المرتفع من المدينة، بتلك الابنية البديعة المزخرفة التي خصصت للاصطياف ومزاولة الرياضة وكثر الإقبال عليها فيما بعد. وشجرّ الساحة العامة وحوّل «الاكاديمي» الى حديقة تسقى ذات مماشٍ ظليلة تعكف عليها الغصون، وباحات منبسطة للسباقات الرياضية بعد ان كانت بقعة جرداء جافة.

عندما بسط الفرس سيادتهم على الخرسونيز ولم يكن لديهم نية في الخروج منها، ناشدوا الشراقيين من داخلية البلاد المساعدة ضدّ [كيمون] وكان هؤلاء مستهينين بقواته الضئيلة، فأنقضى عليهم باربع بوارج لا غير وأستولى على ثلاث عشرة سفينة من سفنهم. وبعد ان طرد الفرس من الخرسونيز وخضد شوكة الشراقيين ضمّ هذه الجزر الى املاك آثينا. وهاجم أهالي [تاسوس] الذين انتقضوا على حكم آثينا وهزمهم في معركة بحرية وغنم منهم ثلاثة وثلاثين سفينة، وأستولى على مدينتهم بعد تشديد الحصار عليها، ونقل الى الآثينيين ملكية كل مناجم الذهب الواقعة على الساحل المقابل. وجميع الاقاليم التابعة [لتاسوس]، وبذلك بات طريقه الى مقدونيا مفتوحاً وكان منتظراً منه أن يقتطع منها جزءً كبيراً، ولأنه لم ينتهز هذه الفرص حامت الشكوك حول ضعف ذمته، وارتابوا في أخذه رشوةً من الملك الاسكندر. ثم أتحدّ عليه خصومه واتهموه بالخيانة العظمى. وفي دفاعه الذي ألقاه امام مجلس القضاة قال: انه

ظلّ في حياته العامة يبدو لا كالآخرين، صديقاً للآيونيين والثساليين الاغنياء، يتسلم منهم الهدايا والعطايا، وانما ظهر صديقاً للقيديميين، لأنه كان معجباً بهم تألقاً الى احتذاء حذوهم في بساطة العيش وسذاجة الخلق. وهو ما كان يفضله على كلّ شكل من أشكال الغنى. على أنه كان فخوراً على الدوام بجهوده لجعل بلاده غنية بغنائم أعدائها. ونوّه [ستسمبروتوس] بالمحاكمة وذكر ان [الپينيس] قصدت [پيركلس] متشفعة في أمر أخيها. وكان هذا أشدّ متهميه اصراراً. فأجابها باسماً.

- إنك يا [الپينيس] في سن لاتسمح لك بالتدخل في مثل هذه الشؤون.

على أنه تبين بأنه أكثر متهميه اعتدالاً. ولم ينهض طوال الجلسة إلاّ مرة واحدة. ليتهمه وفق ما تحتمه الشكليات فحسب. وبرئت ساحة [كيمون].

وبعد هذه استمر في حياته العامة يعمل على كبح جماح جمهور الشعب والسيطرة عليهم لئلا يستظهروا على النبلاء ويستأثروا بكلّ السلطة والسيادة. ولكن الجمهور نشط من عقاله على اثر خروجه الى الحرب، واطاحوا بكلّ الشرائع القديمة والعادات التي ظلّت متبعة زمناً طويلاً، وسحبوا صلاحيات مجلس الاريوباغي كلها تقريباً. ومنعوه من رؤية الدعاوى القضائية وبهذا أنتقلت اليهم كل السلطات القضائية، وهذا تمّ باقتراح من [ايغيالطس] بنوع خاص، وأنقلب الحكم ديمقراطياً صرفاً وعاون [پيركلس] في ذلك إذ كان حينذاك في الحكم، ويقف الى جانب العامة بصورة واضحة. واضطرب [كيمون] اضطراباً شديداً لرؤيته مجلس القضاء الأعلى مجرداً عن سلطته، عند رجوعه الى الوطن وحاول معالجة هذه المشاكل باعادة السلطة القضائية للمحاكم المدنية، واحلال الارستقراطية الغابرة التي كانت تطبق منذ عهد [كلسثينس Clisthanes] ولقيت اجراءاته هذه أعنف مقاومة ممكنة وبدأ المعارضون في أحياء تلك الحكايات المتعلقة به وباخته وأخذوا يهاجمونه قائلين انه صنيعة اللقيديميين والى هذه الانتقادات تشير قصيدة الشاعر [يوپوليس Eupolis] المشهور اذ يقول قاصداً [كيمون]:

«إن المرء لا يسعه إلاّ ان يجد فيه الصلاح غير انه مولع بالشراب، ومجالس الأنس وكثيراً ما تراه في الليّالي يخرج الى سپارطا متجولاً، تاركاً أخته في المنزل وحيدةً!»

واذا كان سكيّراً، كسولاً، فها هوذا يستولي على مدن كثيرة ويفوز بانتصارات عديدة مع ذلك. ولو كان خالصاً من هاتين الرذيلتين والتزم جانب الوقار والحشمة. لما كان له صنو بين قادة الأغريق لا قبله ولا بعده، في المآثر الحربية.

كــان في الـواقع من أنصـــار اللقــيــديـيـين منذ شــبـــابه. ولذلك ســمّى ولديه التـــوأمين [لقـيـديمونيـوس] و[ايليـوس] اللذين ولدا له من امـرأة كليتـوريّة Clitorium على مـا يقـوله [ستـسـبـمروتوس] – ولذلك كـثـيراً مـا تجـد [پـيـركلس] يعيّـرها بأصل امهـمـا. على أن [ديودوروس] الجغرافي يؤكد أن هذين التوأمين وابناً آخر لكيمون يُدعى [ثسالوس] قد ولدوا [لإيسديك] بنت [يوربطوليموس] ابن [ميغاكليس].

وعلى اية حال فـما هو مـؤكد في الأمـر، أن [كـيـمون] كان يحظى بتـأييـد اللقـيـديمين ضدّ [تمستوكلس] الذي كان مبغضاً منهم. وقـد ساندوه وهو بعـد فـتىً وعـملوا على رفع مكانته وزيادة نفـوذه في آثينا. ورحّب الآثينيـون بهـذا وسرّوا له في مـبدأ الأمر، وكـانت المحاباة التي أظهرها له اللقـيـديميـون مفـيـدةً لهم ولأمـورهم من شـتّى الطرق، فـقـد كانوا في تلك الحقبـة من الزمن يتوقلون أولى درجات العظمة والقوة ويعملون جاهدين لكسب الحلفاء الى صفهم ولذلك لم يجدوا في تكريم اللقـيديميين [كـيمون] والعطف عليـه اي داعٍ للغـيظ و[كـيـمون] اذ ذاك القـائد العـام لقـوات الاغـريق، والمدبّر الأعلى لشؤونهم مـوضـع رضى اللقـيـديميين؛ مـحـبـوباً من الحلفاء لحسن مـعـاملته. ولكن مـا أن تعـاظمت قوة آثينا وزادت شوكـتهـا حتى بدأوا يكرهون في [كيمون] اخلاصه للقيديميين وشدة حبّه لهم. وغـاظهم منه تفضيله اياهم على الآثينيين في كل حديث ومناسبـة يريد بهـا تعنيفهم عن خطأ أرتكبوه أو اثارة حـماستهم لعملٍ ما، فـينتـهرهم بقوله:

– ان اللقيديميين لايعملون هكذا.

فكان هذا يزيد من سـخطهم عليـه ويبـغّضـه الى المواطنين إلاّ أن مـا شـددّ عليه نـكير الاتهـام هو الحادثة التالية وما نجم عنها من مضاعفات:

في السنة الرابعة لحكم [ارخيداموس] ابن [زيوكسيداموس Zeuxidamus] ملك سپارطا. حَلّ بالبلاد اللقـيـديمـيّـة أعظم زالزال ارضيّ وعـتـه ذاكرة البـشـر. فـقـد تشـقـقت الأرض شـقـوقـاً عظيمـة. وبلغ من شدّة الهزّة في جبل [تايغيتس Taygetus] أن انهار بعض قـمـمه الصخرية. ومن مـدينة سپـارطا لم يبق غـيـر خمـسة مـنازل قائمـة. فـقـد تقـوضت هذه الحـاضرة ودكت دكـاً. وذكروا انه قبيل الهزّة بقليل كـان بعض الفتيان والصبيان الصغار يقومـون بتمارينهم الرياضية معاً في وسط رواق الملعب فمرق من جنبهم على حين غرةٍ، أرنبٌ مذعور فأسرع الفتيان وراءهم وهم عـراة واجسـامـهم مدهونة بالزيت، يريدون الاستـزادة في التـمرن والريـاضـة، حتى اذا باتوا خـارج البنـاء، خرّ الملعب على الصـبـيــان البـاقين ودفنوا تحت انقـاضـه. وضـريحـهم يســمّى «سيـسـماتيـاس Sismatias» الى يومنا هذا.

واستبد القلق [بارخيداموس] على بلادة. وأخذ يتحسب ما سينزل بها بعد هذه النكبة. وعندما رأى مواطنيه منشغلين باستخلاص ما غلا ثمنه من أموالهم المطمورة تحت الانقاض، أمر باطلاق اشارة الخطر كأن عدوّاً قد داهمهم. وقصد من هذا جمع شملهم حوله بكتلة واحدة، وهم بكامل سلاحهم. وهذا وحده هو الذي انقذ سپارطا في حينه، فقد تجمع [الهيلوت] في الارض المجاورة وفي نيتهم مباغتة السپارطيين بهجوم للقضاء على من أبقى الزلزال منهم فوجدوهم على اتم استعداد للقائهم وهم بكامل سلاحهم، فارتدوا عنهم الى المدن وبادؤوهم بالحرب واستظهروا على عدد من اللاقونيين في المناطق الريفية. واغار الميسينيون في الوقت ذاته على السپارطيين. فأرسل هؤلاء [پيريقليداس Periclidas] الى آثينا بطلب النجدة. وهو الذي قال عنه ارسطوفانس في معرض السخر والتندر: إنه جاء...

«بمعطف أحمر، وجلس في الهياكل بوجه ممتقع

أبيض، وراح يطلب رجالاً، وسلاحاً»

وعارض [ايفيالطس] في الطلب وحجته أن ليس ثم ما يحملهم على معاونة واعادة بناء مدينة كانت خصماً منافساً لآثينا ومن الخير ابقاؤها على حالها بعد أن هوت الى الدرك الأسفل. وان يترك كبرياء سپارطا وغطرستها تحت موطيء الأقدام...

إلاّ ان [كيمون] على حَدِّ قول [كريتياس] «قدّم سلامة لقيديمون على عظمة بلاده»، فأقنع الشعب ان يبعث به على رأس جيش كبير لنجدتهم ويسجل [آيون] أبلغ تعبير لكيمون وانجحه في اثارة عواطف الآثينيين لمساعدة اللقيديميين، اذ قال لهم:

- لاتدعوا بلاد الأغريق تصاب بعرجٍ، ولاتدعوا مدينتكم نفسها تفقد زميلها في جرّ نير الفدان!

ومرّ بجيشه عبر اراضي كورنث عائداً بعد معونة اللقيديميين فعاقبه [لاخارتوس Lachar-tus] على اجتيازه بلاده قبل يطلب إجازة من الشعب الكورنثي لأن من يطرق باب غيره لا يدخل البيت حتى يأذن له ربّه، فأجاب [كيمون]:

- لكنكم أيها الكورنثيون، لم تطرقوا ابواب الكليونيين Cleonæens والميغاريين. وانما كسرتموها ودخلتموهما عنوة واقتداراً، وفي اعتقادكم يا صاحبي [لاخارتوس] أن كل الابواب يجب ان تفتح في وجه الأقوى!

كذا كان جوابه للكورنثي مسكتاً. ومر بجيشه عائداً الى الوطن. ومرّ بعض الوقت وبعث اللقيديميون يستجيرون بالآثينيين على الميسينيين والهيلوت ثانيةً، وكان هؤلاء قد استولوا

على مدينة [اثيوم Ithome] فلما وصل الآثينيون، ردّهم السپارطيون الى ديارهم معتذرين لهم بأن القصد من دعوتهم كان تطبيقاً لخطة أمنٍ ابتكروها لحماية أنفسهم لا غير. فأرتد الآثينيون الى بلادهم وهم يتميزون غيظاً لهذه المعاملة، وراحوا يصبون جام غضبهم، وينفثونه في كل نصيرٍ للقيديميين. وأتخذوا حجّة تافهة على [كيمون] لنفيه عن البلاد عشر سنوات. وهو العقاب الذي كان يوقع بأولئك الذين يراد ابعادهم عن البلاد دون محاكمة. وفي اثناء ذلك اتمّ اللقيديميون تحرير دلفي من سيطرة الفوكيين، وعادوا وضربوا خيام معسكرهم في [تناغرا] فأسرع الآثينيون اليهم مصممين على قتالهم.

وأقبل [كيمون] الى ميدان القتال وانخرط في صفوف رجال عشيرته الأونياس Oeneis ضدّ السپارطيين فسمع مجلس شورى الخمسمائة بمقدمه فخشي العاقبة، واقام خصومه القيامة على المجلس واحتجوا على بقائه قائلين أن ذلك سيحدث فتنة في صفوف الجيش فأصدر المجلس أمراً لآمري القطعات بعدم قبول [كيمون]، فأضطر الى ترك صفوف الجيش على انه استحلف [يوثيپّوس Euthippus] و[انافليستيان Anaphlyatain] وبقية رفاقه قبل انصرافه بأن يبلوا أحسن البلاء في القتال ويظهروا أقصى ما يمكنهم من البسالة في وجه العدوّ، وان يبرهنوا بأعمالهم على كذب الفرية التي الصقت بهم وهي ممالئتهم وانتصارهم للقيديميون تلك التهمة التي الصقت بهم ظلماً. وكانوا مائة فحسب؛ أخذوا سلاح [كيمون] وآلوا على أنفسهم العمل بما اوصاهم. وجعلوا أنفسهم كتلة واحدة وقذفوا بأنفسهم في اتون المعركة فقتلوا الى آخر رجلٍ وتركوا الآثينيين يعضون بنان الندم لشكهم الظالم فيهم، وكان اسفهم عميقاً لخسارة هؤلاء الرجال الصناديد. ثم أنّ حدتهم على [كيمون] زايلتهم بعد زمن وجيز وأخذوا يتذكرون خدماته الجليلة السابقة أو لعلّ أحوال الزمان هي التي الجأتهم الى ذلك. فقد أصيبوا بهزيمة نكراء في موقعة [تناغرا] الهامّة وغشيهم الخوف من مداهمة أهل الپيلوپونيس لهم في أوّل الربيع وبادروا الى أصدار مرسوم بالغاء نفيه واستدعائه. وأسهم [پيركلس] بالدور الأول في ذلك. كذلك كانت احقاد رجال ذلك العهد لا تخرج عن حدود المعقول، وكذا كان غيظهم معتدلاً، يفسح السبيل على الدوام لتقديم المصلحة العامة عليه، حتى طموح النفس وهو أشدّ الطباع تحكماً في البشر واصعبها سيطرة، فقد أمكنهم السيطرة عليه واخضاعه الى مقتضيات الحكم ودواعيه.

ما أن أستقر المقام [بكيمون] حتى بادر الى وضع نهاية للحرب. وأحَلّ الوئام والصفاء بين المدينتين ووطد دعائم السلم. إلاّ أن الفراغ الذي احدثه السلام عند الآثينيين جعلهم نافذي الصبر، تألقين الى الحرب وما فيها من عظمة ومجد. وخشي [كيمون] ان يؤدي ذلك بهم الى

الانقضاض على غيرهم من الأغريق او أن ينطلقوا بسفنهم العديدة نحو جزر البيلوبونيس مُتحرشين خالقين عدة ذرائع لحرب داخلية، أو منح اسباب للتظلم والشكوى من حلفائهم. فهيأ مئتي سفينة حربية لغزو قبرص وبلاد مصر؛ وقصده تعويد الآثينيين قتال البرابرة، والاغتناء بطريق شريفة، من اسلاب أولئك الذين كانوا اعداء الاغريق الأصلاء. ولما تمّ اعداد كل شيء وتأهب الجيش لركوب السفن حلم [كيمون] حلماً، تراءت له فيه كلبة مسعورة أخذت تنبح في وجهه، ويسمع خلال نباحها صوت بشري يقول:

«تعال، فعمّا قريب ستكون مصدر سرورٍ لي ولجرائي»

وصعب تفسير هذا الحلم. ثم ان [اسطيفيلوس Astyphilus] البوسيدوني Posidonia صديق [كيمون] وهو رجل مهر في تفسير النبوءات، قال ان الحلم ينبيء بموته وفسره على النحو الآتي: الكلب هو عدوٌ له ينبح في وجهه. وموت المرء يكون دائماً مصدر سرورٍ لعدوّه. والنباح الذي يتخلّله الصوت البشري يشير الى الميديين لأن جيشهم خليط من الأغريق والبرابرة.

بعد الحلم وفي اثناء تقريبه لباخوس، وحينما كان الكاهن يعمل في الذبيحة تقطيعاً، خرج بعض النمل وحمل قطعاً من الدم المتخثر والقاها عند إبهام قدم [كيمون] وفي أول الأمر لم يلحظ ما جرى ولما انتبه اليها كان الكاهن يريه كبد الذبيحة ناقصاً القسم الذي يدعى الرأس منه. ومع كل هذه النذُر لم يسعه العدول عن سوق الحملة، وابحر لطيته. وافرد ستين سفينة من الاسطول لاحتلال مصر وأنطلق بالبقية لقتال اسطول الملك الفارسي المؤلف من السفن الفينيقية والكيليكية واستعاد كل المدن في تلك الربوع وهددً مصر. وكانت خطته العامة تتضمن القضاء التام على الامبراطورية الفارسية. زاد من حماسته لتطبيقها ما ورده عن [تمستوكلس] وسمعته العظيمة عند البرابرة، وقطعه عهداً للملك الفارسي بأن يتولى قيادة جيشه لحرب الاغريق متى خلاله اعلان الحرب عليهم. على ان [تمستوكلس] فقد كل أمل في تحقيق نياته على ما قيل، ومات حتف انفسه في غمرة يأسه من التغلّب على [كيمون] وحسن حظه.

صحّ عزم [كيمون] اذن على وضع خطته موضع التطبيق. فكان أول عمله ابقاء اسطوله مرابطاً بالقرب من قبرص. وارساله سعاة الى [جوبتر امون] بطلب نبوءه في أمرٍ حرص على كتمانه فلم يحظ بجواب من الربّ لسريّة الطلب، وأمرهم بالعودة من حيث اتوا لأن كيمون معه الآن. فعادوا الى البحر وبوصولهم معسكر الجيش اليوناني الذي كان اذ ذاك في جوار البلاد المصرية. علموا بموت [كيمون] واتضح لهم بالحساب أن النبوءة كانت تشير الى موته، وانه كان وقتئذ في عالم الأرباب.

وتقول فئة من الكتاب أن موته كان عن مرض ألمّ به أثناء حصاره [كيتيوم Citium] في قبرص، وزعم لفيف انه مات من جرح أصيب به في اشتباك مع البرابرة.

ولم ايقن بدنو اجله أمر ضباط جيشه بالعودة الى الوطن. وأوصاهم أن يكتموا نبأ موته كتماناً تاماً طوال الرحلة عن الصديق والعدوّ سواء بسواء، ففعلوا وهكذا قاد [كيمون] الجيش اليوناني ثلاثين يوماً بعد وفاته» على حَدّ تعبير [فانوديموس Phanodamus]. ولم يقم بعد موته بين الاغريق قائدٌ حقق عملاً يستأهل الذكر ضد البرابرة. وقام الزعماء الشعبيون وانصار الحرب - بدلاً من اتحادهم ضد العدوّ المشترك - يحرضّ بعضهم بعضاً ويصطرعون فيما بينهم وبلغ الانقسام حداً أحجم معه الخيّرون عن التدخل والتوسط في المصالحة. ولم تكن نتيجة خلافاتهم قاصرة على اضمحلال سلطان الاغريق وحده، وانما اتاحت للفرس وقتاً كافياً للاستجمام واستعادة كل ما خسروه. الحق يقال أن [اغيسلاوس] حمى راية القتال اليونانية الى قلب آسيا ولكن ذلك وقع بعد زمن متأخر جداً. وكذلك جرت له حروب قصيرة الأمد مع قواد الملك في الاقاليم الساحلية. الاّ أنهم تلاشوا امامه بسرعة. وقبل أن يحقق [اغيسلاوس] شيئاً مذكوراً أستدعي الى الوطن لمعالجة انقسام سياسيّ جديد وتناحر داخليّ فاضطر الى ترك قواد الملك الفارسي يفرضون ما يشاؤون من الأتاوات على المدن اليونانية الحليفة والمتحدة اتحاداً سياسياً مع اللقيديميين في آسيا. بينما لم يكن يجرأ ساعي بريد او فارس ان يدنو من الساحل أكثر من اربعمائة فرلنغ في عهد [كيمون].

والانصاب المشهورة [بالكيمونية] الى يومنا هذا في آثينا تؤيد نقل رفاته الى الوطن. ومع هذا فان سكان [كيتيوم] يقدسون بصورة خاصة ضريحاً يطلقون عليه [قبر كيمون] ويقول [ناوسيقراطس Nausicrates] البليغ ان أهلها استنزلوا نبوءة أيام مجاعة حلت بهم عندما أمحلت ارضهم. فأمروا بالاّ ينسوا [كيمون] وان يقدموا له اكرام الرب. هكذا كان القائد الاغريقي [كيمون].



LUCULLUS

(Lucius Licinius)

106 — 57



كان جَدّ لوكوللوس قنصلاً وخاله هو ميتيللوس الملقب نوميديكوس Numidicus. واما عن ابويه، فان والده حكم عليه بجريمة الاستغلال. وسمعة امه لم تكن بعيدة عن الشبهات. وأول اعمال [لوكوللوس] قبل ان يتقدم لأية وظيفة أو يتدخل في شؤون سياسة الدولة هو اتهام متهم أبيه العرّاف الكاهن [سرفيليوس] فقد ضبطه بجريمة ارتكبها ضدّ الدولة. وكان ذلك في مطلع شبابه فحظي من الرومان باهتمام كبير ولفت اليه الانظار بهذا العمل الذي عد من الاعمال الجديرة بالثناء وان كان اقدامه عليه من دون استفزاز فالرومان يغتبطون لما يرون الشبان ثائرين على الظلم كالكلاب الأصيلة وهي تهاجم الوحوش الضارية. إلاّ ان خصومات عنيفة نشأت عن ذلك وادت الى معركةٍ بين الخصوم جرح فيها من جرح وقتل من قتل، وفرّ [سرفيليوس] على أثرها هارباً.

تابع [لوكوللوس] دراساته وتخرّج خطيباً مصقعاً باللغتين اليونانية واللاتينية، حتى أنّ [سيللاّ] قدم تعليقاته التي كتبها عن حياته وأعماله، اليه بوصفه الشخص القادر على الإتيان بمثل هذا التأليف بنفسه. ولم تكن خطبه مجرد خطب متفننة منسجمة والغاية المقصودة منها كأي خطبة عادية تُلقى في الساحة العامة على الجماهير...

«وتسوطُ صفحة البحر مثل سمكة التونة الجريحة»

ولكنها قد تكون في مناسبة أخرى:

«جافة خشنة لافتقارها الى النكتة»

وكان منذ مطلع شبابه منصرفاً الى مدارسة الفنون الحرة لذاتها ولما تقدمت به السنّ واجتاز حياة ملؤها الكفاح والنضال، أطلق العنان لعقله ومنحه الحرية التامة للتمتع بكلّ ما تمنحه الفلسفة من راحة وجدانية وانتعاش فكري. متوسلاً بكلّ مقدرته على التأمل ليكبح في الوقت المناسب جماح شعور الطموح وحبّ المناسبة بعد أن أشتدّ خلافه مع [پومپي] اشتهر ايضاً بأمرٍ آخر خلاف اطلابه العلم، وهو أن اقتراحاً عرض عليه في شبابه، للكتابة عن الحرب المارسيّة Marsian ماعتم ان انقلب الى أمرٍ جدّي فأتفق هو و[هورتنسيوس المحامي]، و[سيسينا Si-

senna] المؤرخ ان يسحبوا قرعة في هذا الصدد. ففعلوا ويظهر أن السهم الذي وقع عليه كان الكتابة باللغة اليونانية، اذ ان تاريخياً يونانياً عن هذه الحرب قد وصلنا.

ومن الدلائل الكثيرة التي تؤكد مشاعر العظيم لأخيه [ماركوس] حادثة يتناقلها الرومان ويذكرونها أبداً. كان [لوكوللوس] أكبر من أخيه هذا الاّ أن نفسه أبت عليه ان يتسلّم اية سلطة عامة دون ان يكون أخوه فيها الى جانبه. فأخر تقدمه السياسي حتى وصل أخوه حَدّ اللياقة للمساهمة معه. وبلغ عمله هذا من قلوب الشعب مكاناً لن يترددوا معه من اسناد منصب الايديل معه في غيابه!

وأظهر قبل الاوان عدة دلائل على بسالته، وحسن ادارته خلال الحرب المارسية. وأعجب [سيللا] بمثابرته، ولطف حاشيته وكان ينيط به دوماً أهم الواجبات، نذكر منها اشرافه على دار الضرب. فهو الذي تولى في البلوبونيس صك معظم النقد الذي استخدم لمصرف على حروب [ميثريدات]، شقت هذه العملة طريقها الى التداول بسرعة لحاجة الجنود الماسّة، وظلت رائجة مدة طويلة وعرفت باسم «عملة لوكوللوس». وبعد ان فتح [سيللاً] مدينة آثينا. وحقق انتصاراته البريّة. وجد ان خطوط تموين جيشه البحرية مقطوعة لسيطرة العدوّ التامة على البحر. فوقع اختياره على [لوكوللوس] لتأمين الارزاق وبعث به الى ليبيا ومصر. وكان الوقت عَزّ الشتاء عندما تلمس سبيله بثلاث سفن اغريقية صغيرة الحجم وبمثلها من الغاليونات الرودسيّة. وكان عليه أن يضرب في البحر الاوقيانوس المترامي متحاشياً ما لايحصى من السفن العدوة التي تجوب البحر ذاهبة آيبة وسيدةً مطلقةً. وبلغ جزيرة [كريت] فضمها الى جانبه. وكان أهلها الكيريتيون يرزحون تحت مظالم عهود الطغيان الطويلة، وقد انهكت قواهم الحروب. فازال شكاواهم ووطد دعائم حكومة جيدة لهم معيداً الى ذاكرتهم القول المأثور الشبيه بالوحي المنزل لدقته واصابته الذي وجهه اليهم افلاطون عندما طلبوا منه أن يضع لهم شرائع جديدة ويضع أسس جهاز حكومي سليم لهم فردّ عليهم قائلاً:

- إن اشتراع قوانين لأهل كريت عملٌ في منتهى الصعوبة، وهم في هذه الحالة من الغنى والثراء. اذ ليس ثم اصعب قياداً من المرّفه والثري، ولا أساس أكثر أستعداداً للطاعة ممن يُذلّه الحظّ ويُملق.

فتبدل حال أهل كريت إذن هو الذي جعلهم يقبلون على تطبيق قوانين [لوكوللوس]، ويخضعون لها بملء الرغبة. بعد هذا أقلع [لوكوللوس] الى مصر، وعاني الكثير من مضايقة القراصنة وملاحقتهم وفقد معظم سفنه إلاّ انه أفلت منهم سالماً بما يشبه الاعجوبة. وبلغ [الاسكندرية] فدخلها دخولاً فخماً وبابهة تليق بالملوك. فقد خرج الاسطول كله وأنتظم صفوفاً

لاستقباله وأظهر له [بطليموس] الشاب لطفاً لا مزيد عليه. واحله في قصره وآكله فيه وهو ما انفرد به لوكوللوس اذ لم يسبق لقائد أجنبي أن استضيف في القصر. وأغرقه بالهبات والعطايا لا كتلك التي تهدى لن هم في مقامه عادة، وانما بلغت اربعة اصفافها. لكن [لوكوللوس] أبى عنها وردّها إلاّ ما يسدّ حاجته وقدم له ما يربو على ثمانين تالنتاً منحة فلم يقبلها. وقيل أنه ابى زيارة مدينة [ممفيس] أو اي مشهد عجيب من مشاهد مصر. تاركاً هذا للطلعة المتبطلين الذين لا عمل لهم. لا لرجل مثله ترك قائده في ميدان القتال معسكراً امام استحكامات الاعداء.

كان [بطليموس] قد خرج من الحلف، بسبب تخوفه من نتائج هذه الحرب. إلاّ أنه ارفق بركبه قافلةً بحرية حتى قبرص. وفي ساعة الوداع الذي تمّ بكثير من الحفاوة والمجاملة تمنىّ له أطيب رحلة وقدم له زمردة ثمينة جداً في حلية من الذهب فهم [لوكوللوس] بردّها إلاّ ان الملك اراه صورته محفورة عليها. فلم يجد [لوكوللوس] من الحصافة واللياقة رفضها. إذ لو أفترق عنه باهانة صريحة كهذه لجعل رحلته محفوفة بالخطر ثم أنه خرج الى البحر ترافقه عمارة بحرية كبيرة كان قد أرسل بطلبها. فسار ميمماً المدن الساحليّة. ويتحاشياً منها تلك التي يشك في احترافها مهنة القرصنة، ثم أتجه الى قبرص ولما أشرف عليها علم ان العدوّ يتربص به في الجرف الساحلية المرتفعة فأخفى أسطوله وبعث الى المدن يطلب أقواتاً لرجاله لعزمه على قضاء الشتاء هناك، ولكنه تحين فرصة موآتية فأنزل سفنه في غفلة من العدوّ وأنطلق ناشراً كل اشرعته في الليل. وطاوياً اياها في النهار، حتى بلغ جزيرة رودس فتزود منها بمزيد من السفن، وتمكن من اقناع أهالي مدينتي [كوس] و[كيندوس] بالتخلي عن مناصرة الملك والانضمام اليه في حملة عسكرية ضدّ الساموسيين. وقام هو شخصياً بطرد انصار الملك من [خيوس] وحررّ الكولومونيين من ربقة الاستبعاد بالقائه القبض على طاغيتهم المستبد فيهم [ابيغونس Epigonus].

وفي اثناء ذلك، ترك [ميثريدات] مدينة [برغاموس] مرتداً الى [پيتانه Pitane] فلحق به [فمبريا] والقى عليه وهو في المدينة حصاراً شديداً وضيق عليه الخناق من البرّ. ولم يكن [ميثريدات] في وضع يتمكن معه من الالتحام بمثل هذا القائد الجريء الظافر. وأخذ يعد الوسائل للفرار عن طريق البحر. فبعث يستقدم كل اسطوله الموزع في عدة اماكن، ليكون تحت تصرفه المباشرة. فوقف [فمبريا] على ما يدبّره واسقط في يده لأنه لم يكن يملك قوة بحرية خاصة. ولم يربُداً من مفاتحة [لوكوللوس] في التعاون معه باسطوله للقضاء التام على أقوى الملوك شكيمة وابغضهم الى النفوس وإلاّ « أفلتت من الرومان تلك الطريدة التي بذلوا في

مطاردتها كثيراً من الدماء، وعانوا اعظم الأهوال. وضاعت فرصة كسر شوكة [ميثريدات] بعد أن وقع في المصيدة وأصبح من السهل قنصه. فان نجح [لوكوللوس] في الإمساك به فليس ثم من يستحق التبجيل والثناء أكثر منه. لأنه هو الذي سيقوم بقطع طريق الفرار عليه، وبأسره. قائد يحاصره من اليابسة، وقائد يعترضه من جهة البحر، وعندها سيقتسمان الشهرة والمجد. وسيُنسي عملهما هذا الرومان مأثرتي سيللاً في [اروخومينوس] وفي مظاهر [خيرونيا] فلا يعودون يذكرونهما». ولم يكن اقتراح [فمبريا] سخيفاً ولا بعيداً عن الصواب. فواضحٌ لو أن [لوكوللوس] عمل باقتراح [فمبريا] وسدّ الميناء باسطوله الذي لم يكن بعيداً عنه. لوضع خاتمة لهذه الحرب فوراً وجنب الفريقين ما لايحصى من المآسي والخسائر. إلاّ انه رفض التعاون، وترك [ميثريدات] يفلت من الفخّ هازئاً بمحاولات [فمبريا].
ولسنا ندري ما الذي دفع [لوكوللوس] الى هذا؟ أهو حرصه على قدسية الصداقة التي تربطه بسيللا ووضعها فوق كلّ اعتبارات المنفعة الشخصية والمصلحة العامة. أم لأنه كان يكره حطّة [فمبريا] وتسلفه، فقد أشتد مقته له لأنه ما حقق لنفسه ارتقاءً إلاّ عن طريق موت صديقه وقائده الذي وحصل منذ عهد قريب؟ أم لأن آلهة الحظّ تعمدت انقاذ [ميثريدات] من هذا المآزق آنذاك. لتبقيه خصم المستقبل وعلى اية حال نجا [ميثريدات] هازئاً [بفمبريا].

ووفق [لوكوللوس] وحده الى هزم أسطول الملك في معركة بحرية بالقرب من [ليكتوم Lec-tum] في [طرواس Troas]. وبعدها ادرك ان [نيوبطليموس] يكن له قرب [تينيدوس Te-nedos] باسطول أكبر من الأول. فركب متن غاليون رودسي ذي خمس مصاطب تجذيف، يقوده [داماغوراس Damagoras] وهو رجل ذو خبرة عظيمة ومن انصار الرومان – وأبحر قبل السفن الأخرى. فلحق به [نيوبطليموس] وهو يتميز غيظاً بسفينة القيادة آمراً ربّانها بالهجوم عليه بكل شدة ولتخوف [داماغوراس] من ضخامة السفينة المهاجمة ومانة جؤجؤها. ولادراكه الخطر في مقابلته صدراً لصدرٍ، انحرف عنه بسرعة ودار على عينه وأمر الملاحين بتوجيه السفن الى الأمام على ان تكون مقدمتها هي المعرضّة للهجوم. فتلقى صدمة عنيفة جداً، خفف من حدتها وقوعها على القسم الغائص من السفينة فلم تلحق به ضرراً يذكر وفي غضون ذلك ادركت [لوكوللوس] بقية الأسطول. فأصدر أمراً بالدوران لمواجهة العدوّ وانقض عليه وارغمه على الفرار وجدّ في أثر [نيوبطليموس].

بعد هذا توجه الى [سيللاً] الذي كان في [الخيرسونيز]يتأهب لاجتياز المضيق فكان قدومه في الوقت المناسب خيرعون له على نقل وحداته بأمان تام.

تمّ عقد الصلح بين الطرفين المحتربين، وأقلع [ميثريدات] الى البحر الأسود. وقام [سيللا]

بفرض عشرين ألف تالنت ضريبة تجبى من سكان آسيا، وعين [لوكوللوس] مشرفاً على جبايتها، وصكها نقوداً. وكان ارتياح المدن التي وقعت تحت حكم [سيللاً] الصارم ليس بالقليل حين انيط هذا المنصب الكريه الثقيل التبعات برجل مثله لطيف معتدل فضلاً عن نزاهته وعدله المأثورين. على أن [الميتيلينيين Mitylenæans] أعلنوا العصيان المطلق، وكان [لوكوللوس] يودّ من صميم قلبه أن يعدلوا عن تمردهم ويعودوا الى أعمالهم، قانعين بعقوبة بسيطة للعمل الذي ارتكبوه في قضية ماريوس لكنهم ظلوا سادرين في غيهم، وكانوا بذلك كالساعي الى حتفه ودماره بظلفه. ولم ير لوكوللوس بُداً من الزحف عليهم، فهزمهم في موقعة بحرية وحاصرهم في مدينتهم وقطع عنهم المؤون والارزاق. وبعدها فكرّ في حيلة، وساق جيشه في وضح النهار متجهاً نحو [ايليا Elæa] متظاهر بالرحيل عنهم الاّ انه عاد سراً تحت جنح الظلام وربض في مكمن قريب من المدينة لا يأتي بحركة. فما لبث الميتيلينيون ان خرجوا من المدينة دون حذر أو نظام وانقضوا على المعسكر الروماني المهجور لنهب ما فيه فباغتهم بالهجوم وأسر منهم عدداً كبيراً. وقتل خمسمائة ممن رفض القاء السلاح والاستسلام. وخرج بستة آلاف من الرقيق وبغنائم ثمينة جداً.

ولم يسهم [لوكوللوس] في ايّ من الحروب والفتن التي خلقها [سيللا] و[ماريوس] في ايطاليا. فقد شاءت له العناية الالهية البرّة به ان تبقيه منشغلاً في آسيا. على انه كان من حزب [سيللاً] وانصاره، متحمساً له أكثر من ايّ صديق آخر. وقد أهدى اليه سيللاً تعليقاته التي كتبها عن حياته تذكاراً وتأييداً لتلك المودّة كما اسلفنا، وزاد فاوصى عند موته أن يكون قيماً على ابنه القاصر، متخطياً [پومپي] بهذا التكريم. وكان هذا سبباً للتباغض والخلاف بين القائدين كما يبدو. فكلاهما شاب وكلاهما من طلابّ المجد والسلطان.

بُعيد وفاة [سيللاً] انتخب [لوكوللوس] قنصلاً، بزمالة [ماركوس كوتّا Marcus Cotta] في حدود الاولمپياد المائة والسادس والسبعين. ووضعت مسألة الحرب الميثريداتية على طاولة البحث والمناقشة. وكان من رأي [ماركوس كوتّا] انها لمّا تنته بعد، وان فترة الهدوء الحالية هي فترة هدنة واستعداد ليس الاّ. ولما حان وقت أختيار حكام الاقاليم بالقرعة، رساعلى لوكوللوس حكم الغاليين الذين يسكنون الألب. وكان اقليماً هادئاً لا عمل يذكر فيه للقائد الطموح. على أن مضاضته من هذا التعيين، لم يكن شيئاً مذكوراً بالنسبة الى استيائه من النجاح الذي اصابه [پومپي] في اسپانيا. فلو انتهت الحرب الاسپانية بسرعة لكان من المحتمل ان ينتخب [پومپي] قائداً عاماً للقوات التي تواجه ميثريدات ولن يجد اي شخص غيره اية فرصة لمنافسته في هذا المنصب بعد الشهرة التي حازها في الميدان الإسباني؛ ولذلك

تحمس له لوكللوس عندما أرسل بطلب موضحاً انه سيظطر في حالة رفض طلبه، الى مغادرة كل من اسپانيا و[سرتوريوس] والمجيء بكلّ قواته الى ايطاليا. ولم يدخر [لوكوللوس] جهداً في السعي الى تحقيق سؤله لكيلا يبقى له حجّة في العودة الى الوطن طوال فترة قنصليته. فلو قُدر [لپومپي] أن يعود الى ايطاليا بجيشه فسيكون كل شيء ملكاً ليمينه ولن يجرؤ أحد على معارضته في اي رغبة.

وكان يوجد في ذلك الزمن زعيم من أقوى الزعماء الشعبيين نفوذاً يُدعى [كثيغوس Cethegus]، ينزله الجمهور منزلة عظيمة لمعرفته طرق ارضائه وادخال المسرة الى نفوسها الدهماء منه بالقاء الخطب واداء الادوار التمثيلية دائماً. ولم يكن بينه وبين [لوكوللوس] أية موده فذاك يبغضه، وهذا لا يخفي اشمئزازه من حياة الدعارة والفجور التي يحياها ذاك ولذلك كانت الحرب بينهما علنية لا تتستر تحت قناع. ووجد الى جانب [كيثيغوس] زعيم شعبيّ آخر يُدعى [لوشيوس كوينتيوس] وضع نصب عينه حبك المؤمرات للاطاحة بالحكم الذي وضعه [سيللا] وخلق كل أسباب الفتن والقلاقل للوصول الى غرضه هذا، الاّ أن [لوكوللوس] تمكن بالتنبيه والارشاد على النطاق الشعبي العام، وباسداء النصح والتحذير بصورة خصوصية، من إحباط مسعاه وكبح جماحه، وبهذا حال دون شرّ عظيم قبل أن يُخرج شطئه بحكمته ويقظته.

وفي هذه الفترة بالذات ورد نبأ موت [اوكتاڤيوس] حاكم أقليم [كيليكيا]، وكان منصبه هذا مطمح انظار الكثيرين. فراح طلابه يتقربون من [كثيغوس] ويتزلفون اليه، لأنه خير عون يمكن أن يلتمسه الطامح منهم للظفر بالمنصب الشاغر. ولم يكن [لوكوللوس] يعلق أهمية كبيرة على [كيليكيا] نفسها إلاّ لأن فوزه بها سيحول دون تقدم اي شخص آخر عليه في الترشيح لمنصب القيادة العامة في الميدان الميثريداتي، بسبب مجاورته لأقيلم [كپادوكيا]. وهذا ما حمله على بذل اقصى المساعي والجهود لنيل حاكمية الأقليم ليجد نفسه منساقاً الى وسائل ليست نزيهة، ولا ممدوحة بقدر ما هي غير مجدية، خلافاً لما طبع عليه من خلق، ونزولاً الى حكم الحاجة.

وكان يعيش في روما امرأة تدعى [پريچيا Praecia] أشتهرت بذكائها وجمالها الخارق؛ وفيما سوى هذا لم تكن أكثر من عاهرة عادية قرنت الى سحر شخصيتها، صفة المرء الذي يتحرى خدمة اصدقائه بكلّ أخلاص ويتفانى في حبهم ويروج حاجاتهم ويحقق مطالبهم باستعمالها نفوذ من يرتاد مجلسها. فنالت سلطاناً كبيراً وآضت كلمتها مسموعة. واتفق أن [كثيفوس] وقع أسير فتنتها فهام بها حُبًا وكان اذ ذاك أشهر رجال روما سمعة وسلطاناً. فأصبح وهو لا يعطي لها أمراً وجعل كل السلطة تسير في ركابها اذ لم يكن يتقرر شيء من

أمور الدولة، وليس لكيثغوس كلمة فيه. ولم يكن يتصرف هو في شيء إلاّ و[ليريچيا] قول فيه.

كسب [لوكوللوس] هذه المرأة بالتقرب منها وبالهدايا (وانه لثمن عظيم يدفعه [لوكوللوس] لهذه المرأة البارزة القديرة، ليكونا شريكين في قضية واحدة!). فما لبث [كثيغوس] أن صار صديقاً له، يستخدم أقصى نفوذه ليضمن له منصب الحاكم في [كيليكيا].

بعد أن عين [لوكوللوس] في كيلكيا لم تعد به حاجة الى [كثيغوس] و[بريچيا] فقد تمّ بالاجماع اختياره لتولي القيادة العامة في الحرب ضد ميثريدات، ولا غرو فليس ثم من يدانيه مقدرتة في ادارتها ادارة ناجحة، وهذا [پومپي] ما زال مشتبكاً مع [سرتوريوس]، وذاك [ميتللوس] لم تعد سنّه الكبيرة تؤهله للخدمة وليس غيرهما من يصلح لمنافسة [لوكوللوس] في الكفاءة والأهلية القيادية. أمّا زميله [كوتّا] فقد تقررّ - بعد مناقشة طويلة في مجلس الشيوخ - ارساله على رأس اسطول لحماية الـ[پروپونطس Propotis] والدفاع عن [بيثينيا].

وخرج [لوكوللوس] من ايطاليا مقلعاً الى آسيا وقد زُودّ بفرقة تحت أمرته المباشرة. فبلغ مقره وتسلّم قيادة الوحدات المرابطة وكانت تتألف من رجال أقعدهم التحلل الخلقي. والهاهم السلب والنهب عن معاناة الضرب والطعان. والى جانبهم كان هنالك الجنود الفمبريون، لا يسلسون قيادهم لأحد ولا يخضعون لأي شكلٍ من أشكال النظام والضبط العسكري. وهم الذين أغتالوا [فلاكوس] القنصل والجنرال زمن قيادة [فمبريا]، ثم غدروا [بفمبريا] انتصاراً [لسيللاّ]. لفيف من الفوضويين لا يقيمون وزناً لنظام، ولا يعرفون للقانون معنى، تمرسوا في القتال وخبروا ميادين الحرب وحلبوا أشطرها ليس الا. ادرك هؤلاء منذ البداية من أي معدن صُبّ قائدهم الجديد فأسلموا له القياد، وما مرت وجيزة حتى كبح جماح هؤلاء وعودّ أولئك على الطاعة والخضوع للضبط للعسكري، فاصبحوا جميعاً وهم أطوع له من بنانه بينما كانوا في السابق يُرغّبون في القتال ترغيباً، ولا يدخلون معركة بأمرٍ من أحدٍ وانما بمحض أختيارهم ووقت شاؤا.

يمكن اجمال الموقف الحربي عند العدوّ بالصورة الآتية:

انقض [ميثريدات] في مبدأ الأمر على الرومان وهو مفعم غروراً وتفاخراً كالسوفسطائيين، بجيش عرمرم ضعيف عقيم لا قدرة له على تحقيق اي شيء، وليس فيه غير روعة منظره فلقي هزيمة نكراء شنعاء ،لقن درساً قاسياً للمعارك القادمة، ووجد منها أن كثرة العدد لا تقرر

مصير حرب فعمد الى تقليص جيشه الى حدٍ مناسب نافع. وأستغنى عن ذلك الخليط الدائم الصخب والضجيج من القبائل البربرية المتعددة الألسن واللُغى، بحليهم الذهبية وجواهرهم التي كانت مصدر الاغراء العظيم للعدوّ وحافزاً له على الانتصار أكثر مما كانت عامل سلامة لأصحابها وزوّد افراد جيشه بسيوف عراض كسيوف الرومان، وتروس كبيرة وتخير من الخيل التي لا ميزة لها غير جمال المنظر. ودربّ مائة وعشرين ألفاً من المشاة على نظام الكراديس الرومانية (فلانكس)، وعززهم بستة عشر ألف فارسٍ، تساندهم وحدة آلية مكونّة من عربات حربية مسلحة بالأسنة لا تقل عن المائة. وانزل الى البحر اسطولاً لا تثقل سفنه المقاصير المذهبة والحمامات الباذخة والأثاث الناعم؛ بل شحنها سلاحاً ومقذوفات وغيرها من مستلزمات القتال، ثم انحدر بكلّ هذه القوة الى [بيثينيا]، فاستقبله أهلها بأكثر من السرور والترحاب ووجدت آسيا كلها تقريباً في عودته خلاصاً وبعثاً جديداً من البؤس الشديد الذي كانوا يقاسونه على يد المرابين الرومان وجباة الضرائب. فهؤلاء جردوا السكان من كل ما يملكون وسلبوا آخر لقمة من أفواههم، مثل غول الهاربي[1]. وكان [لوكوللوس] في حينه لا يجسر على كف اذاهم وقطع دابرهم. إلاّ انه استعمل معهم التهديد والوعيد على قدر امكانة ليجعلهم أقلّ شراً واشتطاطاً ليحول دون فتنة عامة كانت بوادرها ماثلة للعين في كل مكان. إلاّ انه طردهم من البلاد كافة فيما بعد، لما تمكن منه.

وفي وقت الذي كان [لوكوللوس] منصرفاً بكليته الى هذه الشؤون وجد [كوتّا] الظروف موآتية للعمل، فتأهب لمعركة مع [ميثريدات] ووردته اثناء ذلك انباءً متواترة عن دخول [لوكوللوس]، فريجيا في طريقه الى مقابلة العدوّ. فتوهم بأن النصر بين يديه فعلاً، ولخوفه أن يشاركه زميله في موكب نصرٍ عجل الدخول في المعركة وحده. فلحقت به هزيمة بحرية وبريّة وخسر ستين سفينة بملاحيها واربعة آلاف من المشاة، وأرغم على التقهقر والاحتماء باسوار [خلقيدون] ليُحاصر فيها. وقعد ينتظر الغوث من [لوكوللوس]. وكان ثمّ من نصح هذا بالتخلي عن نجدة [كوتا] وتركه لمصيره، ومواصلة الزحف الى الأمام والتوغل في مملكة [ميثريدات] التي كانت سائبة لا جيش يحميها. ولم يقبل الجنود بالتوجه لفك الحصار عن [كوتا] لسخطهم عليه، واستنكارهم سوء تصرفه الذي ادّى به الى خسارة جيشه ولأن ذلك يعيقهم عن الفتوح التي تنتظرهم دونما قتال أو مشقة. إلاّ أن [لوكوللوس] ارتائ خلاف ذلك. وقال في خطبة وجهها الى الجنود. انه يفضل انقاذ مواطن روماني واحدٍ على الفوز.

---

(١) «Harpy» غول خرافي في الميثولوجيا الاغريقية. له وجه امرأة وجناح طائر ومخالبه، يعيش على نهش لحوم البشر.

بعد هذا راح [لوكوللوس] يفكّر في الوضع الحربي ملياً، فتوصل الى انه ما من قوة بشرية مهما اوتيت من مالٍ تستطيع القيام باعاشة هذا العدد الحاصب من مقاتلي [ميثريدات] زمناً طويلاً وهم في خطّ القتال يواجهون العدوّ. ثم أمر باحضار بعض الأسرى امامه وسأل أولهم كم عدد رفاقه في الوحدة التي ينتمي اليها. وكم كان لديهم من ارزاق قبل أسره، وبعد اجابته، أمرهُ ان يتأخر، والقى السؤال نفسه على أسير ثان وثالث... وبعدها أخذ يحسب بالتقريب كميات الارزاق التي تملكها قوات [ميثريدات] في ذلك الوقت، وقدّر بالنتيجة ان العدوّ سيكون بحاجة الى ارزاق بعد مرور ثلاثة ايام أو أربعةٍ، وهذا ما رفع من ثقته بعامل الزمن. واتخذ الاجراءات اللازمة لملء معسكره بمواد الاعاشة والاقوات وقنع بمراقبة عدوّه الجائع وهو ممتليء البطن موفور الطعام.

ودفع الجوع [بميثريدات] الى مهاجمة الكيزيكينين Cyzicenians. فمزقهم شر ممزق وفقدوا ما لا يقل عن ثلاثة آلاف مواطن، وخسروا عشر سفن. وأغفل [ميثريدات] [لوكوللوس] متخذاً من الليل الحالك الماطر ستاراً للانسحاب من الميدان بعد العشاء مباشرة واتجه الى المدينة المحورة فبلغها صباحاً وعسكر أمامها فوق جبل [ادراست Adraste] ولما ادرك [لوكوللوس] ما جرى، جَدّ في آثره، إلا انه حرص على الا يدركه بقواته وهي مختلة النظام وانما عسكر قرب ما يدعى «بالقرية الثراقية» وهو موضع ممتاز يشرف على كل المسالك والطرق التي لا ترد من سواها الارزاق الى معسكر ميثريدات. وبعد أن فكر في الموقف ملياً رأى ان الوقت قد حان لأطلاع جنوده على خطته، وعلى أثر اكمالهم تحصين المعسكر وسائر الأعمال الأخرى، أصدر أمراً بالاجتماع، وقال لهم بلهجة الواثق المتأكد انه سيضع بين ايديهم نصراً مؤزراً لا تسفك فيه قطرة دمٍ واحد، وان ذلك سيتحقق في غضون الأيام القلائل القادمة.

القى [ميثريدات] الحصار على مدينة الكيزيكنيين مستخدماً عشرة معسكراتٍ بريّة. وأحتل بسفنه المضيق الذي يقع بين المدينة واليابسة فاتمّ تطويقها من كل جهةٍ. على انها كانت قد أستعدت للحصار المضروب ومواجهة اي هجوم وآلت على نفسها ألاّ تتخلى عن حلفائها الرومان. على أن القلق الشديد استبد بهم لجهلهم موقع جيش [لوكوللوس]. وانقطاع اخباره عنهم، في الوقت الذي كان على مرمى النظر منهم. إلاّ أن الميثريداتيين، أوهموهم بأن المعسكر الروماني الرابض فوق التلال هو أحد معسكراتهم وقالوا لهم:

- أترون أولئك؟ انهم احتياطيونا من الأرمن والميديين الذين ارسلهم [ديكران] نجدةً [لميثريدات]!

فطاش صوابهم، وفقدوا كلّ ايمان بخلاصهم، وايقنوا بالهلاك على يد هذا العدد الهائل من

المحاربين الذين يحيطون بهم، حتى لو تمكن [لوكوللوس] من شق طريقه اليهم.

واول من جاءهم بنبأ وصول [لوكوللوس]، هو [ديموناكس Demonax] الساعي الذي ارسله [ارخيلاوس] اليهم، إلاّ انهم لم يصدقوه، وظنوا الحكاية مخترعة من أساسها قصد مرسلها رفع معنوياتهم ليس غير. وأتفق في تلك الأثناء أن فتى أسيراً تمكن من الهروب ودخل المدينة فاحضروه وسألوه من مكان [لوكوللوس] فقهقهه ضاحكاً مما توهمه مزاحاً، لكن لما وجدهم جادّين في السؤال، مَدّ اصبعه مشيراً به الى المعسكر الروماني. فصدقوا قول الساعي وأشتدت عزماتهم وقوي ايمانهم. وكانت بحيرة [داسكيليتيس Dascylitis] المجاورة صالحة للملاحة بسفن صغيرة الحجوم فأختار [لوكوللوس] أكبرها وسحبها الى اليابسة وحملها على عربة وجاء بها الى البحر فأنزلها وملأها جنوداً وانطلقوا بها سراً في دجنة الليل حتى وصلوا المدينة ودخلوها بأمان.

ويظهر ان الأرباب أعجبوا بولاء الكيزيكيني وصمودهم. نشأت ارادتهم أن يظهروا لهم بعض الدلائل السماوية على نجاتهم، لتقوية معنويات. ومن ذلك ما وقع في عيد [پروسپرين]. فقد ادركت الحاجة الى عجل لتقديمه قرباناً. ولم يجدوا واحداً تحت متناول يدهم، فقاموا بعمل تمثال لعجل من العجين ووضعوه امام المذبح. إلاّ ان العجل الأصلي المخصص للذبيحة الذي كان في ذلك الوقت يرعى مع قطعانهم في الجانب الآخر من المضيق، انفصل على القطيع والقى بنفسه في البحر وسبح وحده الى المدينة مقدماً نفسه ذبيحة. كذلك ظهرت هذه الربّة ليلاً لأرسطاغوراس Aristagoras] كاتب عدل المدينة وخاطبته بقولها:

– ها اني جئت وجلبت معي نافخ الناي الليبي. لأقيمه ضدّ نافخ البوق الپونطي. فحث مواطنيك على الثبات والصمود.

وفيما كان الكيزيكينيون حائرين في معنى هذه العبارة اذا بريح مفاجئة تهب على البحر وتؤدي الى هياج امواجه، وكان أول آثارها ان تحطمت آلات الحصار والثغر الملكية التي ركزت على أسوار المدينة وهي من مخترعات [نيقونيدس] الثسالي العجيبة. وأعقب ذلك أمور أخرى. فقد جاء في أعقاب تلك الريح، إعصار جنوبي خارق للعادة فحطم بوقت وجيز جداً كل المتاريس القامة امام الأسوار وهوّت البرج الخشبي الذي بلغ ارتفاعه مائة كيوبت فسقط على الأرض منحطماً. وقيل أن [ايليوم منيرڤا Ilium Menerva] ظهرت لكثيرين في تلك الليلة، والعرق ينزل صدبيباً من جسمها وأرتهم ثوبها ممزقاً في أحد المواضع وخاطبتهم بقولها انها جاءت لتوّها من نجدة الكيزيكينيين. والسكان الى يومنا هذا يشيرون الى نصب قائم في المدينة نقشت عليه الحكاية مع بيان رسمي.

وظلّ [ميثريدات] زمناً لا يدري النقص الذي يعانيه معسكره في الارزاق غباوةً من ضباطه وإهمالاً لأن صمود الكيزيكينيين في وجهه كان يحتلّ كل تفكيره. ثم ما لبث غروره وعنجهيته ان ارغما في التراب عندما وجد جنوده يتضورون جوعاً ويضطرون الى أكل لحوم البشر. في حين ظلّ [لوكوللوس] رابضاً في مكانه لا يريد متابعة الحرب لمجرد الظهور؛ أو على سبيل التلهي كالتمثيل المسرحي. وانما «جعل مجلس الحرب في البطن» على مأثور القول. وبذل كل جهوده لقطع خطوط تموينهم وحبس الارزاق عن عدوه. ثم ان [ميثريدات] انتهز فرصة انشغال [لوكوللوس] في اقتحام أحدى القلاع وبعث الى [بيثينيا] بكلّ خيالته تقريباً وكل ما عنده من ثيران النقلة ومن اقعدته الحرب أو أعجزته من المشاة. ولما أخطر [لوكوللوس] بهذه الحركة قفل راجعاً الى معسكره والوقت ليل وخرج في الصباح الباكر غير عابي برداءة الطقس وزفيف الريح الشديد. جاداً في اثر الرتل بعشرة ألوية من المشاة وكل مالديه من الفرسان واستمر يقفو اثرهم تحت الثلوج المتساقطة وفي البرد القارس مما أدىّ الى عجز الكثير من الجنود عن السير، على أنه ادرك العدوّ قرب نهر [رنداقوس Rhyndacus] وأوقع بهم مقتلة عظيمة. حتى أنه لم يبق امرأة واحدة من مدينه [ابوللونيا] إلا خرجت بحثاً عن الأسلاب ونزع ما على القتلى. ولا ريب في ان عدد القتلى كان جد كبير، فضلاً عن اغتنام ستة آلاف رأس من الخيل وما لايحصى من حيوانات النقل وما لا يقل عن خمسة عشر ألف أسيراً. وكل هذا عاد به واستعرضه امام معسكر العدو. وهنا لا أستطيع كتم استغرابي من [ساللوست] الذي ذكر أن الرومان شاهدوا الجمال لأول مرة هنا. وبهذا لا يقرّ بأن أولئك الذين دحروا [انطيوخوس] تحت أمرة [سكيبيو] منذ زمن بعيد قد رأوا هذا الحيوان ولا أولئك الذين قاتلوا [ارخيلاوس] بالقرب من [اورخومينوس] ومن [خيرونيا] في زمن متأخر.

وعلى أثر هذه الهزيمة النكراء، صحّ عزم [ميثريدات] على ترك ميدان القتال والفرار بجلده. فأرسل قائد أسطوله [ارسطونيقوس Aristonicus] الى بحر اليونان صرفاً لأنظار لوكوللوس عنه وتحويلاً لاهتمامه الى جهة أخرى، إلا أن خبر رحيل هذا القائد بلغه حال بدئه السفر فتربص به وقبض عليه فوجد في حوزته عشرة آلاف قطعة ذهبية كان قد زود بها لرشوة بعض رجال الجيش الروماني.

بعد ذلك توجه [ميثريدات] الى ساحل البحر وترك جيشه في عهدة ضباط من المشاة، فلم يمهلهم [لوكوللوس] وانقض عليهم عند نهر [غرانيقوس Granicus] وقتل عشرين ألفاً وأخذ عدداً كبيراً من الأسرى. وقيل ان المجموع الكليّ لقتلى ميثريدات من المحاربين، وخدم الجيش واتباعه خلال كل مراحل هذه الجملة، شارف الثلاثمائة الف نفس.

وفتحت مدينة [كيزيكوس] ابوابها بوجه [لوكوللوس] مرحبة مسرورة وأظهر له الأهالي من آيات الامتنان والاعتراف بالجميل ما يوازي مأثرته، ويجدر بها. وأمر بتجميع الاسطول هناك، ثم أنطلق له فزار سواحل [الهللسپونت]، ثم يمّ شطر [طروادة Troas] وحلّ في معبد [ڤينُس] وهناك خيل له انه رأى تلك الربة تأتيه في الحلم وتخاطبه قائلة:

«أيها الأسد الهزبر أتنام والظباء منك قريبة؟»

فهبّ من نومه ونادى اتباعه والليل مخيم فحضروا وقصّ عليهم رؤياه. وعلى أثر ذلك دخل بعض الإيليين وأبلغوه بأن ثلاث عشرة بارجة من ذوات الطبقات الخمس شوهدت وهي تقلع من الميناء الأخائي متوجهة الى [لمنوس]. فنهض حالاً وانطلق في البحر يتعقبها وما لبث ان ادركها وأستولى عليها وقتل قائدها [ايسيدورو ن Isidorus]. ثم جَدّ في أثر عمارة بحرية أخرى فادركها وهي تدخل الميناء والملاحون يسحبون سفنها الى الساحل. إلاّ ان ذلك لم يمنعهم عن القتال وهم في داخلها. وكبدوا [لوكوللوس] خسائر ليست قليلة، لأنه سفنه لم تجد فسحة للدوران والمناورة فعجزت عن مسهم بأذى. زد على هذا أن سفن الرومان كانت طافية في حين سُحبت سفن العدو الى اليابسة وربضت على رمل الساحل آمنة. وبعد محاولات كثيرة يمّ [لوكوللوس] شطر موضع الرسى الصالح الوحيد في الجزيرة، وأنزل الى البرّ نخبةً منتقاة من جنوده، عاجلوا العدو بهجوم من خلف وقتلوا بعضهم وأجبروا البقية على قطع حبال سفنهم ودفعها الى الماء فراراً من العدوّ إلاّ أن حابلهم أختلط بنابلهم واصطدمت السفينة بالسفينة، حتى اصبحوا تحت رحمة اسطول [لوكوللوس] وصرع الكثير منهم في هذه المعركة. وكان بين الأسرى [ماريوس] الأعور الذين بعث به [سرتوريوس]. ومما يذكر أن [لوكوللوس] كان قد اصدر أوامر مشددة لجنوده بالابقاء على كل محارب من العدوّ ذي عين واحدة مهما كلفهم الأمر، يريد أخذ هذا الرجل حيّاً ويذيقيه ميتة الخزي والعار.

وبعد هذا أسرع يطارد [ميثريدات]. وكأن يأمل ان يجده في [بيثينيا] فلقي [ڤوكونيوس Voconius] عائداً يجرّ اذيال الخيبة، وكان [لوكوللوس] قد أرسل هذا القائد على رأس قسم من الاسطول، للحيلولة دون فرار [ميثريدات]، على أن يكون هدفه [نيقوديميا] ألاّ انه تأخر في [ساموثراس] متسكعاً لاهياً بالأعياد ومنشغلاً بتقبل الأسرار الدينية، فغفل عن [ميثريدات] وراحت الفرصة، اذ بادر الملك بالعبور بكلّ اسطوله فلم يجده [لوكوللوس] حيث أملّ. الا أن عاصفة هو جاء ادركته وهو متجه الى البونطس فشتتت شمل اسطوله وأغرقت عدداً من سفنه في عرض البحر، والقى الموج بحطامها على الساحل المجاور، أمّا السفينة التجارية التي كانت تقلّه فقد شقّ على ربابنتها جرّها الى الساحل لضخامتها ولارتفاع

الامواج، ولازديادها ثقلاً بتسرب المياه الى قاعها حتى أشرفت على الغرق. فأنتقل منها الى سفينة قرصان ووضع نفسه تحت رحمتهم ومن العجيب انه تمكن من النجاة والوصول سالماً الى [هراقليا] في [البونطس].

ومع أن لهجة الفخر والاعتزاز بالنفس التي استخدمها [لوكوللوس] في مخاطبة مجلس الشيوخ كانت تنطوي على استهتار وتسرع، إلاّ انه لم ينجم عنها سوء مطلقاً. وملخص الحكاية ان المجلس قرر رصد ثلاثة آلاف تالنت له ليبني بها أسطولاً. فردّها اليهم قائلاً انه قادر على هزم [ميثريدات] بحراً بما هو متيسّر له من سفن الحلف ولا حاجة الى انفاق هذا المبلغ الطائل. وحقق قوله هذا بمساعدة الآلهة وعنايتها اذ قيل أن سخط [ديانا پرياپوس Diana Priapus] هو الذي نكب رجال پونطس بالإعصار العظيم المدمرّ لأنهم نهبوا معبدها وقلعوا تمثالها من موضعه.

وتألب الناصحون على [لوكوللوس] بارجاء الحرب فترة من الزمن فلم يصغ اليهم وزحف عبر [بيثينيا وغلاطيا] نحو بلاد الملك نفسها. وكانت اقواته في مبدأ الأمر قليلة حتى أن الجيش استخدم ثلاثين ألف غلاطيّ يحمل كل منهم بوشلاً واحداً من القمح على ظهره ويسيرون في أعقابه إلاّ أن الزاد والمؤون توفرت بكثرة عندما مضى قدماً في زحفه مستولياً على كل ما صادفه. وبلغ الرخاء في الجيش حداً أن صار الثور الواحد يباع في المعسكر بدراخما لا غير، والعبد يُشرى بأربعة فقط. ولم تعد للأسلاب الأخرى قيمة، وكانوا يهملونها أو يخلفونها وراءهم. اذ لم يكونوا يعرفون كيف يتخلصون مما لديهم، بعد أن اتخموا بالمال والغنائم. إلاّ انهم توغلوا كثيراً بغزوات الخيالة حتى شارفوا [ثميسكيرا Themiscyra] وسهول [ثرمودون]؛ وقصروا فتوحهم على الأقاليم دون المدن. فبدأوا ينقمون على [لوكوللوس] ويتضايقون من أسلوبه هذا وقال:

- ما الذي يجعله يأخذ هذا العدد الكبير من المدن صلحاً، وكيف يقبل استسلامها ولايفتحها عنوة؟ وكلها غنيّ زاخر بالأسلاب والآن، هاكم كيف انه خلف [أميسوس Amisus] وراءه هي مدينة ثرية حافلة بكلّ ما هو ثمين، يسهل فتحها بعد حصار قصير. ان هذا الزحف لن يقودنا الا الى المجاهل الخلقيدية والطيبارينية، وكل هدفه قتال [ميثريدات].

لم يكن [لوكوللوس] آنذاك يفكر كثيراً بسوء العواقب وخطورة النتائج. ولذلك لم يعر اذناً صاغية لما قيل واستهان بالنصائح. وكان يردّ على من يلومه في تباطئه، واضاعته الوقت في انتصارات ثانوية تافهة وافساحه المجال لميثريدات لتعبئة جيش جديد بقول المعتذر لنفسه:

- ذلك هو جوهر خطتي. أن أربض ساكناً واتوسل بازجاء الوقت وتبديده، فأنا أريد ان تزداد قوته ويحشد جيشاً كبيراً لأن ذلك يغريه على الصمود في وجهنا والدخول معنا في معركة، لا أن يستمر في انسحابه. اما ترون المجاهل المترامية والبوادي القفراء التي تنداح أمامنا؟ القفقاس ليست بالبلاد البعيدة، وجبالها الشمّ العظيمة كفيلة بأخفاء عشرة آلاف ملك لا يريد الدخول في معركة. وليس بين [كابيرا Cabira] وأرمينيا الاّ مسيرة ايام قليلة وهناك يحكم [ديكران] ملك الملوك ويجمع بين يديه قوة وسلطاناً عظيمين مكّناه من ابقاء الفرثيين في عقر دارهم لا يجرأون على الخروج حدودهم الضيقة شبراً واحداً، ومن نقل مدنٍ أغريقية كاملة الى بلاد مادي. وفتح بلاد سورية وفلسطين. وقطع رقاب الملوك المنحدرين من سلالة [سلوقوس] الملكية وسبي زوجاتهم وبناتهم سبياً. هذا الملك هو ختن [ميثريدات] وقريبه ولا بدُ من أن يرحب به ويرفع سلاحه في وجهنا مناصرة له ودفاعاً عنه. وهكذا ترون: بينا نحن نحاول جهدنا القضاء على ميثريدات. سنخاطر بادخال [ديكران] ميدان الحرب الى صف عدونا، وقد سبق له ان حاول استنباط حجّة تبرر له بتّ ما بينه وبيننا من أسباب الصداقة. لكنه لم يجد مثلنا في الإخلاص، والحرص على العون عند الحاجة. فما الذي يجعلنا ندفع [ميثريدات] الى الاستعانة بهذا المورد العظيم القوى وهو الذي لم يهتد الى اية وسيلة مجدية في قتالنا، وهو الذي ما زال يستنكف عن طلب العون من [ديكران]؟ وكيف لا ينبغي لنا اتاحة الفرصة له حتى يحشد جيشاً جديداً ويستعيد جديداً ويستعيد الثقة بنفسه، وعندئذ نعود لقتال [الكولخيين Colchians] والطيبارينيين وما أكثر الهزائم التي الحقناها بهم - متحاشين الحرب مع الماديين والأرمن؟

تلك هي الأسباب التي جعلت [لوكوللوس] يعسكر امام [اميسوس] ويدير حركات الحصار ببطءٍ متعمد، وبعد أن انصرم من الشتاء أكثره: ترك الأمر بعهدة القائد [مورينا Murena] وخرج للقاء [ميثريدات] على موعدٍ في [كابيرا] وكان الملك قد أستعدّ لقتال الرومان باربعين ألف مقاتل واربعة عشر ألف فارس وضع كل ثقته فيهم. وعبر بجموعه نهر [ليكوس Ly-cus] وتحدّى الرومان ان ينزلوا لمقابلته في السهل. ثم اشتبكت خيّالة الطرفين ودارت الدائرة على الرومان. وحُمل الى [ميثريدات] أسير جريح يعاني آلاماً شديدة من رضوضه وهو روماني سرّي ذو مكانة يدعى [پومپونيوس Pomponius] فسأله الملك «ايرضيه أن يكون صديقاً له، ان منحه حياته؟» فأجاب الأسير:

- أرضى إن صالحت الرومان، وإلاّ فأنا عدوّ لك!

فكانت دهشة [ميثريدات] عظيمة ولم يلحق به أذىً.

سيطر العدوّ بخيالته على كل السهل، وشاع في نفس [لوكوللوس] بعض الخوف والتردد من دخول منطقة الجبال الشاهقة الصعبة المرتقى ذات الغابات الكثيفة. إلاّ ان الحظّ حالفه ببعض الأغريق الذين كانوا قد هربوا ولجأوا الى مغارة في تلك الجبال منذ زمن. وعند القبض عليهم واحضارهم امامه تكفل كبيرهم ويُدعى [ارطميدوروس Artemidorus] بان يدله على مقر منيع لجيشه فيه حصن يشرف على [كابيرا] نفسها. فأسلم [لوكوللوس] أمره اليه واصدر أمره بالمسير ليلاً على نور المشاعل وتم له عبور الشعب الجبلي بكلّ امان وسيطر على الموضع المنشود وما ان اصبح الصباح حتى كان يُطلّ من فوق على اعدائه المعسكرين في السهل.

وبات في وضع ممتاز يسهل وعليه النزول لو شاء القتال. ويصعب قتاله فيه لو آثر القعود. على ان الطرفين رغبا عن القتال وفضّلا التريث. وقيل ان لفيفاً من اتباع الملك خرجوا للصيد وبيناهم يجدون في اثر وعلٍ خطر ببال بعض الرومان اعتراض سبيلهم فخرجوا عليهم وأشتبكوا معهم في قتال اجتذب المزيد من رجال الجمعين. واستظهر رجال الملك وأخذوا يتعقبون الرومان الفارين فأخذت رفاقهم في المعسكر العزّة، وهرعوا الى [لوكوللوس] يتوسلون به أن يقودهم خارج المعسكر ويطلق اشارة القتال، فلم يقبل وأمرهم بان يلبثوا في مواضعهم، مبرهناً لهم على أهميّة ضبط النفس وحضور بديهة القائد واستوقف أوائل الفارين وأمرهم بالرجوع الى المعركة والصمود فيها وتمكنوا بعد لأيٍ من دحر الأعداء وملاحقتهم حتى معسكرهم. وأوقع [لوكوللوس] العقاب المعتاد بالفارين اذ جعلهم يحفرون خندقاً ذا اثني عشر قدماً وهم مشتملون بعباءاتهم بينما وقف الآخرون يرقبونهم.

كان يوجد في معسكر [ميثريدات] شخص يدعى [اولطاق Olthacus] زعيم الداندارين وهم قوم من البرابرة يسكنون الى جوار بحيرة [ميوتيس]. برز هذا الرجل على اقرانه في القوة الجسدية والإقدام والحكمة وحسن الرأي وطلاوة الحديث وطيب المجلس. وكانت بينه وبين واحدٍ من زعماء قومه منافسه على جلائل الأعمال، لا يدع فرصة إلاّ اهتبلها في هذا المجال. أتى هذا الرجل [ميثريدات] ووعده بأنه سيحقق له أعظم خدمة يتصورها الا وهي قتل [لوكوللوس]. فأثنى عليه الملك وشجعه. وفي سبيل حبك خطته اصطنع الغضب وعمل على أن يُهان ويوصم بالعار ثم ركب حصانه متظاهراً بالخروج على الملك ولجأ الى [لوكوللوس] فاستقبله مرحبّاً. وأحتفى به فقد كان اسمه غير مجهول عند الجيش. ومهدت له رجاحة عقلةٍ وتفانيه سبيلاً الى [لوكوللوس] فصار بعد زمن وجيز واحداً من مستشاريه، وعضواً في مجلس حربه.

وفي يوم ما، خيل لهذا الداناداري ان الفرصة موآتية لتنفيذ ما قدم لأجله، فأمر خدمه بأن يخرجوا بجواده الى ظاهر المعسكر وقصد هو خيمة الجنرال في ساعة الهاجرة وقد انصرف الجنود للراحة والقيلولة. ولم يكن يتوقع مطلقاً أن يمنع دخول مثله خيمة القائد وليس بينهما كلفةٌ ولاحجاب وخصوصاً عند تظاهره لقدومه في أمر من الخطورة بمكان. والحق يقال انه كان مصيباً في تقديراته وان الطريق الى ضحيته سيكون مفتوحاً في وجهه لولا النوم، الذي كان سبباً في هلاك كثير من القادة، فصار هنا سبباً لنجاة [لوكوللوس] وجد [اولطاق] الوصيف [منيديموس Menedemus] واقفاً بباب الخيمة وقال له ان الجنرال قد آوى الى فراشه متعباً بعد عمل كثيرٍ ومجهود مضنٍ. وليس من الممكن مواجهته. فلم ينصرف وزاد الحاحاً بقوله: «لا سبيل الاّ الدخول عليه لمحادثته في مسألة خطيرة للغاية. فعيل صبر [منيديموس] وأنتهزه غاضباً بقوله:

- ليس هناك أمر أهم من راحة [لوكوللوس] وسلامته.

ودفعه عنه بكلتا يديه. وهنا تسرّب الخوف الى قلب [اولطاق] وعجل في مغادرة المعسكر، وامتطى جواده ولم يوقفه الاّ في معسكر [ميثريدات] معلناً له فشله.

وهكذا ترى الأمر لا يختلف. فاللحظة الحرجة سواء في الأعمال الحربيّة، أو شؤون الحياة الطبيعية الأخرى - هي التي تقرّر النتائج حسنةً كانت أم سيئة.

وخرج [سورناتيوس Sornatius] مع عشرة من رفاقه للتفتيش عن علف. فطاردهم [ميناندر Menander] أحد ضباط [ميثريدات] فعمدوا لهم وأشتبكوا في معركة حادة وقتل الرومان عدداً لا يستهان به من العدو. ثم أرسل [ادريانوس Adrianus] ببعض الوحدات لجلب ارزاق تسدّ حاجة المعسكر الآنية مع بعض الاحتياطي. فوجدها [ميثريدات] فرصة طيبة ودفع اليهم بقائديه [منماخوس Menmachus] و[ميرو Myro] على رأس قوة كبيرة من الرجّالة والخيالة ونشب قتال بين الطرفين استظهر فيه الرومان وقيل أنهم ابادوا التجريدة بكاملها إلاّ رجلين اثنين. وكتم [ميثريدات] نبأ هذه الخسارة. وقلل من شأنها بقوله أنها اندحار موضعي زهيد سببه غشم الضباط. على ان [ادريانوس] المنتصر تعمد المرور امام معسكره بمظاهرة الفوز وغطرسته يسحب خلفه العربات الكثيرة الموقرة بالقمح، وما اليه من أسلاب وغنائم فحزّ ذلك في نفس [ميثريدات]، كما أثار سخط الجيش وأهاجه، فكان قرارهم ألاّ يصبروا أكثر مما صبروا، وانتهزوا فرصة قيام خدم الملك وحاشيته بارسال مقتناهم ومتاعهم خارج المعسكر بصورة سريّة وبهدؤ. كما منعوا الأخرين من احتذاء حذوهم. فثارت ثائرة الجنود وتجمعوا وأحتشدوا على ابواب المعسكر وأمسكوا بالحاشية وقتلوهم وأستولوا على أموالهم

وفقد الجنرال [دوريلاوس Dorylaus] حياته في هذا الهياج لا لشيء إلاً لأنه كان يملك معطفاً أرجوانياً. ووطيء الكاهن [هرمز Hermæus] بالاقدام حتى الموت عند الابواب.

ولما وجد ميثريدات نفسه وحيداً من دون حرس أو حتى وصيفٍ واحدٍ، خرج من المعسكر يبحث عن حصان يمتطيه وسط الزحام فلمحه خصيه بطليموس وهو يشق طريقه بعناء شديد، فترجل عن حصانه وقدمه له. وكان الرومان قد أقتربوا كثيراً منه، إلاً أنهم لم يدركوه وفشلهم هذا لا يعود الى سرعته وبطئهم بعد أن صاروا على قيد باع منه. إلاً أن الطمع والتكالب الرخيص على الغنائم العسكرية تسببا في افلات غنيمةٍ ثمينة لطالما خاضوا في سبيلها المواقع الدموية وركبوا لأجل المخاطر الجسيمة. وادى هذا الى ان يخسر [لوكوللوس] ثمر انتصاره. كان الحصان الذي استقله الملك تحت رحمتهم وقد أدركوه ألاً بغلاً يحمل امواله أعترض السبيل بالصدفة، أو ربما كان ظهور البغل من عمل الملك المتعمدّ. فتحول أهتمامهم اليه وانفكوا عن مطاردة الملك ووضعوا أيديهم على الذهب ثم راحوا يختصمون على توزيعه. هذا الضرر الفادح الذي اصاب لوكوللوس جراء طمعهم اشفعوه بآخر، عند قتلوا [كاللليستراتوس] تابع الملك الموثوق ومستودع سِرّه، لارتيابهم في إخفائه خمسمائة قطعة ذهبية في حزامه وكان [لوكوللوس] قد أصدر اوامر خاصة به تقضي ان يُحمل اليه سالماً. مع هذا كله فقد سمح لوكوللوس بنهب معسكر البرابرة.

ووجد في [كابيرا] وغيرها من القلاع التي أحتلها فيما بعد، كنوزاً من الأموال، كما وجد سجوناً خصوصية زُجَّ فيها عدد كبير من الأغريق ومن أقرباء الملك. هؤلاء المساكين كانوا قد قطعوا منذ زمن بعيد كل أمل لهم في الحياة وأعتبروا أنفسهم في عداد الموتى، وبفضل [لوكوللوس] أطلق سراحهم وكتبت لهم حياة جديدة وميلاد ثان. وأصاب [نيسا Nyssa] أخت الملك الأسيرة المسترقة هذا الحظّ الطيب، خلافاً لتانك اللاتي كانت الظواهر تشير الى انهن أبعد الناس عن الخطر وأقصد بهذا زوجاته وأخواته اللاتي رُحِّلن الى [فرناقيا Pherna-cia] ليكن بعيدان عن الخطر فمتن شرّ ميتة. فعلى أثر هروب [ميثريدات] ارسل خصيّه [باخيدس Baechides] للقضاء عليهن جميعاً وكان بينهن أختان له [روشنه Roxana] و[ستتيرا Statira] وهما عانسان في حدود الأربعين وزوجان آيونيتان: [بيرينيس] الخيوسية، و[مونيمه Monime] الميليطية. وقد أشتهرت الثانية عند الاغريق كثيراً لأنها لم تستسلم للملك وظلت تصدّه عنها طويلاً، مع انه وهبها خمسة عشر الف قطعة ذهبية، حتى عقد زواجه عليها رسمياً وأرسل اليها تاج الملك، وعوملت معاملة الملكات. واناخ الهم والكآبة عليها وظلت تندب سوء حظها في جمالها الذي ابتلاها بحارس بدلاً من زوج وبحراسة

البرابرة الشديدة عوضاً عن رعاية البيت وحنانه. وبعد أن حملت بعيداً عن موطنه. كان الحلم بالمتع التي تمنتها لذتها الوحيدة، لحرمانها من كل ما هو حقيق ملموس وعندما أتاهم [باخيدس] وطلب منهن أن يتهيأن للموت وكن جميعاً يتوهمنه سهلاً لا ألم فيه - نزعت تاج الملك من رأسها وشدت خيطه الى رقبتها وعلقت نفسها فأنقطع. فصاحت:

- قبحت من تاج! بعجز عن مساعدتي حتى في هذا الأمر الصغير!

والقت به بعيداً وبصقت عليه وقدمت عنقها لباخيدس. وكانت [پيرينيس] قد أعدت جرعة سمّ لنفسها. ولكنها نزلت عن نصفها لأمها الحاضرة، بعد رجاءٍ فشربتاها وتغلب السمّ على البدن الأضعف ولم يكف القليل الذي أجترعته [پيرنيس] للقضاء عليها وظلّت روحها تحشرج في صدرها، فأستعجلها باخيداس بخنقها. وقيل أن أختاً للملك عانساً تجرعت السمّ وهي تشتم وتقذف باشد اللعنات هولاً، وامّا [ستتيرا] فلم يخرج من فمها لفظ نابٍ، أو كلمة لوم، وانمّا أخذت تثني على اخيها الذي لم ينسه الخطر المحدق به، ما يحيق بهن من خطر وهيّأ بكلّ عنايته أسباب خروجهن من هذا العالم قبل أن يلحقهن الخزي والعار.

وأسف [لوكوللوس] كثيراً لهذا العمل ولا غرو فهو معروف بانسانيته ورقة قلبه. على انه مضى قدماً في أعماله الحربية فأستولى على [تالورا Talaurs] ودخلها بعد مغادرة [ميثريدات] لها باربعة ايام ووصوله [ارمينيا] والتجائه الى ديكران. وبعدها التفت الى الخلديين والطيبارينيين الذين يقطنون ارمينيا السفلى فاخضعهم وأستولى على قلاعهم ومدنهم كافة. ثم اوفد [اپيوس] الى [ديكران] يطلب منه تسليم [ميثريدات] وتسلم شخصياً قيادة الهجوم على [اميسوس] التي ظلت صامدة بفضل [كالليماخوس Callimachus] قائدها الذي ضايق الرومان كثيراً ببراعته في الميكانيكا ووقوفه التام على كل فنون الحصار وحيله، وقد دفع فيما بعد ثمناً غالياً لصموده. وما أن تسلم [لوكوللوس] القيادة حتى بدأ الفرق بين القائدين وظهرت عبقرية القائد الروماني واضحة فقد أمر بالهجوم العام في الساعة التي تعود أن يخلد الجنود الى الراحة ووفق في الاستيلاء على جانب من السور، وأرغم خصمه على ترك المدينة بعد أن اشعل النار فيها إما لحرمان الرومان في الغنائم، أو ستراً وحماية لأنسحابه، اذ لم يُلق أحدٌ بالاً على من خرج وركب السفن. وما أن خمدت النار بعض الشيء في معظم اقسام السور حتى تهيئا الجنود لنهب المدينة إلا أن [لوكوللوس] الذي حزّ في نفسه ما وقع للمدينة من خراب أمر بادخال جماعات اليها لأستخدامهم في مكافحة النيران كما حضّ جنوده على اخمادها، على انهم لم يلتفتوا اليه لانصرافهم الى افتراس الفريسة وشجر بينهم خلاف وراح بعضهم يضرب بعضاً وتقارعت السيوف وارتفع الصياح، حتى اضطر مرغماً الى السماح

لهم بالنهب، لعل ذلك يكون سبباً في نجاة المدينة من الدمار التام بالنار على اقلّ تقدير. ولكن ذلك لم يفد فقد أكمل النهب خرابها لأن الجنود كانوا يدخلون المنازل وبأيديهم المشاعل ويوقدون النار فيها. وعندما دخلها [لوكوللوس] في اليوم التالي لم يسعه حبس دموعه وقال لمن حوله من الاصدقاء: انه كثيراً ما حمد لسيللاّ حسن حظّه؛ إلا انه لم يعجب له كما يعجب الآن. لأنه انقذ اثينا لما أراد ذلك. ثم استطر ويقول:

- إلاّ أن معاندة الحظّ وصلت بي حداً أن صرت مثل [موميوس]، عندما اردت تقليد عمل [سيللاّ].

على انه مع كل هذا استطاع انقاذ ما أمكنه، واتحدث رغبة العناية الآلهية مع رغبته فسقط المطر وعاون في اخمار النار. وقام في فترة وجوده باصلاح ما تيسرله من الابنيه وفتح ابواب المدينة لسكانها الهاربين والنازحين، وأسكن كثيراً من الاغريق الراغبين في الاستقرار هناك، وعمد الى توسيع رقعة المدينة باضافه ما مساحته مائة فرلنغ اليها.

هذه المدينة كانت من مستعمرات الآثينيين، عمروها عندما بلغت دولة آثينا عصرها الزاهر وأصبحت قوة بحرية يُعتدّ بها. ولجأ اليها كثير من الآثينيين في عهد [ارسطيون] الطاغية تخلصاً من استبداده وظلمه فأستقروا فيها ومنحوا حق المواطنة. وهكذا جعلهم تكد حظهم كالمستجير من الرمضاء بالنار. هربوا من ظلم موطنهم ليقعوا في شر أعظم باغترابهم.

مد [لوكوللوس] يد المعونة لمن بقي من هؤلاء وصرف لكل فردٍ منهم ثياباً كافية ومائتي دراخما وأعادهم الى وطنهم وفي هذه الحرب كان [تيرانيون Tyranion] النحوي من بين الأسرى، فطلبه [مورينا] من [لوكوللوس]، فدفع به اليه، فأعتقه هذا ملحقاً بفضل [لوكوللوس] إهانة لأن [لوكوللوس] كان يكره أن يجعل من شخصٍ ذي سمعة علمية كبيرة عبداً رقيقاً، ثم يعتقه لأن الحرية التي تمنح بشكل صوريّ هي تجريد حقيقي لحاله الحرية السابقة. ولم تكن هذه، المناسبة الوحيدة التي بدأ فيها أقلّ كرماً وشهامة من جنراله.

وانصرف [لوكوللوس] الى ادارة شؤون المدن الآسيوية والعناية لها، دون ان تعوقه حرب فنشر العدل واشاع حكم القانون بعد عهد طويل من الفوضى والتحكم والاضطهاد سادت تلك البقاع واسلمتها فريسة لصفوف من البلايا والنكبات يجلّ القلم عن وصفها ويقف العقل عن تصديقها. استعبدهم ونهبهم جباة الضرائب والمرابون حتى اضطر القوم الى بيع ابنائهم وهم في زهرة الصبا، وبناتهم وهم عذارى وان تبيع حكومات المدن بالمزاد العلني الاوقات المكرسة للآلهة والتماثيل والصور الدينية، وبالأخير اضطروا الى وضع أنفسهم تحت تصرف دائنيهم

عبيداً ارقاء، ولم يتمّ ذلك الاّ بعد أن لاقوا الأهوال من التعذيب كالشد بالحبال والخيول والوقوف تحت اشعة الشمس المحرقة وقت الهاجرة، والالقاء في الجليد والطين ايام البرد الشديد حتى صاروا يعدون الرق نعمةً وبعثاً جديداً».

على أن [لوكوللوس] تمكن بوقت وجيز من القضاء على هذه الشرور والمظالم وتطهير المدن من آثارها. فقد أمر أولاً بأن لا تزيد الفائدة على الدين، أكثر من واحدٍ في المائة، وامر ثانياً، بالغاء الفائدة في حالة ما لو زادت عن الدين الأصلي. وامر ثالثاً، وهو أهم المراسيم طرّاً، بأن لا يزيد استيفاء الدائن من دائنه أكثر من ربع دخله كل صفقة. ومنع منعاً باتاً اضافة الدائن مبلغ الفائدة الى أصل الدين لغرض تقاضي ربح مركب. وكان من أثر هذه الاجراءات انه لم تمرّ اربعة أعوام إلاّ وتم دفع كل الديون وعادت الأراضي المرتهنة الى أهلها الأصلاء. وكان الدين الذي فرضه سيللا غرامة على آسيا وقدره عشرون ألف تالنت قد أعطي بالالتزام في ايامه، وبلغ ما استوفاه الجباة من المكلفين به ضعف هذه الغرامة التي أصبحت مائة وعشرين ألف تالنت بتراكم الفائدة المركبة. ولهذا ثار سخطهم على [لوكوللوس] في روما وأخذوا يكيلون السباب له علناً ويشكون الظلم الذي الحقته مراسيمه بهم، وتمكنوا بأموالهم من اثارة خواطر عدد من زعماء مجلس الشيوخ ضده، ولا غرو فقد تمتع هؤلاء بحول وطولٍ ونفوذٍ كبير. لأنه كثيراً من رجال السياسة مدينون لهم. إلاّ أن محبة المدن التي فرج [لوكوللوس] عن ضيقتها وكربها فضلاً عن الاقاليم الأخرى التي غبطتها على حسن خطها بمثل هذا الحاكم الرؤوف، ردت كيد هؤلاء الى نحورهم مباءت مساعي أولئك بالفشل.

وانطلق [ابيوس كلوديوس] – وهو أخ لزوج [لوكوللوس] في رحلته موفداً الى [ديكران] وقادة ادلاء الملك في طريق منحرفٍ وعرٍ، طويلٍ يمرّ في القسم الشمالي من البلاد إلاّ ان معترقه السوّري الذي كان يرافقه دلّه على أقصر الطرق، فحاد عن الطريق الأولى الطويلة واستغنى عن ادلائه البرابرة مودعاً. وما هي أيام قليلة حتى عبر نهر الفرات وبلغ [انطاكية دافني Antioch upon Daphne] وكان من المقرر ان يمكث فيها انتظاراً [لديكران]، بعد فراغه من مهاجمة بعض المدن الفينيقية. وتمكن هذا السفير خلال، اقامته من كسب كثير من الزعماء الذين لم يخضعوا لملك ارمينيا إلاّ رهبة واضطراراً، وكان بين هؤلاء [زاربيان: Zar-bienus] ملك [الكوردينيين Gordyenians]. وارسلته أيضاً عدة مدن خاضعة مقهورة خلسةً، فوعدها بمعونة [لوكوللوس] واوصاها أن تركن الى الهدوء ولا تأتي باية حركة. وكان الحكم الأرمني يمتاز بالظلم والقسوة، ولاسيما حكم الملك الحالي الذي ما كان الأغريق يطيقونه، وزادته انتصاراته غطرسة وعتوا فتوهم بأن كل ما يملك الناس من الثمين الغالي مال

خاصٌ به بل ما خُلق إلألهُ. وكانت بدايته بدايةً مجهولة تافهة، ثم لمع نجمه وسماً باخضاعه عدداً كبيراً من الشعوب وكسره شوكة الفرثيين كسرةً لم يبتلوا بمثلها. وملأ أرض العراق (ما بين النهرين) بالاغريق الذين نقلهم من [كيليكيا وكپادوكيا] باعداد كبيرة، وحضّر العرب الرحل ساكني الخيام حين هجرهم من موطنهم واسكنهم قريباً منه ليؤمن استمرار التبادل التجاري وازدهاره على ايديهم. وكان يقوم على خدمته عدة ملوك، إلاّ انه اعتاد ان يصحب معه اربعة فقط، مكلفين بواجبات الخدمة والحراسة تراهم يسيرون الى جانبي حصانه وهم في جلابيب عادية ويقفون بين يديه بايدٍ مكتوفة ورؤوس خافظة وهو جالس على العرش ينطق باوامره ومراسيمه. وكانت هيئتهم هذه لاتدل على عبودية اعتيادية وانما على أناس ودعوا الحرية وداعاً ابدّياً وأعدّوا جسومهم لتلقي العقاب أكثر مما اعدوها لخدمة أسيادهم.

على أن [اپيوس] لم يفاجأ أو يباغت بهذا العرض المسرحيّ كمّا أُذن له بمقابلة الملك. وقال له أن جاء يطلب منه تسليم [ميثريدات] ليسير في ركاب [لوكوللوس] اثناء الاحتفال بموكب نصره. فإن أبى ذلك فإنه ينذره بالحرب. ومع انّ [ديكران] حاول استقباله، بمظاهر اللطف والابتسامات المغتصبة إلاّ انه لم يخف استياءه عن الحاشية لجرأة الفتى في كلامه اذ لم يقدم أحدٌ ممن مثل بين يديه بمثل ما أقدم آپيوس ولم ينطلق لسان في وجهه بهذه الحرية طوال الاعوام الخمسة والعشرين من حكمه أو من استبداده.

على أية حال فقد ردّ [ديكران] طلب [اپيوس] ورفض تسليم [ميثريدات] وقال انه سيدافع عن حماه اذا هاجمه الرومان وأبدى سخطه من [لوكوللوس] لأنه وجه خطابه اليه بلقب ملك، لا بملك الملوك. ولذلك قابله بالمثل ولم يطلق عليه لقب «الامبراطور». ثم انه ارسل [لآپيوس] هدايا نفيسة فأبى قبولها، ولما وردت اليه مضاعفةً أختار منها كأساً وأعاد البقية حتى لا يفسر رفضه بالغيظ ثم شدّ الرحال فوراً الى قائده.

قبل هذه الاحداث كان بين [ديكران] و[ميثريدات] جفوة مع انه من أقرب أقربائه. فلم يتنازل بلقاء أو كلام معه حتى بعد خروجه من مملكته العظيمة ولجوئه اليه مهيض الجناح، فقد ابت على [ديكران] غطرسته وكبرياؤه وأحتقاره للملك المقهور الا ابعاده الى منطقة قصية موبوءة بالمرض حافلة بالمستنقعات وجعله فيها أشبه بالسجين. إلاّ أنه بعث يستقدمه بكثير من التجلة والابهة بعد مغادرة السفير الروماني. وعقد معه اجتماعاً خاصاً في القصر. تمت خلالها تسوية كل الخلافات وازالة الاحقاد وانثنى كل واحد منهما لمعاقبة رجال خاصته الذين كانوا السبب في تعقيد الأمور ما بينهما ومنهم [مطرودوروس Metrodorus] السكيپسسي Scepsis، وهو رجل قوي العارضة موفور العلم مقرب جداً من [ميثريدات] حتى انه كان

يعرف بلقب «والد الملك». أوفده سيده الى [ديكران] مرةً، ليطلب منه العون على الرومان فسأله [ديكران].

- بمَ تنصحني يا مطرودوروس في هذه القضية؟

فرد قائلاً: اني كسفير انصحك بالمعونة. وكصديق لك احذرك منها.

ولايعلم أكان يدفعه الى هذا القول إخلاصه لديكران أو قلة حرصه على مصلحة [ميثريدات].

هذا الحديث نقله [ديكران] لميثريدات في اجتماعهما وأكده ولم ينصرف ظنه الى ان الأذى سيلحق [بمطرودوروس] من هذا سيكون جسيماً لا يُصحّح. إلاّ انه قُتل فوراً فأسف ديكران على ما بدأ منه أسفاً شديداً وان لم يكن السبب الجوهري في موته، إلاّ انه أطلق والحق يقال حقد ميثريدات من عقاله على مطرودوروس. فقد كان يكرهه سراً كما اتضح من فحص الاوراق خزانته عندما أستولى عليها اذ وجد بينهما أمر مخطوط يقضي بموت [مطرودوروس]. وقام [ديكران] بدفنه دفنةً مهيبة ولم يبخل بشيء من النفقات على جثمانه الذي غدر به وهو حيّ. ومات في بلاط [ديكران] الخطيب [امفيقراطس Amphicrates] (أن لم نذكره لشيء، فلأجل آثينا)؛ قيل انه ترك بلاده هارباً الى [سلوقية Seluecia] الواقعة على نهر دجلة. فطلب منه ان يُعلّم المنطق للأهالي فأجاب بكل عجرفة. إن الصحفة أصغر كثيراً من أن تحتوي على دولفين. وقصد بها [كليوپاطرا] بنت [ميثريدات] وزوج [ديكران] إلاّ انه اتهم هناك بارتكاب مخالفات. فمنع من التعامل التجاري مع بني قومه فأنهى حياته بالاضراب عن الطعام حتى الموت. وقامت [كليوپاطرا] بدفنه دفنة كريمة، قرب [صافا Sa-pha] وهو موضع معروف في تلكم البلاد.

ولم ينس [لوكوللوس] أسباب المرح واللهو عندما وطد السلم الدائم في آسيا وثبت حكم القانون ثانية. ففي غضون الفترة التي قضاها في [إفسس]. أنعم على المدن بالالعاب الرياضية وأحتفالات النصر، والعاب المصارعةٍ، والمبارزة المنفردة للمصارعين. وانشأوا هم بالمقابلة العاباً أخرى أطلقوا عليها اسم «الالعاب اللوكولسية» تكريماً له، وبهذا أظهروا حبهم الذي كان أعزّ الى قلبه من كل شرف ناله. ولكن عندما وصل [ابيوس] وأعلمه ان الحرب مع ديكران واقعة لا محالة وان عليه أن يتهيأ له. رحل الى الپونطس فوراً وعبّأ جيشه. والقى الحصار على [سينوپ Sinope] أو بكلمة أخرى الكيليكيين الذين يقفون الى جانب الملك، هؤلاء امتنعوا في المدينة ثم قتلوا عدداً من سكانها وأشعلوا فيها النيران وحاولوا الفرار وقتل

منهم ثمانية الآف لم يتسع الوقت لهم للفرار. واعاد الى سكانها كل أموالهم ومُقتناهم وأهتم اهتماماً خاصاً بإعمار المدينة وخيرها. وكان قد دفعه الى ذلك الرؤيا التالية: رأى فيما يرى النائم شخصاً تقدم منه وقال له:

- تقدم يا لوكوللوس الى الامام قليلاً لأن [اوتوليقوس آت لمقابلتك].

وعندما استيقظ، أُشكل عليه تفسير الحلم. وفي اليوم نفسه استولى على المدينة، وأخذ يطارد الكيليكيين المتجهين الى البحر فرأى تمثالاً ملقى على الساحل كان الكيليكيون قد حملوه طول هذه المسافة ولم يتسع وقتهم لنقله الى السفينة. وتبين أنه أحد روائع النحات [ستينس Sthenis] وأعلمه أحدهم انه يمثل [اوتوليقوس] باني مدينة [سينوپ]. وهو على ما قيل ابن [دياماخوس Deimachus] واحد أولئك الذين كانوا ضمن الحملة العسكرية التي خرج بها [هرقل] من ثساليا لمحاربة الأمازونات. وعند عودته برفقة [ديموليون Demoleon] و[فلوغيوس Phlogius] غرقت سفينتهم بالقرب من [خرسونيزوس] في موضع يُدعى [پيداليوم Pedalium] ولكنه نجا هو ورفيقاه مع اسلحتهما واقبلا على الى [سينوپ] وأنتزعوها من ايدي السيريين Syrians هناك. وهؤلاء يزعمون انهم انحدروا كما جاء في الاساطير - من [سيروس Syrus] ابن [اپوللو] و[سينوپ] بنت [آسپوس Aspus] وما ان سمع [لوكوللوس] بهذا حتى تذكر تنبيه [سيللا] الذي نصح في مذكراته بالاّ يستهين المرء قط بالدلائل والاشارات التي ترد في الاحلام فليس مثلها مؤكد وجدير بالاهتمام.

ووردته الانباء يتقدم قوات [ميثريدات] و[ديكران] نحو [لاكوانيا] و[كيليكيا] يريدان سبقه الى دخول آسيا. فأخذته الحيرة كثيراً من موقف [ديكران] ولم يدر سبباً وجيهاً لامتناع الملك الأرمني عن مساعدة [ميثريدات] في الماضي عندما كان هذا الأخير قوياً وجيشه في عزّة. فماذا كان يمنعه آنذاك عن المشاركة في قتال الرومان لو كانت نيته قتالهم، بدلاً من ترك جيش [ميثريدات] وحده يتلقى الهزائم ويُمزق شر ممزق. وها هو الآن يبادئ بالحرب عندما باتت فرص النصر فيها ضئيلة. فيُلقي بمصيره كلّ مع من كبا به الحظّ وهوى الى الحضيض؟!!

وبينما كانت هذه الهواجس تتقاذفه ارسل اليه [ماكار Machares] ابن [ميثريدات] وحاكم منطقة البوسفور تاجاً تزيد قيمته على ألف قطعة ذهبية مبدياً رغبته في أن يعتبر صديقاً للرومان وحليفاً. وهنا أفرخ روع لوكوللوس وايقن بأنها بداية النهاية لهذه الحرب. فترك [صورناتيوس Sornatius] نائبه على رأس ستة آلاف راجل، وأقل قليلاً من ثلاثة الآف فارس. وأنطلق لقيادة الجبهة الثانية بسائر جيشه. ولا شكّ في أن حركته هذه عابها التسرّع الشديد والاستعجال الخاطيء، فقد توغل في بلادٍ تعودت شعوبها الحرب ونشأت

عليها، وملكت ألوفاً مؤلفة من قوات الخيالة. وهي بعد بلاد مترامية الأطراف تكثر فيها المجاهل، وتعترض سبلها شبكة من الأنهار العميقة المجرى والجبال التي تكسرها الثلوج على مدار السنة. فانفرط عقد النظام بين الوحدات وكثر عصيان الجنود للأوامر، وتفشّى فيهم التذمر وكرهوا السير وراء [لوكوللوس]. وأخذ زعماء الشعب في روما يهاجمونه ويوجهون اليه أقسى النقد وينعتونه بالمغرور الأناني الذي لا هَمّ له إلاّ اثارة الحروب ضدّ مصلحة الجمهورية اباء منه ونفرة من حياة السلم طوال فترة وظيفته، ليستمر في جمع المال والإثراء على حساب الأخطار التي يتعرض لها الوطن. وقد حقق هؤلاء الرجال ما ارادوه في النهاية. إلاّ ان [لوكوللوس] لم يهتم بهم في حينه ومضى قدماً في حملته حتى وصل نهر الفرات بعد مسيرة طويلة. فوجد مياهه كثيرة الارتفاع خطرة العبور بسبب الفيضان الشتوي. واورثه خوفه من التأخير قلقاً شديداً، كما جوبه بضرورة توفير زوراق لعمل جسرٍ يعبر عليه. إلاّ ان الماء بدأ يتراجع عند المساء واستمر يتناقص منسوبه باطراد طوال الليل. وفي اليوم التالي وجد ماء النهر قد انحسر كثيراً عن الضفتين، حتى تبين الأهالي في وسط مجراه الجزيرات والماء هادىء فيما بينها. فكانت الدهشة عظيمة لأن ظهور الجزرات أمر نادرٌ جداً. وفسرت هذه الظاهرة بأن النهر تراجع امام [الوكوللوس] خاضعاً طائعاً وانعم عليه بعبور سهل سريع، اذ ما لبث أن استفاد من الفرصة فأنتقل بجميع قواته الى الضفة الأخرى. ولقي فور عبوره، ببشير سعدٍ اذ رأى العجول المقدسة المخصصة لقرابين [ديانا الفُرس] وهي ترعى الكلأ. والبرابرة الساكنون فيما يلي الضفة الشرقية يعبدون هذه الربّة دون غيرها من الآلهة ويخصونها بذبائح من العجول ليس إلاّ. وجرت العادة ان يترك لهذه العجول حبلها على غاربها تتجول وترعى الكلأ دون ان يعترض سبيلها أحدٌ بعد وسمها بشعار الربّة الذي يمثل مشعلاً. ولذلك كان يصعب قنص أحدها عندما يقتضي الأمر تقديم ذبيحة. إلا ان واحداً منها أقترب من الصخرة المقدسة للربة من تلقاء نفسه على أثر عبور الجيش الروماني نهر الفرات. ووقف عليها، ثم أمال بعنقه كما تميل أعناق العجول المقربة بعد ربطها بالحبال واجبارها على الركوع، كأنه يعرض نفسه على [لوكوللوس] ليضحي به. وقربّ أيضاً ثوراً لنهر الفرات لسلامة عبوره منه ولبث هناك طوال اليوم. إلاّ انه سار في اليوم التالي والايام التي عقبته في اراضي [صوفين] ولم يتعرض لساكنها بايّ سوءٍ فكانوا يتقاطرون لتحيته، وللترحيب بجيشه. وبدت رغبة من جنوده في نهب حصنٍ كان مظهره يدل على امتلائه بالمؤون والارزاق. فرد عليهم وهو يشير الى مدينة [طوروس Taurus] البعيدة:

- ذلكم هو الحصن الذي يتحتم علينا اقتحامه.

ثم استطرد يقول: الراحة تنتظر أولئك الذين ينتصرون هناك!

ثم غذ في السير وعبر دجلة متوغلاً في بلاد الأرمن.

وكان الموت جزاء أول رسول أبلغ [ديكران] بنبأ دخول [الوكوللوس]. فقد ثار غضبه وأمر بضرب عنقه جزاء جهوده! ولذلك لم يجرأ أحد على ايصال معلومات أخرى له عن تحركات [لوكوللوس] وظلّ لا يدري شيئاً عن تطور الحرب المستعرة حواليه، ولا يعير أذناً إلاّ لمادحيه ومتملقيه. فقد كانوا يتزلفون اليه قائلين مثلاً: ان [لوكوللوس] سيثبت نفسه قائداً عظيماً اذا ما غامر بانتظاره (يقصدون ديكران) في إفسُّس ولم يسابق الريح في فراره من آسيا بمجرد ان تبدو له طلائع الألوف المؤلفة الزاحفة عليه.

كان [ديكران] يمتاز بجسم قوي لا تؤثر فيه الخمر مهما عبٌ منها. وبعقل راكزٍ رصين يصمد امام أي عارضٍ مهما بلغ من الشدة وأوّل من جرؤ على قول الحقيقة له، كان [ميثرو بارزان Methro Barzanes] نديمه وأقرب مقربيه. وكل ما لقي من شكرٍ على صراحته، ارساله فوراً على رأس ثلاثة آلاف فارسٍ وجيش لجب من المشاة لقتال لوكوللوس وزوّد بأمرٍ جازمٍ: ان يأتي به حياً بعد سحق جيشه سحقاً، وكان بعض جنود [لوكوللوس] منصرفين الى نصب خيامهم بينما أخذ الوحدات الآخر ترد اليهم تباعاً عندما أعطى الكشافة الرومان اشارة اقتراب العدوّ. فجزع [لوكوللوس] لئلا يُداهم بالهجوم ورجاله مشتتون لا يجمعهم نظام المعركة، واضطر الى البقاء، حيث تنصب الخيام وأرسل قائد الفرقة (ليكات Legat) سكستيليوس بألف وستمائه فارس، وبمثلهم من صنفي المشاة الخفيفة والثقيلة. بأمرِ التقدم من العدوّ فحسب، والانتظار متى يرده نبأ أكمال اقامة المعسكر. ولم يكن في نية هذا القائد أن يخل بالأمر الموجه له إلاّ ان [ميثرو بارزان] حمل عليه حملةً شعواء فأرغمه على القتال. فكانت النتيجة أن قتل [ميثرو بارزان] والسلاح في يده، وابيد كل جنوده إلاّ قلة من الرجال لا يعتد بها.

بعد هذا، غادر [ديكران] مدينة [ديكرانوكرتا Tigranocerta] التي شيدّها هو. متجهاً الى [طوروس]. وهناك أمر بأن يتجمع كل جيوشه حوله. ولكن [لوكوللوس] لم يتح له الوقت ليلم شعثه، وأرسل [مورينا] لمهاجمة القوات القادمة الى [ديكران] والقضاء عليها. وبعث أيضاً [سكستيليوس] لتشتيت شمكل جموع كثيرة من الأعراب كانت في طريقها الى الملك. فانقض عليهم وهم في مضاربهم واباد معظمهم. واسعد الحظّ [مورينا] عندما كان يطارد [ديكران] وباغته في شعب جبلي ضيق وعر واجبره على الهروب تاركاً كل أمتعته واثقاله وفتك بكثير من الأرمن وأسر أكثر.

بعد هذا النجاح الذي اصابه [لوكوللوس]، زحف بجيشه على [ديكرانوكرتا] وربض امامها والقى عليها الحصار. وكان يوجد في هذه المدينة كثير من الاغريق الذين جيء بهم سبياً من [كيليكيا]، وكثير مثلهم من الأقوام البرابرة كالأديابينيين Adiabenians والآشوريين، والگوردينيين والكبدوكيين الذين دُمرت مدنهم وأجبروا على سكناها، وكانت مدينة غنية جميلة المنظر يهتم كل ساكن فيها من العامة أو الخاصّة كما يهتم الملك بتجميلها وتوسيعها. وهذا ما حدا بـ[لوكوللوس] الى تشديد الحصار عليها متوقعاً ان [ديكران] سيفقد رشده، وسينفذ صبره فيقدم في ساعة غضب على مهاجمته وهو ما كان يريده. ولم يكن في حسابه مخطئاً فقد أخذ [ديكران] يتأهب لذلك. وحاول [ميثريدات] جهده ليثنيه عن هذا بالرُسل والخطابات. وأشتد في تحذيره من القيام باي هجوم عام. ونصحه بدل هذا أن تعمل خيالته على قطع خطوط تموين العدو ومنع وصول الارزاق اليهم. ولم يدخر [تاكسيل Taxiles] جهداً في نصحه بالتخليّ عن نيته، ويتحاشى سلاح الرومان، وكان هذا قد أرسل مبعوثاً من لدن [ميثريدات] للاقامة مع جيش ديكران.

ولم يكن من الهيّن أو السلامة أن يقحم المرء نفسه في مثل هذه الأمور ومع هذا فقد عمل [ديكران] برأيه في مبدأ الأمر ولكنه أطرح الحذر جانباً عندما وصلته القوات الارمنية والگوردينية بكامل وحداتها وعدتّها. والتحقت به جيوش الماريين والاديابينيين كل تحت قيادة ملكه، ثم انضمت اليه الجموع الكبيرة من العرب قادمةً من البحر فيما وراء بلاد بابل. وجاءه الالبانيون Albanians وجيرانهم [الايبريون Ibriens] من بحر قزوين فضلاً عن عدد لايُستهان به من المحاربين المرتزقة الذين يسكنون احراراً حول نهر [اراكس Araxes] ولا يدينون بطاعة لملك. قسم التحق تطوعاً، وقسم بأجرٍ. وكانت مآدب الملك واجتماعاته لا تردد غير صدى الآمال، والفخر والوعيد البربريّ. وباتت حياة [تاكسيل] في خطرٍ لأنه كان ينصح بارجاء الحرب وعُدَّ رأي [ميثريدات] تثبيطاً لديكران عن نصر مجيدٍ محقق، بدافع الحسد والغيرة. وهكذا لم يجد [ديكران] بعد هذا اي موجب للتأخر انتظاراً له، لئلا يشاركه ثمار نصره. وتقدم بسائر جيوشه وهو ينعي سوء حظه لاصدقائه - على ما قيل - بأنه سيواجه [لوكوللوس] بمفرده، لا كل قادة الرومان مجتمعين! ولم تكن ثقته هذه مبعثها التسرع أو النزق ورهن اشارته هذا العدد الكبير من الشعوب والملوك وعشرات الألوف من المشاة والخيالة المزودين بأحسن السلاح. عشرون ألفاً من رماة القسيّ والنبّالة. وخمسة وخمسون ألف فارس منهم سبعة عشر ألفاً بدروع كاملة ومائة وخمسون ألفاً من المشاة ذوي الاسلحة الثقيلة تنتظمهم ألوية وكراديس [فلانكس]، وكتائب مختلفة من سلاح الهندسة، لتمهيد الطرق.

ومدّ الجسور وتصريف الماء ونزحها، وقطع الاشجار والقيام بكلّ الخدمات الضرورية. عددهم يبلغ خمسة وثلاثين ألفاً، وضعوا جميعاً في مؤخرة الجيش زيادة في تقويته وفي منظر جبروته ومهابته. تلك هي الارقام التي بعث بها لوكوللوس لمجلس الشيوخ.

وما ان عبر [طوروس] وظهرت للمدينة قواته والرومان يهاجمونها - حتى راح أهلها المحصورون يحيونها بالهتاف والصيّاح وتهديد الرومان من أعلى السور بالأرمن الزاحفين عليهم. وفي مجلس الحرب الذي عقده [لوكوللوس] لمدارسة الموقف نصحة فريق بفك الحصار وتوجيه كل قواته الى [ديكران] ورأى فريق آخر أن رفع الحصار ليس بالعمل السليم حين يوجد وراءه العدو بجيوشه الجرارة. فقال هو انه لا يجد ايّاً من الفريقين مصيباً هدفه. وان كان لكلّ سببه الوجيه الصائب من وجهة نظره الخاصة وهو لهذا سيأخذ بالرأي الوسط ويقسمّ جيشه قسمين. الأول ويبلغ ستة آلاف راجل ترك بقيادة [مورينا] ليستمر في الحصار وتسلم هو قيادة القسم الثاني وقوامه اربعة وعشرون فوجاً مبلغ مجموعها عشرة آلاف محاربٍ تقريباً. يساندهم أصناف الخيالة كلها والرماة والنبالة وهؤلاء يقاربون الألف. واستدار بها نحو [ديكران]. وبدت هذه الوحدات للعدو الرابض على ضفة النهر يغطي السهل الرحيب، شرذمة صغيرة لايُعتد بها، ولذلك تعالت اصوات السخرية والهزء بهم، وراح بعضهم يتراهن على الأسلاب وتدافع الملوك والقادة بالمناكب وكل يريد أن يتولى قتال [لوكوللوس] بمفرده. وما على [ديكران] إلاّ أن يجلس ويرقب. وشاءت فكاهة هذا الملك ان تنطلق من عقالها بهذه المناسبة فردد القول المأثور مشيراً الى ضآلة عددهم:

«هم أكثر بكثير من ان يصلحوا لسفارة، وأقلّ بكثير من أن يكونوا جنوداً».

وواصل العدو سخريته وازدراءه حتى أصبح الصباح. فأخرج [لوكوللوس] جيشه للقتال بكامل سلاحه. ووقفت صفوف جيوش البرابرة على طول الضفة الشرقية من النهر. وكان فيه هنا منعطف يميل به نحو الغرب فيسهل منه عبوره كثيراً. وبدأ [لوكوللوس] لديكران وهو يحرك قطعاته سريعاً كأنه يسابق الريح طائراً. فاستدعى [تاكسيل] وسأله بلهجة هازئة:

- أترى الرومان الذين لايقهرون! كيف أنهم يطيرون طيراناً؟

فأجابه [تاكسيل]: أتمنى من كل قلبي أيها الملك أن يسعدك الحظّ بفرصة كهذه التي تتوهمها وهي بعيدة الاحتمال. إلاّ أن الرومان أعتادوا في مسيرات عساكرهم الاّ يرتدوا خير ثيابهم ولا يستخدمونا تروساً صقيلةً لامعة، ولا يكشفون عن خوذهم المعدنية أمّا وانت تراهم الآن وقد ازاحوا عن سلاحهم ودروعهم أغطيتها الجلدية، فهو دليل على

استعدادهم للقتال، واستعدادهم للالتحام بعدوّهم.

وكان [لوكوللوس] يقوم بحركة استدارة جانبيّة وقت هذه المحادثة. وسرعان ما ظهر أولّ نسر ثم لاحت طلائع الالوية المتعاقبة بنظام الصولة مرتبةً حسب السرايا والفصائل وهنا ندت من فم [ديكران] صيحة الرجل المستنقيظ من نوبة سكر بانتفاضة عنيفة، وردد مرتين أو ثلاثاً:

- ها! انهم يُطبقون علينا.

وبكثير من الفوضى والاضطراب والصعوبة تم اعداد صفوف الجيش للمعركة. واحتفظ ديكران لنفسه بالقلب. وتولى الملك الاديابيني الجناح الأيسر، والملك الماديّ الجناح الأيمن، وامام هذا النجاح اصطف معظم الخيانة المدرّعة، وتقدم بعض الضباط من [لوكوللوس] وهو يهم بعبور النهر ينصحونه بالإمساك عن القتال في هذا اليوم بالذات، لأنه أحد الأيام النحسة التي يطلق عليها اسم «الأيام السود» ففيها تمّ القضاء على جيش روماني في اشتباك مع الكيمبريين تحت قيادة [كيپيو Cæpio]. فأجابهم لوكوللوس بالرد الشهير:

«اذن فلأجعلنه يوم سعدٍ للرومان».

وهذا يوافق اليوم الذي يسبق اليوم الخامس أو بداية الاسبوع الثاني من شهر تشرين الأول.

وطلب من جنوده التحلي بالشجاعة وعبر النهر خوضاً وكان في طليعة الهجوم على العدوّ مرتدياً درعاً ذا حراشف فولاذية صقيلة ومعطفاً مزركش الأهداف وسيفه منتضى اشارةً لجنوده الى وجوب الالتحام يداً بيدٍ مع عدوّ تركّزت مهارته في القتال البعيد المدى. ولذلك كانت سرعة الرومان عاملاً رئيساً في تقصير مدى تعرضهم لسهام الرماة وخروجهم عن دائرتها ثم وقع نظره على الخيالة المدرعة وقد انتظمت في صفوف متوالية على حافة الجبل وكانت زهرة الجيش وعماده. ثم تبين فيما يلي رأس الجبل سهلاً رحيباً أجرد يبلغ طوله اربعة [فرلنغات] تقريباً، ووجد أن لا صعوبة هناك في ارتقائه فأمر خيالته التراقيةوالغلاطية بأن يحملوا على جناح الخيالة، ويكفوا عنهم اذى رماحهم بسيوفهم. وكان الرمح وسيلة الدفاع الوحيدة لهولاء الخيالة المدرعين بدروع ثقيلة ولا يملكون غيرها لمضايقة مهاجمهم بسبب ثقل دروعهم وعدم قابلية الحركة فيها حتى لكأنهم بُنوا فيها بناءً.

ثم تقدم [لوكوللوس] على رأس فوجين نحو الجبل وتبعه الجنود بكلّ نشاط وحماسة وهم يرون قائدهم في الطليعة يصعد الجبل راجلاً. وما ان بلغ القمة حتى وقف في بقعة عارية وصاح:

- انتصرنا! انتصرنا أيها الزملاء الجنود!

وبعد هتافه هذا حمل على الخيالة المدرعة محذراً رجاله من قذفها بالحراب، حاثاً اياهم على التقدم منها والتلاحم معها وان يوجهوا طعنات سيوفهم الى الافخاذ والكواحل فهي الاجزاء الوحيدة التي لاتكسوها دروع عند هؤلاء الفرسان إلاّ أن حاجتهم الى الاشتباك انتفت لأن العدوّ لم يشأ انتظار الهجمة بل أطلق سيقانه للريح وهو يصيح صيحات داوية ويثير ضجة كبيرة. وبانكفائهم الى الوراء سقطوا على صفوف المشاة الكثيفة قبل ان تتاح لها فرصة القتال، فما وسعها الاّ الفرار قبل أن تسفك قطرة دم واحدة أو يصاب أحد بجرح. إلاّ ان المقتلة العظمى جرت اثناء الهزيمة أو بالأحرى اثناءً محاولة التي تعذرت عليهم بسبب عمق الصفوف وتزاحم بعضها على بعض فحصروا حصراً. وكان أول الهاربين [ديكران] وقلة من رجاله، وقد لمح ابنه وهو في موقف عسير فنزع تاجه وأعطاه أياه وهو يبكي طالباً منه أن يحتال على الهروب بكيفيةٍ ما. إلاّ ان الفتى لم يجرأ على لبسه وسلمه الى أحد اتباعه الموثوقين وأمره أن يحتفظ به وديعة. وتشاء الصدق ان يقع هذا الرجل أسيراً ويؤتي به وبالوديعة الى [لوكوللوس] هكذا وقع تاج ديكران غنيمةً بيد الرومان. وقيل أن العدو خسر حوالي مائة الف من المشاة. ولم ينبح من خيالته إلاّ شرذام. وخسر الرومان خمسة من القتلى، وجرح منهم مائة. ونوه [انطيوخوس] الفيلسوف بهذه الموقعة في كتابه «عن الارباب» بقوله: «إن الشمس لم تشرف على شبيه بهذه الموقعة» ويقول [سترابو] وهو فيلسوف آخر - في مجموعته التاريخية: إن الرومان لم يسعهم إلاالخجل، والهزء بانفسهم لارتدائهم الدروع في قتال مثل هؤلاء العبيد الذين تدعو حالتهم الى الشفقة والرثاء فعلاً» ويقول [ليڤي] ايضاً ان الرومان لم يحاربوا عدواً بقوة غير متكافئة كقوتهم هذه، لأن نسبة المنتصرين الى نسبة المغلوبين كانت واحداً مقابل عشرين. وكان أعظم الثناء الذي ناله [لوكوللوس] من أقدر القواد الرومان واوفرهم حكمة وخبرةً قولهم انه غلب ملكين عظيمين قويين بحركتين سوقيتين متناقضتين: العجلة والتريث!! فقد حطم قوة [ميثريدات] المتعاظمة بالثانية وسحق قوات [ديكران] بالأولى وكان بهذا مثلاً نادراً للقائد الذي استخدم عامل التأخر لتحقيق الانتصارات العسكرية، واستخدم عامل السرعة لتحقيق السلامة والأمن.

ولهذا رأينا [ميثريدات] غير مستعجل في القدوم الى المعركة لأنه كان يتصور ان [لوكوللوس] سيلتزم جانب الحذر والتريث كما هو شأنه قبلاً فابطأ في سيره وتأخر على [ديكران]، وأحسّ بالأمر الجلل عندما أخذ يلاقي في طريقه شراذم من الأرمن هاربة وهم في اسوأ حال من الهلع والمرارة. ولما زاد من يلقاه من الرجال الجرحى المجردين عن الاسلحة وأكدوا

له نبأ الهزيمة أقفل راجعاً وراء [ديكران] فوجده في حالة يرثى لها من الهمّ والذلة، وقد فارقته صلافته وغطرسته وانقلب وديعاً متواضعاً. وما وقع نظر [مشريدات] عليه حتى ترجلّ وتقدم منه يعزيه على ما حل به من نكبه وعرض عليه حرسه الخاصّ وراح يبث فيه الأمل بالمستقبل. حتى انعش روحه وأحيا فيه موات الأمل. وشرعا معاً يعبئان قوات جديدة.

وفي مدينة [ديكرانوكرتا] أنفصل الاغريق عن باقي سكانها من البرابرة وأخذوا يبذلون الجهود لتسهيل تسليمها الى [لوكوللوس]. فشن عليها هجوماً كاسحاً وأفتحتها عنوةً ووضع يده على بيت مالها، وأطلق العنان لجنوده يعيثون فيها نهباً ومما وجدوه من الأموال ثمانية آلاف تالنت من المسكوكات النقدية، توزعوها فيما بينهم، علاوة على اعطائه كل جنديً ثمانمائة دراخماً من الغنائم. وعلم بوجود كثير من الموسيقيين في المدينة كان [ديكران] قد دعاهم من كل صوب لأحياء حفلة افتتاح الملعب الذي اتمّ بناء» فوقعوا أسرى في ايدي الرومان. فاستخدمهم [لوكوللوس] لاحياء الالعاب التي اقامها بمناسبة نصره، وفي حفلاته العامّة ثم أنه أعاد الاغريق الى أوطانهم بعد تزويدهم بنفقات الطريق. وردّ البرابرة الذين ارغموا على سكنى المدينة الى ديارهم. فأخلى المدينة من السكان تماماً وبهذا عمر وأهل كثيراً من المدن باعادة أهاليها اليها فحظي [لوكوللوس] باعزازها وحبّها وعده سكانها مؤسساً لها وحامياً. وكان في انتظاره نجاح أكثر من هذا، وكل نجاح جدير به فعلاً ما دامت رغبته الشخصية أن يتأتي الثناء من أعمال العدل والرأفة أكثر مما يتأتي من مآثر الحرب. ففي هذه الأخيرة يعود بعض فضلها الى الجنود، وأكثر الفضل فيها يعود للحظّ، أمّا الأولى فهي دلائل أكيدة على روح سمحة كريمة، ولاشك في أن طبعه هذا كان أكبر عونٍ له على قهر البرابرة دعك من السلاح. فملوك العرب قصدوه طائعين وعرضوا عليه بلادهم وما يملكونه. وأعلن [الصوفينيون] خضوعهم له أيضاً. وبلغت معاملته [الگوردينيين] حداً من اللطف، ودواً معه لو تركوا بلادهم وتبعوه هم وأولادهم وزوجاتهم. واليك ما فعل معهم: عيل صبر [زاربين Zar-beinus] ملك الگوردينيين من قسوة [ديكران] واضطهاده، ففاوض [آپيوس] سراً في الدخول بحلفٍ مع الرومان. إلاّ ان أمره أنكشف فقتله [ديكران] هو وزوجه وأولاده قبيل دخول الرومان ارمينيا. ولم ينس [لوكوللوس] حليفه واتى الگوردينيين، واقام تشييعاً فخماً لجثمان [زاربين] تكريماً وأحياءً لذكراه، وزين المحرقة بالاوشحة الملكية والذهب وبشيء من غنائم حرب [ديكران] وقام هو نفسه باشعال النار فيها وسكب العطور مع اصدقاء الميت واقربائه. مطلقاً عليه صديق الرومان وحليفهم وأمر أيضاً ببناء ضريح فخم له. وعُرض عليه في قصر زاربين كنز عظيم من الذهب والفضة وما لايقل عن ثلاثة ملايين مكيال من القمح فزود بها

الجنود وصرفها عليها. وهكذا شاع عن [لوكوللوس] انه ينفق على الحرب مما يربحه منها، ولا يتسلّم دراخما واحدة من الخزانة العامة لهذا الغرض.

وبعد هذا قدمت سفارة من ملك البارثيين تعرض عليه التحالف والصداقة فوافق [لوكوللوس] في الحال، وبعث بوفد مماثل للملك البارثي. وما لبث اعضاء الوفد هناك ان وقفوا على اللعبة المزدوجة التي يلعبها الملك. فقد كان ثم مفاوضات سرية بينه وبين [ديكران] في الوقت نفسه ترمي الى عقد تحالف معه شريطة ان تطلق يده في بلاد ما بين النهرين. فما أن أنهي الأمر الى [لوكوللوس] الاّ وقرر أن يدع النزال مع [ديكران وميشريدات] الى حين بوصفهما خصمين مغلوبين. ويجسّ قوة البارثيين بحملة عليهم قد تنيله مجداً عظيماً. وبذلك يكون قد سحق ثلاثة ملوك في حرب واحدةٍ متلاحمة الحلقات. وقهر ثلاث أعظم ممالك ذلك العهد طراً، كما لو كان بطلاً من أبطال العاب الرياضة. فبعث الى [پونطس] يطلب من [مورناتيوس] وزملائه سوق الجيش والالتحاق به في حملته من [گوردين Gordyene] ولكن الجنود هناك كانوا قد شقوا عصا الطاعة وتمردوا على أوامر قوادهم ولم تفلح فيهم اية وسيلةً من وسائل الإقناع أو الإرغام وارتفعت اصوات الاحتجاج قائلة انهم ملوا البقاء حيث هم وما من قوة في الأرض تقنعهم وانهم سيغادرون [پونطس] نفسها فكيف يطلب منهم الرحيل الى الحرب. ولم يكن الضرر الذي احدثته انباء التمرد في جنود [لوكوللوس] بالقليل فهؤلاء ابطرهم الغنى وكثرة الغنائم وانمى في النفوس الشوق الى الراحة والترف. فحمدوا موقف أخوانهم المتمردين وقالوا أنهم لرجال حقاً وسيسيرون على هديهم ويحتذون حذوهم. لأنهم يستحقون التسريح من الخدمة العسكرية بعد المآثر الحربية التي حققوها، ليخلدوا الى الهدوء والراحة.

كل هذا وأسوء منه، حمل [لوكوللوس] على العدول عن غزو بلاد البارثيين، وانثنى الى [ديكران] والصيف في آخره، ولما أجتاز [طوروس] وشاهد أخضرار الحقول المنداحة امامه أدركه خوف من برودة مناخ هذا الأقليم إلاّ انه على كلّ حالٍ مضى في سبيله متوغلاً ووفق مرتين أو ثلاثاً الى الحاق الهزيمة بالأرمن الذين تجرأوا على اعتراض سبيل زحفه، ونهب قراهم وأحرقها واستولى على المؤون التي كانت تجمع لديكران. وبهذا أمّن حاجته، وجرد عدوّه من ارزاقه، إلاّ ان مساعيه فشلت في جرّ ديكران الى المعركة باستفزازه وارغامه عن طريق حفر خنادق حول معسكره وبناء استحكامات وحرق الأرض المحيطة به. ولم يفلح في اخراجه من مكمنه بعد الاندحارات التي اصابته على يده. ولما يئس من ذلك، لجأ الى وسيلة أخرى فقاد جيشه نحو [ارطاشاتا Artaxata] عاصمة [ديكران] التي تضمّ اولاده الصغار وزوجاته،

مقدّراً أن عاطفته ستدفعه الى اطراح جانب الحذر والخروج للقائه فوراً.

يروى أن [هنيبعل] القرطاجني لجأ الى [ارطاشاز Artaxas] ملك ارمينيا بعد الهزيمة التي لحقت بانطيوخوس فافاده بكثير من النصائح والمقترحات، ومنها استرعاء انتباهه الى مناعة الموقع الطبيعي وجماله وكان في ذلك الوقت أرضاً براحاً مهملة لا يقوم عليها شيء، فقام [هنيبعل] بعمل مخطط لمدينة تبنى فيها واتى [بارطاشاز] اليه لمشاهدته فأعجب بالفكرة ووقعت لديه موقعاً حسناً وأبدى رغبته في ان يشرف هو على هندستها. فنهض بالعبء وبنى مدينة واسعة فخمة أطلق عليها اسم الملك، واتخذت عاصمة لأرمينيا.

وكان [لوكوللوس] مصيباً في حدسه، فلم يصبر [ديكران] على تقدمه منها وداهمه بجيشه حتى ادركه في اليوم الرابع وضرب خيامه مقابل الرومان وليس بين الفريقين الا نهر [أرسانياس Arsanias] الذي كان على [لوكوللوس] ان يعبره ليبلغ العاصمة. وقرب [لوكوللوس] للآلهة تقريب من خرج منصوراً من المعركة ثم عبر الماء وقسم جيشه قسمين، زحف بالقسم الأول وقوامه إثنا عشر لواء [كوهورت] وثبت القسم الثاني في المؤخرة ليحول دون حركة التفاف قد يقوم بها العدوّ.

واخرج [ديكران] عليهم تجريدة من صفوة وحدات الخياله يتقدمها الرماة المارديون Mardi-ans بقسيهم، والايبريون برماحهم الطويلة التي مهروا في استخدامها مهارة لا تُجارى وكان [ديكران] يضع في هؤلاء الثقة التي لا يضعها في وحدة أخرى من الجنود الأجانب. الا انهم خيبوا ظنه ولم يحققوا شيئاً يذكر فمع انهم دخلوا المعركة مع الرومان الخيالة عن بعد، فقد عجلوا الفرار عندما داهمتهم المشاة وأحدثت في صفوفهم كسرات فأخذوا يهربون من الجناحين وأسرعت الخيالة الى ملاحقتهم. إلاّ ان القلق ظلّ مستولياً على [لوكوللوس] رغم ذلك؛ عندما رأى الخيالة المحيطة [بديكران] تتقدم منه بعزم وثبات أمر خيالته بالكفّ عن مطاردة المنهزمين والعودة الى ميدان القتال وحمل وهو في الطليعة بخيرة رجاله على الساترابينيين Satrapenians المتقدمين، الا انهم فروا من امامه قبل ان يصلهم وأطلقوا سيقانهم للريح دون اشتباك وقد تملكهم الرعب. وكان أخزى فرار لحق بالملوك الثلاثة، هو فرار [ميثريدات] الملك البونطسي. فقد افزعته صيحة الحرب الرومانية ففرّ قبل المعركة. وأمتدت المطاردة مسافة شاسعة، واستمر الرومان طوال الليل يقتّلون في العدو المنهزم ويأسرون منه ويغتنمون الأموال ويكدسون الأسلاب حتى كلّوا وادركهم الإعياء. ويقول ليڤي أن عدد من قتل وأسر في أوّل معركة وإن كان أكثر من هذه. إلاّ أن قتلى المعركة الأخيرة وأسراها كانوا من ابرز الاشخاص وارفعهم منازل.

وغَرّ [لوكوللوس] هذا النصر وملأه تيها وعجباً. فعزم على التوغل في داخلية البلاد واتمام فتوحه وسحق مقاومة البرابرة سحقاً تاماً. إلاّ ان الشتاء ادركه قبل تساوي الليل والنهار الخريفي خلافاً لما توقع، وباغته بعواصفه وثلوجه وصقيعه الأبيض وجليده. ولم تعد المياه تصلح لشرب الخيل من فرط برودتها حتى في أصفى الايام. وصعب عليها السير في الأرض المكسوة بالجمد لتكسره وجرح كواحلها. وكان الضباب يلفّ معظم البلاد ذات المسالك الوعرة والغابات الكثيفة، والمطر يكاد لا ينقطع. فهم أبداً مبللون، والثلج لا يرحمهم في سيرهم نهاراً يسقط غزيزاً عليهم ولا يجدون ليلاً ارضاً يستلقون فوقها إلاّ وهي ندية رطبة. وما مرت ايام قليلة عليهم بعد المعركة وهم في هذه الحال، حتى سرت الثورة في نفوسهم. ورفضوا السير وراءه. بدأوا أولاً يتوسلون به ويستوطنون بالتريبيونات عنده ثم تجمعوا واشتد صخبهم وضجيجهم ولم ينقطع صدوره من خيامهم طول الليل. وهكذا أصبح الجيش في حالة عصيان. ولم يسقط في يد [لوكوللوس] بل راح يطيب خواطرهم ويرجو منهم بحرارة التذرع بالصبر والتجلد حتى يتم الاستيلاء على «قرطاجنة الأرمنية وتخريب ما شيده عدوّهم الأكبر» (يقصد هنيبعل) فاصموا آذانهم عنه فلم ير بداً من العودة بهم. وكان انسحابه عبر [طوروس] الكثيرة الثمر والمشمسة، ومدنتها العظيمة [نصيبين Nisibis] المأهولة بالبرابرة يطلق عليها الاغريق اسم «انطاكية ميگدونيا». وكان حاكمها [غوراس Guras] أخو [ديكران] يتولى الدفاع عنها، مدعماً بمهارة المهندس الميكانيّ [كاللِيماخوس]، وهو عين الشخص الذي لقي منه الرومان عنتاً في حصار [اميسوس]. على ان [لوكوللوس] القى عليها حصاراً شديداً وفتحها عنوة. واحسن معاملة [غوراس] الذي استسلم له. إلاّ أن [كاللِيماخوس] لم يحظ منه بالتفات مع انه تبرع له بالكشف عن كنوز مخفية. وأمر بأن يبقى مكبلاً بالسلاسل وان يعاقب على اشعاله النار في مدينة [اميسوس]. وخيب أمله في الود والعطف اللذين طالما أظهرهما [لوكوللوس] للاغريق.

للمرء أن يتصور أن آلهة الحظّ خصّت [لوكوللوس] بعطفها وقاتلت في صفّه حتى هذه اللحظة، ثم ازورت عنه وتركته؛ واذا بالمشقة والصعاب تكتنف كل عمل يقدم عليه، مثلما تتخلّى الريح المواتية عن السفينة فجأةً.

وهنا والحق يقال – ظهر منه الخلق والصبر اللذان لا يتحلى بهما إلاّ القائد المحنكّ العبقريّ. إلا أنه لم ينل مجداً يوازي مجهوداته، ولم يضف شيئاً من الشهرة الى ما كسبه سابقاً. والواقع ان نجاحاته التالية المتواضعة، وأخفاقه التام مع جنوده كادا يؤولان به الى فقدان كل ما ناله من شهرة، وقد كان هو مساهماً في اسبابها لأنفته الشديدة من التودد الى جمهرة

الجنود وأعتقاده الراسخ بأن ايّ تزلف أو تنازل لهم قد يؤدي الى ثلم سلطته، والانكى من كل هذا انه كان بطبعه مترفعاً على الناس. قليل الامتزاج بضباطه الأقدمين الذين عينوا معه. محتقراً سائر الضباط، لا يؤمن بمقدرتهم بالنسبة اليه. ولقد قيل لنا إن هذه الهنات الخلقية أجتمعت في شخصه مع سجاياه الممتازة الأخرى فهو كبير النفس، نبيلها، خطيب مفوّه ومستشار حكيم سواء في الفوروم أم في المعسكر.

يقول [ساللوست] أنّ الجنود كانوا برمين به منذ بداية الحرب، لأنهم أرغموا على قضاء شتائين كاملين في جبهتي قتال [كزيكوس] أولاً و[اميسوس] ثانياً. وزاد حنقهم عليه قضاؤهم فصول الشتاء الأخرى في بلاد العدوّ أو معسكرين في خيمهم المنصوبة في العراء بين حلفائهم. ولن يتفق [للوكوللوس] ولو مرة واحدة أن رابط بجيشه في مدينة أغريقية حليفة وعُزز سخط الجنود خارج الوطن بتحامل [التريبيونات] عليه في روما واتهامه باطالة أمد الحرب طمعاً في الثروة وفي تأسيس إمبراطورية تحت حكمه المباشر تضم كيليكا وآسيا وبيثينيا وبافلاغونيا Paphlagonia، وبونطس وارمينيا، حتى نهر فاسيس تقريباً. ولقد قام مؤخراً بنهب مدينة الملك ديكران، حتى لكأنما كان مطلوباً منه غصب اموال الملوك لا كسر شوكتهم، هذا ما يذكره [لوشيوسكوينتيوس] من انتقادات قيلت بحق [لوكوللوس]، وهو البريتور الذي أقترح على الشعب أرسال خلف [للوكوللوس] في حكم الأقليم فوافقوا، كما صوتوا ايضاً على تسريح عدد كبير من الجنود الذين يخدمون تحت امرته.

الى جانب كل ما نال [لوكوللوس] من اذىً على يد مبغضيه وأعدائه، فان التحامل الاعظم عليه جاءه من [پوبليوس كلوديوس Publius Clodius] وهو انسان في منتهى الوقاحة والغلاظة وشقيق زوج لوكولوس المتهمة بسوء سيرتها وبوجود علاقة جنسية آثمة بينها وبين هذا الشقيق. وكان [كلوديوس] يعمل في جيش زوج أخته بمنصب لايتسم بالأهمية خلافاً لما يتوقع منه فقد تقدمه كثير من زملائه في المناصب وبقي هو في درجته ولولا سوء سمعته لكان آمراً على الكلّ. بدأ هذا الرجل يدسّ السائس على صهره فاتصل سراً بالقطعات الفمبرية وأثارها بمعسول الكلام والوعود البراقة، وكانت هذه القطعات قد تعودت منذ عهد طويل تزلف الرؤساء لها وتملقهمّ. وفيها من اغراه [فمبريوس] بقتل قائدها [فلاكوس] وتنصيبه قائداً. فأصاخوا السمع للكلوديوس. ولقبوه بصديق العسكر لفرط ما أظهره من اهتمام بهم. ولإصراره على وضع نهاية للحرب ومشاقها وقتال الشعوب وغزوها والضرب في آفاق الدنيا، حتى يقضوا نحبهم، وكل مكافأتهم على مجهودهم هو حراسة عربات وقوافل جمال [لوكوللوس] الموقرة بالذهب والاواني الثمينة. بعكس جنود پومپي الذين يعيشون

عيشة المواطنين الحضريين في بلادهم، آمنين مستقرين مع زوجاتهم وأولادهم في المدن والمزارع الكثيرة. انهم يتمتعون بكلّ هذا بعد مجهود بسيط بذلوه في إخضاع منفيي اسبانيا، واخماد ثورة العبيد الآبقين في ايطاليا. لا بعد كسر شوكة [ميثريدات وديكران] وارغامهما على الفرار والتحصن في المجاهل الصحراوية. ولو قضى الواجب علينا ان تستمر في القتال، أفلا يجمل بنا أن ندخر ما تبقى فينا من قوى وانفاس لخدمة جنرال مثل [پومپي] يعتبر ثراء جنوده أعظم نصر له وأشرف مجد يناله؟».

تمّ اشاعة روح التمرد والفساد في جيش [لوكوللوس] بهذه الوسائل. فأعلن جنوده رفض الزحف على [ديكران] أو [ميثريدات]. وكان ثانيهما قد عاد الى پونطس من ارمينيا وراح يستعيد اراضي مملكته تباعاً ولكنه لم يتعرض للجيش الروماني بل ظلّ ساكناً في گوردين متعللاً بحلول موسم الشتاء، منتظراً في كل ساعة قدوم [پومپي] أو أي جنرال آخر لتسلّم القيادة من [لوكوللوس].

وظلّ الجيش عاصياً على أوامره حتى وردت ابناء انتصار [ميثريدات] على القائد الروماني [فابيوس]، وزحفه لقتال [صورناتيوس وترياريوس: Triarius] وإذ ذاك غيروا موقفهم خجلاً واحساساً بالعار وأعلنوا طاعتهم لأوامر لوكوللوس. واستعجل [ترياريوس] قتال [ميثريدات] قبل وصول لوكوللوس لنجدته رغم قربه منه، مدفوعاً بالطمع في نصرٍ منفردٍ لا يشاركه فيه أحد، فساءت عقباه وهزم شر هزيمة وخسر معركة عظيمة كلفته على ما قيل سبعة آلاف قتيل روماني من الجنود، ومائة وخمسين سنتوريونا (ضابط: قائد مائة) واربعة وعشرين تريبيوناً. وأستولى العدو المنتصر على معسكره. ولما ادركه لوكوللوس بعد أيام قليلة، اضطر الى اخفائه عن أعين الجنود الحانقين. وابى [ميثريدات] الدخول مع لوكوللوس في معركة منتظراً قدوم [ديكران] الذي كان يزحف بقوات ضخمة. فقرر [لوكوللوس] أن يتوجه الى [ديكران] ويشتبك معه قبل انضمام قواته الى ميثريدات، إلاّ أن المتمردين الفمبريين خرجوا عن الرتل اثناء المسيرة قائلين انهم مسرحون من الخدمة بموجب المرسوم النافذ وليس [للوكولوس] اية سلطة قيادية عليهم بعد اسناد حاكمية الاقليم الى شخص آخر.

لم يبق شيء يحط بكرامة [لوكوللوس] وعزة نفسه الا تعرض له واحتمله. فقد راح يتنقل واحداً واحداً يتوسل بهم، ويدخل في خيامهم غادياً رائحاً ذليلاً كسيراً والدموع تجول في عينيه، يمسك بايديهم كالضارع الراجي فلا يلتفتون اليه ولا يجيبون على تحيته. بل كانوا يلقون امامه أكياس نقودهم فارغةً. ويقولون له أن يخرج وحده لقتال العدوّ لأنه الوحيد الذي يملك مصلحة فيها. وطالت محاولاته وبذل الجنود الآخرون جهوداً مضنية مع زملائهم المتمردين

حتى أقنعوهم، فقبلوا البقاء تحت قيادته الى نهاية الصيف. على أن يكونوا بعده أحراراً إن لم يتعرض لهم العدوّ بقتال خلال تلك الفترة. وقبل لوكوللوس بشرطهم مرغماً. والاّ كان مضطراً الى الجلاء عن كل أراضي البرابرة. ابقاهم تحت قيادته الاّ ان تحاشى فرض أوامره عليهم بالقوة ولم يقدهم الى ميدان القتال وقنع ببقائهم في جيشه، يرى [ديكران] وهو يجتاح [كپادوكيا] و[ميثريدات] يعاود انتصاراته وهو الذي الذي كان قبل فترة وجيزة قد أبلغ مجلس الشيوخ بأنه قضى تماماً على ميثريدات ولم تعد تقوم له قائمة!

وفي هذا الوقت العصيب، يجري ارسال مفوضين الى البونطس لتسوية الأمور، كأن كل شيء تحت سيطرته التامة، والأحوال مستقرة، فاذا بهم يجدونه فاقد الحول والطول، لا سلطان له إلاّ على نفسه، هدفاً لازدراء جنوده واهاناتهم. فقد خرقوا بصفاقتهم كل الحدود، حتى أنهم لبسوا دروعهم وانتضوا سيوفهم في آخر يوم من الموعد الذي ضربوه. وخرجوا يتحدون العدو الذي لا وجود له. لانسحابه ورحيله منذ وقت بعيد. ثم غادروا المعسكر معربدين هاتفين ملوحين بسيوفهم معلنين انتهاء الفترة التي حددوها للبقاء في جيش [لوكوللوس]. واما بقية الوحدات فقد اصدر لها [پومپي] أمراً خطيّا بالانضمام اليه لأنه عُين بدله جنرالاً لادارة دفة الحرب ضد [ديكران وميثريدات]. وقد أفلح في الوصول الى المنصب بفضل الشعب وتملقه لزعمائه مع أن مجلس الشيوخ وطبقة الاشراف كانوا يرون [لوكوللوس] موضع ظلم واهانة بتعيين رئيس له ووارثٍ لموكب ظفره لا لمنصبه، وانه في الواقع لم يعزل من وظيفته بل جرد من مجده الذي استحقه على قيادةٍ أرغم الآن على تسليمها لغيره.

ثم ان الأمر كان أكثر من مجرد قضية شفقة أو سخط بالنسبة للموجودين، اذ لم يعد [لوكوللوس] سيّد الثواب والعقاب والآمر الناهي في القيادة، ومنع پومپي ان يراجع في اي أمرٍ وحرم تنفيذ أو اطاعة كل ما يصدر منه حتى بموافقة المفوضين العشرة. وأخذ يصدر بيانات وأوامر مبطلة لما اتخذه سلفه فكانت واجبة التنفيذ لصدورها من مرجع رسمي أعلى وأكبر سلطاناً واستحسن اصدقاء الطرفين الجمع بين القائدين. وتمت المقابلة في قرية من قرى [غلاطيه] فتبادلا التحية بمودة، وهنأ أحدهم الآخر على انتصاراته وكان [لوكوللوس] أكبر سنّا من [پومپي] إلاّ أن [پومپي] كان يفوقه شهرة وامتيازاً بقياداته العديدة التي تولاها، وبموكبي نصره، على أن كلاهما كانا يتمتعان بامتياز شعار العصيّ المكللة بالغار، يحمل أمامها دليلاً على انتصاراتهما وكان الغار في شعار [پومپي] قد أدركه الذبول بسبب سيره في مناخ حَارّ جاف. فقدم حرس [لوكوللوس] من اللكتور كمية من الغار الأخضر اليافع للكتور پومپي. فعد اصدقاء بومپي هذه البادرة يمن وخير. والواقع ان تصرفات [لوكوللوس]

هذه اضفت شرفاً على قيادة پومپي، على أن المقابلة لم تؤد بهما الى اي اتفاق ودّي وافترقا وهما أقل عطفاً مما التقيا. ومضى [پومپي] في اجراءات ابطال كل مراسيم لوكوللوس وسحب كل القطعات التي بقيت تحت أمرته ولم يترك له غير ألفٍ وستمائة جندي تقريبا ليقودهم في موكب ظفره القادم حتى هؤلاء لم يجدوا اي رغبةٍ تدفعهم للرحيل الى الوطن معه.

لقد كان [لوكوللوس] يفتقر الى تلك الصفة الرئيسة اللازمة للقائد، إمّا لسوء حظه أو لطبع فيه. ولو أنها كانت من ضمن فضائله الأخرى وفي مقدمتها مثابرته وحكمته وحزمه وعدالته، لما ظلت حدود الامبراطورية الرومانية قاصرة على نهر الفرات، بل كانت ستمتد الى أقصى نهاية آسيا والبحر الهركاني Hurcanian. حيث الشعوب هناك قد انهكتها فتوحات [ديكران]. وسلطات الپارثيين وقتذاك لم يبلغ الأوج الذي بلغه في عهد [كراسوس] بعدئذ. ولم تبرز مملكتهم بعدُ كقوةٍ يخشى جانبها. اذ كانت على عهد [لوكوللوس] منهكة بالحروب على الحدود والفتن الداخلية حتى عجزت عن صدّ عدوان الأرمن. والذي اراه أن [لوكوللوس] بتدخل من المشيئة الالهية طبعاً، قد الحق بروما والحالة هذه - ضرراً أكثر مما حققه لها من فوائد. لأن انصاب النصر التي اقامها في ارمينيا على الحدود الپارثية وفتحه [ديكرانوكرتا] و[نصيبين]، والثروة الطائلة التي جاء بها من تلك الاصقاع الى روما، فضلاً عن تاج ديكران الذي عرضه في موكب ظفره، كل هذا عمل على زيادة غرور [كراسوس] وتوهمه بأن البرابرة ليسوا الاّ غنائم وأسلاباً معروضة لمن ينهب، حتى اذا وقع في ايدي الرماة الپارثيين، تأكد في الحال ان انتصارات[لوكوللوس] لم تكن بالسهولة التي تخيلها، ولم تأته بسبب جبن اعدائه وجهلهم فنون الحرب، بل ثمرة بسالته ودرايته. وسنعود الى هذا الموضوع فيما بعد.

عند عودة [لوكوللوس] الى روما، وجد أخاه [ماركوس] ضحية تهمة رفعها ضده [كايوس موميوس] عن تصرفاته التي أتاها بأمر من [سيللاّ] عندما كان [كويستوراً] له. ولما صدر الحكم ببراءته تحول [موميوس] الى [لوكوللوس] وراح يحرضّ الشعب عليه، ويدفعهم الى حرمانه موكب الظفر لاستئثاره بالغنائم لنفسه واطالته امد الحرب. وفي هذه المعركة السياسيّة الهامة نزل الاشراف وسراة القوم الى الشارع وأختلطوا بعامة الشعب وقبائله باذلين أعظم الجهود في سبيل [لوكوللوس] الى ان نجحوا بشق الأنفس في حمل الناس على التصويت له بموكب الظفر. ولم يكن الموكب فخماً ولا طويلاً الى حدّ الملل، نسبة الى المستعرضات والمواكب التي سارت خلاله. فقد كان أهم ما فيه كميات هائلة من الأسلحة والآليات والاجهزة الميكانية الحربية الملكية. زين بها ملعب [فلامينئوس] فيما بعد، وهو منظر طريق لقي أعجاباً لا يستهان به. وحفّ بالموكب عدد من الخيالة ذات الدروع الثقيلة، وعشر عجلات مدرعة

ومسلحة بالاسنّه. وسار ستون صديقاً وضابطاً اسيراً من جيش الملك ومائة وعشر سفن حربية من ذوات الجؤجو النحاسي نقلت وجُرت جراً في الموكب. وشاهد المتفرجون صورة من الذهب الخالص [الميثريدات] يبلغ ارتفاعها ست أقدام، وترساً ومكفتاً بالاحجار الكريمة وعشرين جوالق مملؤة بالاواني الفضية واثنين وثلاثين خرجاً مملؤة بالكؤوس الذهبية والدروع والنقد حملت كلها على عواتق الرجال. فضلاً عن ثمانية بغال تنوء بحمل مسكوكات فضية، يبلغ عددها مليونيين وسبعمائة الف قطعة تقريباً. وتلتها الواح حفرت عليها ارقام تبين مقدار المال الذي دفعه [ليومبي] للانفاق على حرب القراصنة. والمبالغ التي زود بها الخزانة العامة وما دفع لكلّ جندي من الغنائم وهو تسعمائة وخمسون دراخماً. وبعد ختام الموكب اقام المآدب الفخمة لأهل المدينة وما يجاورها من «القرى Vici».

بعد أن أطلق [لوكوللوس] زوجته [كلوديا] الفاجرة المهتوكة العرض، تزوج [سرڤيليا Ser-vilia] أخت [كاتو]، فلم يكن زواجه هذا بأفضل من سابقه لأن عروسه الثانية كانت تملك كل رذائل [كلوديا] إلاّ علاقتها الآثمة باخوتها. وغض [لوكوللوس] الطرف عنها حينا اكراماً لأخيها، ولكنه لم يطق فجورها ودعرها فطلقها. وكان مجلس الشيوخ ينتظر منه عظائم الأمور، وأملَ ان يجد فيه خصماً [ليومبي] يحدّ من طغيانه وعتوه. وتوقع ان يبرز زعيماً لطبقة الاشراف بما يملكه من مقام ومجدٍ مؤثل، فاذا به يعلن أعتزاله السياسة والحياة العامة ولعله وجد الدولة تجتاز مرحلة عسيرة والفساد مستشرٍ فيها. أو ربّما لأن ما بلغه من رفعةٍ لم يبق له ما يطمع فيه. أضف الى ذلك حنينه الشديد الى الحياة الهادئة الناعمة بعد الأهوال والمشاق التي عاناها فأنتهت به الى نهاية لا يمكن وصفها بالسعيدة. هناك من الناس من حمد فيه أعتزاله وأختيار هذا النمط من العيش قائلين انه تحاشى الصخرة التي تحطم عليها [ماريوس] قبله فلم يكتف بالامجاد الخالدة التي نالها من انتصاراته. على الكمبريين، ولم ينسحب بها وطمع في المزيد متزعماً حزباً سياسياً مضاداً للشباب الروماني، وهو في شهوة لا ترتوى الى السلطان والسؤدد غير مبال بتقدمه في السن، فورط نفسه في أعمالٍ دنيئة، أوقعته في مهالك بائسة. وكذلك قيل عن [شيشرون]: لو انه أعتزل الحياة السياسية بعد مؤآمرة [كاتيلين Catiline] لعاش عمراً مديداً. وقيل الشيء نفسه عن [سكيپيو] بعد فتوحاته القرطاجنة والنوميدية. لو تقاعد قانعاً بما حصل عليه من مجدٍ. والامر منطقي فاداره الشؤون العامة كغيرها من الأعمال - لها رجالها وساستها وشروطها المثلى. وهؤلاء ايضاً كالمصارعين يُصرعون حتماً عندما يوليّ شبابهم وتنهد قواهم. على ان [كراسوس] و[پومپي] سخرا من [لوكوللوس] عندما وجداه ينصرف الى الحياة الناعمة، كأن حياة الترف واللذة لا

تناسب سنّه قدر ما تناسبه شؤون الحكم والسياسة أو قيادة الجيش في ميادين القتال.

ولا غرو فقد كانت حياة [لوكوللوس] أشبه «بالكوميديا القديمة» تبدأ بمشاهد سياسية وحربية وتنقلب في فصولها الأخيرة الى مشاهدة الولائم ومجالس الشراب واطايب الأكال والقصف والغناء والمنادمة. ولن أحاول ايجاد اسماء أفخم واليق لتلك الصروح الشامخة والاروقة ذات الأعمدة الفخمة والحمامات الرائعة التي بناها [لوكوللوس] ولن أقلل من شأن الرسوم والتماثيل التي جمعها باهتمام الى جانب مختلف التحف ببذله المال الطائل في سبيلها وصرفه عليها كل ما كسبه من الحرب. الى يومنا هذا يضرب المثل «بحدائق لوكوللوس» وتعدّ أجمل واروع ما يملكه الامبراطور رغم تطور الأذواق وتقدم الفن. ووقع نظر [توبيرو Tubero] الفيلسوف الرواقي على صروحه في نابلي حيث جعل من الجبل طنفاً بحفره انفاقاً واسعة تحته فآض كالصخرة العظيمة المعلقة. وجلب اليها ماء البحر فغدت قنوات وبحيرات للاسماك تحيط ببيته من كل جهة، وبنى مقاصير لهو في وسط الماء، فما وسع توبيرو الاّ أن يخلع عليه اسم «احشويرش في طيلسانه». وبنى أجمل المغاني في [توسكولوم Tusculum] وقصوراً ذات ابراج عالية وبلكونات واسعة مفتوحة للنوم في العراء ذات اروقة للنزهة. وقد زاره [بومبي] ذات مرة ولامه لبنائه بيتاً قد يكون مريحاً في الصيف لكنه لا يصلح للسكنى شتاءً فاجابه باسماً:

- ايخيل لك اني أقل تحفظاً من الرهو واللقلق، لا أغير مسكني بتغير الفصول؟

وكان ثم [بريتور] يقوم بتهيئة حفلة تمثيل للجمهور باذلاً كثيراً من الجهود ومنفقاً المال الطائل. واحتاج الى عددٍ من الاوشحة الارجوانية لممثلي الجوقة. فطلبها من [لوكوللوس] على سبيل الإعارة. فاجابه هذا انه سيذهب الى منزلة وينظر فان وجد شيئاً فطلبه محقق. وعاد اليه في اليوم التالي وسأله كم عدد ما يريد منها فقال يكفي مائة. فعرض عليه [لوكوللوس] مائتين. وعلق الشاعر [هوراس Horace] على هذا قائلاً:

«يكون المنزل فقيراً عندما لا تزيد النفائس غير المنظورة فيه، عن النفائس المنظورة».

وفاقت مآدب [لوكوللوس] اليومية كل الحدود المتعارف عليها في البذخ والإسراف فكانت أغطية موائده من الأرجوان النفيس وصحاف الطعام مكفتة بالجواهر الكريمة. ولا تخلو الوليمة قط من الرقص والعزف. هذا فضلاً عن كثرة الاصناف وجودة طهيها مما يدير رأس الرجل العادي ويملأه حسداً.

وكانت مقولة بليغةٌ تلك التي خطرت ببال [پومپي] في وقت مرضه، فقد وصف له طبيبه طير الدُّج. فقال خدمه ان هذا الطائر لا وجود له في الصيف إلاّ عند لوكوللوس الذي يقوم بتربيته وتسمينه في اقنانه. فأبى أن يبعث بطلبه وقال لطبيبه:

- أترى پومپي سيموت اذن لو لم يكن [لوكوللوس] ابيقوري المذهب؟ ثم أمر بتهيئة ما يتسيّر في السوق.

وكان [كاتو] صديقه الصدوق ونسيبه يكره عاداته وأسلوب حياته هذا. حتى انه لما فرغ احر الشباب من القاء خطبة في مجلس الشيوخ بمدح الزهد والتقشف نهض كاتو وعقب قائلاً:

- حتى م؟ تريد الاستمرار في جمع المال مثل [كراسوس] والعيش مثل [لوكوللوس] والكلام مثل [كاتو]؟

على أن ثم من يقول أن قائل هذه العبارة شخصٌ آخر غير [كاتو].

وواضح من الحكايات المدونة عنه أنه كان يعتزّ بطريقة عيشه ويفخر بها فضلاً عن متعته فيها. اذ قيل انه أدب عدة ولائم لبعض الأغريق القادمين الى روما، أستمرت اياماً متوالية، حتى أخجل أدبهم الاغريقي الصميم فابوا حضورها معتذرين بما تكلفه من مبالغ جسيمة يومياً وهو لا يقيمها الاّ على شرفهم. فاجابهم باسماً:

- بعض هذا عُمل لأجلكم يا اصدقائي الأغريق. على ان أكثره عُمل لأجل [لوكوللوس].

ومرة تناول عشاءه وحيداً ولم يهيأ له غير قائمة طعام واحدة متواضعة فأستدعى وصيفه وأخذ يؤنبه. فاعتذر منه بقوله: انه قدر عدم وجود حاجة الى اصناف كثيرة، لانه لم يدع أحداً. فردّ لوكوللوس قائلاً:

- ماذا تقول؟ الا تدري اذن انّ [لوكوللوس] يتناول اليوم عشاءه مع [لوكوللوس]؟

وذاع هذا القول في المدينة وكثر التعليق عليه.

ولقيه [شيشرون] و[پومپي] ذات يوم وهو يسير الهوينا في الفورم وكان أولهما من أعزّ اصدقائه ومحبيه. اما الثاني فمع بقاء بعض برود بينهما منذ تنازعهما على القيادة في الحرب إلاّ انهما ظلاّ يتزاوران، وظل حبل المودة بينهما موصولاً، فحياه [شيشرون] وسأله اليس في رأيه ان هذا اليوم ملائم لطلب فضل منه. فقال [لوكوللوس]: ملائم جداً. وطلب منه ان يفصح فقال [شيشرون].

- نريد ان نتناول معك هذا اليوم العشاء الذي يُعد لك وحدك

فبوغت [لوكوللوس] - وسأله مهلة يومٍ واحد فرفضا ولم يدعاه يكلم خدامه في الأمر لئلاّ يزودهم باوامر في اعداد طعام أضافي. إلاّ انهما سمحا له بقول عبارة واحدة لهم أمامها وهي «انه سيتعشى هذا اليوم في [ابوللو]».

(وابوللو هو اسم قاعة من أحسن قاعات الطعام لديه). وبهذه التورية استظهر على ضيفيه، وأفلت من طوقهما. فلكلّ قاعة طعام من قاعاته على ما يبدو، مخصصاتها المحدودة من نفقات العشاء بدرجة كذا، وما يلحق بالعشاء من وسائل التسلية. فلما ادرك الخدم اين سيكون عشاء سيدهم، علموا ايضاً كم يجب ان ينفقوا عليه وباي شكلٍ وما هي الاصناف. وكان محدداً للعشاء في غرفة ابوللو ما مقداره خمسون الف دراخما صرف فعلاً برمته في ذلك اليوم. وكانت دهشة [بومبي] و[شيشرون] بسرعة أعداد هذا العشاء أكثر بكثير من دهشتهم لفخامته ونفاسته. والمرء لايسعه الاّ القول أموال لوكوللوس جاءت من أسلاب البرابرة ومن هنا كان بطره واستهانته في تبذيرها.

ومما يستحق الثناء والذكر الحسن فيه تأسيسه مكتبة عامة. جمع فيها عدداً كبيراً من أنفس المخطوطات واعلاها قدرها، وكانت الجهة التي اوفقها عليها مما يعد اسمى من عملية تأسيسها فقد جعلها حرة للمطالعين مفتوحة الأبواب لطلاب العلم بلا استثناء، والحق بها غرفاً للمطالعة ومماشي حولها. وكان من دواعي سرور معشر الاغريق أن يتركوا أعمالهم ويهوعوا الى تلك المكتبة التي باتت في نظرهم مقر آلهة الفنون [ميوزات] فتراهم يسيرون متحدثين معاً في الأروقة بناقش بعضهم بعضاً.

وكان هو نفسه يقضي فيها ساعات كثيرة يجادل العلماء وهو يمشي ويبذل نصحه لمن يطلب من رجال السياسة. حتى صار بيته أشبه ببريتانيوم أغريقي لمن يزور روما. وعرف بتعلقه الشديد بكلّ مذاهب الفلسفية واطلاعه العميق على سائر اتجاهاتها. إلاّ أنه اختار لنفسه المذهب الأكاديمي منذ البدء. ولا أقصد الحديث منه الذي ازدهر مؤخراً بجهود [فيلو] وتعاليم [كارنيادس Carneades]. بل القديم منه الذي مثله ورعاه [انطيوخوس العسقلاني] وهو رجل وافر العلم والفصاحة - تمكن [لوكوللوس] بعد الجهد الجهيد من اتخاذه صديقين عزيزين. وأطلقه على اتباع [فيلو] ومعتنقي مذهبه ومنهم [شيشرون] نفسه الذي كتب رسالة رائعة في الدفاع عن مذهبه، ضمنّها حواراً في تحبيذ الادراك اجراه على لسان [لوكوللوس] واجرى الحوار المقابل عن لسانه. وجعل عنوان كتابه هذا [لوكوللوس] لأنهما كانا صديقان عزيزان كما اسلفنا، فضلاً عن انتمائها الى معسكر سياسيٍ واحدٍ. ولنستدرك القول هنا بأن لوكوللوس لم يعتزل العمل السياسي تماماً وانما تخلّى عن اطلاب المجد من خلاله، وتحاشى

التناحر الخطر الذي ينقلب في احيان كثيرة الى فتن يبدر فيها القانون وينفرط عقد النظام. ويكون هدفها الفوز بالسلطة السياسية فحسب. وكل هذا تركه [الكراسوس وكاتو] عندما اضطر مجلس الشيوخ الى ابرازهما زعيمين سياسيين خوفاً من تنامي شوكة [پومپي] بعد ان رفض [لوكوللوس] تلك الزعامة كما أسلفنا. إلاّ انه كان يختلف أحياناً الى الفورم نزولاً عند رغبة اصدقائه ويأتي الى مجلس الشيوخ عندما يستدعى الأمر الوقوف في وجه [پومپي] والحدّ من كبريائه وطغيانه. فنجح في ابطال تسويته بعد فتوحاته وقهره الملوك. وابطل بمساعدة [كاتو] مشروعه الرامي الى توزيع الاراضي على جنوده، فما كان من [پومپي] إلاّ وانحاز الى محور «كراسوس - قيصر» أو موآمرتها بعبارة أخرى.

وملأ اليومپي المدينة بالرجال المسلحين واستحصل بالقوة مصادقة على مراسيمه وطرد [كاتو ولوكوللوس] من الفورم، فاشتد حنق الأشراف عليه. وعمد حزب [پومپي] الى دفع شخص يدعى [ڤيتيوس Vettius] ليتهمها بأنهما فاوضاه على محاولة أغتيال [پومپي]. ووقف في المجلس يعدد اسماء المتهمين. وقبل أن يسمع منه الشعب اسم [لوكوللوس] بوصفه الرجل الذي اغراه على قتل [پومپي] بالمال فقد الناس اهتمامهم به ولم يصغ أحد اليه؛ واتضح لهم فوراً أنه مدفوع ومزوّر اتهامات لا أساس لها. وانكشفت معالم الدسيسة بعد أيام عندما طُرحت جثته خارج السجن الذي كان فيه. ومع ما قيل بأن موته كان طبيعياً فان ما شوهد على جثته من آثار ضرب رعلى عنقه من أثر حبل الخنق اثبت ان من اغراه على التزوير هم الذين قتلوه، خشية الفضيحة. هذا الأمور حملت لوكوللوس على ان يزداد نأيا عن السياسة.

وحرّم على نفسه التدخل في الشؤون العامّة بتاتاً، عندما نفي شيشرون من المدينة، وطرد [كاتو] الى قبرص. وقيل أنه خولط في عقله قبل وفاته بتأثير تقدمه في السن الاّ ان [كورنيليوس نيوس] ينكر اي تأثير للسن أو للمرض على الانحلال العقلي التدريجي الذي اصابه. ويقول أن ذلك نجم عن جرعة أعطاها له [كاالليثينس] معتوقة وكان يقصد بها أن يزداد به حبّاً كما هو المفروض فيها الاّ ان مردودها كان مضاداً فشلت عقله. واضطر أخوه الى القيام بشؤونه.

وكان موته اشبه بموت عظيم من العظماء وهو في أوج مجده العسكري وسلطانه السياسيّ. اذ وقع نبأه وقعاً شديداً على الجمهور فتقاطروا اليه وارادوا حمل جثمانه بالقوة أثناء نقله الى الساحة العامة مرفوعاً على أعناق فتيان من أكبر الأُسر - لدفنه في «حقل مارس» جنب سيللاً.

وكانت فكرة آنية لم يسبقها أعداد ، ولم يتوقعها أحدٌ، لذلك صعب تذليل العقبات التي تكتنفها في الحال. وبذل أخوه جهوداً كبيرة في اقناعهم بالعدول عما أعتزموه حتى اجازوا له دفنه في ضيعته التوسكولانية كما أوصى هو بذلك.

ولم يطل العمر بأخيه بعده. ولم يفصلهما الموت وقتاً طويلاً فلحق به وهكذا كانا قريبين أحدهما من الآخر في الموت والحياة والعمر والشهرة، وغيرها من النواحي الأخرى فضلاً عن محبتهما الأخوية التي ضربت بها الامثال.



هنيبعل



مقارنة بين لوكوللوس بكيمون

قد يحمد المرء نهاية [لوكوللوس] التي كانت مخجلة الى الحدّ الذي اسلمته الى الموت قبل اندلاع الثورة الكبرى بفعل الحروب الأهلية، مما كان القدر قد ادخره للجمهورية آنذاك. وبذلك ختم على حياته في عهد جمهورية حُرة وان كانت ممزقة بالفتن والاضطرابات. فهو [وكيمون] يتفقان في الظروف والمصير اكثر من اي شيء آخر. فقد ادرك [كيمون] أجله قبل أن تدب الفوضى في بلاد الأغريق، وفي اثناء ما كانت تستمتع بأعلى حالات الرفاء والرخاء. ومع انه لم يستدع الى الوطن وهو يقود جيشه في ميدان القتال ولم يزايله عقله أو يلطخ مجد حروبه ووقائعه وفتوحاته باقامة المآدب ومجالس اللهو والفجور. فالظاهر ان هدفهما ونهايتهما كانا هذا وقديماً قال افلاطون محتقراً [اورفيوس Orpheus] «لقد جعل الفجور المستديم من الآن فصاعداً، مكافأة لمن يعيش هنا حياة صالحة».

ولا شك في ان الراحة والهدوء ودراسة العلوم الفلسفية والأدبية هي أفضل حل واليق الهوايات والتتبعات للرجل المتقاعد عن القيادة والحكم ذي السنّ المتقدمة. إلا أن الانحراف بالأعمال الجليلة الى نواحي اللذة واللهو وجعلها هدفاً نهائياً وخاتمة للوقائع الحربية ومناصب القيادات العسكرية، وأحياء أعياد [ڤينوس]، كل ذلك أمور لا تليق بالفلسفة الأكاديمية الشريفة ولا بتلميذ لـ[كزينوقراطس]، بل برجل ابيقوري النزعة. واليك نقطة تناقض عجيبة فيما بينهما، لم تكن صبوة [كيمون] محمودة وانما حفلت بالهفوات والسقطات الخلقية، امّا [لوكوللوس] فكانت نشأته صارمة، وخلقه مستقيماً منزهاً عن كل ما يشين، ولا مندوحة لنا هنا في اعطاء قصب السبق والفضل لمن غيره دهره الى الأحسن، فهذا دليل على الطبع الأقوم حيث تتخلى الرذيلة عن مكانها للفضيلة. وقد كان ثراؤهما فاحشاً، إلاّ ان كل واحدٍ منهما نهج سبيلاً مختلفاً في استعماله. وهنا لاوجه للمقارنة بين الجدار الجنوبي من الاكروپوليس الذي بناه [كيمون] وبين القاعات الفخمة والمقاصير المطلة على البحر التي بناها [لوكوللوس] في نابلي، باموال البرابرة. ولا مجال للمقارنة ايضاً بين مائدة [كيمون] الشعبية المجانية،

وبين مائدة [لوكوللوس] الشرقية الفخمة، كان اولهما يستضيف يومياً كثيراً من المدعوين ويطمعهم طعاماً لا يكلفه كثيراً من المال. في حين كان ثانيهما يمدّ سماطاً مرتفع، التكاليف لرجال كلّ همهّم اللذة والشهوة. الاّ اذا كانت طبيعة العهدين المتباعدين وطراز الحياة فيهما سبباً في التغيير وفي الفرق. فمن يجزم ان [كيمون] ما كان ليعيش حياة أكثر ترفاً وبذخاً من حياة لوكوللوس لوا انه اعتزل القيادة والحياة العامّة في سنه المتقدمة واثر حياة الهدوء والانعزال، وهو المعروف بشدة تعلقه بالخمرة والعشرة والمتهم بالضعف ازاء الجنس الآخر كما أسلفنا ؟

ان المتع التي ينالها المرء من انتصار في معركة، أو مجهود تكلل بالنجاح، لا يترك زماناً ولا مكاناً للمتع الحسيّة الدنيا وتدفع ابطال الرجال ومغاويرهم الى نسيان الأخيرة. ولو ان [لوكوللوس] قضى نحبه في ميدان القتال وهو على رأس قطعاته لتقاصر الحسد والافتراء عن النيل منه ومن سمعته قلامة ظفر. وفي هذا ختام الكلام عن حياتيهما الخاصة.

واضح أن كلاهما كان جندياً ممتازاً وعبقرياً في ميداني البحر والبرّ. وكما جرت العادة في خلع لقب «الفائز واكثر!» على أولئك الابطال الرياضيين الفائزين بأكاليل الغار في لعبتي المصارعة والپانكراتيوم[1] خلال يوم واحدٍ فإن [كيمون] خلع على بلاد الاغريق نصراً بحرياً ونصراً برياً في يوم واحدٍ. ولذلك كان له ان يفخر بتفوق معين ومميزة على سائر القادة. أن [لوكوللوس] تسلم القيادة العامة بأمر من حكومته. في حين جاء [كيمون] بالقيادة العامة الى حكومته وضمّ الى أملاكها اراضي عدو كان يحكم كل الحلفاء الاغريق قبل هذا. فامّر [كيمون] بلاده على دول الحلف بعد ان كانت مجرد تابع. وجعلها تقهر اعداءها، وترغم الفرس على ترك سيادة البحر لها، وأجبر اللقيديميين على النزول عن القيادة العامة لأثينا.

واذا كان أهم شرط في الجنرال هو أن يحتفظ بثقة جنوده، فلا يخرجوا عن طاعته، فان [لوكوللوس] أصبح موضع ازدراء بينما ظلّ [كيمون] موضع أجلالهم العظيم واجلال الجنود الآخرين الأجانب. اولهما تخلىّ عنه جنوده، وثانيهما انحاز الى صفه جنود حلفائه. لوكوللوس عاد الى وطنه بدون القوات التي قادها عند خروجه. وأرسل [كيمون] الى الخارج كعضو في الحلف مع غيره من الاعضاء، فعادِ الى وطنه بسلطان يفوق الكلّ بعد أن حقق لمدينته ثلاثاً من أصعب الخدمات: رآسة الحلف الأغريقي، وتثبيت قواعد السلم مع العدو، وعقد ميثاق صداقة مع لقيديمون.

---

(١) Pancratium: لعبة رياضية أغريقية هي مزيج من الملاكمة والمصارعة.

كان كلا الرجلين يهدفان الى تدمير ممالك عظيمة الشأن واخضاع آسيا، وكلاهما فشل في مسعاه هذا؛ [كيمون] عانده حظٌ بسيط فأخفق اذ ادركه الاجل المحتوم وهو في أوج انتصاراته ولم يمهله لتحقيق هدفه. امّا [لوكوللوس] فليس ثم من يبرئه من سوء التصرف مع جنوده، ولا يكون شفيعاً له في ذلك جهله بما يشكو منه جيشه ويتذمر، أو امتناعه قصداً عن ازالة اسباب ذلك التذمر. وهذا ما حملهم على كرهه كرهاً قتالاً. ولكن ألم يكن ما عاناه [كيمون] شبيهاً بهذا؟ فقد قاضاه مواطنوه وقدموه للمحاكمة ولم يتركوه حتى نفوه «كي لا يسمعوه مدة عشر سنوات» على حَدّ قول افلاطون؛ ذلك ان ذوي العقول النبيلة السامية، يندر ان يرتاح لهم السوقة أو يطمئنوا اليهم. لأن الشدة التي يستخدمها الاولون لتقويم اعوجاج الأخيرين تحدث فيهم عين الألم الذي تحدثه أربطة المجبر عند قيامه باعادة العظام المخلوعة الى مواضعها الاصلية وربما خرج كل من [لوكوللوس وكيمون] بدرجة واحدة متساوية تقريباً من البراءة، هنا.

وفي سعة ميادين الحرب فاق [لوكوللوس] [كيمون] كثيراً فقد كان أول روماني يجتاز بجيشه [طوروس] ويعبر نهر دجلة ويتسولي على العواصم الملكية في آسيا ويحرقها على مشهد من ملكها وهي [ديكرانوكرتا، وكابيرا، ونصيبين وسينوپ] ويخضع الأقاليم الشمالية حتى [فاسيس]، والاقاليم الشرقية حتى [ميديا]. ويدخل الجنوب وسواحل البحر الأحمر تحت نفوذه بولاء ملوك العرب وعرض طاعتهم له، وحطم شوكة الملوك وقضى على سلطانهم، ولم يفلتوا شخصياً من قبضته إلاّ بما يشبه المعجزة، وهم كالحيوانات الوحشية الفازعة يفرون الى الصحاري، ويلوذون بالغابات الكثيفة التي يتعذر اختراقها. وان نحن انعمنا النظر في هذا التفوق، نجد الفرس بعد فترة وجيزة يبرزون للأغريق شاكي السلاح كان [كيمون] لم يصبهم بضررٍ كبير، فيسحقوا ويشتتوا قوات الاغريق الضخمة في مصر. إلاّ ان [ديكران وميثريدات] لم يستطيعا النهوض على قدميهما بعد ضربة [لوكوللوس] القاضية. [ميثريدات] الذي أعجزته الحروب المتوالية وانهكته المعارك الماضية لم يعد يجسر على الخروج من معسكره لمناجزة [پومپي]، وفرّ الى [بوسپوروس Bosporus] وفيها قضى نحبه. و[ديكران] ألقى بنفسه وهو أعزل مجرد عن كل قوة تحت رحمة [پومپي] ونزع تاجه وطرحه عند قدميه مهنئاً اياه بفتوح ليست له في الحقيقة بل هي من عمل [لوكوللوس] من كل وجهٍ. وقد اهتز سروراً عند تسلمه شعارات التجلة والتعظيم، لأنه كان لايبدو قد عمل على اغتصابها من قبل؛ ولا شك في ان القائد الذي تنسب اليه المأثرة العظمى هو كذلك المصارع الذي يترك لمن سيخلفه في النزال، خصمه وهو على شفا الهزيمة. هذا فضلاً عن ان [كيمون]

تسلّم القيادة العامة... وقد انهارت قوة الملك، وأصبحت معنويات الفرس في الدرك الأسفل بسبب هزائمهم الفظيعة واندحاراتهم المتوالية على يد [تمستوكلس] و[پاوسانياس] و[ليونتخيداس] ولهذا لم يجد صعوبة في التغلبّ على «اجسام» رجال ذلت نفوسهم وتحطمت. على ان [ديكران] كان ملكاً منتصراً عند مقابلته [الوكوللوس] لأول مرة، اذ لم يكن قدمني بهزيمة واحدة في كل المعارك العديدة التي خاضها قبل ذلك. وليس ثم مجال للمقارنة بين عدد من قارعه [لوكوللوس] وبين عدد من هزمه [كيمون] وان نحن نظرنا الى كل هذه الأمور من وجهها الصحيح لصعب علينا ان تصدر حكماً عادلاً. فيظهر أن الآلهة حابت كليهما وخدمتهما، فأشارت على احدهما بما يعمل، وأنذرت الثاني بما يجب أن يتحاشى، ولهذا يمكن القول انه كليهما حظي «باصوات الآلهة» المقترعة على نبالة شخصيتيهما وقدسيتهما هذا إن جاز لنا التعبير.

نیکیاس

NICIAS

470 _ 413



في رأيي ان [كراسوس] هو اصلح من يوضع مقابل [نيقياس] وان أفضل ما يمكن هو مقارنة النكبة البارثية، بالنكبة الصقلية. وهنا يجمل بي ان أقف لاستميح القاري، عفواً مع بالغ الاحترام، اذا ظنّ باني أريد مطاولة [ثوكيديدس] في سرد أمور عبرّ عنها هو باسلوبٍ بلغ من الطلاوة والدقة والبلاغة ما أعجز كل تقليد، بل ما أعجزه هو نفسه عن الايتان بمثله. كذلك ارجو من القاري،أن يجنبني الاتهام بارتكابي هفوة مماثلة مع [طيماؤوس] الذي كان يأمل في التفوق الفني على [ثوكيديدس] بمؤلفه التاريخي، واظهار [فيليستوس Philistus] كاتباً تافهاً مبتدئاً باندفاعه الشديد في وصف كل المعارك البرية والملاحم البحرية والخطب العامة وتدوين ما كان أكثرها نجاحاً. دون أن يستحق حتى مقارنته..

«بذلك الذي يريد ان يسابق
بقدميه، العجلات الليدية»

على حَدّ قول [پندار]. فاذا به ينكشف عن كاتب شبه أميّ صبياني الاسلوب أو بعبارة [ديفيلوس Diphilus]

«هو بالنكتة سمين
مطليّ طلاءً مفرطاً بالسمن الصقليّ! »

وكثيراً ما تراه يهبط الى مستوى [كزينارخوس Xenarchus] فيقول لنا انه يرى من الشؤم على الآثينيين الاّ يرغب جنرالهم الذي سجل لنفسه نصراً سابقاً، في قيادة الحملة، وان التشويه الذي حصل لوجه [هرماي Hermæ] هو نذير آلهيّ بأنهم سيعانون الأمرين في حربهم هذه، على يد [هرموقراطس Hermocrates] ابن [هرمون Hermon] أضف الى هذا كلّه: كيف يُعقل ان يساعد هرقل السيراقوسيين إكراماً لخاطر [پروسپرين] وهو الذي أخذ [كربيروس Cerberus] بمسعى منها، وكيف يُعقل أن يكون غاضباً من الآثينيين لحمايتهم الإغيستيين Egesteans أحفاد الطروادبين الذين دمرّ مدينتهم للأذى الذي لحق به من ملكهم [لاوميدون Laomedon]. ومهما يكن فقد يؤخذ كل هذا مجرد امثلة على ذوقه السليم الذي يعزيه بتقويم عبارات [فيليستوس] والإساءة الى [افلاطون وارسطو]، ان المنافسة والمباراة

في مسائل الأسلوب مع الآخرين هو في رأبي الحذلقة والصَغار بعينهما، وقد يتخطيان الى مرتبه الهراء والثرثرة عندما تستهدفان مؤلفات ممتازة يتعذر مضاهاتها أو محاكاتها. ولما كان ما اورده [ثوكيديدس] و[فيليستوس] عن وقائع حياة [نيقياس] مما لا يصّح أغفاله لأنهما اهتما اهتماماً خاصاً بتصوير مزاجه وأخلاقه في الازمات العظيمة العديدة التي مَرّ بها، فاني سأمر بها مروراً سريعاً مقتضباً لئلا اتهم بالاهمال. ولكنيّ سأحمل جهدي في اثبات كل الروايات المجهولة من الناس عنه، وجمعها من مظانّها واستخلاصها من كتابات غيري من المؤلفين، ولم اشتات منها في المخطوطات والسجلات القديمة، مغفلاً منها ما انتفت الفائدة منه. ومثبتاً كل ما يعين القاريء على فهم نفسيته وعقليته.

وأبدأ أولاً بما قال عنه [ارسطوطاليس]، قال: هناك مواطنون صلحاء ثلاثة تقدموا الجميع بتعلقهم المتوارث بالشعب، ومحبتهم له، وهم [نيقياس] ابن [نيقيراطس Neceratus] و[ثوكيديدس] ابن [ميليسياس Melesias] و[ثيرامينس Theramenes] ابن [هاغنون Hagnon] والأخير منهم أقلهم مقاماً. لأنه أجنبيّ من [كيوس Ceos] ولأن في أسنانه جسراً صناعياً نشأ عن قلع لبعضها، ولطبعه المتقلب الذي جعله ينحاز مرةً الى هذه الفئة ومرة الى تلك في عالم السياسة، حتى أشتهر بلقب «الخُفّ».

وكان مجيء [ثوكيدبدس] أسبق على الاثنين. وبرز ممثلاً لمصالح طبقة النبلاء، ومعارضاً عنيفاً للاجراءات التي كان [پيركلس] يتقرب بها من الشعب.

وكان [نيقياس] فتى في ريعان الصبا اثناء حكم [پيركلس] ولم يكن مغمور الأسم مع ذلك، حتى صار زميلاً له في القيادة العليا. وتولى القيادة بمفرده أكثر من مرة. إلا ان وفاة [پيركلس] رفعته فجأة الى المقام الأعلى بفضل ومسعى زعماء القوم وأغنيائهم الذين كان تفضيلهم له بالمنصب الأكبر يرمي الى جعله متراساً واقياً لهم من غائلة [كليون] وصلافته. وقد ساهم [كليون] من حيث لا يدري في تقدمه، اذ مع انه نال نفوذاً عظيماً لما بذل من جهود في:

«ارضاء الشيوخ والعجزة الذين وضعوا
فيه ثقتهم لغرض مُخصصات عيش لهم»

حتى هؤلاء الذين أصلح من شأنهم تقرباً اليهم واستجداء لعطفهم، تبينوا فيه صلافةً وجشعاً وعجرفةً، فأنقلبوا عنه الى [نيقياس]. فمهابة هذا لم تكن من النوع الذي يتميز بالصرامة والميل الى الإساءة، وانما كانت مُلطفة بالحذر الشديد والاحترام الذي يظهره صاحبها للناس؛ فيكسب قلوبهم باظهار الخوف منهم. ولما كان حيّياً بطبعه. لا خير فيه محارباً وقائداً

فإن حسن طالعه سَدّ مسدَ شجاعته وعوض عن البسالة، وعمل على ستر جبنه عن أعين الناس. فقد أفلح دوماً في كل قيادة عسكرية تقلّدها. أمّا جبنه في السياسة وخوفه المتناهي من معارضيه ومتهميه، فقد عُدّ من خير صفات المواطن في جمهورية حرة. وكسب نفوذاً ليس بالقليل جراء ثقة الناس به واخلاصهم له. فالجمهور يخشى من يحتقره، إلاّ انه يرفع من شأن الذي يُظهِر خشية منه. ان المديح الاكبر الذي يمكن ان يقدمه الحكام لشعوبهم هو ألاّ يزدرون ويستهينون بها.

و[پيركلس] الذي حكم الجمهورية بالفضيلة المطلقة، وبقوة الحقيقة والبرهان، لم يكن في حاجةٍ الى المخاتلة والاغراء مع الشعب. و[نيقياس] الذي كانت تعوزه هذه الوسائل، لجأ الى ثروته الطائلة لكسب الشعبيّة والمنزلة. وكان ينقصه نكتة [كليون] الرشيقة ومقدرته على تسلية الآثينيين بالملح الجريئة، معوّض وهذا بالتقرب اليهم عن طريق اقامة الحفلات العامة وعرض التمثيليات والالعاب الرياضية، وما الى ذلك من المهرجانات الشعبية حتى بلغ بها حداً من الروعة والبذخ ما لم يسبقه فيهما أحد لا في عصره ولا فيما خلا من العصور. فمن أوقافه الدينية ما زال يوجد الى يومنا هذا تمثال [منيرڤا] الصغير في القلعة وقد نُزع عنه كساؤه الذهبيّ. وهناك ايضاً المزار الذي اهداه الى معبد باخوس. وموضعه الآن تحت الطبلات المثلثة القوائم قدمّه أولئك الذين فازوا بجائزة المسرحيات والتمثيليات ولم يفشل [نيقياس] في أية مباراة دخلها من هذا القبيل. وبهذه المناسبة أورد هنا حكاية عنه: قيل أنه ظهر في احد تمثيلياته عبدٌ له متقمصاً دور [باخوس] وكان بهي الطلعة ممشوق القامة أمرد لا يوجد في ذقنه شعره واحدة. وعندما تجليّ سرور الآثينيين بمنظره وطال تصفيتهم وهتاف استحسانهم، نهض [نيقياس] من مجلسه وقال ان ورعه وتقواه لا يسمحان له بابقاء عبدٍ كُرس شخصه لتمثيل دور آله، في حالة الرّق، وأعتق الشاب حالاً.

وكانت تمثيلياته في [ديلوس] من أشرف وأفخم ما سُجّل من أعمال العبادة وروي انه كان يتوقع في احدى هذه المناسبات وصول جوقات الترتيل التي بعثت بها المدن للقيام بفرائضها. فكان وصولها على غير موعدٍ وبصورة مفاجئة، واستقبلتها حشود من الناس وهي تنادي وتطالب بالغناء فوراً، فاضطر أفراد الجوقات ازاء هذا الإلحاح الى تغيير ثيابهم ووضع أكاليلهم بعجلة شديدة واضطراب عظيم في نظامهم وهم ينزلون الى البرّ. وكان المفروض ان تنقل هذه الجوقات الى ديلوس، فأنزلها [نيقياس] في [رينيا Bhenea] مع القرابين والملحقات والبطانة، ثم مدّ بينها وبين ديلوس جسراً أعدّه لهذا الغرض وحمله من اثينا، وهو ذو صنعة جيدة جداً يبهر العين باناقته وزخرفته وكثرة الوانه وتذهيبه وأكاليل زهره وابسطته.

وتناسب طوله مع القناة الضيقة التي تفصل ما بين الموضعين. واتمّ تركيبه ليلاً، حتى اذا أقبل الصباح خرج في مقدمة الجوقات الغنائية والمواكب الدينية. وعبر الجسر وسط التراتيل والأدعية. وبعد ان فرغ من التقدمات والألعاب والمآدب، قام بنصب نخلةٍ نحاسيّة في المعبد، هديةً للربّ، وابتاع قطعة أرض بعشرة آلاف دراخما وأوقفها على المعبد، شريطة ان يصرف الدبلوماسيون ريعها على القرابين والولائم، مع الدعوات بالخير لـ[نيقياس] من الآلهة. ونقش هذا كله على عمود رخامي في [ديلوس] ليكون وثيقةً على اوقافه تلك. وقد قلعت الريح النخلة النحاسية فيما بعد، فسقطت على التماثيل العظيمة التي قدمها رجال [نخسوس] ثم تحطمت على الارض.

لاشك في ان مُعظم ما ذكرناه، هو من باطل الأمور، وعبثها، ومجرد رغبة من فاعلها في كسب التقدير والشعبية. وقد ينصرف ذهن المرء الى اعتبارها اثراً من آثار التقوى والورع بدليل أخلاقه الأخرى، فقد كان من أولئك الذين يشعرون بمخافة عظيمة من القوى الربّانية. وذكر [باسيفون Pasiphon] في «محاوراته» أنه كان يقرّب للآلهة يومياً. وان لديه في المنزل كاهناً عرافاً دائمياً قيل انه كان يستخير له في مستقبل الجمهورية، على أن أغلب كهانته كانت لمصلحة نيقياس الخاصة وشؤون حياته، ولاسيما حول مناجم العديدة الغنية جداً في [لاوريوم Laurium] فقد كان يتملكه الخوف من الاستمرار في الاستخراج منها. وملك عدداً ضخماً من الرقيق، والقسم الرئيس من ثروته هو الفضة، ولذلك راينا كثيراً من الطفيليين يحومون حوله ويستجدونه فينالون منه ما يبتغون، لأن عطاءه للقادرين على اذاه لم يكن بأقلّ من عطائه لمن يستحق. وبمختصر القول كان جزعه وخوفه مورداً للاوغاد والسفلة؛ وإنسانيته مورداً للصالحين والطيبين ويشهد بذلك مؤلفات كُتاب الكوميديات. فنجد [تيلقليدس Tileclides] مثلاً ينوّه به عند كلامه عن أحد الفُتّان المعروفين:

أعطى [خاريقلس Charicles] پاوناً لرجلٍ
مما لا يجمل ان يذكر عنه؛ هو انه خرج الى هذه
الدنيا من بطن كيس نقود.
وأعطاه [نيقياس] اربعة پاونات أيضاً،
واني أعرف سبب اعطائه معرفة جيدة!...
على ان [نيقياس] رجل ذو حيثية ولذلك فلن أقول شيئا.

ونوه به [يوپوليس] في مؤلفه [ماريكاس Maricas] في معرض مهاجمة أحد الدساسين لرجل ساذج فقير صالح:

«منذ متى التقيت بنيقياس؟ فأنا الآن لا اراه في الشارع. ان الرجل قد لقيه وهو لاينكر، ومن الواضح انهما مشتركان في دسيسة. كونوا ايها المواطنون على ثقة، بان [نيقياس] سيفتضح امره وهو متلبس. وأعدكم لهذا! مُتلبس أيها الحمقى! ومن الخطأ التوهم بامكان فضح رجل بهذه الدرجة من الصلاح، أو وجود رغبة لأحد في ذلك.

وفي مؤلفه الموسوم «ارسطوفانس»، يجعل [كليون] يتوعده:

«سأرتفع بصوتي على كل الخطباء وأُسلم نيقياس الى الذهول».

واشار [فرينيخوس Phrunichus] الى استعداد نفسه الجزوعة وميوعتها للاخافة والإرهاب بالبيتين التاليين:

«كان رجلاً شريفاً وهو ما لا انكره –
مثل نيقياس يسير في الطريق حَبْواً على ركبتيه!»

وكان شديد الحذر من الدساسين، متحفظاً غاية التحفظ من مثيري الفتن، ولذلك تجنب تناول طعامه مع الناس. ولم يسمح لنفسه بالاسترسال في الحديث، والتبسط في الكلام مع اصدقائه. وحرم على نفسه أمثال هذه المتع والتسليات. وأعتاد في عهد حكمه البقاء في محل عمله حتى الليل، وكان أول القادمين الى مجلس المستشارين وآخر الخارجين منه. ولم تكن مواجهته بالأمر الهين ولا مكالمته بالشيء السهل الأ في حالة تصريف شؤون الدولة، والاّ فأنه يدخل بيته ويغلق بابه فاذا طرقه أحدهم خرج عليه أحد اصحابه ممن في الدار ووجه اليه كلاماً حسناً يتضمن رجاء نيقياس بقبول اعتذاره عن استقبال الطارق لانهماكه في شؤون الدولة والواجبات العامة التي تحتجزه وتستأثر بوقته. و[هيرو Hiero] هو الشخص المكلف عادة بهذه الردود والاعتذار، وهو ممن نشأ وربي بين أسرة [نيقياس] وتلقى ثقافته في الأدب والموسيقى على يد صاحبه، وكان يدعى بأنه ابن [ديونيسيوس] الملقب [خالقوس Chal-cus] ، الذي ما زالت اشعاره تتناقلها الالسنة الى يومنا هذا، كما كان يتزعم المهاجرين الاغريقيين الذين نزحوا الى ايطاليا وأسسوا مدينة [ثوري] فيها.

وكان [هيرو] همزة الوصل بين [نيقياس وعرافّه الكاهن ينقل الخصوصيات منه ويعيد جوابها اليه، وكان مذياعاً بين الناس عن الحياة الحافلة بالكدح والضنك التي يحياها نيقياس في سبيل الجمهورية فيقول مثلاً:

–تعترض سبيل افكاره أمور الدولة اينما وجد؛ أكان في الحمام امّ على مائدة الطعام. يهمل

شؤونه الخاصة لحرصه الشديد على المصلحة العامة، ومن النادر أن يأوي الى فراشه قبل أن يكون النُوَام قد استوفوا هزيمهم الأول، لذلك رقّ جسمه ونحل واصدقاؤه لايرون منه البشاشة ومظاهر الودّ المألوفة، لذلك كان يخسرهم ويخسر معهم ماله في خدمة الدولة. في حين يكسب الآخرون بخطبهم العامة اصدقاءً، ويجمعون ثروات، ويسايرون الخلق ويجعلون الحكم ملهاة لهم ومتعة».

هذا القول عن حياة [نيقياس] لم يتعدّ الواقع ولذلك كان أحق الناس واجدرهم بكلمات [اغا ممنون] القائل:

«نحن نعيش حياة الحكام ذات العظمة الفارغة.
ونقدم للجماهير خدمة العبيد الارقاء».

ولاحظ أن جماهير الشعب تستخدم مواهب ذوي المنزلة الرفيعة. والفصاحة وقوة العارضة كلمّا وجدت الى ذلك سبيلاً الا أنها كانت في الوقت نفسه تحقد عليهم لقابلياتهم ومواهبهم وتنظر اليهم بحذرٍ وتوجسٍ مستمرين، وتنتهز كل فرصة لاذلالهم وجرح كبريائهم ونحت أثلتهم. كما يبدو ذلك واضحاً في ادانتها [پيركلس]، ونفيها [دامون]، وريبتها في [انتيفون Antiphon] الرأمنوسي Ramnusian وخصوصاً في مأساة [پاخيس Paches] الذي فتح [لسپوس] فبعد أن دافع عن نفسه امام مجلس القضاء الذي حاكمه، وقدم حساباً عن مسلكه وأعماله، جرّد سيفه عن غمده وغيبّه في صدره.

كل هذا حمل [نيقياس] على قبول الاضطلاع بالمشاريع الصعبة، أو الأعمال التي يقتضي لها وقت طويل. فإن تسلّم القيادة العسكرية فأنه لا يقدم على حركة الاّ وهي مضمونة النتيجة، فاذا نجح فيها - وغالباً ما يفعل - فلا يعزو نجاحه الى حنكته أو شجاعته، وانما يشكر الحظّ على ما حباه. ويعيد الفضل في المجد الذي ناله الى العناية الالهية، كل ذلك اجتناباً منه للحسد والغيرة. واعماله نفسها خير شاهد، ففي عصره نزلت على آثينا عدة مصائب عظيمة، لم يرد في اي منها ذكر لاسمه بوصفه أحد المسببين لها وممن له ضلع فيها.

وهزم الخلقيديون الآثينيين في ثراقيا عندما كان [كاللياداس] و[گزينفون] قائدين عامين. وكان [ديوستينس] قائدهم العام عندما اندحروا في [ايتوليا]. وفي [دليوم] فقدوا ألف مواطن آثيني في معركة قادها [هيبوقريطس]. وحُمل [پيركلس] أكبر المسؤولية في انتشار الطاعون، لأنه أمر باغلاق المدينة لأجل الحرب. فانحصرت حشود الناس في الداخل وكثير منهم لجأ الى المدينة من الريف، فساعدوا على نشر العدوى لتغييرهم محلات سكناهم وسبل العيش التي اعتادوها. وخرج [نيقياس] معانى سليماً من كل هذا محققاً لوطنه عدداً من

المآثر الطيبة، كاستيلاته على [كِثِرا Cythera] وهي جزيرة ذات موقع ممتاز من الناحية العسكرية ضد اللاقونيين أهلة بالمستعمرين اللقيديميين. وأستولى على كثير من المناطق المتمردة في تراقيا وحالف عدداً منها وتمكن من حصر الميغاريين بين اسوار مدينتهم، وأستولى على جزيرة [مينوا Minoa]، وبعدها بقليل زحف منها على [نيسيا Nisoea] واحتلها. ثم انحدر الى الحدود الكورنثية وخاض معركة ناجحة صُرِع فيها عددٌ كبير من الكورنثيين وبينهم قائدهم [ليكوفرون Luycophron]. واتفق أن جثتين من حيث قتلاهُ نُسيتا في ميدان القتال وأغفل امرهما عند نقل جثث القتلى. وعندما علم بذلك أوقف سير الأسطول وارسل منادياً الى العدو للسماح له بنقل الجثتين، أقدم على هذا وهو يعلم أن القاعدة والتقليد يقضيان على الفريق الذي يطلب هدنة لنقل قتلاه، بالتنازل عن كل ادعاء له بالنصر ولا يجوز له والحال هذه ان يقيم نصباً لأحياء ذكر نصر، لأنّ النصر لسيّد الميدان وليس بسيد الميدان من يطلب السماح بنقل موتاه كأنه يفتقر الى القوة لأخذها عُنوةً. وهكذا فضل [نيقياس] التخلي عن نصره ومجده لكيلا يدع جثتين من جثث مواطنيه في العراء لا يضمهما قبر. وراح يصول ويجول على طول سواحل [لاقونيا] ويوقع الهزائم بكلّ من يتعرض له من اللقيديميين، وأستولى على [ثيريا Thyrea] التي كان يحتلها قوم [الايجينيتان Aeginetan] وحمل اسراهم الى آثينا.

ولما قام [ديموستينس] بتحصين [پيلوس Pylos] زحف عليها البيلوبونيسيون بقوات بحرية وبرية ودرات رحى القتال، ثم انهم تركوا حوالي اربعمائة محارب سپارطيّ على ساحل الجزيرة [سفاكتيريا Sphacteria]. وطمع الآثينيون في أسر هؤلاء، فقد كان اسرهم والحق يقال من انفس ما يؤمل من الغنائم. إلا ان الحصار صعب عليهم في المواضع التي شحت بالماء وعانوا الأمرين في نقل الضروريات بحراً في وقت الصيف، وكبدهم كثيراً من النفقات. أما في الشتاء فقد كان محفوفاً بالمخاطر مشكوكاً في نجاحه، أو هو مستحيلٌ عملاً كانت الدلائل تشير الى شؤم، فبدأ القلق يغزو نفوسهم وندموا على رفضهم سفارة اللقيديميين التي وفدت عليهم للمفاوضة في عقد معاهدة سلم، واسفوا لقبولهم اقتراح [كليون] في رفض التفاوض إحراجاً [لنيقياس] ونكاية به، لأنه كان خصماً له، من جهةٍ ولرغبة نيقياس في قبول عرض اللقيديميين السلمّي.

فبعد أن طال أمد الحصار، ووردت الأنباء عن الصعوبات التي ينكبدها جيشهم، حنقوا على [كليون] وأشتدوا في نقده، فألقى باللوم كله على [نيقياس] واتهمه بالتخاذل والجبن وبفشله في القضاء على مقاومة المحصورين. وقال:

- لو كنت جنرالاً لما تركتهم يصمدون طويلاً.

وعند ذلك توجه الآثينيون اليه بالسؤال الطبيعي:

- ان كان الأمر كما تقول فلم لا تقود حملة عسكرية ضدهم؟

ونهض [نيقياس] من مجلسه وأعلن تنازله لـ[كليون] عن القيادة في پيلوس، وطلب منه أن يأخذ ما يشاء من قوة، ويقوم بخير خدمة للجمهورية. فحاول [كليون] في مبدأ الأمر ان يسحب قوله وقد غلاه الارتباك للجواب الذي باغته به [نيقياس] من حيث لا يتوقع. إلاّ ان الآثينيين أصروا وأشتد [نيقياس] في تأنيبه حتى استفزه واشعل نار اطماعه، فقبل على عاتقه المهمة وأضاف يقول أنه سينجز ما تعهد به خلال عشرين يوماً من أقلاعه الى ميدان القتال. فإما سيقضي على العدو قضاء تاماً في مكمنه، أو سيأتي بافراده احياء الى آثينا. وكان والآثينيون أكثر استعداداً للضحك من هذا القول، منهم أيماناً بجدية قائله فقد تعودوا الهزل من كليون كثيراً، وكانت مبالغاته وشحطاته الجريئة تطربهم وتلذّ لهم كثيراً. ويذكر من هذا القبيل أن اجتماعاً جماهيرياً عقد في آثينا وراح المجتمعون ينتظرون مقدم [كليون] فتأخر برهة طويلة، ثم دخل عليهم وقد ضفر أكليلاً من الزهر على رأسه ورجا منهم تأجيل الاجتماع الى اليوم التالي معتذراً بقوله:

- اني لست فارغاً لكم في هذا اليوم فقد قربتُ للآلهة، واستضفت بعض الأغراب في بيتي.

فنهض الآثينيون وهم يضحكون وارفض الإجتماع.

على أية حال، حالف الحظّ [كليون] في تلك الحملة فقد قادها بزمالة [ديموستينس] الى سبيل النجاح وجاء الى آثينا بكل السپارطيين الذين لم يصرعوا في ميدان القتال - أحياءً أسرى في غضون الأيام العشرين التي حددها، والحق عاراً كبيراً [بنيقياس]: الذي ضيع من يده فرصة مجيدة ومأثرة بطولية، ودفع بها الى خصومه غنيمة باردة، فكان عمله أشنع من عمل المحارب الذي يلقي بترسه جانباً. لقد تخلى من تلقاء نفسه عن واجبه جبناً وفرقاً وبعبارة أخرى أعطى صوته ضدّ نفسه في التخلي عن قيادته. فأرتكب عملاً شائناً مخزياً لا أكثر منه خزناً. وقد نظم [ارسطوفانس] ابياتاً ساخرة بهذه المناسبة في كتابه عن «الطيور»:

الحق يقال - ان الوقت غير مناسب للقول:
إفعل فعل [نيقياس]، وانسحب الى مخدعك!

وعرّض به أيضاً في رسالته «عن الفلاحين»:

«إني لأودّ البقاء في بلدي وازرع ارضي. وماذا بعد؟ ما الذي يمنعك من ذلك؟
أنت يا ابن الوطن؟ لمن سأدفع ألف دراخما، ليدعني أتخلى عن منصبي واترك

المدينة. قدكَ! وكن قانعاً. فان [نيقياس] دفع ألفي دراخما ليتخلى عن منصبه! ».

والى جانب العار الذي لحقه فقد كان الضرر الذي سببه نزوله عن هذا القدر الكبير من السمعة والسلطة لكليون مما يصعب تقديره. فقد سكر [كليون] بنصره وراح يختال تيها وعجباً وتمادى في جرأته وقلة حيائه حتى أصبح لا يحتمل، وادى ذلك الى نتائج سيئة كثيرة، منها قدر كاف سببه هو، فقد حطّم التقليد والأصول المتبع في القاء الخطب العامة، وكان أول من عمد الى قطع الاسترسال فيها بالصراخ ونداء التعجب، وفتح الجبة وضرب الفخذين والركض على المنصة جيئة وذهاباً اثناء الالقاء. وكل هذه الطواريء الجديدة كان لها اثرها الفوضوي السيّ اذ حطت من منازل رجال الدولة وصار يُنظر اليهم باستهانة.

سبق لالكيبياديس أن برز في أثينا شخصية قوية وزعيماً شعبياً يُعتد به، ليس بأسلوب [كليون] العنيف الصاخب، بل شبيهاً ببلاد مصر فقد قيل عنها بسبب خصوبة تربتها:

إنها تغلّ غلة عظيمة كثيرة. من الاعشاب التي تنفع في معالجة المرضى والتي يستخرج منها نقيع السمّ القاتل.

وهكذا كان معدن طبع الكيبياديس غزيراً كثيراً من المادتين مما نجم عنه أخطر التعقيد، وكثير من المشاكل. فبعد أن تخلّص [نيقياس] من كليون أخذ يعمل جاهداً لاصلاح الحال وايجاد حالة من الاستقرار والدعة للمواطنين، حتى اذا اوصل الوضع الى ما يبشر بالأمل قام [الكيبيادبس] باحباط كل ما سعى اليه، ونقض كل ما بناه واعاد حالة الغليان والاضطراب من جديد مدفوعاً باطماعه، وطموحه الشديد الى المجد. فقذف بكل شيء في اتون حربٍ زبون لم يخض الآثينيون اسوء منها. واليك ما حصل:

وقف [كليون] و[براسيداس] موقف المعارض من السلم وعُدا الشخصين الرئيسين اللذين حالا دون الاستقرار المنشود ولا عجب فقد كانت الحرب تطلق قابليات اولهما وتخفي نذالة ثانيهما؛ تمنح الأول ميداناً لانجاز أعمال بطولية، وتزود الثاني بفرص لأرتكاب الفضائح والخيانات. فلما صُرع هذان بالقرب من [امفيپوليس]، ولما كان [نيقياس] يعرف رغبة السپارطيين في السلم منذ أمدٍ بعيدٍ. ويدرك ان الآثينيين فقدوا كل ثقة بجدوى الحرب. وان الفريقين قد استنفدا قواهما في هذا الصراع المرير، وسقطت اذرعتهم منهوكة من فرط الارهاق، لم يجد انسب من هذا الوقت لبذل جهوده في سبيل احلال الصداقة بين الدولتين وانقاذ الدويلات الاغريقية الأخرى من بلاياها وارزائها. وهذا ما يثبت دعائم نجاحه السياسي

ويرفع من شأن أسمه على مَدّ العصور وتعاقب الزمن. وقد وجد سراة القوم وكبار السّن، وأصحاب الأراضي والمزارعين، يميلون عموماً الى حياة السلم. أضف الى هذا أن منطقه وحواره خفف من غلواء الكبيرين وهدأ من أندفاعهم الى الحرب، ولذلك راح ينمي الرغبة نفسها في اللقيديميين ويحضّهم على النزوع الى السلم. فوثقوا به لما بدالهم فيه من نزاهة واعتدال في دعوته، وزاد من جنوحهم اليه العطف الذي ابداه لأسرى [پيليوس]. والعناية التي شملهم بها طوال اقامتهم في الأسر وتخفيفه وطأة السجن عنهم.

وكان الأثينيون قبل هذا قد عقدوا مع اللقيديميين هدنة أمدها سنة واحدة نعم الطرفان خلالها بالاستقرار وتذوقوا خلاوة السلم الذي اتاح لهم الاجتماع والمخالطة، ووصل ما أنقطع من حبال الودّ ووشائج القربى بين الأصدقاء والمعارف، دون عقبة أو حائل. ولهذا صبا الجميع الى وضع حَدّ نهائي للنزاع الحربي وسفك الدماء، واصغوا مستبشرين الى الاجواق وهي ترتل اغاني السلام كقولها:

« سأترك رمحي جانباً لينسج العنكبوت عليه خيوطه »

وأستذكروا بغبطة وحنين القول الشهير المأثور «في السلم يستيقظ النائمون على صياح الديك لا على نفير البوق». ولذلك اوقروا اذانهم عن تحذير أولئك الذين كانوا يدافعون عن حتمية الحرب بقولهم: ان الاقدار قضت ان تكون هذه الحرب على ثلاث مراحل، كل مرحلة تدوم تسع سنين، وزادوا في اللوم والتعنيف وانتقاد من يدعو للسلم.

وبعد أن نوقش الموضوع من شتىّ جوانبه، تّم الاجماع على سياسة السلم فعقد الصلح، وخيل لمعظم أفراد الشعب انه سيضع نهاية لكلّ مصائبهم. وصار اسم [نيقياس] على كل شفة ولسان، ووصف بأنه الرجل الذي آثرته الآلهة باعظم الحبّ. وانه لورعه وتقواه، أختير لتسمية وتحقيق أعظم النعم وابدعها. وأعتبروا السلم من عمله، كما أعتبروا الحرب من عمل [پيركلس] فقد اثبتت الوقائع انه سبب الأغريق عدة نكبات قاصمة. في حين أخذ نيقياس بيدهم الى حياة الهدوء ونسيان الماضي بمصائبه التي تولى فريقٌ انزالها بفريق، فعادوا الآن الى حضيرة الأخوة والصداقة. ولهذا أشتهر هذا السلم في التاريخ باسم «سلم نيقياس» وعرف به الى يومنا هذا.

وكانت شروط الصلح تقضي بأن يعيد كل فريق، الحاميات والحصون والمدن التي استولى عليها من الآخر، وان يتبادلا أسرى الحرب، على ان يتقررّ البادي بالتسليم على أساس القرعة. ويحدثنا [ثيوفراستس] أن [نيقياس] ضمن وقوع القرعة على اللقيديميين ليعيدوا ما بأيديهم، عن طريق دفعه مبلغ من المال، فأبدى الكورنثيون والبويوسيون استنكارهم لما حصل،

وارتفعت شكواهم وجأروا بالاتهامات. ونبشت الاحقاد وثارت النفوس حتى بدت الحرب على الابواب. فأسرع [نيقياس] يتدارك الأمر مقنعاً مواطنيه الآثينيين واصدقاءه اللقيديميين بان يعقدوا معاهدة حلف هجومي دفاعيّ، غير معاهدة السلم الأخرى، توثيقا لهذه ودعماً لها، ولتكون كلتا المدينتين المتحالفتين قوة «مرهوبة الجانب تفرض السلم على الآخرين الذين لم يكونوا طرفاً، وكذلك لتزداد صلتهما وثوقاً، وفيما كانت هذه الأمور قيد البحث والنظر، ظهرت العقبة الكؤود بشخص [الكيبيادبس] أعدى اعداء الهدوء والاستقرار. أساء اليه اللقديميون بالتفاتهم الى [نيقياس] وأجلالهم له في حين تجاهلوه وأحتقروه واستصغروا شأنه من الأول الى الأخير. ولا عجب أن راح يبث الدعوة ضدّ السلام، ومع انه فشل في الماضي وراحت مجهوداته المبذولة عبثاً. فقد وجد فرصته الآن في تظلم الآثينيين من اللقيديميين، وسوء معاملتهم واستغلال صدق نيتهم باقامتهم وحدة سياسية مع البويوسيين خارج نطاق حلفهم، وتمسكهم بمدينة [پاناكتوم Panactum] التي كان يجب اعادتها الى آثينا بكامل حصونها وأسوارها، مع مدينة [امفيپوليس] بمقتضى المعاهدة. وقد خدمته هذه الحجج وعززت دعوته بين الناس وأشغلهم بها. ثم انه طلب من الآرغوسيين ان يبعثوا بوفدٍ الى بلاده، لعقد تحالف وساندهم كثيراً. وفي تلك الاثناء قدم وفد لقيديمون وهو مزود بصلاحيات مطلقة. وبدأ للجميع على أثر المقابلة التمهيدية التي تمت بينه وبين مجلس الشورى ان كل شيء سيتمّ على ما يرام وستوقع المعاهدة بشروط كانت موضع رضى الجميع. وخشي الكيبيادس أن يلقى الوفد النجاح عينه عند مثوله في الجمعية العامة فيضيع منه كل شيء، فعمد الى حيلة تحقق له مآربه واتصل بالوفد مؤكداً لهم حسن نيته ومتعهداً لهم بالمعاونة في مهمتهم شريطة الاّ يذكروا امام الجمعية العامة انهم مزودون بصلاحيات مطلقة قائلاً ان هذا هو السبيل الوحيدة لنيل ما جأوا لأجله فقنعوا باقواله وأوقعهم في شركه المتقن وأبعدهم عن [نيقياس] حين نهض وسألهم السؤال المتفق عليه: هل هم مزودون بصلاحيات مطلقة لتسوية كل الأمور؟ فأنكروا حسب اتفاقهم معه، وهنا ظهر [الكيبياديس] على حقيقته وأسفر عن وجهه الآخر خلافاً لما توقعوا وللعهد الذي قطعه لهم. دعا المجلس الى ان يكون على بينة من أمره وطلب من الشعب ان يكون حذراً فلا يضع ثقته ولا يتعامل مع هؤلاء الكاذبين الذين يزعمون شيئاً مرةً، ليعدلوا عنه الى نقيضه مرةً في الموضوع الواحد! وبطبيعة الحال صعق الوفد الصلاحية بغدر الكيبياديس بهم، ولم يكن [نيقياس] بأقل ذهولاً منهم ولم يدر ماذا يقول والى اين يتوجه. ولم يكن من الجمعية العامة إلاّ أن بعثت في الحال بطلب الارغوسيين لعقد حلف معهم. وشاءت الصدف ان تحصل هزة ارضية فارفضت الجمعية قبل التوصل الى قرارٍ نهائي. وفي

اليوم التالي أجتمع المواطنون ثانية، وبعد مناقشات وخطب كثيرة تمكن من حمل مواطنيه بعد لأي على تأجيل عقد الحلف مع الآرغوسيين، وصوتوا على ارساله مبعوثاً الى اللقيديميين. فسافر وهو على ثقة بأن الأمور ستسير على ما يرام.

وأستقبل عند وصوله سپارطا استقبالاً طيّباً. ورحبّوا به كما يرحبون بواحدٍ منهم. على أنه لم يحقق شيئاً. وخيّب مساعيه الحزب الذي كان يمالىء البويوسيين ويحبذ الحلف معهم. فعاد الى وطنه كاسف البال، مجللاً بالعار، وسقط اسمه من افواه الناس وامتلأت نفسه خوفاً من الآثينيين الذين سخطوا عليه وراحوا يسلقونه بألسن حدادٍ قائلين انه جعلهم يتنازلون عن كذا وكذا من الأسرى جيء بهم من [پيلوس] وكلهم ينتمون الى أعرق الأسر السپارطية ولهم علاقات صداقة وقرابة باعيان الدولة هناك وذوي السلطان. ولولا هذه الحملة النكراء التي هبت عليه من فورة العاطفة الشعبية، لما كان لالكيبياديس اي أمل في انتخابه جنرالاً، ولما عقد الحلف مع الارغوسيين، ثم مع المانتينيين والإلياثيين الذي فسخوا حلفهم مع اللقيديميين وانضموا الى الحلف الآثينيين - الارغوسي. وجرد هذا الحلف حملة من المغامرين القراصنة على لاقونيا ليحدثوا ما يمكنهم من التخريب والغارات، وهكذا عادت رحى الحرب تدور من جديد.

وراحت العداوة بين [نيقياس] و[الكيبياديس] تتعاظم وتشتد وكان الوضع قد أصبح مهيئاً لأصدار قرار بالنفي أو ما يسمى بالابعاد دون محاكمة حيث يدعى الشعب في وقت مخصوص ليثبت على قحف من الآجر اسماء المشتبه به او بثروته. ولذلك استولى الخوف على العدوين المتنافسين. فعلى أغلب الإحتمال كان الإبعاد سينزل باحدهما. وبما ان الشعب كان ينفر من حياة [الكيبيادبس] ويتخوف من اندفاعاته وجسارته كما بيّنا تفصيلاً في سيرة حياته في عين كانت ثروة [نيقياس] تثير حسدهم، وأخذوهم عليه أسلوب حياته الشاذ ولاسيما انعزاليته وانفراده باحوال معينة لا تشبه ما أعتاده المواطنون، ولا سائر البشر. وحنقوا عليه لوقوفه معارضاً رغباتهم عدة مرات، وارغامهم على عمل ما لا يتفق واهوائهم وان كان فيه فائدة لهم، فكرهوه لكلّ ذلك.

وكان الأمر بجوهره وبعبارة مختصرة، صراعاً بين الشباب التائقين الى خوض غمرات الحرب. وبين كبار السنّ ومحبي السلم الأستقرار. ولذلك وقف الأولون ضد [نيقياس]، ووقفت البقية ضد [الكيبيادبس] في قضية النفي. ولكن...

«في الصراع السياسيّ، ترى الانذال يبلغون الشهرة»

فلما انشعبت المدينة الى حزبين متناحرين انفسح المجال الواسع لاحطّ الناس واسواهم خلقاً

وأشدهم استهتاراً. وخير مثال لهؤلاء [هيپروبولوس] من آل [پيريثودي Perithoedoe] وهو شخص لم يجتري على أية سلطة، وانّما ارتفع الى السلطة بالجرأة والصفاقة. وباكرام حبته به المدينة، ليصبح فضيحتها الشائنة كان [هيبروبولوس] يرى نفسه آنذاك ابعد الناس عن التعرض للنفي، فهو وأمثاله أصلح لمشنقة العبيد، ولذلك طفق يحسب حساب المستقبل على ضوء صدور قرار النفي بحق أحد المرشحين له. وقدر أن الباقي منهما لن يكون عقبة كبيرة امامه، وسيسهل عليه مناجزته. ولذلك لم يكتم فرحه بالانقسام السياسيّ، ولم يقتصد من جهده في اثارة الناس ضدهما على السوا. وما أن إنتبه [نيقياس والكيبياديس] الى سوء تدبيره، حتى تألبا عليه بكلّ ما يملكان من وسائل للايقاع به في الفخ ووحداً عملهما سراً، ونجحا في الخلاص من النفي وحصره بهيپربولوس. فكان والحق يقال نكتةً اثارت ضحك الجمهور في مبدئها ثم ما لبثوا ان تبينوا عنصر الإهانة فيها. اذ كان من العار أن تمتهن هذه العقوبة الخطيرة بتطبيقها على انسان وضيع مثله؛ ولا غرو فللعقوبة وقارها وهيبتها، و«النفي دون محاكمة» تأديبٌ انما وجدُ لعظام الناس من أمثال [ثوكيديدس] و[اريستيدس]، فهي اذن لإمثال [هيپروبولوس] شرف وتكريم لا عقوبة وتأديب، فتحت له باب الفجر والتباهي لأنه ذاق جزاء نذالته كما ذاق خير الرجال. وما أحسن قول الشاعر الهزلي أفلاطون في ذلك:

«من ينكر ان الرجل يستحق هذا المصير؟
حقاً! ولكن المصير لا يستحق هذا الرجل.
وليس لامثاله من العبيد الذين وسموا بميسم الرق
وضعت آثينا قحف الآجر في ايدينا!»

إن هذه العقوبة في الواقع لم تفرض على أحدٍ بعد أن فرضت على [هيپربولوس] وبهذا كان خاتمة المنفيين بدون محاكمة. أمّا الأول فهو [هيپارخوس] [الخولارجي Cholargia] الذي كان من أقرباء الطاغية.

ليس في الإمكان اصدار حكم ثابت على مصائر البشر ونحن مهما قلبنا وجوه الراي واعجلنا الفكر لايمكن الوصول الى نتيجة أكيدة، وليس لنا الآ ان نحدس ونضرب الاخماس في الأسداس.

وفي مسألة [نيقياس]، قد نتساءل لو أنه سار في نزاعه مع الكيبيادس الى نهاية الشوط مخاطراً بحريته، فلا يخلو الأمر من حالتين أنّا أن ينجح بابعاد منافسه عن المدينة وبذلك يضمن بقاءه آمناً مطمئناً. وأمّا أن يتغلّب خصمه فينفيه، وهنا يكون نيقياس قد خلص من نكبات هائلة كانت مدخرة له، وحافظ على سمعة القائد المحنك والاداري الذي لا يرقى اليه

أحد. ولا يفوتني هنا أن أورد ما ذكره [ثيوفراستوس] بأن الخصم الذي وقف في وجه [الكيبياديس] وناصبه العداء بعد نفي [هيپربولوس] لم يكن [نيقياس] بل [فاياكس] على أن معظم الكتاب يخالفونه في هذا.

اقترح وفدا الايجستان والليوتينيين على الآثينيين عند وصولهم، تجريد حملة عسكرية على صقلية. فهبّ [نيقياس] يعارض الفكرة ويخطيء [الكيبياديس] الذي كان متحمساً لها. الاّ ان أطماع هذا الأخير ومساعيه الكبرى التي بذلها لاجتذاب الجمهور، غلبت [نيقياس]. فقد تمكن من حرف آراء الجمهور وافسادها بالخطب والمُنى قبل أن يعقد الاجتماع العام. وأصبحت لتجد الشبان في ملاعبهم والرجال في محلات أعمالهم والناس المتسكعين جلوساً على مقاعدهم يرسمون الخرائط لصقلية ويعملون مخططات للبحار والموانيء، والسواحل وتضاريسها، ويشبتون موقعها من أفريقيا ويصرحون بان هذه الجزيرة لن تكون خاتمة مطافهم ونهاية حربهم بل نقطة انطلاقهم وفاتحة اعمالهم العسكرية التوسعية وقاعدة أمتداد الى القرطاجنيين والاستيلاء على افريقيا والبحار حتى «اعمدة هرقل» وهكذا اندفع الناس بحميّ الحرب ولم يجد [نيقياس] المعارض إلاّ قلة من مناحرين لا نفوذ لهم كثير، فالاغنياء سكتوا على مضضٍ لئلا يوصموا بالبخل وعدم الرغبة في المساهمة بالنفقة العامة واثمان السفن، وتظاهروا بالرضا مخفين ميولهم الحقيقية. ومع ذلك كله لم يتسرب اليأس الى قلب [نيقياس] وظل يدافع عن وجهة نظره حتى بعد أعلان الآثينيين الحرب وتعيينه مع [الكيبياديس] و[لاماخوس] قائداً للحملة. ولما عقد الاجتماع العام ثانية، نهض يحتج على القرار المتخذ ويحاول أن يثنيهم عن عزمهم بوضعه اللوم على [الكيبياديس] واتهامه بالدعوة الى عملٍ عسكري يورط الدولة في مغامرة خارجية تحف بها الأخطار والمصاعب لا يدفعه الى ذلك غير طموح فيه وكسب شخصيّ له. إلاّ أن كلامه لقي آذاناً صماء ولم يجد نفعاً.

كان الآثينيون يتوسمون في تجارب نيقياس وخبرته كل خيرٍ ووجدوا أن حذره مع شجاعة الكيبياديس، وطيبة لاماخوس تؤلف خير ثالوث للقيادة وتضمن سلامة الحملة. ولهذا نسبوه لتولي القيادة، إلاّ أنه ظلّ معارضاً في الحرب. ونهض [ديموستينس] وهو من الزعماء الشعبيين الذين أيدوا الحملة وبشروا بها ودعوا لها، قائلاً أنه سيُسكت فم [نيقياس] ويقفل عليه باب الاعتذارات والتعلاّت، ثم وضع في التصويت إقتراحاً يقضي بمنح الجنرالات سلطة مطلقة داخل الوطن وخارجه ليكونوا أحراراً في اتخاذ ما يرونه من اجراءات واصدار ما يرونه مناسباً من الأوامر، فقبل اقتراحه هذا.

ومع هذا كله فقد قيل لنا أن الكهنة عارضوا في الحملة بكلّ قواهم. ولكن [الكيبياديس]

كـان لديه كهنته العـرافـون الذين أعلنوا مـسـتندين الى بعض النبـوءات القديمة: «بأن الآثينيين سيـصـيبـون شهـرة عظيمة في صـقلية». كمـا رجع رُسله من معبد [جوبتـر آمون] بنبوءة تقول: «ان الآثينيين سيـأخذون السيراقوسـيين كافةً!». أمّا أولئك الـذين تبينوا دلائل شؤم فقد أخفوا ما عرفـوه عن الناس لئلا يتهموا بالتكهن بالسوء. ولم يردعهم عمّا أعتزمـوه الاشارات الجلية الواضـحة. ومنهـا حادثة تماثيل [هرمي] التي شاهت وجوهها في ليلة واحدة إلاّ تمثالاً واحداً يطلق عليه [هرميس] الاندوكيديسي الذي اقـامته قبيلة [ابجيوس]، والمنصوب مقابل منزل اندوكيـدس مباشرة. ومنها مـا أرتكب من إثم على مذبح الآلهة الاثني عشر، فـقد قفز شخص من مكانه فجأة ودار على نفسه ثم ضرب نفسه بحجر ومنها انه كان يوجد في دلفي صورة من الذهب للربة [منيرفـا] قـائمـة على نخلةٍ من النّحاس. عـملها الآثينيـون من غنائم الميـديّين واهدوها الى الربّة، تجـمع على هذه الصـورة سرب من الغربان وظلّ يحوّم حولهـا أياماً. وراحت اسرابها تنقر في الثمـار الذهبيّـة التي كـانت معلقـة في اغصـان النخلة النخلة حتـى فصلتـهـا واسقطتـهـا؛ علـى أن الآثينيين كذبوا هذه القـصـة وقـالوا انهـا من مبـتدعـات الدلفـيين ونسج خيالهم، بعد أن رشاهم رجال سيراقوسة بالمال. وطلبت أحدى النبوءات، منهم أن يستقدموا من [كلازوميني Clazomenæ] كاهنة مينرفـا ولما أحضرت وجدوا انهـا تدعى [هسيكيا Hesy-chia] ومـعناه «الهادئة»، فـفسـروا ذلك بأن المشيئة الآلهيـة تنصح المدينة بالهـدوء. ولا ندري والحالة هذه، هل ان [مـيتـون Meton] المنجم خاف هذه النبـوءات أم أنه شكّ في نجاح الحملة لسببٍ طبيعي لا يتعلق بالآلهة (كان قد عُين في احداي قياداتهـا)، ولهذا أظهر الجنون وأحرق منزله. وقـال آخرون انه لم يتـصنع الجنون وانما أشعل النار في منزله ليلاً بكامل بصيـرته، وفي الصباح حضر الى الجمعيّـة العامة وعليـه مظاهر الأسى الشديد ورجا من الشـعب أن يُعفى ابنه من الخدمة العـسكرية ويبقيه في الوطن بسبب النكبـة التي حلت به. وكان هذا الأبن على وشك الرحيل الى صقلية برتبة قبطان لأحدى السفن. وامّا الجنيّ الملازم لسقراط الفيلسـوف فقد أعلم صاحبه بـالطريقـة التي يناجيـه بها أن الحملة ستـؤدي الى دمـار الجمـهـورية. فـأبلغ سقـراط اصـدقـاءه وتلاميـذه بذلك، فنقلوا قـوله الى طائفـة من الجمهور. وسرى القلق في النفـوس لأن مـوعـد أقـلاع الاسطـول وافق الأيام التي كـانت تحي خلالهـا ذكرى مـوت [ادونيس]. وراحت تظهـر للعيـان في كل مكان صـور للموتى وهو يعيـشـون بالحداد والعويل وبالنسـاء المشيعـات يضربن صدورهن وأشتدّ قلق من يقيـمـون لهذه الظواهر وزناً، وخافوا لئلاً يكون مـصير كل هذه الاسـتعـدادت الحربيّـة الضـخـمة الزوال والدمـار في وقت قـصـير وبصـورة مفـاجئـة قبل أن تحقق شيئاً.

أثبت [نيقياس] انه رجل فاضلٌ صلب الرأي، بمعارضته الاجماع العام على الحملة، ولم تثنه عن رأيه لا الآمال العراض، ولا الشرف الرفيع الذي اسبغ عليه بتسليمه القيادة العليا. ولما لم تفلح مجهوداته في حرف الشعب عن الحرب، ولا اعتذاره عن قبول القيادة (بلغ من اصرار الشعب على تكليفه بها، انهم حملوه قسراً ووضعوه في مقر القيادة خلافاً لرغبته). وجد أن الظرف لم يعد يتسع لتردده وحذره المأثورين، وانه لا يجمل به أن يكون كالطفل الذي يتلفت الى الوراء والسفينة تبتعد به وهو يظلّ يبدي ويعيد شاكياً أهمال نصيحته وكيف أنها لم ترفض رفضاً منطقياً، أو تدحض بمناقشات سديدة، وانما بسوء التقدير وبدافع العاطفة. فيكون بشكواه هذه عاملاً في خفض معنويات زملائه القوّاد، وفلّ غراب أقدامهم، وافساد حماسة الرجال الى القتال. وكان من شأن تقديراته الصائبة هذه أن تحتم عليه التعجيل في الانقضاض على العدوّ، وانهاء المسألة بوضع مصير الحملة في كفّ الحظّ، عن طريق خوض معركة حاسمة. إلا أن ما جرى فعلاً كان خلاف هذا. فعندما أشار [لاماخوس] بالتوجه رأساً الى [سيراقوسيا] بحراً والاشتباك بالعدوّ حالاً تحت اسوار المدينة، ولما نصح الكيبيادیس بضمان صداقة المدن الأخرى أولاً ثم الهجوم على [سيراقوسة]، جوبها بمعارضة [نيقياس] الذي أصرَّ على أن يظلّ الاسطول جائلاً بهدوء حول الجزيرة بقصد استعراض قوته الحربية ثم بعد انزاله نجدات صغيرة من الرجال للايجستينيين يعود الى آثينا، فدب الخور في نفوس الرجال وهبطت معنوياتهم الى الحضيض. وبعد ذلك بفترةٍ من الزمن طلب من [الكيبيادیس] العودة لحضور محاكمته في آثينا فأصبح هو الجنرال الوحيد وان كان الآخر زميلاً له فبالإسم فقط. وواصل تسكعه وتجواله وتقليب وجوه الرأي دون الإرساء على قرار حتى قضى على آمال الرجال! لعقم وتبدد الرعب والهلع الذي خلقه في نفوس العدو عند أول اقتراب قواته ولم يعد فيها ذرة من خوف.

كان الكيبيادیس قد خرج قبل رحيله، بعمارة تتألف من ستين سفينة قاصداً [سيراقوسة]. خمسون منها انتظمت بصفٍ واحدٍ خارج الميناء بينما تقدمت العشر الباقية للاستكشاف ونادى المنادي من ظهر احداهما طالباً من المواطنين الليونتين العودة الى بلدهم. وبعد قليل أسرت هذه السفن الكشافة غاليوناً من سفن العدوّ، وعند تفتيشه عثروا على الواح من الآجر نقش عليها اسم كل رجال سيراقوسة مرتبةً حسبً قبائلهم. وكانت هذه السفينة تقصد المدينة قادمة من معبد [جوبتر اولمبيوس]، حاملة هذه الالواح التي تمّ جلبها للتدقيق وأستخراج اسماء الشبان اللاتقين للخدمة العسكرية لغرض تجنيدهم فحملها الآثينيون الى ضباطهم فظهرت فيها حشود كبيرة من الاسماء كما بينا. وتشاءم منها الكهنة ولم يجدوا لها تفسيراً

موافقاً، وخافوا ان يكون الاستيلاء على هذه الاسماء هو النجاح الوحيد المقدّر للحملة، تحقيقاً للنبوءة القائلة: «ان الآثينيين سيأخذون السيراقوسيين».

على أن هناك من يقول ان هذه الحادثة وقعت للآثينيين في عصر غير ذلك العصر ويربطونها بحادثة قتل [ديون] بيد [كالليبوس الآثيني، واستيلائه على مقاليد الحكم في سيراقوسة.

وآلت القيادة كلها الى [نيقياس] بعد رحيل الكيبياديس كما اسلفنا. والواقع هو أن [لاماخوس] الزميل الثاني كان من الشجعان المعدودين، ومن الرجال الذين اشتهروا بالنزاهة والاستقامة، لا يتردد في خوض غمرات القتال بنفسه غير هياب ولا وجل. الاّ انه كان معدماً لا يملك شروى نقير حتى أعتاد كلما عين جنرالاً، أن يثبت في حساب مصروفاته من الأموال العامة مبلغاً زهيداً من المال بثمن ثيابه وحذائه. وبخلافه كان [نيقياس] ثرياً ذا منزلة سامية، دعك من سجاياه الأخرى. ولذلك كان الاهتمام العام منصباً عليه. وفي هذا الصدد يروى أن مجلس القادة كان مجتمعاً مرةً للمشاورة في الشؤون العامة. فطلب نيقياس من الشاعر [سوفوكليس] أن يكون البادىء بالادلاء برأيه لأنه أقدم اعضاء المجلس فأجاب قائلاً:

- اني أكبر الاعضاء سناً، ولكنك أقدمهم.

وكان الأمر كذلك مع [لاماخوس] فهو أفهم منه في الأمور العسكرية، واقدر على الضرب والطعان، إلاّ انه كان في الواقع مجرد تابع مرؤوس لا يحلّ ولا يربط. أما نيقياس. فقد ظلّ متمادياً في التأجيل، واجتناب المغامرة ولم يفسح المجال لعمل قواته بدورانه الدائم حول الجزيرة بعيداً عن نطاق الخطر وهكذا أعاد الى العدوّ الثقة في نفسه. ولم يكتف بهذا بل جعل نفسه موضع هزء واحتقار عندما هاجر حصن [هبلا Hybla] الصغير وانسحب عنه قبل الاستيلاء عليه. وأخيراً عاد الى [كاتانا Catana] دون ان يحقق شيئاً خلا تخريبه [هيكارا Hyccara] وهي بُليدة يسكنها البرابرة، ذكرت عنها الرواية أنها موطن [لاياس Lais] العاهرة الشهيرة التي كانت قد بيعت وهي صبية ضمن من بيع من اسراها ثم حملت معهم الى البلوبونيس. وبانقضاء الصيف، وردت أنباء لـ[نيقياس] عن ارتفاع معنويات السيراقوسين، ودعوة الثقة التامة الى نفوسهم مما قد يدفعهم الى المبادأة بالقتال. وبالفعل كثرت مناوشاتهم وتحرشاتهم حتى وصلت ابواب معسكره نفسه وكان المهاجمون السيراقوسيون يسخرون بجنوده ويعيرونهم قائلين: هل جاؤا للسكنى في الجزيرة مع الكاتانيين، أم لإعادة الليونتينيين الى مدينتهم؟!

أخيراً وبعد كثير من الإحجام والتردد قرر [نيقياس] ان يقلع بالاسطول الى [سيراقوسة] واراد ان يختار لمعسكره موضعاً مأموناً لايطاله العدوّ فجاء باحد الاشخاص وامره ان يخرج

من كاتانا قاصداً السيراقوسيين، ويعلمهم بأن في إمكانهم الاستيلاء على معسكر الآثينيين هناك وان يغنموا سلاحهم اذا ما هجموا على كاتانا بكلّ قواتهم لأنها دون حماية. وقال لهم أن معظم الآثينيين الموجودين في المدينة هم أصدقاء لهم وقد اتفقوا فيما بينهم على ان يحتلوا ابواب المدينة حالما تلوح لهم طلائع القوات السيراقوسية، وان يشعلوا النار في رصيف الميناء. وأكدّ لهم ان المؤآمرة واسعة نضّم عدداً كبيراً من الاهلين. وهم لا ينتظرون الاّ قدومهم.

كان هذا أفضل ما عمله [نيقياس] طوال قيادته الحملة فقد تمكن بهذه الحيلة من أخراج كل قوات العدو من سيراقوسة وأخلاها من المحاربين وانطلق هو من [كاتانا] بكلّ قواته ودخل الميناء بكل اطمئنان وأختار موضعاً مناسباً لمعسكره لا ينال منه العدوّ بوسائله ومعداته التي يتفوقون بها عليه في حين كان يأمل بوسائله ومعداته الخاصة، مواصلة الحرب دون عائق أو نكسة.

وما أن عاد السيراقوسيون من [كاتانا] وانتظموا بصف المعركة امام ابواب المدينة حتى حمل عليهم وهزمهم إلاّ أنه لم يصبهم بخسارة تذكر لأن خيالتهم عاقته عن المطاردة. وخطته في كسر الجسور وقطعها زودت [هرموقريطس Herocrates] اثناء تشجيعه السيراقوسيين بفرصة القول إن [نيقياس] غبيّ سخيف لأن كل هدفه كما يبدو هو تحاشي القتال، كأن القتال ليس الغرض الذي جاء لأجله! ومع هذا كله فإن نجاحه أقلق السيراقوسيين وافزعهم واضطرهم الى اضافة ثلاثة جنرالات الى مجلس القيادة الذي كان يتألف من خمسة عشر جنرالاً. والى تزويد هذا المجلس بسلطة مطلقة بعد اداء القسم.

وكان معبد [جوبتر أولمبيوس] قريباً من معسكر الآثينيين فتاقوا الى الاستيلاء عليه والانتفاع بكنوزه الثمينة من الفضة والذهب والتحف الأخرى الموقوفة عليه، إلاّ ان [نيقياس] ردّهم عن قصدهم تاركاً الفرصة تفلت من يده ومفسحاً للسيراقوسيين سبيل الدخول اليه واحتلاله. وكان مدفوعاً الى ذلك بخوفه من يقتسم جنوده كنوز المعبد كما يقتسمون الغنائم مما لا يفيد المصلحة العامة في شيء، فظلاً عن ارتكاب اثم ديني باعتدائهم على ذخائر مقدسة.

كذلك لايستثمر [نيقياس] نصره أبداً مع أخباره أشتهرت وذاعت في كل مكان، وانما أقلع الى [ناكسوس] بعدها بايام قليلة، ليقضي فيها شتاءه منفقاً على اعاشة جيشه الكبير مبالغ طائلة. وأستولى عليه ما يشبه السبات هناك فلم تبدر منه حركة، إلاّ اضطراره الى عملية قمع بسيطة ضد المواطنين الصقليين الذين تحرشوا به. وعادت معنويات السيراقوسيين الى الارتفاع ثانيةً وشنوا غارات متواصلة على [كاتانا] وعاثوا في انحائها فساداً وأشعلوا النار في معسكر الآثينيين. فارتفعت الاصوات ملقيةً كل اللوم عليه لإنه لم يستغلّ الزمن الصالح

للقتال وترك الفرصة تضيع من يده، بطول التأمل وتقليب وجوه الرأي، والافراط في الحذر والتردد.

عندما يحين دور الجد والعمل يكون الرجل فوق كل انتقاد، فهو في وقت الأزمات فعّال نشيط لا عيب فيه. ومنقصته تبدو عند اتخاذ القرار فهو كثير التردد والتذبذب لا يستقر على حال. ولما عاد بالجيش الى سيراقوسة بلغت تدابير منه وسرعته حداً من الدقة عظيماً بحيث لم يعرف أحد بقدومه الاّ بعد ان رست سفنه على الساحل في [ثابسوس Thapsus] ونزل رجاله الى البرّ، ولم يستفق العدو من غفلته إلا وجيش الآثينيين منقضّ على مدينة [إيبيبولي Epipolæ]، بحركة مباغتة هزم بها نخبة من المقاتلين أرسلت للدفاع عنها، وأستولى على ثلاثمائة أسير وهزم خيالة العدوّ التي أشتهرت بمناعتها وصعوبة دحرها. إلاّ أن أكثر ما ادهش السيراقوسيين أصلاً وبدأ خارقاً للعادة عند الاغريق هو قيامه في فترة وجيزة ببناء الجدار الحاجز حول [سيراقوسة] المدينة التي لا تقل سعة عن آثينا، في حين امتازت بارضها الوعرة المتعادية، وبقربها من البحر وبوجود المستنقعات حولها. مع هذا كله أحاطها بجدار دائري رجل سقيم البدن لا تسمح له علته بالاشراف على هذا العمل الجبان وان كان ثم ما يوجب الانتقاد في هذا العمل فهو الحجر الذي استخدم لبنائه اذ انه كان السبب في بقاء الجدار ناقصاً، وليس مصممه وصانعه. واني والحق يقال بدأب هذا الجنرال، وبشجاعة الجنود فيما توصلوا اليه.

بعد أن حَلّت النكبة بهم كتب [يوريبيديس] في رثائهم وتعداد مآثرهم قال:

«استظهروا على السيراقوسيين بثمانية انتصارات
لما كانت الآلهة واقفة على الحياد بينهما»

والواقع انها كانت أكثر من ثمانية انتصارات بكثير، حازوها تباعاً حتى تخلّت عنهم الآلهة وتدخل القدر لإيقاف مسيرة اثينا نحو العظمة والسؤدد، وتلك هي حقيقة ثابتة لا مراء فيها.

ولم يغب [نيقياس] عن معظم المعارك، ولم يعقده مرضه وما يكبد جسمه من عناءٍ. ولكن العلة أشتدت عليه مرة والقته انتكاسة طريح فراشة في المعسكر وليس معه إلاّ بضعة أنفار من الخدم يقومون على العناية به. فناب عنه [لاماخوس] في القيادة وخرج لقتال السيراقوسيين اثناء مدّهم جداراً عرضانياً ثانياً يقطع جدار الآثينيين ويحبط مسعاهم في تطويق المدينة الكامل. وبعد أن دارت الدائرة على السيراقوسيين أخذ المنتصرون يطاردون المنهزمين بحالة من الفوض والتفكك والاستعجال، وانفرد لاماخوس مع ثلةٍ عن رجاله وجابه خيالة العدو التي أطبقت عليه من حيث لا يحتسب. وكان يتقدمها [قليقريطس Calicrates]

وهو بطل صنديد خبير بفنون القتال، فتحدى [لاماخوس] في مبارزة فردية، فلم يتحرج هذا عن نزاله والتحما وكان اول من أصيب، إلاّ أنه كال لخصمه طعنة نجلاء مماثلة فوراً فسقط كلاهما ميتينّ، مأخذ السيراقوسيون سلاحه وجثته وأسرعوا بهما الى جدار الآثينيين حيث قصّر [نيقياس] وهو على فراش مرضه ليس معه جندي واحد. وما أن ادرك القضية حتى ترك فراشه وطلب من الخدم ان يسرعوا باشعال النار في كلّ الاخشاب والادوات والمعدات المستعملة في بناء الجدار التي كانت مكدسة هناك ولو لم يقدم على هذا لما أمكنه من ردّ السيراقوسيين على أعقابهم. وبهذا سلمت حياته وسلم الجدار وكل اموال الحملة. لقد خاف السيراقوسيون تلك النار العظيمة التي تتأجج في وسطهم قرب الجدار فتراجعوا حالاً.

وبات [نيقياس] جنرال الحملة الوحيد، وكانت الدلائل تشير الى ان كثيراً من الأمور الحسنة سيتمّ على يده. فقد بعثت اليه مدن الجزيرة تعرض التحالف، وجاءته سفن عديدة من كل مكان وهي موقرة بالقمح. وعندما يوآتي المرء الحظ تجدّ كل شخص يسعى الى التقرب منه والتودد اليه، ولذلك وردته مقترحات للاستسلام من بعض السيراقوسيين الذين فقدوا أملهم في امكان الدفاع عن المدينة. حتى أن [غيليپوس Gylippus] الذي كان في طريقه الى الجزيرة من لقيديمون على رأس نجدة عسكرية للسيراقوسيين أبلغ اثناء رحلته بخبر بناء الجدار حول المدينة وبيأس المحصورين. فحكم حالاً بأن صقلية ضائعة لا محالة وذكر انه لا يمضي في سيره لنجدتهم وانما لمساعدة الايطاليين على حماية مدنهم ان أمكن. فقد انتشرت الانباء المتواترة لتؤكد بأن الآثينيين مستظهرون ولا شيء يقف الآن في وجههم وان لديهم جنرالاً لا يُغلب حظّه ولا تُنافسُ عبقريته.

وأظهر [نيقياس] بعد هذا كثيراً من الإقدام وهو في أوج نجاحه خلافاً لما طبع عليه، ولاسيما عندما وردته ابناء سرية عن السيراقوسيين تشرح ما يعانونه، حتى بات يعتقد ان استسلام المدينة أمر مفروغ منه وما هي الاّ ايام معدودة حتى يفاوضوه على شروط التسليم لذلك لم يبد منه اي اهتمام بدنوه ولم يتخذ أي اجراء لمراقبة حركاته ونزل [غيليپوس] البرّ بقارب طويل دون علم نيقياس. وأختار لأنزال قواته ابعد ما يمكن من سيراقوسة وتمكن باهمال نيقياس واستهانته من تحشيد قوة كبيرة خلاف ما اتى به. ولم يكن السيراقوسيون أكثر علماً بقدومه من [نيقياس]، ولم يتوقعوا مجيئه. ولذلك عقدوا في المدينة اجتماعاً عاماً تداولوا فيه حول شروط التسليم التي سيفاوضون [نيقياس] بشأنها، وأسرع بعضهم اليه وكل أعتقادهم أن التعجيل بابلاغه النبأ سيحمله على ايقاف العمل بالجدار واكمال تطويق المدينة، اذ لم يعد منه الاّ جانب قليل. كانت مواد بنائه قد هيئت وجلبت الى الموقع.

وفي هذه الفترة الحرجة والخطر الماثل وصل من كورنث [گونگيلوس Gongylus] قادماً على ظهر غاليون، (بارجة) فأجتمع حوله السيراقوسيون يتسقطون منه الانباء، فأبلغهم بأن [غيليپوس] يسرع اليهم وان سفناً أخرى قادمة لنجدتهم. وقيل أنهم لم يصدقوه. حتى جاءهم بريدٌ سريعٌ من [غيليپوس] يطلب منهم الخروج للقائه فارتفعت معنوياتهم وأشتدت عزماتهم وأحتقبوا اسلحتهم. ثم سار [غيليپوس] الى الآثينيين حتى بلغ معسكرهم ونظم صفوفه للمعركة كذلك أخرج [نيقياس] رجاله للقتال. ولما أقترب وبات على مرأى من الآثينيين أخرج من صفوفه منادياً بهم، ليعرض شروطه، وهي انه لن يتعرض لهم بسوءٍ اذا آثروا الانسحاب من صقلية. فلم يرد [نيقياس] بأي جواب الاّ ان جنوده راحوا يتساءلون ساخرين متضاحكين: ابعباءة خشنة وعكاز لاقوني ترتفع آمال السيراقوسيين وتلتمع، ولا يعودون يحسبون للآثينيين أي حساب وهم عين الذين قادوا ثلاثمائة أسير سپارطي مكبلين بالسلاسل ليس فيهم ادنى قدراً من [غيليپوس] ولا أصغر منزلة، ولا أقصر شعراً! ويذكر [طيماؤوس] أيضاً أن [غيليپوس] لم يحظ بأي تقدير من السيراقوسيين أنفسهم ولم يكترثوا به وراحوا يهزأون بعكازه وشعره الطويل اول ما وقع نظرهم عليه. ثم انهم وجدوا أنفسهم هلى حقٍ في انتقاصه لما أظهر بعدئذ من حقارة وحطة وطمع، ويضيف هذا الكاتب قائلاً: ان ظهور [غيليپوس] أحدث في مبدأ الأمر رغبة في الخدمة العسكرية فتقاطر اليه الرجال مثلما يحصل عند ظهور غراب في الجوّ. وهذا هو أصّح القولين لأنهم وجدوا في العكاز والعباءة شعار سپارطا وسلطانها وعلى هذا الأساس تجمعوا حوله. ولم يكن [ثوكيديدس] الوحيد بين الكتاب في تأكيده بأن المجهود كان مجهود [غيليپوس] وحده. فقد أيده [فيلستوس] وهو مواطن سيراقوسي وشاهد عيان لتلكم الاحداث.

على أن كفة الآثينيين رجحت في اول اشتباك وقتلوا فئة من السيراقوسيين، فيهم [گونگيلوس] الكورنثي الذي اوردنا خبره. إلاّ أن [غيليپوس] أثبت في اليوم التالي كفاءة القائد المحنك ذي الخبر والتجارب. فقد هزم الآثينيين بلجوْه الى خطة جديدة مستخدماً قواته وخيالته دون زيادة ودون تغيير في مواقع المعركة فانهزم الآثينيون واحتموا بمعسكرهم. وجمع [غيليپوس] السيراقوسيين وأطلقهم في اكمال بناء جدارهم العرضاني بالمواد الانشائية والحجارة التي امنّها الآثينيون لجدارهم فقطعوه قطعاً وكسروا خط سيره الدائري وأحبطوا كل نوايا أعداءهم، الذين اسقط في يدهم تماماً حتى لو ضمنوا النصر في ميدان القتال. وأشتدت عزائم السيراقوسيين بعد هذا فبادروا الى غاليوناتهم وركبوها وجردوا خيالتهم واتباعهم من حولهم وانقضوا على الآثينيين فأسروا عدداً لا يستهان به منهم. وطفق [غيليپوس] يطوف

المدن وليُعزي أهلها بالانضمام اليه. فلم يردوا طلبه وبذلوا له كل مساعدة.

هذه التطورات ارغمت [نيقياس] على العودة الى طبعه الأول. وتسرب الى نفسه اليأس من الحملة فكتب الى أولى الأمر في اثينا يخيرهم بين ارسال جيش جديد أو أن يسحبوا جيشهم المرابط في صقلية. وهو في كلتا الحالتين مصرّ على اعفائه من القيادة لأشتداد وطأة المرض عليه. وكان الآثينيون قبل ذلك قد أتخذوا قراراً بارسال جيش جديد، إلاّ أن الحسد من [نيقياس] ومن انتصاراته ومحالفته الحظ له في مبدأ الأمر ادت كلها الى تأخير ارساله. على أن النكسات الأخيرة قضت على التردد وكان ثم إجماع بوجوب ارسال التعزيزات ومهدوا للأمر ان بعثوا [يوريميدون Eurymedon] مزودا بالمال فوصل في متنصف الشتاء ليعلن عن انتخاب كل من [يوثيديموس Euthydemus] و[ميناندر Menander] وهما من ضباط الحملة المرابطة تحت امرة نيقياس - قائدين مزاملين له. وكان من المقرر ان تصل النجدة بقيادة [ديموستينس] في الربيع. وفي تلك الاثناء فوجيء نيقياس بهجوم جريء من البر والبحر. وساءت أحواله في البحر أولاً، لكنه أفلح في طرد اسطول العدو المهاجم وأغراق عدد كبير من غاليوناته إلاّ أنه لم يستطيع تأمين قطعات كافية في البرّ لحماية [پليميريوم Plemmyrium] فلم تصمد لهجوم مباغت قام به [غيليپوس] وأستولى عليها عنوة ووضع يده على مخازن الاسطول، وعلى مبلغ كبير من المال كان نيقياس قد اودعه هناك وقتل عدد كبيراً من الآثينيين وأخذ مثلهم أسرى. على أن أهمّ نصر [الغيليپوس] كان قطعه خطّ تموين الحملة، الذي أمنّه [نيقياس] ووقاه من كل خطر بحيازته قاعدة [پليميريوم]، والآن وبعد خروجها من يده بات تموينه في غاية الصعوبة معرضاً باستمرار لهجوم العدوّ الذي كان يترصده بسفنه المراقبة تحت حصن المدينة مباشرة. زد على ذلك ان السيراقوسيين ادركوا الآن أسطولهم لم يهزم بفعل الخصم وتفوقه عليهم وانما بسبب الفوضى التي سادتهم اثناء مطاردتهم إيّاه. فراحت الأيدي تعمل متكاتفة لمحاولة بحرية جديدة قد يكون نصيبها من النجاح أكثر من سابقتها.

وكان [نيقياس] يتطيرّ من أي قتال بحري ويُروغ منه وقال لرجاله انه الحماقة بعينها أن يقدموا على الاشتباك مع العدو بعدد ضئيل من السفن السيئة الإستعداد، وديموستينس قادم اليهم باسطول ضخم وقوات جديدة يتوقع وصولها في اية لحظة.

ولكن [ميناندر] و[يوثيديموس] القائدين الجديدين كانا يتحرقان رغبةً الى أفتتاح منصبيهما بنصر مؤثل قبل وصول ديموستينس ليثبتا تفوقهما، تدفعها عاطفة غلابة الى المجد والشهرة. فعارضا رأي نيقياس بقولهما أن شرّف المدينة - على حدّ تعبيرهما - سيلطخ ويمرغ

في الوحل ولن تقوم له قائمة ان هم رفضوا تحدي السيراقوسيين للقتال. وبهذا ارغما [نيقياس] على خوض معركة خاسرة وهزموا هزيمة شنعاء وفقدوا كثيراً من الرجال. وكان الفضل في نصر السيراقوسيين يعود الى ستراتيجية القائد البحري [ارسطون] الكورنثي التي وصفها ثوكيديدس في رسالته «عشاء الرجال». وهذا أسلم [نيقياس] الى حزن عميق اذ بعد أن عانى ما عانى من وجوده قائداً وحيداً للحملة، يجد الآن نفسه في مأزقٍ انكى بفعل زميليه.

وفي تلك الآثناء لاحت طلائع اسطول [ديموستينس] خارج الميناء فطارت نفس العدو شعاعاً وتناهبته الهواجس فقد تألفت الحملة الجديدة من ثلاثة وسبعين غاليوناً وخمسة آلاف مقاتل كاملي العُدّة وما لا يقل عن ثلاثة آلاف من النبالّة والرّماحة وقاذقي المجانيق. وكان منظرهم مهيباً بلمعان دروعهم وخفق اعلامهم ونافخي الناي وضاربي الدمام لتوقيت التجذيف مما خارت له عزائم العدو وعاد القلق العظيم يتملكه بطبيعة الحال، وان المرء لا يسعه الاّ ان يستنتج بأنهم باتوا لا يتبينون لهم مخرجاً وان الاعتقاد العام كان ان تضحياتهم لا تجدي ومجهوداتهم لا تغني.

ولم يطل فرح [نيقياس] بالحملة الجديدة. فقد جوبه في أول اجتماع له مع [ديموستينس] برغبة هذا في اشتباك فوري وباتخاذ اسرع ما يمكن من الاستعداد للاستيلاء على [سيراقوسة] فإن لم يتقرر ذلك فالعودة الى الوطن خير لهم وأجدى. تهيب [نيقياس] جسارته وتهوره وذهل لها، فأخذ يرجوه الاّ يقدم على عملٍ ينطوي على التسرع والاندفاع، فإن في التأخر دماراً للعدو الذي نضبت موارده ولم يعد لديه مال لمواصلة الحرب، وان الوقت لن يطول بحلفائهم حتى ينفضوا من حولهم. ومتى ما أرغمتم الحاجة سيجدهم آتين اليه سعياً وراء الصلح كما فعلوا قبلاً. والحقيقة هي انه كان بين السيراقوسيين من يراسله سِراً ويلح عليه بالبقاء الآن الشعب في المدينة قد انهكته الحرب ولم يعد له قبل بالصبر على استمرارها، كما ضاق [لغيليبوس] ذرعاً وصعب عليهم أحتماله، وان أقلّ ضنك يهدد عيشهم وحاجتهم سيحملهم على النزول عن كل شيء.

أجل، كان [نيقياس] ينظر الى الاقتراح نظرةً قاتمة. ولما لم يكن يرغب في التصريح عما بنفسه فقد جعل زملاءه يتصورون أن الجبن هو الذي يدفعه الى هذه الأقوال. فعلقوا قائلين ان القصّة تتكرر ثانية؛ التردد والاحجام واعمال الفكر وكل ما كان عاملاً في ضياع فرصة الهجوم الفوري على العدوّ، مما أدّى الى ان تبدو قوة آثينا الحربية أثراً من آثار الماضي. فلا تعود تثير في النفوس اي مهابة أو خوفٍ. ولذلك أخذوا برأي [ديموستينس] وارغموا

[نيقياس] بعد جهد كبير على الموافقة. فتسلم [ديموستينس] قيادة القوات البرية وقام بهجوم ليلي على [ايپپولي] فجندل عدداً من رجال العدوّ قبل أن يحسوا بوجوده. أما من انتبه اليه وصمد في وجهه فقد اندحر. ولم يقنع [ديموستينس] بهذا الانتصار واندفع الى امام حتى التقى بالبويوسيين فهجموا على المنتصرين في المقدمة وهم يصيحون ضحية عظيمة وأشتبكوا رمحاً لرمح. فوقعت مقتلة كبيرة من الآثينيين في الميدان وسرعان ما سرت موجة رعبٍ واضطراب الى الوحدات المنتصرة من الوحدات المقهورة ووقع النازلون من السفن على رفاقهم الهاربين يحسبونهم عدواً مطارداً وأعتركوا فيما بينهم؛ ووقع بعضهم على بعض وعمت الفوضى وأختلط حابلهم بنابلهم وأعجزهم الخوف والحيرة عن التأكد من هويات ما يعنّ لهم من أشخاصٍ لأن الليل لم يكن حالكاً، ولا فيه نور ثابت كاف فقد كان القمر يسير الى الأفول فينشر ضوءه القاتم ظلالاً على الاسلحة والاجسام المتحركة الى امام وخلف ويرسل ومضات ضعفة لا يرى فيها الشيء واضحاً فيتوهم المرء بالصديق عدواً، ويعميه الخوف عن التثبت. وهكذا أختلط الأمر على الآثينيين وارتبكوا تماماً وقنطوا. ومما زاد في الطين بلّة ان القمر كان وراء أظهرهم فكانت ظلالهم تقع عليهم فتخفي عن الناظر عددهم وتطمس على بريق سلاحهم ودروعهم. في حين كان انعكاس أشعته على دروع العدوّ يظهرهم أكثر عدداً وأحسن عدة مما هم في الواقع. ثم أشتد الضغط عليهم من كل جهةٍ فتراجعوا، وما ان بدأوا في التراجع حتى تحولوا الى الهزيمة وكان في ذلك دمارهم فأباد العدو قسماً منهم وهلك قسم بعثاره وسقوط على الصخور أما من تفرق في أرجاء الميدان، فقد طلعت عليهم الخيالة صباح اليوم التالي وراحت تتلقطهم وتذبحهم ذبحاً. وبلغ عدد القتلى ألفين ولم ينج بسلاحه الاّ فئة ضئيلة.

ولام [نيقياس] زميله [ديموستينس] واتهمَه بأنه مسبب هذه الفاجعة التي لم يستبعد وقوعها مطلقاً. وبعد أن اعتذر عنه لما مضى منه، أشار بالانسحاب العام من الجزيرة باسرع ما يمكن لأنهم لا ينتظرون مقدم تعزيزات أخرى، وليس في الامكان التغلّب على العدو بالقوات الحالية، وعلى فرض المستحيل بأن قواتهم المرابطة ما تزال قادرة على تحقيق سلامتها من العدوّ، فان الظروف الآنية وتملي عليهم ان يتخلوا عن التشبث بموقع «مريض» فيه خطورة كبيرة على اي جيش. فضلاً عن كونه لايلائم صحة الجنود فهم الآن في أوّل الخريف، والمرض قد تفشى في المعسكر وكثير من الجنود طريحو الفراش وكلهم بائسون قانطون.

كانت فكرة الهزيمة والعودة الى الوطن تورث [نيقياس] آلاماً شديدة، واذا كان يخشى السراقوسيين فهو أكثر خوفاً من الآثينيين أنفسهم من اتهامهم ومن الحكم والعقاب. وعتب مستدركاً أنه لا يخاف أن يلحقه ضرّ هناك، وان لم يكن من ذلك بدّ فهو يفضل الموت بيد

العدوّ على الموت بيد مواطني مدينته. وهو في هذا على غير رأي [ليو] البيزنطي الذي قال لبني قومه:

- أفضّل الموت بيدكم على الموت معكم.

واستحسن ان تتم المداولة في أختيار المكان والجهة التي سينقلون اليها معسكرهم على مهلهم. ولم يعترض عليه [ديموستينس] بعد أن ثبت فساد رأيه فيما أقدم عليه. وراح الظنّ بفريقٍ أن [نيقياس] له اسبابه في الأمل وفي توقع الفرج، وانه يعتمد على بعض الثاكيدات من أهالي المدينة فيحمله على المعارضة في الانسحاب. ولذلك سكتوا وعملوا برأيه. على أن السيراقوسيين بدأت تردهم تعزيزات جديدة من الجنود، وازداد المرض تفشياً في معسكره، فعدل عن البقاء، ووافق على الانسحاب وامر الجنود بالتأهب لركوب السفن.

ولم ينتبه العدوّ لهم حتى أكملوا الإستعداد لأنه لم يتوقع ذلك منهم. وفي الليلة التي قررت موعداً للحركة حصل خسوف ارتعب له نيقياس وخافه جنوده خوفاً عظيماً وطاش صوابهم منه لقلة تجاربهم وتمسكهم بالخرافات والاوهام.

لقد بات الناس حتى البسطاء، منهم يعلمون اليوم أن ظاهرة عتمة الشمس في نهاية الشهر انما هي من تأثير القمر. أمّا في موضوع خسوف القمر فكان يصعب عليهم التعليل، كيف يتم ذلك؟ كيف يفقد القمر المضيء نوره فجأة ويخرج منه اثناء ذلك ألوان مختلفة؟ فيتخذون منه دليل شؤمٍ، وإشارة سماوية الى نكبات ومصائب شداد. وكان [اناكساغوراس] أوّل الكتاب وأوضحهم بياناً في شرحه كيفية استمداد القمر نوره، والعلّة في اختفائه وكانت اراؤه واستنتاجاته في هذا الصدد قليلة الإنتشار بين الناس، تكتم وكأنها من الأسرار المقصورة على نفر قليل ويتم تداولها بمنتهى الحذر والتكتم، حتى الى عهدٍ قريب. ولم يكن الناس آنذاك يتسامحون في أمر الفلاسفة الطبيعيين أو النظريين كما سموّهم ولا يطيقون منهم تعاليلهم التي أسلفناها، لأنها تقللّ من شأن القوى السماوية. وتنتقص من فعاليتها في اللامعقولات والقوى اللامحسوسة التي تعمل بالضرورة من دون تدخل العناية الآلهية أو ارادة البشر الحرة. ولهذا نُفي [پروطاغوراس Protagoras] وألقي [اناكساغوراس] في السجن وصعب على [پيركلس] أطلاق سراحه. ومع ان سقراط لم يهتم قط بهذا الفرع من العلم، فقد قضي عليه بالموت لتعاطيه بالفلسفة. ولم تمح وصمة العار التي ألصقت بهذه الافكار والنظريات إلاّ عندما أشتهر أفلاطون ولمع كوكب حياته، باخضاعه الضرورات الطبيعية الى مبادئ آلهية أجل وأسمى، فارس قواعد هذه العلوم وجعل لها مقاماً بين الناس. ولذلك لم يفزع [ديون] صديقه من الخسوف الذي حدث ساعة اقلاعه بحملته العسكرية على [ديونيسيوس]، من

ميناء [زاكيتوس Zacythus]، وانما مضى قدماً ونزل سيراقوسة وأخرج منها الطاغية.

وفي ذلك الحين لم يكن عند [نيقياس] عرّاف ماهر، فمستشاره [تيلبيدس Tilibides] الذي لازمه طويلاً، وأستخدمه لتقويم كثير من الاوهام التي كانت تخالجه، لم يمضِ على وفاته الكثير، ومن الناحية الأخرى فمن رأي [فيلوخورس] أن خسوف القمر لا يقوم نذير شؤم بالنسبة الى الاشخاص الذين صَحّ عزمهم على الفرار، وانما هو بالعكس طالع يُمنٍ وبشير توفيق. لأن الأمور التي يقدم عليها البشر وهو في حالة خوف تتسم بالتخفي. والنور هو عدو التخفيّ. وليس بالشيء الاعتياديّ ان تلاحظ اشارات في الشمس أو القمر لأكثر من ثلاثة أيام متوالية، على حد ما ذكره [اوتوقليدس] في «تعليقاته». ومهما يكن فقد أقنعهم [نيقياس] بانتظار دورة قمرية كاملة أو يكون البدر التالي موعد الانسحاب كأنه لم ير القمر بعد خروجه من دائرة الخسوف منيراً تاماً، وتخلص من حجب الأرض له عن نور الشمس!

وبدأ [نيقياس] في تلك الأيام وكأنه خالي البال مما يدعو الى الإهتمام بانصرافه انصرافاً تاماً الى قرابينه الى ان داهمه العدوّ بكل قواته المحشودة فحاصر القلاع والمعسكر بمشاته، وطوق الميناء بقوسٍ من سفنه وشارك في هذا الحصار البحري كل صبيان المدينة واحداثها فقد ركبوا زوارق صيدهم وتقدموا من الآثينيين بها يتحدونهم ويشتمونهم ويهينونهم. ومن بين هؤلاء الفتى [هراقليدس] الذي تقدم عن رفاقه مسافة بعيده فتعقبته سفينة آثينية وكادت تدركه. فأنطلق في اثره عمه [بولليخوس] حمايةً له، وبهذا نشبت معركة في منتهى الشدة والعنف أنتصر بها السيراقوسيون، وقتل فيها [يورميدون] مع كثير من الآثينيين، وبعدها لم يصبروا على البقاء وأطلقت حناجرهم صيحة واحدة في وجوه ضباطهم وآمريهم، بطلب العودة الى الوطن براً لأن السيراقوسيين عجلوا بعد انتصارهم في أغلاق مدخل الميناء ووضع الموانع منه. ورفض [نيقياس] فكرة الانسحاب براً لأن ذلك سيرغمه على تركه عدداً كبيراً من سفن النقل والبوارج الحربية يقارب المائتين وليس ثم بعداً هذا من عارٍ وشنار. فأصعد الى السفن خيرة مشاته ومعظم رماحته القادرين على القتال فملأوا مائة وعشرة غاليونا. اما السفن الباقية فكان يعوزها المجاذيف. ووزع بقية الجيش على طول الساحل، متخلياً عن المعسكر الرئيس والاستحكامات المجاورة لمعبد [هرقل]. فأسرع السيراقوسيون اليه كهنةً وضباطاً لتقديم القرابين المعتادة التي حرموا من تقديمها زمناً طويلاً، ثم أوسقوا سفنهم وتنبأ العرافون من اشارات الذبائح بالنصر والمجد للسيراقوسيين على ألاّ يكونوا البادئين بالحرب، بل ان يبقوا ملتزمين خطة الدفاع لأن [هرقل] لم يغلب كل خصومه إلاّ بالدفاع عن نفسه. فأنطلق السيراقوسيون بعزم وثقة جديدين. وكانت معركتهم التالية أشدّ وأعنف معركة بحرية خاضوها

على الاطلاق. اثارت حماسة المتفرجين واهتمامهم أكثر من المشاركين فيها فقد كانوا قادرين على مشاهدة كل مراحل المعركة بتقلباتها الفجائية وتبدل حظوظها ومفاجآتها غير المتوقعة السريعة. وكانت خسارة الآثينيين من سوء استخدام أسلحتهم ومعداتهم لا تقل عن الخسارة التي أوقعها بهم عدوهم. فقد جابهوا سفناً خفيفة سريعة الحركة رشيقة قادرة على الهجوم من كلّ ناحية في حين كانت سفنهم الثقيلة أصلاً، موقرةً بالحمل بطيئة الحركة وكانوا معرضين الى وابل من الحجارة يمطرهم بها العدو من كل مكان دون وزن أو اعتبارٍ لشيء، ولم يكن لديهم ما يردون به عليهم غير الحراب والنبال التي يصعب توجيهها الى اهدافها المنشورة بسبب حركة الماء فيطيش معظمها ولا تبلغ قصدها. هذا الاسلوب في الحرب تعلمه السيراقوسيون من القبطان الكورنثي (ارسطون) الذي خرّ صريعاً في هذه المعركة وهو يقاتل قتال الأبطال وفي اللحظة التي تبين النصر للسيراقوسيين.

بعد إصابة الآثينيين بخسارة بالغة في السفن، وفي الرجال. بات طريق الفرار البحري متعذراً. وكان انسحابهم براً محفوفاً باشدّ الأخطار. وشلت الحيرة فكرهم فلم يحاولوا منع العدوّ من سحب سفنهم وراءه تحت سمعهم وبصرهم. ولم يحاولوا طلب هدنة لدفن قتلاهم، فقد بدأ ان ترك الجثث بلا دفن أهون وأجدى من ترك مرضاهم وجرحاهم والانسحاب بدونهم. على ان أشقى الفئتين لو علموا - هم أولئك الذين كانوا سيكابدون كثيراً من الآلام ليصلوا الى النهاية عينها.

وتهيأوا للانسحاب في تلك الليلة. وادرك (غيليپوس) واصدقاؤه نيتهم إلاّ إنه وجد السيراقوسيين منشغلين في قرابينهم وكأنهم بمناسبة يوم النصر الذي كان يوم عيد أيضاً. فأسقط في يده ولم يفلح في اثارة اهتمامهم بقتال الآثينيين لا بالحث ولا بالرجاء. على ان (هرموقريطس) لجأ الى حيلة من أختراعه للايقاع بنيقياس بمبادرة خاصة منه. فبعث بفئة من رفاقه اليه ليزعموا له انهم موفدون من أولئك الذين يحرصون على الصلة السرية التي كانت بينهم، وان صنائعه هؤلاء ينصحونه بألاّ يخرج في تلك الليلة لأن السيراقوسيين بثوا الارصاد ووضعوا الكمائن والموانع في المسالك. فأبتلع (نيقياس) الطعم وانطلت عليه الحيلة ولم يبرح معسكره. ولم يطل به الأمر حتى واجه ما كان يخشى وقوعه لما خيل اليه ان الفرص كلها ضاعت عليه فقد سبقه السيراقوسيون الى احتلال المنعطفات والشعب والمضائق في الصباح الباكر. وكسروا الجسور وبثوا خيالتهم في السهول والأراضي المكشوفة ولم يبقوا جزءً من المنطقة يمكن ان يتسلل منه الآثينيون دون قتال إلا مسكوه. وظل الآثينيون طوال ذلك اليوم الثالث كأنهم لا يتركون بلاد عدوّهم بل بلادهم خرجوا وهم باكون نادبون والالم يعتصر قلوبهم

لاضطرارهم الى ترك أصدقائهم ورفاقهم الذين أعجزهم مرضهم وسوء حالهم عن السير معهم ولم يكن عندهم القوت الضروري الذي يقيهم الجوع. إلاّ أنهم كانوا يدركون على كل حالٍ ان ما يعانونه الآن لايُقاس بما ينتظرهم من مصائب. وكان [نيقياس] أبعث صورة للرثاء من الصور الأليمة والمناظر المحزنة التي حفل بها المعسكر قبيل الرحيل. فقد بدأ بهيئة تستدر منتهى الشفقة وهو يرزح تحت وطأة المرضى، وقد نحل جسمه ورقّ عظيمة لحاجته الى الجدار الأدنى من مقومات التغذية. في حين كان وضعه الصحيّ يتطلب غذاءً أكثر من المعتاد. وكان يغالب العلّة ويعمل ويتحمل من الاعباء ما ينوء به كثير من الاصحاء، وليس من شك في ان الجهد الذي يبذله لم يكن لنفسه ولا بدافع الحرص على حياته، وانما لتشبثه بالأمل تشبث الفريق وبدافع الاهتمام بمن هم تحت امرته. وانتشر البكاء والصراخ بين الجنود حزناً أو خوفاً. أمّا هو، فان غالبته العاطفة حينا وابكته، فأنما كان يبكي قهراً لتفكيره بعار الحملة الراهن؛ وبما كان يتوقع لها من مجدٍ وصيتٍ. وأقترن منظر شخصه المحزن بتذكر الجنود محاولاته الصادقة في حمل الآثينيين على صرف النظر عن الحملة ومعارضته الشديدة لها. الأمر الذي زاد من شعور الاشفاق عليه؛ وعدم استحقاقه الآلام التي يعاينها الآن.

لم يكن للجنود اي أمل في التوجه بمصائرهم الى الآلهة، بعد ان شاهدوا بأمّ أعينهم كيف تخلت عن نصرة قائدهم الورع البالغ التقى الذي لم يأل جهداً في اظهار أجلاله لها بعبادتها ودوام التقريب لها وغير ذلك من أعمال البرّ، فلا يجد الآن من الحظوة عندها أكثر مما يجده أحط وأحقر جندي في جيشه.

وكان [نيقياس] خلال هذه الفترة العصيبة يجاهد بصوته وتحملّه واساريره ليبدو بمظهر المستقوي على نكبته، الصامد لسوء طالعه. لقد ظلّ ثمانية ايام بلياليها وهو عرضة لسهام العدوّ وحرابه غير مبالٍ بجراحه، محافظاً على تكتل قواته ونظامها الذي لم تتسرب اليه الفوضى الاّ بعد أسر [ديموستينس]. فقد كان هذا يقود كتيبة في أشتباك مع العدوّ مما جعله يتخلف عن بقية الرتل. ولم يَر نفسهَ واصحابه الاّ وهم مطوقون، بالقرب من منزل ريفي يملكه [بوليزيلوس]. ولما أيقن بالمصير انتضى سيفه وطعن نفسه بريد القضاء على حياته فأحدث جرحاً لا غير، وأسرع اليه السيراقوسيون وقبضوا عليه ثم انصرفوا بغنيتهم. ولما علم [نيقياس] أرسل رعيلاً من الخيالة لاستكشاف الموقف فعاد اليه مؤكداً اندحار كتيبة [ديموستينس] وأسره فبعث يستعطف [غيليپوس] في هدنة للخروج في صقلية مبدياً موافقته على ابقاء رهائن عنده لضمان دفع المبالغ التي انفقتها السيراقوسيون على حربهم.

إلاّ أن السيراقوسيين لم يعودوا الآن مستعدين لمنحه شروط الصلح التي عرضوها عليه قبلاً

وانما راحوا يهددون الآثينيين بالويل ويتوعدونهم بسوء المصير، ويمطرونهم بالسباب والاهانات. وأخذوا يصبونّ عليهم مقذوفهم من السلاح بكلّ حنق وغيظ. ونضبت موارد الآثينيين تماماً، ولكن نيقياس] لم يتوقف وواصل السُرى آناء الليل دون ان ينال منه العدوّ مأرباً. وفي اليوم التالي شق طريقه تحت وابل من حرابهم ومقذوفاتهم حتى بلغ نهر [اسيناروس Asinarus] فأعترضتهم قوات العدو ودفعت بهم الى المجرى. وآثر بعضهم الموت في سبيل ارواء عطشه فالقوا بأنفسهم في الماء فأنقض عليهم العدوّ وهم يشربون وصرعهم. ثم بدأت أفظع مقتلة وأقساها في الآثينيين. وحاول [نيقياس] ايقافها فاسرع الى [غيليپوس] وألقى بنفسه امامه وقال مسترحماً:

- دع الى نصرك سبيلاً للرحمة يا [غيليپوس]، لهؤلاء الآثينيين لا لنفسي التي حكم عليها القدر أن تبلغ بالمجد الذي نلته فيما مضى الى هذه الخاتمة الأليمة. وانت تعلم حق العلم ان فرص الحرب مشاعة وان الآثينيين كانوا دائماً معتدلين في استغلال تلك الفرص وقد أظهروا لكم خصوصاً كل تسامح ولطف في ايام عزهم وجبروتهم.

فلان قلب [غيليپوس] بهذا القول وبمنظر [نيقياس] الأليم وادركه الأسف. فقد كان يعلم ان [نيقياس] بذل أطيب المساعي للقيديميين في قضية المفاوضات حول المعاهدة الأخيرة. كما كان يقدّر الشرف والشهرة العريضة التي سينالها بأخذه القادة العامين الآثينيين أحياءً. فأخذ بيد [نيقياس] وانهضه باحترام وأخذ يهون عليه ويطيب خاطره وأصدر أمراً لرجاله برفع سيوفهم عن رقاب الآثينيين الاّ أن أمره لم ينقل بسرعة ولذلك زاد القتلى عدداً عن الأسرى بكثير. ونجا كثير من الآثينيين بجهود الجنود الخاصة اذ هربوهم من البلاد سراً. وجمع الأسرى معاً وعُلقت أسلحتهم واسلابهم على باسقات الشجر بامتداد النهر. ودخل المنتصرون مدينتهم وقد ضفروا أكاليل الزهر على رؤوسهم وخيولهم مزدانة بأجمل الحلل والزينة. يرون وراءهم خيول العدو مقصوصة الأعراف والأذناب، لابدع فقد نالوا أعظم وأكمل نصر، في اروع صراع دار بين أغريق وأغريق بوفيه لغوا من الشجاعة وشدّة المراس ما ليس بعده زيادة لمستزيد.

وعقدت الجمعية العامة في [سيراقوسة] إجتماعاً جماهيرياً حضره مندوبون عن حلفائهم. وأفتتح [يورقليس Eurycles] أحد الزعماء الشعبيين الجلسة باقتراح اعتبار اليوم الذي أسر فيه [نيقياس] يوم عطلة. من الآن وعلى مَرّ الزمن، تحيي ذكراه بنحر الاضاحي، والامتناع عن مزاولة الأعمال الاعتيادية، وان يطلق عليه اسم [العيد الآسيناري] نسبة الى النهر الذي دارت على ضفافه المعركة وكان يوافق السادس والعشرين من شهر [كارنيوس Carneus] وهو [ميتاجيتنيون Metagitnion] عند الآثينيين. واقترح ان يباع بيع الرقيق خدام الآثينيين

واتباعهم وحلفاؤهم الذين وقعوا أسرى، وان يحتفظوا بالمحاربين واحتياطيهم من الصقليين لاستخدامهم في أعمال المقالع، باستثناء من كان برتبة قائد. واقترح أن يقضى بحكم الموت على هؤلاء. فوافقت الجمعية على اقتراحه. وعندما أعترض [هرموقريطس] بقوله: أن حسن استغلال النصر، خير من الحصول عليه السيراقوسيون بكلمات نابية فظة، وهم ثملون بحظهم، السعيد. والواقع انهم كانوا في اثناء الحرب يتضايقون جداً من مسلكه الفظ وتعاليه اللقيديموني؛ زد على هذا أنهم – على ما يحدثنا به [طيماؤوس]. قد كشفوا في طباعه لؤماً وخسّةً وجشعاً؛ ولعل هذه الرذائل انحدرت اليه من ابيه [كليانتريدس Cleandrides] الذي حكم عليه بجريمة الرشوة ونفي من البلاد. ومما يجدر بالذكر أن [غيليبوس] هو عين ذلك الشخص الذي ارسله [ليساندر] الى سپارطا حاملاً ألف تالنت لايداعها الخزانة العامة، فأختلس منها ثلاثين، وأخفاها تحت آجرّفي منزله. فأفتضح أمره وهرب من البلاد مشيعاً بالخزي. وقد اتينا الى تفصيل ذلك في سيرة حياة [ليساندر]. ويقول [طيماؤوس] ان [نيقياس] و[ديموستينس] لم تختتم حياتاهما بالشكل الذي وصفه كل من [توكيديدس] و[فيليستوس]، أي على أثر قرار بقتلهما اصدره السيراقوسيون. ولكنهما تركا ليضعا حداً لحياتيهما بمساعدة بعض الحرس القائم على حفظهما وأغضائهم عنهما على أثر رسالةٍ بعث بها اليهما [هرموقريطس] خلال انعقاد جلسة الجمعية العمومية للبت في مصيرهما.

ونقلت جثتاهما الى باب السور والقيتا هناك ليشهدهما الجمهور وقد طرق سمعي أن مجنّا محلى النقوش وبرصائع متعاشقة من الذهب والارجوان ذا صنعة لطيفة بديعة موجود الى يومنا هذا في احد معابد [سيراقوسة]، يقال انه [النيقياس]. وهلك معظم الآثينيين الذين سيقوا للعمل في المقالع، من سوء التغذية والاسقام. اذ لم يكن يعطى لهم أكثر من كيلة نصف لترٍ من الشعير، وربع لترٍ من الماء يومياً. وهرب عدد كبير منهم سراً وبيع بعضهم عبيداً على أساس كونهم من خدم المعسكر، وقد وسمت جباهم بصورة حصان، وجرى هذا لبعض الآثينيين المحاربين زيادة على العبودية. على أن حسن سلوكهم ورجاحة عقولهم أكسبهم احترام اسيادهم فضنّوا بهم وابقوهم معهم. ونجا عدد بفضل أشعار [يوريپيدس] التي كانت تحظى على ما يبدو بمنزلة سامية في قلوب الصقليين ولا تضاهيها فيه اية مستعمرة اغريقية خارج بلاد اليونان ولم يكن لسرورهم حدٌ عندما يقعون على مسافرٍ يحفظ شيئاً من قصائد هذا الشاعر فيبادرون الى سماعها فيه بكلّ لذة واستمتاع وقيل ان كثيراً من الأسرى الذين عادوا الى آثينا سالمين قصدوا منزل [يوريپيدس] حال وصولهم ليقدموا شكرهم له وليرووا له كيف ان بعضهم نال حريته وأعتق لأنهم علموا ما تذكروا من أشعاره للمعجبين. وظفر

الهاربون من المعركة الضاربون في القفار بما يقيهم الجوع من اللحم والشراب لانشادهم بعض قصائده الغنائية. ولا تعجب لهذا، أذ روي ان سفينة لـ[كاونوس Caunus] هربت الى ميناء من موانيهم أطلاباً للحماية فطاردها القرصان ومنعت من دخول الميناء وطلب منها العودة الى البحر. وفي أثناء ذلك سأل أحد رجال الميناء ملاحيها ان كانوا يحفظون شيئاً من أشعار [يوريبيدس] فلما أجابوا بالايجاب، سمح لهم ولسفينتهم بدخول الميناء.

قيل أن الآثينيين لم يصدقوا بما حدث وكذبوا آذانهم وسمعوا بنكبة جيشهم تلك، عندما نقل أول خبر عنها واحد من الأغراب دخل ميناء [پيروس] وجلس في دكان حلاق وبدأ يتحدث عما جرى في صقلية كأن السامعين على علمٍ سابق بالحقيقة. وما وعى الحلاق أقواله حتى أسرع بعدو بأقصى ما تسمح به ساقاه في شوارع المدينة قبل أن يعرف أحد بالنبأ وقابل الاراخنة وانهى اليهم بالنبأ. ثم وقف في الساحة العامة وأعلن الحقيقة للناس. مما أدّى بطبيعة الحال الى فزع عامٍ وألم عميق في كل مكان. ودعا الاراخنة الى عقد اجتماع عامٍ، واحضر الرجل الغريب صاحب النبأ واستجوب عن مصدر معلوماته، ولما لم يقدم لهم جواباً وضياً، عُدّ مذيعاً لإخبار مغرضة من شأنها أقلات الراحة العامّة. وأمر به فشدّ على عجلة دارت به مدة طويلة، الى ان حضر سعادة بريدٍ، وأخذوا يحدثون الجمهور بتفاصيل النكبة وتفاصيلها.

لقد كان من الصعوبة بمكان ان يصدق الناس بأن [نيقياس] وقع ضحية النكبة التي كثيراً مما تنبأ بها.

كراسوس

CRASSUS

(Marcus Licinius)

115 ـ 53

إن [ماركوس كراسوس] الذي كان ابوه قد تولى منصب [چنصور] مرةً ومُنح شرف موكب النصر مرةً - نشأ مع اخويه في منزل صغير. وربى معهما وقد تزوج هذان الأخوان وابواهما في قيد الحياة، وكانت الأسرة كلها تأكل على مائدة واحدة. ولعل هذا سبب من اسباب تطبعه على الاعتدال والزهد لا يقل أهمية عن الاسباب الأخرى. وعندما وفاة أحد أخويه تزوج ارملته ومنها رزق باولاده. ولم يفقه أحد من الرومان في الحياة الزوجية المثالية التي عاشها. وإن حام شكّ بعد تقدمه في السّن، حول وجود علاقة صميمة بينه وبين عذراء من عذارى الڤستالات تدعى [ليشينيا Licinia] فإنها بُرئت من هذه التهمة التي قام برفعها [پلوطينوس Ploti-nus] ضدّها. كانت [ليشينيا] هذه تملك عقاراً ثميناً جداً في ضواحي المدينة وقع في نفس [كراسوس] ورغب في شرائه بثمن متهاودٍ. ولهذا زاد التفاته اليها وتضاعف اهتمامه بها وكثر تردده عليها فأنطلقت الالسنة تتساءل عن كنه علاقتهما، مما أدى الى الفضيحة. واذا جاز لنا القول، فان جشعه هو الذي عاون في براءه ساحتيهما. إلاّ انه لم ينفك بعد الفضيحة عن مراجعتها حتى فاز بالعقار.

وتعود الناس القول عنه ان رذيلة واحدة فيه كانت تغلب على فضائله العديدة، الا وهي الجشع، وكانت عيبه الوحيد في الواقع ولم يبد انه تخلّق بغيرها، إلاّ انها كانت جدّ بارزة، فطغت على حسناته وسجاياه. ومن الأدلة على جشعه أملاكه الواسعة، وطرقه في جمعها. ففي أوّل الأمر لم تكن ملكيته تزيد عن ثلاثمائة تالنت. وبالتالي نجد في سرى حياته السياسيّة انه أوقف العشر مما يملكه كافةً على [هرقل] واقام للجمهور مآدب عامة، ووزع من حر ماله على كل مواطن في روما قمحاً سد حاجته اليه مدة ثلاثة أشهر. ومع كل هذا فقد وجد عند قيامه بجرد ثروته وتصفية حساباته مثل خروجه لقتال الپارثيين، انه يملك سبعة آلاف ومائة تالنت، جاء معظمه - ان جاز ان تكون الحقيقة فضيحة - من النار والنهب. فقد حقق استفادته من النكبات العامة والبلايا التي حلت بالوطن فمثلاً لما قبض [سيللا] على زمام الأمور في المدينة وعرض للبيع العلني ما صادره من أموال أولئك الذين فرض عليهم عقوبة أهدار الحقوق المدنية، وأعتبرها أو سمّاها غنائم وأسلاباً، ولرغبته في أن يشرك معه

بهذه الجريمة أكبر عدد من الشخصيات الرومانية البارزة، لم يتعفف [كراسوس] عن قبول مال منهم أو أخذ مال لهم. ولدى ملاحظته كثرة ما تعرض من منازل المدينة للحريق. وللانهدام بسبب ارتفاعها وتقارب بعضها من بعض، أنصرف الى شراء عبيد مهروا في العمارة والبناء، حتى اذا جمع منهم ما يربو على خمسمائة، طفق يشتري تلك البيوت التي أتت عليها النيران، والبيوت المجاورة الآيلة الى السقوط أو المتقوضة، بأثمان زهيدة لا تذكر من مالكين كانوا يرغبون في التخلص منها كيفما كان. حتى جاء زمن كان يملك معظم أحياء روما. ومع امتلاكه هذا القدر الكبير من البنائين العبيد فإنه لم يشيد صرحاً واحداً خلاف منزله الخاص. وكان لايفتأ يردد قوله: ان أولئك الذين استولت عليهم الرغبة في البناء، لن يلبثوا أن يدمروا أنفسهم، من غير مساعدة الاعداء وكانت مناجم الفضة الكثيرة التي يملكها والمساحات الشاسعة من الأراضي الفنية بخصوبتها. والفلاحون الذين يعلمون فيها، لا شيء يذكر اذا قورن بما يملك من العبيد، فقد جمع منهم اصنافاً مختلفة تفوق الحصر، وكان بينم المعلمون الممتازون، وصاغة الفضة والنسأخون، وخدم المائدة، ووكلاء المال، والحسأبون. وكان يهتم شخصيّاً بتوجيههم ويشرف بنفسه على تعلمهم، بل كان يعلمهم بنفسه، لأنه يعتبر العناية بالخدم من واجبات المولى الأساسية فهم في نظرة وفي الواقع الآلات الحية لادارة البيت. واعتاد القول ان واجب الخدم أن يعنوا بكلّ شيء، ولا يتركوا لمولاهم الأ واجب العناية بهم. ففي الاشياء الجامدة يكون الاقتصاد عبارة عن كسب المال لاغير. أما ممارسة شؤون الاقتصاد في البشر الحي فهو سياسة. إلاّ أنه يجانب الصواب حين يقول:

- لا يُعدّ المرء غنيّاً إلاّ اذا اتسعت ثروته للانفاق على اعاشة جيشٍ مرابط.

وخطأهُ في هذا القول متأت من تلك الحقيقة التي أجاد [ارخيداموس] في التعبير عنها ولله درّه اذ يقول: «ان الحرب لا تغذى بمبلغ محدود ثابت، ولذلك لا محلّ لتقدير مبلغ الثروة التي تكفيها». ولاشكّ ان نفقاتها اكثر بكثير مما قدره لها [ماريوس] الذي وزع على كل مقاتل في جيشه اربعة عشر [ايكراً] من الأرض الزراعية ولم يلبث أن سمع بأن بعضهم يريد المزيد فقال - معاذ الله أن يفكر ايّ روماني بأن هذا قليل. فهو يكفي لحياة طيبة ويقيه الحاجة.

على أن [كراسوس] كان مضيافاً للأغراب كثير البذل لهم، وباب بيته مفتوح أبداً. يسلف اصدقاءه المال من دون فائدة، على أنه كان لا يتخلف قط عن مطالبتهم به عندما يحين الأجل المضروب للوفاء به. لذلك كثيراً ما عد هذا الفضل منه اسوء عملاً من استيفائه الفائدة. وكانت ولائمه في معظم الأحوال بسيطة مما تعودّه المواطنون قائدهم وعاميهم. إلاّ أن حسن الذوق فيها وروح الضيافة السمحاء تجعلها أطيب مجلساً واوقع في النفس من أفخم الولائم.

ومن ناحية ثقافته الخاصة، فقد كان جُلّ اهتمامه منصباً على فن الخطابة. وكل علم آخر يصلح استخدامه لفائدته بين الجمهور من الناس ولمع نجمه بين أعاظم خطباء روما. وفاق بمثابرته وجده خير الخطباء الموهوبين. اذا لم يكن يرى موقفاً أحطّ وادعى الى الإحتقار من صعوده المنبر وهو غير مستعدّ له. ولطالما أخذ على عاتقه الدفاع عن قضايا نكص عنها [قيصر] و[شيشرون] و[پومپي]، فنجح فيها وبلغ الغاية منها. وهذا ما حببه الى الناس بصورة خاصة. فقد وقعوا فيه على المثابرة والعناية والإستعداد للمساعدة، واغاثة المواطنين بلا استثناء. زد على هذا أن الناس كانوا يسرون كثيراً بسلامه وتحيته الخالية من التكلف. اذ لم يحصل أن التقى بمواطن رفيع أو وضيع، ولم يردّ على تحيته بالإسم. وكان يُعدّ من ثقات التاريخ والعارفين به، كما ضرب بسهم وافرٍ من فلسفة [ارسطوطاليس] ومثقفه فيها [اسكندر]، رجُل كان شكل علاقته [بكراسوس] أكبر دليل على سماحة طبعه وسمّو خلقه فقد صعب القول في أنه كان عند ملازمته له أكثر فقراً مما كان قبل دخوله خدمته. وتعود [كراسوس] أن يأخذه في كل سفرة يقوم بها، ويسلمه عباءة قبل الرحيل، ليسترجعها منه عقب الأوبة عظيم الصبر، فقير الى درجة الخصاصة، شديد الاحتمال للفقر في حين لا نرى الفلسفة التي يعتنقها تعتبر الفقر من الفضائل، أو الشروط المذهبية لها، على أننا سنعود الى هذا الموضوع فيما بعد.

ما أن وثب [سيلّا] و[ماريوس] الى دست الحكم حتى تبين انهما ابعد الناس عن التفكير في المصلحة العامة، وانهما ما جاء إلاّ للقضاء على الاشراف واستئصال شافتهم فوقعا قتلاً وذبحاً بكلّ من تمكنوا منه وراحٍ والد [كراسوس] وأخوه ضحية المذبحة وكان هو اذ ذاك فتىً يافعاً، فأسرع يبتعد عن مكامن الخطر وأخفى نفسه، ثم علم ان الطاغيتين يجدان في البحث عنه ويبثان حوله الارصاد والعيون بلا هوادة، فلم ير بدأ من الفرار الى اسپانيا مع اصدقاء ثلاثة وخدم عشرة. وكان يعرف البلاد لمكوثه فيها زمناً أيام تقلد ابيه وظيفة الحاكم لها، ومع أنه كان يعتمد على حسن لقاء اصدقائه الكثيرين هناك، إلاّ انه وجد الناس وجلين، هلعين يخيم على نفوسهم كابوس اضطهاد [ماريوس] حتى لكأنه ماثل بشخصه أمام أعينهم، يراقب حركاتهم. فلم يتجرأ على كشف هويته لأحد، وأخفى نفسه وصحبه في مغارة واسعة تقع على جرف بحري، يملكها صديقه [ڤيبيوس پاشيانوس Vibius Pacianus] ثم بعث اليه ببعض خدمه ليجسّ نبضه ويتثبت من نواياه ويسأله مؤناً لأن زاده بدأ ينفد. وكان سرور [ڤيبيوس] عظيماً بوصوله. وسأل عن مكمنه وعدد مرافقيه. ولم يذهب اليه بنفسه وانما أستدعى وكيل ادارة منزله وأمره بتهيئة وجبة طعام وافرة من اللحم وأن يحملها، ويتركها

بالقرب من الصخرة الفلانية ويعود ادراجه دون أن يستسلم للفضول وحب الاستطلاع، ووعده بالعتق ان هو انجز ما أمره به وتوعده بالقتل إن سمح لنفسه بالفضول والتدخل. وكانت المغارة قريبة من البحر وثم فتحة ضيقة جداً لا تلفت النظر في الجرف تفضي اليها. واذا دخلتها واجهك سقف عالٍ الى درجة تثير العجب، ورأيت أمامك حجرات واسعة متعاقبة واحدتها تفضي الى الأخرى وهكذا. ولم يكن يعوزها الماء والنور. فالأوّل يأتي من نبع لطيف عذب غير ينحدر من صلب الجرف الصخري. والثاني بنفد من فتحات وشقوق طبيعية، في امكنة مناسبة كأنها صنعت عمداً، تسمح بدخول الضياء طول النهار. وكان سمك الصخرة ينقى الهواء في الداخل ويصفيه وينقل ما يثقله من رطوبة وندى الى النبع.

وأستمرّ الوكيل يأتيهم بالطعام والضروريات طوال بقائهم دون ان يراهم أو يدرك شيئاً من الحقيقة في حين كانوا يرونه من الداخل ويرصدون مقدمه في المواعيد المعتادة. على أن الطعام المرسل اليهم لم يكن يقصد منه سدّ الرمق فحسب وانما أمتاز بالوفرة والنفاسة للتهوين من حالتهم والترفيه عنهم. وكان [پاشيانوس] يريد أن يوفر لصديقه كلّ ما تسمح به الظروف من الرعاية والعطف، واعطاء فتوته ويفاعته حقها الواجب بارضائها بعض الشيء وعلى قدر الامكان. فقد رأى أن الاقتصار في العطاء على سدّ الحاجة قد يبدو على أغلب الظنّ من قبيل الواجب المفروض الذي لا يُدفع، لا متأتي من روح الصداقة الصميمة الخالصة، فعمد مَرّةً الى أخذ خادمتين معه وسار بهما وأراهما موضع المغارة وأمرهما أن تلجاها دون محاولة التخفي. وتملك كراسوس ورفاقه خوف شديد عند دخولهما وتوهموا الفضيحة والخيانة فطلبوا منهما ان تكشفا عن هويتهما وعن غرضهما. فأجابتا طبق التعليمات التي تلقيتاها قائلتين: أنهما جاءتا للقيام على خدمة سيدهما المتخفي في هذه المغارة. وادرك [كراسوس] عنصر المزاح في الحادثة، وعدها دليلاً على أخلاص [ڤيبيوس] له. فقبلهما وابقاهما طوال وجوده هناك. وكان يستخدمهما واسطة اتصال مع [ڤيبيوس]، لنقل الانباء وتبادلها وأعلامه بما يحتاجونه، ويقول [فينيستللاً Fenestella] أنه لقي أحدى هاتين الخادمتين وقد بلغت من العمر عتياً، وكثيراً ما سمعها تتحدث عن ذلك العهد وتردد قصتها مع [كراسوس] بسرور ولذة.

ظلّ [كراسوس] متخفياً في المغارة ثمانية أشهر. وبعدها ورده نبأ موت [سينّا] فخرج من مكمنه الى الناس، فألتف حوله عدد كبير منهم. فأختار جماعة منهم يبلغ عددها ألفين وخمسمائة، ساروا في ركابه ولازموه في كل زيارة من زياراته للمدن الاسپانية. ويقول أحدهم أنه حاصر بهذه القوة مدينة [مالقة]، وكراسوس ينكر هذا الخبر انكاراً تاماً. ويكذب باستمرار كل من يردده. ثم انه جمع عدداً من السفن واقلع برجاله الى افريقيا. وانضمّ الى [ميتللوس

بيوس] وهو رجل بارز الشخصيّة، رفيع المقام تلتف حوله قوات كبيرة، إلاّ ان صحبتهما لم تدم لخلاف نشب بينهما فانفصل عنه وانحاز الى [سيللا] ونال عنده منزلة رفيعة.

كان [سيللاّ] بعد نزوله البرّ الايطالي مهتماً بايجاد وظائف واسناد مناصبٍ للشبان اللامعين الذين رافقوه فأوكل لبعضهم المهام الخطيرة هنا، وبعث بعضهم بمأموريات هناك. وأوكل [لكراسوس] مهمّة الذهاب الى [المارسيين] وتجنيد رجالٍ منهم فطلب [كراسوس] حرساً لأن طريقه سيكون في اراضٍ يحتلها العدوّ، فثار غضب سيللاّ وردّ بحدة:

- قد أعطيك حرساً لأبيك وأخيك وأصدقائك وبني قومك الذين أريد ان أثار لقتلتهم الوحشية الظالمة!

فأنصرف [كراسوس] من لدنه متألماً وأنطلق لمهمته، وشق طريقه في أرض العدو بجرأة، وجند من المارسيين قوات كبيرة. وشارك مشاركة فعلية في كلّ حروب سيللا وأمتازت خدمته بالتفاني والبطولات. ويقولون ان التنافس والتكالب بينه وبين [پومپي] على المجد والشهرة، بدأ في ذلك الحين وتطور في تلك الاحداث. كان [پومپي] أصغر سناً من [كراسوس]. وسمعته من جهة ابيه لا تعادل سمعة ذاك. لأن المواطنين كانوا يكرهون أباه كرهاً لم يؤثر عنهم لشخص آخر، ولا يحترمونه قط. إلاّ أن نجم [پومپي] لمع وسطع في تلك الحروب. وفرض عظمته واحترامه باعماله المجيدة. حتى ان [سيللاّ] كان يقف احتراماً له ويحسر عن رأسه كلما دخل عليه، وهو احترام قل أن أظهره لمن يكبرونه سنّا، ويساوونه مقاماً. وكان يحيّه أبداً يلقب «امبراطور Imperator»[1] وكان هذا يثير غيظ [كراسوس] ويؤلمه، وان كان لا يحق له أن يفضله أو يتقدم عليه باي وجه من وجوه العدالة. لأنه يجمع الى نقص خبرته، رذيلتيه الملازمتين: الحرص والجشع اللتين تطفئان لمعان مآثره كلها ولقد قيل والعهدة على الراوي انه استحوذ على كل الغنائم لنفسه ومنفعته عندما استولى على [توديرتيا Tuder-tia] مدينة الاومبريين فأحدث استياءً عاماً ادى الى رفع الشكوى منه الى [سيللا] إلاّ ان مأثرته العظمى كانت أمام ابواب [روما] في آخر معركة من سلسلة معارك [سيللاّ] وأعظمها شأناً. فقد بدأت الدائرة تدور على [سيللا] عندما اتكفأ بعض افواجه متراجعاً وتمزقت أفواج أخرى. فرجع [كراسوس] الكفة بالنصرّ الذي حازه في الميمنة التي كان يقودها. ولا حق العدوّ حتى ارخى الليل سدوله وعندها بعث ينبئ [سيللاّ] بانتصاره، طالباً ارسال الارزاق الى جنوده. على انه خسر سمعته هذه في عهد الطغيان واصدار أحكام إهدار الحقوق المدنية ومصادرة الأموال، بسبب عقده صفقات شراء ضخمة باثمان جدّ زهيدة على الأموال

(١) بالأصل هو لقب القائد المظفر في الحرب. يحيّيه به الجنود الرومان ويضيفونه لقباً الى اسمه.

المصادرة. ولطلبه مكافآت وامتيازات مالية. بل قيل انه فتك بفرد من أسرة [البروتيين] اهدرت حقوقه المدنية لمنفعة خاصة ابتغاها، ودون علم من [سيللاً]، فلم يعد هذا يأتمنه على أي أمرٍ من الأمور العامة. ولم يكن يفوقه احد مكراً وحيلةً في جذب الناس اليه بالملق والمديح كذلك كان أسرع الناس تأثراً بهما وابتلاعاً لهما، وهذا ما لوحظ فيه بنوع خاص، ففي حين كان أكثر العالمين جشعاً، تراه يكره من هم مثله ويقسو في انتقادهم.

وضايقه [پومپي] في ما بلغ من نجاحٍ مستمر حتى انه منح موكب نصر قبل أن يكون أهلاً للعضوية في مجلس الشيوخ. ولقبه الأهالي [ماغنوس Magnus] اي العظيم. فاذا سمع [كراسوس] شخصاً يقول:

– ها هو «پومپي ماغنوس» قادم!

ابتسم وقال: كم هو كبير؟

ولما يئس من الوصول الى مجده في ميدان الحرب، وليّ وجه شطر السياسة، فانقادت اليه بمجدها وسلطانها وظلّ يصعد مراقيها حتى بلغ مستوى [پومپي]، متقرباً للناس بالفعل الحميد، والتوكل عنهم في قضاياهم وتسليف المال لهم والتوسط في حاجاتهم عند الناس الآخرين معتمداً على جاهه... ومما هو عجيب في هذه المنافسة أن اسم [پومپي] وسمعته إنما تبلغ ذروتها في المدينة عندما يكون غائباً بسبب ما يحققه في ميدان الحرب ويرتفع اسم [كراسوس] عليه عند وجوده في المدينة، فيحتل المرتبة الثانية عند الناس لغطرسة فيه وعجرفة، وإعراض عن الاجتماعات، وندرة ظهوره في [الفوروم] واحجامه عن مساعدة الناس الأ في القليل النادر، فاذا فعل فليس برغبة وانما كالمضطر والمستثقل، حتى لا يستنفد رصيده من الجاه ويستعمله لمصلحة نفسه عند الحاجة. بينما كان [كراسوس] ذلك الصديق المستعدّ للمعونة دائماً وقت الضيق، والمتهيءً للخدمة ببابه المفتوح لذوي الحاجة ابداً والممتلئة يداه من قضايا الناس وتكاليفهم، وهكذا يغلب لطفه وسماحته، أنفة [پومپي] وسلوكه الرسميّ. وهما يقفان على مستوى واحدٍ في جمال تقاطيع الوجه والوقار وذلاقة اللسان. والحق يقال أن هذه المنافسة لم تبلغ بكراسوس مرتبة الغلّ وسوء النيّة والحقد. فمع حنقه لارتفاع منزلة [پومپي] و[قيصر] على منزلته إلاّ انه لم يمازج هذا الحنق اي حقد او روح عدوان، وان كان [قيصر] قد قال لما أسره القرصان في آسيا:

– كم سيكون سرورك عظيماً يا كراسوس عندما تسمع نبأ وقوعي في الأسر!

وعاشا بعد ذلك اصدقاء على وئامٍ وصفاء. ولما كان [قيصر] يزمع الرحيل بمنصب [پريتور]

الى أسبانيا، وهو خالي الوفاض، ادركه دائنوه والقوا الحجز على أمتعته واثقاله، فأنبرى [كراسوس] لانتشاله من ايديهم ووضع نفسه كفيلاً ضامناً لدينه البالغ ثمانمائة وثلاثين تالنتاً.

كانت روما بصورة عامة منقسمة الى ثلاث شيع كبيرة، شيع [پومپي، وقيصر وكراسوس]، اما [كاتو] فكانت شهرته تزيد على نفوذه، وهو موضع أعجاب، أكثر منه متبوعاً ذا أنصار. وكان حزب [پومپي] الأكثر رزانة ووقاراً، وحزب [قيصر] الطموح هم ذوو الرؤوس الحارة، النشطون. وكان حزب [كراسوس] بتوسط الآثينين ويستفيد منهما ويبدل موقفه حسب ما تمليه الظروف ولم يكن بالصديق الذي يركن اليه ولا بالعدوّ الذي يخشى شره. فمن السهل عليه ان يتحلل من اصدقائه، ومن السهل عليه أن يتناسى عداوته حيث يجد منفعته. فتراه ازاء عين الناس، وفي عين المواقف، ومناصراً مرةً، ومعارضاً مرةً؛ وكان محبوباً للغاية، كذلك كان مصدر خوف مساوٍ. وقد سئل [سيكينيوس Sicinius] أكبر مثير متاعبٍ لرجال الدولة والحكام في عصره ما الذي يجعله يتحاشى [كراسوس] ويتركه لشأنه فأجابه:

- آوه! ان في قرنيه قشّاً!

مشيراً بهذا الى عادة شدّ بعض الدريس اليابس في قرنيّ الثور النطاح حتى يبتعد الناس عن طريقه.

إن ثورة المصارعين والخراب الذي احدثته في ايطاليا، مما يعرف عموماً بـ«حروب سپارتاكوس Spartacus» بدأت بالصورة الآتية:

كان [لنتولوس باتياتوس Lentulus Batiatus] مدرب المصارعين، يملك عدداً كبيراً منهم في مدينة [كاپوا Capua] ومعظمهم من الغاليين والثراقيين، وكان لقسوةٍ في طبعه يحفظهم فيما يشبه السجن الإنفرادي دون ذنب أو جريرة ارتكبوها، ويخرجهم لقتال بعضهم بعضاً كسباً للمال. فأتفق مائتان منهم على خطة للفرار، ولما علموا أن أمرهم انكشف عجل ثمانية وسبعون منهم بتنفيذ الخطّة قبل أن يتسنى لسيدهم اتخاذ التدابير. فأقتحموا المطابخ وأستولوا على كل ساطور وسفودّ وجدوه، وانطلقوا الى خارج المدينة، ووقعوا وهم في الطريق على عدة عربات محملة باسلحة للمصارعين تقصد المدينة، فأستولوا عليها وتسلحوا بها. ولجاؤا الى موضع منيع صالح للدفاع، وهناك انتخبوا زعماء ثلاثة من بينهم وأمرّوا عليهم [سپارتاكوس] قائداً، وهو ثراقيّ من أحدى قبائلها البدوية، جمع الى بسالته وقوة مراسه فهماً وادراكاً ورقة ولطفاً لا توجد عادة في أمثاله فكان أقرب الى الاغريق منه الى بني جلدته لما بيع لأول مَرّة في روما. قيل أن أفعى سعت اليه وهو نائم فتكورت فوق وجهه، وفسرت

زوجه التي رافقته في ثورته وفراره، وكانت من مثيل العرافات اللاتي تعتريهن نوبات انجذابٍ - بأن هذه الحادثة تشير الى حيازة زوجها سلطاناً عظيماً ومجداً كبيراً إلاّ أن نهايته لن تكون سعيدة.

وكان أوّل عملٍ حربي لهم، انهم تغلبوا على الحملة العسكرية التي خرجت من [كاپوا] لاخضاعهم، واستولوا منها على كمية من الاسلحة النظامية التي يتعملها الجيش الروماني، فأستبدلوا بها أسلحتهم البربرية، التي كانوا بنفرون منها.

وجردت حملة أخرى بقيادة [كلوديوس] البريتور، قوامها ثلاثة آلاف مقاتل، فحاصرهم سپارتكوس في جبلٍ عاصٍ لاذوا به، لا منفذ فيه غير شعب ضيق عسيرٍ أغلقه [كلوديوس] بوضعه حرساً عليه وكانت سفوح الجبل منحدرات شبه عمودية يتعذر النزول منها على أن الكروم البرية كانت تغطي قمته، فعمد المحاصرون الى قطع أغصانٍ منه ونسجوا منها. سلالم طويلة قوية تصل بهم الى اسفل، وهبطوا بها دون حادث الا واحداً القى اليهم بكلّ أسلحتهم ثم التحق بهم. ولم يفطن الرومان اليهم حتى داهموهم من الخلف وانقضوا عليهم وهم غافلون وأستولوا على معسكرهم. هذا الانتصار حمل عدداً من الرعاة وسواّق الماشية الشجعان الأقوياء على العصيان وانضموا اليهم. فزودوا بعضهم بشكة سلاح كاملة، وسلحوا الآخرين بسلاح خفيف، وأستخدموا طائفة لواجبات الكشافة.

وتوجه اليهم [پوبليوس ڤارنيوس] البريتور. فانقضوا على مساعده [نيوريوس] وهو على رأس الفين من الجنود والحقوا به هزيمة شنعاء، فعززت قوات [پوبليوس]، بجيش كبير يقوده [كوسينيوس Cossinius] ليكون هو بمثابة مستشارٍ وجيشه بمثابة احتياطي. وكاد [سپارتاكوس] يلقي القبض عليه اثناء ما كان يستحم في [ساليني Salinae] لكنه افلت منه في آخر لحظة بصعوبة كبيرة. ولم يخرج [سپارتاكوس] من العملية خالي الوفاض على كل حال فقد وضع يده على اثقال جيشه وارزاقه كلها، ثم أنطلق يجدّ في اثره مطارداً واوقع بقواته قتلاً وذبحاً، وأقتحم عليه معسكره وأحتله وقتله فيه. ثم حصلت عدة اشتباكات ثانوية بينه وبين البريتور. ظفر في أحدها بحصانه الخاص وحرسه الخاص [اللكتور]، وشاع أمره وبات اسمه يلقي الرعب في القلوب. إلاّ ان ذلك لم يسلمه الى الغرور والطيش فقد ادرك بثاقب فكره وبعد نظره ان قوته مهما بلغت لن تعدل قوات الامبراطورية، فاستدار بجيشه نحو جبال الألب يريد اجتيازها حتى يعود كل رجل من رجاله الى وطنه، بعضهم الى ثراقيا، وبعض الى البلاد الغال... إلاّ ان النصر أسكرهم. وعددهم ملأهم ثقة بأنفسهم. فلم يوافقوا على رأيه وعصوه وراحوا يضربون في ارجاء ايطاليا ينهبون ويخربون ويعثيون فيها فساداً.

فلم تعد المسألة بالنسبة الى مجلس الشيوخ مسألة كرامة مُهانة، وتحقير اصابه به الثوار والثورة، وانما أخذ ينظر اليها نظرة حافلة بالقلق، ويراها خطباً جللاً قد يؤدي الى كارثة. ولذلك قرر ارسال القنصلين معاً لمعاجة الموقف وهو قرار لا يتخذ إلاّ في حالات الخطر الشديد، أو في حربٍ عظيمة عسيرة.

انقض القنصل [جيلليوس Gellius] فجأة على جماعة من الجرمان كانوا قد انفصلوا عن جيش [سپارتاكوس] اعتداداً بأنفسهم واستهانة بعدوهم. وراحوا يتجولون في البلاد على رسلهم، فمزقهم شرّ ممزقٍ. ولم يكن حظّ زميله [لنتولوس Lentulus] مثل حظه، فقد ساق جيشه الجرار على [سپارتاكوس] وضيق عليه الخناق فأستدار هذا نحوه وباداه الهجوم وألحق بكبار ضباطه هزيمة نكراء، وأستولى على اثقال جيشه كلها. واستأنف سعيه نحو جبال الآلب. فأعترضه [كاسيوس Cassius] الذي كان بريتوراً على ذلك الجزء من بلاد الغاليين الواقع حول نهر البو وهاجمه بعشرة آلاف جندي فكسره [سپارتاكوس] كسرة عظيمة حتى انه لقي صعوبة كبيرة في انقاذ نفسه، بعد ان خسر عدداً كبيراً من رجاله.

ولما بلغت انباء هذه الهزائم مجلس الشيوخ، ثار سخطاً على القنصلين. واصدر لهما أمراً بعدم التدخل في الأمر، وعين [كراسوس] جنرال حربٍ، وولاّه القيادة العامة. وتطوع كثير من الأشراف لمرافقته الى الحرب، بعضهم رعاية للصداقة التي تربطهم به وبعضهم أطلاباً للمجد والشهرة.

اتخذ [كراسوس] لجيشه مواقع على حدود [پيكينوم Picenum] متوقعاً قدوم [سپارتاكوس] من هذا السبيل. وجرد فرقتين بقيادة مساعده [موميوس] للقيام بحركة التفاف واسعة الغرض منها رصد تحركات العدوّ ومراقبته، وأوصاه بتحاشي الاشتباك معه في معركة، أو مناوشته. إلاّ ان [موميوس] ألقى بالأمر والتحذير جانباً وأشتبك مع [سپارتاكوس] في اول فرصة عنّت له. فاندحر ووقع عدد كبير من القتلى في صفوفه. وتعذر على البقية النجاة بجلدهم الاّ بالقاء اسلحتهم. ونال [موميوس] من رئيسه تأنيباً شديداً. ثم صرف لرجاله اسلحة جديدة عوض تلك التي تركوها وجعلهم يؤمنون ضماناً مالياً على اسلحتهم الجديدة لئلا تحدثهم أنفسهم بالتخلي عنها؛ وبعد هذا جاء بالخمسمائة الذين كانوا أول الهاربين الى عشراتٍ، وأجرى القرعة بين كل عشرة فأخرج واحداً نفذ به حكم الموت، وبذلك أحيا العقوبة الرومانية القديمة التي تعرف «بالتعشير»، وفيها يلقى المحكوم الواناً من الخزي والعار؛ وما يحفّ بها من اجراءات رهيبة قبل تنفيذ الحكم فيه أمام الجيش كله، وعلى مرآى من أفراده الذين يؤمرون بالتجمع لهذا الغرض.

بعد أن قام [كراسوس] بهذه الاجراءات التأديبية. ساق العسكر نحو العدوّ، إلاّ ان [سپارتاكوس] تراجع عبر [لوقانيا] متجها الى البحر وفي المضايق تمت مفاوضة بينه وبين قرصان يملك سفناً، لنقل الفين من رجاله الى صقلية، وفي نيته بعث الحياة مجدداً في حرب العبيد الصقليّة، التي خبت نارها مؤخراً، وكانت بحاجة الى وقود قليل ليس إلاّ لاذكائها ثانيةً. لكن القرصان نكلوا عن الاتفاق بعد أخذ العهد منهم وأقلعوا. فلم يسعه الاّ الابتعاد عن البحر واتخاذ مواضع لجيشه في شبه جزيرة [ريجيوم]، فسعى اليه [كراسوس] سعياً حثيثاً وما أن استطلع الموقع حتى أوحى اليه بفكرةٍ. وهي بناء جدار مستعرضٍ يسدّ عنق البرزخ، ويمنع خصمه من القيام بغاراته الخاطفة وعمليات السلب ويضع في ايدي جنوده ما يشغلهم ويسدّ أوقات فراغهم. واتم انجاز هذا العمل العظيم الشاق في وقت قصير لم يتوقعه أحدٌ: حفر اولاً خندقاً من البحر الى البحر على طول عنق الأراضي فكان طوله ثلاثمائة فرلنغ وعرضه خمس عشرة قدماً، ومثله عمقاً. وبعد ذلك بنى جداراً عجيباً بمكانته وارتفاعه يشرف مباشرة على الخندق ويمتد على طوله. واستهان [سپارتاكوس] بالعمل كله وأستخف به في مبدأ الأمر، ثم ادرك خطره عندما بدأت اقواته تتضاءل. ووجد الجدار يقف في وجهه سداً منيعاً لما قرر خرق الحصار المضروب عليه، اذ لم يعد ما يربطه بفائدة في شبه الجزيرة. وفي ليلة عاصفة ثلجية، ملأ جزءً من الخندق بالتراب واغصان الشجر وأفلح في امرار ثلث جيشه من فوق الجدار.

كان [كراسوس] يخشى ان يزحف [سپارتاكوس] الى روما مباشرة ولكن سرعان ما أفرخ روعه عندما لاحظ عدداً كبيراً من رجاله يتمردون عليه وينفصلون عنه متخذين لهم معسكراً خاصاً على ضفاف البحيرة اللوقانية. والشيء بالشيء يذكر ان هذه البحيرة على ما يقال تتغير في فتراتٍ فيكون ماؤها عذباً في احيان - نقول انقض [كراسوس] على هؤلاء، وأجلاهم من البحيرة إلاّ انه عجز عن متابعة الفتك فيهم لأن [سپارتاكوس] برز له فجأة فأوقف الهزيمة. وهنا أخذ النوم يخالط [كراسوس] لكتابته الى مجلس الشيوخ بطلب سحب [لوكوللوس] من ثراقيا، واستقدام [پومپي] من اسپانيا. ولم يسعه بعد ان لاحت له بشائر النصر الاّ ان يسعى بكلّ ما في طوقه لانهاء الحرب قبل مجيئهما؛ ليقينه ان الشرف في الحرب سيكون من نصيب القادم لنجدته. ولذلك قرر اولاً ان ينقضّ على الوحدات المتمردة المعسكرة وحدها وكانت بقيادة [كايوس كونيشيوس Caius Connicius] و[كاستوس Cadtos] فوجه اليهما مبدئياً ستة آلاف مقاتل لضمان بعض التفوقا. وامرهم بتغطية خوذهم زيادة في التكتمّ. الاّ ان امرأتين كانتا تقرّبان نيابة عن الاعداء كشفتا الأمر. وكادت هذه القوة تقع في

خطب جسيم لو لم يبرز [كراسوس] فجأة، فنشبت معركة دموية لا مثيل لها. وسقط من العدوّ اثنا عشر الفاً وثلاثمائة كلهم اصيبوا في صدورهم، إلاّ اثنين كانت جراحهم من الخلف. مات هؤلاء وهم صامدون يقاتلون ببسالة ولا ينثنون عن صفوفهم. وبعد هذه النكبة التي مني بها سپارتاكوس انسحب الى [جبال پيتيليا Petelia]. فلاحقه [سكروفا Scrofa] الكويستور، و[كوينتيوس] أحد ضباط [كراسوس] فاستدار اليهما وحمل عليهما فسحقهما سحقاً ووليا الأدبار، وحمل الكويستور الجريح خارج ميدان المعركة بصعوبة كبيرة جداً. وكان في هذا النصر دمار [سپارتاكوس] فقد ارتفعت به معنويات العبيد الذين عادوا يرون في اجتناب القتال جبنا، وفي اطاعة آمرهم استخذاءً. فاستلوا سيوفهم وهم في المسيرة وجاؤا الى ضباطهم وسيوفهم مشرعة وارغموهم على العودة بهم الى [لوقانيا] لقتال الرومان، وكان هذا امنية [كراسوس] ولاسيما بعد أن وردته الانباء بوصول [پومپي] وتحركه الى ميدان القتال. وبحديث الناس عن شرف هذه الحرب الذي بات له وحده لأنه سينزل الى ساحة الوغى ويرغم على القتال وبهذا يضع نهاية للحرب. لهذا كان [كراسوس] يتحرق شوقاً لخوض المعركة الفاصلة. فتقدم من العدو وعسكر على مسافة قريبة منه وشرع في مدّ الاستحكامات خطوطاً متوازية الاّ ان العبيد عاجلوه بهجوم واشتبكوا مع الطلائع ثم أخذت النجدات تصل كلا الجانبين، حتى وجد [سپارتاكوس] نفسه مرغماً على المعركة وان لا قبل له بتفاديها، فوضع كل جيشه على خطّ القتال ولما جيء اليه بحصانه انتضى سيفه وقتله قائلاً:

- إن انتصرت فسيكون لي غنيمة كبيرة من خيول العدوّ كلها، أفضل من هذا الحصان. وان غُلبت فما حاجتي به.

وسعى بنفسه الى [كراسوس] يشق طريقه في زخم من السلاح المتشابك والجرحى فلم يقف عليه، إلاّ انه فتك بقائدي مائة حملاً عليه في آن واحد. وتلفت فلم يجد أحداً من رجاله حوله. فلم يهن ووقف صامداً يقاتل الاعداء الذين التفوا حوله وابدى بسالة عجيبة، حتى مزّق تمزيقاً.

فضلاً عن مؤآتاة الحظّ [لكراسوس]، فانه أعطى منصب الجنرال حقّه وزاد على ذلك الشجاعة الشخصية وتعريض نفسه للخطر، ومع هذا كله فإن [پومپي] خرج من هذه الحرب بالجانب الأوفى من المجد، فقد لقي في طريقه وحدات هاربة كثيرة فقضى عليها تباعاً. وكتب الى مجلس الشيوخ يقول: «إن [كراسوس] هزم جيش العبيد في معركة فاصلة، اما انا فقد وضعت نهاية لحربهم».

ومنح پومپي شرف موكب نصر مبجّل لانتصاره على [سرتوريوس] في اسپانيا. في حين لم يكن [كراسوس] يطمع بأكثر من موكب نصر اعتيادي، بطابعه الرسمي المعروف. وكان

الاعتقاد السائد في الواقع ان قبوله اي شرف أقل من هذا، سيبدو ضعةً منه واستخذاء. ونقصد بذلك التشريف الذي يدعى بـ«الاستقبال الشعبي» Ovation ويتضمن مسيرة بمواكب على الاقدام. وكنّا قد فصلنا في حياة [مارچللوس] الفرق بين «موكب النصر» و«الاستقبال الشعبيّ». وفي أصل اسم الأخير منهما.

كان [كراسوس] يأمل في ان يزامل [پومپي] في منصب القنصل الذي دعي الأخير اليه، لكنه لم يتدن الى طلب معونته في ذلك، وسكت فأسرع [پومپي] ينتهز فرصته لتزكيته والدعوة لترشيحه باندفاع وحماسة، برغبته منه في ان يكون صاحب فضل ومنة عليه. حتى انه قال في خطبة عامةٍ له ان امتنانه منهم لأنتخابهم [كراسوس] لن يكون أقل من امتنانه لأنتخابهم اياه. لكن ما ان انتخبا معاً وتسلماً مقاليد الحكم حتى انبتت حبال الودّ فيما بينهما وقضيا مدة حكمهما كلها مختلفين في كل شأنٍ، وليس بينهما غير الشحناء والتناحر والمهاترة ولم ينجزا شيئاً يستحق الذكر، خلا ان [كراسوس] قدم اعظم قرابين عُرفت لهرقل، وأدب مآدب عامّة مدّ فيها عشرة آلاف خوان ووزع على كل مواطن كمية من القمح تكفيه ثلاثة أشهر وشاءت الصدف يوماً انهما كان يخطبان في الجمهور قبيل ختام فترة قنصليتهما. فنهض ريفيّ بسيط من طبقة الفرسان يدعى [اوناطيوس اوريليوس Onatius Aurilius] وأعتلى المنبر، ليقص رؤيا رآها في نومه فقال:

حضرني جوبتر، وأمرني بأن ابلغكم بأن الواجب يحتم عليكم ألاّ تدعوا قنصليكما يسلمان منصبيهما إلا وهما صديقان متصافيان.

فصاح الجمهور معلناً رغبته في مصالحتهما. وبقي [پومپي] جامداً في موضعه لا ينطق بشيء. فكان [كراسوس] أول من مَدّ يده اليه وهو يقول:

- اي بني قومي! حين أكون البادىء في عرض الصداقة والصفاء على [پومپي] الرجل الذي لقيتموه انتم أنفسكم بالعظيم، قبل أن يكون رجلاً ثريّاً ومنحتوه موكب نصر قبل ان يسمح له القانون بالجلوس في مجلس الشيوخ، فلا اراني قمت بعملٍ يحط من قدري أو يذلّ من عزة نفس.

وكان هذا أهم حدث ذكر عن فترة قنصلية [كراسوس] الاّ أن فترة قيامه بواجبات [الچنصور] كانت خاملة بائرة لم تتميز بعمل ما، فلم يقم باجراء تطهير في اعضاء مجلس الشيوخ ولم يعد النظر في قوائم طبقة الفرسان، أو يأمر باحصاءٍ عام للنفوس. مع ان زميله في الوظيفة [لوطاطيوس كاثولوس Lutatius Catalus] كان رجلاً لا يتمنى المرء خيراً منه

طيباً وسماحة وتعاوناً. وقيل ان المعارضة الوحيدة التي لقيها [كراسوس] من هذا الرجل الكريم هي عندما اراد اتخاذ اجراء فيه من القسوة والظلم ما فيه ضدّ مصر، وهو اخضاعها للجزية الرومانية. فقد وقف هذا الزميل ضدّه وابى موافقته عليه، وحسماً للخلاف اتفقا حبيّاً على اعتزال المنصب معاً.

ولم يكن [كراسوس] بعيداً عن شبهة المساهمة في المؤآمرة الكاتالينية الكبرى التي كادت تطوّح بالحكومة. فقد برز أحدهم وأعلن اسمه بين اسماء المساهمين فيها، فلم يصدقه أحد ولم يلق اليه بالاً. إلاّ أن شيشرون في احدى مقولاته اتهم بها كلا من [كراسوس] و[قيصر] اتهاماً صريحاً. ولكن هذه المقولة لم تنشر إلاّ بعد موتهما، كذلك ذكر في خطبةٍ له اثناء توليه القنصلية ان [كراسوس] كان قد جاءه ليلاً برسالة تتعلق بمؤآمرة [كاتالين] وكل تفاصيلها، فكرهه [كراسوس] لهذا التصريح. وكفّ [بوبليوس] أذى محتملاً، كان سيلحق [شيشرون] من ابيه، لأنه عرف بحبّه الفلسفة والبلاغة وبملازمته لشيشرون حتى انه ليس الجداد وخصّ الشبان الآخرين على تقليده في هذا، عندما اتهم شيشرون. وظل يسعى حتى صالحهما.

عاد [قيصر] من مقر قيادته وكلّ همه ان يفوز بالمنصب القنصلي ولما وجد الخلاف مستحكماً بين [كراسوس وبومبي] لم يشأ الاساءة الى احدهما بانحيازه الى الآخر، وكان يائساً من نجاحه ان لم يلق عضداً من أحدهما فترك كل شيء جانباً ليعمل جاهداً في مصالحتهما كانت حجتّه عندهما انهما بهذا الخلاف يضعفان مركزيهما، وهذا يؤدي الى تقوية مركز الشيشرونيين والكاتوليين والكاتويين وهي احزاب لا يُعتد بقوتها قط، لو انهما وحداً قوتيهما وعملاً معاً بين جمهور الشعب، وفق سياسة واحدة، وبجبهة موحدة، ولم يأل جهداً حتى وفق، لاحلال الصلح بينهما وألف من أتباع ثلاثتهم قوة لا يقف امامها شيء حقاً، استظهرت على الحكومة بسلطتيها: مجلس الشيوخ، والعامة، و[قيصر] في الحقيقة لم يزد من قوة [كراسوس وبومبي] ونفوذهما بهذا العمل، وإنما جعل نفسه أقوى منهما بواسطتهما. فقد تمّ انتخابه قنصلاً بما يشبه الاجماع وبشتىّ مظاهر الإكرام والاستبشار بفضل حزبي هذين الزعيمين السياسيين، وأعطى قيصر للمنصب حقه وصرف شؤونه بجدارة وحنكة، ولم يطل به الأمر حتى اسندوا اليه قيادة جيش، وحاكمية الاقليم الغاليّ. ولم يكن يساور [كراسوس وبومبي] أي شك في انهما بعد وضع [قيصر] في «الحصن» وزرعه في مقر قيادته الخاصّة، بأنهما سيتوزعان السلطات الباقية. وكان رغبة [بومبي] الشديدة في الحكم تحدوه الى هذا التدابير. أما [كراسوس]، فالى جانب مرض الجشع السابق فيه، كان قد انمى ميلاً وهواية الى جمع طائفة من انصاب ومواكب النصر لينافس بها مآثر قيصر وامجاده، ولم يقنع بما دونه

فيها، وأن كان يفوقه فيما عداها. وظلّ متحرقاً ملهوفاً لا يجد طعماً للراحة حتى انتهت به الى اشنع هزيمة، وبالبلاد الى نكبةٍ عظيمة.

لما قصد قيصر [لوكّا Lucca] قادماً من بلاد الغال خرج عدد كبير من روما وذهبوا اليها ليكونوا في استقباله، وهناك عقد معه [پومپي وكراسوس] عدة اجتماعات، توصلوا بها الى قرار يقضي باستمرارهم في الخطوات التي رسموها لحصر جميع شؤون الحكم وأمور الدولة في ايديهم. واتفقوا فيما بينهم على ان يبقى قيصر على رأس جيشه وفي أقليمه. وأن يحصل كل من [كراسوس] و[پومپي] على قيادة جيش جديد وحاكمية أقليم من الاقاليم، ولم تكن امامهم لتحقيق بغيتهم هذه - إلاّ سبيل واحدة هي حصول الأخيرين على منصب القنصلية ثانية، عن طريق ترشيح نفسيهما للدورة القادمة، وان يقوم [قيصر] بالكتابة الى اصدقائه للسعي والدعوة لهما، ان ويرسل جنوده للاقتراع عليهما في موعد الانتخاب.

إلا أن الشك في نواياهما بدأ يتسرب الى النفوس على أثر عودتهما، وسرعان ما سرت الإشاعة القائلة أنّ اجتماع الزعماء الثلاثة في [لوكّا] ليس من ورائه ألاّ الشرّ. ونهض [مارچللينوس Marcellinus] و[دوميتيوس] في جلسةٍ لمجلس الشيوخ ليسألا [پومپي]

- هل في نيتك ان ترشح نفسك لمنصب القنصل.

فأجاب: قد افعل وقد لا أفعل.

فكررا عليه السؤال، فردّ قائلاً: اني سأطلب المنصب من المواطن الصالح لا الطالح.

فبدا بجوابه مفرطاً في التعالي والأنفة فضلاً عما فيه من التعريض الوقح. اما [كراسوس] فقد كان ردّه على السؤال نفسه فيه ادب وتواضع اذ قال:

- اني لراغب فيه، ان كانت رغبتي متفقة والصالح العام. فان لم تكن فأشهدوا اني ناكص عنه.

شجع هذا القول لفيفاً، فتقدموا لترشيح أنفسهم، ومنهم [دوميتيوس] نفسه حتى اذا اعلن كراسوس وپومپي ترشيحهما شاع الخوف في نفوس الآخرين وانسحبوا ولم يبق في الميدان غير [دوميتيوس] بتشجيع من [كاتو] الذي كان قريباً له وصديقاً. فلم يأل جهداً في تقوية عزائمه وحثه على الاستمرار في الدعوة لنفسه قائلاً:

- انك في ترشيحك، كمن يدافع عن حرية المواطنين، فهذان الرجلان لا ينشدان القنصلية لذاتها بل الحكم المطلق المتسترّ بها وما وراء هذه الوظيفة من اغتصابٍ للاقاليم والجيوش.

هذا ما كان [كاتو] يعتقده، ويتكلم به. وقد ارغم [دوميتيوس] بالشدة والزجر على الظهور في [الفوروم] فانحاز الى جانبه كثيرون والواقع هو ان الجمهور لم يكن بعيداً عما يجري من أحداث يراقبها ويرصد تطوراتها بدهشة وتتردد اسئلة كثيرة على السنته، كقولهم: «لماذا يسعى [كراسوس وپومپي] الى القنصلية مرة ثانية؟ لماذا رشحا نفسيهما لها معاً، ولم يرشح واحدٌ منهما مع ثالث؟ وها أن لدينا رجالاً مناسبين لتولي منصب القنصل المزامل لهذا المرشح أو ذاك!».

وانطلق اتباع [پومپي] بعد ان شعروا بما يجري، منها انهم ترصدوا [دوميتيوس] في أحدى الليالي وهو قادم الى الفورم مع اتباعه فادركوه عند تباشير الصبح وقتلوا حامل مشعله، واصابوا عدداً من اصحابه بجراح ومنهم [كاتو]، واوقعوا بهم ضرباً ودفعاً ومنعوهم من دخول الفورم، ثم ادخلوهم بيتاً من البيوت، وطوقوه برجال مسلحين، وأعلنوا [پومپي وكراسوس] قنصلين، وطردوا [كاتو] من الفورم، وفتكوا بواحدٍ حاول مقاومتهم.

بعد أن استتب لهما الأمر اصدرا مرسوماً يقضي بتثبيت [قيصر] في قيادته وتحديدها خمس سنوات أخرى. وعهدا لنفسيهما بأقليمي سورية واسپانيا وقيادة جيشيهما. وبسحب القرعة بينهما وقعت سورية [لكراسوس] واسپانيا [لپومپي] وهو ما أرضى الأطراف المعنية عموماً. فالجمهور كان يكره ابتعاد [پومپي] عن العاصمة وپومپي كان شديد الكلف بزوجه لا يطيق عنها بعدا، ولهذا كان سروره عظيماً لبقائه في روما. على أن [كراسوس] كاد يطير فرحاً بحسن حظه الذي عده أعظم توفيق في حياته، ولم تسعه الدنيا فرحاً، واستخفه الطرب وفارقه وقاره وكان يلزمه قدر كبير من العزم وضبط النفس ليحافظ على اتزانه امام الناس والاغراب. على انه كان يخلع العذار امام اصدقائه المقربين، فينطلق على رسله ويزل لسانه بكلام صبيانيّ عابث لا يليق بسنّه مناقض لطباعه وأخلاقه المأثورة، فقد عرف بزهده في الادعاء والفخر وكرهه الاختيال على الناس، وها هو الآن منتفخ يتهاً وقد صعدت حرارة النشوة الى رأسه بشكل غريب، لا يرى حداً يقف دونه حسن حظّه فيما سيفتح عليه من أمجادٍ وانتصارات في سورية وبلاد فارس، وسرح به خياله الى الحَدّ الذي جعله ينظر الى فتوحات [لوكوللوس] في بلاد [ديكران] وانتصارات [پومپي] على [ميثريدات] نظرته الى لعب أطفال نسبةً الى ما سيحققه هو. وطارت به الآمال لتعبر معه بلاد بختيريا Bactria والهند، حتى اقاصي البحر المحيط. لقد باتت رغبته هذه معلومة للجميع، وان لم يصدر مرسوم جمهوري باسناد ذلك المنصب اليه لغرض القيام بحملة على الپارثيين. وكتب اليه [قيصر] من بلاد الغال يشجعه ويثني على ما اعتزمه من حرب.

وحاول [آيتيوس Ateius] مفوض الشعب الحيلولة دون رحيله كما أبدى كثيرون مخاوفهم وقلقهم، وجأروا بالشكوى من رجلٍ واحدٍ يريد شنّ حربٍ على شعب صديق تربطه بالرومان خير العلاقات، لم يأت بأي عملٍ ضارٍ بمصالحهم، لمجرد رغبةٍ ساورته؛ وادرك [كراسوس] صعوبة خروجه من المدينة، فطلب من [پومپي] الوقوف الى جانبه ومرافقته في خروجه، ذلك لأن اسم زميله كان كبيراً عند العامة والبسطاء، فتهيّأ عدد كبير للتدخل، واثاروا ضجة وتظاهرة حتى اذا ظهر [پومپي] بطلعته الوضاحة وهو يبش ويهش هدأت سورة الجمهور واخلوا السبيل [لكراسوس]، إلاّ [ايتيوس] لحق به واستوقفه وطفق يحذره وينذره، ويناشده بحسن القول أن ينثني عن رحلته. ولما لم يجد منه استجابةً أمر الضابط مرافقه بالقاء القبض عليه وتوقيفه، إلاّ ان زملاءه التريبيونات لم يصادقوا على قراره، فأضطر الى اطلاق سراح سجينه [كراسوس]؛ وفي سورة من غضبه هرع الى باب المدينة قبل وصول [كراسوس]. وعمد الى مبخرةٍ فأوقد فيها جمراتٍ وضع عليها بخوراً وصبّ فوقها خمر تقدمة وراح يجمجم ويصبّ اللعنات الرهيبة والدعوات المخيفة ويدعو آلهة غريبة الأسماء مرعبتها ترى العقيدة الدينية الرومانية في هذه الطقوس القديمة قوة هائلة مدمرة لا يتخلص أحد من أثرها. ومن النادر ان سلم صاحب اللعان نفسه، أو هنيئ بحياته ولذلك لم تكن تستخدم إلاّ في المناسبات الخطيرة والأحوال النادرة. ولهذا هوجم [آفيوس] في حينها وانتقد للجوئه الى هذا الاجراء الخطر لأن المدينة التي اراد لها الخير به ستكون اول ضحيةٍ لهذه اللعنات ورد فعلها السيء الفائق للطبيعة.

وصل [كراسوس] مدينة [برنديسيوم]. ومع ان البحر كان في أقصى هياجه الاّ انه لم يطق صبراً ولم ينتظر وركب السفن المهيأة لجيشه وفقد عدداً كبيراً منها. ومرّ بكيليكيا حيث التقى بملكها [ديوتاررس Deiotarus] الذي لم تمنعه شيخوخته من الفانية من الانصراف الى بناء مدينة جديدة. فقال له [كراسوس] متندراً:

– لقد شرع جلالتك بالبناء في الساعة الثانية عشرة!

فأجابه [ديوتارورس]

– كذلك انت أيها الجنرال فأنت تقوم بحملتك البارثية وقد تقدم بك الزمن.

وكان [كراسوس] آنذاك، في الستين في عمره، إلاّ أن مظهره يدل على سنّ أكثر من الحقيقة.

وبدت له الأمور عند وصوله على أحسن ما يرام. ولم يجد اي عناء أو عقبة، فقد مَدّ على

نهر الفرات جسراً بدون صعوبة تذكر وعبر جيشه منه بسلام، واستسلمت له مدن كثيرة في بلاد ما بين النهرين بدون مقاومة، إلاّ مدينة واحدة كان يحكمها طاغية مستبد يدعى [ابوللونيوس] فقد لقي مائة من رجاله حتوفهم امامها فزحف عليها بقواته وفتحها عنوة ونهب ما فيها وباع سكانها في أسواق العبيد. وهذه المدينة يسميها الاغريق [زينودوثيا Zenodotia]، ولما سقطت في يد [كراسوس] سمح لجنوده بأن يحيوه بلقب «امبراطور»، وهذا ولد شعوراً بالخيبة المقبلة. فقد ترجم الجنود عمله، بعمل اليائس من تحقيقه مأثرة أجلّ منها وادعى الى الفخر، فعمد الى تضخيم نجاحه الصغير باضافة اللقب الذي يمنح للأبطال عادة، الى اسمه.

ووضع [كراسوس] في مدنه المفتوحة حاميات بلغ مجموعها سبعة آلاف من المشاة والفاً من الخيالة ثم كرّ راجعاً لقضاء شتائه في سوريا، منتظراً مقدم ابنه من لدن [قيصر] في بلاد الغال بما ناله من مكافآت واوسمة على شجاعته، مع الف من الفرسان الغاليين المنتخبين. ويبدو لنا هنا أن [كراسوس] ارتكب في رجوعه اول اخطائه وأكبرها - باستثناء خطأ قيامه بالحملة نفسها - اذ كان يجمل به الاستمرار في زحفه والاستيلاء على مدينتي بابل وسلوقية، اللتين كانتا في نزاع دائم مع البارثيين. فبدلاً من سبق عدوه اليهما، منحه وقتاً كافياً للاستعداد والتهيؤ له. هذا فضلاً عن قضائه جل وقته في سورية، بوظيفة المرابي والصرّاف لا بمنصب الجنرال. لم يكن مهتماً باحصاء ما لديه من سلاح، او بتدريب جنوده وتثقيفهم في فنون القتال وتعويدهم على النظام العسكري، بل في حساب اتاوات المدن وضرائبها مبدداً ايامه في وزنها بالقبان، وتدقيق محتويات كنوز معبد [هيرابوليس Hierapolis]. واصدار الأوامر الى بعض المدن والممالك بارسال عدد معين من المجندين، ثم الغاؤه اياها بعد دفع مبالغ من المال بدلاً نقدياً! وبهذا ضيع هيبته وفقد منزلته. وصادفه هنا أول نذير شؤم من لدن الربة التي يسميها بعضهم [فينُس]، وبعضهم [جونو] وبعضهم [الطبيعة] أو [المصدر] الذي تأتي منه الرطوبة وهي العنصر الأول في كل الأشياء، ونطفتها التي تمنح البشر معرفتهم الأولى بكل ما هو خيرّ وصالح... ففي اثناء خروج [كراسوس] وابنه من معبد هذه الربّة، عثر الأخير فسقط عليه ابوه.

وبينما كان [كراسوس] يريد الخروج بجيشه من مقراته الشتوية وفد عليه رسل من [ارشاك Arsaces] حاملين اليه الرسالة المقتضبة الآتية:

«إن كان هذا الجيش قد أرسل بارادة الرومان ورغبتهم، فإني سأثيرها حرباً شعواء لا تبقى ولاتذر. وان كان [كراسوس] على ما فهمت - يعزو تخومي دون علم بلاده وخلافاً لرغبتها

سعياً وراء الغنم الشخصي، فإني انا الملك سأكون أرحم به وأشفق على شيخوخته وخرفه، وسأعيد أولئك الجنود أسراه أكثر مما هم حراسٌ امناء له، الى اوطانهم سالمين».

فردّ [كراسوس] على الوفد بعجرفة قائلاً: إنه سيجيب عن هذه الرسالة في [سلوقيا]. فضحك [ڤاغسيس Vagises] أكبرهم سِناً وبسط راحة يده وقال:

- نموّ الشعر هنا أصعب من وقوع نظرك على [سلوقية].

وقفلوا راجعين الى ملكهم، فقال له [هيرودس Herodes]

إنها الحرب إذن!

وتمكن عدد من افراد الحاميات الرومانية في بلاد ما بين النهرين من الهروب معرضين أنفسهم لأعظم الأخطار. وكان المستخلص من أقوالهم إن الخطر يستدعي التأمل ولا يحتمل الاستهانة، واستشهدوا بما رأته أعينهم من كثرة عدد المحاربين عند العدو، ومن اساليب القتال التي يتبعونها. ولما كانت المبالغة في طبع الانسان فقد هوّلوا الأمر وجعلوا الأشياء تبدو على غير حقيقتها. فقالوا لا يخلص من يدهم هاربٌ إن كانوا هم الطاردين، ولا يدركهم مطارد انه كانوا هم الهاربين. وذكروا شكلاً عجيباً من الحراب يستخدمونه سريع المروق مثل لمح البصر، ينفذ في اي شيءٍ قبل أن يشاهد قاذفه. ودروعهم قوية يرتد عنها كل سلاح. فخارت عزائم الجنود كافةً. وكانوا قبلها يظنون أن الپارثيين في مستوى الأرمن والكبدوكيين الذين ادرك [لوكوللوس] الملل من غنائمهم واسلابهم حتى بات مقتنعاً ان الصعوبة الوحيدة في حربهم هي مشقه السيّر وراءهم، ومتاعب مطاردة رجال يجبنون عن مقابلته في قتال وجهاً لوجهٍ، ولذلك لم يدخل جنود [كراسوس] في حسابهم اي معركةٍ ينازلون بها عدوهم الجديد، فكانت خيبتهم مما سمعوا كبيرةً. وعلى ضوء هذه المعلومات نصح بعض الضباط أن يقف [كراسوس] زحفه في الوقت الحاضر وان يعاد النظر في أمر الحملة أساساً.

وكان أكثر من ألحّ عليهم منهم [كاسيوس] الكويستور. وأسرّ اليه العرافون ايضاً بأنهم ما فتئوا يجدون في الاضاحي اشارات لا تبشر بخير، وعلاقات سيئة. فلم يعرهم اذناً صاغية ولم يلتفت الى ناصحيه الآخرين، إلاّ من أشار عليه بالتقدم. ولم يوافقه الملك الأرمني [ارطباز] والّح عليه بأن لا يقوم بغزو الپارثيين من جهة الفرات، بل عن طريق بلاده ارمينيا اذ انه سيؤمن له قدر ما يحتاج جنوده من ارزاق ومؤن، على حسابه الخاص. وسيكون زحفه فضلاً عن ذلك مأموناً في جبال ارمينيا وهضابها التي لا تتمكن خيالة العدوّ من النفوذ فيها والخيالة عند الپارثيين هي كل قوتهم. فشكره [كراسوس] ببرود على كل ما اظهره من

استعداد للبذل والخدمة وانهى اليه بقراره النهائي في الزحف من جهة بلاد «ما بين النهرين»، لأنه ترك فيها حاميات كبيرة من جنود روما الشجعان. فقفل الملك الأرمني راجعاً. وكان قد جاء لمعونة [كراسوس] ومعه ستة آلاف من الخياله، قيل انها حرسه الخاص وحاشيته. وكان قد وعد بعشرة آلاف فارس أخرى وثلاثين ألف راجل يقوم هو باعاشتهم.

وفيما كان [كراسوس] يشرف على عبور جيشه النهر بالقرب من [زويخمه Zeugma] تجاوبت السماء بصدى رعدٍ قاصف ولمع البرق في وجوه الجنود، وفي اثناء العاصفة هبّ إعصار شديد فوق الجسر فكسره وحُمل قسم منه مع تيار وسقطت صاعقتان على الموقع الذي اختاره معسكراً لجنوده. وجمح أحد خيوله ذات العدة الفاخرة وجرّ سائسه الى الماء واغرقه. كذلك قيل أن حامل اللواء الأول ذهب ليرفعه، فخيل له أن نسره يدير رأسه الى الخلف. وبعد ان تمّ عبور الجسر وزعت الجراية على الجنود وبدئ بالملح والعدس وهما عند الرومان الطعام الذي يقدم للموتى وفي الجنائز. وفيما كان [كراسوس] يخطب بالجنود زل لسانه بعبارة تشاءم منها الجميع، فقد قال:

– سأذهب لاكسر الجسر حتى لا يرجع أحدٌ منكم.

ولم يستدرك زلة لسانه بعد أن أحسّ بها ولم يصححها أو يشرح قصده منها عناداً ومكابرة منه ليس إلاّ في حين كان يرى علائم التوجس والبغتة مرتسمة على وجوه رجاله الشديدي التطيّر. وفي آخر قربان عام، قدم له الكاهن أحشاء الضحية فانزلقت من يده، ورأى القلق والوجوم يرتسمان على وجوه الواقفين معه فضحك وقال:

– انظروا! ما معنى أن يُمسي المرء شيخاً عجوزاً. على اني سأشدّ على سيفي قبضة محكمة.

وسار بجيشه رتلاً على محاذاة النهر وكان يتألف من سبع فرق مشاةٍ، وما في حدود اربعة آلاف فارس ومثله من المشاة الخفيفة. وعاد اليه الكشافة من استطلاعهم ليخبروه بأنهم لم يشاهدوا أنسيّاً، على أنهم تبينوا آثار اقدام خيل كثيرة عائدة القهقرى بعجلةٍ شديدة. فأنتعشت نفس [كراسوس] بالآمال العراض، وانقلب الرومان الى الاستهانة بالپارثيين، وعادوا يصنفونهم مع من لا يجرأون على الاشتباك يداً بيدٍ. إلا أن [كاسيوس] فاتحه بالموضوع مجدداً، ونصحه باراحة الجيش في أحدى المدن المحصنة والبقاء فيها حتى تتوفر لديهم معلومات حقيقية كافية عن العدو. وإلاّ فليتوجه بخيله ورجله الى [سلوقيه] على الأقل ولا يحيد عن خطّ النهر مهما كلفه الأمر لأن فيه استمرار تموينهم عن طريق الاطواف والقوارب التي ستتبع الجيش دائماً، فضلاً عن انه يجعلهم بمنجاة من التطويق، فإن خاضوا

قتالاً مع العدوّ فلا شك في أن مواقعهم لن تكون أسؤ من مواقعه.

وفيما كان [كراسوس] يفكر في الأمر ويقلبه من شتى وجوهه من غير ان يُرسي على قرارٍ نهائي، أقبل على معسكره شيخ قبيلة من العرب البدو يدعى [أريامنوس Ariaminus]، رجل ماكرٌ عظيم الحيلة، هو من بين المصائب التي اجتمعت لدمار الرومان، أعظمها وافتكها. عرف بعض جنود [پومپي] القدماء عرف هذا الشيخ القبلي وتذكروا انه حظي ببعض عطف من قائدهم، فأعتبروه من اصدقاء الرومان. إلاّ انه في الحقيقة كان عميلاً لقواد الملك وصنيعةً ارسلوها الى [كراسوس] لحرفه عن خطّ النهر. والتلال على قدر الامكان وتوجيهه الى السهل المنبسط الواسع ليتمكنوا في الإحاطة به، اذ كانوا لا يكرهون شيئاً قدر ما يكرهون اضطرارهم مقابلة الرومان وجهاً لوجه.

جاء الشيخ العربي [كراسوس] وطفق بلسانه الطليّ المقنع يمتدح [پومپي] ويثني عليه، ويشيد بعطفه عليه واحسانه. مبدياً اعجابه بقوات [كراسوس] ولكنه تظاهر بالعجب من تلكؤه، وافراطه في الاستعداد والحذر، كأنه لا يريد استخدام مشاته – في مقدمة الاصناف الأخرى – ضدّ رجال كانوا قد قرروا منذ زمن النزوح من بلادهم الى بلاد الصقالبة والهيركيين فراراً منه، ومهم أغلى مقتناهم ومواشيهم وختم قوله بما يلي:

– فان كان القتال ما تروم، فعليك أن تستعجل الأمر قبل أن يستعيد الملك ثقته بنفسه ويحشد قواته. وانت ترى الآن [سورينا Surena] و[سيللاك Sillaces] امامك، يريدان ان يصرفا نظرك عن الملك ويشغلاك بمطاردتهما ليكون سيدهما في مأمن منك.

ولم يكن في أقواله هذه شيء من الصدق، لأن [هيرودس] كان قد قسم جيشه الى قسمين، أحدهما قادة بنفسه الى ارمينيا واجتاحها منتقماً لنفسه من [ارطافازديس Artavasdes]. وأرسل القسم الثاني بقيادة [سورينا] لمواجهة خطر الرومان الذي لم يكن في الحقيقة موضع استهانة من الملك على ما زعم بعضهم. فلا وجه لاي احتمال في أنه كان يستصغر شأن [كراسوس] أحد أعاظم الرومان في عصره، فيتركه [السوريون] ويتوجه لقتال ملك ارمينيا وغزوه بلاده. بل على أغلب الاحتمالات، إنه كان مدرباً جسامة الخطر الروماني ولذلك كان قصده أن يتربص بالاحداث ويجس نبضها، فرأى ان يكون [سورين] أوّل بحسيّ لعدن العدوّ وأوّل متعرض لمخاطر معركة معه، ومحاولة جرّه الى الداخل. و[سورين] هذا لم يكن رجلاً عادياً لا يؤبه به، فهو ثاني رجل في المملكة اي بعد الملك في الثروة والأصل والشهرة؛ أمّا في الشجاعة والاقدام فهو الاوّل وأمّا في الصورة وحسن القدّ فماله قرين. كان قطار رحلاته يتألف من الف جمل تحمل امتعته واثقاله، ومائتي عجلة تركب بها محظياته، والف رجل في

كامل عدتهم وسلاحهم بمثابة حرس شخصي له، واضعافهم من ذوي الأسلحة الخفيفة. وكان فرسانه وراكبو الخيل من خدم وحاشية واتباع يبلغون عشرة آلاف. اختصت اسرته منذ زمن بعيد بشرف وضع افرادها التاج على رأس الملك عند تنصيبه. وكان الشخص الذي عاد بالملك (الحالي من منفاه بعد طرده. وهو الذي استولى على [سلوقيا] المدينة العظيمة وكان أول من تسلق السّور وردّ المدافعين الى الخلف بيديه ومع انه كان في حدود الثلاثين من العمر يومئذ، فقد أشتهر بالذكاء ورجاحة العقل وبهاتين المزيتين فقط هزم [كراسوس] الذي وقع فريسةً سهلة لمكره بسبب ثقته الساذجة العمياء اولاً، ولتوالي الرزايا والنكبات عليه ثانياً.

وحاز الشيخ العربي ثقة [كراسوس] فآمن بكذبه وأبعده عن النهر وأدخله السهل الوسيع المترامي الذي كان أوّل الأمر متطامناً طيب السيرّ، ثم أصبح متعباً لعمق رماله وخلوه من الشجر والماء وسعته التي لا يحدّها بصرٌ، ولم يكن العطش وصعوبة السير العاملان الوحيدان في انهاك قواهم، فقد اصطلحت عليهم الكآبة والوجوم لرتابة منظر الصحراء فلا غصن صغير هناك ولا مجرى ماء او كثيب أو عُشب أخضر وانما بحر خضم من الرمال يكتنفهم بامواجه المتلاطمة. واخذ الشك في الخيانة يساورهم، وبعدها وردت الرسل من [ارطاڤازديس] لتنبئه بأن [هيرودس] غزا بلاده وشنّ عليه هجوماً عنيفاً، ولهذا فهو يعتذر عن ارسال اية نجدة، وانه ينصح [كراسوس] والحالة هذه، بأن يبدل خطّ سيره ويتجه الى ارمينيا لتوحيد قواتهما وانزال ضربة مزدوجة [بهيرودوس] وان لم يشأ ذلك فليعسكر في موضع منيع يتعذر على الخيالة ارتياده، ولا يحيد قطّ عن منطقة الجبال. وثار غضب [كراسوس] منه حتى انه لم يكتب له رداً وانما قال لرسله: انه في الوقت الحاضر لا يجد متسعاً للتفكير في أمر قومهم الأرمن، على أنه سيأتيهم في وقت آخر وينتقم لنفسه من غدر ملكهم. وارتفعت اصوات [كاسيوس] وصحبه بالشكوى من الحالة ثانيةً. ثم سكتوا على مضض بعد ان لاحظوا ان شكواهم تغيظ [كراسوس] فحسب ولا تجدي فيه. ألاّ انهم كانوا يسلقون العربيّ بالسنة حادة في السرِّ، فيقولون:

- أي شيطان خبيث جاء بك الى معسكرنا يا أسوء الرجال نقيبة؟ واي سحر استخدمت مع [كراسوس] أو جرعة جرعته لتقوده الى صحراء قفر واسعة، وتضعه في مفازات ومسالك هي أصلح لرئيس عصابة لصوص من الأعراب، مما هي لجنرال عسكر روماني؟

أمّا العربي فقد أخذ يستخدم حيلته في حث الجنود وتشجيعهم على الصبر والتحمل قليلاً بلهجة رقيقة لينة، وظلّ لهم مازحاً:

- ماذا دهاكم؟ واين تظنون أنفسكم؟ هذه ليست [كامپانيا] حيث تجدون في كل خطوة

تخطوها الينابيع واوراق الشجر والحمامات، والحانات، وبيوت اللذة. ألا فأعلموا انكم تسيرون الآن في تخوم آشور وجزيرة العرب.

فهدّاهم وسرّى عنهم كما يُسرى عن الأطفال، وارتحل عن المعسكر قبيل افتضاح أمره، بعلم من [كراسوس] الذي رخصه بذلك عندما أقنعه بالذهاب للاحتيال على العدوّ بحيلة تسلمه الى الفوضى واضطراب الأحوال.

وروي ان [كراسوس] خرج من خيمته صباح ذلك اليوم وعليه رداء أسود، لا الرداء الارجواني الذي يرتديه قادة الرومان عادةً، وما ان انتبه الى الخطأ حتى أسرع الى استبداله. ولقي حاملو الألوية مشقة كبيرة في رفع النسور عن ركائزها، حتى بدت وكأنها ملتحمة بها فضحك [كراسوس] واحتث سيرهم. مجبراً مشاته على تعقيب الخيالة خطوة خطوة. وعادت فئة قليلة من الكشافة لتخبره بأنهم الناجون فقط من ايدي العدو الذي أقترب منهم كثيراً بجميع قواته وكله عزم على خوض معركة معهم. فضجّ الرومان بالصياح، وعلت البغتة [كراسوس]، وأسقط في يديه عندما بدء بتنظيم صفوف جيشه كما يجب بسبب العجلة. أخذ أولاً بنصح [كاسيوس] ففتح خطوطه الى اقصاها لتشغل أوسع مساحة ممكنة لكيلا يتعرضوا للتطويق، ووزع الخيالة على الاجنحة. إلاّ أنه غير رأيه فيما بعد ونظم جيشه في مربع واقام على كل ضلع جبهة صدامٍ واحدتها تتألف من أثني عشر فوجاً، وخصص لكل منها كتائب خيالة ووضعها بشكل لا تحرم منها اية جبهة محتاجة، ولتكون على اتم الاستعداد للنجدة في اي موضع يتطلبها. واوكل لكاسيوس قيادة جناحٍ، وولى ابنه قيادة الجناح الآخر، وأحتفظ هو بالقلب، وعلى هذا النظام سار الجيش حتى بلغ نهيراً يدعى [باليسوس Balisus] لا أهمية له بذاته إلاّ انه كان كالرحمة الهابطة على الجنود بعد أن عانوا ما عانوا من القيظ والعطش طوال مسيرتهم. واجمع رأي كل امراء الوحدات على القضاء الليلة هناك لجمع المعلومات قدر الامكان عن جيش العدوّ وتكوين فكرة عن عدده وتشكيلاته وتنظيمه، حتى اذا بدت تباشير الصبح زحفوا عليه. فلم يوافق [كراسوس] متأثراً باندفاع ولده، وتحمست الخيالة التي ترافقه فقد أشتد الحاحهم عليه بالسير بهم للقتال قائلين أنهم عقدوا العزم على القتال حتى وان لجاؤا الى تناول طعامهم وشرابهم في اثناء المعركة وقوفاً. فأندفع الى الأمام ولم يعسكر، ولم يقم باتخاذ الاجراءات التعبوية وفق الأصول. وتأمين احتياطات السلامة كما يجب، وكان سيره اهطاعاً، ليس نيته وقفات استراحة، حتى بدا وكأنه لا يذهب الى معركة بل يستعجل في الابتعاد عنها. ولم يكن منظر قوات العدو عندما بدا لهم، بالمهيب المخيف لا عدداً ولا عُدة اي ليس كما توقعوا؛ والواقع ان [سورين] تعمّد اخفاء قواته الرئيسة وراء الحظّ الأول من

مقاتليه، وأمرهم بتغطية دروعهم البراقة بكسوات جلدية. ولما تقدم الرومان وأعطى [كراسوس] اشارة الهجوم، أهتز الميدان بهدير صوت مُرعب وهتافٍ هائل، فالپارثيون يحمسون القطعات المهاجمة بقرعات الدُهل الراعدة اذ يرنّ صداها من مختلف الاماكن دفعة واحدةً. هذا النوع من الطبول يصدر صوتاً مهلكاً اشبه بزئير الوحوش المختلط بهزيم الرعد، وهم لا يستخدمون الأبواق والنايات. ولا شكَّ في أنهم لاحظوا في الواقع ان حاسة السمع في الانسان هي التي تؤدي الى أحداث أكثر الاضطراب والفزع دون سائر الحواس الأخرى، وان المشاعر التي تثيرها هذه الحاسة، هي أقوى المشاعر واسرعها في التغلب على العقل واضاعة الرشد.

بعد أن زرع الپارثيون بضجيجهم الرعب الكافي في قلوب الرومان، رفعوا الأغطية عن دروعهم فبدت تسطع وتلمع كالبرق فوق صدورهم وفي خوذهم المصنوعة من الفولاذ المارجيني Margian الصقيل وخيولهم ذات الاحزمة النحاسية والفولاذية. وبدأ [سورين] أهيب وأجمل من كل رجالهم، إلاّ أن نعومة نظراته، ونسويّة ثيابه لم تكن تدل على رجولة تتفق مع شهرته، والمركز الذي يحتله في جيشه. فقد كان وجهه مصبوغاً مجملاً، وشعره مفروق الناصية على الطريقة الميديّة، في حين بدا مظهر المقاتلين الپارثيين، أكثر رهبة بشعورهم الكثة المجدولة في كتلة واحدةٍ مكورةً فوق جباهم على الطريقة الصقلبية.

كانت خطة الپارثيين هي ان يدفعوا برماحهم المشرعة صفوف الرومان الاولى نحو الخلف. إلا انهم بعد ان تبينوا عُقم محاولتهم لعمق الجبهة الرومانية وثبات الجنود الشديد، أنسحبوا عنهم وتراجعوا متظاهرين بالفوضى وتشتيت الشمل ليطمعوا فيهم اعداءهم فيلاحقوهم، وهكذا كان فقد كروا عليهم راجعين وطوقوا المربّع الروماني قبل أن ينتبهوا الى الحركة، فما وسع [كراسوس] إلاّ ان يأمر مشاته الخفيفة بالصولة على الپارثيين. ولم يبتعدوا كثيراً إلاّ وجوبهوا برشقات شديدة من النبال سقطت عليهم كالمطر الوابل فسارعوا بالتراجع مستترين بالمشاة الثقيلة ومختلطين بهم فكانت أولى ظواهر الخلل والفزع في صفوف الرومان. وأدركوا عندما خبروا قوة سهام الپارثيين ومتانتها اذ كانت تخرق دروعهم وتمرّ من كل انواع التروس صلبها وليِّنها. واتخذ الپارثيون مواقعهم على مسافة من الرومان وراحوا يفوّقون سهامهم من كل الجهات لا يقصدون هدفاً ولا يركزون في نقطة لأن الأسلوب المنظمّ الذي يلجأ اليه الرومان في هذه المعركة جعلهم كتلة وهدفاً كبيراً لا يطيش المقذوف عليهم ولا يقع في الأرض. وكان العدو يرسل السهام من قسيٍّ شديدة العود قوية الشدّ فتندفع كالبرق وادرك الرومان وضعهم السيء من البداية، فإن هم ظلوا يتبعون الأسلوب المنظم فسيقع منهم جرحى كثيرون. وان هم حاولوا

الهجوم فإن ما سيصيبون به عدوّهم لن يزيد عمّا سيصيبهم، ولن تقلّ خسائرهم عن الأول لأن البارثيين لا يتوقفون عن قذف رماحهم حتى اثناء فرارهم. وهو فن في القتال برعوا فيه وليس من يفوقهم به من الشعوب غير الصقالبة. والواقع أنها عملية ذكيّة منهم: يجتنبون عار الفرار، ويعملون لانقاذ أنفسهم في الوقت نفسه.

وكان كل ما يريح الرومان هو أملهم بأن يلجأ عدوّهم بعد استنفاد ما لديه من نبال - إمّا الى أخلاء الميدان والانسحاب وإمّا ام يكروا عليهم. وخاب فألهم عندما رأوا جمالاً كثيرة مثقلة باحمال النبال يتزودون منها كلما فرغ ما لديهم، فينسحب خطّ للتمون ليحتل خطّ آخر مكانه وهكذا، حتى خيل لكراسوس ان القتال سيدوم الى مالا نهاية فوهت عزائمه. وارسل يأمر ابنه بأن يحمل عليهم قبل أن يكملوا عمـ ـة التطويق، لأن أكثر تقدم العدوّ كان من ناحيته. وكل الدلائل تشير الى ان خيالته تحاول الالتفاف على المؤخرة. فبرز الفتى بألف وثلاثمائة فارس، الفٌ منها كانت بعثة قيصر، وخمسمائة من القواسين تسند ثمانية افواج من المشاة مسلحة تسليحاً كاملاً الى جانب منه. وكرّ بهذه القوة على البارثيين، فداروا على أعقابهم وولوا هاربين، ولا يعرف أكان فرارهم لوجودهم في بقعة موحلة على زعم بعضهم، أم لأنهم ارادوا استدراج [كراسوس] الأبن الى أبعد مسافة ممكنة عن أبيه. وعندها صاح قائلاً: أنهم غير قادرين على الصمود! ثم جَدّ في تعقيبهم مع [سنصورينوس Sensorinus] و[ميگاباخوس Megabachus] وكلاهما من العسكريين المعدودين. أولهما في شجاعته واقدامه، وثانيهما في انحداره من أسرة مشيخية عريقة، ولامتيازه بالخطابة. وهما صديقان [لكراسوس] وفي مثل سنّه تقريباً. واندفعت الخيالة الى الأمام وتأخرت عنها المشاة قليلاً والكل منتعش بالأمل والاستبشار، فقد عدوا أنفسهم منتصرين، وانهم يطاردون الآن العدوّ، فقد دار عليهم الهاربون يساندهم وحدات جديدة كثيرة العدد لم تواجههم من قبل. فتوقفوا، ولم يعد لديهم ادنى شكّ في أن العدوّ سيكرّ عليهم مستهيناً بقتلهم. وخاب فألهم عندما وضع العدوّ رماحته بمواجهة الرومان في جبهة، وأطلق البقية الأعنّة لخيولهم تروح وتغدو في ساحة المعركة عدواً فتثير التراب حتى ارتفع الغبار الكثيف وأعجز الرومان عن الرؤية والتحدث وتزاحم بعضهم على بعضٍ في كتلة بشرية وقع عليها العدو طعناً وقتلاً. ولم يكن موتهم سريعاً سهلاً، وانما رافقته آلام فظيعة وتشنجات مريرة.

فقد كانت الرماح المغروزة في أجسامهم تجعلهم يتلوون عذاباً فيكسرونها في فتحة الجرح ثم يحاولون نزعها تتشتبك اسنتها المنشعبة بالعروق والأعصاب فتمزق أحشاءهم تمزيقاً وتجرعهم غصصاً من الآلام لا طاقة للبشر بها. وقد مات كثير منهم على هذه الصورة الشنعاء، وأما

من عاش بعدها فقد أصبح عاجزاً طول حياته. ولما حثهم [پوبليوس كراسوس] على مهاجمة الرمّاحة، رفعوا له ايديهم وهي مدقوقةٌ بمسامير في تروسهم، وكشفوا عن اقدامهم وهي مثبتة في باطن الأرض فعلوا ذلك حتى لا يستطيعوا فراراً ولا تقدماً، فما كان منه إلاَّ وكَرَّ على العدوّ بخيالته كرة جريئة بلغت به الى مسافة قريبة منهم. ولم يكن عددهم كافياً لا للدفاع ولا للهجوم ولم يكونوا يستطيعون شيئاً بحرابهم الصغيرة ازاء تروس مصنوعة من الحديد والجلد الغليظ غير المدبوغ. وكانت اجسام خيالته الغالية بكسوتها الخفيفة مكشوفة تماماً لأسنة العدوّ الماضية المتينة، وأكبر اعتماده عليهم والحق يقال انهم يخيبوا ظنه فقد زتوا بالعجب العجاب وحققوا المعجز من البطولات. كانوا يقبضون على الرماح المقنطرة المسدّدة الى صدورهم ويضطرعون عليها اصحابها حتى يقلعوهم قلعاً عن سروجهم ويسقطوهم فلا يستطيعون حركة أو قياماً لثقل دروعهم. وأحياناً كانوا يترجلون عن خيولهم ويزحفون حتى يصبحوا تحت خيول العدو فيبقروا بطونها فيهيجاً الألم وتقذف براكبيها وتدوس اصحابها واعداءها بسنابكها دون تفريق. وكان أشدّ ما يعذب هؤلاء الغاليين القيظ والجفاف، لأن أجسامهم غير متعودة عليهما. ونفقت معظم خيولهم لوثوبها على الرماح المشرعة حتى ارغموا على الارتداد بقائدهم [پوبليوس] وهو مصاب بجرح بليغ، وأمتزجوا بصفوف المشاة. ووقعت عينهم على كثيب رمليّ فسعوا اليه وأحتلوه وشدّوا خيولهم بعضها الى بعضٍ ووضعوها في الوسط ثم عملوا من تروسهم جداراً متوهمين ان ذلك قد يقيهم صولة البرابرة بعض الشيء، فكانوا في ظنهم مخطئين. في السهل، كانت جبهة خطوطهم تحمي الى حدٍ ما، أولئك الذين هم في المؤخرة، اما الآن وهم فوق الكثيب فقد آضوا مكشوفين تماماً لأن تحدّر الأرض جعل أحدهم بعلو الآخر بلا سترٍ ولا وقاءٍ، فلم يعد لديهم من حيلة إلاَّ ان يندبوا مصيرهم التاعس، وينعوا ميتتهم التي لا فائدة منها وكان يصحب [پوبليوس] اغريقيان من سكنه مدينة [حرّان Carrhæ] القريبة. هما [نيقوماخوس وهيرنيموس]، فألحّا عليه بالانسحاب والاحتماء في [إخني Ichnæ] وهي بلدة أهلها اصدقاء للرومان لا تبعد عنهم كثيراً، فأجابها بقوله:

- ليس من ميتة أفظع من الموت خوفاً من ترك [پوبليوس] اصدقاءه الذين يموتون لأجله.

وطلب منهما ان يهتما بنجاتهما، وعانقهما وصرفهما عنه. وكانت ذراعه عاجزة لإصابتها بطعنة رمحٍ، ففتح جنبه لحامل سلاحه وأمره بأن يطعنه طعنةً نجلاء. وقيل أن [سنسورينوس] لحق بع على هذه الصورة، اما [ميگاباخوس] فقد نجع نفسه، كما فعل كذلك كل رجل ذي شأنٍ منهم.

وحمل البارثيون على من تبقى بالأسنة المشرعة فقضوا عليهم في ملحمةٍ مريعة، ولم يزد ما أخذوا من الأسرى عن خمسمائة. واحتزوا رأس [پوبليوس] وركبوا به متجهين الى معسكر [كراسوس].

في امكاننا أجمال موقف [كراسوس] يومذاك بما يلي:

بعد أن أمر ابنه بالصولة على العدوّ بفترةٍ، ورده نبأ هزيمة العدوّ من ميدانالقتال، وان المطاردة ابعدت الشقة ما بينه وبين ابنه. ثم لاحظ تم ضغط العدو عليه خفّ كثيراً ولم يعد كما كان، (ولا عجب فقد تحول القسم الأكبر منه الى [پوبليوس] للانقضاض عليه من حيث لا يحتسب) فتنفس [كراسوس] الصعداء وعادت اليه روحه وانتعشت آماله قليلاً، وعمل على نقل مواقع جيشه الى أرض فيها انحدار بسيط ينتظر عودة ابنه من الطراد. ما أن أحسّ [پوبليوس] بالخطر حتى أخذ يتابع ارسال السعاة الى ابيه، أولهم أعترض العدو سبيله وفتك به. أمّا الأخير الذي خلص منهم بمعجزة، فقد جاءه بنبأ نهاية [پوبليوس]. إن لم يُنجد بسرعةٍ. فأظلمت الدنيا في وجهه، واطار الألم رشده ولم يعد يدري اي سبيل يسلك مَرّةً يغلبه الخوف على الجيش كله، ومرّة تدفعه الرغبة الى معونة ابنه؛ وأخيراً قرر التحرك اليه وفي تلك اللحظة بدت طلائع العدوّ بعجيجها وضجيجها الذي فاق ما بدر منها قبلاً، وبهدير طبولها يقرع آذان الرومان فيصكتها صكاً ويطير صوابهم، وقد باتوا وهم في خوف من هجوم جديد. اما أولئك الذين جاؤا برأس [پوبليوس] فقد رفعوه على سنان رمح وأقتربوا به من مواقع الرومان الى مسافة تستمح لهم باستقراء ملامحه، ثم أنهم راحوا يتساءلون هازئين: عن مكان ابويه؛ ومن هي اسرته، اذ يستحيل أن يكون محارب شجاع باسل مثل، ابنا لجبان رعديد مثل [كراسوس]. وروع الرومان هذا المشهد، أكثر من أي شيء، ولم يثر غضبهم ونقتمهم كما هو متوقع، بل اشاع فيهم الهلع، لكن قيل ان [كراسوس] كان جلداً متمالك النفس امام مصيبته بشكل أثار الدهشة، فقد سار بين صفوف الجند وهو يصيح بهم:

- تلك يا بني قومي مصيبتي لا مصيبة احد غيري، أما حظوظ روما وامجادها فستبقى سالمة غير ملوثة ما دمتم في سلاموإن وجد بينكم من آلمته فجيعتي بفقد خير ابنائي، فليظهر مدى ألمه بالثأر له من العدوّ. هيّا فانتزعوا منهم فرحتهم، وانتقموا من قسوتهم ولا تأسفوا على ما فات فمن يغامر في شرف مروم وأمر عظيم لابدّ أن يكابد ويعاني. ان [لوكوللوس] لم يهزم خصمه إلاّ بعد أن سألت الدماء انهاراً.

وهذا [سكيپيو] لم يغلب عدوه [انطيوخوس] إلاّ كذلك! أجدادنا خسروا ألف سفينة على سواحل صقلية ولا اذكر عدد من فقدوه من القادة ورؤوساء العسكر في بَرّ ايطاليا، وكل هذه

الخسائر لم تحل دون طردهم غزاتهم واجلائهم عن ديارهم. ورروما لم تبلغ عظمتها هذه، بمخالفة الحظّ فحسب بل بالجدّ والمثابرة والعزيمة وقت الخطر».

ولم يجد [كراسوس] من جنوده منتبها الى خطبته الحماسية إلاّ القليل فقد كان معظمهم ساهماً واجما. وعندما أمرهم باطلاق صيحة الحرب فاخرجوها ضعيفة مرتجفة لم يبق لديه شكّ في القنوط المستولي عليهم. وكانت صيحة العدوّ قوية ثابتةً. ولمّا جَدّ الجدّ بدأ الاحتياطي والمستجدّ والمراسلة في جيش البارثيين يفوقون سهامهم على الرومان وخيولهم تجري بهم طوالاً وعرضاً. أما فرسان الخطوط المتقدمة فقد أخذوا يدفعونهم بالأسنة من كل جهة ليحصروهم في بقعة ضيقة وليجعلوهم كتلة متراحمة. ودفع بعض الرومان الخوف من الموت بسهام البارثيين الى الهجوم عليهم فلم يحققوا ما يستحق ذكره لهم، وانما قضي عليهم في الحال، لأن الرمح البارثي المتين الغليظ يفتح جراحاً واسعة يتعذر علاجها وكثيراً ما تخترق الطعنة جسدين.

ادرك الليل المتحاربين وهما في قتال دمويّ مرير، ففرقهما. وراح البارثيون يتنادون متفاخرين بانهم سيتكرمون على كراسوس بليلة واحدة ليبكي فيها أبنه ويلبس الحداد عليه، إلاّ اذا اهداه عقله الى حَلٍّ أفضل، وهو أن يتوجه الى [ارشاك] بقدميه، لا أن يقاد اليه قوداً. الى هذا الحَدّ بلغت نشوة النصر بالبارثيين القريبين منهم. أما هم فقد مرت عليهم ليلة من أشقى الليلات. وبلغ بهم القنوط حداً لم يهتموا معه بدفن موتاهم ولا بمعالجة جراحهم، ولابأنين محتضريهم. وراح كل فرد منهم يندب سوء حظه، وبؤس مصيره. ولم يكن خلاصهم سهلاً بانتظارهم الصبح، لأن الجرحى سيحولون دون الشيء الثاني. إن أخذوهم فسيكون انسحابهم بطيئاً يسهل للعدو تعقيبهم وادراكهم، وإن تركوهم فستنبه صيحات استغاثتهم وتوسلاتهم العدوّ؛ على ان رغبة الجميع كانت متفقة على مقابلة [كراسوس] وسماع رأيه، وان شعروا بأنه علة كل ما أصابهم. فما كان منه إلاّ ولفّ عباءته حول جسمه وتوارى مخيفاً نفسه عنهم؛ مثل لتقلبات الحظّ بالنسبة للرجل العادي، وللطموح والتهوّر عند العاقل المفكرّ، فهذا الرجل لم يقنعه أن يكون فوق الملايين، وانمّا ساءه أن يكون أدنى مركزاً من شخصين فقط، فهبط الى أسفل السافلين واصبح فهو أدنى الجميع.

وجاءه كلّ من [اوكتافيوس] ضابط ركنه، و[كاسيوس] الكويستور لتعزيته، ولما وجدوه مشتت العقل شارد الذهن لا تجديه موآساة قاما بجمع التريبيونات والنقباء (قادة المائة) للمداولة في الموقف. واستقر رأي الجميع على ان الانسحاب هو خير ما يمكن عمله. فصدرت الاوامر بالتهيؤ للرحيل ولم ينفخ في البوق حرصاً على الكتمان. وتم الاستعداد في مبدأ الأمر بكلّ سكون، ولما ادرك الجرحى انهم سيبقون ضربت الفوضى اطنابها وساد الهرج والمرج وعلا

الصياح والندب في كل المعسكر، فأستولى الفزع والخوف على المنسحبين حتى لكان العدوّ في أعقابهم، مما الجا،هم الى تغيير اتجاه سيرهم بين آن وآخر أو التوقف بانتظام، ثم اجراء تعديل عليها أو الاخلال بها. أحياناً يحملون الجرحى الذين لحقوا بهم، وأحياناً يلقونهم، ويبتعدون عنهم فضاع منهم وقت كثير. على أن [اغناطيوس Egnatius] أنفصل عم الرتل بثلاثمائة فارس وانطلق نحو مدينة [حران] فوصلها دون حادث في منتصف الليل ووقف تحت السور ونادى الحرس باللغة اللاتينية وما أن سمعوه حتى طلب منهم أن يبلغوا حاكمهم [كوپونيوس Coponius] بأن [كراسوس] خاض معركة عظيمة جداً مع البارثيين وبختام عبارته الوى عنان جواده وأنطلق وكتيبته باقصى سرعة نحو [زويخمة] دون أن يصرح باسمه. وبهذا أنقذ نفسه وانقذ رجاله، لكنه خسر اسمه وسمعته لتخليه عن قائده. على كلٍ، كانت رسالته لكوپونيوس ذات فائدة [لكراسوس] فقد أحدثت عجلتها واضطراب ناقلها شكاً في نفسه وتحسس ان الأمور ليست على ما يرام فأصدر أمراً انذارياً للحامية وطلب منهم احتقاب سلاحهم. وما ان أبلغ بمقدم كراسوس حتى خرج للقائه وأدخله المدينة هو وجيشه.

ولم يشأ البارثيون تعقيب الرومان المرتدين ليلاً مع أنهم انتبهوا الى رحيلهم. وما ان بدت تباشير الصبح حتى انقضوا على المختلفين في المعسكر وأعملوا السيف في رقابهم فقضوا على اربعة آلاف رجلٍ تقريباً، وتمكنت خيالتهم الخفيفة من النقاط عدد كبير في الطريق. وكان [ڤارغينتيوس Vargintinus] أحد الضباط الرومانيين قد انفصل باربعة افواج عن بقية الرتل المنسحب اثناء الليل بسبب انحرافه عن الطريق فأحاط البارثيون بهذه القوة التي تجمعت للدفاع فوق تل صغير وذبحوها عن بكرة ابيها باستثناء عشرين رجلاً شقوا طريقهم في زخم القتال بسيوفهم المشرعة دون مبالاة بما يصيبهم فأعجب البارثيون بشجاعتهم الخارقة وفتحوا لهم صفوفهم من اليمين واليسار وتركوهم يمرون دون تعرض ليبلغوا [حران] سالمين.

وأبلغ [سورين] بنبأ نجاة [كراسوس] وكبار ضباطه وأن الواصلين الى [حران] هم فلول من الجنود العاديين الذين لا يستحقون عناء التعقيب، وكان طبعاً نبأ غير صحيح، على أنه اراد أن يتأكد من صحّة الخبر مدفوعاً بخيبة المؤلمة في احتمال خسارته تاج نصره ومجده، حتى يتخذ قراره بالقاء الحصار على [حران] أو ملاحقة كراسوس حيثما اتجه، فبعث باحد مترجميه الى المدينة وطلب من أسفل السور باللاتينية إن يُستدعى كراسوس أو [كاسيوس] لأن القائد [صوران] يرغب في التفاوض على الصلح، فأسرع [كراسوس] يوافق على الاقتراح. وبعد ذلك بقليل قدم لنيف من العرب كانوا يعرفون [كراسوس] و[كاسيوس] بالوجه معرفة جيدة لطول ترددهم على المعسكر الروماني قبل المعركة. فتوضحوا كراسوس من فوق السور وتأكدوا

من هويتـه، وانشأوا يقولون له ان [صوران] يرغب في الصلح وأنه سـمنحهم أماناً بـالعودة الى أوطانهم شـريطة أن يعـقد مع سـيده الملك معـاهدة صداقـة ويجلو عن بلاده مـا بين النهـرين ويسحب كل حامياته من مدنها، وفي رأية أنها شـروط حسنة بجمل بكراسوس قبولها قبل أن يفدح الخطب وتصل الأمـور الى نـهايتـها العضوي. فرضـي [كراسوس] وطلب تحديد مكانه وزمانٍ للاجتمـاع، وعاد العرب الى [صوران] مزودين بهذه الرسالة، فلم يكن سروره بها قليلاً اذ أكدت له وجود [كراسوس] في المدينة.

وفي اليـوم التـالـي خرج بجيشـه، وأخذ يوجه الإهانات وهجر القـول الى الرومـان، وأمرهم بعجرفةٍ ان يسلمـوا له كراسوس و[كاسيوس] مشـدودي الوثائق أن أملوا منه الرحمة واضطراب الرومـان كثيـراً عندمـا أنكشـفت لهم الخديعـة، وآلمهم مـا سـمعوه من شـتـائم وإهانات وسخرية. وطلبـوا من [كراسـوس] ان يسـقط من حسـابه تلك الآمـال الخلابّة الفارغة بقرب وصـول نجدة عسكرية من ارمينيا وان الأفضل من انتظارها هو الخروج للبحث عنها ولقائـها. كان من المقرر ان تكون خطّة خـروجهم من المدينة فـي طيّ الكتـمـان وتبـقى سـراً حتى يكونـوا في الطريق، لا يعرف بها أحد من أهل المدينة قطّ. إلاّ ان [كراسوس] أسرّ بهـا الى [اندروماخوس] وهو رجل لا يفوقـه أحدٌ في الغدر، ووصلت ثقتـه به حداً أن أختاره دليـلاً في مسيـرتهم. ولا شكّ في ان البـارثيين كـانـوا يطلعـون بفضله على مـراحل الخطّة ودقـائقـهـا ومـا أتخـذ من قـرارات وتدابيـر لتنفيـذها. ولما كـان يصعب عليـهم القتـال الليلي كمـا أسلفنا ولأن [كراسوس] أختـار الظلام للسير، فقد اوصي [اندروماخوس] بقيادة الرتل الروماني في مسالك ملتوية متشابكة لتبديد الوقت ولكيـلا يبـتـعـد بهم كـثـيـراً عن مطارديهم، ثم بلغ ارضـاً مـوحلة كـثـيـرة المستنقـعـات والسـواقي فـزاد عنـاء الرومـان وحـاروا في كـثـرة المنعطفات والاسـتـدارات وشكوا فـي نوايا [اندرومـاخـوس] حتى قرروا إلاّ يتبـعـوا ارشـاداتـه، وأخيـراً لم يسع [كـاسيـوس] الاّ العـودة. وهناك نصـحـه ادلاء عرب بالتـريث حتى يخـرج القمـر من برج العـقرب فردّ عليـهم قـائلاً: «إن أخوف مـا أخافه هو برج القوس Sagittarius[٢].»

قال هذا وخرج بخمسـمائة فارسٍ الى سورية. وسلك آخرون بمعونـة ادلاء أمنا ء طريقاً محاذية لجبال [سـينّاكا Sinnaea] وبلغوا مـواضع مأمونة في صـباح اليوم التـالي وكانوا خمسة آلاف بقيـادة [امكتـاثيـوس] المعروف ببسالته. ولم يكن [كراسوس] موفـقاً مثـله فقد ادركـه الصبح وهو يعـمل بوحي [اندروماخوس]. تضـرب القـوات المتـبقيـة معـه في البطائح والأرض الوعـرة على غـيـر هدى. وهي بمجـمـوعـهـا لا تزيد عن اربعـة افـواج وقليـل من الخـيـالة وخـمـسـة من

(٢) برج العقرب هو الثامن من ابراج قبة الفلك وبرج القواس هو تاسعها [م. ت].

اللكتور، أضرّ بهم السير وانهكهم حتى ما عادوا بفطنون الى أنهم لا يبعدون عن اوكتافيوس غير ميل ونصف ميل. ولما فظنوا لم ينضموا اليه وقرروا الاحتماء نبلّ آخر بينما كاد العدو يطبق عليهم ولم يكن في هذا التلّ ميزة دفاعية، أو صلاح لحركات الخيالية، وكان يقع تحت قدمات جبال [سيناكا] يحتد عبر السهل ليتصل بسلسلتها الطويلة. ولاحظ [أوكتافيوس] الخطر المحدق [بكراسوس] فأتجه نحوه بقواته متباطئة أولاً، ثم دبّ فيه النشاط وأسرع وارتفعت الحمية في نفوس رجاله فأخذوا يعنفون بعضهم بعضاً ويعيره بالانحطاط والدناءة لتخليه عن قائده، وبهذه الروح سحروا على البارثيين وأجلوهم عن التلّ وأحاطوا [بكراسوس] يحمونه بتروسهم ويقولون بكبرياء وزهو: «لن ندع سهماً بارثياً واحداً ينوس جنرالنا مادام فينا نفس يتردد».

ولاحظ [صوران] ان جنوده زاهدون عن تعريض نفسهم وأدرك أيضاً أن الرومان قد ينجمون في الفرار الى الجبال أن أطالوا أمد المعركة حتى الليل، فيغلق من يده نهائياً. ولجأ الى مكره المأثور بأن عمد الى أطلاق سراح لفيف من الأسرى الرومان ووضع في طريق خروجهم من المعسكر جماعة من رجاله على قيد مسمع منهم ولقنهم أحاديث معينة يتكلمون بها ليسمعها الأسرى. وطفق هؤلاء البرابرة يتحدثون عن عدم رغبة الملك في مواصلة الحرب الى نهايتها ضد الرومان، وعن حبّه للصلح والتفاهم كما يدل موقفه من [كراسوس] عموماً. وقالوا ان البرابرة امتنعوا عن القتال لهذا السبب، وان [صوران] تقدم الهونيا بنفسه مع كبار ضباطه وحَلّ وتر قوسه. ورفع يديه الى أعلى يدعو [كراسوس] الى الاتفاق والصلح ويقول ان الملك الذي اراد أختبار شجاعة جنوده وصلابتهم، يريد الآن وبعد تأكده منها - أن يضع نهاية للقتال ويرغب في الصداقة والوئام بقبوله الهدنة. وسماحه لهم بالانسحاب من دون تعرض...

هذه الأقوال المعزوة الى [صوران] نقلوها الى رفاقهم فأستقبلوها بسرور ولهفة. ولكن [كراسوس] الذي ذاق ما يكفي من غدر [صوران] ونكثه بالعهد، عجز عن ايجاد سبب وجيه لهذا التحول المفاجيء في سلوك العدوّ، ولم يؤمن بما قالوا وانما طلب ان يُمهل للتفكير في الأمر فضجّ الجنود بالصراخ وطلبوا منه ان يدخل المفاوضات في الحال. واراحوا يلومونه ويتطاولون عليه قائلين: انه لظلم عظيم ان يأتي بهم لقتال رجال هذا سلاحهم رجال لا يجرأ هو على الوقوف في وجههم عندما يكونون بدون سلاح!

وحاول في مبدأ الأمر أقناعهم بالحسنى واللين، وطالبهم بالتحلي بالصبر والنتظار حتى الليل واذ ذاك سيتمكنون من الجبال ومفازاتها التي تعجز الخيل عنها ويخرجون عن دائرة الخطر ومد يده مشيراً الى طريق الجبال راجياً منهم ان لا يتركوا سبيل خلاصهم الذي بات

أقرب اليهم من حبل الوريد. فلم يسمعوه وراحوا يقرعون ترساً بترسٍ بشكلٍ تهديديّ، معلنين تمردهم. غُلب على امره وارغم ارغاماً على الذهاب لمفاوضة العدوّ. ولم يأت باية حركة أو ينطق بحرف حتى حان الوداع فاستدار الى الضباط وقال:

- اشهد علي أنت يا أوكتافيوس وانت يا پطرونيوس بأني ما ذهبت إلاّ مضطراً مرغماً واني لا أستطيع الاّ وأحسّ بوقع الاهانات والتطاول عليّ. قولوا للناس كافة عندما تكتب لكم النجاة أن كراسوس كان هلاكه بمكر اعدائه أكثر مما كان بعصيان ابناء قومه عليه.

على ان [اوكتافيوس] و[پطرونيوس] لم يتركاه وانما هبطا التل أمّا بخصوص حرس اللكتور الخمسة فقد طلب [كراسوس] منهم أن يتركوه ويعودوا. وكان أول من لقبه اغريقيان من المولدين فترجلا عن جواديهما قفزاً وادياً له تحية الإجلال وطلباً منه باللغة الاغريقية، ان يرسل امامه رجالاً للتحقق من قدوم [صوران] بنفسه اليه بحاشية لا تحمل سلاحاً غير سيوف الزينة، فأجاب بقوله

- لو كنت مهتماً بحياتي أقل اهتمام لما أئتمنت عليها ايدي هؤلاء، وانما أرسلت الأخوين [روسكيوس Roscius] للتفاهم على الشروط وعدد المفاوضين.

ما لبث [صوران] أن أمر بالقبض على هذين فوراً. وتقدم يحفّ به كبار ضباطه على صهوات الخيل حتى أصبح امام كراسوس فحياه وقال له:

- ايجوز لجنرال روماني أن يسير على قدميه، وانا راكب تحفّ بي حاشيتي؟

فأجاب [كراسوس] ليس هناك خطأ من أية جهةٍ لأن لقاءهما تمّ كلّ بحسب عادة بلاده وتقاليدها. وقال [صوران]: إن عهد صفاء يحلّ من هذه الساعة بين الملك سيده وبين الرومان وانه يريد من كراسوس ان يمضي معه الى النهر للتوقيع على الاتفاق... واضاف يقول:

- هذا، لأن ذاكرتكم أيها الرومان ضعيفة، اذ سرعان ما تنسرن العهود والمواثيق.

ثم مدّ يده اليه مصافحاً. وأصدر [كراسوس] أمراً بقيادة جوادٍ من خيوله فأعترض [صوران] قائلاً:

- لا داعي لذلك، فالملك سيدي يهديك هذا الحصان.

وأمر فسيق حصان ذو لجام ذهبي، وأمر السائس باعانة كراسوس على امتطائه رغم تمنعه، وبعد أن أستوى على السرج وجه أحد السياسي الذين كانوا يجرون الى جنبه ضربة اليه ليحثث من سرعته، فأسرع [اوكتافيوس] وقبض على الزمام وهرع [پطرونيوس] وبقية الضباط الحاضرين يحاولون ايقاف الحصان وأمسكوا بتلابيب أولئك الذين كانوا يحتشون

الحصان على الجري من الجانبين وتدافعوا معهم وأختلط الحابل بالنابل وقامت ضجة من جراء السحب والدفع انقلبت الى حزبٍ وقتال فجردّ أوكتافيوس سيفه وفتك بپارثي فقنعه واحد ومنهم واحد بالسيف وقتله. وكان [پطرونيوس] أعزل، إلاّ ان ضربةً هون على درع صدره فسقطا عن ظهر جواده على الأرض ،لم يصب بسوءٍ وقتل [كراسوس] بيد پارثي يدعى [پوماشاثرا Pomaxathres] ويقول آخرون أن اياد كثيرة تعاونت على قتله. وقيل ان [پوماشاثرا] احتز رأسه وقطع يمناه بعد أن صُرع. وكل هذا حدس في حدسٍ وظلت الحقيقة يحيط بها الغموض لأن القريبين من الحادثة لك يكونوا في وضع يسمح لهم بملاحظة التفاصيل والدقائق وكانوا بين قتيل وهو يدافع عن كراسوس، وبين مسرعٍ في الفرار الى رفاقه فوق التل.

بعد هذا تقدم الپارثيون من مواقع الرومان قائلين: ان [كراسوس] نال ما يستحقه من قصاص، وان [صوران] يطلب من البقية الباقية النزول ولهم الأمان. فنزل بعضهم واستسلم وتشتت شمل الآخرين في ساعات الليل، ولم يبلغ الوطن منهم الاّ النزر اليسير، ووقع العرب الرحل على طوائف منهم هامت على وجهها في الصحراء ففتكوا بها وكان التقدير العمومي لخسائر الحملة، عشرين ألف قتيل وعشرة آلاف أسير.

وأرسل [صوران] رأس [كراسوس] ويده الى الملك [هيرودس] في ارمينيا. إلاّ انه بث سعاته ورسل أخباره ينشرون في البلاد بأنه سيأتي بكراسوس حيّاً الى [سلوقية] ويسير به في موكب مسخرة وتهريج، (سمّاه موكب ظفرٍ استهزاء وتهكماً). وكان بين الأسرى رجل يدعى [كايوس پاشيانوس Caius Paccianus] عجيب الشبه [بكراسوس]، فجاء به والبسه ثياب النساء الپارثيات، وأمره بالاّ يجيب الاّ اذا نودي بكراسوس او امبراطور، وساروا به وهو على متن حصان يتقدمه جوق من البوقيين واللكتور وهم راكبون جمالاً وقد عُلقت حرر في نهاية حزم عصيّهم. وركزت رؤوس قتلى حديثاً فوق شغرات نؤوسهم وهي تقطر دماً. وسارت خلف هذا الموكب مغنيات سلوقيات ينشدن قصائد تهكم وسخرٍ بخنوثة [كراسوس] وجبنه ولم يبق أحد في المدينة الاّ وشاهد هذا الموكب. ثم ان [صوران] جمع مجلس الشيوخ السلوقي ووضع أمامهم عدداً من الكتب النادرة التي كان الاعتقاد قد ساد بأنها فقدت، وهي من مؤلفات [اريستيدس] وبينها مؤلفه [ميليسياكا Milesiaca]. ولم يقم اي شكّ في أصالتها، فقد وجدت في أمتعة [روستيوس Rustius]، وهذا ما زوّد [صوران] بمصدر جيد لتهكمه على الرومان وتعليقاته الساخرة المهينة كقوله: انهم لا يستطيعون حتى زمن الحرب، نسيان أمثال هذه الكتابات ومطالعتها. على أن أهل [سلوقية] كانوا على حقٍ في اطراء الحكمة

والمغزى المستخلص من اسطورة «الجراب» لصاحبها [إيسوب]. فقد لاحظوا أن قائدهم [صوران] يضع امامه جراباً مملوءاً بمتفرقات من الحكايات الميليسييّة. بينما كان يسير خلفه مجتمع دعارة پارثي كامل بكلّ ترفه وبذخه، ممثلاً في قطار العربات الملأى بمخطياته.

وأنطلقت السنة الناس تلدغ كالافاعي والثعابين فقالوا كل ما برز للعين في مقدمة المركب كان مرعباً مخيفاً برماحه ونباله وفرسانه، وكل ما انتهى اليه الموكب فبنساء فاجرات، وصحون رقص، وآلات طرب وموسيقي، وعيدان، وفجور ما بعد منتصف الليل واني في الواقع لا أجد عذراً [لروستيوس] في انشغاله بهذه الكتب وهو في ساحة الحرب. إلاّ ان الپارثيين بسخريتهم من الحكايات الميليسية، نسوا أن كثيراً من أفراد الأسرة الارشاقية التي تحكمهم قد خرجوا من ارحام مخطيات [آيونيات وميليسيات]!

كان الملك [هيرودوس] وقتذاك قد توصل الى صلحٍ مع الملك الأرمني. وزوج ابنه [پاكوروس Pacorus] من اخت ملك الأرمن. وكانت المآدب والولائم التي اقيمت بهذه المناسبة أفخم من ان توصف. وتخلّل ذلك تمثيل أغريقي والقاء مختلف المقطوعات الشعرية الأغريقية امام الملكين. [فهيرودوس] لم يكن يجهل تلك اللغة ولا آدابها، وارطافازديس كان متبحراً فيها بحيث ألف بها في التاريخ والخطب، وله عدة تراجيديات. وما زال قسم من مؤلفاته موجوداً الى يومنا هذا.

لما جيء برأس [كراسوس] كانت الموائد قد رفعت لتوها وبدأ ممثل تراجيدي من [تراليس Tralles] يدعى [جاسون] في انشاد المشهد الخاص بـ[آغافه Agave] من مرسحية الـ[باخيّات Bacchae] ليوريپيدس والإطراء ينثال عليه، والاستحسان يرتفع من حوله. ودخل [سيللاك] القاعة وسجد للملك، ثم القى برأس [كراسوس] في وسط الحفل. فأستقبله الپارثيون بفرح وهتاف، وجلس [سيللاك] بأمر من الملك بينما نزع جاسون ثياب دور [بنثيوس Pentheus] الذي كان يتقمصه ودفع بها لأحدى راقصات الجوق وتناول رأس [كراسوس] بيديه وراح يمثل دور [پاخانتيه Bacchantes] وهي في حالة وجدٍ وانجذاب، ثم أنشد المقطوعة التالية بصوت مؤثر عاطفي يأخذ بمجامع القلب:

اليوم اصطدنا طريدة جبّارة...

وعدنا من الجبل بقنيصة كريمة.

فطار الحُضّار فرحاً وهللوا له، ولكن لما بلغ من غنائيته هذين البيتين:

اي يدٍ محظوظة ذبحت هذه الضحية الممجدة؟

اني أدّعي بهذا الشرف لشجاعتي!

نهض من الحاضرين [يوماشاترا] وتقدم يريد أخذ الرأس قائلاً:

- انه من حقي لا لأحد غيري.

فامتلأ الملك سروراً وعلى عادة البارثيين فرق تالنتاً واحداً على الرسل ولم يستثن [جاسون] من هذه الهدية.

تلك هي الهزليات التي مثلت في أعقاب مأساة حملة [كراسوس] على ما قيل لنا. فكانت أشبه بالمقطوعات الختامية للتراجيديات. على أن العدالة الالهية لم تتأخر في انزال العقاب [بهيرودس] لقسوته وب[صوران] لنكثه بعهوده فقد نقم عليه الملك بعد قليل وغار منه لتعاظم سلطانه ففتك به. وسقط الملك نفسه فريسة مرضٍ عضال بعد فقده ابنه [پاكوروس] في معركة مع الرومان، وتحولت علته الى داء الاستسقاء. فأعطاه ابنه الآخر [فرهاد Phraates] جرعة من منقوع خانق الذهب [سم الاكونيت] ليخمد انفاسه، إلا أن السمّ أفلح في ازالة المرض عنه وشفي به فجأة. فاضطر [فرهاد] الى اختصار السبيل بخنقه.

أوجه المقارنة بين كراسوس ونيقياس

في مجال المقارنة ما بين هذين الرجلين. قد يجمل بنا أن نبتدي، بمضاهاة غنى الواحد بالآخر، وهنا يجب علينا الأقرار بأن [نيقياس] حصل على ثروته بطرق أكثر نزاهة من [كراسوس]. إن المرء لا يسعه الإقرار بشرعية جمع الثروة من أعمال الناجم بحدّ ذاتها، فأغلب الجهد فيها يقع على كاهل البرابرة والمجرمين المحكومين، وبعضهم يكدح فيها وهو مكبلّ بالسلاسل، ويدفعون حياتهم ثمناً لهذا وهم يكدحون في باطن الأرض والمناطق الموبؤة التي تزخر بالأمراض. ولكن لوقارنا هذا بما جمع [كراسوس] من مصادرات [سيللا] واغتصابه وما حصل عليه من صفقات المنازل التي أتت عليها النيران، نجد [نيقياس] انزه في جمع الثروة من كراسوس بما لا يقاس. لقد استخدم كراسوس اساليب انماء ثروته علناً وأعتبرها من قبيل الحرفة، كما يحترف الآخرون الزراعة مثلاً، ولم يتعفف عن الربا والفائدة، أمّا الوسائل الأخرى التي كان يوصم بها فينكرها عندما يجابه بها كبيع صوته في مجلس الشيوخ لمن يدفع الثمن الأعلى، والإضرار باصدقائه وملاحقة النساء والتغاضي عن المجرمين في سبيل المال، فمثل هذا لم يؤثر عن [نيقياس] قط لا صدقاً ولا كذباً، حتى انه لم يخطر بالبال اتهامه بشيء من هذا. وانما كان الناس يسخرون منه لأنه يدفع مالاً لأولئك المبتزين الذين اتخذوا عادة ثلب الناس ونهش اعراضهم حرفة لهم، جبناً منه ليس إلاّ. وهو أمر ان لم يكن يليق [بأريستيدس وبيركلس] مثلاً، فانه ضروري لمن تنقصه الثقة بالنفس. وقد أقّر [ليكورغوس] الخطيب الجماهيري بهذا اقراراً صريحاً عندما أتهم بأنه أشترى وثائق وادلّة قانونية فقال: إنه مسرور جداً لاتهامه بالعطاء لا بالأخذ بعد أن خدمهم وادار شؤونهم العامة هذه المدة الطويلة.

ويمتاز [نيقياس] على [كراسوس] باختياره وجوه للإنفاق أصلح وأجدى من الناحية العامة. فقد كان يتفاخر ويعتزّ بما يوقف من أموال ويهدى للمعابد، وبالاشراف على الالعاب الرياضية وتنظيمها وتأمين الفرق التمثيلية واجواقها، وتزيين المواكب الدينية العامة، في حين كانت

وجوه انفاق [كراسوس] منصرفة الى اقامة الولائم ثم توفير الطعام لعشرات الألوف. وهذا أكثر بكثير مما ملكه [نيقياس] وانفقه في شتىّ الوجوه، طوال حياته. ومن هذا لا يملك المرء إلاّ ان يعجب عن قصورهما في ادراك هذه الحقيقة وهي أن الرذيلة عقبة ونقيض للعادة، ومن أمثال ذلك كسب الاموال بالسحت والحرام وتبذيرها بهذا السفه والطرق السيئة. ولنكتف هنا بهذا القدر من الحديث عن ثروتيهما.

أمّا عن تصريفهما الشؤون العامة فأنا لا أجد في تصرفات [نيقياس] مما يؤآخذ عليه من الغش أو الظلم أو المحاباة، بل كان ضحيّة حيل [الكيبيادیس] والا عيبه. وهو والحق يقال دقيق نزيه في تعامله مع الشعب. أمّا [كراسوس] فقد كان أكثر اللوم ينصبّ عليه بسبب سرعة تقلبه في صداقاته وعدواته، واشتهاره بقلّة الاخلاص، وبوسائله الدنيئة المنحطة. التي لا يعتبرها عيباً. فهو مثلاً لا ينكر انه المستأجر رجالاً للاعتداء على [دوميتيوس] و[كاتو] لأجل فوزه بالمنصب القنصلي. وكيف انه في الاجتماع العام الذي عقد لاجل اسناد حاكميات الأقاليم تسبب في قتل اربعة اشخاص وجرح الكثيرين، بل وجّه بيده لكمة [للوشيوس اناليوس Lucius Analius] عضو الشيوخ لمقاطعته الكلام، فترك المضروب القاعة والدم يسيل من وجهه، وقد أغفلت ذكر هذا في سيرة حياته. وان نحن وجهنا اللوم لكراسوس، بسبب استبداده وعنفه في أساليبه، فيجب أن نوجّه مثله من اللوم الى [نيقياس] لجبنه وتردده اللذين جعلا منه رجلاً إمعّة يطيع احطّ الناس ويخضع لهم. وكان [كراسوس] من هذه الجهة أكثر أنفةً وأعظم منه شعوراً بالكرامة وعزة النفس، فلا يتدنى لأمثال [كليون، أو هيپربوليس]، فيعمل على محاكاة مآثر قيصر، ويطمح الى أمثال مواكب نصر [پومپي] الثلاثة، فلا تراه ناكصاً محجماً، بل كان يهاجم بكلّ جرأة وصالحهما المشتركة، فينال منصب [السنصور] متفوقاً حتى على [پومپي]. وعلى رجل السياسة ألاّ ينظر الى الشيء بالنسبة الى عواقبه ومخاطره، بل بقدر ما هو نبيل القصد وهذه هي العظمة التي تجعله يتغلب على الغيرة ويقهر الحسد. اما اذا كان [كنيقياس] ينشد على الدوام الأمان والهدوء، ويمتلئ خوفاً من [الكيبيادیس] كلما ارتقى المنبر ويخشى اللقيديميين وهم في [پيلوس]، ويفرق من [پرديكاس Perdicas] في تراقيا، فما عليه الاّ ان ينتهز لنفسه أول فرصة لأعتزال السياسة والجلوس خارج ضجّة الحكم، «لينسج من خموله أكليل غاره» على حدّ قول أحد السفسطائيين. إن رغبته في السلام وانهاء الحرب كانت في الواقع مطمحاً آلهيّاً قدسيّاً، يسمو به جداً على [كراسوس] ويبتعد عن مجال المقارنة، وان كان هذا الأخير قد وسع أملاك الامبراطورية الرومانية الى بحر قزوين والمحيط الهندي.

وفي الدولة التي تتسمَ ببعض اتجاه نحو الفضائل، ينبغي للرجل القويّ الاّ يفسح مجالاً للمكروهين، ولا أن يعرض الحكم على من يعجز عنه، ولا أن يضع ثقة عاليةً في من تعوزه النزاهة السياسية، إلاّ ان [نيقياس] بانكماشه وجبنه افسح سبيلاً [الكليون] وهو شخص لا ميزة فيه إلاّ قوة صنجرته وصفاقة وجهه، ورفعه الى قيادة الجيش. والحقيقة هي اني لا أريد هنا أن أمتدح [كراسوس] القائد المندفع للحرب ذلك الاندفاع الذي غلب عليه الحذر والفطانة في حروب [سپارتاكوس]، وان كان هذا الاندفاع بداعي الكرامة والحرص على السمعة لئلاّ يحرمه قدوم [پومپي] أمجاد تلك الحرب. كما فعل [موميوس] بمتيللوس عند الاستيلاء على [كورنث]. إلاّ ان تصرف [نيقياس] لا ينفع فيه عذر، فهو لم يقتصر على التنازل عن مجرد فرصة في الحصول على السمعة والتكريم، بل حمد وشكر خلاصه من المهمة وترك جمهوريته للمقادير أعتقاداً منه أن الحملة ستكون محفوفة بالأخطار. وفي الوقت الذي رأينا كيف تقدم [ثستوكلس] للاضطلاع بالقيادة، خشية أن يستولى عليها شخص حقير غير كف،، فرشح نفسه للزعامة عندما تأزم الوضع وحزبت الأمور غير هيابٌ ولا وجل، مدفوعاً برغبته الى خدمة بلاده، نجد [نيقياس] يشغل نفسه بصغائر الحملات العسكرية وتوافهها كحملته ضد [مينوا Minoa] و[كيثيرا] والميليين Melians التعسا،، فاذا آل الأمر الى حَدّ الاشتباك باللقيديميين، رأيته ينضو عنه بُزة الجنرال ويسلمها لغبا، [كليون] وطيشه مع الاسطول والسلاح والجنود والقيادة والادارة حيث يتطلب منتهى البراعة والخبرة. أقول أن سلوكاً كهذا لا يمكن ان يوصف بقلة الاكتراث الفظيع بالسمعة مثلما يوصف باهمال مصالح الوطن والاستهتار بحفظ كيانه. وعلى هذا عندما اتفق أنه أجبر على الحرب الصقليّة كرهاً عنه، وحمل الى القيادة حملاً، أعتقد الناس عامةً ان ايمانه بصعوبة الحملة لم يكن ايماناً صادقاً وانما تغطية لحبّه الراحة، وجبنه وتخوفه من أن تفشل مدينته في فتح صقلية. واذا نظرنا الى الأمر من وجهة نظرٍ أخرى فبإمكاننا أعتبارها أعظم دليل على استقامة ونزاهة فيه فقد كان على الدوام يعارض في الحرب ويمجّ القيادة العسكرية، وبنو قومه لا ينفكون عن اسناده اليه لأنه في نظرهم أفضل وأقدر وجنرالاتهم. واما [كراسوس] في طموحه الدائم الى القيادة، فلم يدع اليها الاّ عند الضرورة الملّحة في حرب العبيد. لأن پومپي وميتللوس، والأخوين لوكوللوس كانوا غائبين عن البلاد، في حين كان آنذاك قد بلغ اوج الشهرة والصيت. حتى أولئك الذين كان رأيهم عالياً فيه الظاهر أنهم نظروا اليه تلك النظرة التي ينطبق عليها قول الشاعر الكوميدي:

«بطلٌ في كل مكان، إلاّ في ساحة الوغي».

على كلِّ حال كان الرومان لا يمكلون دفعاً لميله الشديد الى القيادة وحبه للظهور. لقد ارسل الآثينيون [نيقياس] الى الحرب ضدّ رغبته، وقاد [كراسوس] الرومان الى الحرب ضد رغبتهم فجلب المصائب لروما. وجلبت آثينا المصائب لنيقياس، وهذا على أية حال مدعاة لمديح نيقياس أكثر من أن يكون مدعاة لتخطئة [كراسوس]، فتجاربه وصواب احكامه في الشؤون الحربية ابتعدت به عن الانحراف وراء الآمال الخادعة التي تبناها بنو قومه، وجعلته يأبى الايمان بفكرة امكان فتح صقلية. أمّا [كراسوس] فقد أخطأ في ظنّه ان حربه مع الپارثيين ستكون حرباً سهلةً، وكان الشوق والرغبة تدفعه وهو يرى [قيصراً] يخضع بلاد الغال والجرمان وبريطانيا - الى اكمال فتوحات [پومپي ولوكوللوس] بالتقدم من ناحية الشرق حتى المحيط الهندي، ويفتح آسيا كلها. و[پومپي ولوكوللوس] هما من اصلب الرجال عزماً وأعزهم جانباً وأكثرهم كفاءة؛ وافكارهما عين أفكار [كراسوس] وأهدافهما أهدافه.

لما عين [پومپي] لهذه القيادة قبل [كراسوس] وقف اعضاء مجلس الشيوخ معارضين. ولما هزم [قيصر] ثلاثمائة ألفٍ من حجافل الجرمان. كان أقتراح [كاتو] أن يُسلّم هذا القائد المنتصر الى عدوه المهزوم ليوقع به عقوبة النكث بالعهد، في الوقت الذي كان الشعب يردّ على [كاتو] بأظهار أقصى درجة من الفرح، وأعلن عيداً رسمياً امده خمسة عشر يوماً أحتفاء بالنصر! فماذا سيكون شعور الشعب وكم ستطول أعياده لو بعث لهم [كراسوس] من بابل انباءً عن انتصاراتٍ وزحفٍ الى الامام أدّى الى اخضاعه بلاد مادي وفارس، والهيركيين، ومدينة [سوسه] وبلاد بختيريا، وضمها الى الممتلكات الرومانية؟

يقول [يوريبدس] ان لم يكن من عمل السوء بُدّ، وان عافت انفسنا الرضا بالسلام وعجزت عن فعل الخير. فلنتحاش ان تؤدي تصرفاتنا الى نتائج مؤسفة مثل تدمير [منده Mende] أو [سكانديا Scandia]، أو الفتك بالمنفيين [الايجنتان] وهم في مخابئهم التي لجأوا اليها هرباً كالطيور الوجلة المطاردة بعد أرغامهم على ترك ديارهم أرغاماً؛ بل دع تلك الأعمال تنصرف الى أطلاب ما يكون جزاؤه على قدر مشقته، وان لا نبتعد كثيراً عن جادة العدل، ولا نعتبر هذه الفضيلة من الصغائر والتوافه فنزل عنها لقاء ثمن صغير تافه.

هذا وان الذين يمتدحون غزوات الاسكندر المقدوني، ويعيبون غزوات [كراسوس] انما يحكمون على الأعمال بخواتمها ونتائجها، وهو حكم لا أبالك - ظالم أهوج يجافي العدل والانصاف.

ولقد أظهر [نيقياس] في الخدمة الفعلية الكثير مما يستأهل عنه الثناء العاطر، فياما دحر العدوّ في ميادين القتال وياما كاد يستولي على صقلية. وعلينا أن نقرّ في هذا الباب أنه

ليس من الصواب تحميله كل الملام في هذه النكبة وأن كان جانب منها يُعزى الى علّته ومرضه والى الحسد الذي كان ابناء بلده يحملونه له. أمّا [كراسوس] فقد بلغت أخطاؤه حداً انه لن يفسح للحظّ سبيلاً ليحابيه بشيء، فلا عجب أن نرى رقاعته توقعه فريسة سهلة للپارثيين، على ان العجب الوحيد فيها ان توقع بروما نكبةً وهي التي ظلّ حسن الحظّ يواكبها حتى تعودته ولو نظر المرء الى خلق [كراسوس] نظرة فاحص دقيق لوجده كم كان قليل الايمان بالعرافة والنبوءات. وبما ان نهايته ونهاية [نيقياس] كانتا متشابهتين فمن العسير ان نصل الى نتيجة مقنعة. ومع هذا فان خطأ الافراط في الحذر الذي يدعمه رأي قديم ورأي عام لهو مما يستحق الصفح والإغضاء، لا كالارادة الواحدة الشخصية المندفعة اندفاعاً أهوج.

ومع هذا فقد كانت ميتة [كراسوس] أشرف واسمى من ميتة قرينه، فإنه لم يستسلم ولم يقيد نفسه بعهدٍ ولم يؤخذ بخداعٍ وانما راح ضحيةً لتوسلات اصدقائه، ولغدر أعدائه، في حين زاد [نيقياس] من عار موته بتذلله وخنوعه الذي دفعه اليه أمل في نجاةٍ مخجلةٍ ذليلة يحفّ بها العار.

١٩٦٨/٨/٥

سرتوريوس

SERTORIUS
(Quintus)

123 – 72

ليس مما يدعو الى العجب الشديد أننا نجد في مسرى حقبة من الزمن طويلة وفي اثناء سلوك الحظّ سبله المختلفة هنا وهناك - وقوع صُدف عفوية كثيرة جداً تجلّ عن الحصر. واذا ما كانت العوامل العديدة المتنوعة التي تؤدي الى هذه الصُدف مما لا نهاية له. فقد يكون أسهل على الحظّ بما يملكه وسائل لا تحصى أن يأتي بمثل هذه النتائج المتشابهة. هذا واذا كانت الأحداث والوقائع محددة بعدد معين من المقدمات والتوطئات فكثيراً ما تظهر النتائج متشابهة بحكم الضرورة، وعلى نفس الوتيرة والتوالي.

وثم من يجد متعة خاصة في جمع هذه الوقائع وتصنيفها في مجموعات على أساس التشابه مما قرأوه وسمعوه وقصدهم من ذلك أظهارها وكأن قوى مفكرة عاقلة اعدتها وخططت لها. فهم يذكرون مثلاً شخصيتين بارزتين كلاهما اسمها [آتيس Attis] الاول سوري والثاني اركادي وكلاهما فتك به خزير وحشي، كذلك يقدمان شخصين باسم [آكتيوس Actæon] أولهما نهشته كلابه نهشاً وثانيهما قطعه عشاقه اشلاء، ويتحدثون عن عظيمين باسم [سكيپيو] أحدهما هزم القرطاجينين في ميدان القتال والآخر قضى عليهم قضاء مبرماً. ويقولون ان أول أحتلال لطروادة الذي تم على يد هرقل كان سببه الخيل التي وعده بها [لاوميدون]، وان آغاممنون الذي كان ثاني محتل لها، دخلها بحيلة الحصان الخشبي الكبير المعروفة. وان [خاريديموس Charidemus] استولى عليها بانتهازه صدفة سقوط حصان من الأعلى في المدخل فاعاق الطرواديين عن سَدّ بابه في وجه العدوّ المهاجم بالوقت المناسب، وهم يتحدثون أيضاً عن مدينتي [ايوس Ios] و[ازمير Smyrnie] الأولى جاء اسمها من زهرة البنفسج، والثانية من نبتة المرّ، وقيل ان هوميروس الشاعر ولد في الأولى، وتوفي في الثانية. ولنا أن نسير على هذا المنوال من تصنيف الحوادث والاتفاقات لنذكر أن أعظم القادة وأكثرهم اقداماً وبراعة في تنظيم الخطط كان في عيونهم عوار مثل [هنيبعل] و[فيليپوس] و[انتيغونس] و[سرتوريوس] الذي سنأتي فيما يلي الى سرد وقائعه الحربية وأعماله، انه ذلك الذي يحق لنا القول عنه بأنه كان أكثر نزاهة من [فيليپوس] وأشد أخلاصاً للصديق من [انتيغونس]، وأرحم باعدائه من [هنيبعل]. واما في اصالة الرأي وسرعة الخاطر فليس فيهم

من يباريه إلاّ انه كان انكدهم حظاً. ومع انه ظلّ يجد في الهة الحظّ ادباراً ومعاندة يفوقان ما لقيه من أعدائه الظاهرين فقد بقي صامداً لا تلين قناته يواجه براعة [ميتللوس] العسكرية [بومبي] وحسن حظّ [سيللا]، وقوى الشعب الروماني التي اجتمعت عليه وهو الرجل الغريب في بلد اجنبيّ لا قوة له إلاّ ما تهيأ من محاربي البرابرة. وربما كان [يومينوس الكارديّ] خير قرين له بين قادة الاغريق العسكريين فكلاهما خلق للحرب والقيادة ورسم الخطط وكلاهما نفي من بلده، وقاد رجالاً من الأجانب، كذلك كان نكد خطهما متساوياً وقد بلغ في أواخر أيامها حداً من القسوة انهما قتلا غدراً بأيدي من هم تحت أمرتهم، ومن كانوا عوناً لهم في التغلب على خصومهما.

انحدر [كوينتوس سرتوريوس] من أسرة نبيلة، وكان مولده في مدينة نورسيا في بلاد السابين وتوفي ابوه وهو صغير فقامت امه [ريا Rhea] على تربيته تربية عالية محتشمة. ويظهر انه كان يجلّها ويحبّها حباً لا مزيد عليه. وقد اولى بعض اهتمام الى مدارسة الخطابة والمرافعات القضائية ونال بفصاحته بعض السمعة والنفوذ في أوساط روما.

وفي مبدأ حياته العمليّة خدم تحت إمرة [كيبيو Cæpio] حينما غزا [الكيمبري] و[التيوتون] بلاد [الغال]. وكان الرومان يعانون الهزائم ولا يحرزون اي نجاح. فأصيب في أحدى معركها بجراح في عدة انحاء من جسمه وفقد جواده، لكنه عبر مع ذلك نهر الرون سباحةً وهو مشتمل بزرده وشكة سلاحه ومجنّه وقاوم التيار العنيف ونجا، فقد كان يتمتع بجسم قويّ، عجمت المشاق عوده.

وفي المرة الثانية لتدفق [الكيمبري] و[التيوتون] بجموعهم الغفيرة التي تقدر بمبلغ مئات الالوف، مهددين كل شيء بالموت والدمار الشامل. لم يكن مما يحبب للجندي الروماني الخدمة والبقاء في سلك الجيش واطاعة القائد، شيء. وفي هذا الظرف الدقيق ايام كان [ماريوس] قائداً للجيش، قبل [سرتوريوس] أن يقوم بمهمة الجاسوس في معسكر الاعداء. وتزيّا بزيّ [كليتيّ] وحفظ شيئاً عن تعابير لغتهم، مما هو ضروري لتبادل الحديث الاعتيادي. والقى بنفسه بين البرابرة. وبعد أن تزود من الأشخاص فيها بالمعلومات المطلوبة عن أحوالهم. قفل عائداً الى [ماريوس] لينال من يديه جزاء الشجاعة. وقدّم بعد ذلك كثيراً من الأدلة على بسالته وحسن سلوكه فما تلا في هذه الحرب. وتدرجّ في مناصب الشرف والثقة تحت امرة قائده حتى نهاية حرظوب [الكيمبري] و[التيوتون]. حيث أرسل بعدها الى اسبانيا بمنصب قائد الف تحت أمرة [ديديوس Didius] القائد الروماني. فأمضى شتاءه في بلاد [الكلتيبيريين Celtiberians] داخل عاصمتهم [كاستولو Castalo] وقد أفسدت الملذات

الجنود هناك، وتمردوا على الأوامر، وعكفوا على الشراب وهكذا حتى أصبحوا موضع أحتقار الأهالي وأشمئزازهم، حتى انهم طلبوا من جيرانهم الأقربين [الجيرسيونيين Geriscenians] العون. فجاءهم هؤلاء ليلاً وانقضوا على الرومان وهم نيام وأوقصوا بهم مقتلة عظيمة. وتمكن [سرتوريوس] بقلّة من الجنود من ترك المدينة. وما لبث ان نظم صفوف بقية الهاربين وتقدم من الأسوار ودار بها حتى وجد الباب السري الذي دخل منه [الجيريسونيون] مفتوحاً. فلم يدع لهم أية فرصة ووضع حارساً عليه. ثم سيطر على أحياء المدينة وذبح كل قادر على حمل السلاح من القاطنين. وأمر جنوده فنزعوا أسلحتهم وثيابهم العسكرية وارتدوا ازياء البرابرة. ثم قادهم الى المدينة التي فأجاءه رجالها ليلاً وذبحوا جنوده الرومان. فخدع أهاليها بمظهر الزيّ والسلاح اللذين البسهما جنوده. ووجد ابوابها مفتوحة فدخلها وأخذ عدداً كبيراً من الأسرى الذين خرجوا الاستقباله وهم يحسبونهم رفاقهم وأهل مدينتهم عادوا من حملة ناجحة. فذبح الرومان معظمهم في مدخل المدينة. أما من سَلّم نفسه في الداخل فقد بيع في سوق العبيد.

هذا العمل سبب في اشتهار أمر [سرتوريوس] وعلّو صيته في طول أسپانيا وعرضها. حتى اذا عاد الى روما، ما لبث ان عُيّن بوظيفة [كويستور] في بلاد الغال الجنوبية [Cisalpine] وكانت ظروف تعيينه موآتيةً جداً لبلاده اذ كانت الحرب [المارسية Marsian] على الأبواب وطلب من [سرتوريوس] تعبيئة وسوق الجنود وتوفير السلاح. فأنجز ما أنيط به بغيرة وكفاءة وسرعة تختلف تماماً عن ضعف وتقاعس الضباط الآخرين الذين يعادلونه سنّاً. حتى نال شهرة من ستكون حياته وقفاً على الحرب والنضال. ومع وصوله الى منصب القائد، فانه لم يترك جانباً واجب الجندي وحقق المعجزات بيديه، ولم يكن يضن بمهجته، بل كان يعرض وجوده وكيانه دونما تحفظ أو احجام في كل قتال ناشب ففقد بسبب ذلك أحدى باصرتيه. وكان على الدوام يرى شرفاً له أن يتحلّى بأوسمته وشاراته ودلائل بسالته في حين يترك الآخرون جانباً تقلّد سلاسلهم الذهبية وحرابهم وتيجانهم ولا يحملون دائماً البراهين على بسالتهم. وكانت حجته في ذلك ان من رأى عثرات حظّه وسوء طالعه يجب أن يرى في الوقت نفسه دليل مؤهلاته ونجاحه ولم يكن الجمهور يبخل عليه بالاحترام الذي يستحقه فيستقبله كلما دخل الملعب بالحفاوة وهتاف الإعجاب، وهو شرف قلما كان يسبغه الشعب على ذوى المناصب الرفيعة والشهرة المستفيضة المتواترة. ومع شعبيته هذه فقد فشل عندما رشح نفسه لمنصب [تريبيون الشعب]. أخطأه التوفيق لأن حزب [سيللا] كان يعمل ضدّه، ويظهر أن هذا هو السبب الرئيس للعداوة التي ظهرت بعدئذ فيما بينهما.

بعد أن أستظهر [سيللاً] على [ماريوس] وحمله على الفرار الى افريقيا، وبعد أن ترك [سيللا] ايطاليا ليقود الحملة العسكرية على [ميثيرداتس]. وبقاء القنصلين [اوكتافيوس] و[سنّا]، ورغبة [سنّا] في القيام بثورة جديدة على حكم [اوكتافيوس] المحافظ على سياسة [سيللاً]. ومحاولته اعادة حكم [ماريوس]، أختار [سرتوريوس] الانضمام الى حزب [سنا] لأسباب أخصها أنه لم يجد في [اوكتافيوس] الكفاءة والاهليّة للحكم، وان كان من الجهة الأخرى يشك في كل من هو صديق [لماريوس]. وبنتيجة هذا الحلف نشبت المعركة الكبرى في [الفورم] بين القنصلين، وأستظهر [اوكتافيوس]. وخسر [سنّا] و[سرتوريوس] فيها ما لايقلّ عن عشرة آلاف رجل، فتركا المدينة. وحققا السيطرة على معظم الجنود المتفرقين في انحاء ايطاليا، وتمكنا في وقت قصير من تحشيد قوة ضدّ [اوكتافيوس]، تكفي لمجابهته في معركة ثانية وفي اثناء ذلك أقلع [ماريوس] من افريقيا الى ايطاليا ووضع نفسه تحت أمرة [سينّا] كجندي بسيط يأتمر بأوامره ويطيعه بوصفه قائداً وقنصلاً.

وكانت الغالبية تحبذ الأسراع في قبول عرض [ماريوس] إلاّ أن [سرتوريوس] عارض في الأمر معارضة صريحة، مدفوعاً أمّا لخوفه من هبوط منزلته عند [سينّا] بعد مجيء شخص يفوقه شهرة عسكرية وامّا لخشيته من العنف الذي أتسم به [ماريوس]، وما ستولده روحه الانتقامية وحقده المتأصل المفرط من المآسي والفوضى بعد تحقق النصر لهم. والحّ في ذلك على [سينّا] بقوله: ها أن النصر مستتب لنا، مضمون، ولم يتبق غير القليل ولو قبلنا عرض [ماريوس] لحرمنا ثمار النصر ومجد الحرب. وليس هناك من هو أصعب تعاملاً، وأقل أهلية بالثقة [كماريوس] فأجاب [سينّا] بأن [سرتوريوس] مصيب في حكمه، إلاّ انه يشعر بالحيرة والخجل تجاهه ولا يدري كيف يبعده، وبأية وسيلة يرفض عروضه بعد ان ارسل هو نفسه بطلبه، ورغب منه أن يشارك في حظوظه. فأسرع [سرتوريوس] يجيب بقوله: كنتُ أظنّ ان [ماريوس] جاء الى ايطاليا من تلقاء نفسه. وعلى هذا الأساس يناقشه فيما هو يجب أن يقبل او لا يقبل الرجل الذي دعاه بنفسه. بل يتحتم عليه أن يكرم وفادته ويستخدمه. فان الكلمة التي خرجت من فمه لا تدع اي مجال للنقاش. وهكذا تمت دعوة [ماريوس]. وقسمت القوات الى جيوش ثلاثة بقيادة [سينّا] و[ماريوس] و[سرتوريوس] وتم لهم النصر. إلاّ ان الجنود الذين كانوا تحت أمرة [سينا] و[ماريوس] طفقوا يرتكبون كل أنواع المظالم ويأخذون بكل ضروب القسوة، حتى جعلوا الرومانيين يرون في ويلات الحرب عهداً ذهبياً ونعمة بمقارنتها بما ذاقوه على يد هؤلاء بعد انتهائها. وبعكس ذلك فقد أثر عن [سرتوريوس] بأنه لم يقتل شخصاً واحداً وهو في سورة من الغضب. أو شفاء لغلٍّ أو أخذاً بثأر. ولم يلحق الذّل

والعار بمن استظهر عليه. بل كان يتميزّ غيظاً، ويتلظى حنقاً من أعمال [ماريوس]، كما كان يرجو [سيناً] بالحاح وبالسّر، إن يعتدل في استخدام سلطاته.

وبلغ السيل الزبى بالفظائع التي أقدم عليها جنود [ماريوس]. فهؤلاء كانوا من العبيد الذين حررّهم عند نزوله برّ ايطاليا، ليزيد بهم عدد جيشه. لم يكتف بجعلهم أخواناً له في الحرب مساوين للجنود الآخرين، بل نصبهم حرساً شخصياً له وأطلقهم يعيثون فساداً ويرتكبون المحرمات والكبائر ويزدادون عتواً وغياً بتسامحه وتغاضيه عما يرتكبونه، أو بالقائه الأوامر عليهم، فخرقوا كلّ قانون واقترفوا على انواع الجرائم: قتلوا اسيادهم، واغتصبوا زوجاتهم واعتدوا على أطفالهم. فلم يستطع [سرتوريوس] صبراً عليهم، فباغتهم بجنوده وهم نائمون في معسكراتهم وجزرهم طعناً بالرماح والسيوف وكانوا يعدون أربعة آلاف.

ثم توفي [ماريوس]، واغتيل [سينّا] بعده بقليل. ونصب [ماريوس] الأصغر نفسه قنصلاً خلافاً لرغبة [سرتوريوس]، وضدّ أحكام القانون. وفشل [كاربو Carbo] و[نوربانوس Nor-banus] و[سكيپيو] في حربهم مع [سيللاّ] الذي راح يزحف نحو روما. وضاع الشيء الكثير بجبن وأهمال القادة، كما ضاع الأكثر منه بخيانة حزبهم. وعمّ الاضطراب كل شيء لافتقار كبار القادة الى البصيرة في حسن تصريف الأمور. فوجد [سرتوريوس] ان وجوده لا معنى له ولا فائدة فيه. ثم أدركه اليأس التام أخيراً عندما ضرب [سيللاّ] معسكره بالقرب من معسكر [سكيپيو] متظاهراً له بالصداقة، وجاعلاً آماله تتركز في السلام، فأفسد بذلك جيشه عليه، ولم يفلح [سرتوريوس] في تنبيه [سكيپيو] الى ما بُيت له مع أنه انذره. فترك روما وأسرع الى اسپانيا ليسيطر عليها ويؤمن لاصدقائه ملجأ ومهرباً مما كان ينتظرهم في الوطن. فصادفه في رحلته طقس رديء، ولقي مشاق ومقاعب في قطعه بلاداً جبليّة كان سكانها يستوقفونه ويطلبون منه مالاً وأتاوات أجر مروره، وفيذعن لهم صاغراً حتى نفذ صبر رفاقه وسخطوا عليه، لأنه كان يدفع - وهو [الپروقنصل] الروماني أتاوة، لشراذم من البرابرة الحقراء. إلاّ أنه لم يلق بالاً على سخطهم وخفف وقع الأمر عليهم قائلاً «إن ما يرونه من مظاهر المسكنة والذلة، انما هو لشراء الوقت، فالوقت هو أثمن شيء عند من يسعون في اطلاب العظائم» وهكذا اسكت البرابرة بماله وغذّ السير حتى بلغ اسپانيا ويسط عليها سلطانه وكانت بلاداً زاهرة، عامرة بالسكان يكثر بينهم القادرون على حمل السلاح. على أنهم كانوا يكرهون سيادة روما بسبب اطماع ومظالم الحكام الذين ترسلهم اليهم بين الفينة والفينة. ومهما يكن فقد تمكن [سرتوريوس] بوقت وجيز من نيل محبّة أشرافهم بالامتزاج بهم. وظفر

بثقة الشعب، واحترامه، عندما عمد الى تخفيض الضرائب عنهم. ألاّ أن ما قرب قلوبهم منه هو اعفاؤهم من واجب استضافة جنود الرومان، واخراجه وحدات جيشه من المدن واسكانهم في معسكرات شتوية ضربت في ضواحي المدن وقد بدأ بنفسه قبل الآخرين فضرب ضيمته خارج الأسوار. ألاّ انه لم يشأ أن يضع كلّ اعتماده في حسن نية السكان، فسلّح كل الرومان الذين بلغوا سنّ الخدمة العسكرية. من المقيمين في تلك البلاد، وقام ببناء السفن وصنع كلّ آلات الحرب والقتال. فأمن لنفسه بهذا طاعة المدن التامة. وبدأ انساناً رفيقاً حسن الشمائل في كل ما يتعلق بأمور السلم. وجباراً قويّ الشكيمة تجاه اعدائه بفضل استعداده الحربي.

وما أن وردته الأنباء بأن [سيللا] أصبح سيد روما المطلق وان الحزب الذي كان يمالئ [ماريوس] الاصغر و[كاربو] قد لفظ انفاسه الأخيرة. حتى ايقن بأن قوة ستجرد عليه.

فأرسل [يوليوس ساليناتور Juluis Salinator] على رأس جيش قوامه ستة آلاف مقاتل كاملي السلاح لتحصين ممرات جبال البرانس والدفاع عنها. فوجد [كايوس آنيوس] وهو القائد الذي ارسله [سيللا] بعد قليل، أن [يوليوس] صعب المنال. فعسكر على مسافة قصيرة من سفوح الجبال، وهو في حيرة من أمره. إلاّ أن رجلاً يدعى [كالپورنيوس ويلقب لاناريوس:Calpurins, Lanarius] أغتال [پوليوس] وعلى أثر ذلك انسحب جنوده من مرتفعات الجبال فتقدم [كايوس آنيوس] بجيشه اللجب ودحَر كلّ من حاول الصمود امامه أو اعاقة زحفه. ولم يكن [السرتوريوس] قِبَل بدخول معركة معه لأنه لم يكن يملك القوة الكافية فأنسحب الى [قرطاجنة الجديدة] بثلاثة آلاف رجل وركب السفن مقلعاً نحو افريقيا. وبوصوله ساحل [موريتانيا] نزل رجاله الى الساحل ليستجموا ويصيبوا بعض راحة فأنقض عليهم أهل البلاد وهم ملقون جانب الحذر وفتكوا بعدد كبير منهم. فأرغمته هذه النكبة الجديدة على الابحار عائداً الى اسپانيا، إلاّ أنه أصيب ثانية باندحار. وانضم اليه عدد من السفن الخاصة ببعض الكيليكيين فأتجهوا معاً صوب جزيرة [پيتايوسا Pityussa] ونزلوا برّها وتغلبوا على حاميتها النى وضعها [آنيوس]. إلاّ ان [آنيوس] أسرع اليهم باسطول يضمّ عدداً كبيراً من السفن من خمسة آلاف جندي فأستعد [سرتوريوس] لقتاله مع أن سفنه لم تكن سفن قتال بل معدّة بشكل يضمن السرعة، والخفّة. وهبت اثناء ذلك ريح غربية عاصفةٌ، أهاجت البحر وأصعدت امواجه فدفعت بعدد كبير من سفنه الى اليابسه وتحطمت على الساحل فلم يعد يستطع بسفنه القليلة الخروج الى عرض البحر بسبب أشتداد النوء. كما منع من النزول الى البرّ بسبب رجحان حملة اعدائه فأخذ يهيم على وجهه في البحر عشرة أيام متوالية يتقاذفه الموج الصاخب وتعبث به الريح المعاكسة. ولم ينج الاّ بصعوبة. وانتظر حتى هدأ البحر، فتوجه

الى بعض الجزر القفراء الخالية من الماء التي تكثر في تلك البحار. وبعد قضائه ليلةً هناك ركب البحر ثانية وعَبَر مضايق [قادس] وأنطلق في رحاب البحر المترامي مخلفاً الساحل اليوناني عن يمينه. ثم عاد وأرسى في موضع قريب من أعلى فم نهر [بايتس Baetis]. حيث يصبّ في المحيط الأطلسي، ويمنح اسمه لهذا الجزء من اسپانيا. ولقي [سرتوريوس] هنا، بحارين وصلوا مؤخراً من جزيرتين في المحيط الأطلسي لا يفرق بينهما الاّ برزخ ضيق، ولا تبعدان عن الساحل الافريقي باكثر من عشرة آلاف [فُرلَنغ] وعلم منهم أن الجزيرتين تسميان [بالبركة Blest]. وان المطر هناك قليلٌ وان هطل، فبزّخات معتدلة. ألاّ انهما تنعمان في معظم الوقت بانسام عليلة يصحبها ندىً قليل، وهذا ما يجعل تربة الجزيرتين خصبةً صالحة للزراعة والحراثة. أضف الى هذا أنه يزيد من غنى الجزيرتين بالفاكهة والثمار. فيخرج منهما مقادير عظيمة من الثمر اللذيذ تكفي لسدّ حاجة سكانها الذين يستمتعون بكلّ هذا الخير دون أن يبذلوا فيه عملاً أو جهداً. وفصول السنة فيهما معتدلة والانتقال الفصلي يكون لطيفاً رائعاً حيث يظلّ الجوّ رائقاً منعشاً. لأن الرياح الشمالية والشرقية التي تهب من سواحل افريقيا واوروبا تتبددّ في الفضاء الواسع فتفقد كلّ شدتها قبل وصولها الجزيرتين. وأمّا الرياح الرخيّة التي تهبّ من الجنوب والغرب فتحمل اليهما أحياناً زخات كبيرة لطيفة تحمله اليهما من البحار، ألاّ أنها في أغلب الأوقات تأتي بالرطوبة مع الصحو، فتبردّ التربة وتخصبها. ولذلك شاع وثبت الاعتقاد بأن هاتين الجزيرتين هما منتجع اصحاب البركة والنعمة، وانهما بالذات [الحقول الليسية Lysian] التي أطنب [هوميروس] في وصفها.

ما أن اسمع [سرتوريوس] هذا الوصف حتى تعلّق بهما وأستولت عليه رغبة شديدة في الإقلاع اليهما. والعيش فيهما بهدوء وسلام، آمناً من الاضطهاد بعيداً عن الحروب التي لا تنتهي إلاّ ان القراصنة الكيليكيين الذين أدركوا رغبته، ولم يكن منهاجهم السلام والاستقرار وأنّما كان هدفهم الأسلاب والغنائم والغنى، ما لبثوا أن تخلّو عنه وأبحروا الى افريقيا لمعاونة [أسكالس Ascalis] ابن [إفثا Iphtha] على أعتلائه عرش مملكة [موريتانيا]. إلاّ أن رحيلهم المفاجيء لم يفتّ في عضد [سرتوريوس]، وقرّر مساعدة أعداء [اسكالس]. وكان يرمي بمغامرته الجديدة الى أن يفتح لجنوده أبواباً جديدة من الآمال وميراناً لنشاط جديد، وبذلك يتمّ له الابقاء على وحدتهم وتماسكهم. وكان وصوله [موريتانيا] مصدر رضا كثير من المغارب. ولم يضيع وقتاً دخل المعركة فور وصوله وهزم [اسكالس] ثم حاصره. وكذلك فعل بـ[باجيانوس Paccianus] الذي ارسله [سيللاّ] مع نجدات قوية لرفع الحصار، فقد فتك به [سرتوريوس] في ساحة القتال، وأستولى على كل قواته، ثم أحتل مدينة [تنكيس Tangis]

التي كان [اسكالس] وأخوته قد احتموا بها. كان الأفارقة يقولون أن [انتيوس Antius] مدفون في هذه المدينة. وكان [سرتوريوس] يشكّ في صحة الرواية، بسبب حجم [انتيوس] الهائل. ولكي يبدل شكه يقيناً، أمر بفتح القبر. فوجد جسده مسجى فعلاً، وكما قيل بطول ستين كيوبيت. فكانت دهشته عظيمة جداً وقربّ القرابين، وزاد في تكريم ذكرى [انتيوس].

يقول الأفارقة ان زوج [انتيوس] المسماة [تانگا Tanga] ساكنت [هرقل] بعد موت زوجها، فاستولدها ابناً اسمه [سوفاكس Sophax] الذي ملك البلاد وأطلق اسم أمّه على هذه المدينة. وكان ابنه [ديودورس Diodorus] من أعاظم الفاتحين، أخضع لسلطانه القسم الاكبر من القبائل الليبيّة. وتمكن بجيش من اليونانيين أن يقضي على مستعمرات الأولبيين -Olbi ans] و[الميسينيين Myceneans] التي أنشأها هرقل هنا. واني ما ذكرت هذا استطراداً هنا الاّ تخليداً لذكرى [يوبا Joba] الملك، الذي يعتبر أعظم الباحثين في التاريخ، فقد قيل ان اجداده انحدروا من سلالة [ديودورس وسوفاكس].

ما أن استتب الأمر [السرتوريوس] في البلاد وصار سيدّها المطلق حتى تفرغ لتصريف شؤون الحكم بمنتهى العدالة بين أولئك الذين وضعوا أنفسهم تحت رحمته وسلموا اليه مقدراتهم. فاعاد اليهم املاكهم المغصوبة وردّ اليهم مدنهم وأطلق يد حكامهم في تدبير شؤونهم. ولم يقبل منهم من الرسوم والضرائب الاّ ما كانوا هم يدفعونه طواعية وعن طيب خاطر. وفيما كان يقلّب وجوه الفكر في اي سبيل يوجه قواته العسكرية، جاءه سفراء [لوزيتانيا Lusitania]، يعرضون عليه قيادة شعبهم. إذ كان الخوف مستولياً عليهم من سلطان روما، ووجدوا من الضروري أن يومِرّوا عليهم قائداً مهاب الجانب محنكاً خبيراً في فنون الحرب. وكانوا على ثقة تامّة ببسالته وشمائله مما سمعوه من كل الذين عرفوه. لذلك أقبلوا وكلهم رغبة في وضع مقدراتهم بين يديه. والحق يقال ان [سرتوريوس] كان كما ذكروا عنه، رجلاً ذا خلقٍ لا يعرف للخوف وللذة معنى. كما كان في المحن والخطوب جَلِداً جميع القلب، ولم يكن يغرّه النجاح أو يفقده الموازنة. ولم يعرف عصره قائداً اشجع منه ولا أكثر اقداماً في ساحة النزال، وفي كل ما تقتضيه فنون الحرب من الكتمان والابداع في رسم الخطط، واتقان المباغتة، حين يكون الهدف، موقعاً مستحكماً يجب احتلاله أو ممراً يجب الاسراع في الاستيلاء عليه. وامّا عن حيلة وكره بعدوّه، فليس ثم من كان يضاهيه في الحنكة والدهاء.

وأمّا بخصوص منح الجوائز، والتكريم لمن يقوم بجلائل الأعمال في الحرب فلم يكن أحدٌ يبذه في السخاء والعطاء. كما لم يكن أحدٌ يبذه في بُعده عن الاعتدال، وافراطه المشتط في انزال

العقاب. والحق يقال أن هذا الوجه من الشدة والقسوة الذي ظهر به في ايامه الأخيرة، على الرهائن الاسپانيين، قد يستخلص منه، في الظاهر، أن رحمته لم تكن خلقاً فيه وطبعاً، بل مظهراً يرتديه كما يرتدي ثوباً فيستخدمها بحسابٍ دقيق حسبما تمليه المناسبة والضرورة. وفي رأيي ان الفضائل الخالصة من الشوائب التي تصدر عن العقل واصالة الرأي لا يمكن ان تمنى قط بانحراف أو يطرأ عليها تغيير الى العكس باية محنةٍ أو خطبٍ. على اني اميل للقول بأن من الممكن في الوقت نفسه ان يطرأ بعض الانحراف والتغير على الفضائل الطبيعيّة عندما تتوالى عليها الرزايا والمحن بغير حقّ أو عدل وبسبب معاندة الحظّ، فتضل اتجاهها كما حصل حسب ظنيّ [لسرتوريوس]. فعندما خانه الحظ وأخطأه النجاح نفد صبره بتكالب المصائب عليه وأوقع بأولئك الذين اساؤا اليه.

بعث [اللوزيتانيون] يستدعون [سرتوريوس] فغادر افريقيا اليهم. وأعطي سلطة قائدٍ مطلقة. ودبرّ شؤونهم كلّها بأحسن وجه.. وأخضع كلّ ما جاورهم من الاقاليم الاسپانية. ودخل طاعته أختياراً معظم القبائل، وكان يحدوهم في ذلك ما أشتهر به من الرافة والبسالة. والى حَدّ ما، كان سبب ذلك الولاء يعود الى سعة حيلة وحبكها فيهم وأختراعاته الماكرة التي كانت ذا أثر كبير في خضوعهم لنفوذه وسهولة تأثيره. ولم تكن حيلة الظبيّة هي الحيلة الوحيدة او الأقل شأناً. خرج [اسپانوس Aspanus] وهو مواطن من ابناء تلك الجهات يصطاد مع رفاقٍ له. وأتفق أن وقع على ظبية وصغيرة لها ولدتها حديثاً. فأنفصل عن رفاقه وأخذ يطاردهما ثم أهمل الأم ولحق بوليدها فأمسك به. وكان سروره عظيماً به لأن لون جلده أبيض حليبي، مما يندر بين الظباء. وكان مقر [سرتوريوس] في ذلك الحين على مقربةٍ بين السكان أنه يسرّ كثيراً بما يقدم له من هدايا الأرض، ثماراً كانت أم طيراً أم لحم طرائد، وانه كان ينفح اصحاب الهدايا بعطايا سخية. لذلك قصده هذا المواطن وأهدى له الظبية الصغيرة. فسرٌ [سرتوريوس] وأعجب بها حالما وقع عليها نظره. وتولى ترتيبها مضارت أليفة طيعة بمرور الزمن، وصارت تستجيب لندائه، وتتبعه اينما ذهب وتحتمل غوغاء المعسكر وضجيجه. ولما كان يعلم أن الناس الذين لم يأخذوا بأسباب المدينة يميلون بطبعهم الى الأوهان والشعبذات فقد أحال ظبيته الصغيرة تدريجاً الى مخلوقٍ فائق للطبيعة في نظرهم، وزعم أنها هبة الآلهة ديانا له. وانها تفضي اليه بكثير من الأسرار. وأخذ يعزو اليها كثيراً من نسيج مكره. فمثلاً اذا أتفق وورده نبأ خاص بأن الاعداء اغاروا على منطقة من المناطق التي تقع تحت حكمه، أو اذا أبلغ سراً بثورة في أحدى المدن، كتم البلاغ ثم زعم أن الظبية قد أبلغته ذلك في نومه أوامرته أن يضع قواته على اهبة الاستعداد. واذا انهي اليه أن أجد قواده قد أحرز انتصاراً، أخفى السُعاة

الذين حملوا له النباء ثم جاء بالظبية متوجةً بالزهر، استعداداً للفرحة بالانباء السارة المتوقعة، وشجع الأهلين على إظهار سرورهم وحثهم على تقريب القرابين للانباء المفرحة التي ستأتيهم عن الانتصار العظيم!

بهذه الأساليب، زاد خضوعهم له وأسلس قيادهم، حتى بلغ الأمر بهم أن أعتقدوا بأن أميرهم هذا ليس شخصاً أجنبياً، وانما هو آله متقمص. وبرهنت الوقائع التالية على ان سلطانه كان يتعاظم باطراد خلافاً لكلّ ما هو محتمل أو متصور. فبألفين وستمائة من الرجال الذي كان يسميّهم رومانيين تشريفاً لهم فحسب، وبسبعمائة أفريقيممن نزل معه برٌ لوزيتانيا. وأربعة آلاف من رماة القسي اللوزيتانيين وسبعمائة من خيالتهم خاض حروباً ضدّ اربعة من القادة الرومان يقودون مائة وعشرين ألفاً من المشاة، وستة آلاف من الخيالة، والفين من الرماة وحملة المقاليع، يقف الى جانبهم ورهن اشارتهم عددٌ لا يحصى من المدن. مقابل عشرين مدينة له في مبدأ الأمر. ومن هذه البداية الهزيلة الضعيفة وصل الى حكم شعوب عظيمة، وأحتل عدداً كبيراً من المدن. وممن أشتبك معه من هؤلاء القواد الرومان [كوتا Cotta] الذي اذاقه مرارة الهزيمة في معركة بحرية داخل برزخ على مقربة من بلدة [مللاريا Mellaria]. ودحر فوفيديوس Fufidius حاكم [باتيكا Bætica] وفتك بالفين من جنوده الرومان، على مقربة من ضفاف نهر [باتيس]. وكانت هزيمة [لوشيوس دوميتيوس Lucuis] (پروقنصل) الأقليم الآخر من اسپانيا، على يد أحد معاوني [سرتوريوس]. وفتك بـ[ثوراتيوس Thoratuis] وهو قائد آخر ارسله [ميتللوس] لقتاله بقوات كبيرة. أما [ميتللوس] هذا الذي كان يعد أعظم جنرالات الرومان، واعلاهم منزلة وثقة، فقد أوقع به سلسلة من الاندحارات وصلت به حالة من البؤس والضيق الى الحدّ الذي الجأ [لوشيوس مانليوس] الى ان يخف نجدته من [غاليا الناربونية].

وأرسل [پومپي] العظيم من روما نفسها على جناح السرعة، بقوات ضخمة. وحار [ميتللوس] في أمره، ولم يدر اي سبيل يسلك في الحرب مع هذا القائد المقدام المتيقظ الذي ما كان يكّف عن التعرض به والاشتباك معه، وان لم يفلح مع كل هذا في جرّه الى معركة فاصلة. اذ أنه كان بالخفة وسرعة الانتقال التي يتميز بها الاسپان يستطيع أن ينقض انقضاضاً مفاجئاً وان يكيف نفسه لكلّ احتمال أو ظروف طارئة. كانت تجارب [ميتللوس] مقصورة على المعارك الأصولية التي تشترك فيها فرق من الجنود النظاميين، بكامل التجهيزات ومعبأة على أسلوب الفلانكس الكثيف الواقف. وكان تدرّبه على مهاجمة وكسر اي عدوّ يلتحم به التحام اليد باليد، مما يثير الاعجاب حقاً الاّ انه كان يعجز عن صعود

الجبال، لا يعرف اسلوب المناوشة المستمرة والهجمات السريعة من الجبليين الذين يمتازون بالخفة الفائقة. كما انه لن يتعود الجوع والعطش مثلهم أو التعرض لتقلبات الريح والمناخ من دون نوم أو غطاء. زد على هذا أنّ السنّ تقدمت به، كما ان كثرة المعارك التي خاضها والأخطار التي جابهها في حياته، جعلته أكثر ميلاً الى حياة الراحة والترف وقلت قابليته على مناجزة [سرتوريوس] الذي كان وقتئذ في عنفوان قوته، وفعاليته، بجسمه الذي لم يخلق لغير القتال. كان قوياً نشطاً قابلاً متكيفاً، مستعداً دائماً لاحتمال اشق الأعمال وأطول الأسفار ولقضاء عدة ليالٍ متتالية دون ان يغمض له جفن، وكان يكتفي بأقل الطعام، ويقنع بأحقره وافقره. ولم يؤثر عنه قطّ الاكثار من الخمر وان كان في أحفل الاوقات بالراحة. وما كان يفضل له من فراغ، يقضيه في الصيد أو ركوب الخيل، وهذا ما جعله على وقوفٍ تامٍ بكلّ ممرٍ صالح للانسحاب عندما يتطلب الأمر ذلك، أو للمباغتة أن حكمت الظروف عليه بالانقضاض على العدو، أو أقتضى الأمر قطع خطّ الرجعة عليه اثناء تقهقره. وكان على معرفة تامة بالامكنة التي يستطيع أن يلوذ بها والامكنة التي لا يستطيع. ولهذا شرب [ميتللوس] كأس الهزيمة المرّ حتى الثمالة، مع انه كان يريد أن يدخل في معركة مع [ميتللوس]، وجنى [سرتوريوس] ثمار الفاتح المنتصر مع انه كان يرفض دخول المعركة. كان يحول بينهم وبين جمع الارزاق من السكان، ويقطع عنهم موارد المياه. واذا تقدموا غاب عن انظارهم. واذا وقفوا في اي موضع وعسكروا تعرض لهم باستمرار وناوشهم وازعجهم. واذا حاصروا مدينة برز لهم فجأة وضرب عليهم طوقاً من الحصار وقطع عنهم الضروريات واحرج موقفهم. وبهذه الوسائل انهك [سرتوريوس] الجيش الروماني. حتى اذا بلغ الأمر بهم منتهاه، برز بشخصه متحدياً [ميتللوس] في نزال فرديّ الأمر الذي رحبّ به الجيش الروماني، وأعلنوا عن موافقهم بهتافهم أن العرض عادل وليس فيه ما يشين فهنا يقاتل الرروماني رومانياً والجنرال جنرالاً، وعندما رفض [ميتللوس] التحدي انحوا عليه باللائمة وعيروه. كان [ميتللوس] محقاً في ازدرائه وترفعه عن قبول هذا التحدي. فالجنرال يجب ان يموت مثل الجنرال لا مثل مبارزٍ في حلبة نزال، على حدّ قول [ثيوفراستس] غير انه لما أدرك أن مدينة [لانگوبريتي Langob-ritæ] التي تقدم أجّل المعونة [لسرتوريوس] يمكن الاستيلاء عليها بسهولة نظراً لشح الماء فيها حيث لم يكن يوجد داخل اسوارها غير بئرٍ واحدةٍ وان باستطاعة القوة المحاصرة السيطرة على الينابيع والعيون في الضواحي. فزحف اليها وهو متوقع الاستيلاء عليها في ظرف يومين لنضوب الماء تماماً. وأصدر أمراً لجنوده بالا يتزودوا من الاقوات إلاّ ما يكفيهم خمسة أيام. على ان [سرتوريوس] قررّ أن يرسل نجدة سريعة من الماء، فأمر بالفين من القرب فملئت ماءً.

وعرض قدراً كبيراً من المال لمن يحمل قربة واحدة. فتعهد بالأمر عدد كبير من الاسبان والمغاربة فاختار منهم اقواهم وأسرعهم سيراً وبعث بهم عبر الجبال، وأمرهم أن يجيئوا بعد ايصال الماء ومعهم كلّ شخص من أهالي المدينة قليل الجدوى والنفع في الدفاع. حتى يوفر الماء للمدافعين. وما أن بلغ اسماع [ميتللوس] هذا التدبير، حتى استولى عليه القلق حيث ان جيشه استهلك معظم ما تزود به من ارزاق. إلاّ أنه أرسل [اكوينوس Aguinus] مع ستة آلاف جندي لجلب المزيد من الارزاق. فعلم [سرتوريوس] بذلك فبادر بنصب كمين مرسلاً ثلاثة آلاف رجل للتمركز في مجرى ماء تحفّ به غابة كثيفة، وفي أثناء عودة [اكوينوس] قام هؤلاء بمهاجمة مؤخرته، في حين هاجمه [سرتوريوس] من الأمام فدمرّ قسماً وأسر الباقي. ولم يفلت غير [اكوينوس] بعد أن فقد عدته وحصانه. فلم يسع [ميتللوس] الاّ أن يفك الحصار وانسحب مقهوراً مشيعاً بضحك الاسبان وسخريتهم، في حين علت منزلة [سرتوريوس] في نظرهم وازدادوا به أعجاباً وأكباراً. ونال عندهم أعظم الشرف بإحلاله روح النظام والضبط بينهم، اذ بدّل من أساليب قتالهم العنيف الأهوج وعلمهم على استخدام الأسلحة الرومانية، ولقنهم طرق المحافظة على الصفوف مرصوصةً سليمة وتلقي كلمات السّر والإشارات. واعدّ بذلك جيشاً نظامياً حسن الضبط محكم الربط من شراذم غير متجانسة من اللصوص وقطاع الطرق. ولم يكن ليبخل عليهم بالذهب والفضة لطلاء وتزيين خوذهم، كما أشار عليهم بنقش التهاويل والزخارف على تروسهم. وعودّهم لبس المعاطف والصداري المزركشة والمحزمة والمنقوشة بالزهر وكسب قلوبهم جميعاً يبذله المال في هذه الأغراض ومساهمته معهم في كل هذا تجديد على أن الشيء الذي أفعمهم غبطة أكثر من أي أمرٍ آخر هو عنايته باولادهم. فقد استقدم كل اولاد اشرافهم وأسرهم العريقة من قبائلهم وجمعهم في مدينة [اوسكا Osca] العظيمة وعيّن معلمين لتلقينهم العلوم اليونانية والرومانية. وصرح قائلاً بأنهم سيكونون عند بلوغهم مبلغ الرجال جديرين بمشاركته في ممارسة السلطة وتصريف شؤون الحكم مع أنه في الواقع جعلهم رهائن تحت يده. إلاّ أن آباءهم كانوا في منتهى السعادة برؤية أولادهم يقصدون المدارس يرمياً في نظام بديع ولباسٍ فاخر واردية موشاة بالارجوان و[سرتوريوس] يدفع ثمن الدروس. ويوزع الجوائز على المتفوقين منهم ويمنحهم قلائد ذهبية يطوقون بها اعناقهم وهي ما يطلق عليه الرومان [بوللي Bullae].

من تقاليد اسبانيا أنه عندما يقتل قائد في معركةٍ، يواصل حرسه الشخصي القتال حتى يقتلوا معه، ويسميه السكان بالذبيحة، أو تقريب الخمر للآلهة. وندر بين القادة من كان كثير الحراس والخدم. إلاّ ان [سرتوريوس] كان يملك الآلاف من الحراس والحشم يقدمون أنفسهم له

قرباناً، ناذرين ان تُسفك دماؤهم مع دمه. حتى قيل أنه لما اندحر جيشه بالقرب من احد المدن الاسپانية وأطبق عليه العدوّ، لم يهتم الاسپان بخلاص أنفسهم وانما قرروا عن آخرهم ان يفدوا حياة [سرتوريوس] فرفعوه على أكتافهم وراح الواحد منهم يدفع به الى الآخر فيتلقفه ويدفع به الى الثالث حتى بلغوا به المدينة. ولما أمنوا على حياته، راح كل فرد منهم يهتّم بحياته وسلامته. ولم يكن الاسپان وحدهم في التسابق الى خدمته، فالجنود الرومان الذين جاؤا معه من ايطاليا - كانوا يتلهفون للعمل تحت أمرته. ولما قدم الى اسپانيا [پرپنا ڤنتو Perpenna Vento] وكان منتمياً الى حزب [سرتوريوس]، حاملاً مبالغ كبيرة من المال مع عدد كبير من الجنود، آثر أن يحارب [ميتللوس] لحسابه الخاص فعارضه جنوده في ذلك وأكثروا من مديح [سرتوريوس] الأمر الذي أخجل [پرپنا] وساءه، فقد كان مزهوا مختالاً بعراقة اسرته وبغناه. ولما انبي‌غيما بعد بأن [پومپي] عبر البرانس وهو يتقدم. وشاع ذلك بين جنوده احتقبوا سلاحهم ورفعوا لواءهم وطلبوا من [پرپنا] أن يأخذهم الى [سرتوريوس] وهددوه في حالة رفضه أن يقصدوا معسكره بدونه ويضعوا أنفسهم تحت تصرفه. لأنه قائد كفوء قادر على الدفاع عن نفسه وعمن يكون في خدمته. وهكذا اضطر [پرپنا] الى الاذعان والنزول عند رغبتهم. فزاد بهم جيش [سرتوريوس] ثلاثاً وخمسين كتيبة.

وكثر عدد جيشه عندما وحدت المدن الواقعة على الساحل الأدنى من نهر [ابرو Ebro] قواها وانضوت تحت لوائه. فتدفقت اليه القوات من كل ناحية. وأخذ الحاحهم على [سورتوريوس] يزداد في مباشرة الهجوم على العدوّ، ونفد صبرهم من التأخير. ولم يكونوا يعرفون معنى الخضوع للنظام لما اتسموا به من التهوّر والعنف. وهو ما كان يزعج [سرتوريوس] كثيراً. فحاول أولاً كبح جماحهم بالمنطق والنصح السديد. ولكنه عدل بعد أن ركبهم العناد واشتط بهم التهور واباح لهم الالتحام بالعدوّ التحاماً يكون فيه الفشل من نصيبهم الى الحدّ الذي لا ينقلب بهم الى هزيمة نكراء. ليكون ذلك درساً لهم يعلمهم به كيف يصيرون في المستقبل طائعين. وفعلاً حصل ما توقع وأصيبوا بكسرةٍ فسارع الى انقاذهم وسحبهم بسلامٍ الى معسكره. وبعد بضعة أيام اراد أن يحي فيهم شجاعتهم ويعيد اليهم معنوياتهم فأمر فأجتمع الجنود وجاء بحصانين الى ساحة التجمع - احدهما هزيل نحيل والثاني قويّ متين الهيكل ذو ذيل غزير الشعر طويل جداً. وجاء برجل قوي البنية طويل القامة فأوقفه بالقُرب من الحصان الهزيل. وجاء بشخصٍ نحيل معروق العظم زريّ الهيئة فأوقفه عند الحصان الفتى القويّ، وأعطى اشارةً، فأمسك الرجل القوي بذيل الحصان الهزيل بجمع يديه وصار يسحبه اليه بكلّ قوته كأنما يريد أن يقلعه من جذره. وفي الوقت نفسه طفق

الرجل الضعيف يستلّ شعرةً اثر شعرة من ذيل الحصان القويّ. وعبثاً جاهد الرجل القوي وسط ضحك الحاضرين الى أن ادركه اليأس، فأقلع عن المحاولة وارتد خائباً. في حين لم يُبق الرجل النحيل الواهن خلال فترة قصيرة من الوقت وبمجهودٍ قليل، شعرةً واحدةً في ذيل الحصان القوي. بعد هذا وقف [سرتوريوس] وخاطب جيشه قائلاً «ها انكم رأيتم ايها الجنود الأخوان، بأن المثابرة والدأب هما أجدى من العنف وان هناك اموراً كثيرةً لا يتمّ التغلب عليها وهي مجتمعة معاً. إلا أنها تستسلم عندما تعالج شيئاً فشيئاً. إن المثابرة والاجتهاد لا يمكن ان يقف امامهما شيء. وبامكانهما في الوقت المناسب تدمير وابادة أعظم قوةٍ مهما بلغت. والزمن هو صديقٌ حميم، وعون لمن يستخدم عقله وبصيرته في ترقب الفرصة. وهو أيضاً عدوٌ لا يرحم لذوي اللجاجة، الندفعين بطيش وتهور». بترديده أمثال هذه العبارات وممارسته لفنون الحيل التخفيف من شراسة هذا الشعب البربري، وتدريبه على ارتقاب الفرص وانتظارها.

ومن بين مآثره الرائعة ليس ثم ما أثار العجب قدر ما أثارته تلك العملية التي دبّرها ضدَّ [الجاراكسيتانيين Characitanians] وهؤلاء كانوا قبيلة تسكن فيما وراء نهر [التاگوس Tagus] لا تقطن المدن ولا القرى وانما تعيش في جبل شاهقٍ مترامٍ، داخل كهوف ومغارات صخرية، فتحاتها متجهة الى الشمال. وكانت تربة الأرض في السهل المجاور، تشبه الطين الفاتح الهشّ الذي يسهل سحقه الى دقيق الرّمل. وهو ليس بدرجة من الصلابة بحيث يتحمّل وطأة اي شخص. وان أنت لمسته أقلّ لمسةٍ انتشر في الهواء كالغبار أو الرّماء. واذا هددت القبيلة بجربٍ قادمة لجأت الى كهوفها حاملةً معها غنائمها وفرائسها ومتكث فيها آمنة ساكنة لا تخشى هجوماً. وكان [سرتوريوس] قد ابتعد عن [ميتللوس] بمسافة كبيرة وضرب خيام معسكره بالقرب من هذا الجبل. فراح رجال القبيلة هؤلاء يعيرونّه ويحقرونّه معتقدين انه ما أنسحب الى مناطقهم إلاّ لهزيمةٍ لحقت به على يد الرومان. وسواء في ذلك أكان قراره بمحاربتهم متأتياً عن غيظه منهم وحفيظته عليهم أم بسبب كرهه ان يظن به الناس الضعف والفرار من وجه الاعداء، فقد خرج في الصباح الباكر راكباً لاستطلاع الموقع والأرض. وتجول مهدداً مضطرباً، ولك يجد ثم طريقاً للوصول الى معاقلهم، لكنه لاحظ انّ الريح تثير الغبار وترفعه الى فوق نحو كهوف [الجاراستيانيين]، التي كانت منافذها، كما قلتُ متجهة الى الشمال وكانت ريح الشمال التي يسميها بعضهم [كاسياس Casias] أكثر الريح هبوباً في تلك الاصقاع. وهي تأتي من الجواء المشبعة بالرطوبة أو الجبال المغطاة بالثلوج. وهي تشتد وتزداد في هذا الوقت وفي قيظ الصيف، بذوبان الثلوج في المناطق الشمالية، فتدفع أنساماً لطيفة منعشة تبرد وتنعش [الجاراسيتانيين] وما شيتهم طوال النهار. درس [سرتوريوس]

دراسة تأمل، النتائج التي هدته اليها معلومات السكان، أو توصلت اليها خبرته الخاصّة، ثم أمر جنوده بجرف مقدار كبير من الاتربة الدقيقة الذرات وتكديسه أكداساً في تل واحد مقابل المرتفعات التي يقطنها هؤلاء البرابرة. فتصوروا ان كل هذه الاستعدادات ترمي الى اقامة تلّ عظيم يشرف على معاقلهم ويسهل منه الظفر بهم. فلم يسعهم الاّ السخرية والازدراء. إلاّ أن [سرتوريوس] واصل عمله حتى ادرك الليل فعاد بجنوده الى المعسكر.

وفي اليوم التالي هبت في مبدأ الأمر نسمات رخيّة، فحركت اجزاء التراب ونشرته في الفضاء، كما تنتشر العصافة امام الريح. لكن ما أن ارتفعت الشمس في مدارها حتى غطت ريح الشمال القوية، كل المرتفعات بعاصفة غبار، ثم اقبل الجنود وراحوا يحركون التلّ ويقلبون ترابه ويكسرون القطع المتماسكة اجزاءً، في حين أخذت الخيالة تمرّ عليها وتسحقه بسنابك خيلها جيئة وذهاباً وتثير سحباً من الغبار في الجوّ. فأندفع بمساعدة الريح كل التراب المكدس محمولاً الى مساكن [الچاراسيتانيين] المفتوحة المنافذ الى الشمال ولم يكن ثم اي منصرف للغبار الصاعد ولم يكن متنفس لهم خلا الفضاء الذي كانت الريح المسماة [كاسياس] تندفع اليه. فما عتمت أن أعمت عيونهم وملأت رئاتهم حتى كادت تخنقهم وهم يجاهدون في استنشاق هذا الهواء المشبع بالغبار والمكثف بدقائق الطين وعجزوا عن الصمود أكثر من يومين بعد أن لم يبق شيء إلاّ حاولوه. واستسلموا في اليوم الثالث. في الواقع أن [سرتوريوس] لم تعظم دولته كثيراً باخضاعهم، قدر ما زادت هذه المأثره من شهرته. فقد برهن أنه استطاع أن يفتح اقطاراً بالحيلة والدهاء. اقطار لا يقوى على فتحها السلاح. أما حول تعامله مع [ميتللوس]، فشائع القول انه مدين بكل ما حققه من نصر عليه، الى شيخوخته، وتباطؤه وكلاهما لا يصلحان لمواجهة خصم [كسرتوريوس] ذي أقدام ونشاط، يقود جيشاً خفيف الحركة، اشبه شيء بعصابة قطاع طرق منه بجيش نظامي، لكن عندما عبر [پومپي] جبال [البرانس]، أيضاً، وضرب [سرتوريوس] معسكره بالقرب منه ولم يفلت اية فرصة للتعرض له أو قبول الدخول في اية معركة تتيح للبراعة العسكرية فرصة وضعها موضع اختبار، ورجحت كفته في مجال هذه المباراة سواء أفي أحباط خطط عدوة أو استنباط الخطط المضادة، طار صيته وذاعت شهرته حتى بلغت روما نفسها. وعرف بكونه أعظم القادة المتمرسين من طبقته. ولم تكن شهرة [پومپي] بالقليلة هي الأخرى فقد سبق له أن نال أعظم التشريف مراراً كثيرة للمآثر التي حققها في حروب [سيللاّ] حتى أنه خلع عليه لقب [ماگنوس] اي العظيم. ولقب [بالأكبر] وارتفعت به همته الى ان منح شرف موكب الظفر قبل أن تنمو لحيته. كان [سرتوريوس] مهدداً بثورة عدد كبير من المدن التي يحكمها، والانتقاض عليه والانضمام الى

يومبي الاّ انها عدلت عن ذلك عندما حققّ من بين ما حقق من عظائم الأمور - ذلك النصر الجليل بالقرب من مدينة [لاورون Lauron] خلافاً لما كان يتوقعه الجميع.

كان [سرتوريوس] قد ضرب الحصار على [لاورون]، فزحف [يومبي] بكلّ جيشه لانقاذها. وكان بالقرب من هذه المدينة مرتفع استراتيجي هام تسابق الطرفان الى احتلاله، إلاّ ان [سرتوريوس] كان الأسبق اليه فأحتله. وأقبل [يومبي] متأخراً فوضع قواته في خطّ القتال عند سفوح هذا المرتفع، غير آسفٍ على ما حصل، ومُقدراً بأنه جعل عدوّه الآن محصوراً بين حامية المدينة وبين جيشه. ثم بعث برسولٍ الى أهالي [لاورون] يقوي من عزائمهم ويشجعهم على الخروج الى اسوارهم، ليشاهدوا كيف أن من يحاصرهم قد أنقلب محصوراً. وضحك [سرتوريوس] حين ادرك خطة [يومبي] وقال: «سألقن الآن تلميذ سيللا (هكذا كان يسمي [يومبي] استخفافاً به) درساً بليغاً. فمن واجب الجنرال أن ينظر خلفه مثلما ينظر امامه» مشيراً الى ستة آلاف مقاتل كان قد تركهم في المعسكر الذي زحف منه عند استيلائه على المرتفع. حتى اذا خطر ببال يومبي الهجوم عليه فسينقض هؤلاء لآلاف الستة على ساقته، وأكتشف [يومبي] الأمر متأخراً، فلم يجرأ على الدخول في معركةٍ خوفاً من تطويقه. كما أن الخجل استولى عليه لتركه اصدقاءه وحلفاءه في محنتهم الشديدة، ورغماً على البقاء حيث هو لا يستطيع حراكاً سيللا يشاهدهم والدمار يحدق بهم أمام عينيه. فقد يئس المحصورون من النجدة. فأستلموا [السرتوريوس] الذي أبقى عليهم، ومنحهم حرياتهم. إلاّ انه أحرق مدينتهم ليس بدافع الغيظ أو بعامل القسوة، اذ ان [سرتوريوس] كان من بين القادة أقلّهم انسياقاً مع العاطفة، بل كان يرمي الى جرّ المزيد من الخزي والعار على المعجبين [بيومبي]، وكذلك حتى ينتشر بين الاسبان أنّ [يومبي] مع أنه كان قريباً من النيران التي أحرقت مدينة حلفائه بحيث لفحته بحرارتها الاّ انه لم يجرأ على القيام باية محاولةٍ لمنع ذلك.

على أية حالٍ، عاني [سرتوريوس] كثيراً من الخسائر في حروبه إلاّ انه كان يخرج منها سليماً بعيداً عن الهزيمة هو ومن تبعه وكان مصدر هذه الخسائر وسببها القادة الآخرون الذين يعملون تحت أمرته. وكان أكثر الاعجاب به، متأتياً من مقدرته على سدّ النقص في جيشه وتغطية خسائره واستعادة النصر من يد العدوّ أكثر مما كان قادة الرومان يستطيعونه. كما كان الأمر في معركة [سوكرا Sucra] ضدّ [يومبي] وفي المعركة التي جرت بالقرب من [تويّتا Tuttia] بينه وبين [يومبي وميتللوس] معاً. ولقد قيل أن المعركة التي جرت بالقرب من [سوكر] كانت بسبب تسرع [يومبي] فقد دخلها قبل مجيء [ميتللوس] لئلا يشاركه هذا ثمار نصرها، وكان [سرتوريوس] يريد الالتحام مع [يومبي] قبل وصول [ميتللوس]. لقد

عوق [سرتوريوس] موعد المعركة حتى المساء، مدركاً ان ظلام الليل لن يكون في صالح اعدائه، ان كانوا هم المطاردين، أو كانوا هم الهاربين لأنهم غرباء عن البلاد لايعرفون طبيعة ارضها.

لما بدأ القتال لم يكن موضع قيادة [سرتوريوس] مقابل [پومپي] وانما كان ازاء [افرانيوس Afranius] الذي انيطت به قيادة الجناح الأيسر الروماني، في حين كان [سرتوريوس] يقود جناح جيشه الأيمن. لكن، ما أن علم أن جناحه الأيسر أخذ يرتد تحت وطأة هجمات [پومپي]، حتى أسرع لإيداع قيادة جناحه الى آخرين وخفّ لإنجاد من تحرج موقفهم فأعاد تحشيد من هرب وبث الشجاعة في الآخرين الذين ما زالوا يقاتلون في صفوف متراصة وكرّ على العدوّ الذي يطارده مجدداً القتال العنيف حتى ألحق الهزيمة الكبرى بعدوّه. وكادت حياة [پومپي] نفسه تتعرض لخطرٍ جسيم. فبعد أن جُرح وفقد جواده، جاءه الخلاص على غير انتظار حيث ان افارقة [سرتوريوس] الذين غنموا حصان پومپي ذا السرج المكفّت بالذهب، راحوا يختصمون عليه فيما بينهم وانشغلوا بذلك عن المطاردة، وصرفوا اهتمامهم الى تقسيم الاسلاب.

كما ان [افرانيوس] انتهز فرصة مغادرة [سرتوريوس] جناحه الأيمن الى القسم الآخر من جيشه، فتمكن من التغلّب على كل من أعترض سبيله وراح يطارد المنهزمين حتى معسكرهم فدخله معهم وعكف على استلاب الغنائم حتى جَنّ الليل، وهو لا يدري شيئاً عن هزيمة قائده [پومپي]، ولا يستطيع أن يمنع جنوده عن السلب. وهكذا فاجاه [سرتوريوس] وهو عائد بعد نصره، وانقضّ عليه وعلى رجاله الذين سادتهم الفوضى واطرحوا جانب الحذر، ففتك بهم فتكته البكر. وفي صباح اليوم التالي خرج الى ساحة القتال بجيشه هو في كامل استعداده وسلاحه وطلب القتال. لكنه تبين أن ميتللوس قد أقترب كثيراً فعدل ورجع الى معسكره وهو يقول «لو لم تُقبل هذه العجوز، لكنت الهبت ظهر الصبيّ بالسياط وأرسلته الى روما».

واستبد به القلق عندما افتقد ظبيته فلم يجدها، وبحث عنها دون جدوى. وفيما كان على هذه الصورة من الحيرة والعجز عن القيام بتدبير حيلة لطيفة ليبث بها الشجاعة في البرابرة ويقوى من عزائمهم وقتما كان في امسّ الحاجة الى ذلك، أتفق لبعض الرجال المتجولين، أن عثروا على تلك الظبية، وعرفوها من لونها، فأخذوها اليه فوعدهم بهبات وعطاياه جسيمة اذا كتموا خبرها ولم يعلموا أحداً بالأمر. ثم عجل فأخفاها، وبعد ايام قلائل ظهر للناس والبشر يطفح من وجهه وقال لرؤساء البلاد، أن الآلهة قد اعلمته في الحلم بأن حادثاً سعيداً سيكون في انتظاره. ثم اتخذ مقعده، وطفق يفصل في المظلمات المقدمة اليه. وفي اثناء ذلك أطلق الخدم الظبية التي كانوا قد جاؤا بها الى مكان قريب من مجلس [سرتوريوس] فما أن تبينته

حتى أقبلت عليه تتوثب فرحة مسرورة، الى أن بلغت قدميه واستقرّ رأسها على ركبتيه، وراحت تلعق كما كانت تفعل من قبل. فأخذ [سرتوريوس] يلاعبها ويداعبها كالسابق وبذلك الحنان، واغرورقت عيناه بالدمع، فأمتلأ الحاضرون دهشةً وعجبا. ورافقوه حتى بيته وهم يهتفون فرحين جذلين وينظرون اليه كما ينظرون الى شخص يفوق مستوى البشر، ذي حظوة كبيرة عند الآلهة. وشاع فيهم الأمل وعادت اليهم شجاعتهم بهذا الحدث العجيب.

لما بلغ [سرتوريوس] باعدائه الى آخر درجة من الإنهاك والجوع لشحّ الارزاق والاقوات، لم ير الاّ أن يدخل معهم في معركةٍ في السهول القريبة من [ساگونتوم Saguntum] ليمنعهم من نهب البلاد. فقاتل الجيشان قتالاً مجيداً رائعاً. وسقط [ميوس Mommius] أحسن قواد جيش [پومپي] قتيلاً في زخم المعركة. وسحق [سرتوريوس] كل من أعترض سبيله مندفعاً الى الأمام نحو [ميتللوس] وهو يجزر في العدوّ جزراً.

وكان هذا القائد العجوز يبلو بلاءً حسناً، يفوق ما يمكن توقعه ممن هم في سنّه. وأصيب بجرح من سنان رمح، وهو ما أخجل وأخزى كل من شهد الحادث أو سمع به من الجنود بتركهم قائدهم في محنةٍ. إلاّ أن عاطفة الانتقام والحنق اثارتهم ضد العدوّ فتحوطوا [ميتللوس] وغطوه بتروسهم ثم أبعدوه عن مكامن الخطر وراحوا يصدون هجمات الإسپان ببسالة. فأخذ النصر ينتقل الى جانبهم. ولم ير [سرتوريوس] مندوحة من الانسحاب الى مدينة منيعة في الجبال. ليضمن موقعاً محصناً وليسهل عليه تعبئة قوات جديدة. ومع أن إحتمال معاناته حصاراً طويل الأمد، كان أبعد من أن يفكر منه، إلاّ انه شرع في ترميم الأسوار وتحكيم الأبواب. وهكذا أوهم اعداءه الذين تعقبوه ثم اتخذوا مواقعهم قبالة المدينة، مؤملين الاستيلاء عليها بالأقل من المقاومة ضاربين صفحاً في الوقت نفسه عن فكرة مطاردة الأسپان. وبذلك أفسحوا المجال لتعبئة قوات جديدة تحت أمرة [سرتوريوس]. فقد أوفد القادة، كلٌ الى مدينته لهذه الغاية وأوصاهم ان يبلغوه حالما تبلغ قواتهم ما فيه الكفاية. فما أن ورده النبأ حتى اندفع من المدينة بقواته وشق طريقه عنوة من بين صفوف العدوّ، وانضّم اليهم مع جيشه بكلّ سهولة. وبالتحاق هذه النجدات الكبيرة به. لم يلبث ان انقضّ على الرومان ثانية بهجمات خاطفة، وباشتباكات مقلقة من كل جانب وبنصب الكمائن وبايقاعهم في الأشراك واصطيادهم، مكّنه هذا من قطع كلّ الموارد عنهم بَرّاً، كما مكنّه بسفن القرصنة من ارعاب الساحل كله، ومنع ايصال المؤون اليهم عن طريق البحر. وبهذا أرغم قواد الرومان على التشتت، والانفصال. فأقفل [ميتللوس] عائداً الى بلاد الغالبين. وأمضى [پومپي] شتاءه عند [الفاكيّ Vaccaens] وهو في حالة يرثى لها، اذ كان في أمسّ الحاجة الى المال، ولذلك

كتب الى مجلس الشيوخ يطلب العون العاجل، والاّ كان مضطراً الى الانسحاب بجيشه، فقد انفق كل أمواله الخاصة في سبيل الدفاع عن ايطاليا. وهكذا كانت حنكة [سرتوريوس] ودهاؤهالسبب في أيصال أعظم وأمنع قادة العصر، الى هذا الدرك من الذلّ والبؤس. وشاع الرأي في روماأن [سرتوريوس] سيسبق [پومپي] الى روما.

ومما يدلّ على الخوف الذي أستولى على [ميتللوس]، ودرجة تقدير خطورة [سرتوريوس] عنده، أنه أذاع أعلاناً رسمياً تعهد فيه أن يمنح مائة [تالنت] من الذهب وعشرين ألف ايكر من الأرض الزراعية، لايّ روماني يغتاله، واذا كان القاتل من المنفيين، فسيلغي أمر نفيه وبعيده الى الوطن. وهكذا رأيناه يحاول شراء حياة خصمه بأخسّ طرق التآمر بعد أن يئس من التغلب عليه في حربٍ علنية. ومرّةً، عندما نال نصراً عليه في أحد المعارك استخفه الطرب واخرجه عن طوره، واسكره حسن طالعه. فأمر بأن ينادى به [امبراطوراً] على الصعيد الرسمي، وجعل كل مدينة زارها تستقبله بالاضحيات والقرابين وقيل انه سمح لنفسه أن يضع أكاليل الغار على جبينه، واقام الحفلات الفخمة وجلس فيها يشرب الخمر وهو متوشح بثياب النصر، في حين كانت صور وتهاويل مواكب النصر تتوالى امامه بطريقة ميكانية حيث تتابع صور غير حقيقية لتيجان وغنائم وتذكارات حربية من الذهب. واجواق من الفتيات والفتيان يرقصون امامه وينشدون له أناشيد الفرح والنصر. الحق يقال انه بهذا، جعل نفسه مهزاة واضحوكة لتماديه في المباهاة، وافراطه بالسرور والإغراق في أوهام النصر. وكل ما في الأمر هو أنه تعقب رجلاً منسحباً على أختياره لا مجبرا. وانه تغلّب مرة واحدة فقط على من كان يسميّه بعبد [سيللاً] الآبق، ويصف قواته بأنها بقايا جيش [كاربو Carbo] المهزوم.

وفي اثناء ذلك كان [سرتوريوس] ينكشف عن اسمى الخلق. فقد جمع كل أعضاء مجلس الشيوخ الروماني الذين نزحوا من روما. وآثروا البقاء معه. وعمل منهم مجلس شيوخ وأختار من بينهم [پريتورين] و[كويستورين]. وجمل حكمه بتطبيق الشريعة الرومانية. وتبنى اجهزتها الحكومية. ومع أنه استخدم أسلحة الاسپان وانفق أموالهم واستعان بمدنهم إلاّ انه لم يودع اليهم اية سلطةٍ حقيقية ولو اسمياً، بل عين ضباطاً وقادة رومانيين عليهم قائلاً أن غايته هو اعادة حريات الرومان لا استعداء الاسپان عليهم. فقد كان يحبّ بلاده حبّاً جماً وتتملكه رغبة قوية جداً للعودة اليها. على أنه كان يظهر صلابة وتجلداً عندما يعانده الحظ، لا تعد لها صلابة. ويبدو لاعدائه في تلك الحالة ابعد من الحيرة والقنوط والكآبة. ولما كان في أوج سلطانه وأعظم نفوذه كتب لكلّ من [پومپي] و[ميتللوس] مبدياً استعداده لالقاء السلاح والعيش عيشة المواطن العاديّ بعيداً عن الأمور العامة شريطة ان يسمح له بالعودة الى

الوطن، قائلاً أنه ليفضل العيش في روما كأصغر مواطن على أن يعيش بعيداً عنها وان اجتمع له ملك جميع المدن الأخرى. ويعتقد أن حبه لوطنه كان مبعثه بدرجة غير قليلة، تعلقه الشديد بامّه التي ربته وانشأته بعد وفاة ابيه فتمركز فيه كل عاطفتها. وبعد ذلك بعث اصدقاؤه يستقدمونه الى اسپانيا ليكون قائداً لهم. وفيما هو كذلك اذ سمع بنبأ وفاة امه. فكاد يقضي حزناً وبقي سبعة أيامٍ كاملة منزوياً في خيمته لا يكلم أحداً بكلمة واحدة، ولا يسمح لأقرب اصدقائه بالدخول عليه. وعندما أقبل رؤوساء الجيش والقادة ورجال الدولة الى خيمته عانوا جهداً كبيراً في أقناعه بالخروج والتحدث الى جنوده ومزاولة أعماله وشؤونه التي كانت من أفضل ما يمكن. ولذلك فان رأي الكثيرين عنه يقطع بخلقه الرفيق الحاني وبنفسه الملائ بالعاطفة وميله الأصيل الى الهدوء والمسالمة وما قبوله قيادة القوات العسكرية الآ شيء يخالف طبعه، لم يلجأ اليه الاّ مجبراً بعد أن عجز عن البقاء آمناً مستقراً بوسيلةٍ أخرى، فقد دفعه اعداؤه دفعاً للاحتكام الى السلاح وتبنيّ الحروب كأمر لابدّ منه لحماية شخصه. ومفاوضاته مع [مثيريداتس] الملك، تقوم هي الأخرى على رجاحة عقله وعظمته. عندما تمكن [مثيريداتس] من محو كل آثار الهزيمة التي الحقها به [سيللاّ] بدأ كالمصارع الجبار مستوياً على قدميه مستعداً لجولة أخرى. وكان يعمل جاهداً لاعادة بسط سلطانه على آسيا. وفي ذلك الحين كانت الاقطار تلهج باسم [سرتوريوس]. وحملت ابناء انتصاراته جماعات التجار الذين عادوا من اوروپا الشرقية مع السلع، الى مملكة [پونطس] فملأوها باقاصيصهم عن المآثر الحربية التي حققها. وبلغت الملك فزاد الشوق به الى ارسال سفارة اليه. أو ربما شجعه الى هذا ملق المتملقين إذ أخذوا يقارنون [مثيريداتس] بـ[پيروس] و[سرتوريوس] بـ[هنيبعل]. وأستخلصوا من هذا أن الرومان سيسقط في يدهم عندما تنقض عليهم قوات كهذه بقيادة اثنين [كسرتوريوس ومثيريداتس] في آن واحدٍ. جيش على رأسه أشجع قائدٍ من قواد العصر، وجيش على رأسه أعظم ملك في الوجود.

وبناء على هذا بعث [مثيريداتس] بسفرائه الى سرتوريوس في اسپانيا ومعهم رسائل وتعليمات، وخولهم أن يتعهدوا [لسرتوريوس] بارسال السفن والأموال له في سبيل الحرب شريطة أن يؤيد مطالبه في آسيا، ويسمح له بحق السيطرة على كل ما تنازل عنه للرومان بموجب المعاهدة التي عقدها مع [سيللاّ]. فجمع [سرتوريوس] المجلس الذي أطلق عليه (مجلس الشيوخ). بكامل اعضائه. وشاورهم في الأمر فوافقوا مغتبطين علن عروض [مثيريداتس] وأعلنوا عن رغبتهم في الحال بقبول شروطه مقدرين ان ما يريده منهم لا يعدو الأسم الأجوف. والحقّ في بسط نفوذه على بلادٍ لا يملكون القدرة على التنازل عنها، كل ذلك

مقابل امدادهم بما هم في أمس الحاجة اليه. إلاّ أن [سرتوريوس] خالفهم في الرأي ولم يوافقهم في تعاليلهم، قائلاً: لا اعتراض لديه على ممارسة [مشيريداتس] سلطانه على [بيثينا] و[كبادوكيا] وهما بلدان يعودان له، ولا علاقة لروما بهما. إلاّ انه لا يوافق على أن يملك [مشيريداتس] أقاليم تعود الى الرومان شرعاً وبحقّ صريح، كان هذا الملك قد استولى عليها سابقاً ثم خسرها بحربه مع [فمبريا]، ونزل عنها بموجب معاهدة الصلح التي عقدها مع [سيللاّ]. وهو يرى ان واجبه بسط نفوذ الرومان وتوسيعه بفتوحه الحربية، لا تقليص مساحة الممتلكات الرومانية على حساب زيادة نفوذ الملك. وانه كرجل شريف النوايا لن يقدم على بذل أي مساع لانقاذ حياته بالموافقة على شروط غير مشرفة، وإن كان يجني ثمار النصر بلا تردد اذا جاءه النصر بطريق شريفة.

ولما نقل هذا القول [لمثيريداتس] ادركه العجب وقال لخلصائه: «لو قدرّ [لسرتوريوس] أن يجلس على معقد الحكم في [البللاتيوم] بروما فماذا سيضطرنا الى عمله. وها هوذا الآن وهو في سواحل الأطلسي، يضع لمملكتنا حدوداً في الشرق ويتوعدنا بالحرب اذا حاولنا استرجاع آسيا؟». على ان المعاهدة الموثقة بالاقسام عقدت فيما بينهما أخيراً ومجمل شروطها أن تطلق يد [مثيريداتس] في [كباردكيا] و[بيثينا] وان يرسل اليه [سرتوريوس] جنوداً وجنرالاً لقيادة جيشه ويتعهد ميثيريداتس مقابل ذلك أن يزوده بأربعين سفينة وبمبلغ [٣٠٠٠] تالنت من المال. وتم اختيار [ماركوس ماريوس] قائداً لآسيا وهو عضو مجلس الشيوخ كان قد ترك روما وانضم الى [سرتوريوس]. وكان هذا القائد يمارس سلطة القائد الروماني ويحتفظ بمظاهر سلطانه، فيدخل في المقدمة المدن التي يفتحها [مثيريداتس] في آسيا يتقدمه شعار الحكم الروماني وهو الفأس والعصّي. ويتبعه [مثيريداتس] مطيعاً أوامره ومنح بعض هذه المدن حريتها، وأعفى بعضها من دفع الضرائب مؤكداً بذلك أن هذه الامتيازات إنّما منحت لها بفضل [سرتوريوس]. وبهذا أخذت آسيا التي عانت الكثير من ظلّم وتحكم جباة الضرائب، واضطهاد الجنود وطمعهم واستعلائهم، أخذت تنهض من كبوتها وهي عامرة بالايمان والأمل بتغيير جديد في أسلوب الحكم.

على ان الشيوخ الذين التفوا حول [سرتوريوس] في اسبانيا، واشراف روما الآخرين ما لبثوا عندما شعروا بالقوة الكافية لمواجهة اعدائهم الرومان. أن أطرحوا جانب الحذر، بدافع الغيرة من سطوة [سرتوريوس] والحسد له. وكان في مقدمة هؤلاء [پربّنا]. الذي طغى عليه اعتزازه بنبل أصله، وأستولت عليه الرغبة الجامحة في القيادة، حتى أعمت بصيرته. فأخذ يذيع سراً أقوالاً ماكرة خبيثة بين معارفه ويحرضهم على [سرتوريوس]. كأن يقول «اية روح

شريرةٍ تدفع بنا الى الأسفل نحن الذين ابينا العيش بهذه الصورة في بلادنا بهدوء وسلام، لأننا أنفنا من اطاعة اوامر [سيلاً] حاكم البرّ والبحر. نأتي هنا ونتعرض للهلاك على أمل التمتع بحريتنا، لنجعل من أنفسنا بملء اختيارنا، عبيداً بل حرساً وخدّاما حقراء [لسرتوريوس] المنفيّ الذي زاد في عارنا وخزينا بمنحنا اسماً يجعلنا موضع سخرية كل سامع سمّانا أعضاء مجلس الشيوخ في حين كلفنا بأشق الأعمال، وارغمنا على الخضوع لمشيئته الغطريسة، واهاناته، كالاسپان واللوزيتانيين سواء بسواء».

بهذا التحريض، استمال الشيوخ. ومع أن أغلبيتهم لم تكن في مقدورها أن تعلنها ثورة عليه خوفاً من بطشه ألاّ انها وافقت على إفساد اموره والعمل على تقويض حكمه بصورة خفيّة. فأثاروا اللوزيتانيين والاسپان، وأخرجوهم عن طورهم بانزال العقوبات القاسية بهم، وبأثقال كواهلهم بالضرائب، زاعمين لهم، بأنهم انما يأتمرون بأوامر [سرتوريوس] حرفيا، وبهذه الوسائل خلقوا متاعب عظيمة، ودفعوا مدنا عديدة الى الثورة. وأولئك الذين كان [سرتوريوس] يرسلهم اليها لاصلاح ذات البين ولازالة اسباب الشكوى، يزيدون في الطين بلّة ويكثرون من اعدائه ويعودون والناس قد تضاعف سخطهم وزادت ثورتهم وقيداً. وفي وسط هذا الاضطراب كان [سرتوريوس] المعروف بلين الجانب يزداد حنقاً حتى انساه رقته وتسامحه المأثورين، وبلغ به الأمر حداً أن أمر بالقاء القبض على ابناء الاسپان الذين جاء بهم لتلقي العلوم في مدينة [اوسكا] وبقلب اعماه الغيظ والغلظة المتناهية امر بقتل بعضهم وببيع آخرين رقيقاً.

واتسعت دائرة المتآمرين عليه وزاد عدد المنتظمين فيها وانفرد [پرپنا] بقائد من قواد الجيش يدعى [مانليوس] كان وقتئذ مغرماً بفتى من الفتيان يريد وصاله فكشف له عن اسرار المؤآمرة تقرباً منه وخطوة، ورغبةً في الاستئثار به هو وحده دون غيره، لأنه كما قال له انك ستكون بعد ايامٍ قليلة رجلاً خطيراً ذا مركز عظيم وسلطان. الاّ ان الشاب كان يخصّ بميله [اوفيديوس] فأسرع اليه وكشف له عن حقيقة المؤآمرة كلّها. فأثار بذلك دهشته وانذهاله، اذ انه كان واحداً من المؤتمرين، لكنه يجهل حتى تلك اللحظة بأن [المانليوس] ضلعاً فيها أو صلة بأي شكل من الاشكال. لكن لما أخذ الفتي يذكر له اسماء [پرپنا] و[گاراكينيوس Graci-nus] وغيرهما، ممن كان يعلم جيداً أنهم شركاؤه في التآمر، ومن الرؤوس التي تحالفت بالايمان والعهود. استبدّ به الخوف وجن رعباً الاّ انه تظاهر بالاستخفاف وعدم التصديق وطلب منه أن لا يصدق ما قاله [مانليوس] ولا يضع اية ثقة فيه، لأنه رجل مهذار كثير التباهي... ثم أسرع فأتصل بـ[پرپنا] ونبهه الى الخطر المحدق بهم والى قصر الوقت. وطلب منه البدء

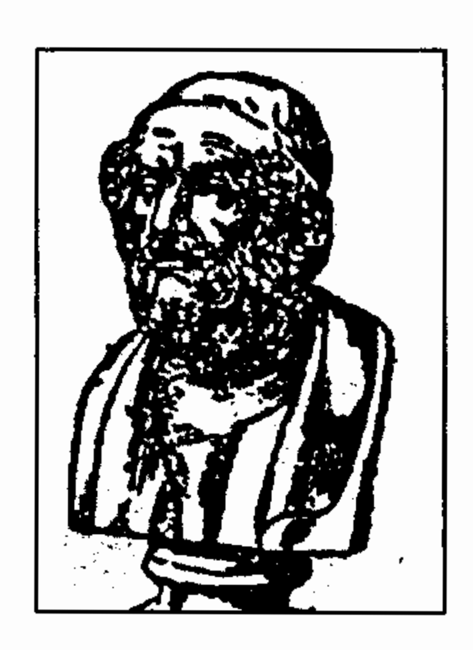
بتنفيذ المخطط في الحال. وبعد اقرار الخطة. جاؤوا بأحد السعاة وزوّدوه برسائل مزيفة حوت انباء عن نصرٍ موهوم حققه أحد قواد سرتوريوس، وعن مقتلةٍ عظيمة أوقعها باعدائه، فبعثوا بها اليه، وكان سرور [سرتوريوس] بذلك عظيماً وقرب قرابين الشكر لهذا النجاح الكبير. وبهذه المناسبة دعاه [پرپنا] ورفاقه المتآمرون الى مأدبة عشاءً. فبادر اليها مسروراً. وكان النظام والأدب عادة يسودان كلّ مجلسٍ أو دعوة يحضرها [سرتوريوس]، فهو لم يكن يصبر على سماع أو رؤية ما يخالف قواعد السلوك والادب أو ما يتسم بالتسفّل وسوء الخلق. ولذلك اعتاد عشراؤه وملازموه ان يتحاشوا كل ما لا يستقيم مع قواعد الأدب اثناء وجوده وان لا يبدر منهم ما يخلّ بالهدوء والسكينة. وفي هذه الحفلة بالذات تعمّد المتآمرون أثارة الضجّة لتنفيذ مآربهم فتظاهروا بالسكر وراحوا يعربدون ويثيرون ضجة قبيحة ويرتكبون كثيراً من الحماقات يريدون بها استفزازه فعمد [سرتوريوس] الى تغيير وشكل اضطجاعه وأنقلب على جنبه الآخر واولاهم ظهره كمن يريد أن لا يسمعهم ولا يشاهدهم إمّا منزعجاً من سوء سلوكهم وامّا مدركاً حالة التبلد العقلي التي ظهرت من سقط الكلام والفظاظة غير الاعتيادية واطراح جانب الأدب. وعندئذ رفع [پرپّنا] كأساً ممتلئة بالخمر الى فمه وافلتها من يده فسقطت على الأرض وأحدثت رنينا وكانت الاشارة المتفق عليها فيما بين المتآمرين. فنهض [انطونيوس] الذي كان مجلسه مجاوراً للمؤتمر به وطعنه بسيفه. واراد [سرتوريوس] بعد اصابته ان ينقلب محاولاً النهوض فألقى [انطونيوس] على صدره وأمسك بكلتا يديه فشله عن الحركة فتكاثر عليه الباقون واثخنوه طعناً أجهزوا عليه دون أن يتحبوا له فرصة الدفاع عن نفسه.

وما ذاع نبأ قتله، حتى بادر معظم الاسپان الى ترك جانب المتآمرين وبعثوا الى [پومپي] و[ميتللوس] يطلبون الدخالة والاستسلام. وحاول [پرپنا] القتال ببقية الموالين، ألاّ أنه لم يفلح في استخدام أسلحة [سرتوريوس] وقواته الحربيّة، الاّ بما كساه خزياً وعاراً. وبما أوضح للجميع بأنه لا يدري من فنون القيادة العسكرية أكثر من معرفته كيف يطيع. وعند التحامه في معركته الأولى مع [پومپي] انكسر شرّ كسرة ووقع أسيراً. الاّ انه لم يحتمل كبوته هذه باي مظهر الرجولة والشجاعة. وعرض على [پومپي] تزلفاً وتقرباً رسائل كانت في حيازته بعث بها الى [سرتوريوس] نخبة من روما ذوو مراتب قنصلية مدونة بخط ايديهم يطلبون فيها من [سرتوريوس] القدوم الى ايطاليا. كما عرض على [پومپي] ايضاً قائمة باسماء عدد كبير كانوا يريدون قلب نظام الحكم السائد في روما واقامة دولة جديدة. إلاّ ان [پومپي] في هذه المناسبة كان ابعد من ان يتصرف تصرف الشاب الغرير الأهوج غير المتبصر بالعواقب.

بل كـان تصـرفـه تصـرف رجل ناضج راجح العـقـل، سـوّي الحكم، فـقـذف بكل مـدوّنات [سرتوريوس] مع الرسائل في النار دون أن يقرأ حرفاً منها أو يدع غيره يطلع عليها وبذلك حررّ روما من مخاوف عظيمة وانقذها من أخطار الانقلاب. وأمر ان يقتل [پرپنا] فوراً لئلا يكون بقاؤه قيد الحياة سبباً في انكشاف تلك الاسماء واثارة المزيد في المتاعب. واندلاع ثورات أخرى.

أمّا عن بقية المؤقرين بـ[سرتوريوس] مع [پرپنّا] فبعضهم قبض عليه وقتل بأمرٍ من [پومپي] وبعضهم هرب الى افريقيا فوقع في أيدي المغاربة الذين قضوا عليه طعناً بالحراب وفي زمن قصير جداً تمّ القضاء عليهم جميعاً عدا [اوفيديوس] منافس [هانليوس] الذي أختبأ وتوارى عن الأنظار ولم يجدّ أحد في طلبه وتوفي في ارذل العمر فقيراً مبغضاً من الجميع في احدى القرى الاسبانية.

١٩٦٩/٨/٢٧



هوميروس


يومينيس
EUMENES
360 _ 316



يحدثنا [دوريس Doris]، بأن [يومينيس] الكاردي Cardia، كان ابناً لسائق عجلة فقير الحال من الخرسونيز التراقيّة. إلاّ أنه نال تعليماً واسعاً في ميدان العلم والجندية، ويقول أن [فيليّس] لما كان في [كارديا] كان يتسلّى يوماً بمشاهدة نزال مصارعةٍ وغير ذلك من العاب الفتوة هناك. فوجد [يومينيس] من بينهم يبز اقرانه ويحرز السبق عليهم، فسرّ به واستخدمه. ولكن الاقرب الى الاحتمال هو أن [فيلپس] ما قدّم [يومينيس] إلاّ بسبب الصداقة التي كانت بينه وبين ابيه الذي كان كثيراً ما ينزل عنده ضيفاً. وآثره [الاسكندر] بعد موت ابيه [فيلپس] بعطفه فعينه كاتم سرّه الأول. إلا أن حظوته عنده كانت تعدل حظوة أقرب خلصائه. فقد أشتهر أمر اخلاصه ورجاحة عقله. فسلّم جيشاً قاد به حملة على الهند. ونجح في استخلاف [برديكاس Perdiccas] الذي كان بدوره خلفاً لـ[هيفاسيتون Hephæston] بعد وفاته.

وضحك المقدونيون من [نيوپطليموس Neoptolemus] قائد حرس [الاسكندر] الخاص، عندما وقف قائلاً بعد وفاة الاسكندر، أنه تبع قائده حاملاً ترسه ورمحه، في حين لم يتبعه [يومينيس] بغير القلم والقرطاس. ضحكوا لأنهم كانوا على معرفة تامة بأن الملك المتوفى الى جانب المكارم التي اسبغها عليه شرفه ورفع منزلته باستحداث نوع من المصاهرة معه. ذلك أن زوج الاسكندر الأولى التي استولدها ابنه [هرقليس] كانت [بارسنه Barsine] بنت [آرطباز] وعند توزيع النساء الفارسيات على قواده، أعطي [اپامه Apame] احدى شقيقاتها [لبطليموس]، واعطى الثانية واسمها [بارسنه] أيضاً - [ليومينيس].

على انه كثيراً ما كان يُغضب [الاسكندر]، ويضع نفسه في مواقف خطرة بسبب [هيفاستيون]. فمثلاً كان المسكن الذي اتخذه [ديومينيس] قد قررّ [هيفاسيتون] أن يكون لـ[يويوس Euius] النافخ بالمزمار. فحنق [يومينيس] و[منتور Mentor] ورفعا الأمر الى الاسكندر وراحا يحتجان بشدّة قائلين: لو أنهما ألقيا سلاحهما جانباً واحترفا مهنة النفخ بالناي أو تمثيل التراجيديات، لكان افضل لهما واجدى. وهكذا حتى لم يسع الاسكندر إلاّ ان يلتزم جانبهما ويعنف [هيفاستيون]، ثم ما لبث ان بدّل رأيه وحنق على [يومينيس]، معتبراً

الحرية التي سمح بها لنفسه امامه من قبيل الاهانة، لا من قبيل الشكوى على [هيفاستيون].

وفي مناسبة أخرى، تقررّ أن يرسل [نيارخوس Nearchus] على رأس اسطول الى بحر الجنوب. وكانت خزانة الاسكندر خاوية فعزم على الاستدانة من اصدقائه، وقرر أن يكون سهم [يومينيس] ثلاثمائة تالنت. إلا أن [يومينيس] لم يبعث اليه بغير مائة محتجاً بضيق ذات اليد وبصعوبة جمع هذا المقدار من امنائه. فلم يعتب عليه الاسكندر، ولم يتسلّم المال. لكنه أمر سراً باحراق خيمته، يريد بهذا أن تفتضح كذبته حالما تنقل امواله خارج الخيمة عند شبوب النار. الاّ ان النار أتت على الخيمة كلها قبل أن يتم اخراج ما بداخلها. واذ ذاك ندم الاسكندر على ما فرط منه، فقد احترقت كل المخطوطات منها. إما الذهب والفضة التي اذابتها حرارة النار فقد جمعت فيما بعد ووجد أنها تزيد عن ألف تالنت. إلاّ ان الاسكندرلم يأخذ منها شيئاً، وكتب الى الولاة والقواد بأن يرسلوا نسخاً أخرى من المخطوطات التي أحترقت وأمر أن تسلّم كلها لـ[يومينيس].

ونشب خلاف آخر بينه وبين [هيفاستيون] بسبب هدية. فتبادلا الكثير من الكلام الجارح. ومع هذا كله فقد بقي [يومينيس] محتفظاً بمركزه وحظوته. ثم ان [هيفاستيون] ما لبث أن قضى نحبه. وأشتدّ الحزن بالملك عليه حتى راحت به الظنون الى أن كل من عاداه وخالفه أيام كان حياً، هو الآن فغبط سعيد بموته. فأظهر في سلوكه معهم ولاسيما [يومينيس] كثيراً من الجفاء والغلظة، وطالما لامه ووبخه على مشاحناته واعتداءاته عليه. الاّ انه وهو رجل البلاط الحكيم الماكر افاد مما كان يوجه اليه من التهم ظلماً، بأن راح يضرب على الوتر العاطفي عند الملك بتمجيد وتقديس ذكرى صديقه، مقترحاً مختلف الطرق لأكرام ذكراه.

وعلى أثر وفاة الاسكندر، نشب الخلاف بين جنود [الفلانكس] وبين ضباطه من أصحابه. ولكن [يومينيس] وقف محايداً بين الفريقين بحكم وظيفته مع انه كان يميل الى الطرف الثاني، فقد رأى بثاقب نظره انه ليس من المستحب أن يتدخل وهو الأجنبي عنهم – في نزاع داخلي بين المقدونين. ولما ترك بقية اصدقاء الاسكندر مدينة [بابل] تخلّف هو فيها. وبذل جهوداً كثيرة في تهدئة الجنود المشاة وأقناعهم بتسوية الخلاف. ولما حَلّ التفاهم بين القادة، وخرجوا من مرحلة الفوضى الأولى شرعوا يتقاسمون القيادات والاقاليم. فأقطعوا [يومينيس] [كبدوكيا] و[باڤلاگونيا Paphlaginia] وكل الساحل الذي هو على البحر اليونطي، حتى [ترابزون] التي لم تكن وقتذاك ضمن املاك المقدونيين. لأن الملك [آرياراثس Ariarathes] كان يحتلها. ولذلك قام كل من [ليوناتس Leonattus] و[انتيگونس Antigonus] بالزحف عليها بجيش لجب، وأحتلالها لتمكين [يومينيس] منها.

على أن [انتيگونس] الذي كانت الآمال والأطماع الخاصة تملك عليه مذاهبه، وتجعله يحتقر الجميع، لم يلق بالاً الى رسائل [پرديكّاس. كما أن [ليوناتوس] ساق جيشه نحو [فريجيا] حفظاً لمصالح [يومينيس]. لكن [هيكاتاوس Hecataeus] طاغية الكارديين، زاره وزيّن له أن يقوم بنجدة [انتيپاتر] والمقدونيين الذين كانوا قد حوصروا في [لاميا Lamia] فقررّ أن يأخذ برأيه ويقوم بهذه الحملة ودعا [يومينيس] الى المساهمة فيها. وحاول مصالحته مع هيكاتاوس اذ كان يوجد بينهما ثأر موروث ناشيء عن خلافات سياسية. وعرف عن [يومينيس] أيضاً، بأنه ندد أكثر من مرة [بهيكاتاوس] وطغيانه. وحث الاسكندر على تحرير الكارديين من ربقته لذلك نجده الآن يرفض المساهمة في الحملة المقترحة. وزعم أنه يخشى أن يقع في يد [انتيبباتر] فيقتله لأنه يحقد عليه، ولأنه يريد أن يؤدي خدمة [الهيكاتاوس]. وكان [ليوناتوس] عظيم الثقة [بيوفينيس] فلم يتردد من الافضاء اليه بتفاصيل خطته التي اضمرها، وهي التظاهر منه بالعمل على مساعدة [انتيپاطر] في حين أنه يعمل في الحقيقة على اخضاع مقدونيا كلها لسلطانه، ثم انه عرض عليه رسائل وردته من [كليوباطرا] تدعوه فيها الى [پيللا Pilla] وتعده بالزواج منه. إلاّ أن [يومينيس] أسرع متسللاً تحت جنح الليل منه، إما خوفاً من [انتيپاطر]، أو لأنه كان يعرف [ليوناتوس] رجلاً عنيفاً صلب الرأي يخشى جانبه. وكان معه كل اتباعه وهم ثلاثمائة من الفرسان ومائتان من الخدم والابقاع المسلحين، ونقل كل ما يملك وهو حوالي خمسة آلاف تالنت من الفضة، ولجأ الى [پيرديكاس] وأفضى اليه بما يبيته [ليوناتوس] فركن اليه وأصبح مستشاره. وبعد فترة وجيزة زحف [پرديكاس] بجيش جرار ليعيد [يومينيس] الى كبدوكيا. وقف الى أسر [آرياراش] واخضاع كل البلاد واعلان [يومينيس] حاكماً عليها. فقام هذا بتوزيع المدن الكبرى على اصدقائه ونصب امراء حاميات وقضاة وجباة وغيرهم من الموظفين بمطلق رأيه دون تدخل من [پرديكاس] على أن [يومينيس] ظلّ في طاعته وخدمته إحتراماً له ورغبة منه في أن يكون قريباً من الأسرة الملكية.

إلاّ أن [پرديكّاس] الذي كان يجد في نفسه القدرة الكافية على بلوغ مآربه الأخرى دون عون من أحد، وان البلاد التي خلفها قد تكون بحاجة الى حاكم نشطٍ مخلص، ما لبث بعد دخوله كيليكيا، أن عزل [يومينيس] متعللاً بضرورة إرساله الى مقرّ قيادته، وفي الحقيقة لأجل الاستيلاء على ارمينيا التي كانت على الحدود تعمها الفوضى والقلاقل بسبب دسائس [نيوبطليموس]. وكان [يومينيس] رجلاً معتداً بنفسه وبكرامته فأبى إلاّ أن يجهد نفسه ويسعى دون مساعدة أحدٍ الى احلال نوع من التوازن العدديّ والجيش مع المشاة المقدونيين

الذين وجدهم رجالاً شديدي التشبث والاعتداد برأيهم، فعمد الى تعبئة قوة من الخيّالة باعفائه من الضرائب والأتاوات كل البالغين من سكان البلاد القادرين على ركوب الخيل. وابتاع عدداً من الخيل وفرقه على أخلص اتباعه. مثيراً روح الإقدام في جنوده المستجدين بالهدايا والجوائز. مهيئاً أجسامهم للخدمة العسكرية بالمسيرات المتواصلة والتدريب العسكري الشاق وكان المقدونيون بين معجب وبين مسرور برؤيتهم نجاحه في تعبئة ما لايقل عن [٦٣٠٠] من الخيالة في وقت قصير جداً.

وبعد أن أتمّ [كراتيرس Crateres] و[انتيباطر] أخضاع بلاد اليونان، زحفا نحو آسيا وفي نيتهما القضاء على سلطان [پرديكاس] كذلك أشيع أنهما يعتزمان غزو [كبدوكيا] وأن [پرديكاس] أعتزم من جانبه قتال [بطليموس]. فنصب [يومينيس] قائداً عاماً لكلّ قواته في ارمينيا وكبدوكيا، وكتب بهذا الصدد رسائل يطلب من [الكيتاس Alcetas] و[نيوبطليموس] أن يتلقيا اوامرهما [يومينيس]. وان يكون هو مطلق الصلاحية في تصريف كل أمور وأصدار ما يراه مناسباً من القرارات فأعلن [الكتياس] بأنه لن يمتثل لأمره، لأن المقدونيين حسب قوله يخجلهم قتال [انتيپاطر] وأنهم شديدو التعلق [بكراتيرس] وهم على اتمّ أستعداد لقبوله قائداً لهم. اما [نيوبطليموس] فقد أضمر الخيانة. الاّ ان أمره أفتضح. فرفض الطاعة، ووضع جنوده في حالة التهيوء والدفاع. وهنا استفاد [يومينيس] لأول مرة من حكمته وسعة حيلته. فبعد أن حلّت الهزيمة بمشاته كرّ على [نيوبطليموس] بفرسانه فهزمه وأستولى على كلّ اثقاله ثم انقضّ على [الفلانكس] بكلّ قواته وقد أختلت صفوفه وعمّته الفوضى اثناء الهزيمة، فأرغم الجنود على القاء السلاح واداء اليمين بالخدمة تحت امرته. وتمكن [نيوبطليموس] من جمع الشرذام المبعثرة المنهزمة، وهرب لاجئاً الى [كراتيرس] و[انتيپاطر]. وبعث هذان الى [يومينيس] بسفارة تدعوه الى التحالف معهما. مقابل تثبيته في ملكه ومنحه قيادة اضافية عسكرية واضافة أقاليم جديدة الى حكمه، وأمتياز صداقة خصمه فأجابهما بقوله «انه لا يستطيع أن يتصالح بهذه السرعة مع عدوه القديم [انتيپاطر]، لاسيما وهو يستخدم اصدقاءه كأعداء. إلاّ انه مستعد لاجراء صلح بين [كرايترس] و[پرديكّاس] على شروط عادلة منصفة. والاّ فسيقاوم كلّ ظلم أو تعدّ يتعرض له حتى النفس الأخير مفضلاً ان يخسر حياته ولا يخلّ بكلمته التي قطعها على نفسه. وترك هذا الرد [انتيپاطر] يفكر تفكيراً ملياً ويوازن الأمر، وما أن وصل [نيوبطليموس] لاجئاً بعد الهزيمة التي حاقت به وقصّ عليهما نكبته والنحس الذي صادف جيشه، ألحف عليهما في أن يمداه بالعون ويزحفان معاً أن أمكن، أو ليكن الزاحف منهما [كراتيرس] الذي طالما أحبه

المقدونيون وتعلقوا به. وقال انه واثق بأنهم سينضمون اليه بكلّ أسلحتهم بمجرد أن يتبينوا خوذته، أو يسمعوا صوته. وكان [نيوبطليموس] محقاً في تقديره، [فكراتيرس] يتمتع بشهرة داوية بين المقدونيين والجنود متعلقون به تعلقاً عظيماً منذ وفاة الاسكندر. وكلهم يذكر كيف كان يستهدف الى سخط الاسكندر في محاولته ايقاف اندفاعه عن اتباع العادات الفارسية. ويذكرون كيف ظلّ متمسكاً بتقاليد بلاده عندما أخذ الاهمال يعتورها، بانغماس مواطنيه في اسباب الترف واستيلاء الغرور عليهم. فقبل [كراتيروس] باقتراح [نيوبطليموس] وأرسل [انتيپاطر] الى كيليكيا. وزحف هو مع [نيوبطليموس] بقطعات كبيرة من الجيش على [يومينيس] أملاً في ان يباغته من حيث لايدري، أو أن يجد جيشه وقد عمه الاضطراب وسادته الفوضى بسبب ما عقب نصرهم من احتفال وعربدة وسكر. إلاّ أن توقع [يومينيس] زحفه. وقيامه بالاستعدادات الضرورية لمواجهته لهو دليل على تحرزّه ويقظته وليس دليلاً على حكمة فائقة. لكن الأمر يختلف حين نجده قد أفلح في أخفاء سوء وضعه عن اعدائه وعن رجاله الذين سيحاربون أولئك الاعداء. اذ انه قادهم شخصياً لمقارعة [كراتيرس]، دون أن يعرّفهم بالهوية الحقيقية للقائد الذي يقود جيش العدوّ وهذا بحدّ ذاته دليل على موهبة الحنكة وقابلية التوجيه العجيبة عند الجنرال. لقد اذاع بين قواته أن [نيوبطليموس] و[پيگريس] يزحفان بعددٍ من الكبدوكيين والفلاگونيين الخيالة. أما هو فقد قررّ المواجهة والتقدم وفي ليلتها ادركته سنة من النوم فرأى حلماً عجيباً. اذ خيل له أنه شاهد «اسكندرين» اثنين! وقد استعدا للاشتباك في معركة، كل «اسكندر»، يقود عدداً كبيراً من فرق [الفلانكس]، أحدهما تعاونه [منيرڤا]، وثانيهما تعاونه [سيرس] وبعد معركة حامية أنكسر الاسكندر الذي كانت [منيرڤا] الى جانبه. فقامت [سيرس] بجمع سنابل القمح ونسجتها أكليلاً للمنتصر.

وقد ترجم [يومينيس] هذه الرؤيا فوراً بأنها بشير نجاحه وتغلبه على خصمه. فهو يقاتل الآن على بلاد مخصبة وفي هذه الوقت بالذات كانت السنابل تغطيها. والحقول مزروعة قمحاً وزرعها كثيف آخذٌ بعضه بحجز بعضٍ حتى لتبدو بمنظرها الجميل وكأن السلام الطويل الأمد يبسط عليها ظلّه. وقويت عزيمته وأشتدت عندما عَلِم بأن كلمة السرّ التي اتخذها عدوه هي [منيرڤا والاسكندر]، فبادر لاتخاذ [سيريس والاسكندر] كلمة سرٍ له. وأمر جنوده أن يضفروا أكاليل من السنابل وان يزينوا أسلحتهم بسيقان القمح. ووجد نفسه تحت اغراء شديد للافضاء الى قواده وضباطه باسم القائد الذي سيشتبكون مع جيشه وأن لا يبقي في صدره سِراً كان يستأثر به وحده. إلا أنه تغلب على هذا الاغراء، وأرسى على رأيه الأول بابقاء

الحقيقة مكتومة، وان يخاطر بفشل القرار الذي أتخذه.

وقبل أن يبدأ المعركة. حملته قلة وثوقه باشتباك جنوده المقدونيين مع [كراتيروس] الى جعل فرقتين من الخيّالة الاجنبية بمواجهته، تحت قيادة [فارنابازوس Pharnabazus] ابن [ارطباز] و[فيونكس Phoenix] [التندوسي Tenados]. وأمرهما بالهجوم على العدوّ حال مشاهدته دون أعطائه مجالاً للكلام أو بالانسحاب، أو انتظار منادٍ أو بوقيّ من جانب العدو لأنه كان في أشدّ الخوف من وحداته المقدونية، يخشى أن تترك صفوفه وتنحاز الى جيش [كراتيروس] حال مشاهدته. ثم انه وضع نفسه على رأس ثلاثمائة من خيرة فرسانه وتقدم لقيادة الجناح الأيمن بمواجهة [نيوبطليموس]. وبعد أجتيازه مرتفعاً صغيراً أنكشفوا للعدوّ وشوهدوا يتقدمون بسرعة تزيد عن المعتاد مما أسلم [كراتيرس] الى الذهول. وأخذ ينحى باللائمة على [نيوبطليموس] ويقرعه لأنه خدعه ومنّاه بانتقاض المقدونيين على [يومينيس]. ثم انثنى الى رجالهم وحثهم على التمسك بالشجاعة وتقدم مهاجماً.

وكان الاشتباك الأول في نهاية الشدّة، فتكسرت الرماح في فترة وجيزة، والتحم الجمعان بالسيوف المشرعة. وقام [كراتيرس] بما يشرّفه في عين الاسكندر حقاً، ففتك بالكثير من الاعداء، وصدّ العديد من الهجمات. الاّ أن جندياً ثراقياً، اصابه بجرح في جنبه، فهوى الى الحضيض عن صهوة حصانه ومَرّ به الكثيرون وهو ساقط دون أن يتبينوا هويته حتى عرفه [جورجياس Gorgias] أحد نقباء [يومينيس] فترجل ووقف على رأسه قائماً بحراسته وهو مستلقٍ على الأرض بجرحه البليغ يحتضر ببطء.

وفي الوقت نفسه أشتبكت قوات [نيوبطليموس ويومينيس] وأخذ كل منهما يبحث عن الآخر ودماؤه تغلي في عروقه يريد ان يطفيء جذوة انتقامه التي بعثتها تلك العداوة المتأصلة فيما بينها. إلا أنهما لم يلتقيا في الجولتين الأوليين. وفي الجولة الثالثة، وقع نظر أحدهما على الآخر فجردا سيفيهما وهجما في الحال وهما يطلقان صراخاً عالياً، واصطدم جواد الواحد بجواد الآخر كما تصطدم سفينتان فأفلتا الزمام وتماسكاً ونزع كل واحد خوذة عدوه ودروع الاكتاف وفيما كانا متلاحمين، أنسّل حصانهما من تحتهما فسقطا معاً على الأرض وهما متلازمان متصارعان. واراد [نيوبطليموس] أن يسبق الى النهوض فاصابه [يومينيس] بطعنة في مأبضه، وسبق الجريح الى النهوض على قدميه. وتحامل [نيوبطليموس] مستنداً بثقله على ركبة واحدة، لتعطل ساقه الأخرى. وكان وهو في وضعه الأدنى، يقاتل بشجاعة إلاّ أن ضرباته لم تكن قتالة. ثم هوت ضربة على عنقه فسقط على أثرها بدون حراك. واجتاحت [يومينيس] سورة من البغض المتأصل. فراح يحقّره، وينزع عنه سلاحه، غير منتبه الى أن

سيف خصمه ما زال في يده، وبه تمكن من توجيه طعنة ليومينيس أصابته بجرحٍ في أسفل درع خصره. في مفصل الفخذ. وكانت ضربة ضعيفة تفتقر الى القوة، أخافت [يومينيس] أكثر مما آذته. وبعد أن اتمّ نزع اسلابه من الجثة. وركب حصانه مع أنه يشكو الارهاق للجراح التي اصابته في فخذيه وذراعيه، وأسرع يخبّ به نحو الجناح الأيسر من جيشه وكان يظنه مشتبكاً في المعركة. وهنالك سمع بموت [كراتيرس] فهرع الى حيث كان سجى، فوجد رمقاً من حياة فيه. فترجل عن حصانه دونا منه واجهش بالبكاء، واضعاً يده اليمنى على صدره وهو ينثر اللعنات على [نيوبطليموس] ويندد بما فعله نادباً سوء حظّ [كراتيرس] وسوء حظّه الذي أرغمه على قتال صديق قديم وأخٍ عزيزٍ لم يأت أمراً اداً، ولم يصادف شراً.

نال [يومينيس] نصره هذا، بعد عشرة أيام من نصره الأول، وأشتهر به وعظم صيته لبراعته وشجاعته في تحقيقه إلاّ أنه غدا من الجهة الأخرى محسوداً من جنوده أنفسهم ومن أعدائه. ونالته الألسن بالقول: كيف، وهو الاجنبي الغريب، يستخدم سلاح مقدونيا وقواتها للقضاء على أشجع وأقرب الرجال الى قلوبهم؟ ولو أن أنباء هذه الهزيمة وصلت [برديكّاس] في الوقت المناسب لجعلت منه بلا ريب أعظم رجال مقدونيا. إلاّ أنه اغتيل في مصر، على أثر تمردٍ قبل وصول انباء المعركة بيومين. وهنا حلف المقدونيون وهم في سورة غضبهم أن يقضوا على [يومينيس] وخولوا كلاً من [انتيگونس] و[انتيپاطر] بأن يشنّا الحرب عليه.

وفي أثناء مرور [يومينيس] بجبل ايدا [Ida] وجد اسطبلاً ملكياً عامراً بالخيل فأخذ منه ما يسرّت له الفرصة. وبعث بتقرير عن ذلك للمشرفين عليه. ولقد قيل أن عمل [يومينيس] جعل [انتيپاطر] يغرق في الضحك ويعقب عليه بقوله «إن هذا العمل الصادر من [يومينيس] جديرٌ بالثناء حقاً. حيث يجد نفسه ملزماً بأن يقدّم لهم [أو بالأحرى يأخذ منهم ان صح القول] حساباً دقيقاً في كل ما يتعلق بالأمور الإدارية.

وكان [يومينيس] قد قررّ أن تكون معركته مع خصمه في سهول [ليديا Lydia] بالقرب من [ساديريس] لأن قوته الرئيسة تكمن في صنف الخيالة، كذلك كان يريد أن يُظهر [لكليوپاطرا] مدى قوته إلاّ انه بعد أن أرسلت اليه [كليوپاطرا] برجاءٍ خاص، سار نحو [فريجيا] العليا وأمضى شتاءه في [كيلانيا Celaenæ]. ممثلاً لها حيث انها كانت تخشى اثارة استياء [انتيپاطر]. وعندما نازعه [الكيتاس] و[پوليمون Polemon] و[دوقيموس Docimus] على من يكون القائد العام، أجابهم قائلاً: «كلكم يعلم القول المأثور القديم: المدمّر لا يتقيد بالشكليات». وكان قد وعد جنوده بدفع مرتباتهم في غضون أيام ثلاثة، ولما عجز باع منهم المزارع والقلاع في الاقاليم ومعها الرجال وسائر الحيوانات التي كانت تزخر

بهم. وكل من أشترى من النقباء والضباط صار له حق استخدام آلات الحصار والثغر التي يملكها [يومينيس] للوصول الى ما اشتراه بالقوة وتوزيع الاسلاب ما بين رجال وحدته نسبة الى متأخر رواتب كلّ منهم. وبهذا عادت شعبية [يومينيس] بين الجنود وزادوا تعلقاً به، حتى انه عندما قذف العدوّ الى المعسكر برسائل تعد بمنح جائزة قدرها مائة تالنت الى جانب انعامات أخرى لكلّ من يغتال [ديومينيس]، سخط المقدونيون واستنكروا الأمر بشدة وتعاهدوا فيما بينهم على أن يقوم من تلك الساعة الف من خيرة رجالهم بحراسة شخصه بالتناوب ليلاً ونهاراً دونما انقطاع. وجرى تطبيق هذا العهد عن طيبة خاطر. وتقبلوا من [يومينيس] راضين ممتنين ذلك الانعام الذي أعتاد الملوك خلعه على مقربيهم وخلصائهم. وهكذا كان ينعم بالقلانس الارجوانية والمعاطف وتلك عند المقدونيين أعظم شارات التكريم التي يمنحها الملك.

عندما يغدق الحظ نعمه ويوآتي صغار العقول، تراه يرفعهم ويظهرهم بمظهر العظمة والسؤدد. فينظرون وهم في موضعهم الاعلى نظرة استصغار وأحتقار الى العالم. أما كبار العقول وشرفائها ذوو النفوس الأبيّة الكريمة فأنهم يرفعون من أنفسهم، ويظهرون في أعلى واسمى مظهر عندما تحزب الأمور وتتحرج. وتتوالى المصائب والمحن كما كانت الحال عند [يومينيس] لما هزم امام [انتيكونس] و[أوركيني] في كبدوكيا بخيانة أحد رجاله، فلم يمنح وهو في فراره فرصة النجاة للخائن وانما قبض عليه وشنقه. كما أنه سلك في هزيمته سبيلاً مخالفة لاتجاه مطارديه ثم عاد متسللاً بالقرب منهم في غفلةٍ حتى وجد نفسه في موضع المعركة التي خسرها. فضرب منها معسكره. وجمع جثث قتلى المعركة وأحرقها بان كدس فوقها أكداساً من الشبابيك والأبواب الخشبية التي جمعها من القرى المجاورة ثم أهال على القبور كميات كبيرة من التراب. وبعد قليل عاد [انتيگونس] الى عين الموقع. فأخذ منه العجب مأخذه لشجاعته وعزيمته القوية. وبعد ذلك وقع على أثقال [انتيگونس] وكان من السهولة له بمكان أن يأخذ كثيراً من الأسرى، أحراراً وعبيداً ويستولي على كنوز طائلة جمعت من غنائم الحروب العديدة. إلاّ أنهم خشي أن يثقل رجاله بهذه الأسلاب الكثيرة فتعيقهم عن مناورات الانسحاب السريع، وتزيد من ميلهم الى الراحة، فلا يعودون يحتملون المسيرات الطويلة ولا الانتظار الطويل الذي هو أهم عوامل الهزيمة. اذ كان يتوقع أن يفلح في ارهاق [انتيگونس] بتعقيبه عن طريق أخرى، بل وجد بعد التفكير المليّ، بأنه من الصعب جداً أن يحول بين المقدونيين وبين السلب، والغنيمة قريبة منهم سهلة المتناول. فلذلك اصدر أمراً لجنوده بالاستراحة واراحة خيلهم، ومن ثمّ يهاجمون. ثم بادر في الوقت نفسه الى الاتصال سراً

[بميناندر Menander] آمر الاثقال مبدياً اخلاصه له ومحبته، ومذكراً ايام صداقتهما الماضية وتعاطفهما وناصحاً له بأن يترك موقعه الحالي في السهل ويتخذ لنفسه موقعاً منيعاً على سفوح الجبال المجاورة بحيث لا تستطيع الخيالة الإحاطة به. وبهذه الرسالة ادرك [ميناندر] الخطر الذي يتهدده فأسرع برفع اثقاله ورحل. وعندها بادر [يومينيس] الى ارسال كشافته لاستطلاع مواقع العدوّ وأمور رجاله أن يحملوا سلاحهم ويسرجوا خيولهم، لأجل خوض المعركة في الحال. إلاّ أن كشافته رجعوا ليبلغوه بأن [ميناندر] قد أحتلّ مواقع منيعة يصعب أقتحامها ولا يمكن الوصول اليه منها. فتظاهر بالأسف والخيبة وأنسحب برجاله الى ناحية أخرى.

ويقال أن [ميناندر] عندما قصّ على [انتيگونس] ما فعله [يومينيس]، طفق المقدونيون يلهجون [بيومينيس] ويغلقون على عمله أطيب الثناء، ويعزونه عمله هذا الى طبعه السمح وأخلاقه العالية، حيث كان في مقدوره أن يجعل أولادهم عبيداً وأن يهتك حرمات نسائهم، لكنه أبى وعفا عنهم جميعاً. فردّ [انتيگونس] على هذا بقوله «يؤسفني القول أيها الأخوان بأن [يومينيس] لم يكن دافعه الى هذا اهتمامه بمصالحنا. وانما كان مهتماً بنفسه لأنه لم يشأ أن يثقله هذا الحمل الكبير من السلاسل طالما كانت نيته الفرار».

ومن ذلك اليوم و[يومينيس] لا تستقر به أرض. فهو دائم التنقل والانسحاب من يوم ليوم، لا يفتأ يحبذ لرجاله ترك خدمته. إمّا بدافع من العطف عليهم أو لأنه لم يكن يرغب في قيادة جماعة أقلّ جداً من ان يصلحوا لخوض معركة، وأكثر جداً من أن يتسللوا دون ان يشعر بهم أحد. ثم انه لجأ الى [نورا Nora] وهو موضع على تخوم [لاقونيا وكپادوكيا] مع خمسمائة من الخيالة ومائتين من الرجالة المسلحين تسليحاً ثقيلاً، وهنا أيضاً سرّح من خدمته عدداً آخر من رجاله بسبب خوفه من مشاق ومصاعب قد تجابهه هناك. وأجاز لهم الرحيل بعد معانقة حارة وابداء كل مظاهر العطف. وعندما وصل [انتيگونس] هذه القلعة، أبدى رغبته في مقابلة [يومينيس] قبل ضرب حصاره عليها. فأجاب [يومينيس] على عرضه بقوله: «انتيگونس لديه عددٌ كبيرٌ من الاصدقاء يصلحون ليحلوا في القيادة محلّه. إلاّ أن من أدافع أنا عنهم ليس لديهم بديل عني اذا وقعت ضحية غدر، فاذا وجد [انتيگونس] ضرورة لمقابلتي فعليه أن يبعث أولاً برهائن.» ولما أشار [انتيگونس] الى ان يكون [يومينيس] البادىء بتقديم نفسه اليه باعتباره رئيساً له. أجاب بقول: «مادمت قادراً على امتشاق سيف فلست ارى رجلاً أعظم منيّ».

أخيراً عندما بعث [انتيگونس] بابن أخيه [پطليموس] رهينةً الى القلعة، كما أشترط

[يومينيس]، خرج هذا اليه وأعتنقا عناقاً شديداً فيه الكثير من الحنان والمودّة كما كانا يفعلان في السابق. وجرى بينهما حديث طويل لم ينوه [يومينيس] خلاله، بشيء عن موضوع اعطائه الأمان والعفو، بل طلب تثبيته في مناصبه، ووظائفه العديدة، ودفع تعويض له عما قام به من خدمات، فإدهش كل من كان حاضراً بشجاعته وثبات جنانه. وتقاطر جمّ غفير من المقدونيين لمشاهدته ودراسته عن كثب. اذ منذ مقتل [كراتيرس]، واسمه هو الأكثر تردداً على ألسنة الجيش. إلاّ أن [انتيگونس] كان يخشى أعتداءً قد يقع عليه فأمر أن يبتعد الجنود عنهما بمسافة وراح ينتهر أولئك الذين أخذوا يتزاحمون ويقذفهم بالحجارة. وأخيراً أحاط [يومينيس] بذراعيه وأبتعد به مع حرسه عن الجنود. وبصعوبة كبيرة نجح في اعادته الى القلعة سالماً.

وبعد أن شيدّ [انتيگونس] جداراً حول [نورا] وترك قوة كافية لتنهض باعباء الحصار، قفل راجعاً بالبقية من جيشه. وهكذا وجد [يومينيس] نفسه مطوقاً بعاني حصاراً شديداً محكماً إلاّ أنه كان لا يفتقر الى الماء والقمح والملح. وهو كل ما لديه للقوات ولشهي الطعام. ومع هذا فقد كانت مائدته مصدر سرور لاصدقائه وكان يدعوهم مراراً بالتناوب ويمزج دعوته هذه بالرقة والودّ وحسن المجالسة. وهو ذو طلعة وضاحّة مستبشرة لاتبدو شبيهة بسحنة جندي قديم بلته التجارب والخطوب. كان ذا وجهٍ موردٍ ناعم، وجسم رشيق دقيق التكوين حتى لكأن أعضاءه نحتت نحتاً بيد فنان، بادق النسب والتناسق. ولم يكن خطيباً لسناً، إلاّ أنه كان محدثاً طلياً آسراً قوي الحجّة كما تدل عليه رسائله.

وكان أعظم ما يشغل بال المحصورين، وهو ضيق الفسحة التي يعيشون فيها. فمقراتهم كانت متقاربة جداً. والموقع كُلّه لا يعدو محيطه [فرلنغين] إثنين. فكانوا هم وخيولهم يأكلون فحسب ولا يقومون بأية تمارين رياضية. وفكر [يومينيس] بوسيلة، تقضي على حياة الخمول والكسل من جهة، وتجعلهم في حالة ملائمة للفرار عندما يتطلب الأمر ذلك، من جهة أخرى، فخصص قاعة طولها (٢١) قدماً وهي أوسع قاعات الحصن. ليسير على أرضها الرجال جيئة وذهاباً فيبدأون ببطء ثم ينتقلون الى السرعة تدريجاً. أمّا العلاج الذي ابتكره لتدريب الخيل، فهو أنه عمد الى ربطها بالحبال الغليظة الى السقف من اعناقها، ثم رفعها برفق بواسطة بكرات حتى جعلها تمسّ الأرض بخلفيتيها فقط. وتكاد لا تمسها بأماميتيها. وبعد ذلك يقوم سائسوها باحتثاثها بالصياح والسوط حتى تُستنفر فتقفز وترفس بخلفيتيها وتحرك اجسامها وتضرب الأرض بسنابكها في الوقت نفسه بمحاولة لايجاد موطيء ثابتٍ لأماميتيها وهكذا تشيع الحركة في الجسم كله، حتى يعلو الزبد اشداقها وتنضح عرقّاً. فكان هذا تدريباً ممتازاً

لأجل القوة والسرعة وبعد أن يتمّ ذلك تُطعم شعيراً مطحوناً طحناً خشناً ليحسن هضمه ولترحض بسرعة.

وأستمر الحصار زمناً طويلاً. ثم علم [انتيگونس] بأن [انتياطرا] قد قضى نحبه. وأن الأمور قد ساءت كثيراً في مقدونيا، بالخلاف الذي نشب بين [كساندر Cassander] و[پوليسپيرخون Polysperchon] وهو الخلاف الذي علق عليه آمالاً شخصية ليست بالقليلة. ولأجل تحقيق أمانيه وأنتهاز فرصته في أن يكون سيدّ الكلّ، وتوخياً لإحكام خطته الموضوعة فكرّ في أن يجتمع [بيومينيس] ليستطلع رأيه ويستمد عونه. فبعث اليه بـ[هيرونيموس Hironymus] لإقناعه بذلك، مقترحاً عليه اداء يمين معينة بصيغة محددة، فعدّل فيها [يومينيس] وتقدم بنفسه الى المقدونيين الذين يحاصرونه وجعلهم حكاماً في أيّ شكل من صيغة اليمين أقرب الى العدل؟ وكان [انتيگونس] في مستهل صيغة يمينه قد أغفل ذكر الملوك، إلاّ بشكل عرضي، وهو مخالف لما تقتضيه الاصول والمراسيم، في حين كان المتن كلّه يتعلق بشخصه. إلاّ أن [يومينيس] بدل من مستهله وافتتحه [باولمپياس Oleympias] والملوك. بدأ يمينه بأن يكون مخلصاً لهم. ومن ثم [لانتيگونس] وادخل فيه ما يشير الى أن يكون للجانبين عين الاصدقاء وعين الأعداء - أي أولمپياس والملوك مع انتيگونس.

فوجد المقدونيون تعديل [يومينيس] لليمين أقرب للصواب. فحلفوا [يومينيس] بها ورفعوا الحصار عنه. ثم أرسلوا الى [انتيگونس] يطلبون منه أن يحلف اليمين بالصيغة المعدلة.

وفي أثناء ذلك بادل الرهائن الكيدوكيين الذين كانوا في [نورا] بخيول حربية وحيوانات اثقال مع اصدقاء أولئك الرهائن واقربائهم. ثم اعاد جمع كل الجنود المسرحين الذين تفرقوا في ارجاء البلاد بعد فراره. وتمكن من تعبئة كتيبة خيالة يقارب عددها الألف. وأفلح بعضهم في الافلات من [انتيگونس] الذي كان يخشاه رغم ما أظهره له. وكانت لديه اسبابه الوجيهة لأن [انتيگونس] أمر بقطع الطريق عليه واعادة الحصار. وعنف المقدونيين تعنيفاً قاسياً بسبب موافقتهم على التعديل الذي أدخله [يومينيس] في اليمين.

وفيما كان [يومينيس] يجدّ في فراره من امام [انتيگونس] تسلّم رسائل من المقدونيين الساكنين مقدونيا من اعداء [انتيگونس] ومضمري الشرّ والوقيعة له، كذلك تسلّم رسالة من [اولمپياس] يطلب حضوره ليعهد اليه بحماية الصبي ابن الاسكندر الذي كانت حياته مهدودة بالخطر. وتسلم رسائل أخرى من [پولسپيرخون] والملك [فيليب] يأمرانه بشنّ حرب على [انتيگونس] ويقران له بالقيادة العامة على كلّ الوحدات العسكرية في [كپدوكيا] ويمنحانه

صلاحية سحب خمسمائة تالنت من خزائن [گويدا Quida] تعويضاً خاصاً له عما خسره. وجباية كل مايراه ضرورياً من الضرائب لادامة الحرب. كما كتبا أيضاً بعين المال الى كلّ من [انتيجينس Antigenes] و[تيوتاموس Teutamus] زعيميّ [الآرگيراسپيديين Argyras-pids] فقدما فرائض الاحترام ودلائل المحبة له حالما تسلما هذه الأوامر إلاّ انهما كانا بدون شك يضمران الحسد والغيرة منه ويكرهان أفساح اي موضع له بينهما. إلاّ أن كثيراً من هذا الصدود زال عندما رفض [يومينيس] قبول المال الممنوح له، رفضاً جعله يبدو كأنه ليس في حاجةٍ اليه، إلاّ أن طموحهما وغيرتهما فكانا مما يعجز عن ازالته، كما لم يكن هو راغباً في الاستسلام له ولذلك تفتقت حيلته عن طريقة يضمن التغلب على تلك الميول بالشعبذة والأيهام. فزعم لهما أن الاسكندر ظهر له في المنام. وجاء به الى سرادقٍ ملكي حافل بالثمين من الأثاث. يقوم في وسطه عرش. وقال له. ان جلس ثلاثتهم هنا للمداولة والمشاورة، فسيكون رابعهم، ويكلل بالنجاح كل القرارات والأعمال التي سيقومون بها وسيقرنها الى اسمه. فأسرع [انتيجينس] و[تيوتاموس] الى تصديقه. لأن رغبتهما في المجيء الى [يومينيس] للمشاورة كانت قليلة، كرغبة [يومينيس] في ان يُرى منتظراً عند ابواب الآخرين. وبناء على ذلك اقاماً سرادقاً ملكياً ونصبا فيه عرشاً سموه بعرش الاسكندر. وهناك كانوا يجتمعون للمشاورة في الأمور العامة.

ثم أنهم توغلوا في احشاء آسيا. وفي زحفهم هذا التقوا بـ[پيوكاتس Peucetes] وكان طيب العلاقة معهم ومع كلّ [ساتراب] آخر ممن انضم اليهم بقواته. الامر الذي شجع المقدونيين كثيراً باعداد القوات التي ضموها اليهم، وبمظهرهم الفخم. ولكن الغطرسة وحبّ التحكم وعوامل الترف ما لبثت أن تملكت المقدونيين أنفسهم وباتوا يتصورون أنفسهم امراء وملوكاً عظاماً، وراحوا يتيهون عجباً وأختيالاً بتملق البرابرة لهم وتسابقهم الى نيل رضاهم. وما أن أجتمعت هذه المتناقضات كلها فيهم، حتى وجدوا أنفسهم يخاصمون بعضهم بعضاً ويريد الواحد منهم ان يسيطر على الآخر ويتحكم به، في حين انهم كانوا يتصاغرون للمقدونيين ويداهنونهم بلا حدود ويغدقون عليهم المال بلا حساب ليصرفوها على الولائم والقرابين حتى استحال المعسكر في فترة قصيرة من الزمن الى موضع فسق ودعارة وميدان المتع الملذات، وتحول افراد الجيش الى مجموع ناخبين كما هو في النظام الديمقراطي، لأنتخاب هذا او ذاك من القواد. وعندما ادرك [يومينيس] بأن أحدهم يحتقر الآخر، وان الجميع يخافه ويلتمس فرصة للفتك به، عمد الى التظاهر بالحاجة الى المال واستدان مقداراً من التالنتات ممن كانوا أشدّ الحاقدين عليه، ليجعلهم معتمدين عليه في سدادالدين فيدفعوا عنه الشرّ،

وليصرفوا نظرهم عن اغتياله هم أنفسهم خوفاً من ضياع ديونهم! وهكذا صارت ديون اعدائه ضماناً لشخصه، تسلّم المال فأشترى معه الأمان. بينما جرت العادة أن يبتاع المرء سلامته بالمال.

والمقدونيون أنفسهم، فقد استسلموا هم أيضاً الى عوامل الانحلال والتفسخ بسبب الهدوء وزوال خطر الحرب. وكانوا يعرضون الولاء لكلّ من يتحفهم بالهدايا، من أولئك الذين يحفّ بهم حرس خاص، ويحاولون الظهور بمظهر القواد العامين. حتى أنقض عليهم [انتيگونس] بخيله ورجله وأستدعت الحال الى أختيار قائد عام حقيقي. فتوجهت انظارهم جميعاً الى [يومينيس]؛ الجنود العاديون منهم، فضلاً عن أولئك الذين بدوا في زمن السلم والراحة في أعلى درجات العظمة والسؤدد، هؤلاء ايضاً سلموا له بالزعامة، واتخذوا بكلّ هدوء وطاعة المواضع التي عينها لهم، ولم يعترض أحد منهم. ولما حاول [انتيگونس] عبور نهر [پاسيتاگرس Pasitigris] لم يفطن الى ذلك جميع الذين عينوا لحراسة مواضع العبور، إلاّ [يومينيس] وحده. فقد التقى به وأشتبك معه وفتك بالعديد من رجاله وملأ بجثثهم النهر. وأخذ اربعة آلاف أسير.

على أن الحادثة الأجدر بالذكر عن رأي المقدونيين الحقيقي فيه، وثقتهم بأنه الوحيد بين القادة الذي خبر القتال وعرف قيادة الجيوش، هي الحادثة التي سنوردها الآن. كان الآخرون، لا همّ لهم الاّ اقامة المآدب الولائم الفاخرة والحفلات. فمثلاً [پيوكسكتس] أقام مأدبة فخمة في بلاد الفرس وأعطى كل جندي في الجيش شاة لينحرها قرباناً. وكان على ثقة بانه كسب الجيش كله الى صفه ولن يفلت منصب القائد العام منه. وبعد ايام قليلة على هذا وكان الجيش في حالة المسيرة، سقط [يومينيس] مريضاً. فحمل على محفّة، بعيداً عن الجيش بمسافة، حتى تؤمن راحته ويبتعد عن الازعاج. وما ان سار الجيش قليلاً حتى ظهرت لهم قوات العدوّ بصورة غير متوقعة بعد ان عبر التلال التي تفصل فيما بينهما وانحدر الى السّهل. وما أن شوهدت الدروع الذهبية تسطع بنور الشمس وهي تنحدر انحداراً بنظام تام، والفيلة بابراجها على عواتقها، والرجال بثيابهم الارجوانية، كما هي العادة عندما يعتزمون الدخول في معركة، حتى توقفت مقدمة الجيش عن السير. وبعثت تطلب حضور [يومينيس] قائلة انها لن تتقدم خطوةً واحدة إلاّ بأمره وقيادته. وعمد بقية الجنود الى غرس رماحهم في الأرض واذاعوا كلمة الوقوف فيما بينهم، وطلبوا من ضباطهم أن لا يبرزوا للمعركة أو ان يشتبكوا مع العدوّ أو يستعرضوا للقتال بدون [يومينيس]. ولما بلغت الانباء [يومينيس] انثنى الى حملة محفته وأخذ يحثهم للأسراع به الى الجيش وازاح الستائر من الجانبين ومدّ يده اليمنى مسروراً، فما

أن رآه الجنود حتى أطلقوا حناجرهم بتحيته على الطريقة المقدونية ورفعوا تروسهم الى الأعلى وأخذوا يضربونها برماحهم. وأطلقوا صيحة عظيمة يستفزون بها العدوّ للتقدم منهم. فها أن قائدهم حاضر بينهم.

كان [انتيگونس] قد علم من بعض الأسرى الذين وقعوا في يده بأن صحّة [يومينيس] ليست على ما يرام. وتوهم عندما رآه محمولاً على محفّة ان النصر سهل، وان سحق جيشه أكيد. ولذلك عمل اقصى جهده للأسراع نحوه والالتحام به. ولما أصبح على مسافة يتمكن منها التأمل بنظام جيش خصمه والتحام صفوفه ومبلغ استعداده لخوض المعركة، لم يسعه الا العجب وتوقف برهة. وأخيراً شاهد المحفّة وهي تنتقل من جناح الى جناح فالتفت الى اصدقائه وهو يضحك ضحكة عالية بمرحه المأثور: «تلك الحفة هناك! انها كما يبدو لي الشيء الوحيد الذي يدعونا الى المعركة!» قال هذا واسرع يصدر أمراً بالتقهقر والانسحاب العام واقام له معسكراً. فلم يلبث جنود الجانب الآخر ان عادوا الى حياتهم الماضية وأعمالهم الأولى ليجعلوا أنفسهم موضع تملق واستجداء عطفٍ من جانب قوادهم. واتخذوا مقراتهم الشتوية قريباً من بلاد [الگابيني Gabeni] وبصورة متباعدة. حتى ان معسكر الجبهة الأمامية كان يبعد تقريباً بالف فرلنغ عن المؤخرة وما علم [انتيگونس] بذلك حتى زحف نحوهم سالكاً أصعب الطرق، خلال أرض قاحلة لا ماء فيها، وعرة شاقة إلا انها قصيرة. يريد بذلك مباغتتهم وهم متفرقون في مقراتهم الشتوية، لا يستطيعون التجمع في الوقت المناسب والالتحاق بضباطهم. ولما كان على جيش [انتيگونس] اجتياز أرض قفرٍ تهّب فيها الرياح الشديدة، وتملأ جوّها العواصف الثلجية فقد تأخر زحفه كثيراً. وتوالت المصاعب والأهوال عليه ولم يكن لرجاله من أسباب اتقاء هذه العوامل القاسية، غير ايقاد نيران عظيمة. وهذا ما مكن خصمه من الانتباه الى زحفه اذ ان البرابرة الذين كانوا يعيشون في الجبال المشرفة على الصحراء ادركتهم الدهشة لكثرة النيران فأركبوا سعاة جمالاً عربية أسرعت بهم الى [پيوككتس] لأبلاغه الخبر. فأدركه العجب هو الآخر حتى كاد يخرج عن طوره، والتفت فوجد رجاله لا يقلون فوضى وفسُوقاً عن غيرهم فأعتزم الفرار وجمع ما استطاع جمعه من الرجال وهو في طريقه ناجياً. فاستوقفه [يومينيس] وازال عنه الخوف والقلق وعاهده على أن يوقف زحف العدوّ. وأكد له بأنه سيؤخره عن موعد وصوله المتوقع بما لا يقلّ عن ثلاثة أيام وبعد أن أقنعهم بهذا أسرع حالاً بايفاد مراسلين عدائين لكلّ ضباط الجيش لاستنفار الرجال واخراجهم من مقراتهم الشتوية وتهيئتهم للقتال بأسرع ما يمكن. وركب هو وطائفة من أعوانه مستطلعاً وأختار أرضاً مرتفعةً تقع ضمن مدى الرؤية عبر الصحراء. فأحتلها واتخذ فيها مواضع، وأمر باشعال عدة نيران فوقها كما

هي العادة في معسكرات الجيش. ولما تصاعدت السنة النيران من فوق المرتفعات، أمتلأ [انتيگونس] حنقاً وأخذ يحرق الإرم قهراً ويأساً، ظانّا بأن اعداءه قد أنتبهوا الى زحفه منذ وقت بعيد وتأهبوا له. لذلك وخوفاً من اضطراره الى خوض معركة فورية مع رجال استجموا وقضوا شتاءهم في أحسن حالٍ، عمد الى الانحراف عن الطريق الأقصر. وسار سيراً بطيئاً في طريق أخرى خلال المدن والقرى لإراحة رجاله. إلاّ أنه لم يصطدم بمفارز للعدوّ خلال ذلك، وهو من الأمور المعتادة عندما يدنو الجيشان أحدهما من الآخر. وبعد أن أكد له السكان المحليون بأن لا جيش ثمة، وانما مجرد نيران توقد باستمرار في تلك المنطقة، أستخلص بأنه قد استدرج وخدع بحيلة [يومينيس] فتقدم والانزعاج مستولٍ عليه، ليخوض معركته مع العدو.

وفي اثناء تردد [انتيگونس] أكمل [يومينيس] تحشيد القسم الأعظم من قواته وانخرطت تحت لوائه مكبرة منه حكمته وبعد نظره، وأعلنته قائداً أوحد للجيش كله بلا منازع. فثارت ثائرة [تيوتاموس] و[آنتيجينس] زعيمي [الأرگيرايراسپيدين] وأعتبرا أختياره اهانة عظيمة، وجرحاً لمشاعرهما فلجأ الى الائتمار به، وجمعا معظم الضباط والساترابين في مجلس بحثوا خلاله في كيفية القضاء عليه، وتحديد وقت لذلك. ثم اتفقوا بالاجماع على ان يستفيدوا من قيادته للمعركة القادمة، وبعدها يغتنمون فرصة للفتك به. الاّ أن [يوداموس Eudamus] قائد الفيلة، و[فاديموس Phædiamus] أسرّا [ليومينيس] بتفاصيل خطة المتآمرين، لا حرصاً عليه، ولا لإخلاصٍ فيهما له وانما خوفاً على ديونهما في ذمته. فشكرهما [يومينيس] واثنى عليهما، ثم انسحب الى خيمته وتوجه الى اصدقائه بالكلام قائلاً: «إني أعيش بين قطيع من الوحوش الضارية». ثم كتب وصيته، ومزق رسائله لئلا ينال مراسلوه أذي أو يُسئلوا عما تحويه اوراقه السرّية، بعد موته.

بعد أن وضع الأمور في نصابها على هذه الشاكلة قررّ أن يتعمد خسران المعركة، ويدفع النصر الى يد خصمه، أو أن يفرّ هارباً عبر ميديا وارمينية واستحواذ [كپدوكيا]، وبقي متردداً بين القرارين طوال وجوده بين اصدقائه. وقلبّ الأمر في رأسه تقليباً طويلاً طبقاً لما املاه عليه تقلّب حظوظه، من شتى الجوانب. وأخيراً نظم رجاله للمعركة، وتنقل بين اليونانيين والبرابرة مشجعاً مستنهضاً الهمم. وردّ [الفلانكس] والآركيراسپيديون، التشجيع بمثله ورجوه أن يكون مطمئناً ثبت الجنان، واثقاً بأن العدو لن يكون قادراً على الصمود أمامهم، فقد كانوا والحق يقال من جنود [فيليبس] و[الاسكندر] القدماء. رجال مجربون خاضوا العديد من الحروب. وافنوا حياتهم في التدريب العسكري ولم يعرفوا هزيمة ولا تقهقراً، معظمهم اناف على السبعين من العمر، وليس فيهم من هو أقلّ من الستين. كمّا كرُّ هؤلاء الجنود المتمرسون

على رجال [انتيگونس] وهم يصيحون «أيها الأوغاد أنتم تحاربون آباءكم». وأنقضوا عليهم كالأسود فهزموا الفلانكس، برمتّه بلمحة عينٍ. اذ لم يكن هناك من يقوى على الصمود أمامهم. وفتكوا بالجزء الأكبر منهم.

غير أن النصر الذي أخطأ مشاة [انتيگونس]، عُقد لخيالته فقد تمكنت من الاستيلاء على كل اثقال جيش [يومينيس] بخيانة [پيوككتس] الذي بلغت دناءته حداً أنه أهمل المعسكر وتركه غنيمة بيد العدوّ. في حين استخدم [انتيگونس] عقله استخداماً راجحاً. وتمالك اعصابه امام الخطر. وقد ساعدته طبيعة الأرض فضلاً عن ذلك. فالساحة التي جرت فيها معركة كانت سهلاً رحيباً تربته لا هي رخوة ولا هي صلبة، بل مكسوة برمل دقيق هشّ كرمال الساحل يثيره وطء الاقدام الكثيرة وسنابك الخيل العديدة فيرتفع في الجوّ غباراً أبيض دقيقاً مثل غمامة كلسيّة فيظلم الجوّ ولا يسع الرفيق أن يرى رفيقه ولو كان قريباً منه. وهذا ما سهل لانتيگونس الاستيلاء على الاثقال.

بعد انتهاء المعركة. بعث [تيوتاموس] الى [انتيگونس] رسالة يطلب فيها اعادة الاثقال. فأجابه [انتيگونس] أنه لان يكتفي باعادة الاثقال الى قومه [الارگيراسپيديين] وانما سيقدم اليهم خدمات وعطايا أخرى اذا سلّموا له [يومينيس]. وبوصول هذا الجواب أتخذ [الارگيراسپيديين] قرارهم الاثيم بتسليمه حيّاً الى يد اعدائه. وجاؤوه يقدمون له فروض الولاء والطاعة دون أن يداخله شك في نواياهم. وراحوا يتحينون فرصتهم. وطفق بعضهم يندب خسارة الاثقال وبعضهم يشجعونه ويمدحونه كأنه هو المنتصر. وبعضهم يلقي اللوم على القادة الآخرين. ثم انقضوا عليه جميعاً وقبضوا على سيفه، واوثقوا كتافهُ وراءه بحزامه. ولّما ارسل [انتيگونس]، [نيقانور Nicanor] لتسلّمه، رجا منه [يومينيس] أن يقتاده خلال المقدونيين وان يسمح له بمخاطبتهم، ولن يطلب منهم شيئاً، بل سيقدم لهم النصح بما فيه فائدتهم، ولا أكثر. فساد صمت تام عندما انتصب فوق نشز من الأرض. ورفع يديه المقيدتين وقال:

«يا أحقر المقدونيين. ايمكن أن يرغب أنتيگونس بتذكار حربي أعظم من هذا الذي نصبتموه له، بتسليمكم اليه جنرالكم وهو أسير؟ أما تخجلون من أنفسكم عندما اتاكم النصر، ان تختاروا الهزيمة والخذلان بدلاً منه، بسبب أمتعتكم لا غير كأن الانتصار بالثروة لا بالسلاح؛ لا بل أنكم سلمتم قائدكم لأجل استعادة أمتعتكم. واما انا فلا اراني مهزوماً وان كنتُ أسيراً. لقدِ انتصرت على اعدائي. إلاّ ان رفاقي الجنود غدروا بي. وامّا أنتم، فاستحلفكم بجوبتر حامي السلاح،

وبكلّ الآلهة المنتقمة من الخيانة، ان تقتلوني هنا بأيديكم، فالأمر سواء لأن العمل عملكم لو قُتلتُ هناك. ان [انتيكونس] لن يشكو من فعلكم فهو لا يريد [يومينيس] حيّاً بل ميتاً. وان ابيتم علي هذا، فأطلقوا لي يداً واحدة لأنها كافية لاتمام العمل. وان لم تستأمنوني على سيف، فاقذفوت بي موثقاً، تحت اقدام الوحوش الضاربية. وان فعلتم فانا على استعداد لأن أصفح عن جريمة قتلي، وأعدكم أعدل الجنود لجنرالكم وأكثرهم حبّاً به.

وفيما كان [يومينيس] يلقي خطابه أخذت الدموع تنهمر من أعين الجنود حزناً. إلاّ ان [الارگيراسپيديين] أخذوا يصيحون ويطلبون اقتياده، وعدم الاهتمام بمثل هذه التفاهات فليس بالأمر العظيم أن يلقى هذا الطاعون [الخيرسونيزي] حتفه، بعد أن دوخ المقدونيين وأهلكهم في آلاف من المعارك. ومن المؤلم جداً للنخبة من جنود [فيلبس] و[الاسكندر] ان يحرموا بالمكر والختل، ثمار تلك الخدمة الطويلة وأن يضطروا وهم في نهاية العمر الى استجداء الخبز، وترك نسائهم ثلاث ليالٍ بأيدي أعدائهم؛ ثم أنهم دفعوه بخشونة وسرعة. ولخوف [انتيگونس] من التجمهر، اذ لم يعد هناك أحد في المعسكر، أرسل عشرة من اضخم فيلته، مع ثلة مختلطة من حملة الحراب الميديين والپارثيين، ليدفعوا عنه الجمهور المتكالب. ولم يكن [انتيگونس] يقوى على مشاهدة [يومينيس] امامه بهذه الحالة نظراً لعلاقتهما المتينة وصداقتهما الحميمة السالفة. ولكنه أجاب أولئك الذين أحضروا [يومينيس] وسألوا كيف يحفظونه - أجابهم بقوله: «كما يحفظ أسدٌ أو فيل» ثم ما لبثت العاطفة أن أستولت عليه فأمر أن تكسر اثقل الاغلال عنه، وان يسمح لأحد خدمه بالعناية به ودهن جسمه بالزيت، وأن يسمح لمن يشاء من أصدقائه بزيارته، وان يؤتى اليه بما يريد. وظلّ زمناً وهو يقلبُ الفكر في تقرير مصيره. ومال حيناً الى نصح ووعود صاحب كريت [نيارخوس Nearchos] وابنه [ديمتريوس Demetrius]. وكانا شديدي الاهتمام بأمر المحافظة على حياة [يومينيس]. في حين أن سائر الآخرين كانوا يريدون القضاء عليه فوراً. وقيل أن [يومينيس] سأل [انومارخوس Onomarchos] القائم على حراسته: ماذا ينتظر [انتيگونس] بعد أن ظفر بعدوه، إمّا يقضي عليه، أو أن يتكرم عليه باخلاء سبيله. فأجابه [انومارخوس] مستخفاً: إن ساحة القتال هي أصلح من هذا المكان لإظهار ازدرائه بالموت. فردّ عليه [يومينيس] بقوله. «وربّك اني أظهرت هذا هناك، وسل ان شئت أولئك الذين نازلوني. إلا اني ما كنت اجرأ على أن انازل رجلاً كان رئيساً لي» فرد عليه [انومارخوس] قائلاً: «اذن فقد وجدت الآن مثل هذا الرجل فلماذا لا تخضع لرغبته هادئاً؟».

ولما قررَّ [انتيگونس] أهلاك [يومينيس] أمر ان يمنع عنه الطعام وفي غضون يومين أو ثلاثة سيقترب من النهاية. إلا ان المعسكر هاج دماج سخطاً وثارت ثائرته فأسرع الى ارسال جلاد فقضى عليه، وسلم جثته لأصدقائه وسمح لهم باحراقها، وجمع رمادها ووضعه في آنية من الفضة، وارسلها الى زوجه وأولاده.

بعد أن قضي على [يومينيس]. لم تعهد العناية الآلهية الى رجل آخر بعقاب القادة والجنود الذين خانوه وسلموه. إلاّ أنّ [انتيگونس] نفسه، الذي اشمأز من [الأرگيراسپيديين] أو غيرهم من الأوغاد الأشرار المتجردين من الانسانية، ما لبث أن أسلمهم الى [سيبيرتيوس Si- byrtius] حاكم [أرخوسيا Archosia] وأمره أن يدمرهم ويبيدهم بكل الوسائل، بحيث لا تكتحل عين اي رجل منهم بمرآى مقدونيا أو بمنظر بحر اليونان.

١٩٦٩/٨/٣٠

أوجه المقارنة بين سرتوريوس ويومينيس

هذا هو أجدر وأهم ما وصل الى علمنا من أخبار [يومينيس] و[سرتوريوس] وبمقارنة سيرتيهما يمكننا ملاحظة أوجه التشابه التالية: كلاهما كان أجنبياً غريباً مبعداً. وكلاهما توصل الى قيادة جيوش عظيمة. ودفعا الى ساحة القتال عسكراً متمرساً في النزال مؤلفاً من أمم وشعوبٍ مختلفة. كان هذا غريباً بالنسبة الى [سرتوريوس] فهو زعيم حزبه الأكبر، الذي كان رهن اشارته، بوصفه شخصاً تجمعت فيه أعظم المؤهلات ونال أكبر الصيت والشهرة، في حين كان [يومينيس] يقف بمواجهة عدد كبير من منافسيه على مركزه، ولم يتفوق عليهم إلاّ باعماله المجيدة. لقد تبع الرجال اولهما، بدافع الاخلاص، ومجرد الرغبة في أن يكون لهم شرف قيادته بينما خضعوا للثاني سعياً وراء ضمان سلامتهم لأنهم عاجزون عن قيادة أنفسهم. وأضحى أولهما وهو مواطن روماني، قائداً للاسبان واللوزيتانيين، وهما شعبان ظلاّ سنوات عديدة خاضعين لحكم روما.

وكان الثاني [خرسونيزياً]، أصبح قائداً عاماً للمقدونيين الذين ظهروا في حينه أعظم فاتحين عرفتهم البشرية، اذ أخضعوا العالم بأسره. اما [سرتوريوس] الذي كان يتمتع بمركز رفيعٍ، لخدماته الحربية السابقة. ولكفاءته التي ابداها في مجلس الشيوخ فقد تدرجت به المناصب الى جنرال. في حين أن [يومينيس] نال هذا المنصب بفضل وظيفته الكتابية. أو مركز السكرتير الذي كان موضع احتقار. وخلافاً لحقيقة كونه قد ارتفع الى منصب القيادة من مرتبة حقيرة. فهنالك أيضاً المتاعب العقبات الكثيرة التي رافقته اثناء تدرجه في السلطة. ولم يكن مصدرَ تلك العقبات خصومُه العلنيون، بل من أناس آخرين كثيرين كانوا يأتمرون به سراً. ويختلف الأمر جداً بالنسبة الى [سرتوريوس] فلم يبرز له معارض أو منافس من حزبه، إلاّ في أواخر حياته، وكانت تلك المعارضة سرية، ولم يأتمر به من معارضيه الاّ القليل النزر. ان [سرتوريوس] وضع حداً للمخاطر التي اعترضته بالانتصارات العديدة التي نالها في ساحات القتال. في حين ان انتصارات [يومينيس] كانت مبدأ المحن والمصائب التي اصابته

جراء دسائس أولئك الذين كانوا يحقدون عليه.

وكانت أعمالهما الحربية متساوية في الدرجة، متناسبة إلاّ أن الاتجاه يختلف. [فيومينيس] كان بطبعه مغرماً بالحرب والنضال، إلاّ أن [سرتوريوس] كان متعلقاً بالسلام والحياة الهادئة المستقرة. وفي الوقت الذي كان بمقدور [يومينيس] أن يعيش آمناً مكرماً معززاً لو أنسحب عن طريق الآخرين، نجده يشتبك في نزاع خطرٍ مع أعظم زعماء المقدونيين. إلاّ أن [سرتوريوس] الذي لم يكن يرغب في اجهاد نفسه وزجها في خلافات سياسية، اضطر الى ذلك حفظاً لحياته، وأرغم ارغاماً على شنّ حربٍ ضد أولئك الذين لم يكن يريدون ان يعيش في دعةٍ وسلام. ولو أقنع [يومينيس] نفسه بقبول المقام الثاني فأن [انتيگونس] الذي سيرتاح من منافسته له على المقام الأول، كان سيرعاه ويقربه منه كثيراً. في حين أن اصدقاء [پومپي] ما كانوا ليسمحوا [السرتوريوس] حتى بالعيش في هدوء. خاض الأول منهما الحروب لمنفعه خاصة، ولرغبة طاغية فيه الى القيادة، اما الثاني فقد اكره اكراهاً على تسلم القيادة دفاعاً عن نفسه في حربٍ شُنت عليه. ومما لا شكّ فيه أن [يومينيس] كان شخصاً مغرماً بالحروب ففضل طموحه الشهواني على سلامته. أمّا سرتوريوس فقد كان محارباً حقيقياً يعنى بأمر سلامته حبّا بانتصار قواته.

أمّا عن كيفية هلاكهما فقد تمّ لأحدهما دون أن يتوقعها مطلقاً، أمّا الآخر فكان يحسب حسابها يومياً. الأمر الذي يفصح عن طبع ونفس شريفة في الأول، لا تشك بنوايا اصدقائها. كما يفصح في الثاني عن ضعف ارادة، وترددٌ جعله يعدل عما أعتزمه من الفرار فقبض عليه. وموت [سرتوريوس] لم يلطخ الشرف الذي ناله في حياته، فقد فعل به رفاقه ما عجز اعداؤه عن فعله. و[يومينيس] الذي لم يفلح في انقاذ نفسه قبل أسره، كان يرغب في أن يعيش حياة الأسر، فلم يستطيع الحيلولة دون مصيره المحتوم، ولم يكن يتوقعه في الوقت نفسه.

ولذلك لم يواجهه بشجاعة أو بشرف. فالرجاء والتذلل منه جعل عدوّه الذي لم يكن لديه سلطان إلاّ على جسده، سيداً متحكماً في جسده وروحه.



AGESILAUS

394 – 362

بعد ان ملك [ارخيداموس Archidamus] أبن [زيوكسيداموس Zeuxidamus] على اللقيديميين ملكاً مجيداً، مات تاركاً ابنين: أكبرهما [أغيس Agis] الذي استولده من [لامپيدو Lampido] وهي سيدة من الأشراف، و[آغسيلاوس] الذي يصغر أخاه كثيراً، أستولده من [يوپوليا Eupolia] بنت [ميليسپيداس Melesippidas]. وآل العرش شرعاً [لآغيس]، وكان المستقبل على أغلب الاحتمال يشير الى أن [اغيسيلاوس] لن يكون أكثر من انسانٍ بسيطٍ. ولن يكون له ايّ شأن في الحياة، ولذلك نشأ وربي على نظام البلاد السائد، وهو نظام صارمٍ شاق هدفه تدريب الشبان على الخضوع والطاعة للكبار. وهذا ما حدا [بسيمونيدس] الى وصف سپارطا بأنها «مدجّنة الرجال» كما أثروا عنه. بسبب هذا الوصف أن السپارطيين بزوا الشعوب جميعاً في تدريب أولادهم على اطاعة القوانين وتعويدهم الصبّر، والطاعة التي يتوصلون اليها بالشدة في تشقيفهم، وتدريبهم منذ نعومة أظفارهم، كالخيل التي لا يتوصل المرء الى تذليلها إلاّ عندما تكون أمهاراً. هذا وبما أن دستور البلاد لا يفرض على ولاة عهد المملكة هذا النظام الصارم فقد شاء حسن حظّ [اغيسيلاوس] أن يكون الأخ الأصغر، فنشأ على ذلك وربي على الطاعة وضبط النفس، فكان أجدر وأنسب لممارسة الحكم عندما آل الملك اليه. وظهر أقرب الى قلوب الناس والعامة، من سائر ملوك سپارطا. لأن نشأته الأولى أضافت الى فضائله الملكيّة مشاعر المواطن الانسانية، وخصاله الرقيقة.

وكان قد ضمّ منذ حداثته الى ما دعي بالمجموعات، أو الصفوف فأجتذب انظار [ليساندر] فخَصّه باعجابه، ولاسيّما بسبب حبّه للنظام واطاعته الأوامر. فإلى جانب روحه العالية التي فاقت كل ما لدى اقرانه والى جانب اندفاعه وحماسته التي كانت تنقذه من كل خطب أو محنة وتنصره على كل معارضة،كان رقيق الخلق لين العريكة يحترم السلطة ولا يندفع وراء عاطفة مفاجئة أو يطيع الحوافز الغريزية في أعماله ويخضع لكلّ أمرٍ وهو أكثر تألماً لأقل استفزاز أو اهانة، من الأرهاق بأيّ مشقة أو تعب.

كانت أحدى ساقيه أقصر من الأخرى. إلاّ ان هذه العاهة قلما لوحظت في شبابه، لجمال عامٍ فيه. وأسلوبه السمح في احتماله هذا النقص قضى قضاءً تاماً على كل الآثار التي تخلفها

فقد كان أولّ من يؤلف النكات والفكاهات على نفسه. والواقع هو أن سموّ روحه، واندفاعه في أطلاب المعالي زاد وضوحاً وجلاء بوجود هذه العاهة. لأنه لم يدع لنقصه هذا فرصة، لينال من عزيمته، أو لمنعه من الاقدام على جلائل الأعمال والإتيان بضروب الشجاعة والبسالة. ونحن اليوم لا نجدُ له صورة أو تمثالاً لأنه أبى أن يُعمل له ذلك في حياته، وأوصى بذلك قبل مماته. وقيل أنه كان قصيراً، ضئيل القدّ. إلاّ ان طيب مزاجه وحضور نكتته ومرحه الدائم. وخفة روحه التي ما عرفت العبوس أو التجهم أو الغطرسة، جعلت شخصيتهُ حتى في شيخوخته من أحب الشخصيات. وبدت أجمل بكثير من ارشق الشباب أكثرنم فتنة وجمالاً. وقد كتب [ثيوفراستوس] يقول بأن مجلس [الايغور] فرضوا على [آرخيداموس] غرامة لأنه تزوج بأمرأة صغيرة العمر وعللوا ذلك «بأنها ستأتي لنا بنسل من الملوك الصغار بدلاً من كبار الملوك» على حدّ قولهم.

وفي عهد حكم أخيه الأكبر [آغيس] حَلّ [سپارطا]، القائد [الكيبيادس] قادماً من صقلية بعد أن أبعد منفياً عن آثينا. ولم يمكث قليلاً إلاّ وانتشر الشكّ حول وجود علاقة جنسية بينه وبين [تيميا] زوج [آغيس] الملك حتى أن الأخير ابى الاعتراف ببنوّة طفل لها قائلاً انه ابن [الكيبيادس] وليس ابنه». ولم تكن [تيميا] اذا صدقنا ما قال [دوريس] المؤرخ، بالمهتمة. فقد كانت السباقة الى الهمس بذلك في آذان الوصيفات الهيلوتيات بقولها أن الاسم الحقيقي لطفلها هو [الكيبيادس] وليس [ليوتيخيدس] وكان المعتقد آنذاك أن [الكيبيادس] لم يرتبط معها بهذه العلاقة لحبٍّ وغرام نشأ بينهما بل بدافع طموح فيه الى أن يكون ملوك السپارطيين من صلبه. ولقد ذاعت أخبار هذه العلاقة وشاعت بين الناس، بحيث لم ير [الكيبيادس] بُداً من مغادرة [سپارطة]، ولم يمنح الابن [ليوتيخيدس] المنزلة المقررة والاكرام الواجب للابن الشرعي. ولم يعترف [آغيس] ببنوته، الى أن حضرته الوفاة وراح [ليوتيخيدس] يبكي متوسلاً ضارعاً وآغيس مسجى على فراشه طالباً منه الاعتراف به ابناً ففعل ذلك امام عددٍ من الشهود، الا ان هذا الاعتراف المتأخر لم يفده في ادعائه العرش، ولاسيما بعد أن أخذ [ليساندر] يعمل لأجل استخلاف [آغيس] بأخيه [اغيسيلاوس معللاً دعوته، بأن [ليوتيخيدس] ابن سفاح، وهذا ما لا يؤهله الى استخلاف أبيه. وكان تأثير [ليساندر] عظيماً بعد أن طبق ذكره العالم باستيلائه على آثينا من البحر، وبعد أن برز كأعظم شخصيّة واقواها في [سپارطا]. كذلك كان مواطنون سپارطيون كثيرون يفضلون [آغيسيلاوس]، ويشايعونه بحماسةٍ، يدفعهم الى ذلك ما تحقق لهم من كفاءته ومؤهلاته التي رأوها بأنفسهم أيام كان يثقف وينشأ بينهم. وكان يوجد في [سپارطا] آنذاك شخص

يدعى [ديوبيثوس Diopithis]، على معرفة ووقوف تأمين بالنبوءات القديمة. وكان على اطلاع عظيم بمسائل الدين والوحي. فزعم أن نصب ملك أعرج على [اللقيديميين] أمرٌ مخالف للدين مستشهداً في قوله هذا بالنبوءة التالية:

يا سپارطا العظيمة السليمة من كل عيب كوني على حذر من الملكيّة العرجاء،
والاّ فسينجم عن ذلك فتنة طويلة غير منتظرة وعواصف مهلكة من الحروب.

إلاّ أن [ليساندر] لم تكن تعوزه الحيلة. وقال مفسراً لمضمونها، اذا كان السپارطيون خائفين من هذه النبوءة حَقاً، فعليهم أن يحذروا من نصب [ليوتيخيدس] ملكاً. لأن الآلهة أبعد عن الاهتمام بقدمٍ عرجاء، في ملك، بل هي تقصد بالنبوءة نقاء الأسرة الهرقليّة، فدخول بذرة غير شرعية فيها، يجعل مُلكها أعرج فعلاً. كذلك زعم [آغيسيلاوس] بأن نغولة [ليوتيخيدس] أنما كانت بشهادة الآله [نبتون] الذي أحدث زلزالاً عنيفاً قذف [بآغيس] من فوق فراش الزوجية، فأنقطع منذ ذلك الحين عن اتيان زوجه [تيميا] وبعد عشرة أشهر من ذلك وُلد [ليوتيخيدس].

وبالنظر الى هذه الاسباب والعوامل أختير [آغيسيلاوس] ملكاً. وسرعان ما أستولى هذا على جميع املاك أخيه المتوفى فضلاً عن العرش. ونبذ [ليوتيخيدس] نبذاً تاماً لكونه ابن زنا. وتوجه باهتمامه ورعايته الى اقربائه من جهة امه، وكانوا أناساً ذوي جاه ومقام إلاّ أنهم في غاية من الفقر. فنزل لهم عن نصف الأموال التي ورثها من أخيه، ونال جراء ذلك سمعة وثقة كبيرة، بدلاً من الحسد والضغينة اللتين تأتيان عادة مع الميراث. ويحدثنا [گزنيفون] بأنه نال حظوة كبيرة وسلطة عظيمة بين المواطنين بحيث لم يكن ثم مَرَدّ لأمره، عن طريق اذعانه الى الشعب، أو بكلمة أخرى بترك الشعب يملي عليه رغباته. ويقول معقباً، أن قصد [آغيسيلاوس] بهذا هو أن يستحوذ على سلطة [الايغور]، و[المشايخ]، بالصورة التالية:

كان لهؤلاء في ذلك الحين السلطة العليا في الدولة، فالايغور هم الحكام الذين ينتخبون سنوياً، والمشايخ يظلون مدى الحياة يمارسون وظائفهم. وهذا النظام كان سائداً منذ أيام [ليكورغوس] كما سبق لنا ذكره، ويقصد به الحَدّ من سلطات الملوك. لذلك كانت الخصومات والمنافسة مستمرة بين هؤلاء وبين الملوك بتعاقب الأجيال. إلاّ أن [آغيسيلاوس] أتخذ سبيلاً للتعامل معهم يختلف عن غيره، فبدلاً من الاختصام والتنافس راح يخطب ودّهم. ويسارع في استشارتهم كلما اراد ان يقدم على عملٍ. وكان يتظاهر ابداً بالاستعداد للتوجه اليهم بل الجري، وراء يريدونه. فاذا كان جالساً على عرشه يفصل في المظلمات ودخل عليه الايغور، فإنه يهبّ واقفاً أحتراماً لهم. واذا انتخب أحد المشايخ للمنصب، اهداه معطفاً وثوراً. وهكذا

فحين يتظاهر بالرغبة في تقوية سلطاتهم ويظهر لهم كل التجلّة والاكرام، تجده يعمل سراً بتقوية سلطته وتوسيع صلاحيات الملك بمختلف التجاوزات على صلاحياتهم مما لا تدعهم صداقتهم له على الاعتراض.

وسلوكه ازاء سائر المواطنين لم يكن فيه مطعنٌ قط. وهو في خصوماته أقل لوماً مما هو في صداقاته. ففي عداواته يأنف أن يأخذ عدوّه على حين غرّة وفي غفلةٍ منه. وفي صداقاته لا يقف عند حَدٍّ في مساعدة صديقه حتى في الأمور التي لا تقرّها قواعد العدالة. واذا ما أقدم خصمٌ له على أمر يستحق التمجيد والثناء، فانه يترفع عن التقليل من شأن ذلك العمل. لكنه لا يعرف قط كيف يلوم اصدقاءه عندما يقدمون على السيء من الأعمال، بل ينحاز الى جانبهم ويدافع عنهم ويساعدهم في سوء أعمالهم ويرى من واجبات الصداقة، أن تكون أعمال الاصدقاء جديرة بالأطراء ومهما كانت سبلها. واذا أخطأ عدوّ له في أمر، كان أوّل من يرثي له ويسرع الى الاغضاء عنه وبهذا تمكن من نيل محبة المواطنين والفوز بقلوبهم حتى أصبحت شعبيته موضع شكّ [الايفور] ففرضوا عليه غرامة بزعمهم «انه يكسب المواطنين لنفسه، في حين أنهم ملك عام للدولة!» فمن رأي الفلاسفة أنكّ لو تمكنت من ازالة روح المنافسة والمباراة من الكون فان كل الإجرام السماوية ستقف جامدةً وتفقد الحركة، وعملية الخلقِ مجردة عن التساوق والتناسق المتناظرين في الأشياء جميعاً. ولهذا يبدو أن صاحب الشريعة السپارطية قد أقّر لمقومات جمهوريته بمبدأ المباراة والمنافسة كالتنافس على الفضيلة وكرم الخلق مثلاً. ورغب بصورة لا لبُس فيها باحلال نوع من المنافسة والتنازع ما بين المواطنين الفضلاء. وأعتبر البقاء على المؤهلات غير الفعالة والمثمرة، أو التواكل، نوعاً زائفاً من التناظر. ويرى بعضهم أن [هوميروس] كان يقصد هذا عندما جعل [آغاممنون] عظيم الفرح بالخصام الذي نشب بين [اوليسيس] و[آخيل]، ملتذاً «بالكلمات الجارحة» التي تُبودلت، الأمر الذي ما كان ليحدث له، لو لم يجد في الأختلاف والتخاصم بين شرفاء الرجال، مصلحة عامة كبيرة. على أن هذا المبدأ يجب أن يجري على اطلاقه ودون تحديده، فلو تفاقم الخصام وأشتدّت نار المنافسة لانقلبت خطراً عظيماً على الدول والممالك ولنجم عنها آثار وخيمة جداً.

وفي مفتتح عهد [آغيسيلاوس] وردت انباء من آسيا تشير بأن الملك الفارسي يقوم باستعداد بحريّ عظيم، وهدفه انتزاع التفوق البحريّ من أيدي السپارطيين. وتحمس [ليساندر] لفكرة انتهاز هذه الفرصة للزحف في آسيا ومساندة اصدقائه الذين كان قد نصبهم حكاماً واسياداً على المدن هناك، فأساوا السياسة والحكم وتمادوا في طغيانهم مما دعا الى طرد بعضهم وقتل آخرين منهم. وأفلح في اقناع [آغيسيلاوس] بأن يتولى قيادة الحملة فيحبط

بذلك خطط البرابرة الرامية الى نقل الحرب الى اراضي اليونان، لذلك قاتلهم في عقر دارهم. وكتب أيضاً الى اصدقائه في آسيا لإرسال وفود الى سپارطة يطلبون ان يكون [اغيسيلاوس] قائداً عاماً لهم. ودخل [اغيسيلاوس] الى الجمعية العامة مبدياً موافقته شريطة انه يزودّ بثلاثين قائداً ومستشاراً سپارطياً يرافقونه ويكونون تحت امرته، مع [٢٠٠٠] من صفوة رجال الهيلوت الذين منحوا الحقوق المدينة والاقتراع ومن الأحلاف ما يبلغ عدده ستة آلاف. فنال ما اشترطه بمعاونة [ليساندر] وتأثير نفوذه. وتمّ اختيار ليساندر فوراً رئيساً لهؤلاء الثلاثين لا بفضل سلطته وشهرته، بل بسبب صداقته [لأغيسيلاوس] الذي عَدّ أختيار [ليساندر] له في هذه المهمة فضلاً أكبر من مساعدته في تبوء العرش.

وبينما كانت وحدات الجيش تحتشد في قاعدة [گيراستوس Geræstus] المختارة لهذا الغرض. ارتاىٔ [اغيسيلاوس] أن يرحل مع بعض اصدقائه الى [آوليس Aulis]. وهناك رأى فيما يرى النائم، رجلاً يدنو منه ويتحدث اليه بما يلي:

«عليك يا ملك اللقيديميين أن تعرف عن نفسك هذا، انه ليس ثم الا جنرال رئيس بين الأغريق كلهم، وهو [آغاممنون] وبما انك الآن خليفته في هذا المنصب نفسه، وفي قيادة الرجال أنفسهم، وما دمت تعلنها حرباً على الاعداء ذاتهم وتبدأ حملتك من البقعة ذاتها، فعليك ان تقرّب ما قربه [آغاممنون] بالضبط، قبل رفعه مراسيه».

وهنا تذكر [آغيسيلاوس] حالاً أن القربان الذي قربّه [آغاممنون] كان ابنته لأنّ النبوءة التي نزلت عليه أمرته بذلك. لكنه لم يقلق، ولم ينشغل باله، وأسرع حال استيقاظه ينبئ اصدقاءه بما رأى معلّقاً عليه بقوله انه سيسترضي الآلهة بقرابين لا يسع أية آلهة غيرها إلاّ الرضا بها. وانه لن يتأثر الخطى العمياء التي سلكها سلفه. ثم أنه أمر أن يؤتى بظبية. وأن تتوج بالاكليل وطلب من ساحره القيام بمراسيم التقريب ولم يكن الشخص الذي تعودّ البويوسيون ان يعهدوا لامثاله بمثل هذه المهمة، فساءهم الأمر وأسخطهم جداً، وبعثوا بضباط الى [اغيسيلاوس] لمنعه من التضحية بصورة مخالفة لشريعة البلاد. وعلى أثر أبلاغ الرسالة اليه تقدموا من المذبح رأساً ورفعوا عنه اشلاء الظبية وقذفوا بها بعيداً. فشاع الغضب الشديد في نفس [اغيسيلاوس] وأقلع تواً بسفنه دون أن يقوم بتقريب قرابين أخرى. وقد أستولى عليه التخاذل لهذا الفأل السيء متوقعاً حملة فاشلة تاماً، ورحلة مشؤومة.

وبوصوله [أفسوس] تهولّ ما رآه من هيبة [ليساندر] ونفوذه والإجلال الذي يحبوه به الناس. مما لم يطق صبراً عليه. فقد كانت المظالم والشكاوى كلها ترفع له. وذوو الحاجات كلهم يتجمعون على بابه ويقتفون خطاه اينما سار، كأنما لا شيء يعود [لآغيسيلاوس] غير

صـفة القائد، التي هي مجرد أمرٍ شكليّ. أما السلطان الفعلي والأمر والنهي فهو بيد [ليساندر]. في الواقع لم يكن بين القادة والمستشارين الذين ارسلوا الى آسيا من يدانيه جبروتاً وسطوة. ولم يكن فيهم من يفوقه في مكافأة اصدقائه، وفي صرامته ازاء أعدائه. هذا التصرف الذي مارسه الآن، خلف أشدّ الانطباع في نفوس الناس، لاسيّما عند مقارنتهم سلوك [اغيسيلاوس] الرقيق البسيط المحبب بمظهر الصرامة والسيادة والعبارات المقتضبة التي ما زالت بارزة في طباع [ليساندر]. انجرفوا انجرافاً عاماً بهذا المظهر المهيب وانحازوا الى صاحب تلك المعاملة، ولم يظهروا [لاغيسيلاوس] إهتماماً كبيراً. ذلك التصرف اغاظ أولاً، القواد السپارطيين الذين ساءهم ان يظهروا بمظهر الخدام لليساندرأكثر من ظهورهم بمظهر المستشارين [لآغيسيلاوس]، وأخيراً بدأ [اغيسيلاوس] نفسه يدرك بأن طغيان شخصية [ليساندر] ستحرمهُ أي صيتٍ أو شهرةٍ قد يأتيا من عمل عظيم. ومع أن [اغيسيلاوس] بعيد عن الحسد بطبعه، لا يستاء من الوان التكريم والحفاوة التي ينالها الرجال الآخرون، إلاّ أنه ضنين بالمعالي، حريص على امجاده. ولذلك نراه يلجأ الى الوسيلة التالية:

بدأ أولاً في معارضة كلّ اقتراح يبديه [ليساندر]. ونبذ كا ما يحبذه ويزينه له بصورة خاصة ليأخذ بضده من المقترحات وبعد هذا عمد الى من يراجعه في مطلب، فمن كان ذا صلةٍ [بلساندر] خاب في مسعاه لا محالة. واتبع الأسلوب نفسه في الدعاوى القضائية. فكلّ من كان [ليساندر] يقف ضدّه، ويتكلم بالسوء عنه ربح قضيته بالتأكيد، وكل من كان يأتي [ليساندر] متوسلاً في قضية متشفعاً. فليكن سعيد الحظّ ان خرج سالماً بجلده دون ان تلحقه خسارة.

وكانت هذه الأمور تجرى وفق مخطط مرسوم وبنية مقصودة، لا بصورة عفوية، وما لبث [ليساندر] أن أحسّ بها، فلم يتردد في مصارحة اصدقائه بأن الأذى الذي يلحقهم انما هو بسببه. وطلب منهم الانصراف الى الملك لأنهم أقوى عليه بدون وجوده، مما لو كان هو. ويظهر انه كان يقصد باقواله هذه، إثارة شعور من الاستياء عليه لكن [اغيسيلاوس] تمادى، ووجه إهانة صريحة له، بأن عينه بمنصب «مقطع اللحم» وكان يقول للملأ ساخراً «فليذهبوا الآن ويقدموا فروض التجلة والولاء لمقطع اللحم على مائدتي!». ولما نفد صبر [ليساندر] وضاق صدره بالاهانات، شكا الأمر بالأخير الى [اغيسيلاوس] وقال له: «انك تجيد اذلال اصدقائك» فأجابه [اغيسيلاوس] قائلاً:

– اني أجيد فعلاً اذلال أولئك الذين يزعمون لأنفسهم سلطاناً أكثر مني.

فقال [ليساندر]:

- ربما كان الأفضل أن تنطق أنت به، مما لو أنطقه أنا: واني لا ارغب إلاّ في أن تسند اليّ منصباً في مكان أخدمك فيه آمناً من التعرض لسخطك.

فبعث به [اغيسيلاوس] الى [اللهيللسپونت] حيث عقد اتفاقاً مع [سپثيرداتس Spithri-dates] الفارسي حاكم أقليم [فارنبازوس Pharnabazus] لمساعدة اليونان بمائتين من الخيالة ومبالغ كبيرة من المال. ولم تخمد سورة غضبه وبدأ ينفذ منذ ذلك الحين وما تلاه، خطة تقضي بانتزاع المملكة من الأسرتين اللتين تحكمانها وجعل نظام الحكم فيها انتخابياً. وقد قيل انه كان بسبب هذا النزاع سيثير ضجة عظيمة في سپارطا لو لم يوافه الأجل في الحرب [البويوتية]. وهذا هو شأن النفوس الطمّاحة في الجمهوريات. اذا تخطت حدودها، كانت زعيمةً بالحاق الضرر، أكثر من جلب المنفعة. ومع ان كبرياء [ليساندر] وعجرفته كانتا أعظم مما يطيقه بشر وابعد عن أية مناسبة أو معقول، [فاغيسيلاوس] كان في مقدوره بلا شكّ، ان يلجأ الى وسيلة أخرى لتقويمه أقل اذلالاً وايلاماً لرجل ذي شهرة طائرة ومآثر عظيمة. والحقيقة هي أن الاندفاع العاطفي أعماهما فما عاد الأول يعترف رئيسه بسلطةٍ، وما عاد الثاني يحتمل نقائص صديقه.

في مبدأ الأمر كان [تيسافيرنس] الذي يخشى ان [اغيسيلاوس] قد فاوضه حول اعطاء الحريات للمدن اليونانية، واتفقا على الأمر، ولكنه ما أن وجد أن قوات كافية قد أجتمعت له حتى قررّ اللجوء الى القتال، وهو الأمر الذي كان يريده [اغيسيلاوس]، حيث أن الآمال التي عقدت على هذه الحملة كانت عظيمة. وكان يرى مما لا يشرفه أن لا يقوم بعمل ذي شأن لأجل اليونانيين وهو على رأس السپارطيين الذين كانوا آنذاك سادة البَرّ والبحر، وهذا [گزينفون] بمحاربيه العشرة آلاف يتوغل في قلب آسيا حتى يبلغ البحر، ويوقع بالقوات الفارسية الهزائم متى وكيف شاء. لذلك ولكيما يقتص لنفسه من [تيسافيزنس]، ويقابل نكثه بالعهد، بحيلةٍ لا غبار عليها، تظاهر بالزحف على [كاريا] مستدرجاً خصمه [تيسافيرنس] حتى اذا تم له ذلك أقفل راجعاً فجأة وانقض على [فريجيا] فدوّخها وأستولى على كثير من مدنها ووضع يده على غنائم كثيرة، وبذلك لقنّ حلفاءه بأن مخالفة العهود المقطوعة، هو استصغار للآلهة، وامّا ايقاع العدوّ في شرك اثناء الحرب فهو عمل عادل، بل مأثرة مجيدة، فضلاً عن كونه مصلحةً ومدعاة للارتياح.

وكان من جهة يشكو نقصاً في خيالته، ويشعر ببعض التثبيط وخور العزيمة لشواهد النحس التي تجلت في قرابينه من جهة أخرى، فأنسحب الى [افسوس] وهناك تمكن من تعبئة أعداد كبيرة من الخيالة. بارغام الاغنياء الكارهين مهنة الحرب على تقديم بديلين عنهم. لكلّ واحدٍ

فارس مسلح مع جواد. وكان كثير من الناس يرغبون في تقديم هذا البديل للتخلص من الخدمة. ولذلك فسرعان ما تعزز جيشه بقوات من الخيالة غلبت عليهم الشجاعة والبسالة، فمن عجز عن القتال أستأجر شخصاً يميل اليه، ووضعه بين الخيالة. ومما يشبه هذا ما فعله [آغاممنون] بقبوله مهراً أصيلاً مقابل تسريح أحد الأغنياء الرعاديد من الجيش.

وعرض بأمرٍ من [اغيسيلاوس] أسرى الحملة الفريجية للبيع بالمزاد العلني. فنزعت ثيابهم عنهم أولاً وشرع ببيعهم وهم عراه وتهافت الشارون على الثياب الاّ أن الأسرى أنفسهم كان الاقبال عليهم ضعيفاً لهزالهم ونحافتهم وبياض إهابهم ورقته، بسبب قلة التمارين الرياضية وعدم التعرض للطبيعة. مما دعت الى العزوف عنهم وأحتقارهم لعدم صلاحهم للعمل. وكان [اغيسيلاوس] واقفاً في السوق فالتفت الى من حوله من الاغريق الاتباع وقال لهم «هؤلاء الرجال الذين تقاتلونهم. وهذه الثياب والاشياء هي ما تغتنمونه من هذه الحرب».

وبدنو موسم الشتاء بث [اغيسيلاوس] الشائعة، بأنه يعتزم غزوة [ليديا]. هذا التصريح عَدّهُ [تيسافيرنس] ضرباً من الخداع، ولم يصدقه هذه المرة بعد أن جازت عليه الحيلة الأولى، متوقعاً انه سيختار [كاريا] لأنها بلاد وعرة المسالك غير صالحة للخيل بسبب النقص الذي يشكو [آغيسيلاوس] فيها. ولهذا بنى تقدمه على هذه الفروض، لكنه سرعان ما تبين ان [اغيسيلاوس] كان صادقاً في قوله، حين دخل بلاد [ساردیس]، فسارع للحاق به بأقصى ما يمكنه. وأدركت خيالته التي أجهدها الطراد - ساقة جيش [اغيسيلاوس] وهي متفرقة مشتتة منهمكة في السلب والنهب فقضى عليهم. وفي عين الوقت تبين [اغيسيلاوس] أن خيالة خصمه قد تجاوزت مشاته كثيراً وانفصلت عنه. وكان جيشه مجتمعاً موحد الصفوف برمته، فقرر أن يشتبك حالاً في معركة معهم. خرج بمشاته الخفيفة، حملة التروس مع الخيالة وأمرهم بالتقدم السريع ودخول المعركة. في حين عبأ مشاته الثقيلة في المؤخرة وكان النصّر الذي ناله موازيا للدقة التي رسم بها خطته. فقد لاذ البرابرة باذيال الفرار فلاحقهم اليونانيون وجدوا في أثرهم حتى أستولوا على معسكرهم ووضعوا السيف في رقاب العديد منهم. كان لهذا النصر آثار عظيمة جداً لم تقتصر على نهب البلاد الفارسية على هواهم وبقدر ما شاؤوا. بل لدفع [تيسافيرنس] ثمناً غالياً عن سائر الظلم والقسوة التي اذاقها للأغريق، لعدائه الشديد لهم. فقد أرسل ملك الفرس سفيره [تيثراوستس Tithraustes] الذي قطع رأسه. وانثنى حالاً يفاوض [اغيسيلاوس] بخصوص عودته الى اليونان، كما بعث وفداً لهذه الغاية. فوضه بان يعرض مبلغاً كبيراً من المال عليه. فأجاب [اغيسيلاوس] الوفد بقوله أنه غير مخول بابرام صلح، وأن اللقيديميين هم اصحاب الكلمة فيه. أمّا عن المال فهو يفضل ان يراه في أيدي

رجاله على ان يكون بيده. والاغريق لا يرون من الكرامة في شيء أن يتسلموا رشاوى من اعدائهم، وانما بأخذ الغنائم الحربية، ومع كلّه فإكراماً لـ[تيتراستس] ولروح العدالة التي رافقته في معاملته [تيسافيرنس]عدوّ الاغريق الأكبر، سيقوم برفع مقره الى [فريجيا]. ويقبل بثلاثين تالنتاً تسديداً لنفقاته. وفيما هو ماض في سيره، جاءته [عصا] من حكومة سپارطا وفيها أمر يقضي بتعيينه أميرالاً للأسطول، اضافة الى قيادته العامّة لقوات البر. وهو شرف لم يخلع على أحدٍ من ملوك سپارطا قبله. ولهذا يكون [اغيسيلاوس] بلا منازع أعظم وأشهر رجال عصره وصح ما قاله عنه [ثيومپوپوس] انه زاد بفضائله ومؤهلاته مجداً على ما حبته به سلطته ونفوذه. غير انه ارتكب خطأ بتفضيل [پيساندر Pisander] بين كثيرين من حوله أكثر منه خبرةً وأكبر سنّاً لقيادة الأسطول. وهو في هذا التعيين لم يتوخ المصلحة العامة بقدر ما توخى ارضاء قريب له وهي زوجته التي كان [پيساندر] شقيقها.

بعد نقل معسكره الى الاقليم الذي يحكمه [فارنبازوس] أمن نقص الارزاق بتوفر مقادير كبيرة منها. فضلاً عن تمكنه من جمع مبالغ كبيرة من المال. ثم زحف نحو تخوم [پافلاغونيا]، فأنضم اليه [كوتيس Cotys] ملكها ودخل معه بمحض رغبته في حلف مدفوعاً بفكرته الحسنة عن شرف [اغيسيلاوس] وشهامته. ومنذ أن ترك [سبيثريداتس] الملك [فارنبازوس] وهو الى جانب [اغيسيلاوس] لا ينفصل عنه ويتبعه في المعسكر متأثراً خطاه اينما ذهب. وكان [لسپيثريداتس Spithridates] هذا، صبيٌ في مقتبل الصبا وريعانه في غاية الجمال يدعى [ميغاباتس Megabates] عَلِق [اغيسيلاوس] به. كما كان له ابنة فاتنة جداً، في سنّ الزواج، عقد لها [اغيسيلاوس] على الملك [كوتيس] وأخذ منه مقابل ذلك الف رأس من الخيل، والفين من المشاة الخفيفة. وعاد الى [فريجيا] وأخذ يدوخ بلاد [فارنبازوس] ويعيث فيها سلباً. ولم يكن صاحبها يجتريء على مقابلته في ساحة القتال، كذلك كان ضعيف الثقة بحاميات مدنه، فجمع كل ماله قيمة من أمواله وأخذ يتنقل هنا وهناك بجيش خفيف الحركة متوخياً الابتعاد عن خطّ سير [اغيسيلاوس] الى أن وفق [سبيثرايداتس] بالتعاون مع [هيرپيداتس Hierpidates] الاسپارطي، الى الاستيلاء على معسكره وكل امواله. وابدى [هيرپيداتس] نهاية في الشدة والصرامة اثناء التحقيق والتدقيق عن الغنائم التي أخذها الجنود البرابرة لأنفسهم وأرغمهم على ردّها مع كثير من القسوة والشدة، فاستاء [سپيريداتس] منه واغاظته طريقته، فأنقلب الى الجانب الآخر، وذهب مع [الپافلاغونيين] الى [ساردبس]. فاورث [اغيسيلاوس] حزناً عظيماً. لأنه فقد به صديقاً وقائداً مقداماً كما فقد جزءٌ كبيراً من الجيش معه. زد على هذا أن أصل الموضوع كان تلك الخسّة المتجلية

بالشهوة الدنيئة الى المال. وهو ما كان [اغيسيلاوس] يحرص دائماً أن يبعد شرفه وشرف بلاده عن التدنس به وفضلاً عن الاسباب العامة فهناك سببه الخاص. لأن تعلقه الشديد بابن [سپيثريداتس] كان قد ملك عليه مذاهبه، وان حاول الظهور بمظهر المسيطر على ارادته، لاسيما في محضرٍ من الفتى نفسه ومجاهدته لأخفاء كل ما ينم عن عاطفته. حتى انه عندما تقدم منه الفتى يوماً لتقبيله. اشاح عنه [اغيسيلاوس] ولوى عنقه فخجل الفتى وارتد الى الوراء مرتبكاً. وعمد بعد ذلك الى أن يكون أكثر تحفظاً في تحيته له ويحرص أن تفصل بينهما مسافة. وما لبث [اغيسيلاوس] أن ادركه الندم على بروده. وغيرَ من رأيه وتظاهر بالعجب من صدود الفتى وعدم التسليم عليه بالحرارة السابقة، والاسلوب الخالي من الرسميات. فقال المقربون منه «لقد كان الخطأ خطأك، لأنك لم تسمح للفتى بتقبيلك، واشحت عنه بوجهك منزعجاً. ولو كانت لديك الشجاعة في تركه يفعل ذلك لجاءك مَرّةً أخرى» فأطال [اغيسيلاوس] الصمت ثم قال:

- لا حاجة بكم الى دفعه على عمل ذلك. واری من الأفضل أن أكون سيدّ نفسي في رفضي، من أن اتصور كل ما يقع نظري عليه وقد انقلب الى ذهب ابريز.

وهكذا، تراه ينزل عن قدر نفسه أمام [ميكاباتس]. ويهفو اليه بعنفٍ عندما يكون بعيداً عنه، بحيث لا يملك المرء نفسه من التساؤل، ترى لو عاد الفتى اليه ثانية، هل ستعينه الشجاعة التي كان يبديها أم ستخذله اذا أمتحن بموقف رفض آخر؟

وبعد هذا، قام [فارنبازوس] ينشد فرصة للمفاوضة مع [اغيسيلاوس]. فتوسط بها [ابللوفانوس Appolophanus] صاحب [كابزيكس Cyzicus] وحقق لهما اجتماعاً. وكان [اغيسيلاوس] الاسبق في الحضور فانطرح على العشب تحت شجرةٍ منتظراً قدوم [فارنبازوس]. وما لبث ان جاء هذا ومعه المطارح الجلدية الناعمة والسجاجيد المطرزة الوثيرة. فلما شاهد حال [اغيسيلاوس] ادركه الخجل من نعومته وترفه ولم يستخدم تلك المفارش وانما استلقى الى جانبه على العشب دون اهتمام بما يصيب ثيابه الفاخرة الجميلة الصبغ. وكان [لفارنبازوس] الكثير من اسباب الشكوى، فبعد تبادل عبارات الترحيب والمجاملات الرقيقة، راح يذكّر [اغيسيلاوس] بخدماته الجليلة التي اداها لقومه اللقيديميين في حروب [اتيكا] فكوفيء عنها باسوء جزاءٍ، وهو اجتياح بلاده ونهبها على أيدي أولئك الذين يدينون له بالكثير. فأطرق السپارطيون الحاضرون برؤوسهم خجلاً مدركين مبلغ ما ألحقوه من أذى بحليفهم السابق. إلاّ أن [اغيسيلاوس] أجابه قائلاً:

- يا فارنبازوس، عندما نكون نحن اصدقاء مع سيدك الملك فأننا نسلك سلوك الاعداء.

وبالنسبة اليك فالواجب يقضي علينا أن نعتبرك جزءاً من ملكه، ونعاملك بمقتضى ذلك، ونحن لا نقصد من هذا الحاق اذى بك بل به عن طريقك. ومع هذا كله فلك انت وحدك ان تختار بين أن تكون صديقاً للاغريق اوعدّواً للملك وإذ ذاك لك أن تعدّ هذا الجيش جيشك، وهذا الاسطول رهن اشارتك، يدافعان عنك وعن بلادك وحرياتك التي هي أشرف ما يطمح اليه الناس اسمى هدف لهم.

فردّ [فارنبازوس] مفصحاً عن حقيقة ما يجول في ذهنه قوله:

- اذا بعث الملك حكماً آخر في مكاني فسانحاز الى جانبكم، وهذا عهدٌ مني. أما وهو يضع الآن ثقته بي في حكم هذه البلاد، فلا يسعني إلاّ ان ابقى مخلصاً له ولن ادّخر أي مجهود في مقاومتكم.

فلم يسع [اغيسيلاوس] الاّ الإعجاب بجوابه. فنهض ومدّ يده اليه مصافحاً وقال له:

- إني لأفضّل أن يكون شخص بمثل شجاعتك، صديقاً لي لا عدواً.

وغادر [فارنبازوس] الاجتماع الاّ أن ابنه تخلّف، وأسرع متوهجا نحو [اغيسيلاوس] هاشاً باشاً. وابتدره قائلاً:

- اغيسيلاوس! أنت الآن ضيفي.

ثم قدم له حربةً كانت في يده فتقبلها [اغيسيلاوس] وهو متأثر بالانعطاف والحفاوة التي ابداها له الشاب، وأخذ يتلفت فيما حوله ليجد شيئاً مما لدى بطانته، يناسب الهدية. فحانت منه التفاتة الى جواد يركبه كاتم سرّه [ايداوس Idaeus] وكان عليه أغطية وسروج في غاية الجمال والزركشة فنزعه وقدمه للفتى ولم يقف عطفه عليه عند هذا، وانما استمر يحبوه به، عندما طرده أخوته من وطنه وعاش منفياً في [البيلوبونيز] فقد خصّه بالرعاية والاهتمام الشديدين، بل وتنازل حتى الى ابداء المساعدة له في بعض الأمور الغرامية. وكانت تربطه رابطة صداقة بشانٍ آثيني المولد نشأ رياضياً. وكان هذا الرياضي ضعيف الأمل بقبوله في قائمة المتبارين بمناسبة الالعاب الاولمپية. بسبب ضخامة جرمه، ومظهره القوي التام النضوج، فتوجى الصديق الفارسي، الى [اغيسيلاوس] يلتمسه العون، فلبى [اغيسيلاوس] مطلبه وخف الى مساعدته وحقق له رغبته بصعوبةٍ غير قليلة، وهذا هو طبع [اغيسيلاوس] كان في كل الأمور منصفاً عادلاً للغاية، إلاّ فيما يتعلق بالصداقة، وبالصديق، وهو في هذا القول: «ان تزمّتك والتزامك جانب العدالة في قضية صديق، ما هو الاّ ادعاء مبطّن خادع به لرفض طلبه».

وهنالك قول مأثور كُتب الى [ايدريوس Idrieus] أمير [كاريا Caria]، يعزى الى [اغيسيلاوس]، وهذا هو:

«اذا كان [نيقياس بريئاً، فأغفر له. وان كان مجرماً فأغفر له إكراماً لي. ومهما يكن فعليك أن تغفر له».

تلك كانت عادة طبعه في معاملته لأصدقائه. إلا أن هذه القاعدة كان لها استثناءاتها. فهو أحياناً يقدم مصالحه على مصالح صديقه. كما فعل مَرّة عندما خلّفَ وراءه صديقاً مريضاً ورفع معسكره مسرعاً. فناداه صديقه هذا صارخاً طالباً مساعدته لكنه اداره له ظهره مبتعداً وهو يقول:

- ليس من السهل أن يكون حكيماً وعطوفاً في آن واحدٍ.

وهذه الحكاية اوردها [هيرونيموس] الفيلسوف.

ومضت سنة أخرى على الحرب وشهرة [اغيسيلاوس] تزداد وصيته يعلو. حتى ان الملك الفارسي فرض أن يبلّغ يومياً بالمعلومات المتوفرة عن مآثره العديدة، والمكانة العظيمة التي يمتاز بها عند العالم بسبب نبل طباعه وبساطة عيشه وأعتداله في الأمور. ولقد أعتاد كلما أعتزم سفرةً، أن يتوجه الى أحد المعابد فيقيم فيه حيناً ليجعل الآلهة شهوداً على اخص أعماله، مما لا يسمح غيره أن يطلع عليه الناس.

وفي جيش الكثير العدد كجيشه، قلما تجد جندياً عادياً فراشه أكثر خشونة من فراش [اغيسيلاوس]. وبلغ به عدم الاهتمام بتقلبات درجات الحرارة والبرودة أن بات كلّ الفصول سواء لديه طبيعية لا يشكو منها الآلهة التي ارسلتها. وكانت الغبطة تشيع في الاغريق القاطنين آسيا وهم يرون سادة الفرس العظام. وحكامهم يرتجفون فرقاً امامه بكل كبريائهم وجبروتهم وترفهم الذي يحف بهم. وهم يركعون أمام رجل مشتمل بمعطف رثّ تكاد خيوطه تنسلّ منه. وبكلمة واحدة تخرج من فمه يغير من أحوالهم ومصائرهم ويقضي أو يرجيء في رغباتهم. وهذا ما يذكر الكثيرين منّا بأبيات [تيموثيوس Timotheus] القائل:

«مارس هو الطاغية. إلاّ ان الاغريق الذهبية لا تخاف»

وبدأت أقاليم كثيرة من آسيا تنتقض وتثور على حكم الفرس. واشاع [اغيسيلاوس] النظام في المدن واعاد حكم الدستور الصحيح في الادارات والحكومات، دون ان يقتضيه ذلك سفك دماءٍ أو عمليات نفي لرجال الحكم البائد. ثم أخذ يستعدّ الى نقل الحرب بعيداً في قلب بلاد الفرس، ويهاجم ملكهم في عاصمتيه [سوسه] و[اكبتانا] لأنه لم يكن راغباً في ترك

ذلك الملك جالساً على كرسيّة يلعب لعبة الحكم فيما بين صراعات الأغريق. ويدفع الرشاوى لزعماء دهمْائهم. إلاّ أن فكرته العظيمة هذه اعترضتها الأنباء السيئة التي وردته من سپارطة. فقد بعثوا يطلبون عودته الى الوطن لعون بلاده التي كانت قد أشتبكت آنذاك في حرب زبون:

لنفسها خلقت بلاد اليونانيين تلك الضجة البربرية

والحقت بنفسها هزيمة، لم يستطع الآخرون الحاق مثلها بها.

ما الذي يقال عن تلك النزاعات والخصومات الدموية، وعن ذلك التحزب والتكتل الاغريقي الهادف الى خرابهم. الموقف لمسيرة الحظ الكبرى وهي في أوجها؟ ما الذي يقال أبلغ من هذين البيتين؟ في ارتداد السلاح على أعقابه، بعد أن وجه الى البرابرة، ليعود فيستعمل فيما بين رافعيه لخراب اليونانيين بحربٍ كانت قد أبتعدت عنهم كثيراً؟ إني لاتفق مطلقاً مع [ديماراتوس Demaratus] الكورنثي، القائلِ أن هؤلاء الاغريق الذين لم يعيشوا ليروا الاسكندر جالساً على عرش [داريوس] فقدوا لذة عظيمة. وكان الأحرى بهم أن يذرفوا الدمع عندما يفكرون بأنهم تركوا ذلك المجد للاسكندر والمقدونيين. في حين كانوا ينهكون قوادهم الكبار في ضربهم الواحد بالآخر في ساحات قتال [ليوكترا] و[وكورونيا] و[كورنث] و[اركاديا].

لم يكن ثم أسمى وأشرف من موقف [اغيسيلاوس] بهذه المناسبة. وليس هناك سلوك أكرم وارفع من قضية الطاعة الفورية والاحترام العادل للأوامر. فهنيبعل الذي تحرج موقفه في ايطاليا حتى كاد يقذف منها لم يسعه اطاعة الأمر عندما أستدعي للدفاع عن بلاده. والاسكندر راح يتفكه على المعركة التي نشبت بين [آغيس] و[أنيتباطر]. بقوله ضاحكاً:

- أنظروا! نحن هنا في آسيا نلحق الهزائم بداريوس. بينما يبدو ان هناك معركة في اركاديا نشبت بين الفئران!

وهكذا أسعد سپارطا أن ترى [اغيسيلاوس] بعدله وأعتداله يحترم شرائع بلاده فيسرع اليها فور وصول الأمر، وهو في أوج سعده وعنفوان قولته وأقرب الى النصر العظيم المجيد من حبل الوريد، ينبذ كل شيء ويرحل «دون تحقيق اهدافه» تاركاً اللوعة والأسف في قلوب حلفائه الآسيويين ومبرهناً بالمثل الذي ضربه من نفسه على فساد قول [ديموستراتوس De-mostratus] ابن [فاياكس Phæax]: «اللقيديميون هم خير الجميع في المسائل العامة، والآثينيون هم خير الجميع في المسائل الخاصة».

فقد أعطى [اغيسيلاوس] دليلاً من نفسه، بأنه ملك وقائد ممتازاً، كما أظهر انه صديق ممتاز وعشير لا أحبّ من مجلسه.

نقش على العملة النقدية الفارسية صورة رامي سهام. وعلّق [اغيسيلاوس] قائلاً: «ان ألفاً من رماة السهام الفرس أخرجوني من آسيا» يعني بذلك، الأموال التي دفعت رشاوى للديماگوگيين مثيري الشغب، والخطباء الجماهيريين في [ثيبه] و[آثينا]، فأثاروا هاتين الدولتين على [سپارطا].

وبعد أن عبر [اغيسيلاوس] الهلليسپونت، سار براً خلال ثراكياً دون أن يطلب أو يسأل الأذن له بالمرور في اي مكان اجتازه، خلا انه كان يرسل سعاته الى الاقاليم والدولة التي يمرّ بها ويسألها هل تريد أن يمرّ لصديقٍ أم كعدوّ؟ وأستقبله الجميع كصديق ولم يحجموا عن مساعدته في رحلته خلا الـ[ترياليانيين Trallians]. الذين دفع لهم [زركسيس Xerxes] مالاً على ما أشيع، اذ انهم طلبوا منه الثمن. وهو كما قيل مائة تالنت فضة، ومائة امرأة. وسأل [اغيسيلاوس] ساخراً، كيف لايراهم مستعدين لاستقبال هذه الرشوة؟ ثم تقدم داخل بلادهم فوجدهم مستعدين لقتاله بكامل سلاحهم فقاتلهم، وفتك بعدد كبير منهم. وبعث برسل الى ملك مقدونيا بطلب المرور. فأجاب هذا أنه يحتاج الى وقت للمداولة واتخاذ قرار. فعقب [اغيسيلاوس] على هذا بقوله «فيتداول ما شاء، أمّا نحن فسنتقدم اثناء ذلك، واعترت المقدونيين الدهشة والرهبة لما أظهره السپارطي من صلابة وعزيمة وأعطى الملك الأوامر بتركه يمرّ مرور الصديق سلباً، لأن أهلها كانوا حلفاء للعدو. وارسل الى عاصمتها [لاريّسا] كل من [كزينوقلس Xenocles] و[سكيشس Scythes] لأجل التفاوض في الصلح. فقبض عليهما اللاريسيون وزجوّهما في السجن، وثار الغضب بالاسپارطيين، وأشاروا عليه بالقاء الحصار حول المدينة. فأجابهما يقول أن كل واحدٍ من الرسولين أكبر قيمة في نظره من كلّ بلاد [تساليا] ومن ثم فأنه اتفق على شروط صلح معهم واستنقذ رجليه حالما وضع الاتفاق موضع تنفيذ. ولا داعي لدهشتنا من القول الذي نطق به [اغيسيلاوس] عندما وردته انباء من سپارطا، تقول ان عدداً من عظام القواد قد اشتبكوا في معركة بالقرب من [كورنث] وأن عدد القتلى بين الأغريق كثير، وان اللقيديميين فازوا بنصرٍ ساحق وبقليل من الخسائر، لم يبد عليه علامة من علامات السرور، بل أطلق حسرةً طويلة وهتف قائلاً:

- أسفي عليك يا بلاد الأغريق كم أضعت من الصناديد الشجعان! لو أنهم ادخروا ليوم الكريهة لفتحوا كل بلاد الفرس.

وأزعجه [الفارساليون Pharsalians] باشتداد ضغطهم على جيشه ووضع الكمائن في

خطَ سيره، فما كان منه إلاّ وأنطلق على رأس خمسمائة فارس وقاتلهم حتى سيره، فما كان منه إلاّ وأنطلق على رأس خمسمائة فارس وقاتلهم حتى هزمهم. واقام نصباً تذكارياً لنصره تحت جبل [نارثاكيوس Narthacius]. معتزاً بما حققه بهذا العدد القليل من الخيالة التي أوقعت بحجافل من المحاربين المتمرسين الذين كانوا يعتبرون أنفسهم أبرع من أمتطى صهوات الخيل في اليونان وفي هذا الموضع لقيه [دفريداس Diphridas] الايغور، وسلم له رسالة من سپارطه تأمره بغزو [بويوسيا] فوراً ومع انه كان يفضل ان يفعل ذلك في وقت آخر وبقوات أكثر مما لديه، الاّ انه أطاع حكام بلاده وخطب في جنوده قائلاً:

- لقد حان ذلك اليوم الذي وجب عليكم أن تنجزوا فيه المهمة التي جئتم من آسيا في سبيلها.

ثم استقدم لمساعدته في هجومه، فرقتين من الجيش كانتا معسكرتين بالقرب من كورنث. ودعا اللقيديميون في الوطن ببيان عام، كل مطوّع يرغب في الخدمة العسكرية تحت أمرة الملك على سبيل التكريم له، وأظهاراً لما يكنونه من تعلق. فهرع كل شباب المدينة الى التطوع، فأختاروا خمسين من اقواهم وارسلوهم اليه.

وأستولى [اغيسيلاوس] على [ثرموپيلي] وعبر بدون عائق بلاد [فوكيس Phocis] وما أن دخل بويوسيا وضرب معسكره بالقرب من [خيرونيا] حتى أنكسفت الشمس وتلا ذلك ورود انباء عن هزيمة [پيساندر] الاميرال السپارطي ومقتله في [كيندوس Cindos] على يد [فارنبازوس] و[كونون Conon]. فأورثه ذلك ألماً عظيماً عاماً وخاصاً. ولئلا تؤثر هذه الانباء على معنويات جيشه الذي يستعد للدخول في المعركة فتؤدي الى تخاذلهم ونكستهم، أمر الرسل القادمين بأن يشيعوا نبأ انتصار السپارطيين وقام هو نفسه بوضع الاكاليل على رأسه وأحتفل بتقريب قربان للانباء السارة، وارسل اجزاء من الاضاحي الى اصدقائه.

وعندما وصل قريباً من [كورنيا Cornea] وشوهد العدو بالعين المجردة، صف جيشه للقتال وسلم قيادة الجناح الأيمن. وتسلم الثيبيون قيادة ميمنتهم، تاركين ميسرته [للآرگفيين Argives] وقال [گزينفون] الذي شارك في القتال، الى جانب [اغيسيلاوس]، انها كانت أشدّ معركة رأتها عينه واصعبها. ولم تكن كذلك في مبدئها لأن الثيبيين الحقوا الهزيمة بالأرخومنيين، كذلك تغلّب [اغيسيلاوس على الآركيڤيين، وسمع الفريقان بهزيمة ميسرتيهما فخفا معاً الى نجدتهما. ولو قنع [آغيسيلاوس] بالتريث قليلاً، ولم يهاجم هجوماً جبهياً وتعرض لجناح العدو او مؤخرته لربح المعركة حالاً وبصورة أكيدة، إلا أنه كان مهتاجاً، مأخوذاً بحمى القتال فلم يترقب فرصته وانما انقض فوراً متوهماً بانه سيدفعهم امامه دفعاً، إلاّ ان شجاعة الثيبيين لم تكن بأقل منه، فحمي وطيس القتال وثار النقع شديداً لاسيما في الموضع

الذي كان يقاتل فيه [اغيسيلاوس]. وأبلى حرسه الخمسون المتطوعون خير بلاء في ذلك اليوم فأنقذوا حياته من موت محتم وقاتلوا دونه بشجاعة لا مثيل لها ووقفوا بينه وبين الخطر سداً باجسامهم الاّ أن بعض اسنة العدوّ وسيوفه اصابته بعدة جراح تحت دروعه، وتمكنوا بكلّ صعوبة من انقاذه الى خارج ساحة القتال بتأليفهم سواراً حوله، وقد قتلوا كثيراً من الاعداء وسقط منهم الكثير أيضاً.

أخيراً بعد أن صعب عليهم أختراق جبهة الثيبيين، عمد اللقيديميون الى فتح جبهتهم، وتركوا العدو يدخل منها وهي من الفنون الحربية التي كانوا في مبدأ الأمر يحتقرون اللجوء اليها. وأخذوا في الوقت نفسه يراقبون سلوك العدوّ بعد أختراقه الصفوف. فقد ظنوا أنهم انتصروا واطرحوا جانب الحذر وأعتبروا أنفسهم قد خرجوا من منطقة الخطر. وهنا انقض عليهم السبارطيون وهم هكذا. لكنهم لم يهزموا مع ذلك وانما اتجهوا نحو [هيلكون] والفخر بما انجزوه يعمر صدورهم متبجحين بأنهم لم يهزموا باعتبارهم جزءً من الجيش.

ولم يقبل [اغيسيلاوس] الذي اثخنته الجراح أن يؤخذ الى خيمته قبل أن يُدار به في ساحة المعركة ليشاهد قتلاهم ينقلون داخل معسكرهم. وأطلق سراح كل من لجأ من الاعداء بحرم الهيكل. اذ كان يوجد بالقرب من ساحة المعركة معبد [منيرڤا الايتونية] وامامه نصب اقامه البويوسيون تذكاراً للنصر الذي بقيادة [سبارتون Sparton] على الآثينيين بقيادة [توليدس Tolmides] الذي سقط قتيلاً هناك.

وفي ساعة مبكرة من اليوم التالي اراد ان يجسّ الشجاعة الثيبية، ويتأكد مما اذا كان لديهم اية نية في جولة ثانية. فأمر جنوده بوضع الاكاليل على رؤوسهم والنفخ بناياتهم ورفع نصباً حربياً، أمام وجوههم. الا انهم بدل من قبولهم التحدي للقتال. أرسلوا اليه يطلبون السماح لهم بدفن قتلاهم، فلبيّ طلبهم. وبعد أن تمكن من أسباب النصر. قصد الى [دلفي] لمشاهدة الالعاب [البيثية] التي كانت تجري آنذاك. ومد يد المعونة فيها مقدماً عشر الغنائم التي جاء بها من آسيا، وبلغ مائة تالنت. وبعد ذلك عاد الى بلاده حيث ما لبثت تصرفاته وأخلاقه أن أكسبته محبة السبارطيين. وجعلته موضع أعجابهم. فقد عاد الى الوطن بعد بقائه زمنا طويلاً في بلاد الأجانب عين ذلك الرجل الذي خرج منه. مخالفاً بذلك غيره من القادة المغتربين. فلم يتخلق باخلاق تلك البلاد ولم يقتبس عاداتهم بالقدر الذي يُنسيه عادات قومه أو يحمله على نبذها أو أحتقارها. وانما بقي أميناً محترماً كل تقاليد اسپارطه وآداب سلوكها ولم يبدل لا في طعامه ولا استحمامه ولا في ازياء امرأته، حتى لكأن رحلته لم تتعد نهر [يوروتاس]. وكذلك كان شأن أهل بيته واثاثه وسلاحه، لا بل حتى أبواب منزله التي

كانت بدرجة من القدم بحيث تذكر الرأي بأبواب [اريسطوديموس Aristodemus]. ويقول [گزينفون] ان [گناثروم Canathrum] ابنته لم تكن افخم من أية واحدة أخرى والكناثرومة كما تدعى، هي كرسيٌ أو مركبة من الخشب على شكل غرفين[1] أو تنين. يحمل فوقه الاطفال والعذارى الصغيرات في اثناء الاحتفالات والمسيرات الدينية ولم يكتم [ديكيارخوس Di-caearchus] بعض سخط لأننا نجهل -كما يقول- اسم بنت اغيسيلاوس، واسم أم [إپامينداس]. على أننا وجدنا بانفسنا في سجلات [لاقونيا] اسم امرأته وهو [كليورا Cleo-ra] واسم بنتيه [يوپوليا Eupolia] و[پروليتا Prolyta]. وبامكان اي شخص ان يشاهد اليوم حربة [اغيسيلاوس] محفوظةً في سپارطا لا فرق بينها وبين حربة اي مقاتل بسيط.

لاحظ [اغيسيلاوس] عند السپارطيين هواية شائعة تافهة وهي احتفاظيهم بخيول سباقٍ لأدخالها الالعاب الاولمپية. وكانت هذه الهواية موضع تنابز وتفاخر ودليلاً على علو المقام بين السپارطيين. اما [اغيسيلاوس] فقد عدها مظهراً من مظاهر الثروة البذخ لا لأي سجيةٍ أو فضيلة حقيقية ولأجل أن يوضح رأيه هذا للاغريق أقنع أخته [كانيسكا Cynisca] بأن تبعث بمركبتها الى حلبة السباق. وقرب منه [گزينفون] الفيلسوف وابقاه عنده وبالغ في اكرامه، مقترحاً أن يبعث بطلب اولاده ليدرسوا ويثقفوا في اسپارطا حيث ينالون خير تهذيب، ويتدربون على الطاعة وعلى الأمر. ووجد عند وفاة [ليساندر] حزباً كبيراً كان قد شكله واقام بنيانه ليعارض به عند عودته من آسيا. فارتاىٔ أن يكشف للملأ حقيقة حزب ليساندر، واي نوع من الناس كان في حياته. واعتمد في ذلك على خطبةٍ كان قد وجدها في مخلفاته من الاوراق من تأليف [كليون الهاليكارناسي]. إلاّ ان [ليساندر] القاها كأنها من تأليفه في أحد الاجتماعات العامة لحمل الشعب على اجراء تعديلات واصلاحات في الحكومة. فعزم أغيسيلاوس على نشرها بمثابة دليل على آحابيله ومؤامراته. إلاّ أن أحد المشايخ دققها فوجدها بليغة فصيحة فنصحه أن يأمر بفتح قبر [ليساندر] ويدفن هذه الخطبة معه. واشار عليه بعدُ نظر أن يعمل بهذه النصيحة ويكتم موضوعها الى الأبد. ومنذ ذلك الوقت ابى ان يوجه اية اهانة لخصم من خصومه تهدف الى فضيحته. وانما كان ينتهز الفرص في اختيار كبار الخصوم فيرسلهم بعيداً في مهامٍ خارجية الى بلاد أجنبية. متوسلاً بذلك للكشف عن جشع وانانية كثيرين منهم وهم في مسلك الوظيفة. فاذا اثار غيره قضية او تهمة ضد واحدٍ منهم وجيء به الى التحقيق، قام يسعى لانقاذه من ورطته ليكون أسير فضله. وبهذا الاسلوب كان يجعل من أعدائه اصدقاء. فلم يبق له عدواً بمرور الزمن.

---

(١) حيوان خرافي نصفه نسر ونصفه أسد.

كان [آغـيـبـوليس Agisipolis] شريكه في العرش بشكو عـيـباً في مـيلاده، فـهـو ابن لسبارطي حكم بالنفي خارج البلاد. وكان فضلاً عن ذلك شاباً غير طموح، قليل الفعالية والتدخل في الشؤون العامة، فسعى [اغيسيلاوس] لكسبه الى جانبه وجعله طوع بنانه. وكانت تقاليد سبارطة تقضي أن يتناول الملكان وجبات طعامهما طالما هما في المدينة.

فاهتبلها [اغيسيلاوس] فرصةً للتقرب من شريكه. ووجده مثله يهفوا الى تكوين علاقات حب مع الشباب. فكان يحادثه كثيراً في هذه الشؤون ويشاركه فيها ويساعده ويجعل من نفسه موضع سرِّه. ومثل هذه الروابط في [سبارطة] لا جناح فيها، بل هي الروابط الشريفة التي تتصل بالمشاعر الحيوية والتواضع والفضيلة والمنافسة النبيلة، مما ذكرناه تفصيلاً في سيرة [ليكورغوس].

وسهل على [اغيسيلاوس] بعد توطيد سلطانه في المدينة أن يعمل على انتخاب أخيه غير الشقيق [تيليوتياس Teleutias] اميراً على الاسطول. وبعد هذا وجه جملة على الكورنثيين واستولى على الاسوار الطويلة من البرّ، بمساعده أخيه من البحر، وفاجأ الآرگيفيين الذين كانوا يسيطرون على [كورنث] وهم في وسط الاحتفال بالعيد [الاستمي] فلاذوا بالفرار وما كادوا يبدأون في تقريب الضحايا، تاركين وراءهم كل ما هيأوه للعيد من طعام. فرغب الكورنثيون المنفيون الذين كانوا يعملون في الجيش السبارطي منه أن يواصل اغيسلاوس الاحتفال، ويترأس مراسيمه فأبى، إلاّ انه سمح لهم بمواصلته إن شاؤا. وبقي هو أثناء ذلك قائماً على حراستهم.

وبعد أن ترك [اغيسيلاوس] الموضع واستأنف سيره عاد الآرگيفيون لاقامة الالعاب ثانيةً. ففاز فيها بعض من كان قد فاز في المرة الأول، وخسر آخرون جوائزهم التي ربحوها في السباق الأول. فعلّق [اغيسيلاوس] على ذلك موضحاً للناس بأن الآرگيفيين يجب أن يعترفوا بجبنهم صاغرين. فهم يضعون أعظم قيمة على ترأوس هذه الالعاب، لكنهم لا يجرأون على القتال في سبيل تلك المكانة.

وكان يرى شخصياً ان الاحتفاظ بالمكانة الوسطى في مثل هذه المناسبات هو خير الأمور. فكان يكتفي بمد يد المساعدة للالعاب الرياضية، ولفنون الرقص الشائعة في بلاده. وكان يظهر الشوق والحماسة لحضور تمارين الفتيان أو الفتيات. إلاّ أنه لم يكن يبدي اي اهتمام، بما اعتاد غيره من الرجال الاهتمام به. فمرة صادف أنّ الممثل التراجيدي [كالليبيدس] الذي دوى اسمه في بلاد الأغريق، وكان موضع محبتهم، أن التقى [باغيسيلاوس] فحياه، ولما لم يجد منه التفاتاً، أنضمّ الى السائرين في ركابه واثقاً من نفسه متوقعاً أن يلقى من

[اغيسيلاوس] بعض احتفاء، ولما أعياه ذلك وخاب تقدم منه وبادره بجرأة يسأله هللاً يتذكره فأخذ اغيسيلاوس يصعّد فيه نظره ثم اجابه قائلاً:

- أما أنت [كاللپيدس Callippides] المشخصاتي؟

ومرةً دُعي لسماع رجل يحاكي صوت تغريد العندليب محاكاة عجيبة. فرفض الدعوة قائلاً: «لقد سمعت العندليب بالذات».

وكان [منكراتس Menecrates] الطبيب قد حقق شفاء عجيباً من بعض الأمراض المستعصية فسمي على سبيل الملق والمداهنة «بجوبيتر». وكان من السخف والفجاجة انه قبل لنفسه هذا اللقب. فكتب مرةً رسالة الى [اغيسيلاوس] وبدأها بالشكل الآتي: «من [جوبيتر منكراتس] الى [اغيسيلاوس] الملك، تحية». فرد عليه [اغيسيلاوس] بما يلي:

«من اغيسيلاوس، الى منكراتس، متمنياً الصحة وسلامة العقل».

ومرة، عندما كان [اغيسيلاوس] في الأراضي الكورنثية، ولم يمرّ وقت طويل على ضبطه [هيرايوم Heræum] خرج يراقب جنوده وهم منهمكون في نقل الأسرى والغنائم، وفيما هو كذلك اذ حضر وفد سفراء من ثيبة اليه، لمفاوضته في الصلح ولما كان يبغض تلك المدينة بغضاً شديداً، ولاعتقاده آنذاك أن ما يفيد في أمورهم هو أظهار الاحتقار لهم، تظاهر بأنه لا يراهم ولا يسمع كلامهم. وكأن الأقدار ارادت معاقبته على تعمده الجبروت وتظاهره بالغطرسة، فقد وردت الرسل اليه قبيل مغادرة الوفد، تحمل نبأ إبادة فرقة كاملة [سپارطية] على يد [ايفقراطس Iphicrates]. وكانت نكبة لم ير مثلها السپارطيون منذ سنوات عديدة سلفت. ومما زاد في الطين بلة ان هذه الفرقة كانت تضم نخبة الرجال اللقيديميين بأكمل سلاح، وان الذين قضوا عليها رماة مرتزقة لا غير. ما أن سمع [اغيسيلاوس] بالنبأ حتى هبّ من معقده وهم بالاسراع لنجدتهم فقيل له أن الأمر قد قضي ولا فائدة من ذلك. فقفل راجعاً الى [الهيرايوم] وبعث بطلب سفراء [ثيبة] لاجراء المفاوضات فأتفق هؤلاء، فيما بينهم على أن يردوا الأهانة التي الحقها بهم بمثلها ولم ينطقوا بكلمة واحدةٍ عن الصلح. وانما طلبوا منه أن يأذن لهم العودة الى كورنث، فكان لطلبهم هذا وقع شديد عليه، وأجابهم بازدراء: إن كانوا يحنون الى العودة لمشاهدة مبلغ الغرور الذي وصل باصدقائهم للنصر الذي حققوه، فعليهم أن يفعلوا ذلك غداً، اذ انه سيؤمن لهم عودتهم بسلام.

وفي صباح اليوم التالي أخذ معه السفراء وتقدم بجيشه متوغلاً في الأراضي الكورنثية، حتى بلغ ابواب المدينة. فتوقف وأشار للسفراء ان يروا بأم أعينهم كيف يحجم الكورنثيون عن

الخروج منها لقتاله، وكيف يعجزون عن حماية أنفسهم ثم سرحهم.

وبعد هذا جمع فلول الفرقة الممزقة، وسار بها الى بلاده، وكان يضرب خيامه بعد حلول الظلام، ويرفعها قبيل الفجر لمنع مزيد من العار عليهم قد يصيبهم من هجمات أعدائهم الاركاديين، بعد الهزيمة الشنعاء التي لحقت بهم.

وطلب منه الأخائيون بعد هذا، أن يشاركهم في الزحف على [أقارنانيا Acarnania]. ففعل واصاب غنائم كثيرة والحق بالاقارنانيين الهزائم. وحاول الأخائيون اقناعه في ابقاء مقره هناك اثناء فصل الشتاء، لمنع الاقارنيين من بذر قمحهم، فخالف رأيهم، معللاً ذلك بأن هؤلاء اذا بذروا قمحهم في الشتاء فأنهم سيكونون في الصيف أحرص على ما زرعوه وأشدّ خوفاً من الحرب مما لو بقيت حقولهم بوراً. ودللت الوقائع على صحة رأيه. فقد سارع [الأقارنانيون] الى عقد الصلح مع الأخائيون عندما بدأ هؤلاء حملتهم الثانية في الصيف.

ولما تحققت [الكونون] و[فارنبازوس] السيادة البحرية بالاسطول الفارسي، لم يكتفوا بتدويخ سأحل لاقونيا، بل أعادوا بناء اسوار آثينا على نفقة [فارنبازوس] فوجد اللقيديميون ان التفاوض في الصلح مع ملك الفرس هو أسلم السبل. وتحقيقاً لهذا المطلب بعثوا بـ[انتالقيداس Antalcidas] الى [طيريبازوس Tiribazus]. فغدروا بعملهم هذا، غدراً خسيساً دنيئاً بالاغريق الساكنين آسيا، الذين لم يقم [اغيسيلاوس] بشن حروبه إلاّ لأجلهم. ولم يكن [لاغيسيلاوس] اي ذنب في هذا العمل الوضيع. فكلّه كان من تدبير [انطالقيداس] الدّ اعدائه. اذ ابدى تحمساً لعقد الصلح بأي ثمن أو شروط لعلمه الأكيد بأن الحرب سترفع من شأن خصمه [اغيسيلاوس] وتقوي نفوذه. على انه لما قيل [لاغيسيلاوس] يوماً على سبيل اللوم، بأن اللقيديميين استسلموا للميديين، أجابهم بقوله: «كلاً بل الميديون هم الذين استسلموا للقديميين». ولما رفض الأغريق الموافقة على المعاهدة المعقودة، هددهم بالحرب الا اذا انفذوا شروط ملك الفرس، وكان يرمي من هذا، الى اضعاف [الثيبيين]. فمن شروط الصلح ان تبقى بلاد [بويوسيا] مستقلة وقد ظهر هذا الشعور فيه ضدّ [الثيبيين] أوضح من هذا عندما عمد [فيوبيداس Phœbidas] والسلم ضارب اطنابه، بوضع يده على [كادميا Cad-mea] بصورة لا يمكن تبريرها. مما اثار حنق كلّ بلاد الاغريق ولم يرض اللقيديميون عنه أيضاً ولاسيما من كان عدواً [لاغيسيلاوس] فإنهم طلبوا فتح تحقيق في الموضوع لمعرفة الآمر والمنظم لذلك، فجرى ذلك ونقلوا الشكّ فيه حتى عتبة داره، ولكنه راح يدافع عن [فيوبيداس] دفاعاً حاراً لا يلين، قائلاً بأن المنفعة المتأتية من عمله هي التي يجب ان توضع موضع الموازنة قبل كل شيء، فاذا كان المتوخى فيه مصلحة الجمهورية فلا يهم اذا كان قد

عمله بأمر أو من تلقاء نفسه. وكان هذا مما يوجب التساؤل ويلفت النظر في [اغيسيلاوس]. لأن احاديثه الاعتيادية كانت تفصح دائماً عن حرصه على اجراء العدالة والدفاع عنها واعتبارها أمّ الفضائل، فتراه يقول مثلاً لا نفع في الشجاعة بدون عدالة. ويقول ايضاً اذا عمت العدالة العالم لا تعود هناك حاجة الى الشجاعة. وعندما كان يقال له: أي ملك عظيم يريدها على هذا الشكل، يرد قائلاً:

- وكيف يكون أعظم منيّ إلا اذا كان أعدل؟

وهكذا، يتخذ باصالة منه ونبل فيه، العدالة لا القوة معياراً للعظمة الملكية. ولهذا كتب اليه ملك الفرس عند عقد الصلح، يرغب في انشاء صداقة خاصة ورابطة ضيافة، فرفض [اغيسيلاوس] بقوله: إن في الصداقة العامة الكفاية، فطالما هي مستمرة لا حاجة تدعو الى التآخي والصداقة الخاصة. إلاّ انه لم يكن أميناً على هذا المبدأ طوال حياته. بل كان يجانبه أحياناً بدافع طموحه، وأحياناً بسبب اعتزازه الشخصي بنفسه. فتراه ينجرف مع عاطفته بعيداً، ولاسيما في قضيته هذه مع [الثيبيين]، فانه لم يكتف بانقاذ، [فيوبيداس] بل أقنع اللقيديين أن يحملوا الوزر عنه، وان يستعيد [كادميا] ويضع فيها حاميةً، وان يودع شؤون حكم [الثيبين] الى يد كل من [ارخياس Archias] و[ليونتيداس Leontidas] اللذين كانا مسؤولين عن تسليم القلعة خيانة لبلادهما.

كل هذا أثار الشكّ القوي في أن ما فعله [فيوبيداس] كان بأمر من [اغيسيلاوس]، لأنه أيده فيما قام به، ولأنه عندما طرد الثيبيون الحامية فيما بعد وتحرروا، اتهمهم بقتل [ارخياس] و[ليونتيداس] اللذين كانا في الواقع طاغيتين، وهما بالاسم يتوليان منصب [پوليمارخ]. فأعلن الحرب على [ثيبة] وبعث [كليومبروتوس Cleombrotus] الذي كان انذاك شريكه في الملك ليقوم عنه بالمهمة. فقد توفي [اغيسيلاوس] واستخلفه [كليومبروتوس]. وقد أعتذر [اغيسيلاوس] عن قيادة الحملة بسبب تقدمه في السن ومضي اربعين سنة على حمله السلاح. والقانون الاسپارطي يعفي امثاله من الخدمة العسكرية على ان السبب الحقيقي لاعتذاره، هو قيامه قبل فترة قصيرة بشن حرب على الطغاة الى جانب [الفلياسيين Phliasians] فكيف يسعه أن يقاتل الآن [الثيبين] دفاعاً عن الطغاة؟

كان [سفودرياس Sphodrias] اللقيديموني حاكماً لـ[ثيسپاي Thispiæ]، وهو من الحزب المعارض لـ[اغيسيلاوس]، وكان رجلاً جريئاً مغامراً، غلبت ثقته بنفسه على حكمته. اثار ما فعله [فيوبيداس] عاطفة الطموح فيه واستفزه الى القيام بمأثرة عظيمة يشتهر بها، كما توهم أن استيلاء [فيوبيداس] على [كادميا] قد جعله شهيراً. وأختار [پيروس] مجالاً لشهرته

وأعتزم الاستيلاء عليها بصورة مباغتة، لقطع الآثينيين عن البحر فتطير شهرته ويسبق [فيوبيداس]. وقيل أيضاً أن [پيوليداس] و[ميلون Melon] أكبر قائدين في [بويوسيا] هما اللذان زينّا له الأمر، بأن بعثا سراً اليه ببعض الرجال، تظاهروا له بأنهم من الفئة التي تمالىء السپارطيين فراحوا يثنون عليه ثناء مستفيضاً حتى أنتفخت اوداجه فخراً بنفسه. وقالوا له انه الوحيد في العالم المناسب لمثل هذا العمل العظيم. فلم يعد يستطيع صبراً واستعجل في تنفيد عملية لا تقلّ خزياً وعاراً عن عملية [كادميا]، لكنها تقل عنها نجاحاً وشجاعة. فقد طلع الفجر عليه وهو ما يزال في السهل [الثرياسي Thriasian] في حين كان من خطته ان تتم عملية الاستيلاء اثناء الليل. وقيل ان عزائم الجنود وهت ودبّ التخاذل في نفوسهم عندما رأت عيونهم اشعة الشمس تنعكس من هياكل [ايليوسيس] عندما بزغت. وهو نفسه بعد أن ضاعت من يده فرصة الظلام زايلته شجاعته واحجم عن مواصلة العملية وأخذ بدل ذلك يعيث سلباً ونهباً، ثم عاد الى [ثيسباي] فاشلاً يجرر اذيال العار. وعلى أثر ذلك أوفدت آثينا الى سپارطة بعثة لتقديم الشكوى عن خرق معاهدة السلم. ولم تكن الشكوى ضرورية، لأن قضاة سپارطة سبقوهم باحالة [سنودرياس] الى التحقيق. ولم يجرؤ [يفودرياس] على البقاء في المدينة حتى صدور الحكم عليه، ولم يكن يتوقع أقل من الموت، فقد أجمع أهل المدينة ضده بسبب العار الذي البسهم ولأجل ظهورهم امام الآثينين بمظهر المغدور مثلهم لا بمظهر شركاء للفاعل.

وكان [لسفودرياس] هذا، ابن في غاية الملاحة يدعى [كليونيموس Cleonymus]، تربطه [بأرخيداموس] ابن [اغيسيلاوس] رابطة محبة شديدة. فوجد [ارخيداموس] نفسه ملتزماً تجاه صديقه بدفع الخطر الذي يتعرض له والده. إلاّ أنه لم يجرؤ على اي عملٍ مكشوف في هذا السبيل لأن [سفودرياس] كان من ألدّ اعداء ابيه [اغيسيلاوس]. غير أن [كليونيموس] أخذ يتوسل به باكياً، لمعرفته بأن [اغيسيلاوس] هو اعدى اعداء أبيه. وظلّ الفتى [ارخيداموس] يومين أو ثلاثة يتعقب اباه مضطرباً خائفاً من مفاتحته بأمر التدخل لمصلحة والد صديقه. وكان [اغيسيلاوس] على معرفة تامة بما بين ابنه وكليونيموس من علاقة ولكنه لم يحل دون ذلك لأن مخايل الذكاء والشهرة كانت تبدو على [كليونيموس] منذ حداثته وكان الناس يتوسمون فيه الخير والمستقبل العظيم. وأخيراً لما أقترب يوم صدور الحكم، لمّ الفتى اطراف شجاعته وفاتح اباه برجاء كليمونيموس في التدخل لمصلحة ابيه، فلم يظفر [ارخيداموس] بجواب مشجع من ابيه اذ اجابه بكلّ برود: انه سيفكر بعمل ما يمليه عليه الشرف والأمانة، ثم صرفه واحسّ [ارخيداموس] بالخجل من صديقه لخيبة مسعاه، وأمتنع عن

اللقاء به وتحاشى رؤيته وكانا يلتقيان عادة عدة مرات في اليوم الواحد، وهذا ما جعل اصدقاء [سنودوياس] يظنون بأن قضيته مبتوت فيها ولا مجال لانقاذه منها، حتى كشف [اتيموكلس Etymocles] أحد اصدقاء [اغيسيلاوس] عما يراه في القضية، وقال ان الملك كره العملية بالذات، إلاّ انه يعتبر [سفودرياس] رجلاً مقداماً لا غنى للجمهورية عنه في هذا الوقت. وحقيقة الأمر هي أن [اغيسيلاوس] لجأ الى الضرب على هذه النغمة بخصوص القضية رغبةً منه في ارضاء ولده. وحينئذ ادرك [كليمونيوس] ان صديقه [ارخيداموس] لم يخذله وانما صدق في بذل كل ما ملك من جهود لدى ابيه وهذا ما جرّأ اصدقاء [سفودرياس] على المضيّ قدماً في الدفاع عنه.

والواقع ان [اغيسيلاوس] كان شديد الحب لأولاده، والحكاية التالية تعزى اليه: عندما كان اولاده صغاراً، أعتاد اغيسيلاوس أن يعمل من عصا، ما يشبه الحصان فيركبها معهم ويلاعبهم بها. ومرة فأجاه صديق وهو يقوم معهم باللعب عليها، فطلب منه [اغيسيلاوس] أن لا يذكر ما رأى حتى يصبح أباً هو نفسه.

وعلى أثر ذلك بريء [سفودرياس]، فأشهر الآثينيون السلاح على السپارطيين، وسقط [اغيسيلاوس] من أعين الشعب لأنه انحرف عن سبيل العدالة ارضاءً لأهواء فتىً وجعل المدينة شريكة في جرائم انسان عادي سبب عمله الذي يتعذر تبريره أعني القضاء على عهد السلام في اليونان. كذلك وجد شريكه [كليومبروتوس] قليل الميل الى متابعة الحرب في [ثيبه]، فرأى من الضروري أن يطرح جانباً امتيازات سنه المتقدمة التي تعلل بها سابقاً وان يقود الجيش بنفسه الى [بيوسيا] وتقلّب حظه بين النجاح والفشل. فكان النصر يحالفه أحياناً، ويجانبه حتى أصيب بجرح في معركة من المعارك. فقام [انتالقيداس] يعيره قائلاً، أن الثيبيين قد أحسنوا دفع ثمن الدروس التي لقنها لهم في فنون القتال. والحق يقال أنهم لم يبلغوا من قبل ما بلغوه من شدة المراس، والبراعة لأنهم تلقوا التدريب بكثرة الحملات التي جردها عليهم اللقيديمون. وكان [ليكورغوس] السالف بعيد النظر بصيراً بالعواقب بقوانينه التي حظر فيها على مواطنيه اللقيديميين من شنّ أكثر من حربٍ على شعبٍ واحدٍ، ففي هذا ما يجنبهم تلقين أعدائهم فنون القتال بدوام الحروب.

والى جانب هذا تعاظم استياء حلفاء [سپارطة] من [اغيسيلاوس] لأنهم لم يجدوا في هذه الحرب سبباً وجيهاً أو مبررات عادلة، وانما شنت لمجرد الكره الخاص الذي يسرّه للثيبيين. وجأروا بالشكوى لتعريض جنودهم الى الاخطار والمشاق من سنة الى أخرى، ومن بلاد الى بلاد نزولاً عند ارادة افرادٍ معدودين، وهم يؤلفون معظم الجيش. وقيل لنا أن [اغيسيلاوس]

أعتمد حيلة لا سكات المعترضين والساخطين، برهن فيها لحلفائه أنهم ليسوا معظم افراد الجيش فقد اصدر أمراً بأن يجتمع الحلفاء كلهم ويجلسوا مختلطين، في ناحية. وأن يجتمع اللقيديمون كلهم ويجلسوا في ناحية وبعد ذلك أطلق منادياً بين الصفوف ينادي قائلاً من كان بينكم خراف فليخرج من الجمعين، ثم نادى بخروج الحدادين، ثم البنائين ثم النجارين وهكذا استمر في اخراج كل صاحب صنعة حتى لم يبق أحد في صفوف الحلفاء الا خرج، في حين لم يخرج من اللقيديميين رجلٌ واحدً. لأن القانون عندهم يخطر عليهم أن يمتهنوا صنعة يدوية. وهنا ضحك [اغيسيلاوس] وقال:

- أترون يا اصدقائي كم ارسلنا الى الحرب من الجنود وكم ارسلتم؟

ولما عاد بجيشه من [بويوسيا] عن طريق [ميغارا] وفي اثناء صعوده [الاكروپوليس] الى مجلس القضاة. فوجيء بالم شديد وتشنج في ساقه السليمة، وظهر عليها انتفاخ والتهاب شديدان فعالجه طبيب سيراقوزي، وفصده فيما يلي الكاحل حتى تداعت روحه وأغمى عليه بسبب النزف الذي لم يفلح في وقفه الا بصعوبة شديده. وحمل [اغيسيلاوس] الى بلده وهو في أشد حالات الضعف ولم يستعد القوة الكافية لنزوله ساحة القتال الا بعد فترة طويلة.

وفي تلك الأثناء ساءت حال السپارطيين وأصيبوا بنكسات شديدة في البحر والبر. وأشدّها كانت نكسة [تيجيريا Tegyrae] حيث اوقع بهم الثيبيون هزيمة نكراء، وكانت أول معركة فاصلة يخسرونها.

إلا ان الأغريق جميعاً كانوا يتوقون الى السلام العام. فجاءت وفودهم الى [سپارطه] للمداولة فيه. ومن بين من قدم [اپامينداس] الثيبي الذي كان آنذاك شهيراً بعلمه وفلسفته، ولم يشتهر بعد بكفاءاته الحربية القيادية. وجد هذا الرجل كل الوفود تتودد [لاغيسيلاوس] وتتسابق الى نيل رضاه. فترفع عن ذلك وظلّ وحده يحافظ على كرامة السفير. والقى خطبة جديرة باخلاقه وعزة نفسه لا بالنيابة عن الثيبيين وحدهم بوصفه ممثلهم بل عن كل الاغريق، قال فيها ان [سپارطه] وحدها ازدادت عظمة بالحرب على حساب مصائب جيرانها وشقائهم. وطلب عقد معاهدة سلام بشروط عادلة متساوية، فمثل هذا السلم هو الكفيل بالبقاء ولا يمكن ان يتمّ بغير ذلك. وأدرك [اغيسيلاوس] أن الاغريق كلهم يحبذون ما قال لما ظهر من السرور والانشراح عليهم، فبادر يسأل [اپامينداس]: أيظن من العدالة والمساواة ان تتمتع المدن البويوسية باستقلالها؟ فاجابه [اپامينداس] فوراً ومن دون تردد: أيرى من العدل والانصاف ان تتمتع المدن اللاقونية باستقلالها أيضاً؟ فهب [اغيسيلاوس] من مقعده وطلب منه الأجابة الجازمة عن السؤال «هل يجب أن تمنح [بويوسيا] الاستقلال أم لا؟»

فردّ [ايامنناداس] عليه مكرراً عين سؤاله: «هل تتمتع لاقونيا بالاستقلال أم لا؟ وهنا بلغ الحنق باغيسيلاوس حداً حمله على شطب [الثيبيين] من بين دول العصبة وأعلن الحرب فوراً، متخذاً مما جرى ذريعةً. واما بقية الاغريق فقد عقد معهم صلحاً وودّعهم بقوله التالي

- ما يمكن تقويمه بالسلام، يجب تقويمه. وما لا يمكن تقويمه بالسلم فالحرب تتولى اصلاحه. ومن الصعوبة بمكان أن يتوصل المرء الى حَلّ جميع المشاكل بالتفاوض.

وبناء على ذلك بعث مجلس [الايغور] بالاوامر الى [كليومبروتوس] وكان في [فوكيس]، للزحف فوراً على [بويوسيا]. وفي الوقت نفسه بعثوا يطلبون العون من حلفائهم الا أن هؤلاء الحلفاء بدا عليهم التردد في استعداداتهم، وكشفوا عن عدم رغبة في القتال. لكنهم من الجهة الأخرى كانوا يخشون صولة السپارطيين كثيراً فلا يجرأون قط على رفض مطالبهم ومع ظهور كثير من الخوراق والعلامات المنذر بالشر المستطير مما اتيتُ الى ذكره في سيرة [ايامنناداس]، ومع أن [پروثاوس Prothaus] اللاقوني بذل قصاراه لتفاديها، إلاّ ان [اغيسيلاوس] أصرّ على المضيّ قدماً في مشروعه فنجح في مسعاه وأعلنت الحرب. وكان يحسب أن طبيعة الاحداث الراهنة ستكون موآتية جداً لتحقيق غايته واطفاء جذوة انتقامه، فبقية الأغريق كلهم احرار، و[الثيبيون] وحدهم خارج معاهدة السلام. لكن الوقائع برهنت فيما بعد أن العاطفة لا العقل هي التي دفعت الى الحرب. فقد تمّ توقيع معاهدة السلام في الرابع عشر من شهر [سكيروفوريون Scirophorion]، وأصيب اللقيديون بانكسارهم الأعظم في الخامس من شهر [هيكاتومبايون] اي بعد عشرين يوماً فحسب. وقتل في معركة ليوكترا هذه ألف سپارطي كما سقط ملكهم [كليومبروتوس] وملكان يحيطان به، وهم من أشجع من أنجبتهم سپارطه ونخص منهم بالذكر [كليونيموس] الفتى الجميل، ابن [سفودرياس] الذي سقط مثخنا بجراحه ثلاث مرات تحت قدمي الملك ونهض ثلاث مرات حتى قتل.

وقعت هذه الضربة غير المنتظرة وقعاً شديداً للغاية على اللقيديين ورفعت الثيبيين وبنت مجدهم الذي فاق اي مجد نالته اي جمهورية من الجمهوريات الاغريقية في مضمار حروبها الأهلية فيما بينها. على أن سلوك السپارطيين وهم مغلوبون كان سلوكاً رائعاً يدعو الى الفخر والاعجاب حقاً، ولا يقل باية حال عن الثيبيين أنفسهم. ومثلما قال [كزينفون]، لو سقط اثناء حديث الناس الطيبين حتى مجلس لهوهم أو شربهم عدد من الأقوال الطيبة الباقية، فليس ثم أجدر منها بأن تسجل. وهذا هو اطراد عمل العقول السليمة، كما يبدو في أقوال وأعمال الشجعان عندما يكبو بهم الحظ وتلحقهم المصائب. وقد أتفق للسپارطيين انهم كانوا يحتفلون بعيد ديني كان قد امه اناس كثيرون من دول اجنبية وكانت المدينة تزخر بهم عندما

وردت انباء اندحار [ليوكترا]. وكان وقت عرض [الجمنوباديا Gymnobdiae] قد حَلّ وشرع الاولاد يؤدون رقصاتهم على الملعب لما جاء السعاة من [ليوكترا]. ومع ادراك [الايفور] بأن هذه الهزيمة اصابت مكانة سپارطه بالدمار التام، وان مركزهم الأول بين دول الاغريق قد ضاع منهم الى الأبد، فإنهم أمروا باستمرار الرقص وعدم الغاء اي مشهد من شاهد الاحتفال بالعيد. على أنهم بعثوا بصورة سريّة لكل اسرة مفجوعة باسماء ما خسرته من أفرادها. وواصلوا الاحتفالات العامة. وفي صباح اليوم التالي بعد أن علم الجميع بما حصل، ومن قتل ومن نجا. خرج اباء القتلى واقرباؤهم الى الساحة العامة وعليهم علائم السرور يقرئ بعضهم بعضاً التحايا ويتبادلون التهانيء الرقيقة، في حين أخفى أباء الجنود الناجين، أنفسهم في منازلهم بين النساء. فاذا الجأت أحدهم ضرورة الى الخروج، رأيته يسير كئيباً حزيناً لا يرفع ابصاره عن الأرض. وبزت النسوة رجالهن في هذا، فمن ثكلت ابنها أظهرت الفرح وقامت ضاحكة الثغر تزور صاحبتها الثاكلة الأخرى. ثم انهن اجتمعن في المعابد اجتماعات الافراح. أما الامهات اللاتي كن ينتظرن عودة اولادهم فقد لفهّن سكوت مطبق وظهرت عليهن امارات الأسى.

إلاّ أن السپارطيين بصورة عامة لم يكونوا ليخفوا قلقهم بعد أن بدأ الآن حلفاءهم ينفضون عنهم، وبات من المتوقع أن يزحف [ايپامنينداس] بشقة المنتصر، على [الپلوپونيس] بجيش غازٍ. وعادوا يفكرون بعرج [اغيسيلاوس]، وتسرّب اليأس اليهم. كأن رفضهم تمليك ذي الرجل السليمة وتفضيلهم الملك الأعرج خلافاً لما انذرتهم به النبوءة بصورة خاصة وهو علّة المصائب التي تكالبت عليهم. إلاّ أن أحترامهم لمؤهلات [اغيسيلاوس] وسمعته وضعت حداً لهذا التذمر الشعبي وتخطوه بأن اودعوا فيه ثقتهم اثناء هذه المحنة، وأعتبروه الوحيد القادر على تحقيق الشفاء للسقم العام، والوسيط الزعيم بالتغلّب على كل مشاكلهم في الحرب أو في السلم.

ومن أعظم المشاكل التي كانت تواجههم آنذاك، مشكلة الفارين [هكذا كانوا يسمونهم انذاك] وهم الذين تركوا ساحة القتال. كان عدد هؤلاء كبيراً، وفيهم من أهل النفوذ والمكانة عدد لا يستهان به. فخيف ان يثيروا فتنة في الجمهورية، للحيلولة دون تطبيق أحكام القانون الخاص بمعاقبة الجبناء عليهم. وكان هذا القانون في غاية من الصرامة، لا تقتصر أحكامه على تجريد الفارين من كل أمتيازاتهم، وانما تتعداه الى عقوبات أخرى. منها أنه كانت مصاهرتهم عاراً. ومنها أن يكون الحق لكلّ مواطن بضرب اي واحد منهم حين يلقاه في الطريق، ولا يحق للمضروب أن يعترضه أو يقاوم ضربه. كما يفرض عليهم ان لا يغتسلوا وأن يلبسوا الخلق من

الثياب المرقعة برقع متعددة الالوان وأن يحلقوا نصف لحاهم ويرسلوا الشعر على وجنة واحدة. لذلك بات من المتوقع أن يخلّق تنفيذ أحكام هذا القانون آثاراً في غاية الخطورة نظراً لكثرة عدد المأخوذين به وسموّ مركزهم. فضلاً عن حاجة الجمهورية الماسة الى الجنود في ذلك الوقت العصيب. ولذلك تم اختيار [اغيسيلاوس] لما يشبه وظيفة المشترع الحديد بهذه المناسبة فلم يصدر قانوناً جديداً وانما دخل الجمعية العمومية من غير أن يعمد الى اضافة أو تنزيل أو تغيير شيء في القانون القديم وتوجه اليها قائلاً:

- يجب أن يستسلم القانون للنوم في هذا اليوم. وأعتباراً من يوم غد يجرى تطبيقه بكلّ شدة وصرامة.

وهكذا صان القانون من التعديل، كما صان الموظفين من التشهير. ولأجل أن يعيد الثقة الى نفوس الشباب ويخفف من يأسهم قام بغزوة [لأركاديا] مجتنباً بكلّ حذر اي اشتباك في قتال. وقاصراً غزوته على نهب البلاد، واحتلال بلدة صغيرة [للمانتيفائيين Mantinæns]، وبهذا أحيا الأمل في قلوب الجماهير، وأقنعهم أنهم ليسوا مغلوبين في كل مكان. وما لبث أن انقض [ايبامنينداس] على لاقونيا بجيش يبلغ تعداده اربعين ألفاً عدا المشاة ذوي الاسلحة الخفيفة، وآخرين غيرهم لحقوا بالجيش لغرض السلب والنهب حتى باتوا يزيدون عن سبعين ألفاً.

ستمائة سنة مرت على أحتلال الدوريين Dorians للاقونيا ولم يروا خلال هذه المدة الطويلة عدواً يدخل اراضيهم. ولم يجرأ أحد على غزوهم. إلاّ ان الثيبيين دخلوها الآن وأخذوا يحرقون ويسلبون في تلك الأراضي المحرمة التي يمسها أحد من قبل، دون أن يلاقوا أية مقاومة. ووصلوا نهر [يوروتاس]، وبلغوا ضواحي [سبارطة] لأن اغيسيلاوس لم يسمح لقومه باعتراض ما سماه [ثيومبوبوس] بالسيل الحربي الجارف. وانما قصر اهتمامه على تحصين الاجزاء الرئيسة من المدينة. ووضع الحرس في الاماكن الملائمة، صابراً في اثناء ذلك على سخرية الثيبيين الذين أخذوا يقذفونه وينعتونه بمثير الحرب وموقدها وعلة كل المصائب التي تعانيها بلاده وتحدوه إن كان قادراً على الدفاع عنها، ولم يكن هذا كل شيء، ففي الداخل كان يعاني متاعب مماثلة، من اضطراب المدينة وانفراط عقد النظام فيها والضجة والصرخات التي يأتيها العجز وكبار السنّ معلنين سخطهم لحالتهم المؤسفة وزادت النساء في الطين بلة بصيحات الرعب والهلع التي كن يطلقنها وقد كدن يخرجن عن وعيهن. أضف الى هذا كله التأثير الذي يحدثه نيران العدوّ في ساحة القتال واحساسه بانهيار صرح مجده وتردي سمعته. فقد جلس على عرش سبارطة وهي في أوج عظمتها وازدهارها، وها هو الآن يراها تسقط من

عليائها وتنزل من قدرها وسمعتها الى الدرك الأسفل، وتفقد كل الشعارات السامية التي حملتها نبراساً مما أعتاد هو نفسه التغني والتمثل به، كقوله «إن نساء سپارطة لم يشاهدن قط نيراناً لعدو» وكما أثر عن انتالقيداس انه كان مرّة يجادل أحد الآثينيين في اي الشعبين أكثر بسالة فتبجّح الآثيني بقوله أن قومه كثيراً ما طردوا الاسپارطيين من حوض نهر [كيفيس Cephisus]. فردّ عليه [انتالقيداس] قائلاً «أصبت. لكننا لم نُسعد بفرصةٍ واحدة لطردكم من نهر [يوروتاس]ومرّة كان مواطن [سپارطي] من العامة البسطاء برفقة [آرگيڤي] فأخذ هذا يفخر بالعدد الكبير من السپارطيين الذين دفنوا في حقول [آرغوس]، فردّ عليه الاسپارطي قائلاً «ولا أحد منكم مدفون في بلاد لاقونيا». على أن الوضع قد تغيرّ الآن، حتى أن [انتالقيداس] الذي كان وقتذاك واحداً من [الايفور] هربّ اولاده سراً الى جزيرة [كثيرا Cythera] لفرط خوفه.

ولما باشر العدوّ بعبور النهر، لمهاجمة المدينة ترك [اغيسيلاوس] ضواحيها منسحباً الى قلاعها ومرتفعاتها، وصادف أن فاض نهر [يوروتاس] وارتفعت مناسيبه ارتفاعاً عظيماً لكثرة ما سقط في الثلوج مما جعل العبور في غاية الصعوبة على الثيبيين، لا بسبب عمق مياهه وحدها بل لموجة البرد القارس بصورة خاصة. وشوهد اثناء ذلك [اپامنداس] يتقدم الفلانكس، فنبّه [اغيسيلاوس] فنظر اليه ملياً ولم يفه الأ بهذه العبارة «يا له من رجلٍ مقدام!». وبعد أن بلغ [اپامنداس] مشارف المدينة وحاول أن يقدم على عملٍ ما يؤهله الى اقامة نصب تذكاري له هناك، عجز عن حمل [اغيسيلاوس] على الخروج اليه من مواقعه المحصنة، فأضطر الى العودة من حيث أتى، مجتاحاً البلاد وهو في طريقه.

وفي تلك الأثناء، تمكنت شراذم من أحّط المواطنين الذين كانوا يحملون حقداً طويل الأمد، من السيطرة على جزءٍ منيع في المدينة يعرف باسم [ايسوريون Isorion] حيث يقوم معبد ديانا، فأحتلوه وحصنوه وكان عددهم حوالى مائتين. ورغب السپارطيون أن ينقضوا عليهم فوراً إلاّ أن [اغيسيلاوس] الذي كان لا يدري مدى ما ستصل اليه الفتنة من الاتساع، طلب منهم ان يتذرعوا بالصبر. ثم قصد الثائرين بنفسه مرتدياً ثياباً عادية وليس معه إلاّ خادم واحد. وعندما دنا منهم ناداهم قائلاً: «انكم أخطأتهم في تنفيذ الأوامر الملقاة عليكم، وهذا الموضع ليس بالموضع الصحيح.» وأخذ يوزع تعليماته فأشار أن يذهب فريق منهم الى هنا، وفريق الى هناك، ودلهم على موضع آخر من المدينة وثالث وهكذا، فسرهم موقفه وظنوا ان الشك لم يساور أحد بعد في خيانتهم وتوجهوا حالاً الى المناطق التي دلهم عليها [اغيسيلاوس]. فأسرع هذا يضع في المراكز التي تركوها وحدة من حرسه. وبادر الى القبض

على خمسة عشر من رؤوس الثائرين وأعدمهم الحياة ليلاً. إلاّ أن مؤامرة أخرى أخطر من هذه بكثير قام بها بعض السپارطيين وخططوا لأجل القيام بثورة وكانوا يجتمعون سراً في بيوت اعضائها. فتم أكتشافها وكان المدبرون لها أناساً من الخطر جداً توجيه الاتهام اليهم بصورة علنية وفق احكام القانون كذلك كان من الخطورة بمكان التغاضي عنهم. فتشاور [اغيسيلاوس] مع سائر القضاة [الايفور] وأتفق الجميع على قتلهم في السرّ دون اللجوء الى اجراءات المحاكمات، وكان عملاً لم يحصل لأي مواطن مولود في [سپارطة] من قبل.

في هذا الوقت أيضا، فرّ الى صفوف العدو كثير من [الهيلوت] وسكان الريف، المنخرطين في صفوف الجيش السپارطي فكان سبباً لانتشار حالة الرعب العظيم في المدينة. فأمر [اغيسيلاوس] بعض ضباطه أن يقوموا قبيل فجر كل يوم باجراءٍ تفتيش على مضاجع الجنود، وحيثما وجدوا جندياً هارباً أخفوا أسلحته عن العين حتى لا يبدو عدد الهاربين كثيراً.

والمؤرخون على خلاف في الاسباب التي دعت الى رحيل الثيبيين عن [سپارطة] فبعضهم يقول أن الشتاء اضطرهم فضلاً عن تسريح الجنود [الاركاديين] الذي جعل من الضروري للبقية ان تنسحب. وآخرون يقولون ان الثيبيين مكثوا في البلاد ثلاثة أشهر حتى جعلوها قاعاً صفصفاً وبلقعاً يباباً.

إلاّ أن [ثيومپوپوس] ينفرد عن غيره من المراجع بالقول: ان القادة البويوسيين قرروا الانسحاب. وفيما هم يهمون بذلك أقبل عليهم [فريخسوس Phrixus] السپارطي مبعوثاً عن [اغيسيلاوس] وعرض عليهم باسمه عشرة تالنتات لقاء رحيلهم، فقبلوا ودفع لهم المال عن عملٍ سبق لهم أن قرروا القيام به. ولست ادري كيف انفرد هذا المؤرخ بسرد هذه الواقعة وحده دون غيره. على أن المؤرخين كافةً يتفقون على ما يأتي: إن خلاص [سپارطه] من الدمار كان بفضل حكمة [اغيسيلاوس] الذي نبذ وراءه في هذه المحنة العصيبة كل طمع له بالشهرة والعظمة وقرر أن يلعب لعبة الحذر والتوجس. إلاّ ان كل شجاعة وحكمة فيه، لم تكن بكافية لإعادة مجد سپارطة وسؤددها الغابر. وهي في ذلك لا تختلف عن أجسام البشر التي تعودت لفترة طويلة من الزمن نظام تغذية دقيقاً معّينا فاي اختلال جوهري واحدٍ في هذا النظام يكون قاتلاً عادة وهكذا كان الأمر بسپارطه، فان ضربة واحدة هدمت صرح استقرار الدولة الطويل برمته. وليس من حقنا أن نعجب لهذا. فان [اغيسيلاوس] اتبع لتحقيق السلام والتوافق في الحياة الصالحة للمواطنين. سياسة فصّلت وهندست بصورة لامطعن فيها. وكان سبب سقوطهم هو أمتلاكهم اراضي اجنبية عنهم، وممارستهم سلطاناً وابتعادهم عن مبادئ العدالة وهي برأي [ليكورغوس] أمور غير مستحبة، ولا تصلح لأي دولة سعيدة ذات حكم فاضل.

وتقدمت السنّ باغيسيلاوس، وشاخ، فترك جانباً كل ما يمت الى الحياة العسكرية بأي صلة. إلاّ أن ابنه [ارخيداموس] تمكن بالتعاون مع [ديونيسيوس] صاحب صقلية، من ايقاع هزيمة نكراء بالاركاديين في معركة عرفت باسم «المعركة التي لم تذرف فيها دمعة» فقد ذبح من العدو عدد كبير، دون أن يقتل سپارطي واحد. على ان هذا النصر كشف ضعف [سپارطة] وقتذاك أكثر مما كشفه أي شيء آخر. فقد كان النصر عند السپارطيين يُعدّ من الأمور الاعتيادية البسيطة، حتى انهم ما كانوا يقربون للآلهة أكثر من ديك واحدٍ لقاء أعظم فوز يحرزونه ولا ترى الجنود يتبجحون ولا يظهر على المواطنين فرح عظيم. ففي النصر العظيم الذي حازوه في [مانتينيا] مما اسهب [ثيوكديدس] في وصفه، لم ينل الرسول الذي جاء بنبأه مكافأة، غير قطعة لحم بعث بها الايفور اليه من المائدة الجماعية. وفي هذا النصر الأخير، كادوا يخرجون عن طورهم عند ورود نبأه. وخرج [اغيسيلاوس] يشارك في الموكب الديني ودموع الفرح تجول في عينيه للقاء ابنه وعناقه. وحضر معه كل القضاة والموظفين العموميين. وخرج الشيوخ والنساء حتى نهر [يوروتاس] رافعين ايدي الشكر للآلهة. لأن سپارطة غسلت عنها العار والمذلة وعادت ثانية لترى نور النهار فقد قيل لنا أن رجال [سپارطة] كانوا لا يجسرون حتى على النظر في أوجه نسوانهم خجلاً لما لحق بهم من العار.

وعندما أقدم [ايپامنداس] على تحديد أعمار [مسينين Messene] ودعا سكانها المشردين في اطراف المعمورة الى العودة لسكناها. عجز السپارطيون عن احباط عمله اذ لم يكونوا في وضع يستطيعون معه مواجهتهم في ساحة القتال إلاّ أن [السپارطيين] حفظوا على [اغيسيلاوس] حين رأوا مساحة من الأرض مساوية لمساحة بلادهم من أخصب بلاد اليونان كانوا قد تمتعوا بخيراتها زمناً طويلاً، تنتزع منهم قهراً في عهده، لأنه نقضى العهد مع الثيبيين وابى إلا حربهم عندما عرضوا عليه السلم مفضلاً ذلك على التخلي عنها، مع انها كانت قد نزعت منه قسراً في الواقع، إن المحافظة على الشرف والكرامة كلفتاه غالياً. اذ لم يمرّ طويل زمن حتى كاد يغلب بحيلة كانت ستكلفه ضياع [سپارطه]. فقد عاد أهل [مانتينيا] يشقون عصا الطاعة على الثيبيين وينحازون الى السپارطيين. وعلم [ايپامننداس] أن [اغيسيلاوس] سائر الى معونتهم بجيش جرار، فترك مواضعه في [تيجيا] وتسلل سراً تحت جنح الظلام قريباً من [اغيسيلاوس] دون أن يحسّ به [المانتينيون] فتوجها نحو [سپارطة] ولم يكن بينه وبين الاستيلاء عليها وهي خالية، لا حامية فيها الاّ خطوة واحدة.

يقول [كاللستينس] أن [يوثينس Euthynus] التسپي، أبلغ [اغيسيلاوس] بالأمر، إلاّ

أن [گزينفون] يقول أن المخبر هو كريتي. فما كان من اغيسيلاوس إلاّ وأسرع فوراً بارسال فارس خيّال الى [لقيديمون] لانذارهم وابلاغهم بأنه قد خفّ الى نجدتهم، وبعد وصوله المدينة بوقت وجيز عبر الشيبيون نهر [يوروتاس] وقاموا بهجوم على المدينة فتصدى لهم [اغيسيلاوس] بجرأة عظيمة باذلاً جهداً يفوق ما ينتظر من شيخوخته. اذ انه لم يعد الآن يقاتل بذلك الحذر والمكر اللذين طالما أحسن استخدامها، وانما وضع كلّ أمله في هجوم يائس لم يكن قط اسلوبه عادةً. إلاّ انه نجح فيه نجاحاً ناهراً وانقذ المدينة من يد [ايپامنينداس] التي كانت تطبق عليها وارغمه على الانسحاب. واقام نصباً تذكارياً، وامكنه عند ذلك ان يعلن بمحضر من زوجات السپارطيين واولادهم أن اللقيديميين قد دفعوا بشرفٍ ونبلٍ، دينهم لبلادهم. ولاسيما ابنه [ارخيداموس] الذي ارتفع مقامه في ذلك اليوم بالشجاعة التي ابداها وبمرونة جسمه اذ كان يمرق بسرعة خاطفة مجتازاً الأرقة الضيقة للوصول الى كلّ موضع من المدينة يحف به الخطر مدافعاً بشدة وليس معه الاّ القليل من الرجال.

على أن [ايسيداس Isidad] ابن [فيوبيداس] كان في رأيي محط أعجاب العدوّ فضلاً عن الصديق. كان فتىً رائع الجمال ممشوق القوام في عنفوان شبابه وريعانه، حيث بلغ أوكاد مبلغ الرجال. قاتل دون أن يكون عليه درع أو ثياب تقريباً فقد كان يدهن جسمه بالزيت عندما نودي للقتال. فلم يتريث وهو يكاد يكون عارياً، بل أختطفت يده رمحا وانتضت يده الأخرى سيفاً وانطلق يشق طريقاً له بين المقاتلين الى الاعداء، وهو يطاعن كل من يصادفه منهم ولم يصب بخدش، سواء أعزي هذا الأمر الى العناية الالهية التي كلأته بنوع خاص فكافأته على ما ابداه من شجاعة بحمايته بمعجزة من لدنها، أو لأن شكله الرائع الجميل، بزيّه غير الاعتيادي الذي أوهم الاعداء به فظنوه مخلوقاً من غير البشر. وانعم عليه الايفور باكليل غارٍ ما أن قلدوه اياه حتى فرضوا عليه غرامة قدرها الف دراخماً لخروجه الى المعركة من دون دروع.

بعد أيام قليلة على هذا القتال، وقعت معركة أخرى بالقرب من [مانتينيا]. كسر فيها [ايپامنينداس] طلائع اللقيديميين، وجد في مطاردتهم فتربص به [انتيگراتس] اللاقوني واصابه بطعنة رمح على حَدّ قول [ديوسقوريدس]، الاّ أن السپارطيين الى يومنا هذا يسمون نسل [انتيكراتس] بالسيافين لأن الطعنة كانت بالسيف لا بالرمح.

لقد بلغ خوف السپارطيين من [اپامنينداس] مبلغاً عظيماً في حياته، بحيث كان قاتله موضع اعجاب الجميع وعنقاهم، وقد انثالت عليه ضروب التكريم وأمطر بالهبات. وصدر مرسوم باعفائه واعفاء نسله من الضرائب، وهذا الامتياز يتمتع به في يومنا هذا، المدعو

[كاللیكراتس Callicrates] أحد أحفاده.

بعد سقوط [ابامنداس] قتيلاً. عقد صلح عام ثانية، إلاّ أن حزب [اغيسيلاوس] استثنى منه [المسينيين] بحجة انهم لا يملكون مدينة خاصّة بهم. ولم يدعوهم يؤدون يمين العصبة. ولما قررّ بقية الاغريق قبولهم في العصبة، خرج اللقيديميون منها وأوصلوا الحرب وحدهم مستهدفين أخضاع المسينيين. وأظهرت هذه المناسبة [اغيسيلاوس] انساناً صلب الرأي عنيداً لا يرتوي من الحرب. أقدم على فعلته هذه لينسف السلام العام ويمدّ من أجل الحرب وهو خالي الوفاض لا يملك من المال ما يكفي للانفاق عليها، حتى انه اضطر الى الاستدانة من اصدقائه، وجمع المال بالتبرعات والاكتتاب ملاقياً في ذلك مصاعب عظيمة. وفي الوقت الذي كانت بلاده أحوج الى الاستقرار والراحة أكثر من اي شيء آخر. كلّ ذلك لاسترجاع بلدة [مسيني] الفقيرة الصغيرة لا غير بعد أن فقد تلك الامبراطورية الواسعة الارجاء في البر والبحر، التي كانت بيد الاسپارطيين في بداية ملكه.

وكان اسوء ما لحق سمعته، هو وضع نفسه في خدمة [تاخوس Tachos] المصري. اذ لم يكن يليق قط برجل في مثل مركزه الرفيع، ينظر اليه كأول قائد في كل بلاد الأغريق بشهرته التي طبقت الآفاق، ان ينزل الى مستوى المحارب الاجير عند بربريّ مصري ثائر (لم يكن تاخوس أكثر من هذا). وأن يرضى بمنزلة قائدٍ لوحدات من المرتزقة المأجورين. حتى قيل عنه: لو انه اضطلع مثلاً بمهمة تحرير الاغريق من نير الفرس مرة أخرى وهو في عمره هذا الذي زاد عن الثمانين وجسده الذي ابلته الشيخوخة واوهنته الجراح، لما خلص من النقد واللوم. لأنك ان اردت أن يكون عملك شريف المنحى فمن الضروري ان يناسب سنك ويتفق مع كل الظروف الخاصّة الأخرى. لأن الظرف والميزان الصائب هو الذي يمنح العمل صفته الحقيقية ويجعله صالحاً أو طالحاً. الاّ أن [اغيسيلاوس] لم يكن يلقي بالاً على مقولات الناس، ولا يرى في اية خدمة عامة مهما كانت، ما يخل بالشرف والكرامة. وهو يعتقد أن النقيصة الكبرى هي أن يجلس المرء خاملاً عاطلاً في عقر داره لا يفعل شيئاً غير انتظاره الموت يأتي ليقبض روحه. لذلك نجده ينفق ما تسلم من [تاخوس] على تجنيد الرجال للحملة ليعبئهم في سفنه مبحراً الى مصر، بصحبة ثلاثين من المستشارين السپارطيين، مثلما فعل عند مباشرته الحملة في آسيا.

وما أن بلغ مصر، حتى خفّ عظماء المملكة وقوادها لاستقباله وتهنئة عند نزوله البر. فقد انعشت سمعته الداوية امال تلك البلاد، وتقاطرت الجماهير الغفيرة لالقاء نظرةٍ عليه، لكنهم لم يشاهدوا الأمير ذا الجلال الذي صوره لهم خيالهم، وانما قابلهم شيخ ضئيل الجسم ذو مظهر زريّ، يستلقي على العشب بكلّ بساطة ويرتدي ثياباً خشنة مهلهلة فطفقوا يضحكون عليه

ولم يتمالكوا من الهزء به وهتفوا قائلين: لقد صدق به المثل السائر العتيق «تمخض الجبل فولد فأراً» وكانوا أكثر دهشة لما ظنوه حمقاً منه، عندما قدمت اليه الهدايا من مختلف انواع الارزاق أختار منها العجول والأوز والذرة، وردّ الحلوى، والمسكرات والعطور. فالحوا عليه في قبولها، فأخذها ودفع بها الى [الهيلوت] الذين كانوا في جيشه. الا انه كما قال [ثيوفراستوس] أغرم بالقلائد التي كانوا يضعونها من البردي لبساطتها. وطلب واحدة من الملك عند عودته. وصحبها معه.

وخاب امله في تولي القيادة العامة عند لقائه بتاخوس فقد أحتفظ هذا بالمنصب لنفسه، جاعلاً [اغيسيلاوس] قائداً للمرتزقة فحسب و[خبرياس Chabrias] الآثيني قائداً للاسطول. فكان اول الاسباب التي اثارت سخطه، وقد تبعته اسباب أخرى. اذ كان مرغماً على الخضوع يوماً بعد آخر لمجرفة المصريّ وغطرسته. وأرغم بالأخير على أن يقف بخدمته في فينيقيا بشكل يحط من قدره وشخصيته. وتجمل [اغيسيلاوس] وتحمل صابراً حتى سنحت فرصته لإظهار مشاعره، بما فعله [نقتنابس Nectanabis] ابن عم [تاخوس] وكان يقود وحدة كبيرة من الجنود تحت امرته. فقد فرّ الى مصر حيث أعلنه المصريون ملكاً بعد فترة وجيزة فكتب الى [اغيسيلاوس] يدعوه الى صفّه، وبعث بدعوة مثلها الى [خبرياس] موعد اياهما بهبات وعطايا جسيمة. وداخل [تاخوس] الشك فيما يحصل، فذهب بنفسه الى [اغيسيلاوس] و[خبرياس] بكلّ تواضع وأخذ يتوسل اليهما أن يبقيا صديقين له. فحبذ [خبرياس] ذلك وراح يبذل ما أمكنه من جهود بالاقناع ورقيق الكلام، ليظل [اغيسيلاوس] معه. فأجابه هذا بالجواب المقتضب الآتي:

- انت يا خبرياس، جئت الى هنا متطوعاً ولست مجبراً على البقاء أو العودة فالأمر متروك لك. الاّ أني خادم لسپارطة. عينتُ لأقود المصريين ولذلك لايمكنني الحرب ضد من بعثت اليه كصديق. إلاّ اذا وردني امر بذلك من بلدي.

ثم انه ارسل رسلاً الى سپارطة بعد أن زودهم بمعلومات كافية عن الوضع، ضمنها شكوكه من تاخوس، وثقته بـ[نكتنابس] كذلك ارسل المصريان كلّ من لدنه وفداً الى اللقيديمين أحدهما يطلب الاستمرار في تطبيق اتفاقية التحالف المعقود سابقاً، والآخر يقدم عروضاً في منتهى السخاء مقابل فسخ الحلف الحالي وعقد آخر جديد. واستمع السپارطيون الى الوفدين. وأعطيا جواباً علنياً مفاده أنهم يودعون الأمر كله الى [اغيسيلاوس] وارسلوا قرارهم السرّي اليه يطلبون منه أن يقدم على كل ما يراه في مصلحة الجمهورية. وما أن بلغه القرار حتى ترك جانب [تاخوس] وانحاز الى خصمه ومعه كلّ مرتزقته. وبذلك ستر مسلكاً تحوم حوله الشبه

بادعاء ظاهري معقول وهو العمل لمصلحة بلاده. ولو جرد هذا الفعل من مظهره التنكري لما بدا في الواقع إلاّ خيانة قذرة. الاّ ان اللقيديميين الذي جعلوا العمل لخدمة بلادهم مبدأهم الأول لا يعرفون مقياساً لما هو عادل أو غير عادل خلافاً لهذا المبدأ.

بعد مغادرة المرتزقة جيش [تاخوس] فرّ هارباً، وعلى أثر ذلك اقيم في مكانه ملك جديد لأقليم المنديسيين Mendesian فتقدم هذا لقتال [نكتنابس] بجيش يبلغ تعداده مائة الف. وقد علق [نكتنابس] على هذا الجيش في حديث له مع [اغيسيلاوس] مبدياً استهانته بهم بقوله انهم جنود مستجدون لا خبرة سابقة لهم في الحرب وان كانوا كثيري العدد فمعظهم من الصناع وارباب الحرف لم ينشأوا نشأة عسكرية.

فأجاب [اغيسيلاوس] بقوله انه لا يخشى عددهم بل يخشى جهلهم القتال، لأنه لا يدع له فرصة في استخدام المناورة والحيلة معهم، فهذا لا ينفع الاّ ازاء رجال يخامرهم الشك يعّرضون انفسهم لخصمهم بمحاولاتهم الدفاعية، لكونهم يتوقعون الهجوم. أمّا من لايخامره الشك والتوجس لأي امر، فهو قلما يمنح فرصة لعدوه، كالمصارع فانه لا ينال فتيلاً ممن يقف امامه جامداً لا يأتي بحركة. ولم يكن (المنديسي) بحاجة الى استقراء تدابير [اغيسيلاوس] الى الحَدّ الذي أصبح [نكتنابس] كثيراً الشك. لكن [اغيسيلاوس] عاد يشير عليه بالاشتباك مع العدوّ في الحال. قائلاً: من الحماقة ارجاء المعركة والركون الى عامل الوقت في حربٍ مع رجال لا خبرة لهم في خوض المعارك يمنحهم تفوقهم العددي قابلية تطويقه وقطع خطوط مواصلات جيشه بحفر الخنادق، ويحرزون عليهم قصب السبق في كلّ الأمور المفيدة لادارة الحرب، فكان هذا مما زاد من مخاوف [نكتنابس] وشكوكه، وأختار سبيلاً يخالف رأي [اغيسيلاوس] تماماً، اذ انسحب الى مدينة كبيرة منيعة الحصون. وقد الم [اغيسيلاوس] أن يكون موضع شكٍ الى هذه الدرجة وامتلأ حنقاً، إلاّ أنه خجل من الانحياز مرة أخرى الى الطرف الآخر، أو العودة الى وطنه دون أن يحقق هدفاً. واضطر الى اللحاق [بنكتنابس] الى داخل المدينة.

وبلغ العدوّ ضواحي المدينة، وشرع بتنظيم خطوطه حولها ويحفر الخنادق وعند ذاك قررّ المصري دخول المعركة خوفاً من ضرب الحصار حوله. وكان هذا ما يتمناه الأغريق، لأن نقض الارزاق في المدينة بات ملحوظاً. ولكن [اغيسيلاوس] عارض في الأمر، فزاد شكّ المصريين فيه، وأخذوا ينعتونه بخائن الملك. إلاّ أن [اغيسيلاوس] تحمل ذلك الملام بصبر، لأنه كان من صميم قلبه راضياً عن هذا التحول، وقد أسرّ في نفسه خطةً أعدها للإيقاع بالعدوّ ونفذها فيما بعد.

كان العدوّ منشغلاً بحفر خندقٍ عميق وبناء جدارٍ مرتفع، متوخياً بذلك ضرب الحصار على

قوات المدينة لتجويعها. وبعد أن اتمّ العدوّ الدوران بالخندق حول المدينة الاّ مسافة قصيرة لالتقاء الرأسين استعّد [اغيسيلاوس] برجاله ليلاً وألبسهم كامل سلاحهم وأقبل على الملك المصري وقال له:

- ايها الشاب، هذه هي فرصتك الوحيدة لانقاذ نفسك. وهي فرصة لم ابح بها لأحد لئلا تنكشف وتحبط. إن العدو بعمله، وبمجهود من رجاله قد زوّدنا بما يكفل نجاحنا. فها هو قد بنى جداراً يحول بينه وبين الإحاطة بنا بمجموعه الغفيرة في حين أنّ الثغرة التي بقيت ناقصة في سوار الخندق ستكفينا لشنّ هجومنا عليهم من خلالها. فكن رجلاً واتبع المثل الذي سيضربه لك الأغريق، فبقتالك بشجاعة ستحقق الخلاص لنفسك ولرجالك. فان جبهة العدو لن تقوى على الصمود أمان هجماتنا، كما أننا آمنون من خطر مؤخرته بسبب الجدار الذي شيدوه بأنفسهم.

فلم يتمالك [نكتنابس] من الإعجاب بدهاء [اغيسيلاوس] وحنكته ووضعه نفسه في الحال وسط مقاتلي الاغريق، ودخل المعركة معهم. فأوقعوا الهزيمة بالعدوّ في أول هجمة. فعادت ثقة الملك [اغيسيلاوس] وراح يكرر الخطّة مرةً أخرى كما يعمد اليه المصارعون من الحيل: يتظاهر أحياناً بالانسحاب، ويهجم أحياناً على الأجنحة حتى جرّهم الى موضع بين خندقين عميقتين جداً ممتلئين بالماء. وما أن أحتواهم الموضع حتى هاجمهم جاعلاً جبهة قتاله مساوية لعرض الفسحة التي هي بين الخندقين وبهذا أمن تماماً خطر الإحاطة بهم لكونهم محصورين من الجهتين ولم يبدوا مقاومة كبيرة، وسقط منهم الكثير ولاذ الباقون بالفرار وتفرقوا أيدي سبأ.

وهكذا تم توطيد دعائم حكم [نكتنابس]. وعزم على [اغيسيلاوس] بكلّ رغبة ومحبة أن يقضي شتاءه في مصر لكن [اغيسيلاوس] استعجل العودة للمشاركة في حروب بلاده اذ كان يعلم انها بحاجة الى المال وانها مضطرة لأستئجار مرتزقة، في حين يقاتل رجالها في الخارج. فودعّه الملك توديعاً حافلاً بالاكرام والتبجيل. ومما قدم له من هدايا مائتا تالنتٍ من الفضة تداركاً لمصاريف الحرب.إلاّ أن سفنه عجزت عن مغادرة الساحل بسبب هياج البحر، وأخذت تجري بمحاذاة الساحل الافريقي حتى بلغت بقعة خالية من البشر تدعى «مرفأ فيبيلاوس». وفيما كانت سفنه تهّم بالرسو، وافاه الأجل. وكان له من العمر اربعة وثمانون عاماً، منها (٤١) حكم خلالها لقيديمون، وقضى ثلاثين منها وهو أعظم وأقوى رجل في كل بلاد الاغريق. بل كان يعتبر بصورة ما قائدها الأكبر وملكها. الى أن هزم في معركة [ليوكترا].

كان من عادة السپارطيين. أن يدفنوا مواطنيهم العاديين حيثما يوافيهم الأجل مهما كانت البلاد. إلاّ أنهم كانوا يحملون جثمان ملوكهم الذين يموتون في دار الغربة الى الوطن. ولما كان

جنود [اغيسيلاوس] يعوزهم العسل، فقد حنطوا جثمانه بالشمع وهكذا نقلوه الى لقيديمون.

وخلفه في العرش ابنه [ارخيداموس] وتعاقب نسله ملوكاً حتى [آغيس] وهو الخامس من نسله، قتل على يد [ليونيداس] اثناء محاولته اعادة سلطة [سپارطا] القديمة.

١٩٦٩/٩/١١

پومپی

POMPEY

(Gnaeus Pompius Magnus)

106 – 48



پومپي

يبدو أن أهل روما خصّوا [پومپي] منذ نعومة اظفاره بتلك المحبة التي عبّر عنها [پرميثيوس] لهرقل في مأساة [اسخيلوس] واصفاً اياه بصاحب الفضل في نجاته بالبيت الآتي:

«آه يا مولاي القاسي، ما أعزّ ابنك على قلبي انه النسل الكريم لعدويّ!»

من ناحية لم يعبّر الرومان عن كراهيتهم لأيّ جنرال من جنرالاتهم بالعنف والشدة اللتين عبر عن كراهيتهم [لسترابو Strabo] والد [پومپي]. والحق يقال أنهم كانوا يتهيبون سلطانه وقوته العسكرية في حال حياته، لأنه كان محارباً صنديداً. ولكنهم أحتقروا اسمه وذكراه بعد أن مات - غاية الاحتقار. وكانت صاعقة قد انقضت عليه فقتلته، فجروا جثمانه من النعش جراً عند تشييع جنازته وسحلوه.

ومن الناحية الثانية لم يضاهِ أحدٌ من الرومان [پومپي] في حبّ الخير للشعب والتعلق به، خلال كلّ تقلبات الحظ ولا كانَ أحد في ذلك أسبق منه في أول ظهوره أو في ارتفاعه المطرد مع ازدهاره، أو أكثر صدقاً في اثناء محِنَه. وكان سبب كراهيتهم [سترابو] الأكبر هو جشعه الذي لم يعرف حداً.

واما بالنسبة الى [پومپي] فكان ثم أسباب كثيرة لمحبة الرومان له، منها أخلاقه وألمعتيه ومآثره الحربية ورجاحة عقله وطلاقة لسانه وطلاوة حديثه وطيب مجلسه، وكان أرق الناس عندما يسأل فضلاً وألطفهم اذ وهب شيئاً. فان أعطى لا يفخر، وان أخذ فبكرامة ووقار.

وكان جمال صورته في شبابه شفيعه. ويظهر أن هذه الصفة سبقت طلاوة لسانه الى القلوب. فكانت تهفو اليه وتقع في حبّه قبل أن ينبس ببنت شفة. ولوحظ في جمال صورته حتى في عزّ شبابه مزيج من الهيبة والرقة. ولما بلغ عنفوان الرجولة ونهاية نضوجها. باتت مهابة أخلاقه وجلالها طابعه المميز. وكان شعر رأسه متموجاً أو مرتفعاً بعض الشيء حتى ليبدو بحركة عينيه الفاترتين أشبه وجهاً بتماثيل الملك [الاسكندر] ولعل كثرة الحديث حول هذا الشبه كان أكثر من الشبه في الواقع. ولصق هذا اللقب به في عهد الشباب. ولم يبد منه نفرةً، حتى بات

بعضهم يلقبه به سخرية واستهزاء. ولما كان [لوشيوس فيلپوس Lucius Philippus] يبث له الدعوة السياسية، لم يتحرج قط في القول «لن يعجب الناس اذا أحبّ فيلپسّ الاسكندر»!

وذكروا عن [فلورا Flora] العاهرة، أنها وقد تقدمت بها السن - كانت تصيب غاية السرور واللذة من التحدث عن علاقتها الأولى [بپومپي]. وكانت قد تعودت القول انها لم تفترق عنه مرة واحدةٍ بعد وصالٍ الاّ نالهُ منها غصّة وتسترسل قائلة أن [جمينيوس Cemin-ius] وهو من خلصاء [پومپي] علق بحبها وأشتد الحاحاً في مراودتها، فرفضت بقولها له «مهما كانت ميولها، فإنها لا تستطيع ارضاء رغبته بسبب پومپي» فتقدم راجياً [پومپي] فلم يبد اية ممانعة من ان تقضي صديقه لبانته منها، ومنذ ذلك الحين قطع ما بينهما ولم يكلمها قط رغم انه كان شديد الكلف بها كما يبدو. ولم يبد من [فلورا] نفسها الطيش المتوقع من أمثالها. وانما اعتلت صحتها فترة من الزمن بسبب الحزن والرغبة. وقيل لنا أيضاً أن [فلورا] كانت ذات جمال أخاذ اشتهرت به حتى أن [كايسللوس ميتللوس Caecillus Mettelus]، عندما زين هيكل [كاستور] و[پوللوكس] بالتصاوير والتماثيل، كانت تماثيل هذه الغانية وتصاويرها الفريدة الجمال من جملة ما اضافه الى الهيكل.

ولم يكن سلوكه امرأة عبده المحررّ [ديمتريوس] بالسلوك الذي يتفق مع خلقه الاعتيادي، فلا عدل فيه ولا كرم (كان هذا الخادم مقرباً اليه جداً في حياته حتى انه أوصى له باربعة آلاف تالنت) ولعله خشي أن يتعرض للاستهجان والتأنيب العام بانه وقع في حبها لفتنتها التي لا تقاوم ولئلا يشتهر أمره معها فيصبح مضغة في الأفواه. وعلى أية حال فمع ما كان يبدو عليه من الحذر والاحتراس، لم يفلح في أجتناب اقاويل الناس وافتراءات الاعداء عليه حتى في المسائل التي لا تجافي طبع الانسان. وقد اتهموه بالنسوة المتزوجات. وقالوا بأنه قد تستر على أمور كثيرة، وأختلس من الأموال العامة ليرضي اسرافهنّ.

وأمّا عن بساطته ومتانة خلقه، مما يتعلق بخصوص الاكل والشرب فتروى حكاية مؤداها أنه أعتلّ وكانت معدته تتقيأ اللحوم المعروفة فوصف له طبيبه لحم طائر السماني. ولم يكن لهذا الصنف وجود في السوق، لأن موسمه لم يحلّ. فقيل له أن [لوكولّوس] يربيها وهي متوفرة لديه على مدار السنة. فقال:

- اذن فقد كان [پومپي] سيموت لولا ترف [لوكولّوس]؟

ثم انه لم يعمل بوصفة الطبيب. وعالج نفسه بنوع آخر من اللحم متوفر، إلاّ ان ذلك كان في زمن متأخر.

وكان وهو فتى، في حملةٍ عسكرية يقودها أبوه ضدّ [سنّا] وكان رفيقه وصاحبه في الخيمة شخص يدعي [لوشيوس ترنتيوس Lucius Terentius]. استدرجه [سنّا] الى الخيانة وأتفق معه على الفتك بزميله [پومپي]. كما أتفق مع آخرين على اشعال النار في خيمة الجنرال. وقد وقف [پومپي] على الدسيسة وقت العشاء. فلم يظهر عليه شيء من القلق. وانما شرب أكثر من عادته وأظهر [لترنتيوس] كثيراً من الانعطاف والتودد. ثم تظاهر بالذهاب الى فراشه لكنه انسلّ الى الخارج سِراً وقام بوضع ديدبان على خيمة ابيه وركن هو ينتظر بهدوءٍ. وعندما ظنّ [ترنتيوس] أن الساعة المناسبة قد ازفت، نهض مجرداً سيفه وأهوى بعدة طعنات على فراش [پومپي] اخترقته فظن انه قضى عليه. وفي الحال قامت ضجة هائلة في المعسكر، متأتية من بغض الجنود للجنرال. كما ظهرت بوادر تمرد عامٍ في الجيش حيث مزق الجنود الخيام وجردوا أسلحتهم. وكان الجنرال قابعاً في خيمته لايجرؤ على الخروج بسبب التمرد. إلاّ أن [پومپي] توسطهم وأخذ يرجوهم بأعين دامعة، ثم قذف بنفسه منبطحاً ووجهه في التراب، امام مدخل المعسكر. وظلّ معرضاً لوطء أقدامهم يبكي متوسلاً بمن يريد ترك المعسكر أن يدوسوه ان شاؤا الخروج. فلم يروا بداً من العودة الى اماكنهم. وأعلن الجميع عدا ثمانمائة منهم، ندمهم خجلاً او لغلبة العاطفة عليهم وتصالحوا مع الجنرال.

ما أن وسِّد [سترابو] التراب حتى رفعت دعوى على [پومپي] بصفته وارثا لتركة أبيه، بزعم ان اباه كان قد أختلس أموالاً من الخزينة العامة. إلاّ ان [پومپي] تعقب القضية بجدٍ متوصل وتمّ تعيين المختلسين الرئيسين واتهم أحدهم [اسكندر] وهو عبد من عبيد ابيه المحررين. وأثبت للقضاة بأنه المختلس الحقيقي، إلاّ انه اتهم شخصياً بأن في حوزته عُدد صيدٍ وبعض كتبٍ كانت من جملة غنائم [أسكلوم Asculum] فأقر بأنها لديه، وقد نسيها مدعياً انه تسلمها من أبيه عند احتلاله [اسكلوم] كما أدعى أيضاً أن فقدها عند عودة [سنّا] الى روما وأقتحام حرسه البيت ونهبه. والقى في هذه الدعوى عدة مرافعات تمهيدية قوية ضدّ من أتهمه، أظهر فيها حنكة ومقدرة لا تناسب سنه. ونال سمعة وتقديراً حتى أنّ [انتستيوس An-tistius] البريتور والقاضي في الدعوى، مال اليه كثيراً وعرض أن يزوجه ابنته باتصاله باصدقاء له حول الموضوع، فقبل [پومپي] مصاهرته وعقد العقد سِراً. على أن السرّ لم يبق مكتوماً بصورة مطلقة عن الناس. بل كان مما يمكن التوصل اليه والتحسس به من التفضيل الذي خصه به [انتستيوس] بصدد الدعوى. وأخيراً عندما نطق [انتستيوس] بقرار البراءة الذي اصدره الحكام، صاح الناس، كمن ينتظرون اشارة فأعطيت لهم تلك الصيحة التي تستخدم تطبيقاً للعادة القديمة في الزواج: «تالاسيو!».

يقال أن الأصل في هذه العادة هو ما جرى بين الرومان والسابين. فقد أقبلت فتيات السابين الى روما لمشاهدة الألعاب والتمثيل فيها، فأنتهز اشجع رجال الرومان الفرصة وقاموا بخطفهن واتخذوهنّ زوجات. واتفق أن بعض رعاة المواشي والماعز من الطبقة الدنيا خطفوا فتاةً جميلة الوجه طويلة القامة. وخوفاً من أن يعترضهم رجال أعلى منهم مركزاً ويأخذوها منهم طفقوا يصيحون وهم يركضون «الى تالاسيو» ذلك لأن [تالاسيوس] كان رجلاً معروفاً ومحبوباً بين الرومان، فكان كل من سمع هتافهم يصفق مغتبطاً ويشاركهم في الهتاف مستحسناً نصيب الرجل مهنئاً. وقيل ان هذه الصدفة أعقبت زواجاً سعيداً [لتالاسيوس] فقد استخدم في يوم الزفاف. وأصبح تقليداً. وهذه الرواية هي أوثق الروايات عن مصدر التقليد المعروف.

وبعد مرور ايام قلائل عن صدور القرار، تزوج پومپي [انتيستيا].

ثم ان پومپي، قصد معسكر [سنّا] فوجد الأقاويل والشائعات تدور حول اسمه. فبدأ الخوف يتملكه. وأسرع ينسحب سراً من المعسكر، فأولد اختفاؤه المفاجيء شكوكاً عظيمة حول مصيره. وسرت اشاعات وهمسات في المعسكر تفيد بأن [سنّا] أغتال الشاب. وقد اجتمع هذا مع سائر الأسباب الأخرى التي حفظها الرجال على [سنّا] فقرروا مهاجمته وقتله، فحاول الفرار، الاّ أن سنتوريوناً لحق به مجرداً سيفه حتى ادركه. فجثا [سنّا] على قدميه مستعطفاً وعرض على قاتله الخاتم الذي يختم به أوراقه الرسمية وكان كبير القيمة - ليفتدي به نفسه إلاّ أن السنتوريون اسكته بوقاحة، بقوله:

- اني لم أجيء لاختم اتفاقاً، بل لانتقم من طاغية عاصٍ خبيث.

وقضى على [سنّا] في الحال.

وبقتله على هذه الصورة، خلفه [كاربو] في القيادة وهو طاغية آخر يفوقه شراسة، واستهتاراً وأخذ يمارس عن أساليب سلفه. وفي الوقت نفسه كان [سيلّلا] يتقدم منه، وسط استبشار أغلبية الشعب وفرحهم. وكانوا في محنتهم يبحثون عن سلوى وان كانت لا تزيد عن استبدال سيدً بآخر. وقد بلغ الاضطهاد والجور والمآسي بأهل المدينة الى حَدّ اليأس المطلق من نيل الحرية وبات الناس يتوقون الى أخف انواع العبودية ان لم يكن من العبودية بدّ. وكان [پومپي] آنذاك في [پشنيوم Picenum] من أعمال ايطاليا، يقضي وقتاً في الاستجمام واللهو ومباهج الحياة اذ كان يملك ضياعاً ومزارع في الريف هناك. وقد دفعه الى البقاء حبّه لذلك الاقليم وتعلق سكانه به ذلك التعلق الذي كان فيهم عاطفة موروثة. حيث طفقوا

يظهرون له اسمى مشاعر العطف والوداد. ولقد رأى اشراف الناس وأخيارهم في المدينة، يتركون منازلهم وأملاكهم، ويتسابقون الى معسكر [سيللا] كأنما يتسابقون الى الملجأ الأمين، فتملكته الرغبة في فعل فعلهم، ولكن ليس كمستجير أو لاجيء طريد لا شيء لديه يقدمه، بل كصديقٍ ومعين وبهيئة تكسب له التقدير والمكانة، واعتزم ان يسير اليه على رأس وحدة من الجنود. وفاتح أهل [پشنيوم] بالأمر وتداول معهم وطلب المعونة منهم على تحقيق ما اعتزمه. فسارعوا الى تأييد فكرته بكل طيب خاطر. واعادوا رسل [كاربو] اليهم خائبين وكانت حماستهم لقراره شديدة بحيث ان رجلاً يدعى [ڤنديوس Vindius] أنبرى يسخر [بپومپي] قائلاً انه خرج تواً من الصف في المدرسة ليضع نفسه على رأس الجماهير. فحنقوا عليه حتى انهم انقضوا عليه وقتلوه.

ووجد [پومپي] منذ تلك اللحظة الرغبة في الحكم والسلطان تتملكه وتأخذ عليه المذاهب وهو بعد فتى لم يتخط الثالثة والعشرين. ولذلك بادر الى تقليد نفسه السلطة الكاملة دون ان يستمدها من أحد أو من اي واجب كُلف به. فأمر بانشاء محكمة في ساحة [اوكسيموم Auxi-mum] وهي مدينة مكتظة بالسكان ثم طرد اخوين من رؤوساء المدينة ينتميان الى اسرة [ڤنتديوس Ventidius] كان يعملان ضده لمصلحة [كاربو] واستصدر بحقهما قراراً عاماً بمغادرة المدينة. وبعد هذا شرع في تجنيد المتطوعين وأخذ يصدر ويوزع الواجبات لقواد المائة وغيرهم من الضباط على حسب النظام العسكري وانضباطه. وقام بجولة في كلّ مدن الاقليم الأخرى وهو على هذه الصورة. ففرّ من أمام وجهه كلّ الموالين [لكاربو] وخضع الباقون لأوامره. وما مرّ وقت وجيز الاّ وأصبح جيشه مؤلفاً من فرقٍ ثلاث كاملة العدّة والعدد. وتزود بكل ما يحتاج من الارزاق ومواد الاعاشة وبحيوانات الحمل والعجلات وغير ذلك من مهمات الحرب، وأنطلق بعدته هذه قاصداً [سيللا]، لا كالمستعجل الوجل أو المتلصص الذي يخشى أن ينكشف أمره، بل كان يسير بمراحل قصيرة، ويتوقف كثيراً في الطريق، ليحطمّ ثقة العدوّ بنفسه، ويشيع القلق فيه. وكان يعمل على فصل كلّ جزءٍ من ايطاليا يمرّ به، عن ادارة [كاربو] وحكمه.

وهاجمه دفعةً ثلاثة قوادٍ للعدوّ وهم [كارينّا Carinna] و[كليوليوس Cloelius] و[بروتوس Brutus] وواجهوه بقواتهم، لا بصفوف المعركة تماماً ولا متكتلين معاً. بل عسكروا بجيوشهم الثلاثة، على هيئة دائرة حول [پومپي] يريدون الاحاطة به والتغلب عليه بالحصار. إلاّ أن [پومپي] لم يداخله القلق من تلك المناورة. بل جمع جنوده كتلة واحدة. ووضع الخيالة في المقدمة وقادها بنفسه، موجها كلّ هجومه على قوات [بروتوس] فلمّا كرّت

عليه خيالة [الكلتيين]، التحم بشخصه مع ابرزهم وكان أضخم الجميع، في قتال فردي، وارداه بطعنة من رمحه، فلما شاهد الباقون ما حَلّ برئيسهم الووا اعنة خيلهم وارتدوا على الاعقاب هاربين وبذلك اوقعوا الخلل في صفوف مشاتهم وسببوا هزيمة عامة. وعلى اثر ذلك دبّ الخلاف بين القادة الثلاثة، وسلك كل منهم طريقاً مختلفة، كما شاء له حظه. وعندئذ أخذت المدن المجاورة تستسلم [لبومبي] ظانة ان العدوّ قد تملكه الخوف فتشتت شمله.

وتصدى له بعد هؤلاء، [سكيبيو] فاراد، قتاله ولم ينل منه مأرباً لأن جنوده انضموا الى [بومبي] ما أن اصبحوا على رمية رمح من قواته، ووجد [سيكبيو] نجاته بالفرار. ثم أرسل [كاربو] لقتاله قوات من الخيالة فهاجمها [بومبي] بالقرب من نهر [آرسيس Arsis] بعين الجسارة والشجاعة السالفتين فدحرهم وأجبرهم في اثناء مطاردتهم على دخول منطقة وعرة يصعب ارتيادها على الخيل، فلما وجدوا سبل النجاة مسدودة امامهم استسلموا له بكامل خيلهم وأسلحتهم وأعلنوا ولاءهم له.

ولم يكن [سيللاً] حتى ذلك الحين يعرف شيئاً عما يحصل [لبومبي]. فلما وردته الانباء الأولى عن وقائعه وحركاته، داخله القلق الشديد عليه، وخشي أن يقطع قواد العدوّ عليه خطّ الرجعة، وهم قادة متمرسون ذوو خبرة عظيمة في فنون القتال. ولذلك أسرع بالتقدم نحوه لمعاونته. ولما بلغ [بومبي] نبأ توجه [سيللا] أصدر اوامره للضباط وامراء الوحدات بتنظيم صفوف الجيش ووضعه في حالة الاستعراض، ليبدو في ابدع صورة وأجمل منظر امام القائد العام. وكان يتوقع أن ينال تكريماً عظيماً منه، إلاّ أن ما ناله كان فوق ما توقعه اذ ما أن شاهده [سيللا] يتقدم منه بهذه الصورة من التنظيم ورجاله كلهم شباب في عنفوان صباهم وقوتهم ومعنوياتهم العالية وروحهم المتوثبة المعتزة بالانتصارات، حتى ترجل عن حصانه. ولأنه كان الأسبق فقد حيّاه رجال بومبي بالتحية الواجبة لمقامه، ولقبوه [بالامبراطور] فرد التحية لبومبي بمثلها وبلقب الامبراطور أيضاً، وهو ما أثار الدهشة، فما من أحدٍ كان يتوقع أن [سيللا] سيخلع هذا اللقب على شاب صغير السنّ، لم ينل بعد منصب العضوية في مجلس الشيوخ. وهو لقب كان موضع منافسة بين أسرتي [سكيبيو] و[ماريي Marii] والواقع ان كل تصرفات [سيللا] معه كانت منسجمة مع أول مقابلة لهما. فكلما دخل عليه بومبي أظهر له التفاتاً واحتراماً جديداً، أمّا بالقيام له. أو حسر ردائه عن رأسه، أو ما أشبه. مما ندر أن قابل به اي شخص آخر، من ذوي المراكز العليا والمقامات الخطيرة. وكان حوله الكثير منهم. إلاّ أن الخيلاء والزهو لم يداخلا [بومبي] لما خصّه به [سيللا]، وظهر ذلك جلياً عندما قرر [سيللاً] ارساله بحملةٍ عسكرية كاملة الى بلاد الغال. وهو الاقليم الذي كان

يعتقد أن [ميتللوس] قائد الجيش فيه، لم يحقق شيئاً جديراً بما هو تحت امرته من قوات ضخمة. فأشار [پومپي] بانه ليس من العدالة ولا من شرف الناس أن ينتزع أقليماً من يد من هو أقدم منه عسكرياً وأعلى كعباً وصيتاً وان الأمر منوط [بميتللوس] على كل حال؛ فان رغب واستحسن خدمته. فهو على اتم الاستعداد للانضمام اليه ومعاونته في الحرب. وسُرَّ [ميتللوس] بجوابه لمّا بلغه وكتب اليه رسالة يدعوه، وما أن استقر المقام [بپومپي] هناك حتى انقض على الغاليين فحقق المعجزات والمآثر العسكرية لنفسه واوقد مَرّة أخرى نار الأقدام واذكى روح القتال في [ميتللوس] تلك الروح التي كادت تخمد منه بعامل السنّ. مثله في ذلك مثل النحاس الذائب كما يقولون، عندما يسكب فوق النحاس البارد الصلب، فان يحلّه ويذيبه بأسرع مما تذيبه النار.

ويمكن تمثيل [پومپي] هنا بالمصارع الشهير، الذي يفوز بكلّ الجوائز في النزالات، فليس من العادة أن تدخل في قائمة انتصاراته الأخيرة، تلك الانتصارات التي حققها في صباه عندما كان في اولّ سلم الشهرة، وانتصارات پومپي في ايام شبابه وان كانت عظيمة بحدّ ذاتها، الاّ انها طمست وتضاءلت امام العديد من مآثره التي حققها في فتوحاته وحروبه المتأخرة، ولذلك سأمر بها مَرّ الكرام واضرب صفحاً عن ايراد تفاصيلها خوفاً من تبديد وقتنا في حوادث شبابه الأقل أهمية، واضطراري الى اغفال أعظم المآثر واسمى العظائم التي تكشف بصورة أوضح عن حقيقه شخصه.

وبعد أن دانت ايطاليا جميعها [لسيللاّ] وخضعت لحكمه وأعلِن دكتاتوراً، راح يكافئ الموالين والمخلصين له بالثروة والمناصب الرفيعة في الدولة، وتحقيق اي رغبة أو طلب يطلبونه بلا تحديد أو حساب. إلاّ [پومپي] فقد خصّه بمعاملة فريدة كان شديد الاعجاب ببسالته وخلقه، وكان يؤمل أن يكون دعامة لحكمه وسنداً قوياً له. فعمد الى وسيلة تجعله مرتبطاً به بنوع من القرابة والتحالف. وعاونته زوجه [ميتيلا] فيما أعتزمه، وقام كلاهما باقناع [پومپي] بتطليق زوجه [انتستيا] واتخاذ [اميليا] زوجةً، واميليا هذه، هي ابنة امرأة [سيللا] ولدت لها من [سكاوروس Scaurus] زوجها الأسبق. وكانت هذه الأبنة متزوجة في عين الوقت من رجل آخر تعيش معه وهي حبلى منه. إن هذا الاسلوب التحكمي القاسي في الزيجة كان يتفق تماماً وعصر [سيللاّ] إلاّ انه كان بعيداً عن طبع [پومپي] وأخلاقه. لقد انتزعوا اميليا وهي حبلى من احضان رجل آخر، ودفعوا بها اليه. وطلقت [انتيستيا] بأسلوب مهين يجافي قواعد الشرف، ولم يمضِ على فجيعتها بموت أبيها طويل زمن (لأن اباها انتيستيوس، كان قد قتل في مجلس الشيوخ بسبب الشك في موالاته لسيللا، وهو الشك

المتأتي من وجود ختنه [پومپي] الى جانبه) وأقدمت أمها على قتل نفسها بعد ما نزلت هذه الرزايا والمصائب بها، وختاماً لهذه المأساة الكبرى. وقعت نكبة أخرى جديدة كأن النكبات الأخرى لم تكن كافية. فقد قضت [اميليا] نحبها وهي تضع وليدها، ولم تكد بعدُ تستقر في بيت [پومپي].

وفي حدود ذلك الزمن، وردت الى [سيللاً] انباء عن قيام [پرپينا] بتحصين مواقعه في جزيرة صقلية، تلك الجزيرة التي باتت ملجأ ووعاءً يجتمع فيه كلّ بقايا الحزب المناؤي له، وابلغ أيضاً ان [كاربو] يمخر عباب تلك البحار باسطوله مهدداً، وان [دوميتيوس Domitius] قد انقض على افريقيا، وان كثيراً من الاشراف المغتربين، الذي نجوا من العقوبات التي تفرضها حالة الحرمان من الحقوق المدنية يتقاطرون يومياً على تلك الاقاليم. فأرسل [پومپي] عليهم مزوّداً بقوات كبيرة.

وما أن نزل برّ صقلية حتى لاذ [پرپينا] بالفرار تاركاً الجزيرة برمتها له. وكانت معاملة [پومپي] لسائر المدن المنكوبة معاملة طيبة مفعمة بالانسانية. الا أنه استثنى [المامرتينيين Mamertines] في [مسيّنا]. فلما أحتج هؤلاء على احكامه واقضيته مستندين الى امتيازاتهم واعفاءاتهم بموجب ميثاق قديم ومرسوم رومانيّ غابر، أجابهم بكلّ حدة.

– كفاكم ثرثرة وتمشدقاً بالمراسيم والشرائع امامنا نحن الذين احتقبنا السيوف واحتكمنا اليها.

والمظنون انه أظهر [لكاربو] روحاً لاجل الاقتصاص منه عن جرائمه. فاذا كانت الضرورة تقضي بالفتك به، ومثل هذه الضرورة متوفرة هنا، فمن الواجب أن يتمّ ذلك حال وقوعه في الأسر، واذ ذاك يُعزى قتله الى الشخص الذي قبض عليه وحده. لكن [پومپي] عمد الى خلاف ذلك، فقد أمر بأن يخصروه امامه هذا الرجل الذي تولى منصب القنصلية في روما مرات ثلاث، فجيء به وهو يرسف في الاغلال واوقفه في موضع الاتهام. في حين جلس هو على مقعد القضاء وأخذ ينظر في قضيته بمقتض الشكليات والاجراءات القانونية مثيراً سخط ومشاعر كل الحاضرين. ثم أمر بعد ذلك أن يؤخذ ويُقتل. وقيل والشيء بالشيء يذكر – عن [كاربو] أنه لما سيق الى موضع التنفيذ ورأى السيف مجرداً لقطع رأسه. لم يستطع تمالك نفسه لألم أحسّ به في مثانته أو لعدم مقدرة اعصابه على السيطرة على عملها فطلب ان يسمح له الجلاد بمهلة وبموضع مناسب ليتبول.

وأكثر من هذا، ما يحدثنا به [كايوس أوپيوس Caius Oppius] أحد اصدقاء [قيصر] قال هذا أن [پومپي] كان من منتهى القسوة في معاملته [كوينتوس ڤاليريوس Quintus

Valerius] وهو رجل مشهور بعلمه وادبه. فلما جيء به امامه أخذه وسار به مبتعداً ودخل معه في محاورة والقى عليه عدة أسئلة وسمع اجوبتها. ثم أمر ضباطه أن يأخذه ويقتلوه. إلاّ انه يجب أن لا نسرع في تصديق كل ما يرويه [اوپيوس] لاسيما بعد أن أخذ على نفسه رواية كل ما يتعلق باصدقاء قيصر وخصومه، ومن المؤكد ان [پومپي] كان مضطراً بحكم الضرورة الى استعمال القسوة والصرامة ضدّ الكثير من أعداء [سيللا] وعلى الأقل بالنسبة الى البارزين منهم، أو أولئك الذين اشتهر أمر القبض عليهم أو أسرهم فلم يعد لديه مجال للاغضاء عنهم. اما الآخرون فقد كان معهم في نهاية التسامح الذي يقوى عليه، ولذلك دبّر أمر اخفاء بعضهم. وتدخل شخصياً في تهريب بعضهم الآخر. وفي قضية أهل [هيميريا Himeræa] قرر [پومپي] انزال أشد العقاب بمدينتهم لمعاونتهم ومساعدتهم العدوّ، ولتحريضهم الآخرين على العصيان وانبرى زعيمهم [سثينس Sthenis] يطلب الكلام ولما سمح له قال ان ما يعتزمه [پومپي] الآن لا يتفق مطلقاً مع مبادئ العدالة ذلك لأنه سيتخطى المجرمين ويقضي على أرواح الابرياء فطلب منه [پومپي] تعيين المجرمين الذين يستحقون العقاب فأجاب [سثينس] بأنه هو وحده المسؤول عن اشراك بني قومه عن طريق اقناعهم بعمل ما عملوه، كما أجبر اعداءه على فعل ذلك بالقوة. فلم يسع [پومپي] إلاّ الاعجاب بصراحته وروحه النبيلة وغفر له جريمته وعفا عن كلّ أهل [هيميريا]. ولما علم أيضاً أن جنوده لا يخضعون للنظام في اثناء مسيراتهم وانهم يرتكبون أعمال العنف في الطريق، أمر أن يختم على سيف كل واحدٍ في غمده ومن جرده عرض نفسه لاشدّ العقاب.

وفيما كان [پومپي] منصرفاً الى ادارة شؤون الحكم في صقلية، تسلم مرسوماً صادراً من مجلس الشيوخ، وأمراً من [سيللا]، يتضمنان واجب الابحار في الحال الى افريقيا بكلّ قواته لقتال [دوميتيوس]، ذلك لأنه كان قد عبأ جيشاً لجباً، يفوق الجيش الذي عبأه [ماريوس] منذ فترة ليست بالطويلة وعبر به من افريقيا الى ايطاليا واشعل نار فتنة في روما واصبح طاغيةً بعد ان كان منفياً خارجاً على القانون. استعد [پومپي] لكل شيء باسرع ما يمكن وترك زوج أخته [ميميوس Memmius] حاكماً على صقلية، مُقلعاً بمائتين وعشرين بارجة وثمانمائة سفينة أخرى محملة بالارزاق والمؤن والعتاد، والأموال وآلات الحصار. وأرسى بجزءٍ من اسطوله في مرفأ [اوتيكا Utica] وبجزئه الآخر في [قرطاجنة] وما ان تمّ انزاله حتى تمرّد على خصمه سبعة آلاف جندي وانضمّوا اليه وكانت قواته التي انزلها تتألف من سبع فرق كاملة العدة والعدد. وهنا يروون حادثة طريفة وقعت له حال نزوله.

قالو ان جنوداً له، وقعوا بمحض الصدفة على كنز مطمور فأصابوا منه مالاً كثيراً. ولما سمع

بقية رفاقهم ظنوا أن الموضع الذي نزلوا فيه حافلٌ بالذهب والفضة التي دفنت فيه منذ القديم، عندما تكالبت المحن والخطوب على القرطاجيين. فانفرط عقد النظام في جيش [پومپي] وانهمك افراده جميعاً في الحفر أياماً عديدة سعياً وراء الكنوز والذهب. وراح [پومپي] يسير غدوة وراوحاً بينهم لا يفعل شيئاً إلاّ ان يضحك على الآلاف من الرجال تحفر الأرض وتقلب التربة. بدون كلل أو ملل، ولم يعتم هؤلاء أن أدركهم الملل والسأم، وعادوا الى جادة الصواب وأتوا جنرالهم طالبين منه التقدم بهم حيث شاء، معترفين له بأنهم نالوا جزاء حمقهم هذا.

كان [دوميتيوس] خلال هذه الفترة قد تهيأ وأعد جيشه للقتال بمواجهة [پومپي]. وكان يوجد بين الجيشين مجرى ماء صعب العبور، كما هبت في اثناء ذلك عاصفة هو جاء ما طرة منذ الفجر، مما لم يترك احتمالاً كبيراً في وقوع اشتباك على ما بدا [لدومتيوس]، فما كان منه إلاّ أن ضمّ قواته، وأمرها بالانسحاب الى المعسكر. إلاّ أن [پومپي] الذي كان يقظاً منتبهاً يرصد كل حركة من العدو، انتفع بهذه الفرصة، وأمر بالزحف الى الامام، وعبر النهر السريع المجرى وانقض حالاً على معسكرات عدوه. فدبت الفوضى فيها ونجم اضطراب، وبا ءت اي محاولة في المقاومة بالفشل لأن صفوف العدو كانت متباعدة، ولم يتمّ التعاون بين وحداته وكانت الريح تصفع اوجههم بالمطر الغزير، ولم تكن حال الرومان وسط هذه العاصفة بأحسن من حال عدوهم فقد تعذر عليهم الممكن تميز أحدهم للآخر. حتى أن [پومپي] لم يعد مكشوفاً لرجاله وكاد هذا يكلفه حياته، فقد طلب أحد رجاله منه اعطاءه كلمة سرّ المعركة فتباطأ قليلاً في الجواب فكان بينه وبين الموت لحظة.

أصيب العدوّ بهزيمة شنعاء، وقتل منه خلق كثير وقيل انه لم ينج غير ثلاثة آلاف من أصل عشرين ألفاً. وحيا الجيش [پومپي] بلقب الامبراطور، ولكنه أبى ذلك منهم وردّه عليهم قائلاً: انه لا يستطيع قبوله مطلقاً ومعسكر العدو ما زال قائماً. فان شاؤا أن يجعلوه قمينا بهذا الشرف فعليهم أولاً أن يزيلوا . فما سمع الجنود بذلك حتى انقضوا على الاستحكامات والمعاقل بهجوم صاعق. وقاتل [پومپي] في هذه المعركة حاسر الرأس دون خوذة، ليكون ظاهراً بشخصه لرجاله، تفادياً لخطأ آخر قد يتكرر ويكلفه حياته. وتم الاستيلاء على المعسكر عنوةً. وكان بين الذين سقطوا في المعركة من العدو [دوميتيوس] بالذات.

بعد هذا الاندحار راحت مدن تلك البلاد تسقط تباعاً بيد [پومپي]، وكان بعضها يستسلم دون حرب، وبعضها يؤخذ بالقوة. ووقع في الأسر [إيارباس Iarbas] الملك، وهو حليف ونصير [الدوميتيوس]، وأعطيت مملكته [لهيمپسال Hiempsal]. ولم يسع [پومپي] أن يخلد الى الراحة في هذا الموضع. كما أنه كان يريد استغلال صعود نجمه وحسن حظّه واندفاع

جيشه، فدخل [نوميديا] وسار متوغلاً عدة أيام في قلب البلاد وأخضع كل بلد دخله فابتعث مجدداً في شعوب البرابرة هيبة روما وسلطانها الذي كادت تنطمس معالمه. ويؤثر عنه قوله بهذه المناسبة: «حتى وحوش افريقيا وضواريها لن تترك آمنة الاّ بعد أن تذوق طعم شجاعة الرومان وانتصارتهم. لذلك قضى بضعة ايام في صيد الأسود والفيلة وقيل انه تمكن بفترة من الزمن لا تزيد عن اربعين يوماً، من ايقاع الهزيمة التامة بالعدوّ واخضاع افريقيا وتوطيد أمور الممالك واستتباب عروش ملوكها في سائر تلك البلاد. وهو لم يتجاوز الرابعة والعشرين من العمر.

ولما عاد الى مدينة [اوتيكا] سُلّمت اليه رسائل واوامر من [سيللا] يطلب منه تسريح كل وحدات جيشه خلا فرقة واحدة. ثم ينتظر قدوم جنرال آخر يخلفه في الحكم. وقد آلمه ذلك كثيراً، إلاّ انه لم يفصح عن ألمه وابقاه سِراً في نفسه. ولكن الجيش استنكر الأمر بصورة علنية ولما أخذ [پومپي] يرجوهم العودة الى الوطن قبله. راحوا يكيلون الشتائم [لسيللاّ] وصرحوا على رؤوس الاشهاد بأنهم اتفقوا على ان يبقوا معه ولا يتركوه، وأنهم لا يرون من السلامة في شيء ان يثق بطاغية متحكم. حاول [پومپي] في باديء الأمر تهدئتهم وتسكين ثائرهم بلطيف الكلام فلم تجد محاولاته نفعاً فترك المنبر وعاد الى خيمته، والدموع تجول في عينه. فلحق به الجنود وامسكوا به واعادوه الى المنبر رغم انفه. ثم جلسوه على منصه الحكم وصرفوا القسم الأعظم من يومهم بالمناقشة وتبادل الرأي. هم يلحّ عليهم بوجوب التمسك بالنظام والطاعة ويحذرهم من أخطار العصيان. ولمّا أشتدوا في الحاحهم. وأصرّوا على موقفهم حلف أن يبخع نفسه اذا حاولوا ارغامه. وبهذه الوسيلة استطاع أوكاد، اقناع الجيش وتهدئته. على أن الانباء الأولية التي بلغت [سيللاّ] كانت تشير الى أنّ [پومپي] قد شقّ عليه عصا الطاعة وأعلن تمرده، فزاد قلقه وانفرد باحد اصدقائه قائلاً:

- هكذا إذن سيقدرّ عليّ أن أقاتل أطفالاً في شيخوختي!

مشيراً في الوقت نفسه الى [ماريوس] الذي كان قد أورثه كثيراً من الهمّ وانشغال البال، وهدّده بكيانه وهو بعد فتىً شاب مثل [پومپي]. لكن الانباء الصحيحة وصلته بعدئذ. ووجد المدينة كلها قد استعدت لاستقبال [پومپي] بكلّ مظاهر التقدير والحبّ. فقرّر هو أن يسبقهم جميعاً في التكريم فخرج في طليعتهم والتقى به وعانقه بكلّ حفاوة ورحب به مخاطباً اياه بلقب [ماگنوس] اي العظيم. وطلب من المستقبلين ان ينعتوه بهذا اللقب. ويقول آخرون أن هذا اللقب خلعه الجيش عليه بتصويت علنيّ حماسيّ في افريقيا. إلاّ انه لصق به رسمياً بمصادقة [سيللاّ] عليه. ومما هو مؤكد ان [پومپي] نفسه كان آخر من خطر بباله استخدام هذا

اللقب لنفسه. فلم يذيل رسائله واوامره باسم [پومپيوس ماگنوس] بعد مرور زمن طويل عليه، عندما أُرسل بمنصب [پروقنصل] لقتال [سرتوريوس] في اسپانيا. إلاّ أن شيوع استعماله بين الشعب كان السبب في ازالة عوامل الحسد والغيرة فيه. والمرء هنا، لا يسعهُ إلاّ ان يشعر بالاحترام للرومان القدماء والاعجاب بهم فهم لم يكتفوا بمكافأة الانتصارات وادارة الحروب بنجاح بمثل هذه الالقاب العالية. وانما كافأوا بها أصحاب المواهب والخدمات الجليلة من رجال الحكم المدنيين البارزين وثمّ شخصان منحهما الشعب لقب [ماگسيموس] أو الأعظم، أولهما [ڤاليريوس] الذي حقق الصلح والسلام ما بين الشيوخ والعامة. وثانيهما [فابيوس روللوس Fabius Rullus] الذي اخرج من مجلس الشيوخ، ابناء العبيد المحررين الذين ما قبلوا اعضاءً فيه الاّ لغناهم.

وطلب [پومپي] أن يمنح شرف الدخول في موكب نصر، فعارض [سيللاّ] في الأمر محتجاً بأن القانون لا يسمح بمنح هذا الشرف لغير القناصل والپريتورين. ولذلك فان [سكيپيو] الاب الذي اخضع القرطاجنيين في اسپانيا بعد معارك وحروب أشدّ عنفاً وأخطر أثراً. لم يتقدم بمثل هذا الطلب لأنه لم يتسنم منصب قنصل او پريتور. وقال لو أن [پومپي] الذي لم يكد يكمل نموّ لحيته، ولم يبلغ بعد السن القانونية التي تؤهله الى عضوية مجلس الشيوخ، سيدخل المدينة في موكب نصرٍ فان الألسنة الحسودة ستتطاول لتنال من سمعة حكمه هو، ومن شرف [پومپي] كذلك. واضاف يقول أيضاً [لپومپي] انه اذا بقي مصراً على طلبه، فمعنى ذلك انه يريد النيل من سلطته ويقصد اذلاله. فلم يتزحزح [پومپي] وتشبث بمطلبه وانثنى الى [سيللا] يذكره بأن أولئك الذين يعبدون الشمس الطالعة هم أكثر ممن يعبدون الشمس الغاربة، يريد بذلك ان سلطانه يتعاظم في حين ان سلطان [سيللاّ] آخذ في الأفول، ولم يلتقط سمع [سيللاّ] هذه العبارة مضبوطة. لكنه لحظ نوعاً من البهتة والبغتة ترتسم على أوجه ونظرات من كان قد سمعها. فسأله عمّا قاله. ولما نقلت له الجملة. صُعق من جرأة [پومپي]، وصاح مرتين:

- دعوه يدخل في موكب نصر، دعوه يدخل في موكب نصر.

وقيل أن [پومپي] عندما جوبه باستنكار واستهجان، أراد أن يزيد من حنق أولئك المنكرين المستهجنين. فرتب ان يكون موكب نصره مؤلفاً من عجلةٍ تجرها اربعة فيلة (اذ كان قد جاء بعددٍ منها. غنمها من ملوك افريقيا) ولكن لما كانت ابواب المدينة ضيقة، فقد اضطر الى العدول عن تدبيره، والاكتفاء بالخيول. ولما بدأ جنوده يثيرون الضجة ويعملون على عرقلة الموكب بسبب خيبتهم في نيل ما توقعوه من مكافآت. لم يكترث بهم، كشأنه في كل ما

سبق، وصارحهم القول بأن يفضل أن يضيع من يديه موكب النصر، على أن يخطب ودّهم يتملقهم، الأمر الذي حدا [بسرفيليوس Servilius] وهو شخصية بارزة، وممن كان في مقدمة المعارضين في موكب نصر [پومپي]، الى القول: «الآن ادركت بأن [پومپي] عظيم حقاً ومستحق موكب نصر.» وواضحٌ ايضاً أنه كان يسهل عليه الفوز بعضوية مجلس الشيوخ لو رشح نفسه، إلاّ أنه لم يطلب، بل كان كما يبدو يطمح الى مراتب الشرف غير العادية. اذ ليس ثم غرابة في أن يتخذ مقعداً في مجلس الشيوخ قبل ان يحين الأجل. ولكن دخوله في موكب نصر قبل ان يصل الى عضوية مجلس الشيوخ هو نهاية المجد في الحقيقة.

زد على هذا، أن الحظوة التي نالها عند الشعب ليست بالقليلة عندما تبوأ مكانه مرّة أخرى بين فرسان الرومان بعد موكب نصره، فقد سُرت بهذا كثيراً في حين تزايد سخط [سيللاّ] وكرهه حين كان يتابع الخطوات السريعة الى السؤدد والمجد التي بخطوها [پومپي] إلاّ انه كان يخجل من العمل على ايقافه واعتراض سبيله، لذلك ظلّ ساكتاً، لكن لمّا نجح [پومپي] في ايصال [ليپيدوس Lepidus] الى منصب القنصلية بالدعاية له واستخدام نفوذه عند الشعب لترويج قضية مرشحه هذا، خلافاً لرغبة [سيللاّ] فلم يسعه الاحتمال أكثر من هذا. وشاهده قادماً يتخطر في ابهاء الفورم ووراءه رتل طويل من الأشياع بادره قائلاً:

- الا أيها الفتى، اني أراك فرحاً بما حزته من النصر، إن ايصالك [ليپيدوس] الى القنصلية، وهو أحطّ البشر، أليس هو عملاً كريماً منك حين فضلته على [كاتولوس Catulus] خير الناس واجدرهم به في المدينة؟ وكل ذلك تمّ بفضل قوة تأثيرك على الجمهور. أما وقد حصل، فيحسن بك منذ الآن فصاعداً أن تكون يقظاً، وأن تأخذ الحذر لنفسك وتهتّم بمصالحك، فقد جعلت عدوك أقوى منك.

إلاّ أن ما كشف عن كره [سيللاّ] له بصورة تامة، هو وصيته الأخيرة. فقد منح كلّ من أختصّ به ووالاه نصيباً من أمواله، وعين بعضهم اوصياء على ابنه، إلاّ أنه تخطّى [پومپي] ولم يذكره بشيء. ومع هذا فقد تحمل [پومپي] الأمر برحابة صدرٍ، وتسامح حتى أنه حال دون رغبة [ليپيدوس] في حرمان جثمان [سيللا] من التكريم بدفنه في مقبرة العظماء [كامپوس ماريتوس Campus Martius] وتشييعه رسمياً. وابى الاّ أن يقام مأتم وطني رسمي بكل ما يتضمنه من مراسيم وتكريم.

ولم يمرّ طويل وقت على وفاة [سيللاّ] حتى تحققت نبوءته. اذ طالب [ليپيدوس] بكلّ ما كان لمنصبه من سلطات وصلاحيات. واصرّ على أن يكون خليفةً له. وفزع الى السلاح مرة أخرى في سبيل غايته، وجمّع من حوله كل ما تبقى من الفئات الخطرة القديمة التي افلتت من

بطش [سيللاً] وكان يزامله في منصب القنصلية [كاتولوس] الذي التفّ حوله الجانب الأكثر حصانة ولاسلم اتجاهاً من مجلس الشيوخ والعامة. فقد بؤاته حكمته وعدالته ارفع مكانة من الاحترام بين الرومان. وكانت مواهبه وكفاءاته في حقل السياسة والشؤون المدينة أكثر ظهوراً في الأمور العسكرية، وحيث كانت الحاجة تتطلب مواهب [پومپي] العسكرية، لم يتردد طويلاً بين الفريقين، وانضّم الى فريق الاشراف بزعامة [كاتولوس] فعين فوراً جنرالاً للجيش، وأمر بقتال [ليپيدوس] وكان هذا قد دوّخ جزءً كبيراً من ايطاليا وسيطر على بلاد الغال جنوب الألب بفضل جيش كان تحت أمرة [بروتوس]. لكن [پومپي] تمكن من اخضاع كل حامياته بسهولة اثناء زحفه. إلاّ مدينة [موتينا Mutina] الغاليّة، فقد استعصت عليه في الحصار الذي ضربه حولها، وأضطر الى البقاء هناك وقتاً طويلاً بمواجهة [بروتوس]. فأنتهز [ليپيدوس] الفرصة وزحف بجموع غفيرة على روما بأقصى سرعة، فبلغها وعسكر امامها وملأ قلوب سكانها رُعباً. إلاّ أن قلق السكان سرعان ما تلاشى بوصول رسائل من [پومپي]. يبشرهم فيها بأنه انهى الحرب بدون قتال وانه سيعود. وحثهم على الوقوف بوجه مطلب [ليپيدوس] في منصب القنصلية. وكان [بروتوس] إمّا قد خان جيشه، وامّا أن جيشه تمرد عليه وخذله، فآثر الاستسلام [لپومپي]. فأمر أن يؤخذ بحراسة كوكبة من الخيالة الى بلدة صغيرة تقع على نهر [الپو Po] حيث نفد [جيمينيوس Geminius] أمر [پومپي] فيه وقتله في اليوم التالي لوصوله. وقد آوخذ [پومپي] على فعلته هذه، لأنه كتب الى مجلس الشيوخ في المبدأ بأن [برتوس] استسلم له طائعاً مختاراً. وبعد ان فتك به بعث برسائل أخرى تتضمن اتهامات له. والشيء بالشيء يذكر أن [بروتوس] هذا هو والد [بروتوس] الذي قتل [قيصر] بالتعاون مع [كاسيوس] ولم يبرز [بروتوس] الابن في الحياة العامة وفي الحرب، ولم يشتهر حتى في موته مثله في ذلك مثل [ابيه].

بعد أن تمّ طرد [ليپيدوس] من ايطاليا، هرب الى جزيرة [سردينيا] حيث أعتلت صحته ومات كمداً، لا لنكد حظه في حياته العامة، بل بسبب أكتشافه رسالة اثبتت له أن زوجه لم تكن مخلصةً له.

ولم يبق في الميدان غير [سرتوريوس] يحتل اسپانيا برمتها ويهددّ روما بما وصل اليه من منعة وجبروت. وكان يختلف أختلافاً بيناً عن [ليپيدوس]. ولهذا نظر اليه وكأنه المرض الأخير الذي تجمعن كل شرور الحروب الأهلية المبعثرة. لقد وُفق [پومپي] حتى ذلك الحين الى القضاء على القادة الصغار برمتهم. و[سرتوريوس] الآن يناجز الجنرال [ميتللوس پيوس] وهو جندي محنك كفوء ورجل طائر الصيت. وان كان يبدو وقتئذ بطيئاً في نيل الانتصارات

واستعادة المجد القديم الأسعد عن طريق الحرب بسبب تقدمه في السنّ. وكان [سرتوريوس] يمتاز عليه بالسرعة، وهي الميزة التي تمكنه من انتزاع حظوظ الحرب ببراعته في الكرّ والفرّ والتحليق والانقضاض المباغت على غير انتظار، مثل رئيس عصابة قطاع طرق لا كقائد جيش. فتراه ابداً يقلق راحة الجنرال الشيخ بنصب الكمائن له، والتعرض له بمناوشات خفيفة لا يدري كيف يتفاداها لاعتياده الحرب النظامية، وقتال الصفوف المتراصة. في معركة اصولية بجنود كاملي العدّة والسلاح. وكان [پومپي] الذي أبقى جيشه في حالة التهيؤ والاستعداد، متوقعاً أن يُطلب منه نجدة [ميتللوس] ولم يعمل بأمر [كاتالوس] الذي اراد فيه تسريحه. وتوسل [پومپي] بمختلف التعلات والحيل لابقائه بسلاحه، قريباً من المدينة. الى أن ازف الوقت الذي وجد فيه مجلس الشيوخ ان الضرورة تقضي بارساله الى اسپانيا بناء على اقتراح تقدم به [لوشيوس فيليپوس]. وقيل ان أحد اعضاء المجلس نهض للرد على اقتراح [لوشيوس] معبراً عن استغرابه بتساؤله عما اذا كان قصد [فيليپوس] طلب ارسال [پومپي] الى اسپانيا بمنصب [پروقنصل]؟ فأجابه [فيليپوس] كلاً بل بمنصب عدة پروقناصل. حتى لكأن القنصلين الحاكمين في تلك السنة لا فائدة ترجى منهما في رأيه!

ولما وصل [پومپي] اسپانيا، ارتفعت معنويات الجنود وامتلأت صدورهم آمالاً كما هي العادة عند مجيء كل قائد جديد شهير وبدأت تلك الشعوب التي لم يكن تحالفها وثيقاً مع [سرتوريوس]، بالتملص والتمرد عليه. وقام [سرتوريوس] بحملة خطابية ضدّ [پومپي] حفلت بالسخرية منه وبالغرور والتيه، كأن قال مستهزأً انه لا يحتاج لتأديب هذا الصبي الى أكثر من مقرعة وكرباج لو لم يكن يخشى تلك المرأة العجوز - يقصد [ميتيللوس]. على انه في الواقع كان يخشى جانب [پومپي] ويحذر منه، كما بدا من سلوكه في تلك الحرب. اذ لوحظ في هذا الصدد أنه ازداد حذراً وحيطة اضعاف ما كان قبل مجيء [سرتوريوس]. مما لا مشاحة فيه أن [ميتيللوس] قد افرط في الترف والعيش الرغد حتى لم يبق زيادة لمستزيد، فاستسلم للهّو واللذائذ وأنقلب فجأة من رجل معتدل الرغبات مقّل في الشهوات، الى انسان ناعم ولوع بالابهة، لا يشبع من اطايب الحياة. وكان [پومپي] بعكسه تماماً فقد بدأ مثالاً للتقشف والعزوف عن اللهو وكانت الفضيلة طبعاً فيه، لذلك لا يتطلب ممارستها منه جهداً كبيراً وتمريناً لأنه يميل الى الاعتدال ويجانب التطرف في متعه، وهذا الاختلاف الكبير بين الرجلين، هو الذي بنى سمعة [پومپي] وأكسبه الثقة العظمى. وكانت مطالع الوقعات الحربية متراوحة بين الجانبين مرةً لهذا ومرةً لذاك. ولم يتأثر [پومپي] قدر ما تأثر من استيلاء [سرتوريوس] على مدينة [لاورون] فقد ظنّ انه طوق خصمه تماماً تطويقاً محكماً وأخذ يفخر

علنا وجهراً بنوع ما، قائلاً أنه القى الحصار فاذا به يجد نفسه فجأةً وعلى غير انتظار مطوقاً من كل جهة لا يجرؤ على الحركة خطوةً واحدةً خارج معسكره وهكذا اضطر الى البقاء فيه قعيداً. بينما اتمّ [سرتوريوس] الاستيلاء على المدينة واحرقها أمام سمعه وبصره. إلاّ أنه تمكن فيما بعد، من الحاق هزيمة نكراء بكل من [پرپينا] و[هريّنيوس Herennius] وهما قائدان كانا من أولئك اللاجئين الذين هربوا من ايطاليا وانضموا الى [سرتوريوس]، وقد اصبحا مساعدين له وقد قتل في هذه المعركة التي جرت بالقرب من [ڤالنتيا Valentia] عشرة آلاف من جيش [سرتوريوس].

بعد أن ارتفعت معنويات [پومپي] بهذه النتيجة، وأمتلأ ثقة بالنصر، سارع بأقصى ما أمكنه للاشتباك مع [سرتوريوس] بالذات حتى لا يتدخل [ميتللوس) في المعركة وينال نصيباً من شرف النصر. وفي ساعةٍ متأخرةٍ من النهار، وعند مغرب الشمس. التحما في القتال بالقرب من نهر [سوكرو] وكلاهما يخشى قدوم [ميتيللوس]. فپومپي يريد أن يكون منفرداً في القتال وسرتوريوس، لا يرغب في مواجهة جيشين. ولم تكن النتيجة حاسمة. فقد تغلب جناح كل جيش على الجناح الذين يواجهه من الجيش الآخر. غير أن [سرتوريوس] كان له شرف التبريز على خصمه في القيادة، اذ انه صمد في مواضعه وهزم فرقةً كاملةً كانت تهاجمه، في حين ان پومپي كاد يقع هو نفسه أسيراً، اذ انه تعرض لهجمة مقاتل شديد اليأس كان يقاتله راجلاً، (كان پومپي راكباً) وفيما كانا مشتبكين بقتال فرديّ أخذت ضربات سيفيهما تقع على اليدين دون ان ينال واحدهما من الآخر. فقد أصيب [پومپي] بجرح طفيف في يده لا غير في حين انه قطع يد خصمه ومهما يكن من امرٍ فالذي حصل، هو أن الكثير من الرجال بدأوا يسقطون من حوله. وأصيبت قواته في هذا الوضع بالهزيمة، غير أنه تمكن من النجاة بصورة غير متوقعة بأن تخلى عن حصانه ودفع به الى صفوف الاعداء. ولما كانت عُدة الحصان ذهبيّة، وعليه سرجٌ في غاية النفاسة. فقد راح الجنود يتنازعون فيما بينهم عليه. وبينما كانوا منشغلين في توزيع الغنيمة الثمينة، أفلت من قبضتهم.

وفي اولى ساعات الفجر التالي. أخرج كل منهما جيشه ووضعه في خط المعركة. مدعياً النصر لنفسه. الاّ أن [ميتيللوس] ظهر على رأس جيشه. فما لبث [سرتوريوس] أن تلاشى كان الأرض ابتلعته فقد فرق وحدات جيشه وانسحب بغاية السرعة. اذ كانت هذه ستراتيجية وطريقته في تحشيد جيوشه ثم تسريحها. فيُرى مرة متجولاً هنا وهناك وحيداً ليس معه تابع، ويرى مرة أخرى يزحف الى المعركة ويزجّ في ساحتها ما لايقل عن مائة وخمسين الف محارب، وما هي غمضة عين حتى يختفى كما يختفي مسيل ماءٍ في الشتاء.

وسار [پومپي] بعد المعركة للقاء [ميتيللوس] والترحيب به. ولما دنا أحدهما من الآخر، أمر [پومپي] حرسه الخاص بخفض فؤوسهم تكريماً [لميتيللوس] بوصفه رئيسه وأقدم منه. إلاّ ان [ميتيللوس] ابى ذلك. وابدى لپومپي كل لطف، وكان سلوكه بصورة عامة نحوه، في غاية من الرقة والمجاملة. ولم يطلب لنفسه امتيازاً واحتراماً بسبب منصبه القنصليّ أو لكونه القائد الأقدم، إلاّ شيئاً واحداً. وهو أن كلمة السرّ يجب أن تخرج منه للمعسكرين عندما يضرب كل منهما معسكره. وقد فعلا ذلك وضرب كل منهما خيامه على حدة بسبب تهديد العدوّ الذي كان يتخذ في تحركاته كل شكلٍ متصور. ولا يستقر في مكان فهو دائب الحركة يبدو في امكنة مختلفة في آن واحدٍ تقريباً ويعمد الى الحيل البارعة والمناورات بحيث منعهما عن السلب واجتياح البلاد، وحقق سيطرته التامة على البحار. وتمكن من طردهم خارج كل الاقاليم الاسپانية الداخلة ضمن نفوذه وسلطانه، وارغمهما بسبب شحّ الارزاق الضرورية على الانسحاب الى مناطق غريبة عنهما.

بعد ان استخدم [پومپي] الجزء الأكبر من وارداته الخاصة وانفقها على الحرب. ارسل الى مجلس الشيوخ يطلب اموالاً ويزيد قائلاً أنه سيضطر الى سحب كل جيشه من اسپانيا والعودة به الى ايطاليا في حالة عدم تحقيق طلبه. وكان [لوكوللوس] في ذلك الحين قنصلاً وهو على خلافٍ مع [پومپي]، إلاّ أنه سارع بتأمين وصول الارزاق اليه. لأنه كان هو نفسه مرشحاً لتولي القيادة في الشرق بمواجهة [ميثريداتس] وكان يخشى ان يتذرع [پومپي] بحجة نضوب ارزاقه للعودة الى روما، والمطالبة بالقيادة الشرقية التي كان كثير الرغبة فيها، ولطالما اعرب عن رأيه في ترك [سرتوريوس] وشأنه وشن الحرب على [ميثريداتس] وهي حرب تشير كل البوادر الى انها أعلى شرفاً واقل خطراً. وفي اثناء ذلك أغتيل [سرتوريوس] بمؤامرة دبرها بعض اتباعه المقربين. وتسلّم [پرپينا] زعيمهم، القيادة العامة وحاول مواصلة الحركات العسكرية التي بدأها [سرتوريوس] وكان تحت تصرفه عين القوات وعين الوسائل الاّ أنه كان يفتقر الى براعته وحنكته. ولذلك زحف [پومپي] نحوه مباشرة وكان هذا يعاني اضطراباً في أموره ويخبط خبط عشواء. فوضع له طعماً لاستدراجه، بان أرسل قطعة من الجيش تتألف من عشر كتائب الى ارضٍ سهلةٍ وأمرهم بأن يتقدموا ويتأخروا ويعرضوا أنفسهم لأعين العدو، ويكشفوا عن ضعفهم، وهكذا ابتلع [پرپينا] الطعم، وما أن تحول نحو هذه الفريسة وجدّ في مطاردتها حتى لاح له [پومپي] فجأة، بكلّ قواته وأشتبك معه في معركة عقد له فيها لواء نصر حاسم. وقتل معظم ضباط [پرپينا] في ساحة المعركة ووقع هو في الاسر، فجيء به الى [پومپي] فأمر به فقتل في الحال. و[پومپي] لا يوأخذ على هذا بالجحود

كما لايمكن أن يقع مرة ثانية في غفلة. اذ سبق أن جرى له ذلك في صقلية وتعرض للاتهام من قبل بعض الفئات. على انه كان يهتدي في الحقيقة بسياسةٍ حصيفة، وكان يعمل وفق رأي مدروس يستهدف سلامة بلاده. [فيرپينا] الذي كان يحتفظ بكل اوراق [سرتوريوس] عرض ان يدفع الى [پومپي] بعدد من رسائل أعاظم رجال روما، ممن كانوا قد كتبوا الى [سرتوريوس] يدعونه الى ايطاليا لرغبتهم في أحداث تغيير وانقلاب في الحكم. لئلا يكون انفضاح هذه الرسائل سبباً في نشوب حروب أشدّ ضراوة من تلك التي خُتمت الآن. وجد من الأفضل أن يقتل [پرپينا] ويحرق الرسائل دون أن يقرأها فيدفن السرّ معه.

وبقي [پومپي] في اسپانيا بعد انتهاء الحرب، الوقت الذي كان ضرورياً لازالة آثار الفوضى والاضطراب في الاقليم وتوطيد الحكومة على أساس من الاستقرار والطمأنينة واخماد الفتن العنيفة والقلاقل. قفل راجعاً الى ايطاليا بكلّ جيشه. وشاءت الصدف ان يصلها وقت كانت البلاد في أوج القلق من حروب العبيد التي بلغت ذروتها. وبوصوله قرر [كراسوس] القائد الذي كان يدير تلك الحرب أن يطوّح بنفسه في معركة محفوفة بالمخاطر غامضة النتائج. وامكنه أن يحرز نجاحاً عظيماً وفتك بأثني عشر ألفاً وثلاثمائة متمرد في ساحة القتال. إلاّ أنه لم يكن على قدر كبير من السرعة للاستئثار بكلّ الشرف. فان الحظ أدخّر [لپومپي] نصيباً من شرف النصر في هذه الحروب فقد وقع في يده الخمسة آلاف منهم الذين نجوا في المعركة، فأبادهم عن بكرة أبيهم. وسارع يكتب الى مجلس الشيوخ قائلاً: «ان [كراسسّوس] هزم العبيد في المعركة، أمّا هو فقد استأصل حرب العبيد من جذورها». وقد رحبت روما بهذه المقولة. وكان من المحبب ان تسمع ومن المحبب أن تقال. والمسألة كلها كانت متوقعة من الحبّ الذي يكنّه الشعب له والنظرة التقديرية التي ينظره بها. على انه ما كان أحد يستطيع أن يعزو شرف الغلبة في الحرب الاسپانية الى اي احدٍ آخر غيره ولو على سبيل المزاح. ومع هذا كله، فهذا التقدير الكبير وتلك الرغبة الشديدة في عودته الى الوطن، كانت مشوبةً ببعض القلق والشك منه لأنه لم يقم بتسريح جيشه ولأن ذلك قد يحمله الى سلوك سبيله نحو السلطة العليا والكرسي الذي كان يحتله [سيللا] بالقوة، وعن طريق السلاح. لذلك فان العدد الذي خرج الى ظاهر المدينة لاستقباله وتهنئته على العودة بدافع الحبّ الخالص له، كان مساوياً للعدد الذي خرج لاستقباله بدافع الخوف والرهبة. لكن [پومپي] ازال أسباب القلق والشك باعلانه فور وصوله، بأنه لن يبقي على الجيش وسيسرّحه بعد دخوله في موكب نصر. ولم يبق لأولئك الذين يبغضونه ويحسدونه من أسباب شكوى بعد هذا، سوى قولهم أنه يرمي من وراء ذلك الى كسب الحظوة والشعبية لدى الجماهير والنزول الى رغائب العامة أكثر

من كسبه جانب الاشراف. وانه اعاد أحياء مناصب تريبيونات الشعب، التي الغاها [سيللا] متوخياً رضا العامة عليه. وهذا هو الواقع فعلاً، فلم يكن ثم شيء أحبّ الى أهالي روما وأرغب أكثر من أعادة هذا المنصب وقد عدّ [پومپي] نفسه محظوظاً للغاية لوجود هذه الفرصة للتقرب به من العامة، بعد ان ادركته الحيرة واليأس من الوصول الى وسيلة كفيلة بالتعبير عن امتنانه لما حباه به الشعب والخيبة لئلا يسبقه أحد آخر الى هذه المكرمة.

ومع منحه موكب نصرٍ ثانٍ وانتخابه قنصلاً. وما الى ذلك من الدلائل على سلطته ومجده، فليس بين هذه الدلائل ما بلغ شاؤ دليل آخر، وهو تقدّمه على [كراسوس] نفسه الذي كان أغنى من كل رجال الحكم في عهده، بل أعظمهم مقاماً وافصحهم لساناً واقواهم عارضة، قليل الاحتفال [بپومپي] نفسه، وبكلّ الرجال البارزين الأدنى منه. هذا الرجل لم يتجاسر على الظهور مرشحاً لمنصب القنصل قبل مفاتحة [پومپي] ومشاورته في الأمر، ولم يسع [پومپي] إلاّ ان يهتبل الفرصة والترحيب بالطلب لأنه كان يصبو منذ أمدٍ بعيد أن يَمنّ على [كراسوس] بفضل، وبمسعى من مساعي الصداقة. وأخذ يعمل لترويج ترشيح [كراسوس] ويحث الشعب على انتخابه بجمية واخلاص قائلاً للناخبين أن فضلهم عليه اذا انتخبوا [كراسوس] زميلاً له لن يقلّ باية حال عن فضلهم عليه عندما أختاروه هو نفسه قنصلاً. وهكذا أصبحا قنصلين، إلا انهما كانا دائماً على طرفي نقيض يعارض أحدهما الآخر بعد كل ما جرى من تعاون اثناء الترشيح. وكانت [لكراسوس] اليد الطولي والأمر النافذ في مجلس الشيوخ. في حين ان سلطان [پومپي] لم يكن بأقل منه عند العامة. لأنه هو الذي أعاد اليهم منصب [التريبيون] وسمح باعادة جهاز القضاء المدني الى ايدي الفرسان الرومان كما كان بيدهم في السابق، بسنّه قانوناً جديداً، ثم اتحفهم هو نفسه بمشهدٍ من أعظم المشاهد تعبيراً عن الامتنان حين ظهر علناً أمام الحكام ملتمساً الأمر بتسريحه من الخدمة العسكرية اذ ان هناك عادة قديمة عند الرومان وهي أنه عندما يكمل الفرسان الرومان المدة المقررة للخدمة العسكرية ينبغي لهم أن يقودوا خيولهم الى الساحة العامة، امام موظفين عموميين كل منهما برتبة [سنصور]. ويقدموا لهما تقريراً باسماء القادة والجنرالات الذين خدموا تحت أمرتهم. واسماء البلدان التي خدموا فيها، والمعارك التي خاضوها. ثم يتم تسريح كل شخص إمّا تسريحاً مشرفاً وإمّا تسريحاً مشيناً حسبما تستأهل خدمته وكان كل من السنصور [جيليوس Geli-us] والنسطور [لونتولوس Luntulus] يتصدران مجلس الحكم يفحصان قضايا الفرسان الذين كانوا يمرون في صفٍ متتابع امامهما حين شوهد [پومپي] يقبل الى الفورم وعليه كل شارات القنصل ورتبه، إلاّ انه كان يقود حصانه بيده. وعندما بلغ منصة الحكم طلب من حرسه

[الليكتور] أن يتنحى عن الطريق، ثم قاد حصانه اليهما وكان الجمهور طوال ذلك المشهد مصاباً بذهولٍ تام. يسوده صمت مطبق. وكذلك كان السنصوران أيضاً، ينظران الى المشهد بمزيج من الاجلال والامتنان. وبدأ السنصور الأقدم باستجواب پومپي قائلاً:

- پومپيوس ماگنوس! أطلب أن تجيبني عما اذا كنت قد اكملت مدة الخدمة العسكرية في ميادين الحرب، بحسب ما يفرضه عليك القانون.

فأجاب [پومپي] بصوت مرتفع:

- أجل أكملتها وقد خدمتها كلها تحت بوصفي جنرالاً.

وما أن سمع الجمهور جوابه حتى أطلق صيحة عظيمة، وأخذت هتافات السرور يتصاعد داوية حتى أصبح من المتعذر اسكاتها ونهض [السنصوران] من مجلس الحكم ورافقاه الى منزله ارضاءً للجماهير الذين تبعوهم، وهم يصفقون ويهتفون.

وشارفت مدة [پومپي] في القنصلية على الانتهاء الاّ أن خلافاته مع [كراسوس] كانت في ازدياد. واذ ذاك قام المدعو [كايوس اوريليوس] وهو فارس ظلّ معتزلاً عزوفاً عن السياسة والحكم طوال حياته وأعتلى المنبر وتوجه بالخطاب الى المجتمعين قائلاً: ان [جوپتر] قد ظهر له في الحلم وأمره أن يطلب من القنصلين بأن لا يخليا منصبيهما إلاّ بعد ان يتصافيا. وعلى اثر قوله هذا، لم يبدر شيء من [پومپي] وظلّ صامتاً، الاّ ان [كراسوس] قبض على يد پومپي وتكلم بالآتي:

- ما اراني أيها الأخوة المواطنون، سأفعل شيئاً دنيئاً أو سأقدم على عملٍ لا يشرفني، ان كنت البادئ في المصالحة مع [پومپي] الذي كان من دواعي سروركم أن تشرفوه بلقب «الأعظم» ولم تكد تنبت شعرة واحدة في وجهه، ومنحتموه شرف موكبين من مواكب النصر قبل ان يحرز مقعداً في مجلس الشيوخ.

وبهذا تصالحا وتصافيا، ثم نزلا عن منصبيهما. وعاد [كراسوس] يواصل أسلوب الحياة الذي أعتاده من الأول. أمّا [پومپي فلأسباب تخرج عن حدود المناقشة عموماً، امسك عن الظهور الى جهة دون أخرى، وأخذ ينسحب شيئاً فشيئاً من الفورم وكان يحتجب تماماً عن البروز الى الجمهور، وان فعل ذلك في مناسبات نادرة فبرفقة بطانة كثيرة العدد تسير وراءه. كما لم يكن من السهل مقابلته أو زيارته بدون أن يرى محاطاً بالعديد من الناس. وكان يُسرّ كثيراً اذا ظهر أمام الجموع من الناس كتلةً واحدة، كانه يريد بهذه الوسيلة الابقاء على هيبته ومكانته أو كأنما يريد أن تظلّ نفسه حريصة في المحافظة على جلاله من أن تتماسّ مع

أحاديث العامة ومناقشاتهم. ولا شك في أن الحياة المكتسبة برداء السلم، لكفيلة بطمس شهرة المرء الذي بنى شهرته وعظمته بالسلاح. وهؤلاء عادة يجدون صعوبة كبيرة في تكييف انفسهم الى جوّ الحياة المدينة المشبع بالسلم والدعة والمساواة المدنية. انهم بطبيعة الحال يتوقعون أن يعاملوا في المدينة معاملة السادة الاوائل كما أعتادوا أن يُعاملوا في معسكراتهم. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فان أولئك الذين لم يبرزوا في الحرب ولم يكونوا فيها شيئاً مذكوراً، لايحتملون قط المنافسة في الحياة المدنية ويعملون جادين على أن يتولوا فيها زمام الأمور. ومهما يكن من أمرٍ، فعندما ينقلب المحارب ذو الانتصارات الرائعة والوقائع العظيمة الى رجل مدنيّ ويدخل الفورم لممارسة السياسة والقانون فان زملاءه المدنيين هناك سيحاولون بأقصى ما في طوقهم تجميده، حجبه عن الانظار. أمّا لو أنسحب من الحياة المدنية وتقاعد فلن يتعرضوا لشرفه العسكري ولن ينالوا من مقامه بحسدهم. وقد برهنت الأحداث على صحة هذا القول بعد زمن يسير.

بدأت شوكة القراصنة في [كيليكيا] أولاً بدايةً ضعيفة بحيث لم يشعر بها أحدٌ، إلاّ ان الروح والحياة والقوة لبثت أن سرت فيها اثناء حروب [ميثيريداتس] فقد أجروا أنفسهم له والتحقوا بخدمته. وقويت شوكتهم بحروب الرومان الأهلية. اذ انشغل هؤلاء بالتطاحن فيما بينهم حتى على أبواب روما نفسها، وتركت البحار دون حراسة فأخذ هؤلاء القراصنة يزحفون اليها ويسيطرون عليها دون يعترض سبيلهم أحد بالتدريج حتى دانت لهم. وراحوا يستولون على السفن ويقبضون على التجار ويسلبونهم في عرض البحر. وعادوا في جسارتهم فاغاروا على الجزر والموانيء والثغور فاغروا بمشاركتهم اناساً أشتهروا بالغنى والنبل والكفاءات العظيمة. حتى لكأن التبريز في هذه المهنة هو مما يليق ويجمل بالانسان السعي له. وانشأوا لأنفسهم عدداً كبيراً الاوكار والمستودعات، أو ما يسمى بموانيء القراصنة، الى ابراج مراقبة، وفنائر على طول السواحل، لاستقبال الاساطيل وتزويدها بأبرع البحارة، وأكثر الملاحين خبرة واطلاعاً. بناء اسرع السفن واخفها جرماً مما يصلح لأعمالهم. ولم يكن استحفال أمرهم وتعاظم خطرهم بأكثر اثارة للسخط والكراهية، من اغترارهم بقوتهم، فقد كانت خيلاؤهم ومباهاتهم أدعى لبعضهم من الخوف منهم، فقد أثبتوا في مقدمة سفنهم صواري مطلية بالذهب ورفعوا عليها قلوعاً من نسيج الارجوان وصفحوا مجاذيفها برقائق الفضة. حتى لكأن مصدر لذتهم ولهوهم هو التمادي في الظلم وارتكاب الآثام. وكان ديدنهم اقامة حفلات الغناء والرقص والولائم، والقصف على طول الساحل. وكانوا يأسرون القادة، ويفرضون الأتاوات على المدن، فيلحقون بشرف السيادة الرومانية العار، ويمرغون سمعتها في التراب. وقُدّر ما

يملك هؤلاء القراصنته من السفن بألف، كما بلغ عدد ما سيطروا عليه من المدن اربعمائة تقريباً. ولطالما ارتكبوا فيها المحرمات، ودنسوا معابد الآلهة، وأثروا من كنوزها، وأكثرها مما لم يجرؤ أحدٌ على تدنيسها من قبل كما فعلوا في معابد [كلاروس Glaros]، و[ديديما Did-yma]، و[ساموثراقيا Samothrace]، ومعبد [الأرض] في [هرميون Hermione]، ومعبد [ايسكولابيوس Aesculapius] في [ابيداورس Epidaurus] ومعابد [نبتون] في [المضايق Isthmus] وفي [تيناروس Tænarus] وفي [كالاوريا Calauria] ومعابد [ابوللو] في [اكستيوم Actium] و[ليوكاس Leucas] ومعابد [جونو] في [ساموس] و[ارغوس] و[لاچينيوم Lacinium]. وكانوا هم أنفسهم يقربون قرابين غريبة في [اوليمپس]، ويؤدون طقوساً غامضة معينة أو مراسيم دينية سريّة، مما لايزال اصحاب دين [ميثرا Mithras] يتبعونه الى يومنا هذا، وقد أخذوه عنهم بدون شك.

والى جانب هذا الجبروت والطغيان الذي مارسوه في البحار، كانوا لا يتورعون عن تحقير الرومان واذلالهم في البرّ. فقد يتوغلون داخل البلاد ويهددون الطرق العامة، فينهبون الرومان ويدمرون بيوتهم الريفية. ومرّة القوا القبض على الپريتورين الرومانيين [سكستيليوس Sex-tilius] و[بللينوس Bellinus] وكلاهما متوشح بالرداء الأرجواني واخذوهما مع ضباطهما وليكتورهما كما خطفوا أيضاً بنت [انطونيوس] الذي منح شرف موكب نصر، اثناء خروجها في رحلة الى الريف، ولم يطلق سراحها إلاّ بفدية كبيرة. وأعظم اهانة أعتادوا أن يوجهوها الى الرومان عندما يعلن الأسير بأنه مواطن روماني، فينظاهرون بالوهشة الكاذبة ويفتعلون الخوف والرهبة ويضربون ايديهم على أفخاذهم، يركعون تحت قدمي الأسير متوسلين بكل ذلة وخضوع ان يتكرم بالصفح عنهم.

وما ان يرى هؤلاء الأسرى المساكين هذا التذلّل والخضوع المزيف حتى يتوهموا بأنه حقيقي، ويشرع بعضهم بوضع حذاء روماني في قدم الأسير، ويكسوه رداءً رومانياً، حتى لا يخطئوا في هويته! كما يزعمون له. وبعد كل هذه الأبهة الزائفة، وعندما يستوفون حظهم من السخرية به والتمويه عليه، ينزلون سلماً من سفينتهم وهي في عرض البحر ثم يقولون للأسير: انه الآن مطلق السراح وله أن يذهب حيثما شاء ويتمنون له سفرة سعيدة. فاذا قاومهم أمسكوا به وقذفوا به قسراً الى امواج البحر فيغرق. وهكذا اتسعت سلطة القراصنة فشملت كل البحر الابيض المتوسط ولم يعد ثم مجال للملاحة والتجارة. وهذا مما الجأ الرومان كافة الى ارسال [پومپي] في مهمة تطهير البحار منهم وإعادة سلطتهم عليها بعد أن ضاقت بهم الحال وبارت تجارتهم وكسدت اسواقهم، وأصبحوا على شفا المجاعة والقحط كافةً. وأقترح [گابينيوس

Gabinius] وهو من اصدقاء [پومپي] سن قانون يخول به السلطان المطلق على البحار كأمي رالاسطول، والحاكم المطلق المتفرد على الناس جميعاً بعبارة صريحة ونص واضح المدلول حيث جاء فيه أنه يعطى الحكم المطلق على كل البحار التي هي ضمن أعمدة هرقل. (جبل طارق) وكل الاراضي التي تقع على سواحلها الى عمق اربعمائة فرلنغ الى الداخل. وبذلك لا يعود في الامبراطورية الرومانية، ما هو خارج عن دائرة حكم [پومپي] الاّ القليل. في حين كانت أعظم الممالك وأشهر الملوك ضمن تلك الحدود وخول بموجب هذا القانون حق اختيار خمسة عشر مساعداً من أعضاء مجلس الشيوخ وان يسند الى كل منهم الحكم في الاقليم الذي يخصصّه له. كما خوّل أن يسحب من الخزانة العامة ويجبى من الأراضي الزراعية الخاضعة للضريبة اي مبلغ يشاء. وأعطي مائتا سفينة حربية، مع صلاحية تجنيد واستخدام ايّ عدد من الجنود والبحارة يراه مناسباً ولما قرئت هذه اللائحة ايدها العامة تأييداً مطلقاً. إلا أن الاشراف والوجهاء وذوى المراكز في الدولة من أعضاء مجلس الشيوخ وجدوا في القانون صلاحيات واسعة خليقة باثارة مخاوفهم، لو غضضا الطرف عن شعور الحسد منها. وقرّ رأيهم على أن هذه السلطة التي لا حدود لها، خطرةٌ جداً. واتفقت كلمتهم جميعاً على معارضة اللائحة وصوتوا كلهم ضدّها، باستثناء قيصر الذي أقرّها وأعطى صوته للقانون المقترح لا لأجل ان يحسن في عين [پومپي] بل لأجل نيل الحظوة عند العامة الذين طالما خطب ودّهم في السرّ، مؤملاً أن يستأثر به لنفسه. ونددّ باقي الاعضاء [بپومپي] وهاجموه هجوم عنيفاً. حتى أن أحد القناصل وجه اليه الكلام قائلاً: إن كنت تطمع الى مركز روملوس، فإنك لملاق مصيره على أغلب الاحتمال.» فهم به الشعب وكاد يمزقه ارباً لأقواله هذه. إلا أن الجمهور سكت واصغى احتراماً عندما نهض [كاتولوس] للكلام ضدّ اللائحة. وبعد أن افاض في مدح [پومپي] مستخدماً انبل عبارة والطفها، راح ينصح العامة نصحاً لطيفاً بأن تعفي [پومپي] عن هذه المهمة، وان لا يعرضوا رجلاً في مثل كفاءته للاخطار والحروب وختم كلامه قائلاً: «فمن اين ستأتون عندئذ [بپومپي] آخر، ومن سيكون في عونكم اذا خسرتموه؟» فصرخوا جميعاً بصوت واحدٍ «أنت!» فكفّ [كاتولوس] عن الكلام عندما وجد كلامه لايجدي نفعاً. وحاول [روسكيوس Roscius] الكلام الاّ أن الضجة أكتنفته ولم يلق لكلامه اذناً صاغية، فأخذ يعمل باصابعه حركات في الهواء تفيد عبارة «ليس هو وحده» وأنمّا قد يوجد هناك پومپي ثان، أو زميل آخر له يشاركه السلطة، ويقال أن الجمهور أطلق صيحة عظيمة عند هذا، بحيث أن غراباً كان يطير فوق الساحة العامة هوى في الحال بين الجموع كأنما أصيب بصاعقة ومن هنا يبدو ان سبب سقوط الطيور اثناء تحليقها، ليس مبعثه انشقاق، أو صدع

في الهواء يحدث فراغاً، بل هو صدمة ذبذبات الصوت اذا خرج بعنف ومن جماعة كبيرة، فانه يحدث نوعاً من العصف والهزيم يرتفع في طبقات الهواء العليا.

وانفض الاجتماع في ذلك اليوم دون ان يسفر عن نتيجة وعندما ازف يوم الاقتراع على القانون ترك [پومپي] روما خلسةً الى الريف. وبسماعه أن اللائحة صدقت وفازت قفل عائداً الى المدينة تجنباً للغيرة التي يثيرها تجمهر الناس لاستقباله مهنئين. وفي صبيحة اليوم التالي لقدومه، خرج وقدم القرابين للآلهة، وحفر اجتماعاً. وهنا عالج المسألة ببراعة وحنكة، حتى حملهم على توسيع سلطته باضافة الكثير على ما خولوه من قبل. فضاعفوا تقريباً مقدار التجهيزات والمعدات المقررة له، وبذلك تمّ امداده بخمسمائة سفينة وأبلغ الجيش الى مائة وعشرين ألفاً من الرّجالة وخمسة آلاف من الخيالة. وأبلغ عدد مساعديه العسكريين الى اربعة وعشرين جنرالاً سابقاً من أعضاء مجلس الشيوخ الحاليين، وزيدوا [كويستورين] أثنين. وقد شاءت الصدف ان يطرأ انخفاض كبير الى اسعار الحاجات الضرورية. مما جعل الجمهور المستبشر يقول أن مجرد اسم [پومپي] كفل وضع نهاية للحرب. ومهما يكن من أمر فانه باشر فوراً بتنفيذ ما أوكل به فقسم البحار كلها ومناطق البحر المتوسط كافة الى ثلاثة عشر قسماً وخصص لكلّ قسم قوة من جيشه تحت قيادة واحد من ضباطه المساعدين وهكذا أنتشرت قطعاته في كلّ جزء وأكمل تطويق القراصنة في كلّ موضع وبدأوا يقعون في ايديه أفواجاً وزرافات فيأتي بهم الى الموانيء. على أن بعضهم أفلت من قبضة في الوقت المناسب ونجا من مطاردته الشاملة، وقصدت جماعات منهم [كيليكيا] حيث أخفوا أنفسهم كما يخفي النحل نفسه في خلاياه. فأنطلق [پومپي] بشخصه نحوهم بافضل ستين بارجة عنده حال اتمامه تطهير وتمشيط كل البحار القريبة من روما والبحر التيراني [Tyrrhenian][1] والبحر الافريقي وكل مياه سردينيا وكورسكا وصقلية. كل هذا انجزه في اربعين يوماً، بفضل همته التي لا تعرف الكلل وبمثابرة مساعديه.

ولقي [پومپي] عراقيل في روما بسبب خبث نوايا القنصل [پيزو Piso] وسوء طويته. فقد عوق أعماله بحبس الارزاق عنه وتسريح بحارته. فلم يكن منه الا ان كرّ عائداً باسطوله، وارسى في [برنديزيوم] ثم نزل هو نفسه البرّ وتوجه الى روما باقرب الطرق البرية: توسكاني. وما أن انتشر نبأ قدومه بين الأهالي، حتى خرجوا بجموع غفيرة لاستقباله في الطريق، كأنهم لم يودّعوه قبل ايام قلائل وكان سبب ثورة فرحهم الرئيس، هو التحول المفاجيء غير المنتظر في أسعار المواد المعاشية، فقد باتت وفيرةً بصورة لا مثيل لها، وبهذا استهدف القنصل

(١) هو جزء من البحر الابيض المتوسط يقع بين ساحل ايطاليا الغربي وسردينيا وكورسيكا وصقلية [م].

[بيزو] الى خطر تنحيته من منصبه القنصلي وكان [گابينيوس] قد أعدّ لائحة قانونٍ لخلعه الاّ ان [پومپي] حال دون ذلك فبلغ بذلك من حسن التصرف وبعد النظر الغاية القصوى، كما كان ديدنه في معالجة مختلف الشؤون الأخرى. وبعد أن اطمأن الى كل شيء، وازال كل عقبة، قفل راجعاً الى [برنديزيوم] ومنها أقلع لمطاردة بقية القراصنة. ولم يشأ أن يمر بمدينة آثينا دون الوقوف فيها لتحية الآلهة مع ان كثيراً من الصعاب أكتنفته وارغمته وهو في عجلة من أمره أن يمرّ بالعديد من المدن ولا يرسي فيها. فنزل برّها وضحّى للآلهة ثم خطب في الجمهور المحتشد عند عودته الى المدينة. وقرأ على مدخلها كتابتين منقوشتين:

الأولى من الداخل وهذه هي: «أن تواضعك يزيد من ألوهتيك».

والثانية من الخارج وهي: «نستودعك الله نحن الذين رحبنا بمقدمك»

وعامل [پومپي] فريقاً من القراصنة معاملة رحيمة، وهم أولئك الذين ظلوا هائمين جماعاتٍ وشراذم في ارجاء البحار. فقد عرضوا ان يستسلموا له ويقبلوا بحكمه، فأستولى على سفنهم وقبض على اشخاصهم فقط ووقف عند هذا الحدّ ولم يتخذ بحقهم اجراءات قاسية أخرى. ما لبثت هذه المعاملة الرفيقة أن أغرت رفاقهم الآخرين الذين كانوا تحت طائلة تعقيب قواده، فأتوه طائعين مستسلمين مع زوجاتهم وأطفالهم ووضعوا أنفسهم في حماه، فلم يبخل عليهم بالعفو. وجعل بابه مفتوحاً لكلّ من يقبل اليه، ومتوخياً أكتشاف أولئك الذين هربوا من امامه وخرجوا عن دائرة يد عدالته مدركاً بانهم ما فعلوا ذلك إلاّ لأنّ جرائمهم مما لايمكن الاغضاء عنه. وانتقل الجزء الاعظم والأكثر خطراً منهم، بأهلهم وأموالهم وذويهم ممن لا يصلح للحرب الى قلاع وحصون منيعة ومعاقل عاصية قريبة من جبال طوروس. واما هم انفسهم فقد ملأوا سفنهم بالمقاتلين واقلعوا الى [قوراقيسيوم Coracesium] في [كليكيا] حيث تصدوا [لپومپي] وخاضوا معه معركة وهناك اصيبوا باندحارهم النهائي وانسحبوا الى البرّ حيث حوصروا، وضيق عليهم الخناق فلم يروا بُداً من طلب الخضوع والطاعة بواسطة رسل بعثوا بهم اليه. ووضعوا انفسهم تحت رحمته مع مدنهم وحصونهم وقلاعهم، تلك التي كانوا قد بذلوا أقصى جهودهم في تحكيمها بحيث صارت أمنع من عقاب الجوّ، واصعب اقتحاماً.

وبهذا انتهت الحرب وتلاشت كُلّ قوة للقراصنة في كلّ طرف من أطراف البحر خلال فترة ثلاثة أشهر فحسب تمكن فيها من أسر عدد عظيم من السفن بينهما تسعون بارجة حربية كل منها ذات قيدوم من النحاس الأصفر، ووقع في يده من أسرى الحرب ما لايقل عن عشرين ألفاً. وبخصوص معالجة أمر هؤلاء الأسرى، فانه لم يفكر قطّ بقتلهم وهي عقوبة رادعة خطيرة. إلاّ أنه عمد الى اجراءٍ آخر لا يقل أثراً ونجاعة أعني تشتيت شملهم في البلاد وخوفاً

من احتمال اعادة لم شعثهم ورجوع سلطتهم لكثرة عددهم ولخبرتهم في فنون القتال ولفقرهم فقد وازن قضيتهم على أساس ان الانسان لم يولد مخلوقاً متوحشاً غير مدني بطبعه، انمّا يجعل من نفسه ما هو منطور عليه، لا بممارسة أعمال الشر وهو من الجهة الأخرى حضري ويمكن نقله من حالة البداوة والخشونة الى حالة المدنيّة والرقة بتغيير مسكنه مثلاً أو مهنته أو طراز حياته. كالضواري التي خلقت وحشية، انها لتنقلب أليفةً مدجنة بالمعاملة الرقيقة وبتربيتها في البيوت. وعلى هذا الأساس واهتداءً بهذه الفكرة، قرر [پومپي] تطوير حياة هؤلاء بنقلها من البحر الى البرّ وافسح لهم المجال لتذوق حياة طاهرة نزيهة عن طريق العيش في المدن واستثمار الأرض بزراعتها. فأسكن طائفة منهم في مدن الكليكيين الصغيرة، نصف المأهولة وكان هؤلاء يرغبون في مساكنتهم للاستعانة بهم على توسيع تخومهم وأسكن قسماً آخر منهم في مدينة [الصوليين Solians] احتاجها [ديكران] ملك الأرمن مؤخراً، ثم عاد اليها سكانها. على ان معظم القراصنة استواطن [ديما Dyma] المدينة الآخائية وكانت نصف مأهولة. وتمّ تمليكهم مساحات شاسعة من الأرض الخصبة.

على أن هذه الأعمال والاجراءات لم تمرّ دون اثارة حسد واحقاد اعدائه؛ وكان الأسلوب الذي اتبعه حيال [ميتيللوس] قد وضعه موضع نقدٍ شديدٍ حتى من جانب ابرز اصدقائه وكان [ميتيللوس] هذا من أسرة زميل [پومپي] في اسبانيا ارسل الى جزيرة كريت بمنصب [پريتور] قبل دخول هذا الاقليم البحري ضمن [پومپي] وكانت [كريت] أنذاك وكر القراصنة الثاني بعد [كيليكا] وكان [ميتيللوس] قد حاصر جماعاتٍ ومنهم في معاقلهم وباشر باخضاعهم واستئصال شأفتهم. فبعث المحصورون من بينهم رُسلاً الى [پومپي] يعرضون الاستسلام والخضوع ويطلبون مقدمه الى الجزيرة، قائلين انها جزءٌ من منطقة نفوذه لوقوعها برمتها ضمن المسافة التي حددت لممارسة نشاطه. فما تسلّم عروضهم حتى بعث يطلب من [ميتيللوس] وقف الحرب. وبعث برسائل أخرى مماثلة الى المدن يطلب فيها أن لا تتصل [بميتيللوس] ولا تعترف بسلطانه. ثم ارسل [لوشيوس اوكتافيوس] أحد مساعديه وهو برتبة جنرال الى الجزيرة فدخل الاستحكامات المطوقةوأخذ يقاتل دفاعاً عن القراصنة. فجعل نفسه في موضع استنكار وبغض فضلاً عن صيرورته موضع سخرية، لأنه استخدم اسمه بمثابة حارسٍ وحام لوكر لصوصٍ لايعرفون ديناً ولا قانوناً. واتخذ من سمعته ونفوذه ستار حماية لهم، كلّ ذلك لشعوره بالغيرة والحسد من [ميتيللوس] ليس إلاّ. إن [آخيل] في رأي الأغلبية لم يتصرف تصرف الرجال وانمّا تصرف الصبيان المفتونين بالمجد لمّا منع باشارة منه، بقية الأغريق من توجيه ضرباتهم الى [هكتور Hector]:

«لئلا تقوم يدٌ أخرى غير يده بتوجيه الضربة. فيخسر هو شرف النصر الأوليّ».

وكذلك كانت الحال [بپومپي] فقد وصل الأمر به الى حَدّ حماية اعداء الأمم كافةً. لا لشيء الاّ ليحرم [پريتوراً] رومانياً شرف موكب نصرٍ بعد ما بذل من جهود وقاسى من متاعب. لكن عزيمة [ميتيللوس] لم تثبط وواصل الحرب ضدّ القراصنة واخرجهم من معاقلهم وانزل بهم العقاب، وطرد [اكتاڤيوس] طرداً مشيناً، فخرج مشيعاً باستنكار كل المعسكر.

وبوصول أنباء انتهاء حرب القراصنة، الى روما، وان [پومپي] لا عمل لديه وانه ينفق اوقاته في زيارات المدن قام [مانليوس] وهو مفوض [تريبيون] الشعب يقترح اصدار قانون يقضي بتسليم [پومپي] كل القوات التي هي تحت امرة [لوكولوس] وكل الاقاليم التي هي تحت حكمه مع [بيثينيا] التي كانت تحت قيادة [كلابريو Clabrio] وان يؤمر بشنّ الحرب فوراً على الملكين [ميثيريداتس] و[ديكران] والاحتفاظ في الوقت عينه بالقوات البحرية الموضوعة تحت تصرفه، وابقاء سيادته على البحار كالسابق. وكل هذا كان يعني بالفعل نصبه ملكاً مطلقاً على الامبراطورية الرومانية. إذ أن الأقاليم التي كانت خارجة عن نطاق حكمه بموجب القانون الأول مثل [فريجيا] و[لاقونيا] و[غلاطيا] و[كبادوكيا] و[كيليكيا]و[كلوخيس] العليا باتت كلها خاضعة له مع جميع القوات والوحدات العسكرية بأمرة [لوكولوس] التي حققت الغلبة على [ميثريداتس] و[ديكران]. ومع أن [لوكولوس] باستخلافه بشخص آخر قد حرم من امجاد الاعمال والمآثر التي قام بها لأجل أن يضيف هذا الشخص الى موكب نصره شرفاً له اخر لا لأجل ان يدفع مخاطر حرب، فان ذلك لم يكن موضع اهتمام الفئة الارستوقراطية وان صعب عليها الاقرار بالظلم وانكار فضل [لوكولوس] إلاّ أن الهمّ الأعظم الذي استولى عليهم هو خوفهم ان تتحول السلطة بيد [پومپي] الى طغيان صريح، فراح يحث بعضهم بعضاً ويشجعه سِراً لرص الصفوف وحشد القوى والوقوف موقف المعارض من هذا القانون. وأن لايقبلوا تجريدهم من حرياتهم وهم ساكتون. ولكن ما أن ازف يوم الاقتراع على القانون حتى زايلتهم الشجاعة خوفاً من الشعب وسكتوا جميعاً باستثناء [كاتولوس] الذي ندد بالقانون وبالذي أقترحه، بكلّ جرأة ولما لم يجد أذناً صاغية من العامة، استدار نحو مجلس الشيوخ وصاح باعضائه طالباً منهم ان يبحثوا لهم في أحد الجبال عن ملجأ مثلما فعل أسلافهم من قبل وان يعتصموا بالصخور، لعلهم يحافظون هناك على حريتهم. وقيل أنّ اللائحة أبرمت قانوناً باقتراع عام لكلّ القبائل. فجعل [پومپي] وهو غائب، سيدّ البلاد وأمتد سلطانه تقريباً على كل ما احرزه [سيللا] بقوّة السلاح، وبعد أن أستولى على العاصمة نفسها عنوةً.

وقيل أن [پومپي] عندما انبأته الرسائل بالمصادقة على القانون لم تظهر عليه أية علامة من علامات السرور في مجلس اصدقائه الذين أقبلوا ليزفوا اليه التهاني وليباركوا له ما نال من شرف بل بدا مقطب الأسارير، وضرب فخذه بيده قائلاً بلهجة المتعب من الحكم والضجر من اعبائه: «واحسرتاه! سلسلة من المتاعب فوق متاعبٍ لا تنتهي. وان لم يتسنَّ لي انهاء خدماتي العسكرية والتخلصّ من هذه العظمة التي تثير حولي الحسد لأعيش في بيتي الريفي من امرأتي، لكان خيراً لي أن أبقى رجلاً مغموراً» إلاّ أن هذا القول والادعاء لم يكن يُنظر اليه نظرةً جديّة، واصدقاؤه أنفسهم كانوا ينزلونه هذه المنزلة لأنهم على يقين بأن شعلة عداوته (للوكولوس) أوقدت في تلك الساعة بالذات نار ميله الى التحكم وصبوته الى المجد وهذا ما أشعره بفرح غير عادي.

وبدت هذه الحقيقة سافرة بعد قليل، من أعماله التي حسرت عنه القناع عما يبطنه تماماً. فقد أسرع بتوجيه الأوامر الى كل الانحاء، يأمر بها الجنود بالانضواء تحت لوائه. ويدعو كل الملوك التابعين والأمراء ضمن دائرة حكمه الى الحضور، وبمختصر القول، ما أن وطئت قدماه أقاليم [لوكولوس] حتى تناول بالتغيير كلّ ما قام به سلفه هنا أو أنشأه. فألغى وخفض العقوبات، وجردّ أناساً من عطاياهم. واخذ يتصرف في كل شيء، وهي يرمي بصورة صريحة لا لبس فيها أن يفهم المعجبين بلوكولوس أن دولة هذا الحاكم قد دالت.

ونوقش [پومپي] من جانب اصدقائه فارتوئ أن يعقد اجتماع بين القائدين، وتمّ اللقاء في اراضي [غلاطيا] ولما كان كلاهما جنرالاً شهيراً مظفراً، فقد كان [لكتور] كل واحدٍ منهما يحمل حزمة العصيّ أمامهما وهي مزدانه باعضان من شجر الغار. وكان [لوكولوس] قد مَرّ بارض تكسوها الاشجار المخضوضرة والغابات الوارفة، في حين كانت مسيرة [پومپي] في منطقةٍ قاحلةٍ يسودها برد زمهرير. ولما وجد رجال لكتور [لوكولوس] أغصان الغار التي تزين حزم لكتور [پومپي] قد ذبلت وجف عودها، أعطوهم شيئاً مما كان عندهم منه، وزينوا وتوجوا حزمهم بالغار الغضّ. فعُدّ هذا دليل شؤم أو بدا وكأن [پومپي] جاء لينتزع ثمرة انتصارات [لوكولوس] والشرف الذي ناله منها. وكان [للوكولوس] بحكم نظام القناصل الأسبقية عليه، في القدم والسنّ، إلاّ ان موكبي النصر اللذين منحا [لپومپي] جعلاه أعظم مقاماً من [لوكولوس]. وبدأ الحديث في مقابلتهما هذه بداية وديّة مشبعةً بالرزانة والوقار، وأنطلق كل واحد منهما يشيد بمآثر صاحبه، ويزجي اليه التهانيء على ما اصابه من نجاح وتوفيق ولكن ما أن دخلا في بحث ما جاء لأجله وعقدا عليه مؤتمرهما حتى تبين تَعذر وصولهما الى اي اتفاق أو شروط مناسبة. وبلغ بهما الأمر الى حدّ تبادل جارح القول: [پومپي] يتهم

[لوكولوس] بالجشع، و[لوكولوس] يتهم [پومپي] بالطموح واشتبكا في جدال عنيف حتى صعب على اصدقائهما التفريق فيما بينهما.

ومكث [لوكولوس] في [غلاطيا] وباشر في توزيع الأراضي التي غنمها بفتوحاته ومنح العطايا والهبات لمن شاء. وعسكر [پومپي] في موضع لايبعد عنه كثيراً. وراح يبعث بأوامر الحظر والمنع، ونقض كل قرار يصدره [لوكولوس]. وسحب منه كل جنوده ما خلا الفاً وستمائة لم يجد فيهم نفعاً له لميلهم الى التمرد والشغب وعدم خضوعهم لنظام، ولمعرفته أنهم يكنوّن البغض [للوكولوس] وزاد على هذه الاجراءات والأعمال خطباً ساخرة به، تتضمن الانتقاص الصريح من أمجاده ومآثره كقوله ان معارك [لوكولوس] ما هي إلاّ مشاهد مرسحيّة وصور تافهة تحفّ بها الأبهة الملكية في حين أن الحرب الفعلية ضدّ جيش حقيقي يهزم في قتالٍ عنيف، انمّا هو حق محفوظ له دون غيره، بعد أن تهيأ [ميثريداتس] واستعد بدروعه وسيوفه وخيالته. فيجيب [لوكولوس] على سبيل المقابلة، بأن [پومپي] انما جاء ليشن حرباً على صورةٍ أو شبح للحرب. وهذا هو شأنه أبداً كالطير الجارح الكسلان الذي ينقض على الرّمة بعد أن يكون غيره قد قتلها، وهكذا يعمد الى تمزيق رفات الحرب ارباً ارباً، وبهذه الصورة عزا لنفسه كل الانتصارات على [سرتوريوس] و[ليپيدوس] وعلى المتمردين بقيادة [سپارتكوس]. فالانتصار الأخير حققه [كراسوس] فعلاً. والثاني انتزعه من [كاتولوس] والأول هو من حق [ميتيللوس]. فليس من العجيب ان يقوم مثل هذا الشخص الذي توسل بكلّ ضروب الحيل ليحرز شرف النصر على شراذم من العبيد الهاربين، بانتزاع امجاده وشرف نيله انتصارات الحرب الپونطية والارمنية.

بعد هذا رحل [لوكولوس]. وقام [پومپي] باستنفار اسطوله ونشره في المياه الواقعة ما بين [فينيقيا] والبوسفور. ثم زحف بجيشه على [ميثريداتس] الذي كان قد عبأ [فلانكس] مكوّناً من ثلاثين ألف راجل والفين من الخيالة الاّ انه لم يجرأ على منازلته. وكان قد عسكر فوق جبل منيع تصعب مهاجمته. إلاّ انه لم يلبث فيه كثيراً وتركه لانعدام الماء فيه. فأحتله [پومپي] حالاً. ولاحظ أن النبات فيه يانع نام، كما وجد فيه كثيراً من الوديان فاستنتج بأن أرضاً كهذه لايمكن أن تخلو من مياه جوفية، فأمر رجاله بحفر آبار في كل ركن منها. وما هي فترة وجيزةٌ حتى كان المعسكر يستمتع بماءٍ غزير. ولم يسعه الاّ الاستغراب من جهل [ميثيريداتس] بهذا طوال الفترة التي قضاها معسكراً. ثم ما لبث أن جدّ في اثره وادركه في معسكره الثاني، فتقدم منه بصفوف متراصة وضرب حوله نطاقاً إلاّ ان [ميثيريداتس] نجح بعد اربعين يوماً من الحصار في التسلل والنجاة بأفضل وحدات جيشه بعد أن فتك بكلّ

المرضى والعاجزين منهم. فلاحقه [پومپي] وادركه بعد قليل بالقرب من ضفاف نهر الفرات. فعسكر بالقرب منه إلاّ انه خشي أن يعبر الفرات ويفلت منه هذه المرة أيضاً.

فاعدّ جيشه للهجوم عليه في متنصّف الليل، وقيل أن [ميثيريداتس] في ذلك الوقت بالذات رأى رؤيا شبيهة بما كان سيحصل فعلاً فقد رأى فيما يرى النائم، أنه راكب سفينة في بحر المضايق [Euxine] وكانت الريح رخاء والبوسفور على مدى الرؤية وهو يتحدث الى رفاق السفينه مسروراً، كالذي يشعر بالسعادة خلاصه من خطرٍ وبالفرح، لسلامته ونجاته. ثم يرى نفسه فجأةً وحيداً ليس معه أحدٌ وهو فوق لوح محطّم من الواح السفينة يتقاذفه الموج تحت رحمة البحر. وفيما كان كذلك يعاني هذا الكابوس المفزع أقبل عليه اصدقاؤه وايقظوه ولابلاغه باقتراب [پومپي] الذي كان في الواقع بدرجة من القرب بحيث أن القتال كان سيدور لأجل الاستيلاء على المعسكر نفسه. فقام القواد باخراج وحداتهم ووضعوها صفوفاً في خط القتال. ولما وجد پومپي مبلغ استعدادهم، وحسن تهيؤهم، داخله الشكّ في قراره وبدأ يتساءل في نفسه هل من الإصابة ان يخاطر في القتال ليلاً. وكان رأيه أن يبقي الطوق المضروب حولهم لتأمين عدم فرارهم، ثم الاشتباك معهم في اليوم التالي لاحرازه التفوق العددي عليهم. إلاّ ان الضباط المتقدمين في السنّ خالفوه في الرأي وتمكنوا باللجاجة والتشجيع من استحصال موافقته على شنّ الهجوم فوراً. وكان القمر الذي يكاد يأفل ينشر نوراً كافياً لتمييز الاجسام. والليل ليس بحالك السواد. ولم يكن هذا في مصلحة جيش الملك بطبيعة الحال. لأن الرومان كانوا يواجهونهم والقمر وراءهم، اذ لم يكن بينه وبين المحاق الاّ قليل من الوقت، فصار نوره يلقي ظلالاً مديدةً امام اجسام الرومان حتى تكاد تبلغ صفوف العدو الذي اصيب بخداع البصر، فلن يعد في وسعه تقدير المسافات تقديراً دقيقاً وتصور المهاجمين قريبين منه فراح يقذف الرماح على الظلال دون أن يصيب هدفاً أو ينال مأرباً. وما أن ادرك الرومان حقيقة الأمر حتى انقضوا عليهم وهم يعدون عدواً بصيحة راعدةٍ. فأوقعوا الرعب في البرابرة، ووهت عزائمهم ولم يسعهم تحمل الهجوم فداروا على أعقابهم منهزمين فأوقع منهم مذبحة عظيمة وقتل منهم ما يربو على عشرة آلاف وأستولى على المعسكر.

أمّا [ميثيريداتس] فقد قاد في أول المعركة ثمانمائة من الخيالة وهجم مخترقاً صفوف الجيش الروماني وهكذا نجا. إلاّ أن هؤلاء، ما لبثوا أن تفرقوا عنه، قسم توجه في طريق، وقسم سلك آخر، ولم يبق معه غير ثلاثة اشخاص من بينهم مخيته [هپسيكراتيا Hypsicratia] وهي فتاة لها شجاعة الرجال واقدامهم. ولذلك سماها الملك [هپسيكراتوس] بالمذكر، وكانت تلبس لباس الفرسان وتركب الخيل. وقد صحبت الملك في كلّ تنقلاته وهو فارٌ دون ان يعتبرها

كلل ولا تردد حتى في أطول الرحلات واشقها، ولم تكن تتعب من خدمة الملك بنفسها. والاعتناء بجواده كذلك. وبلغت بهم خاتمة المطاف [اينورا Inora] وهي قلعة من قلاع الملك جمع فيها كلّ ذهبه وكنوزه. فأخرج أنفس الكسوة وفرقها على من ظلوا معه. كما دفع الى كل واحدٍ من اصدقائه بمقدارٍ من السمّ الزعاف، يتناولونه عندما تتعذر عليهم النجاة من يد العدو. واتصل من هناك بـ: [تيكران] وطلب اللجوء اليه فأباه عليه وأعلن عن مكافأة قدرها مائة تالنت لكل من يقبض عليه. فيممّ [ميثريداتس] جهة اعالي الفرات وسار بمحاذاته وفرّ الى داخل بلاد [كلوخيس]. وشنّ [پومپي] في الوقت ذاته حملةً على ارمينيا، بدعوةٍ من [تيكران] الابن الذي شق عصا الطاعة على أبيه الملك. واجتمع [بپومپي] في موضع ما بالقرب من نهر [آراكس] الذي ينبع قريباً من أعالي الفرات، الاّ انه يميل عنه شرقاً وينحرف في مجراه حتى يصب في بحر قزوين. فزحف كلاهما معاً وتوغلا في البلاد وأخذت المدن تسقط في يديهما وتقدم لهما الطاعة تباعاً. الاّ ان [تيكران] الملك الذي كان قد عانى الكثير من حروبه مع [لوكولوس] ولسبق علمه بأن [پومپي] شخص رحيم ذو طبع رقيق، أفسح صدره للعسكر الروماني وسمح لهم بدخول قصوره الملكية وأخذ معه اصدقاءه وذويه وشخص بهم الى [پومپي] ليسلّم نفسه اليه وبلغ الخنادق الرومانية وهو على صهوة حصانه فاعترضه ليكتوران من حرس پومپي وأمراه بالترجل والسير على قدميه، فالتقليد يحظر على اي كان الدخول المعسكر الروماني راكباً. فلبىّ تيكران طائعاً ولم يكتف بالنزول عن حصانه، بل تخلّى عن سيفه أيضاً. وختم هذا التصاغر بنزع قلنسوته الملكية حال مثوله امام [پومپي] ولما هم بالقائها تحت قدميه، لا بل عندما اراد هو نفسه أن يخرّ جاثياً تحت قدميه مستعطفاً، منعه پومپي، وأخذ بيده وأجلسه الى جانبه، بينما وقف [تيكران] الأبن الى الجانب الآخر. وقال له أنه يجب أن يتحملّ كل الخسائر التي أوقعها به [لوكولوس] فهو المسؤول عنها. وعليه وحده تقع تبعة تجريده من سورية وفينيقية وكيليكيا وغلاطيا. و[سوفيني Sophene]. إلاّ ان كل ما أحتفظ به خلاف هذه الأقطار حتى الساعة، فهو ملك حلال له، من حقه التصرف به كما يشاء، وبكل أمان. ولكن عليه أن يدفع ستة آلاف تالنت، كغرامةٍ أو كقصاصٍ لقاء الأضرار التي الحقها بالرومان، وأن ينزل لابنه عن بلاد [سوفينه] ليملك عليها مستقلاً، فسرّ الملك كثيراً بهذه الشروط وعقد الصلح، وبلغ به الفرح منتهاه عندما حيّاه الرومان تحية الملوك وهزته الأريحية فأمر بأن يدفع لكلّ جندي نصف مينا من الفضة، ولكل سنتوريون عشراً، ولكل تريبيون تالنتاً واحداً. ولم يسرّ الابن بهذا الاتفاق، ولما دعي للعشاء أجاب رسول [پومپي] بقوله. انه ليس بحاجة الى أن ينعم عليه پومپي بهذا الشرف، وسيجد رومانياً آخر غيره

ليتناول معه العشاء. فلم يكن من [پومپي] الاّ ان وضعه تحت الاعتقال محتفظاً به لموكب النصر. ولم يمرّ طويل وقت الاّ وارسل [فراهاط] ملك الپارثيين يطلب من [پومپي] ردّ الفتى [تيكران] اليه، لأنه ختنه. واعلمه بأن نهر الفرات سيكون خط الحدود بين امبراطوريتيهما. فأجابه [پومپي] يقول: امّا بخصوص [تيكران] فوالده أقرب وأحق من حميّه بطلب رده، واما بخصوص الحدود فسيرى أن تكون وفقاً لمباديء الحقّ والعدالة. ثم انه ترك ارمينيا بعهدة [افرانيوس] وخرج هو لتعقيب [ميثيريداتس] واضطر ان يخترق عدداً من الشعوب والأمم التي كانت تسكن منطقة جبال القفقاس وابرز تلك الشعوب اثنان: [الألبان Albanians] و[الايبريون Iberiaus]. وكانت بلاد الشعب الأخير تمتد حتى الجبال [الموسخيّة Moschian] والبحر اليونطي. في حين كانت بلاد الألبان تمتد شرقاً حتى قزوين وسمح هؤلاء الألبان لپومپي بالمرور عبر اراضيهم بناء على طلبه في مبدأ الأمر. فلمّا ادرك الرومان الشتاء وهم في تلك البلاد وبينما كانوا منهمكين في الاحتفال بأعياد [زُحل] حشد هؤلاء قوة لا تقلّ عن اربعين الف مقاتل وعبروا نهر [قيرنوس Cyrnus] الذي ينبع من جبال [ايبريا] ويرفد فيه نهر آراكس فور صدوره من ارمينيا، ليصبّ بعدئذ في بحر قزوين باثني عشر فم (يقول آخرون أن [أراكس] لايصبّ فيه وانما يجريان متحاذيين ويصبان في البحر نفسه متجاورين)، وبعد عبورهم باغتوا الرومان، وكان بامكان [پومپي] أن يعترض سبيلهم ويحول دون عبورهم، لكنه أثر عدم التدخل، وتركهم يجتازون النهر بأمان ثم تحول عليهم بعسكره وفتك بعدد كبير منهم في ساحة القتال وكسرهم شرّ كسرة وعندئذ بعث ملكهم وفداً اليه يعلن خضوعه فعفا عنه رجاء وتوسلات، وعقد معه معاهدةً. ثم استدار فوراً نحو [الايبريين] وهم لايقلون عدداً عن الألبان لكنهم يفوقونهم قوةً وبأساً، كما كانوا يرغبون جداً في ارضاء [ميثيريداتس] وطرد [پومپي].

لم يكن هؤلاء الايبريون يدينون بالطاعة الى [الماديين] أو الى الفرس، ونجحوا أيضاً في المحافظة على استقلالهم من الحكم المقدوني، وهذا يعود الى سرعة [الاسكندر] الخاطفة في اجتيازه [هركانيا Hercania]. على أن [پومپي] اتم اخضاع هؤلاء أيضاً بعد معركة طاحنة قتل فيها تسعة آلاف منهم، وأخذ أكثر من عشرة آلاف أسير. وعبر من هذه البلاد الى [كلوخيس] حتى التقى [بسرڤيليوس Serviluis] على نهر [فاسيس Phasis] قادماً اليه بالأسطول الذي كان يحرس به البحر اليونطي.

كان تعقيب [ميثيريداتس] الذي قذف بنفسه في أعماق قبائل البوسفور وسواحل البحر [المايوتي Mæotian]، يضع امامه صعاباً جمةً هائلة. ولقد وردته انباء ثورةٍ قام بها

الألبانيون ثانية. وهذا ما حمله على ان يكرّ راجعاً وهو في أشدّ حالات الغيظ والعزم على كسر شوكتهم، وانثنى يعبر نهر [قيرنوس] مرة أخرى مستهدفاً لمخاطر عظيمة وعقبات جسيمة. وكان هذا الشعب البربري قد تولى تحصين مسافة عظيمة من ضفته الأخرى بالاوتاد الخشبية ونبات الشوك فأجتازها، ليعاني مسيرةً شاقة بمروره في أرض وعرةٍ قاحلة لا ماء فيها، لكنه أحتال على ذلك بأن ملأ عشرةً آلاف قربة بالماء. واقترب من العدو ليجده مستعداً لخوض المعركة وقد اصطف عسكره بالقرب من نهر [أباس Abas] وكان عددهم ستين ألفاً من الخيالة واثني عشر ألفاً من الرجالة، الاّ أن سلاحهم لم يكن جيداً على العموم، ومعظمهم عراة لايكسو جسمهم غير جلود الوحوش الضارية. وكان قائدهم أخو الملك ويدعى [كوسيس Co-sis] الذي أخذ يجدّ في طلب [پومپي] عند بدء المعركة حتى انفرد به وبادره بطعنة رمح موجهة الى مفصل دروع صدره وفي عين الوقت اصابه [پومپي] بطعنة رمح أخترقت جسمه فارداه قتيلاً. وقيل والعهدة على الراوي أن الامازونات كن يقاتلن متطوعاتٍ في صفوف البرابرة وقد انحدرن اليهم قادمات من الجبال المجاورة لنهر [ثيرمودون Thermodon]. اذ ان الرومان الذين أخذوا بعد انتهاء المعركة يجمعون الاسلاب والغنائم عن ساحتها - وجدوا عدداً من التروس المدورة، والاحذية الامازونية. الاّ انهم لم يعثروا من بين القتلى على جثة امرأة واحدة . والامازونات يعشن في انحاء من جبال القفقاس التي تنحدر سفوحها حتى بحر [هركانيا] وليست تجاور الالبانيين مباشرة، وانما يكون بينهما شعْباً [گيلي Galæ] و[ليغيس Leges]. وهن يعاشرن هذه الشعوب شهرين فقط من كل عام بالقرب من نهر [تيرمودون] ثم ينقلبن الى ديارهن ويبقين وحيدات بقية العام.

وأستولت على [پومپي] بعد هذه المعركة، رغبة شديدة في التقدم نحو بحر [هركانيا وقزوين] لكنه اضطر الى الارتداد عنه بعد أن أصبح فهو على مسافة ثلاثة ايام منه، بسبب وجود كثير من الافاعي السامة . وانسحب الى ارمينيا السفلى. وفي اثناء وجوده هناك بعث ملكا [الايليميين Elymæns] و[الماديين] بسفراء اليه. فأستقبلهم لقتال ملك الپارثيين الذي قام بعدّة غارات على [گورداييني Gordyene]، وسلب رعايا [ليكران] فأوقع به في معركة طاحنة ثم عقب فلوله تعقيباً لاهوادة فيه حتى اقليم أربيل Arbela.

ولم يحتفظ [پومپي] لنفسه بأية مخطية من مخطيات الملك [ميثريداتس] اللاتي جيء بهنّ من بنات او زوجات الأمراء والقادة الكبار، ما خلا [ستراتونيكي Stratonice] التي كانت تتمتع عنده باوسع السلطان والسطوة، ولهذا اودع لديها أفضل قلعة من قلاعه واحفلها بالكنوز، فهي كما قيل ابنة مغن شيخ رقيق الحال اتفق انها كانت تغني في مأدبةٍ أمام

[ميثريداتس] فوقعت من نفسه موقعاً حسناً. فأدخلها حريمه وصرف والدها الشيخ دون ان يوجه اليه كلمة طيبة واحدة فخرج بائساً مغموماً. لكنه استيقظ في اليوم التالي بحالٍ مختلفةٍ. فقد وجد امامه فوائد فرشت عليها افخر الاغطية وفوقها صحاف من الذهب والفضة، كما شاهد أفواجاً من الخدم والاتباع والوصائف والحجاب يتقدمون اليه بأنفس الثياب ووجد حصاناً امام عتبة الدار عليه ابدع سرج وانفس الاغطية بالاختصار وحفّ به من المظاهر ما يحف عادة بكل مقربي الملك وذوو الحظوة لديه فلم تصدق عيناه وظنها لعبة زائفة يراد بها التفكه عليه والاستهزاء به وتحقيره. فقام يريد الهرب الاّ ان الخدم والحجاب امسكوا بتلابيبه وتكاثروا عليه حتى ابقوه وأقنعوه بأن الملك قد أنعم عليه في الواقع بهذه الدار وبما فيها، وكانت من املاك رجل توفي مؤخراً، وافهموه أن ما يراه الآن ما هو إلاّ مقدمة العطايا والانعامات، وان ما سيُخلع عليه أكثر بكثير. فأقتنع وصدّقهم بعد لاي. وارتدى الأرجوان وركب حصانه وخرج الى احياء المدينة وهو لايفتأ يردد صارخاً «كل هذا من مالي وحلالي!» وردّ على أولئك الذين سخروا منه قائلاً: «ليس هو العجيب ما يرونه من أمره، ولكن العجيب هو أنه لم يقذف من يلقاه بالحجارة.» فقد كاد يجنُّ فرحاً في الواقع. وهذا هو أصل [ستراتونيكي] ومنبتها. وقد جاءت الى [پومپي] وعرضت عليه أن تسلّمه القلعة، وقدمت له كثيراً من الهدايا الغالية الثمن فلم يقبل منها الاّ ما وجده صالحاً ليزين به معابد الآلهة. وليضفي به على موكب نصره المزيد من الروعة والفخامة، وترك الباقي لها تتمتع به وتتصرف كما تشاء.

وكان هذا شأنه بالهدايا التي قدمها له ملك [ايبريا]. فقد ارسل اليه هذه الملك سريراً ومنضدةً وعرشاً كلها من الذهب. وطلب منه قبولها الاّ ان [پومپي] أرسلها الى بيت المال لتكون من الأموال العامة ولتنفق في سبيل الجمهورية.

وفي حصنٍ آخر من حصون [ميثريداتس] وجد [پومپي] مخطوطات سريّة بقلم [ميثريداتس] فقرأها ملتذاً مستمتعاً وكانت تتضمن الكثير مما أوضح له حقيقة شخصه. فمن الأمور الكثيرة التي حوتها مذكراته، ما يوضح بأنه فتك بابنه [آريارتس] بدس السمّ له. كذلك فتك بـ[ألكيوس Alcæus] الساردسي Sardis لأنه احرز قصب السبق عليه في مباراة طردٍ للخيلِ. وقرأ فيها أيضاً تفسيرات واحكامٍ لرؤى واحلام شاهدها هو بنفسه او رآها بعض مخطياته. وكان ثم أيضاً مجموعة من الرسائل الغرامية الداعرة كتبتها اليه مخطيته وكتبها اليها. كذلك عثر على رسالة موجهة اليه من [روتيليوس Rutilius] يغريه فيها بقتل الرومان كافةً في آسيا، كما حدثنا [تيوفانس]، على أن الاغلبية تميل الى الاعتقاد بأن هذا هو دَسّ

من [تيوفانس] وأختراع خبيث منه. ذلك لأنه كما يرجع - كان يبغض [روتيليوس]، للفرق الكبير بين أخلاقهما. ومن يدري فلعله اراد بهذا الدسّ ارضاء [پومپي] الذي كتب [روتيليوس] عن ابيه قادحاً واصفاً اياه بأنه أحقر الأحياء وانذلهم.

وترك [پومپي] هذه الأرجاء وجاء الى مدينة [أميسوس Amisus]. وهناك أقدم على فعلٍ يمكننا القول بأنه كان بمثابة عقابٍ ذاتي اوقعه بنفسه. وكان الدافع اليه اندفاعه الشديد نحو الشهرة والمجد. ففي حين رأيناه يشتط في عيب [لوكولوس] وينتقده أشد انتقاد بقوله: «انه كان منصرفاً الى اصدار المراسيم وتوزيع الجوائز والعطايا، كما أعتاده الفاتحون عند ختام كل حرب من الحروب، في الوقت الذي كانت الحرب قائمة فعلاً» نراه الآن يُقدم على ما انتقده في غيره، فقد استقرت مملكة [ميثريداتس] في البوسفور وبات حكمه هناك وطيد الاركان. وتحت أمرته جيش جرار. أما هو فقد انصرف الى تنظيم أمور الأقاليم وتوزيع المكافأت، وجمع حوله بطانة كبيرة من كبار القواد والأمراء وما لا يقلّ عن أثني عشر ملكاً، كأن الحرب انتهت وعُفي عنها. ولكي يرضي هؤلاء الملوك لم يخاطب ملك الپارثيين بلقب «ملك الملوك» في رسالة خطّية بعث بها اليه كما جرت العادة بمخاطبة هذا الملك.

وتملكته فضلاً عن ذلك رغبة شديدةٌ وميلٌ لايقاوم للاستيلاء على سورية والوصول الى سواحل البحر الأحمر عبر جزيرة العرب، وبذلك تمتدّ فتوحاته الى كلّ طرف من اطراف الأرض حتى البحر المحيط الذي يدور بالمعمورة. ففي افريقيا كان أول روماني بلغت انتصاراته حتى الاوقيانوس، وفي اسپانيا جعل المحيط الاطلسي حدوداً للامبراطورية. وفي مطاردته الأخيرة [للألبانيين] لم يبق بينه وبين بحر [هركانيا] إلاّ مسافة بسيطة، وبناء على ذلك فقد رفع اطناب معسكره وسار بجيشه تنفيذاً لخطته في جعل البحر الأحمر ضمن نطاق حملاته، بعد أن وجد من الصعوبة بمكان اللحاق بميثريداتس وتعقيبه بجيشه. وكيف كان هذا الملك خصماً عنيداً في الفرار أكثر منه في ساحة القتال. على انه صرح قائلاً: انه سيترك امام [ميثريداتس] خصماً أشدّ وانكى منه، وهو المجاعة والقحط، يقصد بهذا أنه وضع قطعاً من اسطوله في فم البوسفور وجعله يلقي مراسيه فيه لالقاء القبض على التجار القاصدين تلك البلاد ببضائعهم. وفرض عقوبة الموت على كل من يحاول نقل الارزاق الى هناك.

وسار متقدماً بالقسم الأعظم من قواته. وعثر وهو في زحفه على عدد من الجثث ملقاة على الأرض، وكانت جثث الجنود الذين قتلوا مع [ترياريوس Tiarius] في معركته السيئة الحظّ مع [ميثريداتس]. فدفنها دفنةً لائقة وبالمراسيم الواجبة ويظنّ ان اهمال [لوكولوس] القيام بهذا العمل، كان أهم سبب من اسباب بغض الناس له وفقدانه محبة جنوده وتمكنت وحدات

جيش [پومپي] التي هي بأمرة [أفرانيوس] من اخضاع العرب القاطنين حوالي جبل [أمانوس Amanus] اما هو فدخل البلاد السورية. فلم يجد أميراً شرعياً يحكم فيها وانما كان عرشها خالياً فجعلها أقليماً من الاقاليم الرومانية. كذلك اتمّ فتح بلاد اليهودية وأسر ملكهم [أرسطوبولس Arisrobolus] واعاد بناء بعض المدن وحرّر مدناً أخرى وعاقب الطغاة الذين استعبدوها. وانفق معظم الوقت الذي قضاه في تلك الربوع يفضّ نزاعات الملوك والدول، وكان يعهد بهذه المهمة الى معتمديه واصدقائه حيثما لايستطيع الحضور في التحكيم بنفسه. مثال ذلك النزاع الذي نشب بين الپارثيين والأرمن حول بعض الاصقاع، فقد أحيل الموضوع اليه ليكون حكماً. فعهد به الى ثلاثة من المحكمين لسماع القضية بدلاً عنه وفض النزاع بقرار منهم. وهكذا كانت دائرة سطوته واسعةً، ولم تكن عدالته ورحمته بأقلّ صيتاً من نفوذه وسلطته. إلاّ أن تلكما العدالة والرحمة كانتا في الواقع ستاراً لما لا يُعد أو يحصى من الاخطاء التي ارتكبها اصدقاؤه والمقربون منه أو لم يكن من عادته ايقاف المخطئين عند حدٍ أو انزال القصاص بهم. وكان دائماً يتخذ مع المتصلين به اسلوباً خاصاً يجعلهم به ساكتين صابرين على أعمال الاستغلال والاضطهاد التي يقوم بها الآخرون.

وكان بين خلصائه من يدعى [ديمتريوس]، يتمتع لديه بأكبر المكانة وأوسع النفوذ، وكان عبداً محرراً وشاباً حسن الادراك إلاّ انه وقح صفيق للوجه وهو في مركزه الذي حباه به الحظّ. وتروى عنه الحكاية الآتية: «كان الفيلسوف [كاتو] قد طبقت شهرته الآفاق وذاع صيته وهو بعد في غضارة شبابه لما أمتاز به من العقل النبيل. قام هذا الفيلسوف برحلة الى مدينة انطاكية ترويحاً للنفس ووصلها في وقت لم يكن [پومپي] هناك. وأشتاق للاطلاع على معالم المدينة فسار اليها ماشياً كعادته في حين امتطى اصحابه ظهور الخيل برفقته. فشاهد عند ابواب المدينة عصبة من الناس يرتدون حللاً بيضاء، وكان الشبان منهم على جانب من الطريق، والفتيان على الجانب الآخر. وظنّ أنهم يريدون الاحتفاء به بصورة غير رسمية فاستاء كثيراً لأنه كان زاهداً في مثل هذه التظاهرات كارهاً لها الاطلاق. ومهما يكن فقد استسلم للأمر الواقع وطلب من اصحابه الترجل والسير معه. وما ان اقتربوا من وفد الأستقبال حتى برز قائدهم وهو يحمل قلادة وعصا وتقدم من [كاتو] ورفاقه مستفسراً عن [ديمتريوس] اين خلّفوه ومتى سيجيء؟ فقهقه رفاقه ضاحكين الا ان [كاتو] لم يقل غير هذا «وأسفي على المدينة البائسة» ومضى يغذ السير من دون أن ينبس بكلمة أخرى. وعلى اية حال فإن تغاضي [پومپي] عن [ديمتريوس] جعل من هذا الأخير أخطر مصدرٍ من مصادر البغض والنفرة. بسبب صبر پومپي على وقاحته وصفاقته، وشدّة خيلائه. ويروي الناس على سبيل المقارنة،

كيف كان [پومپي] شديد الاحترام لضيوفه، وكيف يكون في غاية اللطف في استقبال اصدقائه عند دعوتهم الى مأدبة، وكيف يظلّ قائماً حتى يكتمل عقدهم ولا يأخذ معقده الاّ بعد جلوسهم جميعاً، في حين يكون ديمتريوس منبطحاً على سريره غير مكترثٍ بأحدٍ وقد غطى رأسه بجبّته حتى تتدلى حواشيها وتخفيه. ورأى كيف أنه ابتاع قبل عودته الى ايطاليا منزلاً ريفياً جميلاً بالقرب من روما تزينه ابدع المماشي وساحات الرياضية والملاعب واجمل الحدائق والرياض أطلق عليه اسمه [ديمتريوس]، في حين كان [پومپي] سيده مكتفياً حتى ما بعد موكب نصره الثالث بمنزل اعتيادي بسيط. صحيحٌ انه عندما قام بتشييد ملعبه الشهير الفخم لأهالي روما، بنى لصقه ما يشبه الملحق واتخذه لنفسه بيتاً وكان افخم بكثير من منزله السابق، الاّ انه لم يصل به الى الفخامة ما يمكن ان يثير به حسد الناس وتقولاتهم، لأن الشخص الذي امتلكه بعد [پومپي] لم يسعه الاّ الاستغراب والتساؤل عن الموضع الذي اعتاد [پومپي] تناول طعامه فيه من المنزل. وهذا هو مخلص للروايةالتي وصلتنا.

لما أخذ القلق العظيم يساور ملك العرب في [البترا، Petra] (وكان حتى تلك الساعة يستخف بشوكة روما) سارع بارسال رسائل الى پومپي، يعده فيها باطاعة اوامره والبقاء رهن اشارته وتنفيذ كل طلباته. ومع أن [پومپي] كان واثقاً بأن هذا الملك سيبقى على وعده ويحافظ عليه، الا أنه مضى في عزمه وتقدم نحو [البترا] ولم يخلص عمله هذا من انتقاد الكثيرين، فقد وجدوا أنه لايعدو شكلاً من أشكال التهرب عن الواجب الصائب وهو مطاردة [مثيريداتس] خصم روما العتيق اللدود الذي راح الآن يشعل نيران حربٍ أخرى ويستعد لخوضها وانه كما اوردت الانباء ينوي قيادة جيشه عبر [سكيثيا وپايونيا Pæonia] الى قلب ايطاليا. ولما كان [پومپي] قد توصل الى الاعتقاد بأنه لأسهل عليه تدمير قوات [ميثريداتس] في معركةٍ، من النجاح في القبض عليه في اثناء فراره من وجهه، ولهذا لم يشأ انهاك قواته في مطاردة لا طائل تحتها، بل رأى ان يصرف وقته في مقارعة عدوّ آخر تزجيةً لوقت فراغه بنوع ما من العمل ولكن الحظّ جاءه بالخبر اليقين المنشود، من حيث لايدري، فبينما كان على مسافة قريبة من [البترا] ضارباً خيامه معسكراً للاستراحة. يقوم باجراء بعض التمارين على ظهر جواده خارج المعسكر، اذ أقبل السعاة ينبهون الأرض بخيولهم قادمين من [اليونطس] يحملون البشائر والانباء السارة ذلك لأنهم كانوا قد رفعوا على رؤوس رماحهم تيجاناً من اغصان الغار وهو اشارة الانباء، كما جرت العادة عليه. فما أن تبين الجنود العلامة حتى أخذوا يتقاطرون حيث كان [پومپي] واحاطوا به ولم يكن يبدو عليه ايّ اهتمام بالأمر غير الاهتمام بانهاء تمارينه. فبدأ ضجيجهم يتعالى واصواتهم تجأر، فترجلّ

وتسلم الرسائل وسار قاصداً المعسكر وهم وراءه. ولم يكن هناك رابية عسكريّة، حيث جرت العادة في كلّ معسكر أن يعمل بدل المنصّة المعهودة، مرتفعٌ يتألف من طبقات سميكة من التربة المعشوشبة يُكدس بعضها فوق بعضٍ. فدفعتهم اللهفة لسماع الانباء الى جلب سروج الخيل وتكديسها. حتى اذا تمّ ذلك صعد عليها [پومپي] وأبلغهم بنبأ موت [ميثيريداتس] وقرأ عليهم كيف انه وضع حداً لحياته بعد أن ثار عليه ابنه [فرناكيس Pharnaces] وكيف أن [فرناكيس] هذا قد تسلم مقاليد الحكم واستتب له الأمر فوضع الأمور كلها في نصابها لمصلحته ولمصلحة الرومان – كما تدل عليه الرسائل الواردة. فغمر الفرح الجنود، وراحوا يعبرون عنه كالعادة ينحر الذبائح وتقديم القرابين للآلهة واقامة المهرجانات، حتى لكأن الآلاف المؤلفة من الأعداء قد هلكوا بموت [ميثيريداتس].

وبهذه الخاتمة غير المتوقعة الخالية من العناء وصفت نهاية للحرب في الشرق فلم يعد [لپومپي] ما يفعله وأسرع بالرحيل عن بلاد العرب ومرّ بالاقاليم الوسطى مروراً خاطفاً حتى بلغ مدينة [اميسوس Amisus] وكان ينتظره فيها كثير من الهدايا التي ارسلها اليه [فرناكيس] بينها عدد من جثث الأسرة الملكية. فضلاً عن جثة [ميثيريداتس] نفسه وكان يصعب تبين ملامح وجهه لأن الأطباء الذين تولوا تحنيطه لم يجففوا مخّه. إلاّ أن أولئك الذين غلبهم الفضول لرؤيته عرفوه من ندوب جسمه. إلاّ أن [پومپي] كره التطلع اليه، وسارع بارسال جثمانه الى مدينة [سينوب Sinope] تحاشياً لسخط الآلهة. وكانت دهشته لنفاسة ثيابه لاتقلّ عن دهشته من فخامة شكة سلاحه. إلاّ أن سيفه الذي بلغت قيمته اربعمائة تالنت، سرقه [پوبليوس Publius] وباعه من [آرياراتس Ariarathes]. وتاجه الذي كان يعتبر آية من آيات الدقة في الصناعة، فإن [گايوس Gaius] الذي هو أخ [ميثيريداتس] بالرضاعة دفع به سراً الى [فاوستوس Faustus] ابن [سيللا] بناء على طلبه. وكل هذا كان مجهولاً عند [پومپي] الاّ ان [فرناكيس] لم يتردد في انزال العقاب الصارم بالمختلس عندما انكشف له الأمر.

بعد أن وطدّ [پومپي] شؤون الحكم في هذا الاقليم وأرسى قواعد الادارة فيه، شرع برحلة العودة الى الوطن بكثير من الابهة والفخفخة والعديد من المهرجانات والولائم التي كانت تقام على شرفه في الطريق. وعند وصوله مدينة [ميتلين Mitylene] منح أهلها الحرية بتوسطٍ من [ثيوفانس]. كما حضر فيها مباراة بين الشعراء جرت العادة باقامتها دورياً. ولم يكن للمتبارين من موضوع يطرقونه ولا وترٍ يضربون عليه غير اعمال [پومپي] ومآثره. وأعجب كثيراً بالملعب الذي جرت فيه المباراة وأمر بعمل انموذج مصغر له وفي نيته تشييد مثيلٍ له في

روما على أن يكون أوسعَ وأفخمَ منظراً. وبوصوله الى [رودس] حضر دروس كلّ الفلاسفة، ومنح كا واحدٍ منهم تالنتاً من الذهب. وقد قام [پوسيدونيوس Posidonius] بنشر مناظرة له مع [هرماگوراس Hermagoras] النحوي في موضوع «الاستنباط» بصورة عامة، تمت امام [پومپي] هناك. وفي اثينا أبدى للفلاسفة أيضاً كلّ كرمٍ وحفاوة فمنح المدينة خمسين تالنتاً تصرفها في ترميمها وتجميلها. والقصد من كل هذا، أنه كان يريد أن يرافق دخوله ايطاليا دويٌ فيه من الجلال والروعة ما لم يتح لايّ إنسان قبله، وكان يتوقع أن يجد في اسرته من الشوق لرؤيته قادماً الى ارض الوطن قدر ما كان يحسّ به هو نفسه. إلاّ أن الارادة التي تعلو على ارادة البشر والتي كان من طبعها ومن مهامهّا انها لا تترك الخير مهما عظم شأنه الاّ وتشوبه بشيء من الشرور. وقد كانت ارادة الحظّ هذه لمدة من الزمن منشغلةً في بيته تُهيء له استقبالاً أليماً فزوجه [موشيا Mucia] دنّست فراشه اثناء غيبته. وكان وهو على بعدٍ من البلاد يأبى أن يصدق تلك الانباء. لكنه أصبح أكثر انطلاقاً وحرية في التفكير عندما دنا من البرّ ايطالي، فأخذ يكثر التأمل والتمعن في التهمة، ثم ما لبث أن بعث اليها بكتاب طلاقٍ فحسب، ولم يعط فيما بعد أي سببٍ لاتخاذه هذه الخطوة لا بالقول ولا بالكتابة، على أن هذا السبب مذكور في رسائل [شيشرون].

انتشر في الخارج مختلف ألوان الشائعات حول [پومپي] وسبقته الى روما وثارت الخواطر وهاجت النفوس وازداد القلق بما شاع من أنه زاحف بجيشه على المدينة رأساً، وانه سيدخلها عنوةً ويجعل من نفسه الحاكم الأوحد. وعمد [كراسوس] الى الخروج من المدينة مع أولاده وكل أمواله إمّا لأنه كان خائفاً فعلاً مما سيحدث وإما اراد التظاهر بالخوف ليقوي التهمة وليعطي للشائعات وزنا فيستفز سخط الشعب على [پومپي] وهذا هو اصوب الاحتمالين، إلاّ ان [پومپي] أمر بتجمع عام لجنود الجيش حالما وطئت قدميه ارض ايطاليا. وبعد أن ألقى فيهم خطبة مناسبة وتبادل معهم عبارات الوداع الرقيقة أمرهم بالرحيل كل واحدٍ منهم الى بلده أو مسقط رأسه موصياً اياهم أن لا يتأخروا عن الاجتماع ثانية للسير في موكب نصره.

وهكذا اتمّ تسريح جيشه، وبعد انتشر الخبر وتنفس الناس الصعداء، كان ردّ الفعل عجيباً مدهشاً. فقد خفت المدن الى استقبال [پومپي الاكبر] وهو يمرّ بالارياف أعزل لايحمل سلاحاً، مع بطانة صغيرة من أخلص اصدقائه ليس غير، كأنه عائد من سفرة ترويح عن النفس لا من حروب وفتوح، وراح أهالي تلك المدن يتجمعون زرافات ووحداناً لاظهار مدى تعلقهم به وللسير في ركابه نحو روما. حتى بلغ عددهم اضعاف الجيش الذي سرحه فلو كان ينوي القيام بأية حركة سياسية أو تنفيذ مؤامرة على الحكومة، لحققها بسهولة دونما حاجةٍ الى جيش.

كانت الشرائع الرومانية لا تسمح للقائد بدخول المدينة قبل أن يتمّ مراسيم موكب نصره. فأرسل [پومپي] يطلب من مجلس الشيوخ ان يمنّ عليه بفضلٍ، وهو تأجيل موعد انتخاب القنصلين الحاكمين للسنة القادمة، ليكون قادراً على الحضور بسبب رغبته في تقدم التأييد [لبيزو] أحد المرشحين. فعارض [كاتو] في الطلب ورفض رفضاً قاطعاً، فلم يسع [پومپي] الاّ الاعجاب بحرية القول التي أمتاز بها [كاتو] وبجرأته وحده على استعمالها محافظةً على الشريعة وقواعد العدالة ولهذا تملكته رغبة عظيمة من ان يكسبه الى جانبه ويشترى صداقته بأي ثمن. وكان [لكاتو] بنتا أخت، فطلب [پومپي] واحدة لنفسه وطلب الأخرى لابنه. إلاّ ان هذه الخطبة لم تقع في نفس [كاتو] موقعاً حسناً، وعَدّه مخططاً ماكراً يرمي الى تشويه سمعته واخلاصه وطريقة لرشوته باتحاد عائلي يربطه اليه. وأبى متعرضاً للوم امرأته وأخته واستيائهما لرفضه مصاهرة [پومپي] الأكبر، وبعد هذا بقليل رغب [پومپي] في ترشيح [افرانيوس] للمنصب القنصلي، وتحقيقاً لغايته هذه وزع مبالغ من المال على القبائل شراءً لأصواتها، وكان الناس يجيئون حدائقه لتسلمها. فاثار عمله هذا كثيراً من الاستنكار لجعله المنصب القنصلي سلعة يتاجربه. ولأنه يريد شراء منصب كان هو قد حصل عليه كأسمى وأثمن مكافأة له على مؤهلاته الى شخص لايستطيع الحصول عليه بكفاءته. وعندئذ رجع [كاتو] يذكر أخته وامرأته بقوله «أرايتما؟ لو اننا عقدنا اواصر القربى مع [پومپي] لكنّا اليوم نعتبر شركاء له في هذا العار» فلم يسعهما الاّ الأقرار بسلامة رأيه ورجاحة حكمه على حكمهما.

ولم يزد الوقت الذي استغرقه موكب [پومپي] على يومين إلاّ انهما ضاقاً تماماً عما هُيءَ للاحتفال، بحيث أن ما أرجيء كان يعادل ما عرض، وهو ما كان يكفي لتهيئة وتزيين موكبٍ ثانٍ كان ثم أولاً الواح نقشت عليها اسماء واوصاف الشعوب التي تغلّب عليها وهي البونطس، وارمينيا وكبدوكيا، وفلاگونيا وميديا وكلوخيس والايبريون، والألبان، وسورية وكيليكا وبلاد ما بين النهرين. فضلاً عن فينيقيا، وفلسطين وبلاد اليهودية وبلاد العرب وكل رؤوساء القراصنة الذين أخضعهم في البرّ والبحر. كما ظهر في تلك الالواح ثبتٌ بالاستيلاء على ما لايقل عن ألف موقعٍ محصنٍ وما لاينقص كثيراً عن تسعمائة مدينة. في كلّ البلاد الوارد ذكرها، مع ثمانمائة سفينة من سفن القراصنة. وجاء ثبت ببناء تسع وثلاثين مدينة. وكتب على الالواح أيضاً قوائم بكلّ ما جبي من الضرائب في كل انحاء الامبراطورية، فظهر منها أن الواردات كانت قبل هذه الفتوحات لاتزيد عن خمسين مليوناً، في حين انها زادت بعد فتوحاته حتى بلغت خمسة وثمانين مليوناً. وان ما حمله معه للخزينة العامة من النقد والذهب والفضة والحلى بلغ عشرين ألف تالنت. وهذا هو المتبقى مما وزع على الجنود. وكان سهم

[پومپي] من كل هذا مائة وخمسين درهماً فقط وهو أقل ما نال أصغر جنديّ. أما عن أسرى الحرب الذين عرضهم في الموكب، فقد شوهد الى جانب زعماء، القراصنة، ابن [ديكران] ملك ارمينيا مع زوجه وابنته. و[زوسيما Zosima] زوج الملك ديكران نفسه. [وارستوبولس] ملك اليهودية، واخت ميثريداتس الملك، مع ابنائها الخمسة. وبعض النسوة السكيثيات. ورهائن من الألبانيين والايبريين ورهائن من ملك [كومّاجيني Commagene] فضلاً عما لا يحصى من الانصاب التذكارية الحربية لكلّ معركة انتصر فيها، إما بشخصه أو باحدِ قواده. الاّ ان اعظم ما ميزّ موكب نصره، وجعله متفرداً به عن اي روماني آخر فهو كون موكبَ نصره الثالث منح له عن انتصاراته في الطرف الثالث من المعمورة أعني أنه برّ اقرانه بأن كان موكب نصره الأول عن افريقيا والثاني عن اوروپا والثالث عن آسيا. فبدأ في هذه المواكب الثلاثة وكأنه يقود العالم كله أسيراً الى روما.

وبخصوص عمره بعد فتوحاته هذه، فان أولئك الذين يريدون ان يجعلوا منه صنواً للاسكندر الكبير، لايقرون بأنه بلغ الرابعة والثلاثين. في حين كان آنذاك يشارف على الأربعين. وكان من الخير له اذ ذاك لو انتهت حياته هنا، وهو ما يزال يتمتع بيمن طالع الاسكندر. ذلك لأن حياته التي عقبت ذلك إما كانت مصدر ترف ورفاهٍ له وهو ما جعله مكروهاً مبغضاً، وإمّا جلبت مصائب أعظم مما كان يمكن معالجتها. فالمكانة العظيمة التي حصل عليها بمؤهلاته في نفوس الرومان، لم يستخدمها إلاّ في مناصرة شرور الآخرين فضيع مجده وانقص من مقامه بزيادته من مقامات الآخرين. حتى آل الأمر به في الأخير الى السقوط بقوى وعظمة شخصية. والمسألة بينه وبين [قيصر] كانت أشبه بالحصن الأمنع أو القلعة العظمى في المدينة، فهي تبدي عين الصمود والمدافعة بعد استيلاء العدوّ فيها. وكذلك كانت حالة [قيصر] فبعد أن عظم شأنه وقوى مركزه بمساعدة [پومپي] الى الحدّ الذي بات معه يتحدى بلاده، سارع أخيراً الى تحطيم وازالة تلك القوة التي ساندته في وجه الآخرين واليك فيما يأتي تفصيلاً لما جرى من الأحداث.

عاد [لوكولوس] من آسيا مقهوراً جراء المعاملة المهنية التي لقيها على يد [پومپي] فهرع مجلس الشيوخ الى استقباله بحفاوة عظيمة نكاية بـ[پومپي] وزادت تلك الحفاوة والمنزلة بعد عودة [پومپي] الى الوطن. ارادوا وضع حَدٍّ لطموحه فدفعوه الى تولي مقاليد الحكم حتى آلت همته الى الفتور، وعدم الاهتمام بادارة دفة الحكم بانغماسه الشديد بمتع الحياة واستسلامه للراحة، واستمتاعه بحظه العظيم من الدنيا. على أنه بدأ خصماً [لپومپي] فترةً من الزمن وهاجمه هجوماً عنيفاً بحيث نجح في تطبيق كل الاجراءات والاوامر التي اصدرها في حينه

وعمل [پومپي] على الغائها. ثم اصبحت له الكلمة النافذة في مجلس الشيوخ بمساندة [كاتو].

وخابت آمال [پومپي] في مجلس الشيوخ. ويئس منه فالتجأ الى تريبونات الشعب لحمايته وعمل على تقوية صلاته بهم. وأختص من بينهم [كلوديوس] أحقر الانذال في الدنيا، وأقل من عليها حياءً، وأكثرهم شراً. وراح يصحبه في جولاته ويقدمه للناس ويحركه كما يشاء كالعوبة في يده ويسير به في الساحة العامة بين الجماهير جيئة وذهاباً كيما يستمدّ منه التأييد المعنوي لتلك الخطب التي كان يلقيها، والقوانين التي يبشر بها، تزلفاً للشعب وتوصلاً للحظوة بتأييده. أخيراً طلب من [پومپي] على سبيل المكافأة - كان ما قدمه اليه خدمة عظيمة لا عاراً الصقه به - أن ينبذ صديقه شيشرون (وقد فعل) وهو ذلك الصديق الذي طوق عنقه بأعظم الخدمات في شتى المناسبات الوطنية، وتفصيل ذلك انه لما حاق الخطر بشيشرون وسأل پومپي العون رفض حتى مقابلته، وأغلق باب منزله في وجه من جاء ليتشفع فيه، وتسلل من الباب الخلفي الى الخارج. فأضطر شيشرون الى الرحيل عن روما سراً خوفاً من نتيجة المحاكمة.

وفي غضون ذلك، عاد [قيصر] بعد انهاء حملته العسكرية وأخذ يتبع سياسة بلغت به الحظوة في اعين الجماهير، وزادت كثيراً من نفوذه في المستقبل كما برهنت على انها سياسة مدمرة لكلٍّ من [پومپي] والجمهورية. فقد اقدم على ترشيح نفسه للمنصب القنصلي لأول مرة. ولمعرفته التامة بما بين [پومپي] و[كراسوس] من عداء ولأنه كان على ادراك تام بأن انضمامه الى احدهما سيجعل من الثاني عدواً له فقد جاهد بشتى الوسائل لاصلاح ذات البين فيما بينهما. وهو هدف نبيل بحدّ ذاته لو كان رائده فيه المصلحة العامة كانه وهو القائم به، كان اشبه بالمؤآمرة الماكرة الشريرة. فقد كان على علم تام بأن الاحزاب المتنازعة والفئات السياسية المتخاصمة في الجمهورية هي أشبه بركابٍ في قارب وضيفتها تحقيق التوازن في حركات القوى غير الثابتة والمتقلبة بفعل الامواج. فلو اتحدث تلك الاحزاب وانحازت كلها الى طرفٍ من القارب فانها ستحدث هزة تكون نتيجتها المحتومة اختلال توازن القارب وجرّ الجميع الى اعماق اللّجة. لذلك كان [كاتو] حكيماً في قوله للذين حمّلوا كل مصائب ونكبات روما عاتق النزاع بين [پومپي] وقيصر: انهم مخطئون بان يعزوا الى هذا الجرم كل ما حصل. فصداقتهما لا عداوتهما واتفاقهما لا اختلافهما هو الذي اصاب الجمهورية باوّل الضربات واعظمها.

وهكذا انتخب [قيصر] قنصلاً نشرع في الحال بالتزلف الى الكادحين والفقراء، وخطب ودّهم بسنّ وتنفيذ تلك القوانين المتعلقة باستغلال اراضي المستعمرات ، وتوزيع الاراضي الزراعية عليهم، وهكذا انزل جلال منصبه القنصلي ليجعله اشبه شيء بمنصب التريبون. وعندما عارضه زميله في الحكم [بيبولوس Bibolus] وتحفز [كاتو] لعضد هذا ومساندته، دفع قيصر بـ[پومپي] الى المنصّة وطلب منه امام مـلأ من الناس الادلاء برأيه حول القوانين المقترحة فسارع [پومپي] باظهار رضاه عنها وموافقته عليها فقال [قيصر]:

- اذن فأنت مستعد للوقوف بجانب الشعب، اذا ما عمد أي شخص الى مقاومة تنفيذ هذه القوانين بالعنف؟

فأجاب [پومپي] يقول:

- اي نعم اني سأكون مستعداً، أما بالنسبة الى اولئك الذين يهددون بالاحتكام الى السيف، فسأتصدى لهم بالسيف والترس.

لم يؤثر عن [پومپي] قطّ أنه تفوه أو اقدم على شيء شبيه بهذا قبل ذلك اليوم. ولا ما يدانيه في التحدي والصلافة. مما دعا مشايعيه الى بذل الجهود العظيمة في الاعتذار عما بدا منه فقالوا: انها زلة لسان وعثرة غير مقصودة». إلاّ ان تصرفاته التالية دلت بوضوح أنه وضع نفسه في خدمة [قيصر] بصورة كليّة. فقد اقدم على غير انتظار وخلافاً لكل متوقع، على الزواج من [يوليا] بنت قيصر، وكانت مخطوبةً لغيره؛ وعلى اهبة الزواج من خطيبها [كيپيو] في غضون ايامٍ قلائل. ولأجل تهدئة غضب [كيپيو Cipio] عمد [پومپي] الى اعطائه ابنته التي كانت مخطوبة من قبل لابن [سيللا] المدعو [فاوستوس Faustus]. وتزوج [قيصر] في الوقت ذاته [كالفورنيا Calphornia] بنت [پيسو Piso].

وبعد هذا ملأ [پومپي] مدينة روما بالجنود وفرض كل شيء اراده بالقوة. وفيما كان [بيبولس] القنصل متوجهاً الى الفورم برفقة [لوكولوس] و[كاتو] انقض بعضهم فجأة عليهم وكسروا حزم عصيّ الحرس الخاص وصبّوا على رأس [بيبولوس] اناءً مملوءً بالغائط وجرحوا اثنين من تريبونات الشعب كانا في معيتهما، جراحاً بليغة في اثناء الاشتباك. وهكذا نظف الفورم من خصومهما كافة. وتمكنا من فرض لائحة قانون تقسيم الاراضي وشرعوها. ولم يقف الأمر بهما عند هذا الحَدّ فبعد ان ابتلعت جماهير الشعب هذا الطعم، وبات الجميع قاطبةً رهن اشارتهما لم تعد تسأل أو تستفسر عن أي امرٍ أو اجراءٍ وكانت تعطي اصواتها بالموافقة على كل مشروعات القوانين التي يقترحانها دون الاعتراض بكلمةٍ واحدةٍ. وهكذا ثبتا كلّ المراسيم

والاجراءات التي اصدرها [پومپي] وكانت موضع معارضة [لوكولوس] وقررّ الشعب تسليم حكم اقليم الغال جنوب الألب وشماله مع [الليريكوم Illyricum] لمدة خمس سنوات. كذلك أُمرّ على جيش قوامه اربع فرقٍ كاملة العدد والعدة، ثم نصب للسنة التالية القنصلين [پيزو] حمو [قيصر] و[گابينيوس] أعظم متملقي پومپي وأكثرهم تزلفاً اليه.

وعلى أثر هذه الاجراءات، حبس [بيبولوس] نفسه في منزله ولم يظهر في الحياة العامة طوال ثمانية اشهر متوالية مع أنه كان قنصلاً. وإنما كان يرسل بيانات حافلة بالنقد الحاد والاتهامات ضدهما. و[كاتو] الذي ظهر أن اقواله كانت بمنزلة النبوءات والوحي المنزل، لم يفعل شيئاً في مجلس الشيوخ غير التكهن بما سيحلّ بالجمهورية وبـ[پومپي] من كوارث ومصائب أمّا [لوكولوس] فاعتزل الحياة العامة لتقدمه في السنّ وتقاعد مستسلماً لدواعي الراحة، الأمر الذي اتاح [لپومپي] فرصة القول ان متاعب الترف ما كانت أكثر ملاءمة لشيخ، من متاعب الحكم. والواقع ان هذا القول كان يعكس وضعه الشخصي، اذ لم يمرّ وقت طويل بعد هذا حتى ترك له شدّة تعلقه بزوجته الفتيّة، الحريّة لتُسلمه هو أيضاً الى حياة التخنث فقد أوقف عليها كل وقته، ولازمها الى المغاني الريفية والى الحدائق غير ملقٍ بالاً البتة على ما يحصل في [الفورم] الى الحَدّ الذي حمل[كلوديوس] الذي كان آنذاك تريبون الشعب، على ارتكاب أشد اعمال التهور والطيش. فبعد أن نفي [شيشرون]، وأرسل [كاتو] الى قبرص بمهمة عسكرية تخلصاً منه، وخرج قيصر في حملته الى بلاد الغال، ما لبث ان وجد هذا [التريبون] أن الجمهور ينظر اليه كزعيم يستطيع ان يحقق كل رغباتهم. فحاول مباشرةً ابطال بعض مراسيم [پومپي]. وبدأ بان اخرج من السجن الملك الأسير [ديكران] وضمّه اليه وجعله أحد المقربين، ثم اتخذ اجراءات ضدّ عددٍ من اصدقاء [پومپي] هادفاً في ذلك الى توسيع سلطانه. ثم وفي مناسبة من المناسبات، كان [پومپي] حاضراً في مرافعة قضائية. فوقف [كلوديوس] في موضع يعلو على الآخرين وحوله جمع من رعاع القوم واوباشهم وراح يلقي على الجمهور أسئلة كالآتي:

- من هو الجنرال الذي انغمس في الملذات؟
- من هو ذلك الرجل الذي عشق رجلاً آخر؟
- من هو ذلك يحكّ رأسه بأصبع واحدة؟

وباشارة منه اذ يهزّ معطفه، يردّ الرعاع والسوقة على كلّ سؤال من هذه الأسئلة، كجوقٍ يرتلّ ترتيلاً مع المنشد. بصيحة عظيمة «پومپي، پومپي».

لم يكن هذا بالشيء الهين على [پومپي] الذي لم يتعود مطلقاً سماع اي تجريح بشخصه. كما كان أيضاً يفتقر الى التجربة في مواجهة مثل هذه الأمور. وقد تعاظم غضبه وحنقه عندما وجد مجلس الشيوخ ينضّم الى هذه المظاهرة الدنيئة، وعدّها جزاءً عادلاً نزل به، لغدره [بشيشرون]. ولكن الأمر تفاقم وبلغ حَدّ القتال ووقوع اصابات في الفورم. وقبض على أحد عبيد [كلوديوس] وهو يزحف نحو پومپي متسللاً من بين الجمهور وبيده سيف مسلول. فأتخذ [پومپي] من ذلك حجّةً لاحتجابه في بيته، أو لربما اتخذها ذريعة للاحتجاب والتخلص من اهانات [كلوديوس] وبذاءة اقواله، فلم يظهر قطّ في الفوروم طوال بقاء [كلوديوس] في منصبه. ولازم منزله وقضى وقته في التشاور مع الموالين والاصدقاء حول ايجاد افضل الوسائل لتهدئة سخط الاشراف واعضاء مجلس الشيوخ عليه. ومن المقترحات التي بحثت اقتراح تقدم به [كولليو Culleo] بطلاق [يوليا] وفصم عرى صداقته مع [قيصر] استجلاباً لرضا مجلس الشيوخ، فلم يوافق عليه. واقترح آخرون استدعاء [شيشرون] من منفاه، وهو رجل كان على الدوام خصماً عنيداً لـ[كلوديوس] وموضع اعزاز واحترام مجلس الشيوخ. وسهل على الناصحين اقناعه بهذا، فاستدعى أخاً [لشيشرون] الى الفورم وارسل بمعينه ثلّة قويّةً لتقديم طلب الغاء حكم النفي عن أخيه. فحصل اشتباك عنيف قتل فيه عددٌ وجرح كثيرون، وتمّ له التغلّب على [كلوديوس]. وما ان عاد [شيشرون] الى داره بعد صدور المرسوم حتى خفّ باذلاً كل جهوده لإحلال الصلح بين [پومپي] ومجلس الشيوخ. وساند القانون الخاص باستيراد القمح وتمّ تشريعه وبذلك جعل [پومپي] السيدّ المهمين على كل ممتلكات الرومان بَرّاً وبحراً ووضع تحت سيطرته المباشرة جميع الموانيء والاسواق والمستودعات. وبمختصر القول كل مجال نشاط التجار والزراع. وهذا ما حمل [كلوديوس] على انتقاد القانون بقوله انه لم يُسنّ بداعي قلّة القمح بل ان ندرة القمح أُفتعلت افتعالاً لأجل سنّ قانون يؤدي الى بعث الحياة في سلطان [پومپي] بعد أن تسربّ اليه الضعف والانحلال. ولكي يستعيد منصبه الامپراطوري من جديد. واعتبره آخرون خدعة سياسية احتالها القنصل [سبنثو] الذي كان من خططه ضمان المزيد من السلطة [لپومپي] وبذلك يؤمن لنفسه التعيين بمنصب قائد للحملة المزمع ارسالها لنجدة [پطليموس] الملك. على أن [كانيديوس Canidi-us] التريبون أقترح قانوناً آخراً يتمّ بموجبه ايفاد [پومپي] سفيراً دون جيش، بلا أكثر من [لكتورين] ليتوسط في حَلّ النزاع الناشب بين الملك [بطليموس] وأهالي الاسكندرية من رعاياه، الاّ ان [پومپي] لم يقبل، مع ان مجلس الشيوخ وضعه في قالب مقبول ظاهراً. وطرحه بشكل معقول، يتضمن ان المجلس ان يقررّ ذلك فلغاية وحيدة هي تحاشي تعريض [پومپي]

الى الأخطار، ألاّ انه عثر على رقاع مكتوبة - القيت هنا وهناك في الفورم وبالقرب من قاعة اجتماع مجلس الشيوخ اورد كاتبوها تعليقات ساخرة حول هذا القانون المقترح. كقولهم: كم سيكون [بطليموس] شاكراً لو عينوا [پومپي] جنرالاً تحت أمرته!، حتى [ديكران] الملك الأسير فقد قال مؤكداً أن [بطليموس] ترك مصر لا مضطراً ولا مكرهاً وانما نزولاً عند مشورة [ثيوفانس] ليس إلاّ، وكان هذا عند الادلاء بنصحه يرمي الى اتاحة الفرصة [لپومپي] كي يحصل على قيادة جديدة وبجمع المزيد من المال. إلاّ ان افتقار [ثيوفانس] الى الاخلاص لا يذهب به بعيداً الى الحدّ الذي يجعل هذه الحكاية معقولة. بقدر ما كان خلق [پومپي] بعيداً عنها. اذ كان طبعه ينفر من كل عملٍ دنيء خداع. مما يجعل الحكاية بعيدة عن الحقيقة رغم ما عرف عن [پومپي] من الطموح الى المجد.

وهكذا عيّن [پومپي] مديراً عمومياً للاعاشة والارزاق واتّسع سلطانه ليشمل كل تجارة الحبوب، وبعث بنواب له ووكلاء الى اطراف المعمورة. وقصد بشخصه كلاً من صقلية وسردينية وافريقية وجمع كميّات هائلة من الحبوب. وفيما هو يهمّ بالابحار عائداً الى ارض الوطن، هبت على البحر عاصفة هو جاء كاسحة وشك قباطنة السفن في السلامة، فما كان من [پومپي] إلاّ وتقدمهم الى السفينه فصعد اليها وطلب من البحارة رفع المرساة قائلاً بصوتٍ جمهوري، «لما كانت الضرورة تقتضي الابحار فلات ثم ضرورة للحياة» وبهذه الروح الوثابة والاقدام وبعد ان حالفه اليمن والتوفيق، أكمل رحلته الى الوطن بسلام وملأ الأسواق بالقمح، والبحر بالسفن ونجم عن توفير الارزاق بمقادير عظيمة، احتياطيّ كاف لا لمدينة [روما] وحدها بل للمدن الأخرى التي كان فيض الزرع يتمدّ اليها من كل طرف مثلما تتدفق مياه الينبوع الى كل جهة.

في تلك الاثناء، تعاظمت قوة [قيصر] واشتهر أمره بحروبه الظافرة في بلاد الغال. وفي الوقت الذي بدا بعيداً عن [روما] منشغلاً في قتال [البلجيك] و[السيوفيين Suevians] و[البريطون، كان في الواقع يعمل في السرّ وبغاية الدهاء بين الجماهير على مناهضة نفوذ [پومپي] في كلّ القضايا السياسية الهامة. وكان يتمتع بثقة جيشه الذي التفّ حوله كأنما هو جسدٌ له ودان له بالولاء المطلق واو كأنه لم يكن يستخدمه لأغراض الحرب وتحقيق الانتصارات على البرابرة، أو كأن قتاله مع البرابرة ليس غير تمارين رياضية وسباقات خيل وطراد. فقد بذل كل جهدٍ فيه وافنى اوقاته في تدريبه وضبطه فجعله مصدر رهبةٍ، لايمكن ان يقهر. هذا من جهةٍ، ومن جهة أخرى كسب عطف الشعب بتوزيع الذهب والفضة التي اغتنمها مع الأسلاب والكنوز الأخرى عليه ومدّ يد العوف المالي «للايديل والپريتورين والقناصل» وسدّ

حاجات زوجاتهم من النفقات. وبهذا تمكن من شراء ما يفوق الحصر من الاصدقاء والموالين. حتى انه لما اجتاز الألب عائداً، واتخذ مقره الشتويّ في مدينة [لوكّا] تقاطر عليه ما لايحصيه العدّ من الناس رجالاً ونساءً يتزاحمون ويتدافعون بالمناكب ليحضوا بالتقرب منه،ومن بين مستقبليه هؤلاء مائتا عضوٍ من مجلس الشيوخ، بينهم [پومپي] نفسه و[كراسوس]. وشوهد أمام بابه مرة واحدة ما لا يقل عن مائة وعشرين لكيتوراً يحملون الفؤوس اشارة واضحة الى من وجد في مجلسه ممن يحملون رتبة [پرو قنصل] و[پريتور]. ولم يترك مستقبليه يعودون خالي الوفاض بل ودعهم وهم مثقلون بالأموال مفعمون بالآمال. ثم انه عقد مع [پومپي] و[كراسوس] اتفاقاً خاصاً على أن يقوما بترشيح نفسيهما للمنصب القنصلي للدورة القادمة. ووعدهما بارسال عددٍ من جنوده وقت الاقتراع لمنح اصواتهم لهما حتى اذا تمّ انتخابهما، وجب عليهما ان يستخدما نفوذهما ليفوزا بقيادة بعض الفرق الرومانية والاقاليم. ومقابل هذا يثبت [قيصر] في قيادته الحالية لمدة خمس سنوات أخرى.

ولما أفتضح أمر هذه الصفقة وعرفه عموم الناس، سبب سخطاً عظيماً بين كبار الرومانيين في المدينة. ونهض [مارچللينوس] في اجتماع عام طالباً من [پومپي] و[كراسوس] الجواب عما اذا كانا قد قررا حقاً التقدم للمنصب القنصلي وراح الجمهور يسانده في ذلك بالحاح فتكلم [پومپي] اولاً وقال من المحتمل ان يرشح نفسه وقد لا يرشح وكان [كراسوس] أكثر ليناً واقل صلافةً من زميله فقد ردّ يقول: انه سيفعل ما يراه أكثر تمشياً ومصلحة الجمهورية، ولكن [مارچللينوس] أشتد في هجومه على [پومپي] وصارحه بالرأي الذي استقرّ عليه الجميع في شخصه. وكان يتكلم بشيء غير قليل من الحرارة فردّ عليه [پومپي] قائلاً: أن [مارچللينوس] هو أبعد الناس عن الانصاف. لظهوره الآن بمظهر ناكر الجميل، بعد الذي صنعه له فجعله خطيباً وهو الأبكم العيّ، وارتفع به من حالة البؤس والجوع الذي كاد يميته، الى حالة التخمة والشبع، حتى انه ما عاد قادراً على ضبط نفسه.

ومهما يكن من أمرٍ، فقد سحب معظم المرشحين للمنصب القنصلي ترشيحهم. إلاّ ان [كاتو] شجع [لوشيوس دوميتيوس] واقنعه بابقاء ترشيحه قائلاً: ان القضية الآن ليست قضية منافسة على المنصب بل الحريّة لإنقاذها من الطغاة الغاصبين. فخشي انصار [پومپي] ان يؤدي اصرار [كاتو] العنيد، الى تأليب كل اعضاء مجلس الشيوخ، وبالتالي الى استمالة كل العناصر الطيبة من طبقة العامة وجرّها وراءه. فقرروا مقاومة [دوميتيوس] بدون ابطاء وعزموا على منعه من دخول [الفورم] وتحقيقاً لغرضهم هذا بعثوا بشرذمة من المسلحين الى الفورم واصطدموا باتباع [دوميتيوس] وهو يريد الدخول فقتلوا حامل مشعله الذي كان

يتقدمه منيراً له الطريق وهزموا الباقين وآخرهم [كاتو] نفسه الذي اصيب بجرح في ذراعه اليمنى اثناء ما كان يدافع عن [دوميتيوس]. بهذا الوسائل، رالأفاعيل تمكنا من الفوز بالمنصب القنصلي. ولم تكن تصرفاتهم اللاّحقة بالتي تقلّ عن هذا. ومن أبرزها، هو انه لما اتفقت كلمة الشعب على اختيار [كاتو] لمنصب البريتور وهمّ الناخبون بالإدلاء باصواتهم له، عمد [بومبي] الى فضّ الإجتماع متذرعاً بحدوث اشارة سماوية تنذر بالنحس، وبعدها نجح في شراء القبائل بالمال، فانتخبوا [ڤاتينيوس Vatinius] بريتوراً بدلاً من [كاتو].

وتقدم القنصلان الجديدان ايفاءً منهما بتعهدهما لقيصر بعدة قوانين اقترحها [تريبنيوس Trebinius] التريبون تضمنت تجديد فترة حكم [قيصر] على اقليمه لمدة خمس سنوات أخرى، كما عهد الى [كراسوس] بحكم سورية وقيادة الجيش في الحرب مع الفرثيين. وانيط [ببومبي] حكم كلّ افريقيا مع اقليمي اسپانيا، وسلموه قيادة اربع فرقٍ عسكرية، ما لبث ان اعار اثنتين منها [لقيصر] بناء على طلبٍ منه، لاستخدامها حروب الغاليين.

وما ان انتهت مدة قنصلية [كراسوس] حتى رحل الى اقليمه [سورية] في حين تلكأ [بومبي] فترةً من الزمن في [روما] لافتتاح ملعبه، وقدم فيه للجمهور كل ضروب الالعاب والتمثيل بضمنها التمارين الرياضية والموسيقى. وكان ثم مشاهد صيد الحيوانات الضارية ومصارعتها، حتى قيل انه قتل خلال ذلك خمسمائة أسدٍ وكان اغرب ما فيها وأكثره هولاً قتال الفيلة. فنال بهذه الحفلات شهرةً وعظم قدرة عند الشعب. إلاّ انه من الجهة الثانية خلق له من الحساد ما لايقلّ عن المحبين بتسليم حكم الاقاليم المناطة به وقيادة فرقة التي أُمرّ عليها الى اصدقائه ومساعديه في حين كان يتنقل هنا وهناك، ويقضي كل اوقاته مع امرأته في مغانيه التي لايخلو منها مكان في ايطاليا. والأمر سواء، أكان شديد الحب لها، أو كانت هي شديدة التعلق به، فتحاشى ايلامها بالرحيل عنها. فالمسألة واحدة من هذه الأمور كما أشيع. وكان الحبّ الذي خصت به هذه الزوج الفتيّة بعلها الكبير السنّ موضع الملاحظة العامة، وقد عزي كما يبدو الى اخلاص [بومبي] للحياة الزوجية ورصانة اخلاقه التي كانت تمتاز بقدر كبير من الدماثة واللطف في الروابط الخاصّة، كذلك كان هو بصورة خاصةً محبوباً عند النساء، ويمكن ان يتخذ عن [فلورا] العاهرة خير دليل على ذلك.

واتفق انه ثار نزاع دمويّ في الجمعية العامة اثناء عملية انتخاب [الايديل] واقتتل الجمهور فيما بينه فسقط بعض ممن كان يحيط بـ[بومبي]. ولما وجد ثيابه ملطخة بالدماء، أمر ان يؤتي لهم بثياب أخرى. إلاّ ان الخدم الذين عادوا ثيابهم الملطخة اثاروا جلبة وضوضاء بركضهم في ارجاء المنزل وصادف ان رأت السيدة الشابة التي كانت وقتئذ حاملاً، تلك الثياب

الدامية ففقدت وعيها ولم تعد الى الحياة إلاّ بعد لاي، وادركها المخاض في غمرة رعبها ولشدّة وقع الصدمة فاجهظت.

ولم يكن أحد يستطيع لومه بسبب شدة تعلقه بهذه الزوج الوفيّة حتى أولئك الذين وقفوا ضدّه بسبب صداقته [القيصر]. وقد حملت ثانية ووضعت بنتاً وقضت نحبها وهي في فترة النفاس ولم تعمر البنت بعدها غير ايام قلائل فماتت. وكان [پومپي] قد هيّأ كل شيء لدفن جثمانها في منزله. إلاّ ان الجمهور استولى عليه عنوةً وقام بالمراسيم الدينية المقتضية لها في ساحة [مارس] تعبيراً عن شدّة تعلقه بالسيدة الصغيرة. وتفضيلهم لها على [پومپي] و[قيصر]. ومع هذا فان الجمهور على ما بدا، كأن وقتذاك يخصّ [قيصر] بنصيبٍ من التكريم في غيابه أوفر مما كان يخصّ به [پومپي] وهو حاضر.

وعلى حين غرّة أخذت المدينة تغلي، وتفور فوراناً كما يقال - باقتراب هبوب العاصفة وساد الهرج والمرج في كل مكان وشاع القلق في النفوس، وذاعت الاحاديث التي تفوح منها رائحة التفرقة والشنآن. فقد وضع موت [كراسوس] نهاية لعلاقة كانت حتى تلك الساعة قناعاً زائفاً أكثر من كونها وسيلةً طغيان واطماع الرجلين [پومپي وقيصر]. اذ ما مر طويل زمنٍ على ذاك الإتفاق الثلاثي، حتى جاءت الرسل من بلاد فارس تنعي [كراسوس]. فازيل بهذا الموت حاجزٌ آخر من شأنه ان يمنع نشوب الحرب الأهلية، لأن [قيصر] و[پومپي] كانا شديدي الحذر من [كراسوس]، وكانت رهبتهما منه تشدانهما بعضاً الى بعض نوعاً ما وتجعلهما ضمن حدود التصرفات المعقولة، طالما كان في الحياة. والآن وبعد أن هصرت آلهة الحرب هذا النصير الذي كان من الممكن أن يهبّ أقليمه لمقارعة الغالب والثأر للمغلوب، فلك أن تنشد قائلاً مع الشاعر الساخر:

المحاربون ينتظرون البدء بالقتال.

وكل منهم قد عفر يديه بالتراب ودهن بالزيت جسده.

لقد بلغ الحظّ من التفاهة امام الطبع البشري وبلغ من عجزه عن ارضاء عقل الطمّاع، أنّ امبراطورية مترامية الأطراف عظيمة السلطان تقف عاجزةً عن ارضاء واشباع اطماع رجلين فقط، ومع انهما قرآ وادركا جيداً:

إن الآلهة عندما قسّمت هذا الكون الفسيح بين ثلاثة: السماء والبحر وجهنم،
جلس كل واحدٍ منهما على عرشه قانعاً كل آله منهم يتمتع بملكه دون منافسة.
فانهما وجدا الامبراطورية الرومانية أضيق من ان تحتويهما معاً... وهما اثنان فقط!

مَرّةً، ذكر [پومپي] في احدى خطبه الشعبية، انه كان دائماً يتسلّم السلطة دون ان يتوقع وجوب ذلك وانه كان كذلك يتخلّى عنها قبل أن يتوقع الناس تخليه عنها. ولاشك أن تسريح كل جنوده يدلّ على صحة قوله. ومع ذلك عندما وجد أن [قيصراً] لايريد تسريح قواته. حاول بكلّ ما في طاقته تقوية نفسه والاستظهار عليه بتولي المناصب والقيادات في روما، ولم يبد خلاف هذا اية رغبةٍ في اجراء ايّ تغيير. ولم يكن يظهر عليه أنه يشكّ فيه، بل كان بالأحرى يحتقره ويزدريه. وعندما تبين كيف كانوا يفرقون المناصب الحكوميّة ويعنيون خلافاً لرغبته تماماً بسبب الرشاوى التي كانت تعطى للناخبين، ترك للأمور الحبل على الغارب، وأرخى العنان للمدينة لتسيير امورها بدون حكومة. واذ ذاك أخذ الحديث يدور حول وجوب تعيين دكتاتور. وكان أولّ الداعين الى ذلك [لوكولس] احد تريبونات الشعب فقد راح يحثّهم على نصب [پومپي] دكتاتوراً. إلاّ ان هذا التريبيون كاد يُعزل من منصبه للمعارضة التي لقيها اقتراحه من [كاتو]. امّا [پومپي] فقد ابذى اصدقاء كثيرون له يعتذرون عن هذا الاقتراح قائلين انه كان زاهداً بهذا المنصب ولم يكن ليريده قطّ – ولما القى [كاتو] خطبة ثناءٍ على [پومپي] وحثّ على التمسك بقضية الأمن والنظام في الجمهورية، انتاب [پومپي] الخجل من موقفه ورضخ. وبناء على ذلك انتخب كل من [دوميتيوس] و[ميسالا Messala] قنصلين لتلك الفترة. إلاّ ان الفوضى ما لبث أن عمت بعد ذلك بوقت وجيز، وحُلّ ما يدعى بالفراغ في الحكم. فزاد الكلام حول ضرورة تعيين دكتاتور وغدا أقوى كثيراً من السابق. وفكّر انصار [كاتو] بحلّ آخر بخصوص [پومپي] خلاف حَلّ تعينيه دكتاتوراً، ووجدوا الحكمة نقضي ابعاده عن السلطة المطلقة المستبدة بمنحه منصباً يتضمن سلطة واسعة إلاّ انها مقيدة باحكام القانون ان [بيبولوس] الذي كان خصماً [لپومپي] كان الأسبق باعطاء صوته في مجلس الشيوخ على أساس تعيين [پومپي] قنصلاً أوحد، وقال في تبرير اقتراحه: ان الجمهورية ستواجه في هذه الحالة امرين لا ثالث لهما، فإما ستزول الفوضى والاضطراب وإما ستخفّ وطأة عبوديتها باختيارها الأجدر والأفضل.

وعدت هذه الفكرة غريبة جداً من رجل [كبيبولوس]. لذلك كان الجميع يتوقعون معارضة [كاتو] لها عندما نهض للكلام. ولما ران السكون قال: انه لم يكن ليرغب لنفسه أن تتقدم بهذا الاقتراح. ولكن مادام صدر من آخر غيره فمن الواجب الأخذ به. واستتلى بقول ان كل شكل من اشكال الحكم. أفضل من عدم وجود حكم. وانه لا يرى شخصاً أكثر لياقة من [پومپي] ليتولاه في مثل هذا الظرف العصيب والفوضى السائدة. فتمت الموافقة على الاقتراح بالإجماع وصدر مرسوم يقضي بأن ينصب [پومپي] قنصلاً أوحد. بقيد واحد وهو ان

له الحق في اختيار من يشاء ليحكم معه كقنصل ثانٍ اذا وجد ضرورة لذلك. على أنه لايستطيع استخدام هذا الحق إلاّ بعد مرور شهرين من قنصليته.

وبهذا أعلن [پومپي] قنصلاً أوحد من قبل [سولپيشيوس] الوصي على هذا المنصب الشاغر. وعندها ابدى امتنانه العميق [لكاتو] مصرحاً بأنه مدين له شخصياً وراجياً منه ان يمحضه النصيحة في شؤون الحكم فاجابه [كاتو] قائلا:

- لا داعي هناك لشكري لان كل ما فعلته انّما لمصلحة الجمهورية لا لمصلحتك الشخصيّة. ألاّ اني سأكون مستعداً على الدوام لتقديم نصح شخصيّ اذا طلبت منيّ ذلك. فإن لم تطلب، فإني لن اتردد أو أتاخر عن التصريح بما اراه حقاً...

كذا كان سلوك كاتو في جميع الظروف والمناسبات



وعند عودة [پومپي] الى المدينة تزوج من [كرونيليا] بنت [ميتللوس سكيپيو] ولم تكن باكراً، بل كانت ارملة [پوبليوس] ابن [كراسوس] الذي توفي حديثاً في بلاد الفرس. وقد جمعت هذه السيدة الصغيرة الى شبابها وجمالها صفات أخرى، فقد امتازت بعلو الثقافة واجادة العزف عن العود، ألمّت بالهندسة. وأعتادت ارتياد دروس الفسلفة واستيعابها. وكل هذا كان قميتاً بأن تتحلى به الفتيات الطموحات العاطلات عن الجمال، بدرجات متفاوتة. كما يلاحظ المرء أحياناً في سلوكهن هذا السبيل من التتبعات. ولم يكن ثمّ ما يشين أسرة ابيها ولا ما يشوب سمعته فضلاً عن ذلك. الاّ أن الفارق الجسيم بين عمريهما لم يقع موقع رضى واستحسان من الجميع. وكانت [كورنيليا] من هذه الناحية أنسب للزواج من ابن [پومپي] ورأى اصحاب الحَلّ والعقد الأوفر عقلاً أن فيه اهانة موجهةً للجمهورية بعد أن شاهدوا ذلك الذي او دعوا اليه وحده مصائرهم ومستقبلهم المدلّهم، منتظرين منه ما ينتظرونه من طبيب يقوم بشفاء هذه المضاعفات والنكسات، وهو يتنقل من مكان الى آخر متوجاً بالزهر، يحي مآدب عرسه دون ان يفكر بأن القنصلية التي عهدت اليه، ما أعطيت له خلافاً للقواعد القانونية، لو كانت حالة البلاد مستقرة مزدهرة. ومهما يكن من أمرٍ فانه بدأ بعد ذلك يهتمّ في امور اخرى فراح يتعقب قضايا اولئك الذين وصلوا الى مناصبهم عن طريق الرشاوى والتقرب بالعطايا وأصدر مراسيم تقضي بمحاكمتهم وأصول المرافعات التي تتبع فيها ونظم ذلك بكلّ عدل ورزانة فاعاد بذلك الى قاعات المحاكمة الهدوء والنظام. وكان يحضر تلك المحاكمات بنفسه مصحوباً بعدد من الجند.

ولكن لما اتهم [سكيبيو] حميّه، استقدم الى داره القضاة الثلاثمائة والستين وطلب منهم ان يكونوا الى جانبه.

وعندما شاهد المشتكي [سكيبيو] المتهم، قادماً الى المحكمة برفقة قضاته لم يسعه إلاّ ان يسحب شكواه، واتهاماته له، الأمر الذي اثار الأقاويل الكثيرة على سلوك [پومپي] والانكى من هذا كله بمالا يقاس ما أقدم عليه في قضية [پلانكوس Plancus]. فقد أقبل الى المحكمة بنفسه حيث يحاكم هذا الشخص وقام خطيباً يمدح المهتم ويطري اعماله في الوقت الذي كان هو نفسه قد اصدر قانوناً منع بموجبه القاء كلمات المديح والاطراء بحق المتهمين اثناء محاكمتهم؛ الأمر الذي حدا بـ[كاتو] الذي كان واحداً من القضاة آنذاك - الى أن يضع اصبعيه في أذنيه قائلاً ان ضميره يأبى عليه الاصغاء الى اطراء ممنوع بحكم القانون. فعُزل [كاتو] ونحي عند مجلس القضاء في هذه الدعوى قبيل صدور الحكم. الاّ ان بقية القضاة ادانوا [پلانكوس] مع هذا وهو ما الحق [پومپي] العار. وبعد ذلك بفترة وجيزة، وقف [هيپسيوس Hypaseus] وهو من القناصل السابقين ينتظر بباب [پومپي] عودته من الحمام لتناول العشاء، وكان متهماً بقضية. فما أن رآه مقبلاً حتى خسرّ جاثياً على قدميه متوسلاً به ليتشفع له في مسألته. إلاّ أنه اجتازه وتركه جاثياً باحتقار قائلاً له «أنك بهذا أفسدت عليٌ عشائي ليس إلاّ».

لقد عُدّ هذا التحيز وتلك المحاباة من [پومپي] نقصاً كبيراً فيه وحُمّل بسببه انتقاد الكثيرين. ومهما يكن من امر فإن تصريفه للشؤون العامة الأخرى كان متسماً بطابع الحكمة والتعقل. فقد أرسى قواعد الحكم على أفضل النظم. واختار حميّه زميلاً له في القنصلية للأشهر الخمسة الأخيرة من فترته. وبقيت الأقاليم التي انيط به حكمها لأربع سنوات تالية، مع تفويضه بحق سحب ألف [تالنت] سنوياً من الخزانة العامة لدفع مرتبات جيشه.

كل هذا أفسح المجال لبعض اصدقاء [قيصر] بأن يطالبوا لصاحبهم ببعض الاهتمام والرعاية أيضاً. قالوا انه هو الآخر قد أدى خدمات جليلة في ميادين الحرب وخاض غمار معارك عديدة في سبيل الامبراطورية وزعموا انه يستحق على أقل تقدير المنصب القنصلي لفترةٍ ثانية. أو أن تجدد له فترة حاكميته على اقليمه لتتسنّى له فرصة الحكم والاستمتاع في وقت السلم بما احرزه في الحرب. وليس من العدل في شيء أن يأتي خَلَفهُ ليجني ثمار مجهوداته واتعابه وليسلبه مجد أعماله، وقد نجم عن هذه الاحاديث مناقشات ومداولات.
وحمل [پومپي] على عاتقه مهمة ترويج الدعوة [للقيصر] بدافع العطف كابتاً اي شعور حسدٍ يحمله له. فأخذ يردد قائلاً انه تسلّم من [قيصر] رسائل يعبر له فيها عن رغبته بالاستقالة

من القيادة ويطلب تعيين خلفٍ له. وانه ليس من العدل في شيء انه تلبى هذه الرغبة فيه، بل من الحق ان يسمح له بترشيح نفسه للمنصب القنصلي ولو كان غائباً. إلاّ أن أنصار [كاتو] عارضوا في هذا قائلين: إن كان [قيصر] يريد تقديراً من المواطنين على اعماله، فينبغي له أن يتخلّى عن جيشه ويأتي الى روما كأي شخصٍ اعتيادي لترشيح نفسه. فلم يردّ [پومپي] على هذا القول، وتركه يمرّ دون تعليق، كأنما اسقط في يده، وخذل اقتراحه. مما زاد في شكوك اولئك الذين كانوا يعتقدون بأنه يضطغن [لقيصر]، كما أنه أسرع في الوقت نفسه يستقدم الفرقتين اللتين كان قد اعارهما له متعللاً بالحرب الدائرة في بلاد فارس. ومع ان [قيصراً] كان على علم تامٍ بالدافع الذي حمل [پومپي] على استردادهما فلم يتلكأ واعادهما الى الوطن مثقلين بالعطايا والهبات السخية.

في حدود هذا الزمان أبلّ [پومپي] من مرضٍ خطير فوجيء به وهو في [ناپلي]. وباقتراح تقدم به [پراكساگوراس Praxagoras]، قام أهالي المدينة كلهم بتقديم الضحايا ورفع صلوات الشكر للآلهة على سلامته، واحتذت البلدان المجاورة حذو ناپلي وقامت ايطاليا كلّها تقرب الى الآلهة بهذه المناسبة فلم تبق مدينة صغيرة كانت أم كبيرة الأ واحتفلت بذلك ولعدّة ايام.

وتقاطرت جموع غفيرة جداً لزياراته من جميع الأطراف حتى لم يكن ثم مكان لاستيعابها وأكتظت القُرى والثغور بل امتلأت الطرق الخارجية بالناس وكلهم يحتفل ويقرّب للآلهة وقصده كثير منهم وقد توجوا رؤوسهم بأكاليل الزهر وحملوا المشاعل وراحوا ينثرون عليه الورد وباقات الزهر اثناء مروره. وهكذا كانت مناسبة شفائه واستقباله واحدة من أبدع وافخم ما يمكن للمرء أن يتخيله. على ان هذا الأمر بالذات أعتبر سبباً ليس بالصغير الشأن من الأسباب التي أدت الى وقوع الحرب الأهلية، ذلك لأن [پومپي] الذي تغلب على نفسه الشعورُ بالعظمة والسؤود، واعماه عن تلمس الاعتبارات الأخرى الأكثر ثباتاً، ورجاحة، فقد توازنه بمظاهر التمجيد الفخمة والفرح العام، واطرح ذلك العقل الذي كان حتى تلك الساعة يهديه الى أسلم استعمال لحظّه الحسن. واستسلم لتلك الثقة المفرطة بنفسه واستخف بسطوة [قيصر] حتى لم يعد يفكر بمدى قوة السلاح ولا بأخذ الحذر لنفسه وتوهم أن بامكانه أن يعتقله متى ما شاء ويقذف به من حالقٍ بأسهل مما كان قد رفعه. فضلاً عن هذا فإن [آپيوس] قائد الفرقتين اللتين اعادتهما [قيصر] الى [پومپي] من بلاد الغال، راح يكلّم [پومپي] مستهيناً باعمال قيصر هناك مزدرياً كل ما حققه ونشر أخباراً شائنة وفضائح حوله وكان لايفتأ يردد على مسامع [پومپي] متملقاً بأنه لايدري كم هو قويّ حسن السمعة وسيفلح

بذلك مهما كانت القوات التي يستخدمها ضدّ قوات [قيصر] وان بغض الجنود [القيصر] يعادله حبهم له بحيث لن يترددوا في الإنضمام اليه ساعة يبرز لهم شخصه. وهكذا انتفخت اوداج [پومپي] بما سمعه من اطراء ومداهنة وادّى به ذلك الى اطراح جانب الحذر واللامبالاة وراح يضحك مستخفاً بأولئك الذين أخذوا يبدون تخوفهم من الحرب وقال بعضهم متسائلاً.

- اي قوى ستقف في وجه [قيصر] لو شاء ان يزحف على روما؟

فاجابه [پومپ] مبتسماً مطيباً الخواطر:

- انعموا مالاً. ففي الوقت الذي اخبط بقدمي على أيه أرض من ايطاليا نستخرج فوراً قوات كافية من الخيالة والرجالة!

***

وكان [قيصر] من الجهة الأخرى يزيد من نشاطه وعنف اجراءاته فهو على الدوام قريب من الأرض الايطالية، ولذلك عمد الى ارسال جنوده باستمرار الى المدينة ليحضروا الانتخابات ويدلوا باصواتهم كما انه نجح في افساد ضمائر عددٍ كبير من القضاة، ووضع اسماءهم في قوائم من يدفع لهم، ومن بين أولئك [پاولوس] القنصل الذي اشتراه وضمه الى حزبه، برشوة قدرها ألف وخمسمائة تالنت، و[كيوريو Curio] تريبون الشعب الذي قام عنه بايفاء كل ديونه المتكاثرة عليه. و[مارك انطوني Marc Antony] الذي أصبح مرتبطاً به بعين الارتباطات التي شدت اليه الآخرين، بسبب صداقته [لكيوريو]. ومن الوقائع المرويّة الثابتة أن [سنتريوناً] من جيش [قيصر] وقف عند باب قاعة مجلس الشيوخ منتظراً تجديد عقد خدمته سنة اضافية. وعندما سمع أن طلبه هذا قد رفض مد يده الى سيفه وضرب كفّها عليه قائلاً:

- هذا هو الذي سيجددها سنة أخرى.

والواقع ان كلّ أعمال [قيصر] ونشاطه كان يشير الى نواياه ويفصح عن اغراضه. على أن مقترحات [كيوريو] وطلباته لمصالح [قيصر] كانت تبدو في مظهرها شعبية، تتوخى المنفعة العامة. فمما أقترحه هو ان يؤخذ بأحد أمرين: إما ان يطلب كذلك من [پومپي] التخلّي عن قيادة جيشه. وامّا ان يبقى [القيصر] ايضاً جيشه. اذ لو عاد كلاهما مواطنين عاديين فسيرضخان لهذا التدبير العادل البسيط. ولو أحتفظ كل منهما بسلطته الحالية فسيكون كل واحدٍ منهما نداً للآخر وسيقنعان كلّ بما في يده. لأن ما يُضعف أحدهما يقويّ الآخر وبذلك تطغى تلك السلطة التي كان يخشى منها في السابق. وكان كل ما أجاب [مارچللوس] عليه

في هذا الصدد قوله أن [قيصر] لصّ، ويجب أن يعلن بأنه عدوّ للدولة إن لم يسرّح جيشه. ومهما يكن من أمرٍ فقد نجح [كيوريو] في مسعاه بمساندة كل من [انطوني] و[بيزو] ووضع اقتراحه موضع تصويت في مجلس الشيوخ. وطلب من أولئك الذين يرون وجوب قيام [قيصر] بالتخلي عن جيشه وبقاء [پومپي] على رأس جيشه الانسحاب، فانسحبت الأغلبية. لكن لما طلب انسحاب اولئك الذين يرون وجوب قيام كليهما بتسريح جيشيهما التخليّ عن القيادة لم يصوت لـ[پومپي] غير اثنين وعشرين امّا الأغلبية فقد وقفوا الى جانب [كيوريو] وهنا قفز على قدميه فخوراً بنصره ونزل الى المدينة بين الجماهير في موكب نصرٍ، فاستقبلته بأعظم مظاهر الفرح مصفقةً مهللة وتوجته بالغار والازهار ولم يكن [پومپي] اثناء ذلك ذلك كله موجوداً. اذ يقضي القانون ان يمنع القواد المتسلمون قيادات عسكرية الدخول الى المدينة. الأ ان [مارچللوس] نهض من مقعده. وقال وهو يهم بالخروج «انه لم يجلس هنا لسماع الخطب في حين تعبر عشر فرق جبال الألب زاحفةً نحو المدينة. وانه بمقتضى السلطة التي يملكها سيقوم بارسال أحد ما للتصدي لها دفاعاً عن سلامة البلاد.

وعلى أثر ذلك خيّم الوجوم على المدينة وارتدت الحداد كأن نكبة عامة وقعت عليها. وخرج [مارچللوس] يرافقه اعضاء مجلس الشيوخ بموكب مهيب الى الفورم لمقابلة [پومپي] ووجه اليه العبارات الآتية:

– اني اعطيك يا پومپي الأمر بالدفاع عن بلادك، ولك ان تستخدم الجنود الذين هم الآن تحت امراتك وان تجند ما تنستبهُ.

وأعقبه [لنتللوس] القنصل المنتخب للفترة القادمة بنفس المآل. على ان [أنطوني] خلافاً لأمر مجلس الشيوخ خرج الى الجمهور وتلا في اجتماع عام رسالة وردت من [قيصر] تتضمن عروضاً معقولة في ظاهرها، من شأنها اجتذاب البسطاء من الناس، كاقتراحه ان يتنازل هو و[پومپي] عن السلطة ويسرّحا جيشيهما ويخضعا لحكم الشعب، ويقدما امامه حساباً عن أعماله. وقد ادّى هذا الى خيبة [پومپي] عندما بدأ في التجنيد فقد لبىّ الدعوة نفر قليل بدون رغبة. أما البقية فلم يلبوا الدعوة التي وجهت اليهم بالأسماء. وطالبت أغلبية الشعب بالسلام. ولم يجمع [لنتلوس] مجلس الشيوخ مع انه أخذ يمارس الآن سلطاته القنصلية . إلاّ أن [شيشرون] الذي عاد مؤخراً من [كيليكيا] حاول جهده اجراء الصلح مقترحاً أن ينزل [قيصر] عن أقليم الغال، ويتخلى عن قيادة الجيش المرابط فيه ويحتفظ بفرقتين فقط مع احتفاظه بحكم اقليم [ايلليركوم] وان يقدم على ترشيح نفسه للمنصب القنصلي مرة ثانية. ولم يعجب [پومپي] الاقتراح. أما اصدقاء [قيصر] فقد رضوا بأن يتخلى صاحبهم عن واحدٍ

من الاثنين. إلاّ أنّ [لنتلّوس] ظلّ معارضاً. وانشأ [كاتو] يهتف صائحاً ان [پومپي] ليرتكب زلةً كبيرة، اذ سمح لنفسه أن يكون مخدوعاً للمرة الثانية. وهكذا فشلت محاولة الصلح.

وفي عين الوقت وردت ابناء مفادها أن [قيصر] قد استولى على [أريمنيوم Ariminum] وهي مدينة ايطالية كبيرة، وانه يزحف رأساً الى روما بكلّ ما لديه من قوات. الا ان الجزء الثاني من النبأ لم يكن له أساس من الصحة. اذ لم يكن معه في ذلك الوقت أكثر من ثلاثمائة من الخيالة، وخمسة آلاف من الرّجالة. ولم يكن يريد أن يتعوق زحفه بانتظاره وحدات جيشه كلها التي كانت معسكرة وراء جبال الألب مفضلاً مفاجأة اعدائه وهم في حالة الاضطراب والفوضى، غير متوقعين مداهمته، على اعطائهم وقتاً كافياً لمنازلته وهم مستعدون. وعلى ما نعتقد أن توقفه برهة عند بلوغه ضفاف نهر [روبيكون Rubicon] الذي يفصل ما بين اقليمه وايطاليا - كان سببه تقليب رأيه في الأمر الجلل الذي يهّم بالاقدام عليه وانعام النظر فيه. كأولئك الرجال الذين يقذفون بأنفسهم دون تردد من شفا جرف الى هاوية لاقرار لها. أغمض بصيرته، واطرّح جانباً كل فكرةً عن الخطر الذي قد يحدق به، وسمعه من كان قريباً منه يقول باليونانية:

- Amerriphtho Kubos. لقد رمي النرد!

ثم سار في طليعة جيشه نحو روما.

ولما بلغت الانباء أهلها هاج هائجهم وضجّ ضجيجهم بشكل لم تره المدينة من قبل، وهرع اعضاء مجلس الشيوخ جميعاً الى [پومپي] فوراً ولحق بهم الحكام. وسأله [توللوس Tullus] عن فرقه وقادته. فصمت پومپي بعض الوقت ثم اجابه بشيء من التردد أن لديه تلكما الفرقتين اللتين اعادهما اليه [قيصر] وهما مهيئتان. كما انه قادر على تجريد ما يناهز الثلاثين ألفاً ممن دعوا للخدمة. فصاح توللوس:

- آه لك يا پومپي، لقد غششتنا.

وأقترح ارسال وفد مفاوض الى [قيصر]. أمّا [فافيونيوس Favonuis] وهو انسان قويم الخلق إلاّ انه كان يحسب ان كلامه اللاذع القاسي مطابقاً لصراحة كلام [كاتو]، فقد طلب من [پومپي] أن يضرب الأرض بقدمه لتخرج منها القوات التي وعدهم بها من قبل. ولكن [پومپي] احتمل وهو كاظمٌ هذا المزاح الذي لم يكن في محله. وعندما ذكرّه [كاتو] بما كان قدّ تنبأ به حول [قيصر] منذ البداية، لم يفتح من جواب على [پومپي] الاّ قوله: ان [كاتو]

قد نطق بوحيّ النبوّة فعلاً، لكن [پومپي] تصرف بمثابة صديق. واقترح [كاتو] بعد هذا، أن ينصب [پومپي] جنرالاً، وان يمنح صلاحيات وسلطات مطلقة قائلاً ان اولئك الذين يرتكبون أكبر الشرور هم ادرى من غيرهم بكيفية ازالتها. ثم انه غادر المدينة متوجهاً رأساً الى صقلية وهي الأقليم الذي كان قد أنيط به حكمه. كذلك رحل كل الشيوخ الآخرين، الى مناطق وظائفهم.

وهكذا أمست ايطاليا في حالة حرب. وحار الناس فيما يختارون عمله؟ فمن كان «لا يسكن المدينة هرع اليها من كل صوب محتمياً بها. ومن كان من قاطنيها صار يشاهد الفوضى والاضطراب اللذين ساداها، ويرقب انفراط حبل الأمن والنظام وشق عصا الطاعة على الرؤوساء، وعصيان الأوامر وهو ما كان أعظم وأخطر مما يتمكن الحكام من معالجته، فأخذوا يتركون المدينة بأسرع مما يدخلها القادمون، واستحال تبديد مخاوفهم وقلقهم، بحيث أنهم ما كانوا ليَدعوا [پومپي] يتبع ما يوحيه اليه ضميره وراح كلٌ من جانبه يلّح ويلحف عليه لتنفيذ ما يراه مناسباً وصحيحاً وان كان منشأ رأيه الشكّ أو الخوف أو الحزن. أو أي عاطفة أخرى أدنى قدراً من هذه. فكان يتخذ قرارين مختلفين في يوم واحد.

وتعذر أيضاً الحصول على انباء صحيحة عن حركات العدوّ. وكان كل من سمع بالصدفة اشاعة طائرة، ينقلها ويتداولها باعتبارها حقيقة ثابتة. ويستنكر من [پومپي] عدم الأخذ بها على علاّتها أخيراً بعد أن رأى [پومپي] مبلغ الفوضى التي تعّم روما، أعتزم في نفسه ان يضع حداً لها برحيله عنها. فأمر أن يلحق به اعضاء مجلس الشيوخ كلهم، وأعلن بأنه يعتبر كل متخلف منهم متواطئاً مع [قيصر] وصنيعة له. وعند الغسق - قبيل مغرب الشمس خرج من المدينة وخلفها وراءه وتبعه القنصلان فوراً دون ان يسمع لهما الاستعجال بالتقريب الى الآلهة كما هي العادة قبل كل حرب. ولكن [پومپي] حاز الشرف بين الجميع اذ ظلّ وسط هذه المحن والشدائد محتفظاً بقلوب الرجال وثقتهم. ومع أن الكثير انتقدوه على سوء ادارته دفة الحرب، الاّ انه لم يكن ثم رجل واحد كره القائد. وعلينا هنا التمييز بين أولئك الذين خرجوا من روما لأنهم لايستطيعون التخليّ عن [پومپي]، وبين أولئك الذي هربوا منها حُبّا في حرياتهم.

بعد مرور ايام قلائل على خروج [پومپي]، دخل قيصر روما وبسط نفوذه عليها وعامل الجميع بقدر كبير من اللطف وهدأ روعهم وازال مخاوفهم باستثناء [ميتللوس] احد التريبونات الذي رفض ان يمكّن [قيصر] من أموال الدولة، فهدده [قيصر] بالموت، وزاد على تهديده هذا عبارات اشدّ وقعاً. كان اسهل عليه ان يفعلها من أن يقولها. وطرد [ميتللوس]

وأخذ ما يحتاجه لتصريف أموره. وأنطلق لتعقيب [پومپي] باذلاً قصاراه لطرده بأسرع ما يمكن من ايطاليا قبل ان يلحق به جيشه المرابط في اسبانيا.

على ان [پومپي] وصل [برنديزيوم] وكان تحت تصرفه عدد كبير من السفن منها. فطلب من القنصلين الاقلاع فوراً. ونقل معهما ثلاثين كتيبة من المشاة على ان يلحق بهم فيما بعد - الى [ديراكيوم Dyrrhachium]. كما بعث حميّه [سكيپيو] وابنه [كينوس Cnaeus] الى سورية لاعداد اسطول. ووضع أخفّ مشاته حرساً على الأسوار واصدر الأوامر المشددة بأن لايغادر أهل المدينة منازلهم. وأخذ يحفر الخنادق ويقيم الموانع ويدق الاوتاد المدببة والعوارض في كل طرق المدينة باستثناء طريقين اثنين كانا يؤديان الى ساحل البحر. وبهذا تمكن في ظرف ثلاثة أيام من اخلاء بقية جيشه بسهولة. ثم اعطى فجأة اشارته للجنود القائمين على حراسه الأسوار بالانسحاب فأنسحبوا بسلام الى السفن المعدة لهم فركبوها وأقلعت بهم.

وفطن [قيصر] اثناء ذلك الى رحيلهم حين وجد الاسوار خاليةً، فأسرع وراءهم. ولكنه لم يصب من عجلته غير الوقوع في فخاخ الخنادق، والموانع. إلاّ ان [البرنديزيين] أوضحوا له الخطأ الذي كاد يقع فيه، وارشدوه الى الطرق السليمة. فارتد على اعقابه ودار بالمدينة دورة منطلقاً نحو المرفأ، ليجد السفن قد اقلعت براكبيها تمخر عباب البحر. خلا اثنتين وقعتا بيده، ولم يكن فيهما غير القليل من الجنود.

اجمعت الأكثرية بأن انسحاب[پومپي] من ايطاليا كان عملاً من أفضل انجازاته العسكرية. إلا ان [قيصر] بالذات لم يتمالك نفسه من العجب لپومپي، في تركه ايطاليا، وكان يحتمي خلف اسوار مدينة محصنة منيعة، وينتظر قدوم قواته في اسپانيا، فضلاً عن كونه يسيطر سيطرة تامة على البحار جميعها. واتهمه [شيشرون] بان آثر أن يفعل فعل [ثيموستوكلس] لا فعل [پريكلس] في ظروف هي أقرب شبهاً بظروف [پريكلس] منها الى ظروف [ثيموستوكليس]. وعلى اية حال، فيبدو واضحاً من تصرفات [قيصر] انه كان كثيراً الخوف من عامل التأخير، وانه كان يتلهف للاشتباك [بپومپي]. بدليل أنه اسرع يرسل [نوميريوس Numerius] صديق [پومپي] سفيراً الى [بريندزيوم] حال وقوعه في اسره، وحمله عروضاً للسلم والصلح بشروط كريمة عادلة. إلاّ ان [نوميريوس] لم يعد اليه وابحر مع [پومپي].

بعد أن تمت [لقيصر] السيادة على كل ايطاليا في طرف ستين يوماً دون اراقة قطرة دم واحدة. استولت عليه رغبة شديدة في تعقيب [پومپي] دون ريث. الا ان السفن كانت تنقصه فاضطر الى تغيير اتجاهه وزحف على اسپانيا متوخياً استحالة قوات [پومپي] الى جانبه وضمها الى جيشه.

في الوقت عينه تمكن [پومپي] من حشد جيش جرار، براً وبحراً. وأمّا عن اسطوله فلم يكن بمقدور أحدٍ أن يتصدى له. فقد تألف من خمسمائة بارجةٍ مع لايحصى من السفن الخفيفة المرافقة لها. ومع قوم الليبورنيين[٢] Liburnians وآخرون غيرهم.

وامّا عن القوات البريّة فكانت خيالته تُعدّ سبعة آلافٍ وهي زهرة خيّالة روما وايطاليا من افرادها ذوي الثروة والجاه والروح المتوثبة. إلاّ ان مشاته كانت مزيجاً من جنودٍ غير مجربين سحبوا من مختلف الأنحاء، وجمعوا اشتاتاً غير متجانسة، فكان يتولى أمر تدريبهم والاشراف على تمارينهم بالقرب من بيرويا Beræa حيث عسكر جيشه. ولم يتقاعس هو نفسه على المشاركة في تلك التمارين وكان يمارسها كأنه في ميعة صباه وهو تصرف رفع كثيراً من معنويات جنوده اذ لم يكن تشجيعاً هيّنا أن يروا [پومپي] الأكبر البالغ من العمر ثمانية وخمسين عاماً، لابساً درعه وشكة سلاحه بين المشاة مرّة. وممتطيا حصانه تارةً أخرى ممتشقاً سيفه بسهولة وبطريقة نظامية تامة ومغمداً اياه بنفس السهولة. ولم يكن قذفه الرمح يدل على براعته وخفته فحسب بل على اتقانه اصابة الهدف المتميز بالقوة والنشاط والقذفات البعيدة. ولم يكن يطاوله في هذا إلاّ قليل من الشباب. وأقبل عليه عدة ملوك وامراءٍ في مختلف الشؤون. وتحوطته بطانة عظيمة من المواطنين الرومان الذين يحملون رتب القضاة، حتى تألف منهم مجلس شيوخ كاملٍ. وترك [لابينوس] صديقه القديم قيصر الذي خدمه طوال فترة حروبه في بلاد الغال وانضم اليه. كما لحق به ايضاً [بروتس] ابن [بروتس] الذي كان قد حكم [پومپي] عليه بالموت معلنا ولاءه له بوصفه مدافعاً عن حريته نفسه، وكان رجلاً عالي الهمة، لم يتبادل منذ يوم مقتل ابيه كلمة واحدة مع [پومپي] ولم يقرءه تحية معتبراً اياه قاتلاً فعلياً لأبيه. وكذلك التحق به [شيشرون] وان كان قد كتب ونصح الآخرين بخلاف ذلك، ثم بدل رأيه خجلاً من ان يبقى في غير عداد أولئك الذين يخاطرون بحياتهم ومستقبلهم للمحافظة على بلادهم. وانضم اليه وهو في بلاد مقدونيا [تديوس سكستيوس Tidius Sextius] وهو رجل ذو ساق واحدة بلغ من العمر عتياً، فكان ذلك مدعاة للتندر والضحك من منظره. إلاّ ان پومپي نهض وهرع للقائه حالما وقع نظره عليه، واحتفى به. عندما يفضل المرء وهو في هذا العمر والعجز الجسماني ان يكون مع [پومپي] بمواجهة الأخطار على البقاء آمناً في بيته فهذه شهادة بحق [پومپي] ليست بالتي يمكن أغفالها.

واجتمع مجلس الشيوخ واصدر بناء على اقتراح [كاتو]، مرسوماً يقضي بأن لايقتل ايّ روماني إلاّ في ساحة المعركة وان لاتنهب او تسلب اية مدينة كانت خاضعة للحكم

---

(٢) من الشعوب الكرواتية. [المترجم]

الامبراطوري الروماني. وهو قرار زاد من سمعة حزب [پومپي] ورفع من مقامه، حتى انّ أولئك الذين لم يهتموا بالحرب لبعد ديارهم عنها، أو اعتبروا غير قادرين على ابداء المساعدة، ما لبثوا ان انحازوا الى جانبه باخلاص ورغبة. وساندوا بكلّ ما يملكون من فصاحة اللسان الفضيّة العادلة أو الصالحة كما أطلقوا عليها. واعتبروا مناهضي [پومپي] اعداء للآلهة. ورجالاً لايريدون [لپومپي] اي نصر.

ولم ينفرد [پومپي] بسماحته ورحمته. [فقيصر] نفسه أظهر سماحة ورحمة لاتقلان عَمّا أظهره الأول عند استيلائه وتغلبه على كل قوات [پومپي] في اسبانيا. فقد قبل استسلامهم بشروط سهلة للغاية وترك القادة أحراراً وضمّ الجنود منها الى جيشه ودفع لهم اجورهم. ثم انثنى عائداً فعبر الألب وأسرع في مسيرة خاطفة قطع بها برّ ايطاليا طولياً حتى بلغ [برنديزيوم] في حدود الانقلاب الشتوي. ثم عبر البحرين هناك ونزل ميناء [اوريكوم] وارسل [يوبيوس Jubius وهو من اخلص اصدقاء [پومپي] وكان اسيراً عنده يطلب فيها أن يعقدا جلسةً يتداولان فيها أمر الصلح. وان يسرّحا جيشيهما خلال ثلاثة ايام ويجددا صداقتهما القديمة ويوثقانها باغلظ الأيمان. ثم يعودان معاً الى ايطاليا. إلاّ ان [پومپي] ظنّ هذه الدعوة حيلة جديدة، لذلك انحدر بغاية السرعة الى ساحل البحر واحتل كل القلاع والاماكن المحصنة المناسبة للتعسكر، ولأجل أن يؤمن سلامة قواته البريّة ايضاً لأنها كانت مثل سائر الموانيء والثغور صالحة لاستقبال كل ما يأتي بحراً، فكانت كل ريح موآتية له مهما كان اتجاهها، تزوده اما بالارزاق أو الرجال أو المال. في حين كان [قيصر] محصوراً من جهتي البحر والبرّ حتى انه لم ير مناصاً من طلب القتال. فكان يستفزّ العدو يومياً ويغير عليه وهو في قلاعه فيكتب له النصر في معظم الاشتباكات الخفيفة. ولم يصبّ الاّ مرة واحدة بنكسة خطيرة كاد يخسر بسببها كل جيشه تقريباً. في هذه المعركة أظهر [پومپي] شجاعة فائقة وهزم كل القوة التي جردها العدوّ لها وفتك في ميدان القتال بألفين. لكنه إمّا عجز أو خاف التقدم الى الأمام يشق طريقه بالقوة الى معسكر العدو الذي كان يسرع للاحتماء به وهنا قال قيصر عبارته المأثورة –

– في هذا اليوم كان النصر للعدو، لو وجد فيه شخص واحدٌ يُحرزه!

واشتدت معنويات جنود [پومپي] وتضاعفت شجاعتهم. حتى اصبحوا وهم مشوقين الى تقرير مصير النزاع بمعركة حاسمة.

إلاّ أن پومپي الذي كان يتخذ لقب «الفاتح» عندما يكتب للملوك البعيدين والقريبين والدول المتحالفة معه، خشي المخاطرة بالنجاح في معركةٍ واحدة مؤثراً التأخير. وانهاك قوى

العدو ورجاله الذين لم يغلبوا بالسلاح من قبل، بنقص الارزاق. ان جنود [قيصر] اعتادوا منذ زمن بعيد على القتال والنصر معاً في حين ان أعمارهم المتقدمة التي جعلتهم سريعي الاجهاد في مشاقّ الحروب التالية كالمسيرات الطويلة والنزوح عن المعسكرات الكثيرة وحفر الخنادق وبناء الاستحكامات. وهذا ما جعلهم تواقين الى الاشتباك مع العدو والمغامرة في معركة فاصلة بأسرع ما يمكن.

تمكن [پومپي] من تهدئة جائش جنوده واقناعهم بعدم الدخول في معركة حتى تلك اللحظة إلاّ انه بات متعذراً عليه اطفاء جذوة تعطشهم للقتال بعد اضطرار [قيصر] بسبب نقص الارزاق الى تقويض معسكره والانتقال الى «تسالي» عبر [اثامانيا] فهتف جميع جنود پومپي] بصوت واحدٍ جهوري أن قيصر فَرّ هارباً وارتائ بعضهم ومطاردته والضغط عليه وفضلّ بعضهم العودة الى ايطاليا واقترح بعضهم الآخر ارسال خدمهم واصدقائهم الى روما قبل وصولهم اليها. لاستنجار بيوت قرب الفورم حتى يكونوا اكثر استعداد لترشيح انفسهم هناك وابحر عددٌ منهم من تلقاء أنفسهم حالاً الى [ليسپوس] ليحمل الى [كورنيليا] - وكان قد جاء بها [پومپي] الى هناك لتكون في مأمن - الابناء السارة بانتهاء الحرب. ودعي الشيوخ الى الاجتماع ووضع الأمر موضع المناقشة فكان من رأي [افرانيوس] انه يجب استعادة ايطاليا اولاً لأنها الجائزة العظمى وتاج الحرب كلها. فمن كان سيّداً لايطاليا سهلت عليه السيطرة على اقاليم صقلية، وسردينيا، وكورسيكا واسپانيا وبلاد الغال. واضاف يقول متسائلاً ترى ما هو أهمّ وأخطر شيء بالنسبة لپومپي غير موطنه ومسقط رأسه القريب الذي يمدّ اليه يده طالباً المعونة ومما لايستقيم مع شرفه بالتأكيد أن يتركه هكذا معّرضاً لكلّ التحقير وتحت عبودية العبيد انفسهم ومتملقي الطاغية.

إلاّ ان [پومپي] كان يرى خلاف ذلك. ففي عرفه انه ليس من الشرف في شيء ان يعمد الى الفرار ثانيةً من أمام [قيصر] وان يطارد عندما منحه الحظّ افضلية المطاردة كما انه ليس من العدل فعلاً أمام الآلهة. ان يترك [سكيپيو] ورجالاً كثيرين أخر من ذوي المراتب القنصلية، مشتتين في انحاء بلاد (الاغريق وتسالي) عرضةً للوقوع في يديّ قيصر مع مبالغ طائلة من المال وما لايحصى من القوات العسكرية. واما عن اهتمامه بمدينة روما، فهذا يبدو جدّ واضحٍ من نقله مسارح الحرب الى مسافة بعيدةٍ عنها وتركها خالية البال، من اي شعور بويلات الحرب والآمها، بله سماع اصوات شرورها. منتظرةً فحسب وبكلّ طمأنينة عودة المنتصر من أحدهما اليها.

بعد اتخاذه هذا القرار شرع في مطاردة [قيصر] معتزماً بينه وبين نفسه ان لايدخل معه في

معركة بل يحاصره ويضيق عليه الخناق ويتعقبه عن كثب ويقطع الطريق عليه ما اوتي ذلك. وكان ثمّ اسباب أخرى تحمله على الاستمرار في تنفيذ قراره هذا، من أخصّها قول تداوله الرومان الذين يخدمون في صنف الخيالة بلغه، وهو أن الضرورة توجب تحقيق الغلبة على [قيصر] بأسرع ما يمكن، وبعدها يزاح [پومپي].

وقال بعضهم ان عدم اناطة [پومپي] اي عمل ذي أهمية بـ[كاتو] خلال الحرب كلها، كان هذا سببه. أمّا الآن وبعد مباشرته بمطاردة [قيصر] فقد ترك [كاتو] للاشراف على حراسة اثقاله من جهة البحر خوفاً من قيام [كاتو] بارغامه على التخلي عن سلطته عندما يتمّ قهر قيصر.

وفي الوقت الذي كان [پومپي] برصد حركات العدو بمثل هذا البطء والتراخي، أخذ يتعرض من جميع الجهات الى الانتقاد العلني والاتهام بأنه انما يستخدم قيادته للتغلب على [قيصر] بل لقهر بلاده وتحقيق الغلبة على مجلس الشيوخ حتى يظلّ دائماً ممارساً سلطانه. ومبقياً على سلطات حرسه واتباعه الذين يدعون بأنهم يحكمون العالم! ودأب [دوميتيوس آنيوباربوس Domitius Aenobarbus] على تسمية پومپي بـ«[آغاممنون] ملك الملوك» مشيراً عليه حساده ومبغضيه ولم يكن الأذى الذي لحقه من فاڤونيوس Favonius] بمزاحه الفجّ، بأقل من الأذى الذي لحقه من أولئك الذين كانوا يهاجمونه علناً. مثال ذلك عندما قال معرضا [بپومپي]

- يا خير الاصحاب! اياكم أن تتوقعوا قطف التين من [توسكولوم Tusculum] في هذه السنة.

الا ان [لوشيوس افرانيوس] الذي كان برزح تحت تهمة الخيانة جراء خسرانه الجيش في اسپانيا صرح علناً عندما وجد [پومپي] يتعمد التهرب من الاشتباك:

- لايسعني إلاّ التساؤل معجباً لماذا يحجم اولئك الذين جعلوا اتهامه ديدناً، عن الذهاب هم بأنفسهم وقتال ذلك المتاجر ببلادهم واقاليمهم؟

بهذه الاقوال وبكثير من امثالها اثاروا [پومپي] الذي لم يكن في استطاعته احتمال اللوم أو مقاومة أمل اصدقائه فيه . حتى ارغموه على العدول عن رايه ونبذ قراره الحكيم، لاتباع أمالهم الكاذبة ورغباتهم الطائشة وهو ضعف منه يستحق اللوم عليه ملاّح اية سفينة فكيف بقائد وسيّد مطاع يملك مثل هذا الجيش الجرار، وتخضع له هذه الشعوب العديدة. إن لومه ليبلغن اضعافاً مضاعفة وهو وان كان قد أطرى ومدح اولئك الأطباء الذين لايستجيبون الى

رغبات مرضاهم المتقلبة ولايصغون لهم ما يشتهونه من أكال، تراه الآن ولا حيلة له الا الرضوخ لنزوات سقم اعوانه وناصحيه بضرورة الحرب، غير مستخدم شيئاً من الصرامة لأجل شفائهم. والواقع هو انه ما كان أحد ليجرؤ على القول بأن هؤلاء الناس لم يكونوا مرضى ولم يكن شفاؤهم متطلباً، اذ تراهم يسيرون في ارجاء المعسكر غدوة ورواحاً، يرشحون أنفسهم: هذا لمنصب القنصل وذاك لمنصب الپريتور. في حين كنت ترى [سپنثر] و[سكيپيو] و[دوميتيوس] يعملون على كسب الموالين وتأليف الاحزاب ويختصمون فيما بينهم على شخص من سيخلف [قيصر] في منصب الكاهن الأعلى. آخذين الأمور كلها باستخفاف واستهانة كأن الحرب التي سيخوضونها ليست مع [قيصر] وجيشه المغوار الذي دوّخ ألف مدينة وأخضع أكثر من ثلاثمائة شعب وخاض ما يفوق الحصر من المعارك مع الجرمان والغاليين وخرج من جميعها منتصراً واخذ مليوناً من الأسرى وقتل ما يساوي ذلك في ميادين المعارك الحاسمة، بل مع [ديكران] ملك الأرمن أو مع واحدٍ من صغار الملوك النبطيين!

وتمادوا في رجائهم والحاحهم وصخبهم. وعند بلوغهم سهل [تسالي] اشتد ضغطهم والحافهم على [پومپي] حتى ارغموه على عقد مجلس حربٍ. وهنا نهض قائد الخيالة [لابينوس La-bienus] أولاً، وأقسم بأنه يترك ميدان المعركة إلاّ بعد أن يهزم العدو. وحلف البقية على ذلك أيضاً وفي تلك الليلة رأى [پومپي] في الحلم، حشوداً من الناس تستقبله بالهتافات العظيمة وهو يدخل الملعب. وانه قام بنفسه بتزيين هيكل [ڤينوس] المنتصرة بكثيرٍ من اسلاب الحرب. وقد شجعه هذا الحلم من ناحيةٍ، وثبط همته من ناحية أخرى. فقد خشي ان تلك العطايا والزينة المقدمة [لڤينوس] ستكون من الاسلاب التي سيحصل عليها قيصر منه. ذلك لأنّ اسرة [قيصر] انحدرت على ما يؤثر، من نسل تلك الآلهة. كما أنه استيقظ من هذا الحلم على أثر ضجة عالية دوت في كل المعسكر نشأت عن بعض المخاوف المرعبة ونداءات استغاثة مجهولة المصدر. كذلك ظهر نورٌ ساطعٌ فوق معسكر [قيصر] ساعة تجديد الحراس والخفراء فجراً اثناء ماكان الكلّ نائماً، ومنه انتقلت كرة ملتهبة نارية الى معسكر [پومپي]؛ ويقول [قيصر] في هذا. انه رأى تلك الكرة بعينه عندما كان يقوم بدوريته الاعتيادية في ارجاء معسكره.

اعتزم [قيصر] رفع معسكره عند الصباح الباكر والانتقال الى [سكوتوسّا Scotussa] وبينما كان جنوده منشغلين في تقويض خيامهم وارسال ماشيتهم وخدمهم بالاثقال والمهمات، أقبلت كشافة من عملية استطلاع لتنبيء بأنها لاحظت حركة اسلحة هنا وهناك في معسكر العدو وسمعت ضجة وهرجلة أقدام تغدو وتروح كأن الرجال يتهيأون للمعركة. وما لبثت أن

أقبلت كشافة أخرى لتنبيء بأن صفوف جيش العدو الأولى قد وضعت في نسق المعركة وهنا توجه [قيصر] الى جنوده قائلاً: ان اليوم المنشود قد حَلّ أخيراً. وهم الآن سينازلون رجالاً، ولن ينازلوا الجوع والطوى كما كانوا » ثم اصدر على الفور الأمر برفع المعطف الأحمر امام خيمته وهي اشارة المعركة عند الرومان. وما أن شاهدها الجنود حتى خرجوا من خيامهم وهرعوا الى اسلحتهم وهم يصرخون فرحين جذلين. وظهر الضباط ايضاً في الحال ورتبوا سراياهم بنسق المعركة واتخذ كل مقاتل موضعه دون ضجّةٍ أو ارتباك. بل بهدوءٍ والنظام كأنما يدخلون في حلبة رقصٍ.

وقاد [پومپي] بنفسه الجناح الأيمن من جيشه بمواجهة [انطوني]، كما وضع حميّه [سكيپيو] في القلب بمواجهة [لوشيوس كالڤينوس] وأمّا الميسرة فقد أمر عليها [لوشيوس دوميتيوس] تدعمها كتلة عظيمة من الخيالة هي تقريباً كل ما لديه منها. أملاً بسحق [قيصر] وابادة الفرقة العاشرة التي اشتهرت بكونها أقوى فرقة عدة وعدداً. وكان [قيصر] عادة يقاتل بشخصه في صفوفها.

وعندما لاحظ [قيصر] أن مسيرة العدو قد عززت ودعمت بهذا الاحتياط الضخم من الخيالة ادركه القلق لمهابة المنظر وأرسل يستقدم قطعةً عسكرية من احتياطيه تتألف من ستّ كتائب فوضعها في موخرة الفرقة العاشرة وأمرها أن لاتأتي بحركة لئلا ينتبه العدوّ اليها، حتى تبدأ خيالة العدو بالهجوم والتقدم، فعندئذ عليها أن تسرع بأقصى ما يمكن للتقدم الى الأمام والوصول الى الصفوف الأول، على أن يكون تقدمها هذا بشكل تسلّل من سائر القطعات ومن خلال الصفوف المتقدمة، وان لايقذفوا رماحهم على العدو وهم بعيدون كما هي عادة الجنود الشجعان. حيث يواصلون التقدم ليلتحموا بقتال الأيدي وبسيوفهم حالاً. بل عليهم ان يسددوها الى الاقسام العليا، الى اوجه الاعداء وأعينهم، «لأن هؤلاء الراقصين البارعين الصغار لن يستطيعوا تحمل بريق الفولاذ الصقيل يبهر اعينهم ويهدد وجوههم الجميلة بالتشوية بل سيفرون حرصاً عليها» على حَدّ قوله.

كانت تلك خطة قيصر في ذلك الوقت وكان على ضوء ذلك يوجه الأوامر الى جنوده، وفي اثناء ذلك راح [پومپي] يستعرض مواقع الجيشين ممتطياً جواده ولاحظ الانتظام التام الذي يسود صفوف جيش خصمه وهي تنتظر بكلّ هدوء ورباطة جأش اشارة المعركة. كما لاحظ كم كان القلق ونفاد الصبر يسود رجاله وهم لايستقرون في صفوفهم يتحركون الى الامام والخلف دون اكتراث بالنظام لافتقارهم الى المران والتجربة. فادركه الخوف الشديد من أن تتحطم صفوفهم في اول هجمة. وسارع يعطي أمراً بتوقف الطلائع عن التقدم واستقبال كرّة العدوّ

بصفوف منضمّة متكتلة. وقد انتقد [قيصر] هذه الخطة انتقاداً شديداً بقوله:

- إنها سلبت الضربات كثيراً من قوتها. ولولا ذلك لكانت ستتمّ بقفزة، كما انها فضلاً عن ذلك افقدت الرجال قوة الاندفاع تلك التي تتملك الجنود المهاجمين في لحظة التحامهم بالعدوّ وتملأوهم بالحماسة والحافز العزيزي أكثر مما تملأوهم بأي شيء آخر فالصيحات والزعقات والخطى السريعة تزيدهم ضراوة وعنفاً. كلّ هذا جردتهم منه أوامر [پومپي] فقد أوقفتهم عن تقدمهم وبردّت حرارتهم.

كان جيش [قيصر] يتألف من اثنين وعشرين ألف مقاتل في حين كان جيش [پومپي] يربو على ضعف هذا العدد. ولما أعطيت اشارة بدء القتال من الجانبين وراحت الأبواق تصدح بنفير الهجوم، انشغل معظم الرجال كلّ بأمره. ولم يكن يشاهد خارج ساحة المعركة غير قليل من صفوة اشراف روما وبعض الاغريق، يقفون بعيداً كمتفرجين لم يتمالك هؤلاء أنفسهم وهم يشاهدون الجيشين مستعدين للاشتباك، إلاّ ان يفكروا في انفسهم متسائلين: «الى اي درك ونهاية بلغت الأطماع والطموح الشخصي بالامبراطورية. ان الاسلحة التي تشتبك الآن هي اسلحة واحدة والجموع المصطفة للقتال هي ابناء لوطن الواحد تربطهم اواصر القربى. وكلهم يحارب تحت ألوية واحدة. زهرة رجال المدينة الواحدة وقوتها تصطدم هنا بعضها ببعض لتقدم البرهان الساطع على العمى والجنون اللذين تبتلى بهما الطبيعة البشرية عندما تجتاح العاصفة النفوس لو كانت رغبتهما قاصرة على الحكم فحسب والتمتع في ظروف السلم بما كسباه في الحرب، فإن أعظم وأفضل جزء من العالم كان تحت سيطرتهما براً أو بحراً. لكن ان كان طموحهما يشكو الظمأ، فمن السهل ارواؤه بانتصارات أخرى ومكاسب وانصاب ظفر. إن الحروب البارثية والجرمانية كانت ستقدم من هذه المادة ما يكفي لاشباع أعظم شهوة الى الجاه والرفعة. زد على هذا فان بلاد الصيثيين لم تفتح بعد وكذلك قل عن بلاد الهند. ان طموحهما في احتلال هذين البلادين يمكن طلاؤه بالحجة الكاذبة: العمل على ادخال المدنية لتلك الشعوب البربرية! أية خيالة حيثية، أو سهام پارثية أو ثروات هندية يمكنها مقاومة سبعين ألف جندي روماني مسلحين بأفضل سلاح وتحت قيادة جنرالين مثل [پومپي] و[قيصر]، سمعت تلك الشعوب باسميهما قبل سماعها باسم الرومان وذاعت قصص شجاعتهما وقهرهما شعوباً بعيدة بدائية وحشية بربرية. بأوسع من قصص الرومان أنفسهم.

انهما اليوم يلتقيان كخصمين. بعد أن فشلت الجهود في اقناعهما بأن يرحما بلادهما ويبقيا عليها بل حتى ان يحترما امجادهما أو ان يدركهما الخوف من خسران الاسم الذي ما زالا يحملانه حتى ذلك اليوم. وهو انهما لم يقهرا قطّ، أمّا عن روابطهما القديمة الخاصّة ومحاسن

[يوليا] والزواج الذي شدّ فيما بينهما اواصر القربى، فهذه كلها بات ينظر اليها الآن كحيل سياسية أو مجرد ضمانات لاتفاق جرى ابرامه ليخدم اغراضاً ما مناسبة للظروف وليس عهوداً ومواثيق لاي صداقة.

ما غطيت سهول [فرساليا] بالرجال والخيل والدروع وارتفعت اشارة البدء بالمعركة من الجهتين حتى كان [كايوس كراسيانوس Caius Crassianus] وهو سنتوريون يقود سرية مؤلفة من مائة وعشرين مقاتلاً، اول من تقدم للهجوم من صفوف جيش قيصر، ليحل نفسه من عهدٍ قطعه لقيصر. لقد كان أول رجل رآه [قيصر] يخرج من المعسكر صبيحة ذلك اليوم فسأله [قيصر] بعد أن أقرأه التحية:

- ما رأيك بالمعركة القادمة.

فأجاب بصوت مرتفع وهو يبسط يده اليمنى:

- سيكون النصر حليفك اي [قيصر] ستنتصر انتصاراً مجيداً وساكون أنا في هذا اليوم موضع ثنائك حياً بقيتُ أم ميتاً.

كنت وتحقيقاً لعهده هذا خف مسرعاً الى الصفوف الأمامية. فتبعه الكثير فقذف بنفسه في وسط العدوّ، وجرى الالتحام بالسيوف فأوقعوا بالعدو مقتلة عظيمة. وفيما هو يندفع الى قلب العدو بزخمٍ شديد يحطمّ صفوف طلائعهم، اعترضه احد جنود [پومپي] وسدد الى فمه طعنة نجلاء اخترقت رقبته حتى خرجت ذبابة السيف من قذاله. وبمقتل [كراسانيوس] تعادلت كفّة المعركة واستمرت غامضة النتيجة في ذلك الجزء من الساحة.

حتى تلك اللحظة لم يبدأ [پومپي] القتال من ناحية الميمنة، بل بقي متربصاً مستنظراً ما ستحققه له خيالته على الميسرة. كانت كتائب الخيالة قد انتظمت وفي نيتها الكرّ على جناح قيصر وليّه وارغام خيالته القليلة العدد التي وضعها في المقدمته على الانكفاء نحو فوج المشاة. الأ أن [قيصر] أعطى الاشارة فانسحبت مشاةٍ اضافية وضعت في المؤخرة كاحتياطٍ لتغطية الجناح فخرجت الآن الى الأمام بعددها البالغ ثلاثة آلاف رجلٍ، لمواجهة العدوّ. وعندما أقتربت من خيالته وأصبحت على تماس بها وجهت رماحها الى فوق حسب الأوامر المبلغة لها فاصابوا الفرسان الراكبين في وجوههم. ولما لم يكن لهؤلاء الخيالة خبرة بايّ فن من فنون القتال. وبخاصةٍ لما لم يكونوا يفهمون او يتوقعون مثل هذا الاسلوب في القتال. فقد اعوزتهم الشجاعة وعجزوا عن تلقي هذه الضربات على اوجههم فاداروا اقفيتهم وغطوا أعينهم بايديهم ولاذوا بالفرار يلاحقهم العار. على ان مشاة [قيصر] لم يتعقبوهم وانما تحركوا نحو

مشاة العدوّ وهاجموا الجناح الذي تركته هزيمة الخيالة مكشوفاً لهم فآض معرضاً للالتفاف والهجوم عليه من الخلف. وهكذا حف الخطر بالجناح من قبل هؤلاء المشاة، ومن هجوم جبهي قامت به الفرقة العاشرة، فعجز عن الصمود والمقاومة مدةً أطول بعد ان وجدوا أنفسهم مطوقين ومحاصرين، على عين خطتهم المبيتة التي خيل لهم بأنها ستنجح مع العدوّ. فلحقت بهم الهزيمة كسابقيهم ولاذوا بالفرار. وادرك [پومپي] من مثار الغبّار وتصاعده، مصير خيالته. وهنا يصعب جداً على المرء أن يحزر ما كان يجول في رأسه من افكار وماذا كان يعتزم. على انه بدأ كذلك الشخص الذي لثقله الهم وشتت القلق ذهنه وبدون ان يفكر أو يتذكر بأنه پومپي الأكبر، أنسحب الى داخل معسكره ببطءٍ دون ان ينطق بحرف. فكان لأي راءٍ ممن ينطبق عليه محتوى الابيات التالية:

«على ان الآله من عليائه أصاب [أجاكس] بالخوف فوقف المقدام [اجاكس] هناك مصعوقاً ثم أردف ترسه القوي ذا الطبقات السبع وراء ظهره. وحدق وهو يرتجف ذهولاً في ارجاء ساحة المعركة».

بهذه الحالة والوضع دخل [پومپي] خيمته وجلس دون ان ينبس بحرف، حتى اندفع بعض رجال العدو الى داخل المعسكر مختلطين برجاله الفارين الى الداخل وعندئذ فتح فمه بعبارة واحدة لا غير:

- أحتى في داخل المعسكر نفسه؟

ولم يزد على ذلك. وانما نهض وارتدى ثياباً تناسب حظّه العاثر، وترك المعسكر سراً.

في اثناء ذلك كانت بقية الجيش قد منيت بالهزيمة، وحصلت مقتلة عظيمة في المعسكر بين الخدم وحارسي الخيم. واما من الجنود فلم يقتل غير ستة آلاف حسب قول [آسينيوس پوليو Asinius Pollio] الذي كان يقاتل شخصياً في هذه المعركة الى جانب [قيصر] وعندما أحتل جنود [قيصر] المعسكر شاهدوا انفسهم امام حمق العدو وتصرفاته العابثة. فقد وجدوا كل خيمه وسرادقاته ترفل في أجمل زينةٍ وانفسها من أكاليل الزهر والآس ومن السجاجيد المطرزة والستائر المنقوشة والموائد المنصوبة وقد حفلت باكواب الراح والى جانبها قصاع كبيرة مملوءة خمراً. كان كلّ شيء مُعداً ومنتظماً بشكلٍ لايسع المرء الاّ ان يظنها لأناس قربوا قرابينهم وهم يريدون الاحتفال بالعيد وليس جنوداً حملوا اسلحتهم وخرجوا للمعركة واثقين الى حَدّ الايمان بانتصارهم، في صباح هذا اليوم.

بعد أن ابتعد [پومپي] عن معسكره مسافةً مناسبة، ترجل وتخلّى عن حصانه. ولم يكن

معه غير حاشية صغيرة. ولما تأكد أن لا أحد يتعقبه راح يسير على هونه وقد استغرق في تلك الافكار التي تستحوذ عادة على من هم في حالته. كان قد تعود طوال اربعة وثلاثين عاماً على الفتوح والنصر، وها هو الآن في شيخوخته يلقن لأول مرة درساً في الهزيمة والفرار، ولم تكن بالنكبة الصغيرة الهينة أن يخسر في ساعة واحدة ما انالته اياه الحروب والمعارك الدموية العديدة، من مجد وسلطان. قبل برهة وجيزة كان يكتنفه جيش جرار من المشاة وعدد عظيم من الكتائب ويدعمه اسطول ضخم لا يغلب. اما الآن فهو طريد يهرب من وجه عدوه بحالة يرثى لها وليس معه الاّ نفر ضئيل من الاتباع. حتى ان اعداءه الذين قاتلوا ما كان بوسعهم تمييزه.

بعد ان أجتاز مدينة [لاريسا Larissa] عن مبعدة، وبلغ [تمبه Tempe] شعر بظمأ شديد فجثا على الأرض وشرب من ماء النهر ثم نهض وعبر ممر [تمبه] وسار حتى بلغ ساحل البحر. وهنا دخل كوخاً صغيراً لاحد صيادي السمك حيث استراح بقية الليل. وفي فجر اليوم التالي استقلّ قارباً نهرياً دون أن يأخذ معه ممن تبعه، غير الأحرار منهم، وصرف خدمه ونصحهم بأن يذهبوا الى [قيصر] دون وجل. وفيما كان يجذف بقاربه غدوةً ورواحاً بمحاذاة الشاطيء، لمح صدفةً، سفينة تجارية راسية الاّ انها كانت معدّة للابحار وكان قبطانها مواطناً رومانياً يدعى [بيتيشيوس Peticius]. لم يكن على معرفة جيدة [بپومپي] إلاّ أنه كان يستطيع تمييزه بالوجه. اتفق [لپيتيشيوس] هذا انه رأى حلماً في الليلة السابقة، ظهر فيه [پومپي] بشكل يختلف كثيراً عما عهده. رآه بحالة ذليلة يرثى لها واخذ يكلمه وهو بهذه الحالة. ثم انه قصّ حلمه على كل من كان في السفينة كعادة كل امرىء في وقت راحة وليس لديه ما يعلمه وبخاصة حلماً غريباً كهذا. فلم يلبث أن أقبل عليه أحد البحارة ليخبره بأن قارباً نهرياً بمجاذيف يغادر الشاطيء وان بعض الرجال فيه طفقوا يهزون معاطفهم ويرفعون ايديهم باشارة من يريد ركوب السفينة. فراح [پيتيشيوس] يتفحص القادمين بامعان ووقع نظره على [پومپي] فعرفه بالهيئة التي ظهرت له في الحلم. فضرب جبهته بكفّه وأمر البحارة بانزال قارب السفينة وأخذ يلوح له بيده ويناديه باسمه وقد ميزه، وادرك ما حَلّ به من الزيّ الذي يرتديه. ثم اصعده على ظهر سفينة دون ترتيب لمكالمة أو الرجاء منه. وأفسح لعدد مناسب من اتباعه مكاناً معه في السفينة. وكان مع [پومپي] فردان من أسرة [لنتولي Lentuli]، وفاڤونيوس. وبعد برهة قليلة من الزمن شوهد [ديوراتوس Deioratius] الملك وهو مسرع اليهم من الشاطيء فتوقفوا وأخذوه معهم. وهيأ لهم قبطان السفينة عشاء مما تيسّر من ارزاق السفينة. وراح [پومپي] يحلّ سيور حذائه بنفسه لعدم وجود من يقوم في خدمته. فلحظ [فاڤونيوس] ذلك منه فأسرع اليه وقام بحلها عنه وعاونه في مسح جسده بالزيت. وظلّ بعد

ذلك يواصل خدمته في كل شيء كالخادم، وبضمن ذلك غسل رجليه واعداد عشائه. ان من شاهد ذلك التفاني والاحترام الذي لايشوبه شائبة ما من التكلف لايسعه الاّ ان يذكر قول القائل: قسماً بالله! كل ما يفعله أولئك الذين تحلوا بالنُبل، هو لائق وجميل.

ومَرّ [پومپي] وهو على ظهر سفينته بمدينة [امفيبوليس Amphipolis] ومنها الى [ميتيلين Mitylene] معتزماً أن يأخذ [كورنيليا] امرأته وابنه، وما أن بلغ ذلك المرفأ في الجزيرة حتى بعث برسول وحمله الأخبار التي ما كانت [كورنيليا] تتوقعها. فقد دأبت آمالها في الارتفاع بالرسائل والكتب السابقة التي كان زوجها يبعث بها للتسرية عنها فصارت تؤمن ايماناً جازماً بأن الحرب قد انتهت في [ديراكيوم Derrhachium] وانه لم يعد [لپومپي] ما يفعله غير تعقيب [قيصر] المندحر. هكذا وجدها الرسول فلم يقوا على تحيتها أو التحدث اليها. وافصحت لها دموعه لا كلماته عن سوء حظها العظيم. ثم طلب منها ان تسرع ان شاءت لقاء [پومپي] على ظهر سفينة واحدة لايملكها وما ان وعت السيدة الصغيرة ذلك حتى سقطت مغشياً عليها، وظلّت فاقدة الوعي معقولة اللسان مدة طويلة. ولما ثاب اليها الرشد وعادت الى وعيها بعد لايء وادركت أن الوقت ليس وقت ندبٍ وبكاء، انطلقت خارج المدينة راكضة نحو الساحل فاستقبلها [پومپي] واحتضنها وهي تكاد تتهاوى على الارض فاسندها بذراعيه فتهفت قائلة:

– انه حظيّ العاثر يا سيدي، لاحظك. أن اراك هكذا لاتملك غير سفينة صغيرة واحدة، انت الذي كنت قبل زواجك بي تخرج الى البحر وتجوب هذه المياه بأسطول تعداده خمسمائة بارجة! أكان ينبغي لك أن تأتي لترى تلك التي جلبت عليك المصائب بسوء حظها وروحها الشرير، ولاتتركها لمصيرها؟ لكم كنت سعيدة لو لفظتُ انفاسي الأخيرة قبل ان يردني نعي [پوبليوس] زوج شبابي من بلاد فارس وكم كان من الحكمة لو نفذت قراري في اللحاق به. إلاّ اني أدخرت لمصيبة، هي دمار [پومپي] الأكبر.

كان هذا ما أثر عن أقوال كورنيليا [لپومپي] واليك ما ذكر عن جوابه لها:

– لم يكن لديك يا كورنيليا غير فترة واحدة من حسن الحظّ، الذي ربما اعطاك آمالاً كاذبة بملازمته لي مدةً اطول من المعتاد. ونحن الذين ولدنا وقد كتب علينا الفناء، يجدر بنا تحمل هذه الاحداث، وتجربة الحظّ مرة أخرى. فاحتمال استعادتنا ما فقدناه ورجوعنا الى ما كنا عليه ليس بأقل احتمالاً ابداً من سقوطنا من ذلك الارتفاع الى هذا الدرك.

وارسلت [كورنيليا] تستقدم خدمها ومتاعها من المدينة وخرج سكان [ميتيلين] بحيون

[پومپي] ويدعونه الى مدينتهم. فأبى ذلك ونصحهم بطاعة المنتصر، وبأن لايخشوا اذى من [قيصر] لأنه رجل بالغ الطيبة واسع الرحمة. ثم التفت الى [قراتيپوس Cratippus] الفيلسوف الذي كان بين من خرج لتحيته وشرع يوجه بعض الملام للعناية الالهية في محاورة مقتضبة حول ذلك. الاّ ان [قراتيپوّس] راغ عن الحوار بكلّ تواضع، وراح يبث فيه الشجاعة لا غير. حتى لايبدو قاسياً أو نابياً. اذ كان بوسعه آنذاك أن يلقي بدوره على [پومپي] سؤالاً فيه دفاع عن تصرفات العناية الالهية. كان باستطاعته ان يثبت ضرورة تحول الامبراطورية الرومانية الى النظام الملكي بسبب سوء الحكم وفساد الدولة. وكان بامكانه ان يتساءل قائلاً:

- كيف يا [پومپي]؟ وبأي دليل أو ضمان يمكننا أن نتأكد بأنك ستستخدم حظك اذا واتاك

- بأفضل مما سيستخدمه قيصر لو حالفك النصر؟ علينا أن نترك العناية الالهية لحالهاوعملها كما كانت أبداً ودوماً.

أخذ [پومپي] زوجه واصدقاءه الى السفينة واقلع ولم يقف في مرفأ اويرسي الاّ عندما تعوزه الارزاق والماء النقي. ولذلك كانت مدينة [أتاليا Attalia] في [پامفيليا Pamphylia] أول مدينة دخلها. وهناك لحقت به بوراج حربية من [كيليكيا] مع وحدة صغيرة من الجنود. وانضم اليه حوالي ستين شيخاً من اشراف روما. ثم وردته الانباء بسلامة اسطوله، وبان [كاتو] قد اعاد تنظيم عدد لايستهان به من وحدات الجيش بعد الهزيمة وانه يعبر بهم البحر الى برّ افريقيا. فبدأ يشكو ويلوم نفسه أمام اصدقائه، لأنه نزل عن قراره وسمح لنفسه بأن يرغم على الدخول في معركة برية دون استخدام قواته الأخرى التي ما كان يفوقها شيء. كما انه لم يضع اسطوله في مواقع قريبة من المعركة بحيث يستطيع انزال نجدات منها الى البرّ استدراكاً لفشله وبهذا يكون مرة أخرى على رأس قوة كافية لمقابلة العدو في ظروف متكافئة.

وان شئنا قول الحقيقة فان [پومپي] لم يقع في خطأ وقصر نظر خلال حروبه كلها كما وقع هنا. وان [قيصر] لم يستخدم ستراتيجاً ماكراً كما استخدم هنا، بجرّه القتال الى هذه المسافة البعيدة عن القوات البحرية.

كان على [پومپي] الآن ان يتخذ قراراً، وان برسم خطّة لنفسه تتفق مع امكاناته. فبعث بوكلائه الى المدن المجاورة وابحر بنفسه يجول في المدن الأخرى مناشداً المعونة بالمال والرجال لسفنه. إلاّ انه خشي أن يؤدي تقدم العدو السريع الى احباط كل مساعيه، فبدأ يفكر في ملجأ أمين يمنحه الوقت الكافي. وعقد مجلساً للتشاور في الأمر. واجمعت الآراء على أنه ما كان يوجد في ذلك الوقت اقليم روماني أمين ومضمون تماماً. واما بخصوص الممالك الاجنبية فقد كان رأى [پومپي] ان بلاد فارس هي الأصلح، لقبولهم والدفاع عنهم وهم في حالتهم

الحاضرة من الضعف. كما انها أفضل البلاد الأخرى بمقدرتها على تزويدهم بمهمات جديدة وتعزيزهم بقوات كبيرة وارتاى آخرون اللجوء الى الملك [يوبا Juba] في افريقيا، إلاّ أنّ [ثيوفانس] الليسبي، كان يرى من الخطل والجنون أغفال اللجوء الى مصر وهي لا تبعد عنهم أكثر من ثلاثة ايام بحراً. وقال انه لخير [لپومپي] أن يفيد من [پطليموس] وهو بعد ص بيٍّ يافع. مدين له بالصداقة والافضال التي اغدقها على ابيه. واستفظع أن يضع [پومپي] نفسه تحت رحمة البارثيين، ويثق بمثل هذا الشعب الذي لايفوقه شعب آخر في العالم خيانةً وغدساً، مفضلاً اياه على تجربته لرحمة الرومان ولعلاقات القربى الخاصّة. وهو الذي لو رضي بالمنزل الثانية فلربما حاز المنزلة الأولى واصبح زعيماً للبقية، أن يذهب الى [ارشاق Arsaces] لاجئاً ويضع نفسه تحت رحمته، في حين لم يقبل [كراسوس] اثناء حياته ان يذعن له؟ كيف يرضى بتعريض امرأته الصغيرة المنحدرة من أسرة [سكيپيوس Scipios] الى نزوات شعبٍ بربري لايحكم الاّ بشهوته وغلظته ويقيس عظمته بمقدرته على الاهانات والأذى. انها لم تتعرض لأي اذى ومهانة حتى الآن، وهذا حق، ولكن اليس من المحتمل ان تتعرض لذلك ان وقعت في ايدي من يقدر على فعله؟

قيل أن هذه المحاجّة الأخيرة وحدها هي التي حملت [پومپي] على نبذ فكرة اللجوء الى البارثيين والتوجه الى الفرات. هذا اذا سلّمنا بأن العناية الالهية لم تتدخل في الموضوع وانما كان القرار بتأثير من مشاورته ليس إلاّ.

ما أن اتخذ هذا القرار باللجوء الى مصر حتى انطلق من قبرص على ظهر بارجة [سلوقية] ومعه كورنيليا. في حين ابحر بقية اتباعه بعضهم بسفن حربية وبعضهم بسفن تجارية تواكب سفينته وتجري على مقربة منها. ولم يقع له حادث في الطريق. وعندما علم ان [پطليموس] الملك قد أقبل بجيشه الى مدينة [پيلوسيوم Pelusius] لقتال أخته، انحرف اليه وارسل رسولاً يعمله بوصوله ويطلب منه الحماية. كان [بطليموس] صبيّاً يافعاً لاقبل له بمعالجة القضية. وكان [پوثينوس Pothinus] يتولى الادارة كلّها. فدعا مجلس شورى من العظماء والرؤوساء الكبار هم في الحقيقة أعظم من شاء هو أن يرفعهم الى تلك المراكز.

وأمر كل واحدٍ منهم بأن يعرض رأيه حول قبول دخالة [پومپي] وانه الحق يقال لأمر يورث الأسى ويحزّ في النفس، ان يترك مصير [پومپي] الأكبر في يد [وثينوس] الخصيّ و[ثيودوروس] الخيوسيّ معلّم البلاغة المأجور و[أخيلاس Achillas] المصري. هؤلاء مع بقية الحجاب والخدم الوضعاء الذين تألف منهم المجلس، كانوا الرؤوساء، وزعماء القوم! و[پومپي] الذي وجد طلب الأمان من [قيصر] اهانة لشرفه، يضطر الآن وهو يلقي المرسى على مبعدة من

الساحل، الى انتظار قرار هذه العصبة!

الظاهر أن الآراء كانت متنافرة جدا. فكان رأي بعضهم أن يؤمر بالعودة من حيث أتى. وحبذ بعضهم قبوله والترحيب به. الاّ ان [ثيودوروس] حُبّاً في استعراض بلاغته وفصاحة راح يوضح المسألة بقوله:

- ان المرء لايمكن أن يأمن على نفسه باتخاذ اي من هذين القرارين، فلو نحن قبلناه بين ظهرانينا، فمن المؤكدان [قيصر] سيكون في صف اعدائنا. كما سيكون [پومپي] سيداً علينا. واذا صرفناه ولم نقبله فسنكون موضع سخطه الدائم بطردنا أياه طرداً خالياً من الكياسة في الوقت الذي سنجلب علينا غضب [قيصر] لتركه يفلت منا سالماً. فأفضل وسيلة للتخلص من المأزق والحالة هذه، هو أن نقبل وفادته، ثم نضع حداً لحياته. وبذلك سنفوز بالمخطوة عند [قيصر] ولن يكون ثم أيّ موجب للخوف من [پومپي] بعد القضاء عليه [وقيل انه ختم كلامه بالقول] «...لأن الميت لايعضُّ»!

وبالموافقة الى هذا الرأي، انيط تنفيذه باخيلاوس فأنطلق متوجهاً الى سفينة [پومپي] مع شركاء منهم [سمپتيميوس] وهو روماني كان يشغل منصب قائدٍ بأمرة [پومپي]، و[سالڤيوس] وهو ضابط آخر برتبة سنتوريون. يرافقهم ثلاثة أو اربعة من الخدم. وفي اثناء ذلك انتقل الاشراف والوجهاء الذين رافقوا [پومپي] من سفنهم الى سفينةٍ ليقفوا بالتدريج على نتائج مساعيهم. لكنهم بدأوا يشكون في الأمر من برودة الاستقبال ووضاعته، وبعد أن رأوا الطريقة التي استقبلوا بها ولم يكن ظاهرها كريماً أو مشرفاً أو بحسب ما كان [ثيوفانس] يأمل يتوقع [اذ لم يتقدم لاستقبال الوفد الاّ قلة من الرجال في قوارب صيدٍ] وانذروا [پومپي] بوجوب الاقلاع الى عرض البحر وهو ما يزال بعيداً عن متناول ايديهم. وفي تلك الاثناء دنا قارب المصريين ونهض [سپتيميسيوس] اولاً وحيّاً [پومپي] باللغة اللاتينية وبلقب الامبراطور. ثم اعقبه [اخيلاوس] وحياه باللغة الاغريقية طالباً منه ان ينزل الى قاربه معللاً طلبه، بأن الساحل ضحل جداً وان بارجة كبارجته تنوء بما تحمل قد يسوخ قاعها في الرمل. وشوهد في الوقت نفسه عدد من بوارج الملك ترفع رجالها الى ظهرها كما شاهدوا الساحل كله مكتظاً بالجنود فلو عدلوا عن رأيهم وهموا بالفرار لاستحال عليهم ذلك، كما أن أيّ شكٍّ يظهرونه، كان سيعطي القتلة حجة للاقدام على فعلتهم النكراء. وودّع [پومپي] زوجه [كورنيليا] وكانت تندب موته قبل أن يأتيه، وطلب من سنتورين في معيته ومن خادم معتوق يدعى [فيليب] وعبد اسمه [سكيثس Scuthes] أن يسبقاه الى النزول الي قارب الصيد القادم وفي الوقت الذي كان بعض نوتية اخيلاوس يمدون ايديهم اليه لمساعدته ادار

رأسه الى امرأته وابنه مردداً حكمة الشاعر سوفوكليس:

من يدخل باب طاغية مرةً صار عبداً وان كان من قبل حراً

تلك كانت آخر كلمات سمعها منه أصدقاؤه. ثم استقل القارب ولحظ أن مرافقته لم يوجهوا اليه كلمه لطفٍ وترحاب طوال المسافة الكبيرة التي كانت تفصل بين بارجته وبين الساحل منظر الى [سپتيميسيوس] ملياً وقال

- ما اراني مخطئاً في الظنّ بأنك كنت زميلاً من زملاء الجندية.

فلم يجبه بشيء، وانما أحنى رأسه، ولم يبد منه شيء من المجاملة أكثر من هذا. وواصلوا السير صامتين، ثم تناول [پومپي] كتيباً فيه خطاب باللغة الاغريقية أعده لقراءته امام [بطليموس] الملك، فانشغل باستذكاره. وعند الاقتراب من الساحل لم تعد [كورنيليا] تطيق صبراً هي واتباعه وانتعشت آمالهم وتوثبت قلوبهم فرحاً عندما رأوا أخيراً عدداً من رجال الحاشية الملكية تتقدم للترحيب به بمظهر يدل على التشريف والحفاوة... وفي الوقت نفسه مد [پومپي] يده ليعين [فيليب] الخادم على النهوض فسدد [سپتيميسيوس] اليه طعنة من الخلف وعاجله [اخيلاوس وسالڤيوس] بطعنتين من سيفيهما. فرفع [پومپي] رداءه بكلتا يديه وغطى به وجهه ولم يقل شيئاً ولم يأت بحركة، متحملاً الطعنات التي وجهت اليه بصمت ما خلا انة قصيرة. وهكذا انتهت حياته في اليوم التالي لذكرى ميلاده وله من العمر تسعة وخمسون عاماً.

وشاهدت [كورنيليا] ومرافقوها ما حصل، فأطلقت صرخة عالية سمعت من الساحل. ورفعت المراسي بسرعةٍ ونشرت القلوع، وساعدت ريح قوية هبت من الساحل انطلاقَهم الى عرض البحر، وكان المصريون يودون اللحاق بهم لكنهم ادركوا عقم المحاولة فعدلوا. وانشغلوا باحتزاز رأس [پومپي] ورموا بالجثة من القارب الى الساحل عارياً. ليشاهده كل من يدفعه الفضول لرؤية هذا المشهد الأليم وبقي [فيليب] بالقرب منه مراقباً، حتى شبعت اعين المتفرجين. فتقدم وغسل الجثمان بماء البحر اذ لم يكن ثم ماء آخر ثم لفه بقميص له وكفنه ثم بحث بين الرمال فوجد بضعة الواح خشبية متأكلة لقارب صيد، لم تكن كثيرة الاّ انها كانت كافية لاعداد محرقة جنائزية للجسد العاري الذي كان ناقصاً. وفيما كان [فيليب] منهمكا في جمع وتكديس هذه الالواح القديمة وترتيبها، دنا منه مواطن روماني متقدم في السن، كان في شبابه قد خاض عدة حروب تحت امرة [پومپي] وابتدره متسائلاً:

- ما اسم الرجل الذي يعدّ جنازة پومپي الأكبر؟

فرد عليه [فيليب] بأنه معتوق له. فقال الروماني:

- اذن، فلن تستأثر بهذا الشرف وحدك. ارجوك منك أن تسمح لي بمشاركتك في هذه الخدمة الطاهرة، كي لايلحقني الندم التام على تغربي في بلاد اجنبية. بل سيتاح لي على سبيل تعويضي عن كثير من الرزايا والمحن، سعادة لمس جسد [پومپي] بيدي، والقيام بالواجب الأخير لأعظم قائد بين الرومان.

على هذه الشاكلة تمت مراسيم احراق جثمان [پومپي]. وفي اليوم التالي وصل [لوشيوس لنتولوس] قادماً من قبرص دون ان يدري ما حصل. وبلغ الساحل نفسه. وعندما شاهد المحرقة وفيليب واقفاً بالقرب منها هتف قائلاً قبل ان يراه أحدٌ.

- من هو هذا الذي القي حتفه هنا ؟

واردف متنهداً بعد فترة صمت قصيرة.

- ربما كنت انت يا [پومپيوس ماگنوس]!

ثم نزل الى الساحل فقبض عليه في الحال وقتل.

تلك كانت نهاية [پومپي].

بعد زمن قصير، وصل قيصر الى تلك البلاد التي دنس ثراها بهذا العمل الدنيء. وعندما مثل امامه الرسول المصري الذي حمل له رأس [پومپي] ابتعد عنه متقززاً مشمئزاً كأنه يبتعد عن قاتل سفاك. ولما سلّموه ختم [پومپي] الذي كان قد حفر عليه رسم اسدٍ يحمل بمخلبه سيفاً، طفق يبكي وأمر [باخيلاوس وبثينوس] فقتلا. اما [بطليموس] الملك، فبعد ان هزم في معركة على ضفاف النيل هرب الى جهة مجهولة ولم يسمع عنه شيء بعدها. وهرب [ثيودوروس] استاذ البيان من مصر. واخطأته عدالة [قيصر] الا انه عاش في المنفى طريداً منبوذاً تتقاذفه الآفاق محتقراً مبغضاً من جميع الناس، الى ان عثر عليه [ماركوس بروتوس] بعد قتلة [قيصر] فاذاقته أشنع ميتة في اقليمه بآسيا. ونقل الريفي القريب من [ألبا].

أوجه المقارنة بين پومپي وآغيسيلاوس

بعد أن اجملنا تاريخ حياتي [آغيسيلاوس] و[پومپي] وجب علينا ان نقوم بمقارنتهما. ولأجل ذلك ينبغي لنا أن نلقي نظرةً خاطفة ثم نجمع معاً نقاط الخلاف الأساسية فيما بينهما وهي الآتية: اولاً، بلغ [پومپي] ما بلغه من الرفعة والمجد بأرفع الوسائل واشرفها. وكان مديناً بارتفاعه لمجهوداته الخاصّة وللعون الكبير الهام الذي دعم به سوللاً، فأنقذ به ايطاليا من طغاتها. في حين نرى [اغيسيلاوس] قد ظفر بالملك على ما يبدو - بطريقة لاتخلو من انتقاص للآلهة واستحقار للناس فبالنسبة للناس، أحتقرهم باستحصاله قراراً يقضي بكون [ليوتيخيدس] ابناً غير شرعي لأخيه، في حين انّ أخاه كان قد اعترف جهراً وعلى ملأ من الاشهاد ببنوته. واما بالنسبة للآلهة فقد انتقصهم حين دسّ عبارة من عنده في نصّ النبوّة، وبقصد التخلص من أثرها في العرج الذي يشكو منه.

والاختلاف الثاني. هو ان [پومپي] ظلّ أبداً يوقرّ سوللاً ويحترمه في اثناء حياته ولم ينقطع عن ذلك بعد موته. فقد فرض فرضاً ان يدفن جثمانه دفنة مشرفة رغم معارضة [ليپيدوس]. وأعطى بنته زوجاً [لفاوستوس] ابن [سوللاً]. فيما وجدنا [اغيسيلآوس] يتخلص بأتفه الحجج والمزاعم من [ليساندر] تخلصاً يستبان فيه التحقير والتأنيب. ونستدرك فنقول أن [سوللاً] كان مديناً [لپومپي] بأكثر مما كان [پومپي] مديناً لسوللاً في الواقع. في حين أن كل الفضل في نصب [اغيسيلاوس] ملكاً على سپارطا وقائداً عاماً للاغريق جميعاً كان يعود الى [ليساندر] وحده.

والاختلاف الجوهري الثالث. هو ان [پومپي] قام بانتهاك حرمة العدالة والحق في سائر ادوار حياته السياسية، ترويجاً لمصالح اقربائه وآخرين وبمساعٍ منهم وكان لمعظم اخطائه بعض صلة [بقيصر] في زوجه و[سكيپيو] حميّه فضلاً عما هو متعلق بشخصه إلاّ ان [اغيسيلاوس] رغبةً منه في ارضاء عاطفة حبّ ابنه، انقذ حياة [سفوردياس] باستخدام بعض

العنف وكان يستحق الموت للجرم الذي ارتكبه بحقّ الآثينيين. وعندما عكرّ [فيوبيداس] علاقات السلم مع [ثيبه] بسوء قصدٍ وبشكل غادر واضح مالأه وشجعه على عمله بحماسةٍ حُبًا بالعملية الظالمة نفسها. وبمختصر القول فإن الأذى الذي قيل أن [پومپي] قد أصاب به روما، بتحقيقه رغبات اصدقائه أو باهمال منه، يمكن القول أن [اغيسيلاوس] قد جرّه على سپارطة بسبب عناده وسوء طويته حينما اشعل نار الحرب [البيوسية]. زد على هذا، اذا وجب علينا أن نعزو ايّ جانبٍ من هذه الرزايا بخصوص [پومپي] الى نكد حظ شخصيّ. فمن المؤكد أن ليس ثم اي مبرر ليتوقع الرومان أمراً كهذا . في حين ان [اغيسيلاوس] لم يتح للقيديميين فرصة اجتناب ما توقعوه وما انذروا به وهو التحرز من «الملك الأعرج». اذ لو تعرض [ليوتخيدس] للاتهام عشرة آلاف مرة بأنه أجنبيّ دعيّ. فان نسل [اليوريپونتداي Eurypontidae] باق، وبامكانه ان يمنح سپارطا ملكا شرعياً سليم الساقين لو لم يزيف [ليساندر] ويطلي بانسجام المنطوق الأصلي للنبوءة ترويجاً لدعوى [اغيسيلاوس] بالعرش.

ويصعب علينا أن نجد مساوياً وقريناً لتلك المغالطة الكبرى والحيلة الماكرة التي استنبطها [اغيسيلاوس] أمام الحيرة العظمى التي استولت على الناس، بخصوص المعاملة التي يجب أن تفرض على جبناء موقعة[ليوكترا]. فقد أعلن بعد تلك الهزيمة المشؤومة بأن القوانين يجب ان تنام في هذا اليوم، وكان [پومپي] بعكس ذلك لايجد اي بأس في ابطال أو خرق القوانين التي وضعها هو نفسه ارضاءً لصديق من اصدقائه، حتى لكأنه يريد أظهار متانة صداقته وعظمة قوته في آن واحد. في حين حكمت الضرورة على [اغيسيلاوس] كما يبدو، بالاختيار بين نقض القانون واتلاف المواطنين فعمد الى استنباط حيلة بها أبقى على تلك القوانين وعطلّ سريانها على المواطنين في عين الوقت وارانـي مضطراً الى الإشادة هنا بالعمل الجليل الفاضل الذي ينطوي على طاعة للقانون لا تضاهي عندما أوقف الحرب في آسيا فور وصول الـ[سكيتالا] اليه، وقفل راجعاً الى بلاده. ولم يكن مثل [پومپي] الذي حافظ على مصالح بلاده بمجهودات حافظت في الوقت نفسه على مصلحته الخاصه ومقامه ليس إلاّ. فقد ظلّ [اغيسيلاوس] أميناً على مصلحة بلاده ولأجلها عاف كثيراً من السلطان والمجد مما لم ينله أحدٌ قبله أو بعده خلا الاسكندر الكبير.

علينا الآن أن ننتقل الى وجه آخر من المقارنة. لو جمعنا حملات [پومپي] العسكرية ووقائعه الحربيّة المشهورة وعدد انتصارات وعظمة البلاد التي اخضعها لحكمه والمعارك الفائقة العدّ التي كسبتها. فأنا مقتنع بأن [گزينفون] نفسه لن يضع انتصارات [اغيسيلاوس] في ميزان متكافيء معها. على أن [لگزينفون] ما يبرر منح [اغيسيلاوس] علاوة هي بمثابة

مكافأة له على تبريزه وامتيازه في أمور أخرى ليست ذات طابع حربي، مما يعطيه الحق في ان يتكلم ويكتب في تفضيل بطله وترجيحه على صنوه قدر ما يشاء. وفي اعتقادي أنا أن هناك فرقاً كبيراً بين الرجلين في تسامحهما واعتدالهما ازاء الاعداء، ففي الوقت الذي حاول [اغيسيلاوس] استعباد أهل [مثيبية] واستئصال شافة [المسينيين] [الاخيدون كانوا حلفاء بلاده القدماء، والأولى هي مسقط رأس اسرته المالكة، كان يفقد سپارطا نفسها كما كاد يفقد في الواقع حكمه على الاغريق. بينما ترى [پومپي] يقدم مدناً برمتها لأولئك القراصنة الذي ارادوا تغيير اسلوب حياتهم. كان بامكانه ايضاً ان يسوق [ديكران] ملك الأرمن أسيراً في موكب ظفره. لكنه اختار ان يجعله حليفاً للرومان بقوله «أن يوماً واحداً، هو أقلّ قيمة من مستقبل الزمن».

اما اذا كان التفوق بخصوص منصب القائد وفضائله، يجب ان يتحددّ بأعظم واهم عمل ومأثرة من أعمال الحرب ومآثرها عند القائد. فان ارتفاع [اغيسيلاوس] على [پومپي] في هذه الحالة لن يكون بالقليل. لأن [اغيسيلاوس] لم يترك وراءه مدينته وهي في حالة حصارٍ، يطبق عليها جيش قوامه سبعون ألفاً وليس في داخلها الاّ عدد قليل من المدافعين وهم الجنود المندحرون الذين تخلفوا من موقعة [ليوكترا]. لكن [پومپي] ترك مدينة روما خائفاً من زحف [قيصر] في الوقت الذي لم يكن [قيصر] قد أحتل من ايطاليا غير مدينة واحدة بثلّة من الجنود لاتزيد عن خمسة آلاف وثلاثمائة رجل، إمّا جبنا منه أمام هذه القلّة، واما على أقلّ تقدير بسبب اعتقاد خاطيء زائف عن وجود جنودأكثر من هذا. غادرها مع زوجه واولاده تاركاً بقية المواطنين وليس من يدافع عنهم، فرّ هارباً في حين كان عليه امّا أن يقاتل دفاعاً عن بلاده حتى يقهر، وامّا ان يرضخ لشروط فاتح هو ابن بلده وقريبه. غير انه سلّم السلطة كلها لعين الشخص الذي رفض أن يمدد له حكمه، وأبى بشكلٍ قاطع انه يسمح له بفترة ثانية كما تخلى عن المدينة حتى قال [ميتيلوس] وسائر الآخرين بأنهم أصبحوا لا أكثر من أسرى له.

ان مهام الجنرال الاساسيّة هي ارغام العدوّ على القتال عندما يجد نفسه الأقوى، واجتناب زجّ قواته في معركة عندما يجد نفسه الاضعف وهذه الميزة كانت بارزة في [اغيسيلاوس] على الدوام، وبها بقي لا يغلب. في حين كان [قيصر] الجانب الأضعف عند اشتباكه مع [پومپي]. فتحامى الخطر بنجاح. وكانت قوته ترتكن على الجيش البري لذلك دفعه الى تقرير مصير المعركة بتلك القوات فتمكن من وضع يده على كل ارزاق عدوّه وامواله، وسيطرته على البحر أيضاً وكلها كانت في يد عدوّه مرهي كفيلة بتحقيق النصر دون قتال بحدّ ذاتها. فما

يزعمون أنه اعذار [ليومبي] ودليل البراءة له، هو لجنرالٍ في مثل سنة ومقامه، عارٌ لايفوقه عارٌ، اذ لو سلمنا جدلاً بأن الصخب والضجيج والصياح قد تفقد قائد صغير الشأن مضاء عزمه وحضور بديهته، فيغدو مستضعفاً ويطير صوابه، وهو أمرٌ ليس بالعجيب، وليس بالخطأ الذي لا يغتفر، الاّ ان ما لايمكن التسامح فيه مطلقاً. وما لايمكن احتماله، هو خور عزيمة قائد مثل [پومپي] الأكبر، كان الرومان يعدون معسكره ملاذهم ووطنهم، وكانت ضبته مجلس شيوخ، مسمياً القناصل والپرايتورين وكل الحكام الآخرين الذين كانوا يديرون دفة الحكومة في روما باسماء، ليست أفضل من ثوار أو خونة. وكانوا يعلمون حق العلم أنهم لم يمارسوا القتال الاّ تحت امرته، ذلك الذي خاض كلّ حروبه بنفسه وبأمرة نفسه دون أن يشاركه أحدٌ في القيادة العليا، رأيته عند أقلّ استفزاز، كأن يسخر به [فاڤونيوس] و[ديمتيوس]، وخوفاً من أن يلحق باسمه اسم [أغا ممنون] تضعو نفسه امام تأثير هذين الاثنين فترغماه على المخاطر بكلّ الامبراطورية وبحرية روما، في رمية نردٍ واحدةٍ. لو كان يخشى على سمعته الحاضرة بهذه الدرجة، افما كان الأحرى به ان يحمي روما ولا يتركها وراءه؟ وعندما أعلن فضلاً عن ذلك - بأن انسحابه من ايطاليا انما هو مناورة على أسلوب [ثمستوكليس] فانه لم يخجل من تأخره الحذر في القتال قبل نشوب معركة [ثسالي]. إن ارادة السماء، لم تعين السهول الثرسالية ساحة ومرسحاً يتقرر فوقها النزاع على امبراطورية روما، كما لم يطلب متحدٍ للنزال حضوره الى تلك البقعة بالذات. معلناً بأنه إمّا أن يختار خوض المعركة وإمّا ان ينزل عما بين يديه للتحدي! هناك ميادين أخرى كثيرة، آلاف من المدن، بل رقعة الأرض كلها كانت تحت تصرفه وموضع اختياره، بحكم الافضلية التي أمنها له اسطوله وتفوقه البحري، لو اتبع خطى [ماكسيموس] و[ماريوس] و[لوكولوس]، بل حتى [اغيسيلاوس] نفسه الذي وقع تحت ضغط والحاح لا يقلّ عما تعرض له [پومپي] عندما كان محاصراً داخل [سپارطا] حين راح الثيبيون يستفزونه ويتحدونه ان استطاع الخروج للقتال دفاعاً عن اراضي [سپارطا]، كذلك كابد [اغيسيلاوس] في مصر العديد من الاتهامات والاهانات ووقع تحت شكٍّ عظيم من الملك المصري لأنه أشار عليه بأن يتحاشى القتال، متبعاً دائماً قراره الذي صمم عليه بعد التأمل الناضج. فحافظ على سلامة المصريين ضدّ ارادتهم! وانقذ سپارطا بعمله هذا من سقوطٍ محتمٍ وانتشلها من وضع يائس، فضلاً عن اقامة انصاب نصر في المدينة تخليداً لانتصاره على الثيبيين باتاحة الفرصة لبني قومه في تحقيق الغلبة عليهم لا بقيادتهم الى خارج الأسوار كما حاول عدوّه ارغامه لتدميرهم. ففاز [اغيسيلاوس] في الأخير بالثناء من عين أولئك الذين حاولوا ارغامه على القتال، بعد أن تبينوا كيف انقذهم. اما [پومپي] الذي كان الآخرون سبباً

في خطأه، فقد كان هدف اتهام أولئك الذين ضللته مشورتهم. الحق يقال أن فريقا يزعم بأن حميّه [سكيپيو] هو الذي خدعه. فقد أعتزم هذا أن يخفي الجانب الأكبر من الكنوز التي جلبها ختنه [پومپي] من آسيا ليستأثر بها لنفسه، فألّح عليه بالاستعجال في دخول المعركة متعللاً بشحّ المال وقرب نفاده. مع هذا، فلو سلمنا جدلاً بأن [پومپي] كان ضحية خداع. فإن اي شخصٍ في موضعه كان ينبغي عليه الاّ يتصرف هكذا، ما كان يجب عليه أن يسمح لهذه الخدعة التافهة بان تسبب مخاطرته بتلك الامبراطورية الجبارة.

من هذا كله نستطيع ان نكون لنا فكرة عن كلّ من [پومپي] و[اغيسيلاوس] بمقارنة سلوكهما ومآثرهما الحربية.

أمّا بخصوص رحلة كلّ منهما الى البلاد المصرية. فان [پومپي] الجيء الى التوجه نحوها فراراً، أما الثاني فقد قصدها جندياً مرتزقاً ولم تلجئه الضرورة، ولا اسباب مشرفة. فقد جند نفسه لخدمة شعب بربري لقاء أجرٍ أراد أن يستخدمه فيما بعد لشنّ حرب على الأغريق. ومن الجهة الأخرى فإن ما نتهم به المصريين باسم [پومپي] فقد وثق بهم پومپي فغدروا به وقتلوه. امّا [اغيسيلاوس]. فقد وثق بهم [پومپي] ثقتهم ثم تخلى عنهم وتحول الى معاونة الاعداء الذين كان قد جاؤوا به خصومهم لمساعدتهم في قهرهم.

١٩٧٠/٣/٢٢